

السيرة الباربارك

تأليف: رومولو جاييجوس
ترجمة: محمود علي مكي

المشروع القومي للترجمة

السِّيَرَةُ بَارِتَانِيَّة

تأليف:

رؤفولو جانيجوني

ترجمة الدكتور:

محمد علي مكي



الخطوط للفنان : حامد العويضي .

المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

DOÑA BARBARA

Rómulo Gallegos

ilustrado por : Alirio Palacios

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم المترجم

- ١ -

هذا العالم العريض - عالم أمريكا اللاتينية - ما زال جديداً مجهولاً بالنسبة لنا في العالم العربي ، فنحن لا نكاد نعرف عنه إلا القليل ، مع أنه كان ينبغي أن يكون أكثر ألفة لنا وأوثق صلة بنا من كثير من بلاد العالم ، وهذا من المفارقات التي ينبغي أن نعمل على تصحيح ما انقلب من الأوضاع فيها وتقويم المعوج ، ويشبه ذلك ما نلاحظه حول علاقتنا بإسبانيا ، فهي أقل بلاد أوروبا نصيباً من اهتمامنا ، مع أنها البلد الأوربي الوحيد الذي اشترك مع الأمة العربية في حقبة طويلة من التاريخ الحضاري الرائع استمرت على طول عشرة قرون ، وتأثر بثقافتنا العربية تأثراً ما زال محسوساً ماثلاً حتى اليوم . وقد كان المنطق الطبيعي يقتضي أن تتوثق علاقتنا بإسبانيا وبذلك العالم الكبير الذي انحدر من صلبها على صورة أقوى وأعمق مما هو قائم اليوم ، وأن نعرف عنهم أكثر مما نعرف ، وأن يعرفوا هم عنا أكثر مما يعرفون .

وقد اتصلت أمريكا اللاتينية بالحضارة العربية عن طريق تيارين كبيرين ولدا في ظروف تاريخية مختلفة كل الاختلاف ، وفصلت بينهما قرون عديدة .

أما الأول فقديم يرجع إلى تاريخ الكشف الإسباني نفسه في سنة ١٤٩٢ ، وقد كان من غريب المواقفات أن هذه السنة التي وصل فيها كريستوفر كولمبس (كريستوبل كولون بالإسبانية) إلى شواطئ جزر البحر الكاريبي هي نفسها التي سقطت فيها غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس في أيدي الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل ، وكأن اتفاق هذين الحدثين الكبيرين كان رمزاً له مدلوله : فالحضارة العربية الإسلامية التي ازدهرت في شبه جزيرة إيبيريا

طوال القرون الثمانية الماضية كان قد أدركها الهرم ، فعجزت عن مواصلة القيام بدورها ، وبدا كأنما استنفدت رسالتها الحضارية الكبرى باعتبارها المركز الثقافى الأعظم الذى تتلمذت أوربا عن طريقه على حضارة العرب والإسلام، ولم يكن ذلك بغريب؛ فالعالم العربى كله فى ذلك الوقت كان قد نصب معين حيويته فأسلم قياده إلى قوة جديدة فتية غربية عن العالم العربى ، وإن كان يجمعها الإسلام به ، هى الدولة التركية العثمانية ، هذا بينما كانت أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر قد تمثلت ما أخذته عن الحضارة العربية ، واستوعبت ماقدمته إليها ثقافة الإسلام فى كرم وسخاء طوال القرون الماضية ، فبدأت تقيم بناء نهضتها الحديثة ، كانت سنة ١٤٩٢ تاريخاً له دلالة الكبرى ، وكأن أبا عبد الله آخر سلاطين غرناطة وهو يقدم إلى الملكين الكاثوليكيين مفتاح المدينة فى الثانى من يناير من هذه السنة إنما كان يختم هذا الفصل المجيد الذى اضطلع به الإسلام فى تاريخ شبه الجزيرة خلال العصور الوسطى ، بل كأن العالم العربى كله كان فى ذلك الحفل الحزين المهيب يعلن انسحابه من الميدان وإسلام رسالة الحضارة إلى أوربا ، ولم تمض على ذلك التاريخ سبعة شهور حتى كانت سفن الاستكشاف الثلاثة التى يقودها كريستوبل كولون تخرج من ميناء شلوقه العربية (سان لوكر الإسبانية) متوجهة إلى العالم الجديد فى ٣ من أغسطس سنة ١٤٩٢ .

ولكن استسلام غرناطة وانهييار سلطان المسلمين السياسى لم يعنى نهاية الشعب العربى المسلم ، فقد خلف الإسلام فى شبه الجزيرة وفى شعوبها آثاراً مازالت باقية من دمائه وروحه ولغته وتقاليده وأوضاع حضارته ، بل إن الكشف عن شواطئ القارة الأمريكية لم يتم إلا بفضل خرائط عربية وملاحين مسلمين .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن نتصور كيف دخل كثير من آثار الحضارة العربية إلى القارة الجديدة عن طريق الفاتحين الإسبان ، فقد حملوا معهم كثيراً من العناصر العربية التى جرت فى دمائهم واستقرت فى نفوسهم خلال القرون الثمانية الماضية ، ونحن نعرف أن المسلمين تعرضوا خلال القرنين التاليين

لسقوط غرناطة لكثير من الاضطهاد الدينى ، وأرغمت جماعات كثيرة منهم على التنصر ، مما حمل الكثيرين منهم على الهجرة فراراً بدينهم إلى ما جاورهم من بلاد الإسلام ، ووجد بعضهم فى فتح العالم الجديد فرصة يهربون فيها بعقيدتهم من وطأة الاضطهاد ، فانتقل بالفعل عدد كبير من هؤلاء المسلمين المتظاهرين بالتنصر (الموريسكيين Los Moriscos) إلى القارة الأمريكية، وإن كانت محاكم التحقيق قد لاحقتهم هناك فلم يستطيعوا الجهر بعقيدتهم ، واضطروا إلى الاندماج فى المجتمع الجديد ، واندثر الإسلام بينهم كما اندثر من شبه الجزيرة نفسها ؛ فالعقيدة قد تكتم جيلاً أو جيلين ، ولكنها لاتلبث بعد ذلك أن تنسى وتنقرض .

هذا هو التيار الأول الذى دخلت معه العناصر العربية والإسلامية بصفة غير مباشرة إلى القارة الأمريكية الجديدة ، أما الثانى فإنه حدث بعد قرون طويلة؛ إذ لم يبدأ إلا فى أواخر القرن الماضى مع الهجرات العربية إلى أمريكا اللاتينية ، حيث استقرت جالياتهم واندمجت فى المجتمع الأمريكى ، وكان معظم المهاجرين العرب من بلاد الشام بمعناها الكبير : من سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، وهم يبلغون اليوم عدة ملايين، وتعتبر جالياتهم مفخرة للعالم العربى ، فهى من أكثر الجاليات الأجنبية نشاطاً وأعمقها إخلاصاً للمجتمع الجديد ، وإن كان أفرادها فى الوقت نفسه لم يقطعوا صلاتهم بوطنهم العربى الأم ، وكان لهم - وما زال - أثر كبير فى الحياة الأمريكية ، كما أن ثقافتنا نحن تأثرت بهم ؛ إذ أنتج لنا مفكروهم وأدباؤهم ألواناً جديدة حية من الأدب الجدير منا بمزيد من الاهتمام ، هو أدب المهجر ، وربما كان من أهم مايسر لهؤلاء المهاجرين العرب الإقامة فى جنات هذه القارة الفسيحة و«التأقلم» فيها ما جمع قديماً بين العرب من ناحية وإسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية من ناحية أخرى من روابط عريقة وثيقة . وهذا هو ما جعل أولئك العرب يرون أنفسهم فى بلاد، ليست غريبة كل الغرابة على بلادهم ، وإن اختلفت اللغة والبيئة والدين .

ومن أجل هذا ذكرنا أنه ينبغي أن تكون علاقتنا بهذا العالم الجديد أوثق مما هي عليه ، فهو عالم بعيد عنا من الناحية الجغرافية ، ولكنه قريب إلينا من نواح كثيرة ، حتى الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت على أمه في القرن الأخير من تاريخنا الحديث قريبة مما تعرضت أمنا له ، وحتى الرغبة في توحيد كلمته وجمع شمله أشبه بما نسعى إليه في عالمنا العربي من إزالة الحواجز والحدود المصطنعة لنصبح - كما كنا - أمة واحدة كبيرة .

ومع ذلك فإننا نعود إلى ما قلناه في أول هذا الكلام . لسنا نعرف عن هذا العالم ما يجب أن نعرف ، وقد حانت الساعة لكي نطلع على أحواله ونتفهم قضاياها ونعينه على التعرف علينا والاهتمام بمشاكلنا ، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالدراسة العلمية الجادة والبحث المنهجي القويم .

وإذا كنا قد بدأنا اليوم نولى أمريكا اللاتينية بعض اهتمامنا ولاسيما في ميداني السياسة والاقتصاد - وقد بذلت في هذه السبيل جهود طيبة سيكون لها أثر كبير في توثيق علاقتنا بهذه القارة - فإننا ما زلنا بعيدين حتى اليوم عن مد هذا الاهتمام إلى ميادين الثقافة والفكر ، وهذا أمر لا بد أن يأتي بمضى الوقت ؛ فصلاتنا بهذا العالم الواسع إنما ترجع إلى عدة سنوات مضت ، ولو أننا اهتمامنا منذ الآن بإعداد أجيال متخصصة في دراسات أمريكا اللاتينية لأمكن أن نصل خلال السنوات المقبلة إلى توثيق روابط التعاون والصداقة مع بلاد هذه القارة ، وهو أمر سيعود بكثير من الفوائد الجلية على العالمين العربي والأمريكي اللاتيني على السواء .

والنص الذي نقدمه إلى القارئ اليوم يعتبر من أبرز معالم أدب أمريكا الناطقة بالإسبانية ، ولعله أول أثر أدبي كامل يطلع عليه قراء العربية من النتاج الفكري لهذه القارة الفتية ، وقد عملت على أن أختاره من أدب الرواية الطويلة؛ إذ إن الأدب القصصي هو أصدق تصويراً للحياة ولاسيما في الأمم النامية التي تسعى جاهدة للحاق بموكب الحضارة ، وسيرى القارئ في هذه

الرواية تمثيلاً حياً صادقاً لا للحياة فى سهول فنزويلا فحسب ، بل لحياة القارة الأمريكية اللاتينية كلها بما فيها من عيوب وفضائل ، وبما تضطرب به نفوس أهلها من آلام ويختلج فيها من آمال ، سيشاهد القارئ فيها كثيراً من مظاهر التشابه الذى أشرنا إليه بين روح تلك البلاد ونفسية شعوبها والنماذج البشرية التى تضطرب فيها ، وبين ما لدينا نحن على الرغم من بعد المسافة التى تفصلنا عن تلك البلاد ، وهو ما نبهنا إلى أنه سيكون من أهم الدعائم التى يمكن أن يقوم عليها تعاوننا فى مختلف الميادين من أهل هذا العالم الفتى الجديد .

- ٢ -

مؤلف هذه الرواية كاتب وسياسى ومفكر له مكانة عظمى فى تاريخ الأدب والثقافة فى أمريكا اللاتينية ؛ وقد ولد « رومولو جاييجوس فريرى Rómulo Gallegos Freire » - وهذا هو اسمه - فى مدينة كاراكاس عاصمة جمهورية فنزويلا فى الثانى من أغسطس سنة ١٨٨٤ ، واتجه منذ صغره إلى دراسات اللاهوت حتى ينخرط فى سلك الرهبنة ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عن ذلك بعد موت أمه سنة ١٨٩٦ ، وأخيراً أنهى دراسته الثانوية فى سنة ١٩٠٣ ، والتحق بجامعة كاراكاس ، ولكنه لم يستطع إكمال دراسته بسبب قلة الموارد ، مما اضطره إلى العمل موظفاً بمصلحة البريد بين سنتى ١٩٠٦ و ١٩٠٨ ، ثم هجر هذه الوظيفة لكى يشتغل بالصحافة الأدبية ؛ فأسس فى سنة ١٩٠٩ مجلة فكرية أطلق عليها اسم « الفجر la Alborada » ، واشترك معه فى تحريرها أربعة من أصدقائه كانوا فى مثل سنه وحماسه لإصلاح مجتمع بلادهم وتحريره ، ولكن هذه المجلة انقطعت عن الصدور بعد فترة وجيزة ، واشتغل جاييجوس بالتعليم ، فعين مديراً للمعهد الاتحادى فى مدينة برشلونة عاصمة مقاطعة أنسواتيجى فى شمال شرق فنزويلا ، ثم وكيلاً لمعهد آخر استمر فيه حتى سنة ١٩٣٠ ، وواصل فى الوقت نفسه العمل فى الصحافة ،

فقد أصبح منذ ١٩٢٠ مديراً لتحرير مجلة « العالم الحاضر Actualidad » وبعد ذلك بستين أسس مجلة أخرى باسم « الرواية الأسبوعية La Novela Semanal » وكان خلال هذه المدة ينشر في تلك المجلات وغيرها مجموعات من القصص القصيرة أتاح لاسمه حظاً من الشهرة ، وكان من أهمها مجموعة تحمل اسم « المغامرون Los aventureros » (سنة ١٩١٣) .

وفي سنة ١٩٢٠ نشر أولى روايته الطويلة : « آخر سلالة سولار El último Solar » (التي عدل اسمها في الطبقات التالية إلى « رينالدو سولار Reinaldo Solar ») وقد وطدت هذه الرواية قدمه في عالم القصة الطويلة ، ثم أتبعها في سنة ١٩٢٥ برواية « المتسلقة La Trepadora » المعدودة من روائع إنتاجه القصصي .

وفي سنة ١٩٢٩ نشر رواية « السيدة باربارا Doña Bárbara » التي تعتبر قمة إنتاجه الأدبي كله ، وبها طار صيت رومولو جاييجوس في أنحاء القارة الأمريكية كلها ، وكان لنشرها أثر كبير في سيرة حياته ؛ إذ إن خوان فيشتي جومث Juan Vicente Gómez دكتاتور فنزويلا في ذلك الوقت أراد أن يعبر عن إعجابه بالرواية ومؤلفها فعرض عليه أن يعينه عضواً في مجلس الشيوخ عن مقاطعة أبوري Apure التي تدور في سهولها الرواية ، ولكن جاييجوس كان رجلاً ثائراً مطالباً بالإصلاح قبل كل شيء ، بل إن روايته هذه إنما كانت - إلى جانب اعتبارها أثراً أدبياً من الطراز الأول - صرخة تدعو إلى الإصلاح وتندد بالإقطاع والاستبداد ، وما كان مثل هذا الرجل ليقبل مثل تلك الرشوة من حاكم كان يعد من أسوأ من ابتليت بهم فنزويلا من الطغاة ، ولهذا فقد رفض جاييجوس ذلك المنصب ، ضارباً بفعله مثلاً عالياً في التمسك بالمبدأ والحرص على الكرامة ، ثم أثر أن ينفي نفسه عن بلاده ، فتوجه في سنة ١٩٣١ إلى نيويورك ، ولكن مقامه في الولايات المتحدة لم يطل ؛ إذ سرعان ما رحل إلى إسبانيا ، وهناك أقام عدة سنوات يعمل في مؤسسة تجارية ، وقد كانت السنوات الخمس التي قضاها رومولو جاييجوس في « الوطن الأم » من

أخصب سنى حياته وأكثرها إنتاجاً ؛ فقد نشر هناك روايته : « كانتا كلارو Cantaclaro » (سنة ١٩٣٤) ، ثم « كنايما Canaima » (سنة ١٩٣٥) ، وهما الروايتان اللتان تؤلفان مع « السيدة باربارا » الثالوث الروائى الذى يعتبر خير ما أنتجه هذا الأديب فى ميدان القصة .

وواصل رومولو جاييجوس فى منفاه كفاحه ضد النظام الدكتاتورى الفاسد الذى كان يمثله خوان فيشتى جومث ، حتى انتهى الأمر بسقوط الطاغية ، وحينئذ عاد إلى بلاده ، فلم يلبث أن عين وزيراً للتربية والتعليم فى سنة ١٩٣٦ فى ظل النظام السياسى الجديد ، كذلك انتخب عضواً فى المجلس النيابى خلال الفترة المنحصرة بين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، وخلال هذه الفترة نشر روايته « مسكين هذا الأسود Pobre negro » التى عالج فيها مشكلة التفرقة العنصرية فى أمريكا اللاتينية ، وقد استوحى فيها حياة الفلاحين الزوج فى حقول الكاكاو فى فنزويلا .

وفى سنة ١٩٤١ انتخب رئيساً لحزب « العمل الديمقراطى » ورئيساً للمجلس البلدى لمدينة كاراكاس ، وفى هذه الأثناء ألف روايته « على هذه الأرض نفسها Sobre la misma tierra » ، وحوادثها تدور فى حقول البترول فى ماراكيبو Maracaibo ، وهو يعالج فيها مشكلة البترول الذى نعرف كيف تسيطر عليه الولايات المتحدة حارمة شعب فنزويلا من هذا المورد الحيوى الذى يعتبر من أهم موارد ثروتها .

وفى سنة ١٩٤٧ تقدم رومولو جاييجوس إلى انتخابات رئاسة الجمهورية ، ففاز بالرئاسة بأغلبية ٧٢ ٪ من مجموع الأصوات ، ولكن حكمه لم يدم طويلاً على الرغم من شعبيته ومن محاولته تطبيق تلك المبادئ المثالية التى كان ينادى بها دائماً من أجل إصلاح أوضاع بلده ، ومن يدرى ؟ ربما كان ذلك نفسه هو الذى قذف بهذا الرجل المخلص عن كرسى الرئاسة ! إذ لم ترض عنه القوى السياسية الرجعية ولا قوى الاستعمار الأجنبى التى نعرف مدى تدخلها فى

شئون أمريكا اللاتينية ومحاولتها عرقلة كل إصلاح ثورى فيها ، لم يطل حكم هذا المناضل البطل ؛ إذ سرعان ما دبّرت له مؤامرة عسكرية من ذلك النوع الذى اعتدناه فى أمريكا اللاتينية كلما ضاقت بالأحرار فيها قوى الرجعية والاستعمار الأمريكى ، فلم يلبث الانقلاب المدبر أن أطاح بذلك البطل فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، فاضطره إلى مغادرة وطنه من جديد ، وكانت رحلته هذه المرة إلى المكسيك ثم إلى كوبا ، وهناك وضع روايته « حزمة من القش فى مهب الريح La brizna de paja en el viento » (سنة ١٩٥٢) ، وفيها تصوير لكفاح نفر من الجامعيين الثائرين على حكم دكتاتور كوبا فى ذلك الوقت : ماتشادو Machado .

وتعتبر هذه الرواية من آخر ما أنتجه رومولو جاييجوس ، الذى عاد بعد ذلك إلى بلاده لينعم بشئ من القرار والسكينة بعد أن قضى حياته كلها فى كفاح مستمر متواصل لا يعرف الهدوء ولا الراحة ، وهو ما يزال مقيماً فى كاراكاس موضعاً لتكريم كل شعوب أمريكا اللاتينية التى تنظر إليه فى إجلال يقارب التقديس .

وقد انتاب رومولو جاييجوس فى أوائل هذه السنة مرض شديد ، فهو الآن قد تجاوز الثمانين من عمره ، حتى كاد يشفى على الهلاك ، ولكنه تماثل للشفاء وإن كانت صحته قد ضعفت كثيراً فى الفترة الأخيرة(*) .

(*) كتبت هذه السطور حينما كان الأديب الكبير لا يزال حياً ، ثم بلغنا نبأ وفاته بعد ذلك بقليل فى الخامس من أبريل سنة ١٩٦٩ وهو فى الخامسة والثمانين من عمره .

لا تتسع هذه العجالة للحديث عن إنتاج رومولو جاييجوس الخصب في عالم الرواية ولا عن القيمة الفنية لروايته « السيدة باربارا » التي تعتبر قمة إنتاجه القصصى ، على أنه يجب علينا - قبل أن نلمح إلى شئ من ذلك - أن نشير إشارة سريعة إلى فن الرواية في أمريكا اللاتينية^(*).

فقد مر الفن الروائى في أمريكا اللاتينية بمراحل مختلفة ومدارس متعددة منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم ، عرف أولا الاتجاه الرومانسى الذى كان غالباً على أوربا أيضاً فى أوائل القرن الماضى ، ثم بدأ يتجه إلى الواقعية ، منذ أواخر ذلك القرن ، وبالف بعض الروائيين والقصاص فى الواقعية ، فارتفعوا بها إلى ما يعرف فى تاريخ الأدب باسم « الطبيعية أو مافوق الواقعية » ، وهو تسجيل كل دقيقة من دقائق البيئة التى تجرى فيها أحداث الرواية ، مهما كانت مبتذلة أو غير موحية فى الظاهر بأى تعبير أدبى أو فنى .

وفى سنة ١٨٨٨ أصدر الشاعر روبن داريو Ruben Dario (وأصله من نيكاراغوا Nicaragua فى أمريكا الوسطى) ديوانه « أزرق Azul » الذى يعد ثورة فى عالم الآداب الإسبانية ؛ إذ إنه رسم به اتجاهاً يعرف فى تاريخ هذه الآداب باسم « الاتجاه الحديث » ، وأهم ما يميزه هو السمو بالثر إلى قمة قرية من التعبير الشعرى ، بعد أن كان الاتجاهان الواقعى والطبيعى قد وصلا بالتعبير الأدبى إلى ابتذال لم يكن يستطيع البقاء بمنجى منه إلا الفنان المقتدر .

وظهرت بعد ذلك اتجاهات أخرى فى أدب أمريكا اللاتينية فى أوائل القرن العشرين ، ولا سيما فى الفترة المنحصرة بين الحربين العالميتين ، أهمها الاتجاه

(*) أفردنا لهذا الموضوع مقالا مفصلا تحت عنوان : « الفن القصصى فى أدب أمريكا اللاتينية » فى « المجلة » ، العدد ٩٢ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ٧٢ - ٨٧ .

المعروف باسم « الكريويو Criollo » ، وهو لفظ يقصد به الاتجاه القومي المميز لأمريكا اللاتينية . وكانت أنظار أدباء هذه القارة قبل ذلك تتجه دائماً إلى أوروبا والولايات المتحدة على أنهما مصدر الحضارة والثقافة ، وحاملتا مشعل النور والتقدم ، ولكن الحرب العالمية الأولى خيبت آمال شعوب أمريكا اللاتينية في أوروبا ، ثم أتت الأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة سنة ١٩٢٩ ، وكشفت هذه « الأخت الكبرى » عن مطامعها في نصف القارة الجنوبي ، فأقبلت تتدخل في شئون جمهوريات أمريكا اللاتينية تدخلا سافراً وتعتدى على حريتها اعتداءً صارخاً ما زلنا نراه حتى اليوم . فأدى كل ذلك إلى انهيار ما بقي من مكانة الولايات المتحدة في تلك البلاد التي كانت من قبل تنظر إليها على أنها حامية الحضارة ورمز التقدم . ومن هنا بدأ أدباء أمريكا اللاتينية في البحث - في صميم أرضهم - عن القيم التي نشدوها خارج حدودهم فلم يجدوها . ونبهت تلك الصدمات فيهم وعياً قومياً جديداً هو الذي عرف باسم « الكريويو » ، أي النابع من الشعوب الأمريكية اللاتينية نفسها ، وهذا الاتجاه هو الذي مازال غالباً على أدب هذه البلاد حتى اليوم .

ولو أننا تأملنا أدب رومولو جاييجوس ، ولا سيما روايته التي نقدمها بهذا الحديث ، لوجدنا فيها مزيجاً عبقرياً رائعاً من خصائص كل تلك المذاهب والاتجاهات ، مزيجاً قدرت حسابه يد فنان مقتدر مبدع ، فجاءت قطعة فنية مكتملة : نحن نرى فيها الرومانسية بغير تهويل الرومانسين ومبالغاتهم وتعابيرهم الطنانة المتكلفة ، ونرى الواقعية دون أن تكون مجرد تسجيل وصفى بارد ، ونجد الطبيعية ولكن بغير إسفاف ولا ابتذال ، ونحس بالاعتداد بالقومية الأمريكية ، إلا أنه اعتداد بعيد عن التظاهر الأجوف أو التمدح الرخيص ، وأخيراً نقرأ فيها الأسلوب الرفيع الذي يسمو بنشرها حقاً إلى مستوى قد لا يصل إليه التعبير الشعري نفسه .

ورومولو جاييجوس كاتب موضوعي هادف ، هو أديب ليس بمعزل عن الحياة ، لا يعيش في برج عاجي على هامش مشكلات بلاده بل هو يصور لنا مجتمع بلاده فنزويلا بكل ما فيه من فضائل وعيوب ، وهو مصلح سياسي

اجتماعى ، ولكنه عرف كيف يخرج لنا فى هذه الرواية أدباً بعيداً عن خطابة الساسة بما فيها من بلاغية متكلفة ، أو أبحاث علماء الاجتماع بما يسودها من جفاف وثقل ، وهو أدب محض يستطيع القارئ مع ذلك أن يتبين فيه آراء الأديب ومثله فيما بين السطور .

وتدور الرواية حول الكفاح الذى يضطلع به سانتوس لوئاردو الشاب الجامعى القادم من المدينة إلى سهول نهري أبورى Apure والأراوكا El Arauca ، ضد عوامل الفساد الممثلة فى تلك السيطرة الإقطاعية التى تبسطها على السهول امرأة غامضة رهيبة هى السيدة باربارا ، تعاونها فى ذلك مجموعة متنافرة من الرجال لم تجمع بينهم إلا نوازع الشر وفنون الإجرام .

ولكن رومولو جاييجوس متفائل يؤمن بغلبة الخير على الشر ، وبأن الحق لا بد أن ينتصر فى النهاية ؛ فنحن نرى أنه على الرغم من كل ما اعترض طريق سانتوس لوئاردو من عقبات فإنه قد أدرك النصر أخيراً : اختفت « إقطاعية حوض الأراوكا » ، وها هو ذا الأمريكى المغامر يعلق بندقيته على كتفه ويعلن أنه ذاهب ، و « الأرض التى كانت كلها طرقاً لا يحصيها العد قد خُطت فيها الآن طريق واحدة مستقيمة .. إلى المستقبل » .

هذه هى الفكرة الأيديولوجية محور الرواية ، يوحى بها الكاتب فى رفق ومهارة ، وكأنه يرسم بها برنامجاً شاملاً للإصلاح فى بلاده ، ولكنه برنامج يستخلصه القارئ فى أثناء الكلام دون أن يلح عليه بصفة مباشرة ، ولو فعل لبعدت بالرواية عن ميدان الأدب المحض ، ومن هنا كان اقتدار رومولو جاييجوس ، فهو يصور الحقائق الاجتماعية والإنسانية تصويراً فنياً بديعاً على أساس من الملاحظة الدقيقة الثابتة ، وقد يختلف النقاد فى وجهات النظر التى يحكمون بها على روايته ، ولكنهم يجمعون مع ذلك على شئ واحد : هى أنها قطعة فنية رائعة .

ونتأمل بعد ذلك وصف البيئة لدى رومولو جاييجوس ، فنرى كيف لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى سهول فنزويلا التى تدور فيها أحداث الرواية إلا ومثلها لنا كأننا نراها رأى العين : نحن نجد وصف تلك السهول العريضة التى جمعت بين الجمال والرغبة والتى تتعايش فى جنباتها الحياة الرائعة الجذابة والموت الهائل الشنيع ، نرى هذه المروج الفسيحة الموحشة التى لا يحدّها البصر، تموج فيها قطعان الثيران والخيول البرية الطليقة التى لم تستأنس بعد .

ونحن نرى بعد ذلك حياة رعاة السهول فى عملهم الشاق ومجاولاتهم اليومية للثيران أو استئناسهم للخيل ، وفى أوقات فراغهم وفى سهراتهم ولهوهم ، وتسمع إلى أحاديثهم ونواديرهم ، ونطلع على خرافاتهم وأوهامهم وعقائدهم ، وغير ذلك من ألوان حياتهم .

كل هذا صوره لنا رومولو جاييجوس كأننا نعيش معه ومع أبطال روايته هذه الحياة ، ونضطرب معهم كما يضطربون فيها ساعة بساعة ، ونحن نحس معه بجمال هذه الحياة البدائية ، ويأثر تلك البيئة الخشنة القوية الرهيبة على الناس ، حتى إننا نجد فى شخصيات الرواية مرآة تعكس لنا صورة السهول بكل ما فيها من خير وشر .

إننا نطالع أولاً شخصية بطلة الرواية : السيدة باربارا ... « صائدة الرجال »، وليلة هذه الحياة المتوحشة وضحيّتها ، امرأة جنت عليها قسوة الرجال وهى بعد فى غضاضة الصبا ، فإذا بها تتحول إلى مخلوق غريب رهيب لم يعد له فى الحياة إلا هدف واحد : هو إذلال الرجل والانتقام منه ... أصبحت مزيجاً مضطرباً من الغريزة الطاغية والإيمان بالخرافة والشعوذة والشراسة إلى المال والقسوة المريرة الناضجة بالشر . إن « إقطاعية حوض الأراوكا » هى التى تمثل

لنا كل ما تعانيه شعوب أمريكا اللاتينية من المعوقات فى طريق الحضارة ، نرى ذلك خلال صراعها العنيف المرير مع سانتوس لوثاردو ، الرجل الوحيد الذى لم تداخل نفسه الرغبة فيها ولا الخوف منها .

ومع ذلك فإن السيدة باربارا ليست شراً محضاً خالصاً ، فقد كان يقبع فى أعماق نفسها المظلمة ركن صغير طاهر ، هو ذكرى حب مر على روحها مرور الطيف، حب كان من الممكن أن يحولها إلى امرأة طيبة لو لم تخنقه فى المهد قسوة أولئك القراصنة الذين كانت باربارا تشاركهم حياة الوحشية الدامية التى كانوا يجبرونها وهم على ظهر قارب يشق بهم صفحة الأنهار العريضة التى تكتنفها الغابات ، ولكن ذكرى هذا الحب الصغير الخاطف ، الكامنة فى حطام روح باربارا ، هى التى سيقدر لها فى النهاية أن ترد إليها عاطفة الأمومة بعد أن كانت قد خمدت فى نفسها ، وهى التى ستطفى نـار الوحشية المتلظية فى دماغها .

ويرى بعض النقاد أن رومولو جاييجوس استلهم شخصية السيدة باربارا من حياة امرأة كانت تدعى فرنسيسكا فاثكث Francisca Vázquez وكانت إقطاعية اشتهرت فى حوض الأراوكا بكثير من الصفات التى نراها فى شخصية باربارا ، ولعل هذا مما يفسر لنا تلك الواقعية الحية التى تتسم بها هذه الشخصية، حتى إنها تعتبر من أبداع النماذج الأدبية التى خلقها خيال أديب .

وغريم السيدة باربارا فى هذا الصراع العنيف هو سانتوس لوثاردو ، ذلك المحامى الشاب الذى يعود إلى أرضه بعد غياب طويل وهو عازم فى أول الأمر على هجرها وبيعها وتجنب ما يربطه بتلك الأرض من علاقة لا تورث إلا المتاعب والمشكلات ، ولكن ما يسمعه عن السيدة باربارا وما يراه من جبروتها وطغيانها يذكى فى نفسه جذوة الرجولة والكفاح ، ويفتح عينيه على مدى ما يمكن أن تبلغه هذه الأرض وساكنوها من تقدم وحضارة لو أن القانون فرض فيها سلطانه .

وهو مع ذلك ليس كأبطال القصص الرومانسية مثلاً مفتعلاً متكلفاً للخير والفضائل كلها ، بل هو بشر نرى فى الرواية فضائله وعيوبه ، فهو يوشك أن يتردى فى هوة العنف والقسوة التى اجتهد فى أول الأمر فى استئصال جراثيمها من نفسه ومن نفوس أتباعه ، ولا ينقذه من ذلك إلا أولئك المخلصون من أمثال أنتونيو ساندوفال الذين تهذبت أرواحهم وتطهرت قلوبهم بفضل هو نفسه .

وماريسيلاً نموذج طيب لما يمثله العمل الحضارى القائم على التربية الصحيحة فى تحويل هذه المخلوقة الجميلة المتوحشة إلى امرأة طيبة صالحة . إنها قبل كل شىء ثمرة ارتباط غير شرعى بين رجل ذهب عقله وانحطت أخلاقه وامرأة مشثومة خبيثة . هى ساذجة بسيطة حقاً كالطبيعة ، ولكن فيها ما يشير القلق والتوجس تماماً مثلما يكمن فى مظاهر الطبيعة الهائلة الرهيبة . صحيح أنها استجابت لجهود سانتوس فى تهذيبها وتربيتها ، ولكنها تبدو كما لو كان معين رقة العاطفة وحنان المشاعر قد نصب فى أعماق روحها . وسانتوس يلاحظ ذلك فى معاملتها لأبيها ، تلك المعاملة التى كانت تخلو من كل ما يمكن أن يشف عن رقة أو برٍّ حقيقى خالص . ولكن عودة الفتاة مع أبيها إلى مرج النخيل ووقوعهما من جديد تحت رحمة الأمريكى المغامر « مستر دينجر » ينه فى نفسها شعوراً جديداً لم تعرفه من قبل : إن معاناة الألم تفجر فى روحها ينبوع الرقة والبر ، وتلقى الضياء على ذلك الركن الذى كان ما يزال غارقاً فى الظلمات من أركان نفسها .

ومستر دينجر شخصية جديدة بأن نقف عندها وقفة قصيرة ، فهى التى تمثل فى الرواية رمزاً للاستعمار الأمريكى الذى يسيطر على أمريكا اللاتينية ، ويحول بينها وبين كل تقدم ورخاء . وقد أبدع رومولو جاييجوس رسم شخصية هذا المغامر الأمريكى « الرجل الذى لا وطن له » . إنه صائد نمور وتماسيح قدم إلى هذه الأرض التى يسكنها قوم هم فى نظره أدنى منه فى درجات البشرية ؛ لأنهم لم يكونوا مثله شقر الشعور زرق العيون ، ولكن الناس هناك فى طيبة وسذاجة يفتحون له كل الأبواب ، ويقبلون عليه منتظرين

أنهار الدولارات التي كانوا يأملون أن تتفجر على يديه في تلك السهول .
إلا أن الأمريكي الأفاق لم يفعل أكثر من أنه أقام مسكنه في أرض لم يستأذن على أهلها ، ثم تحالف مع السيدة باربارا تحالف مصلحة .. تمامًا كما نرى من تحالف السلطات الإقطاعية الحاكمة في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية مع الاستعمار الأمريكي . وهو لا يفتأ يرسل إلى لورنثو باركيرو زجاجات البراندى والخمر الرخيصة من أجل تفتيت إرادته والقضاء على البقية الباقية من شخصيته ...
تمامًا كما نرى في كثير من برامج « المعونة » الأمريكية التي « تغدقها » الولايات المتحدة على نفر من ساسة أمريكا اللاتينية الدائرين في فلكها . ولا يمضى قليل حتى يعتبر مستر دينجر نفسه مالكا للأرض التي احتلها ، ذا « حقوق » فيها لا تقبل مناقشة . وكل هذا شيء لا نحتاج إلى أن نضرب عليه أمثلة حية من واقع أمريكا اللاتينية اليوم في علاقاتها « بالأخت الكبرى » التي تجاورها في الشمال .

ويقدم لنا رومولو جاييجوس صورة للحكومات الفاسدة التي تحكم كثيرًا من شعوب القارة : لنر مثلاً شخصية السيد بير ناليتي الذي يطلق عليه مرء وسوه لقب الجنرال تطوعًا وملقًا ، إنه ليس إلا قاطع طريق أبلغه الفساد المنتشر هناك إلى منصب الحاكم المدني للإقليم ، وهو رجل فظ مستبد بطبعه لا يجد بأسًا في قبول الرشوة من السيدة باربارا وصديقها مستر دينجر ، وهو حاكم بأمره لا يقبل أن تكون آراؤه محلًا لأي اعتراض بل مناقشة ، وهو يجرى العدالة على صورة غريبة يطلق هو عليها تعبير « وضع النقط على الألفات » ؛ إذ إنه إذا عرضت قضية فإنه ينزل إلى الشارع ، فيسأل ويتحرى عمن هو المحق ومن المخطئ - هكذا يقول - ثم يأتى إلى مكتب قاضى المنطقة، فيقول للسيد الجالس إليه: إن المحق هو فلان ، فأصدر الحكم على الفور في صالحه !

هكذا يطبق العدالة هؤلاء الحكام المدنيون الذين عرض لنا رومولو جاييجوس صورة لهم في سخرية لاذعة مريرة .

وللسيد بير ناليتى مرءوس هو أحياناً سكرتير له ، فإذا غضب عليه عينه « قاضياً » ... هكذا بجرة قلم ! وموخيكتا هذا نموذج طريف للبيروقراطية فى أمريكا اللاتينية . إنه شاب ترك كلية الحقوق بعد أن أمضى فيها سنة واحدة ، وهو يعمل موظفاً فى الحكم المدنى ويدير فى الوقت نفسه مشرباً متواضعاً . إنه صورة لهؤلاء الموظفين الصغار المساكين الذين يصب عليهم رؤساؤهم من أمثال بيرناليتى ألواناً من الإذلال والإهانة كلما حاولوا أن يدافعوا عن حق أو يهرعوا لنصرة مظلوم ، فالحق أن الرجل طيب خير ، ولكنه عاجز مستضعف لا يملك أمام رئيسه الطاغية إلا الخنوع والملق ، بل إننا نراه لا يتورع عن التصريح بأنه لا يباشر عمله فى « المحكمة » ليقضى بعدل أو ليرد حقاً إلى أهله ، بل ليهيئ لأبنائه ما يسد فراغ بطونهم من الخبز ؛ إذ إن ما يأتية من دخل المشرب لا يكفى لسد ذلك الفراغ .

و « محكمة » موخيكتا نموذج مبك مضحك لفساد الإدارات ، فهى ليست إلا قاعة قديمة متهالكة البناء قذرة ، لها باب بلا مفتاح ولا مزلاج ، تعلو كراسيها طبقة كثيفة من الغبار ، مسقوفة بالخصوص والسعف ، وفى ركن من أركانها استقرت دجاجة قد حضنت بيضها ورقدت عليه فى هدوء ! ...

إن رومولو جاييجوس يصور كل هذا من عيوب بلاده فى صراحة قاسية وسخرية جارحة ، لا للغض من شأن بلده بطبيعة الحال ، بل تحذوبه نوازع الإخلاص لهذا البلد والولاء له . ومن واجبنا أن نقدر هذه النزاهة فى تصوير تلك العيوب على النحو الفنى الرائع الذى نراه فى الرواية . فهو إذ ينتقد إنما يسعى إلى مد إصبع الاتهام وإلى بيان طريق الخلاص . هذه هى مهمة الأدب الهادف حقيقة ، وتلك هى رسالة الأديب الذى يشعر بأن لبلده عليه ديناً يقتضى الأداء .

ولورنشوباركىرو نموذج بشرى تتركز فى صورته مأساة رهيبة : مأساة الشاب الجامعى المثقف الذى تختلج فى نفسه نزعات الإصلاح ، ولكن حياته تتعرض لأزميتين لا تلبثان أن تنحدرا بروحه إلى درك من الحيوانية ، يقضى على

كل ما كان معقوداً عليه من آمال : الأولى مصرع أبيه على أيدي أسرة أخواله ،
وحيثئذ ترسل إليه أمه ليأخذ بالثأر ... والاقتصاص باليد دون انتظار لحكم الله
أو العدالة هو شر ما يميز تلك البيئة البدائية القبلية التي تعتر بالرجولة اعتزازاً
ينحرف بها إلى الوحشية . أما الأزمة الثانية فهي لقاءه بباربارا ووقوعه في
شباك غرامها . ونحن نرى في وصف المراحل التي مرت بها حياة لورنشو
باركيرو كما يصورها لنا رومولو جاييجوس مأساة هذا الشاب ، الذي تحول
إلى حطام رجل بسبب ظروف هذه البيئة التي تجمع بين جمال الفطرة وقسوة
الطبيعة التي لم تهذبها بعد يد الإنسان المتحضر . ولعل الصفحات التي كتبها
جاييجوس في تحليل شخصية هذا الرجل من أجمل ما جادت به يراع كاتب
وأوقعه تأثيراً في النفس .

وفي الرواية بعد ذلك نماذج أخرى أبدع الكاتب رسمها : « باخاروتى »
ذلك التابع المخلص الأمين ذو الأحاديث الغريبة المرحمة بما فيها من مبالغات
وأكاذيب ، وهو مع ذلك حينما يجد الجد رجل كامل المروءة حق الرجولة ،
و « خوان برمييتو » الأبله المعتوه صاحب النوادر المأثورة . إنه « ترمومتر » حى
لغرائز السيدة باربارا ، فهو مقبل على أوعيته يملؤها بتلك السوائل الغريبة لكى
تشرب منها « طيور الشؤم » ، وهى رموز لما كان يضطرب فى نفس سيدته من
نزعات الشر . وملكيداس جامارا « الساحر » بما استقر فى نفسه من خبث يكمن
تحت ظاهر ناعم لزج ...

ويطول الأمر لو تتبعنا شخصيات الرواية بالبحث أو التحليل . فلنكتف
بهذا القدر ولنندع للقارئ تأمل هذه الشخصيات التى عكس فيها الكاتب حياة
قارته كلها وما يضطرب فيها من أنواع البشر .

وقد ترجمت هذه الرواية إلى معظم لغات العالم ، ولقيت من عناية العلماء والباحثين ما لم يلقه أى إنتاج فنى آخر لأديب من أمريكا اللاتينية ، وعكف عليها الدارسون من بلاد القارة وفى الخارج حيث تعتبر من أعظم الأعمال الأدبية على المستوى العالمى .

كذلك خرجت قصة السيدة باربارا إلى السينما منذ عدة سنوات . ويجرى إعدادها من جديد لرواية سينمائية تضطلع فيها بدور السيدة باربارا الممثلة المكسيكية القديرة ماريا فيلكس Maria Félix ، وستضافر جهود الفنانين فى إسبانيا وفنزويلا وعدد من بلاد أمريكا اللاتينية الأخرى لهذه « الطبعة الجديدة » من تلك الرواية التى يتنبأ لها الجميع بنجاح عظيم (*) .

وقد حرصت فى ترجمة النص على التزام الدقة فيه والمحافظة عليه بقدر ما وسعت معرفتى ، ولا أكتف أن ذلك كلفنى جهداً كبيراً ، ولا سيما فى ترجمة التعبيرات التى تتميز بها إسبانية أمريكا اللاتينية عامة وفنزويلا بوجه خاص ، مما لم تذكره معاجم اللغة الإسبانية التى يصدرها المجمع اللغوى الملكى فى مدريد .

وأنا أنتهز هذه الفرصة لى أوجه خالص شكرى على المعونة الكريمة التى لقيتها من الأدبية الكولومبية السيدة مريم إستير أرانجو دى ساليناس فى أثناء قيامى بالترجمة من توضيح بعض ما غمض على من عبارات الرواية .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت إلى خدمة قراء العربية إذ أقدم إليهم هذا الجهد المتواضع ، مطلعاً إياهم على هذه الصفحة البديعة من أدب أمريكا اللاتينية . وبالله الاستعانة ومنه التوفيق .

محمود على مكى

(*) تم بالفعل إنتاج هذا الفيلم ببطولة ماريا فيلكس ، وحظى بما كان يتوقع له من نجاح عظيم .

ثبت بالمراجع

التي تناولت الكاتب الفنزويلي رومولو جاييجوس
وانشأه الأدبي بالدراسة والتحليل

في هذه القائمة سنورد عناوين أهم البحوث التي كتبت عن رومولو جاييجوس ومظانها .

أما في المكتبة العربية فلا يعرف عنه إلا بعض بحوث سبق أن نشرتها في بعض المجلات الأدبية أذكر منها :

« رد اعتبار » (قصة قصيرة بقلم رومولو جاييجوس) في « المجلة » العدد ٨٣ - نوفمبر سنة ١٩٦٣ ص ٧٥ - ٨١ .

« الفن القصصي في أدب أمريكا اللاتينية » (دراسة عامة) في « المجلة » العدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ص ٧٢ - ٨٧ (وقد أفردت بعض فقرات هذا المقال للحديث عن رومولو جاييجوس - ص ٨٥ - ٨٦)

« كناية » (عرض وتلخيص لهذه الرواية) في مجلة « المعرفة » التي تصدر في دمشق ، عدد أبريل سنة ١٩٦٤ .

وفيما يلي بيان بالمراجع الأوربية والأمريكية :

R. Angarita Arvelo: Historia y critica de la novela en Venezuela, Berlin, 1938.

(موضوع هذا الكتاب : تاريخ نقدي لفن الرواية في فنزويلا)

Mariano Picón - Salas : Formación y proceso de la literatura venezolana, Caracas, 1940.

(نشأة الأدب الفنزويلي وتطوره)

Arturo Torres Rioseco : Grandes novelistas de América Hispana.

(كبار رواد القصة في أمريكا الناطقة بالإسبانية ، والفصل الخاص
برومولو جاييجوس يقع في هذا الكتاب بين صفحتي ٤٣ و ٧٦) .

Felipe Massiani : El hombre y la naturaleza venezolana en Rómulo Gallegos, Caracas, 1943.

(الرجل والطبيعة الفنزويلية في أدب رومولو جاييجوس)

Raúl Ramos Calles : Los personajes de Rómulo Gallegos a través del psicoanálisis, Caracas, 1947.

(شخصيات رومولو جاييجوس من خلال التحليل النفسي)

Andrés Iduarte : Veinte años con Rómulo Gallegos, Méjico, 1954.

(عشرون سنة مع رومولو جاييجوس)

Ulrich Leo : Rómulo Gallegos. Estudio sobre el arte de novelar, Méjico, 1954.

(رومولو جاييجوس : دراسة حول فن التأليف القصصي)

Orlando Araujo : Lengua y creación en la obra de Rómulo Gallegos, Buenos Aires, 1955.

(اللغة والإبداع في الإنتاج الأدبي لرومولو جاييجوس)

Lowell Dunham : Rómulo Gallegos, Vida y obra, Méjico, 1957.

(رومولو جاييجوس ، حياته وأدبه)

Arturo Uslar Pietri : Letras y nombres de Venezuela, Méjico, 1948.

(أدب ورجال من فنزويلا)

José Vila Selma : Procedimientos y técnicas en Rómulo Gallegos, Sevilla, 1954.

(طرق التعبير والصياغة لدى رومولو جاييجوس)

John E. Englekirk : Doña Bárbara, legend of the Llano, 31, Hispania, 1948, pp. 259-270.

(السيدة باربارا : أسطورة السهول)

John A. Crow : The Essays of Rómulo Gallegos, Hispania, 38, 1955, pp. 35-40.

(مقالات رومولو جاييجوس)

Angel Valbuena Briones : Literatura hispano americana, Barcelona, 1962.

(أدب أمريكا الناطقة بالإسبانية - في هذا الكتاب بحث جيد مفرد لرومولو جاييجوس يقع ما بين صفحتي ٣٥٠ و ٣٦٤).

E. Anderson Imbert: Historia de la literatura hispano americana, México, 1961.

(تاريخ الأدب الأمريكي الإسباني - انظر بصفة خاصة الجزء الثاني ص ١١ ، ٨٤ - ٨٦ ، ٢٥٠).

ثبت بأهم شخصيات الرواية كما وردت أسماؤهم في الأصل

Santos Luzardo

سانتوس لوئاردو

Doña Bárbara

السيدة باربارا

Melquíades Gamarra

ملكياس جامارا

(El Brujeador)

(المعروف بلقب الساحر)

Marisela

ماريسيللا

Lorenzo Barquero

لورنثو باركيرو

Antonio Sandoval

أنتونيو ساندوفال

Juan Palacios (Pajarote)

خوان بالاثيوس (الملقب بـ « باخاروتي »)

María Nieves

ماريانيبس

Venancio

فنانشيو

Balbino Paiba

بالينو بايبا

Carmelito López

كارمليتولوبث

Coronel Apolinar

الكولونيل أبو لينار

Guillermo Danger

مستر وليم دنجر

(Mister Peligro)

(جير مو دينجر)

Ño Pernalete

السيد بيرنالييتي

Juan Primito

خوان بريميتو

Mujiquita

موخيكيثا

القِسْمُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول مع من تذهب ؟

قارب يشق مياه « الأراوكا » مصعداً فيه محاذياً لضفة النهر اليمنى متجنباً ما يحف بها من صخور ...

واثنان من الملاحين يدفعان به إلى الأمام فى مشقة وعسر ، وكأنهما قد فقدتا الحساسية تحت حرارة الشمس التى تصهر الأجسام ، وإن كان جسداهما البرنزيان العاريان - إلا من سراويل قصيرة قدرة قد شمراها عن أفخاذهما - قد نضحا بالعرق الغزير ، وهما يستعنان فى تسيير القارب بمجاديف طويلة يغرسانهما فى قاع النهر ، ويتكئان على أطرافها العليا بأضلاعهما القوية الصلبة ، وهما فى حركة دائمة على القارب من رأسه إلى مؤخرته ، فى خطوات بطيئة متثاقلة ، وبين الحين والحين يتبادلان حديثاً متقطعاً يخفف عنهما ما يلاقيان من نصب ، أو ترتفع عقيرة أحدهما بعد زفرة عميقة بأغنية حزينة تتحدث عما يقاسيه هؤلاء الملاحون فى عملهم اليومى من جهد وعناء : أميال وأميال من السفر على ظهر مركبهم الخشبي الذى لا يتحرك إلا بتلك المجاذيف ، وكأنهم يدفعونه بأذرعتهم دفعاً ، متسللين به ما بين الأدغال الكثيفة التى تحف جنبات النهر .

وفى مقدمة المركب يجلس القبطان العجوز الذى حنكته التجارب فى تصعيده وتصويبه فى أنهار السهول المحيطة بنهر « أبورى » وقنواته ، ويمينه على تروس عجلة القيادة ، وهو يتطلع إلى مجرى النهر فى انتباه وحذر ، حرصاً على تجنب المساقط المائية التى كثيراً ما تعترض تياره بين الأدغال المتكاثفة ، أو خوفاً من حركة مفاجئة تهز الماء بعنف منبئة عن وجود تماسح قريب متربص .

وكان فى القارب اثنان من الركاب ، أما أولهما - وكان يستلقى تحت مظلة القماش التى تغطى المركب - فشاب قوى البنية وإن لم يبد رياضى القوام ، تدل قسّمات وجهه المعبرة على قوة الشكّيمة ، وتضفى عليها مظهرأ من النبل والكبرياء ، غير أن زيه وهيبته يدلان على أنه غريب عن هذه المنطقة قادم إليها من المدينة ، يبدو ذلك فى حرصه على نظافة ملبسه وأناقته وعنايته بمظهره ، وكانت نظراته إلى ما يحيط به تبدو كما لو كانت تعبر عن شعورين متضاربين يصطرعان فى أعماق روحه ، إذ كانت عيناه تلتمعان حينأ ببريق من الحماسة ، وتطل منهما قوة العزيمة وصلابتها وهو يتأمل المنظر الذى يطالعه ، ثم لا يلبث أن ينطفئ ذلك البريق ، ويتجهّم وجهه ، وتسوده سحابة قائمة تنم عن الضيق والضجر .

أما رفيقه فى الرحلة فقد كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين لا يخلو أن يلتقى بهم السائر فى هذه الجهات ، ذا ملامح أسيوية مغولية ، تلقى فى الروع أنه ينحدر من سلالة تترية لا يدرى متى ولا كيف حلت فى هذا الصقع من القارة الأمريكية ، كانت قسّمات وجهه قائمة تدل على القسوة ، وتشير القلق والخوف ، مختلفة عن ملامح قاطنى هذه السهول ، وكان مستلقيا على كساء له بعيدأ عن ظل غطاء المركب ، وهو متظاهر بالنوم ، وإن كان القبطان والملاحان يلحظونه خفية دون أن يرفعوا نظرهم عنه .

وكانت الشمس تلقى أشعتها الملتهبة فى هذه الساعة من وقت الظهيرة على مياه نهر « الأراوكا » الصفراء وعلى الأشجار الكثيفة التى تحيط بمجرّاه ، وضياؤها الساطع يكاد يعمى الأبصار ، وبين الفينة والفينة ينجلي المنظر أمام ركاب القارب من خلال الأدغال الكثيفة ، فيطلان من اليمين على حوض نهر « الأبورى » وما يحيط به من سهول تحفها الحشائش وأشجار النخيل ، ومن اليسار حوض نهر « الأراوكا » وما يمتد على ضفتيه من مراعى واسعة يتيه فيها النظر حتى يصطدم بالأفق البعيد ، ولا تكاد تلاحظ العين فى هذه المراعى الخضراء إلا عدداً قليلا متناثراً من البقر يسرح بين جنباتها .

كان الصمت الذى يسود المكان عميقاً لا تكاد تعكر من صفوه إلا خطوات الملاحين الرتيبة المثيرة للأعصاب على ظهر المركب ، أو الصوت المنبعث من محارة اتخذها القبطان بوقاً له ، وهو بين وقت وآخر يوجه منها نداء مستطيلاً أجش كأنه أنين ، فيرسله يتردد فى الأفق البعيد حتى يموت فى قاع هذا الفراغ الأصم ، ولا يكاد القبطان يرسل هذا النداء حتى يتردد من بعيد حول بعض الربى التى تحف النهر نقيق الهوام والجنادب أو هزيم التماسيح المستلقية فى استرخاء تحت أشعة الشمس على ضفاف النهر المهجورة الخالية ، والتماسيح هناك هى ملوك هذا النهر العريض الصامت ، تفرض عليه سلطانها الرهيب .

وكان النهار قد انتصف ، والقيظ يلفح الوجوه بشواظ من نار ، ومن مياه النهر الساخنة التى يشقها المركب تنبعث رائحة تفعم الحواس ... رائحة الطمى والطين الذى يجرفه التيار . ويتوقف الملاحان عن ترديد أغانيهم الرتيبة الحزينة ، ويخيم على الجو كله صمت هائل عميق يعكس فى المشاعر إحساساً بضعف الإنسان وضآلته أمام عظمة الطبيعة ... إحساس السائر الوحيد التائه فى رمال الصحراء .

وأخيراً ينقطع جبل الصمت على صوت القبطان وهو يقول موجهًا الكلام إلى الراكب المستظل بغطاء المركب ، ومشيراً إلى شجرة ضخمة وارفة على الضفة القريبة .

- ها نحن هؤلاء قد وصلنا إلى شجرة « عصا الماء » . هنا تستطيع ياسيدى أن تتناول غداءك فى ظل هذه الشجرة ، ثم تنال قسطاً من نوم القيلولة .

ويفتح الراكب المغولى الملامح جفنيه المعوجين فى استرخاء ، وقد أيقظته كلمات القبطان ، ثم يقول فى صوت لا يكاد يبين :

- لم يبق إلا قليل ، ونصل إلى « مجاز الخوار » ، وأنا أعرف هناك مكاناً رائعاً هو أصلح للراحة والنوم .

ولكن القبطان يرد فى خشونة وجفاف مشيراً إلى الراكب الآخر :

- إن السيد ، وهو صاحب الأمر والنهى فى المركب ، لايهمه « مجاز الحوار » ولا يريد النزول لديه .

وينظر الرجل إلى القبطان من أطراف عينيه ثم يقول فى صوت لين رقيق لزج كأنه الوحل المحيط بمستنقعات تلك السهول :

- إذن فاعتبرنى ياسيدى القبطان كما لو أنى لم أفتح فمى بكلمة .

وأدار « سانتوس لوئاردو » رأسه إلى هذا الراكب الغريب ، وكأنه لم يكن يشعر بوجوده حتى أفاق على نبرات صوته ... إن هذا الصوت لم يكن غريباً عليه كل الغرابة، وهو الآن يذكره ويذكر صاحبه .

أما أول مرة التقى فيها بذلك الرجل فقد كانت فى « سان فرناندو » وهو فى أحد مشاربها ، وكان بعض الأجراء من رعاة البقر هناك يتحدثون عن شئون عملهم ، ولاحظ سانتوس لوئاردو أن هذا الرجل كان هناك مع هؤلاء الرعاة ، وأن الذى كان يتحدث لم يكذب يراه حتى قطع ما كان فيه من حديث ، وهمس إلى رفاقه قائلاً :

- هذا هو الرجل !

وأما المرة الثانية فقد كانت فى أحد الفنادق المتواضعة التى يأوى إليها المسافرين فى الطريق . وكانت أمسية شديدة الحر ألجأت سانتوس لوئاردو إلى الخروج إلى فناء الفندق بحثاً عن نسمة باردة ، وهو يذكر أن عينه لمحت ذلك الرجل فى اجتيازه أحد ممرات الفندق ، وكان يتحدث إلى رفيق له وهما يتأرجحان على كرسيين هزازين ، والتقطت أذناه آخر هذا الحديث :

- إننى لم أفعل شيئاً أكثر من تقريبي الحربة إلى جسده ، وأما مابقى فقد تكفل به القتل نفسه ، فقد ظل يغرسها فى جسمه قليلاً قليلاً كما لو كان تواقاً إلى برد الحديد !

وكانت المرة الأخيرة التى رآه فيها فى الليلة السابقة ، وكان سانتوس قد اضطر إلى ترك حصانه فى الموضع الذى يخاض منه إلى نهر « الأراوكا » ، وهكذا لم يجد بداً من قضاء الليلة فى ذلك الموضع حتى يواصل رحلته فى اليوم التالى على ظهر مركب كان قادماً إلى هناك ليحمل شحنة من الجلود إلى «سان فرناندو» ، وأنهى سانتوس لوئاردو الاتفاق مع صاحب المركب على أن تغلق فى فجر اليوم التالى ، ثم توجه إلى غرفته ليأخذ قسطاً من النوم ، وهو يذكر أنه سمع حينئذ صاحب ذلك الصوت الغريب وهو يقول لبعض من كان معه :

- اذهب أنت يا صديقى أولاً ، وأما أنا فسأرى ما إذا كنت أستطيع أن أجد مكاناً على ظهر هذا المركب .

كانت ثلاث صور واضحة محددة المعالم لمعت فى ذاكرة سانتوس لوئاردو فجأة وهو يسمع صوت الراكب الغريب ، وانتهى من تفكيره إلى نتيجة لم يكن هناك مجال للارتياح فى صحتها : إن هذا الرجل لاشك فى أنه كان يتبع خطواتى منذ خروجى من «سان فرناندو» ، أما ما تظاهر به من الحمى فإنه لم يكن إلا حيلة اصطنعها لكى يرافقنى فى هذه الرحلة على ظهر المركب . كيف لم أتنبه إلى ذلك منذ هذا الصباح ؟ .

وكان الأمر كذلك بالفعل ، فقد كان سانتوس لوئاردو يستعد فى صباح هذا اليوم لبدء رحلته على ظهر المركب ، وكان القبطان يوشك على الإقلاع حينما ظهر ذلك الرجل وهو يرتعد وأسنانه تصطك وقد غطى جسده بملحفة ثقيلة ، وإذا به يستوقف القبطان ويقول له :

- ألا يمكنك ياسيدى أن تؤجر لى مكاناً على ظهر مركبك ؟ فإنى أريد أن أصل اليوم إلى «مجاز الخوار» ، ولكن الحمى التى داهمتنى لم تعد تسمح لى بأن أستقر على ظهر الحصان . إننى مستعد لأن أدفع لك ماتريد .

وألقى القبطان عليه نظرة فاحصة فيها الكثير من التشكك وسوء الظن ، ثم أجاب :

- إننى آسف يا صديقى ، فإن هذا السيد قد استأجره لحسابه ، وهو يريد السفر بمفرده .

ولكن سانتوس لوئاردو تسرع فى هذه اللحظة ولم يفتن لإشارة القبطان وهو يغمز له بعينه ، فأمره بأن يسمح لذلك الرجل بالركوب .

وما إن وصل سانتوس لوئاردو فى تفكيره إلى هذه المرحلة حتى عاد ينظر إلى الرجل فى خفية متفحصاً إياه فى إمعان ويتساءل : ترى ما الذى يدور فى رأس هذا الرجل ؟ أما إن كان الهدف من إرساله يتعقب خطواته هو تدبير كمين لاغتياله فقد سنحت الفرصة لذلك من قبل ، فليس هناك شك فى أن هذا الرجل ليس إلا واحداً من العصاة التى تحكم فى « ضيعة الرعب » .

ولكن .. لم العجلة ؟ سيتبين كل شىء ، وإن غداً لناظره قريب .

وعزم سانتوس على أن يسبر غور الرجل ، فتعمد أن يرفع صوته وهو يسأل القبطان :

- قل لى ياسيدى القبطان : أتعرف هذه المرأة المشهورة التى يدعونها « السيدة باربارا » والتى طالما يقص الناس عنها فى منطقة « الأبورى » حكايات غريبة ؟ .

وما إن ألقى لوئاردو بسؤاله حتى توقف الملاحان عن التجذيف ، وقد علتها وجمة مفاجئة وتبادلا نظرات قلقة ؛ وأما القبطان فقد صمت برهة ، ثم أجاب فى اقتضاب بتلك الجملة التى لم تكن إلا تهرباً من الجواب ، والتى كثيراً ما كان يستخدمها القاطنون لهذه الجهات بما اعتادوا عليه من حذر وتوجس :

- اسمع يافتى ... سأقول لك : إننى أعيش بعيداً عن هذا المكان .

وابتسم لوئاردو فى إشفاق وتقدير للموقف ، غير أنه فى إصراره على استطلاع نوايا الراكب الغريب لم يشأ أن ينهى الحديث دون أن يقول :

- إنهم يقولون عنها أشياء فظيعة ، إذ يذكرون أنها امرأة رهيبة ... زعيمة عصابة من قطاع الطرق لا هم لهم إلا اغتيال كل من يجروء على الوقوف في طريقها خيانة وغدرًا .

ولاحظ سانتوس أن يمين القبطان التي كانت على عجلة القيادة قد اضطربت في حركة عنيفة مفاجئة ، جعلت المركب يشب وثبة قوية على ظهر الماء . بينما أشار أحد الملاحين إلى أن قاع المركب قد اصطدم فيما يبدو بكومة من جذوع الشجر تكدست على مقربة من ضفة النهر اليمنى ، والتفت الملاح إلى لوثراردو وصاح به :

- انظر ... لقد كنت تريد إطلاق النار على التماسيح ، فما قد سنحت لك الفرصة، وما أنت ذا ترى هناك عند رأس الشاطئ المقابل عدداً منها .

وابتسم لوثراردو ابتسامة العاذر المقدّر للموقف ، ثم نهض وصوب بندقيته التي كان يحملها معه ، وأطلق النار ، ولكنه لم يصب الهدف ، واندفعت التماسيح الضخمة منحدرّة إلى الماء وهي تثير حولها زوبعة من الزبد .

وكان الرجل الغريب رفيق سانتوس لوثراردو في الرحلة قد ظل طول هذا الوقت صامتاً لا ينبس بكلمة ، غير أنه حين رأى التماسيح تغوص تحت الماء دون أن تتعرض لسوء ، لم يتمالك نفسه من التعليق بصوت لا يكاد يسمع ، بينما ارتسمت على شفّتيه ابتسامة خفيفة ساخرة لمعت خلال الشعر الكثيف الذي كان يغطى وجهه :

- حشرات وثبت إلى الماء حية متحركة الذبول ... لم يصب منها واحد !

وكان القبطان وحده هو الذى استطاع فهم ماكان يرمى إليه هذا الرجل بتلك الكلمات ، فبقى يصعد نظره فيه ويصوبه كأنما كان يريد أن يزن ما قصد الرجل الغامض المشئوم بتعليقه ، ولكن هذا لم يحرك ساكنًا ، متظاهراً بالانصراف إلى شأنه، ثم تمطى وتشاءب في بطاء وتثاقل ، وقال بعد أن أصلح من ثيابه وهيئته :

- حسنًا . لقد وصلنا إلى شجرة « عصا الماء »(*) ، وقد تصيب من جسمي العرق بما فيه الكفاية لشفائي من الحمى ، ومن أسف أنها قد فارقتنى سريعًا ، فما كان ألد هذه الحمى !

أما لوئاردو فقد كان مخلصًا إلى صمت عميق وقد أظلم وجهه ، بينما كان المركب يرسى في الموضع الذي اختاره القبطان لوقوفه حتى يأخذ المركب قسطًا من الراحة .

ونزل الجميع إلى الأرض ، ودق الملاحان وتدًا ضخماً في رمال الشاطئ وربطاً إليه المركب ، أما الرجل الغريب فقد مضى قدمًا مخترقاً الأعشاب والأشجار المتكاثفة على الجبل ، وظل لوئاردو صامتًا حتى ابتعد الرجل ، ثم اتجه إلى القبطان يسأله :

- أتعرف هذا الرجل ؟

- أما معرفته حق المعرفة فلا ؛ إذ إن هذه هي أول مرة ألتقى فيها به ، ولكنني أظن حسبما أسمع هنا من حديث أهل السهول ووصفهم إياه أنه لابد أن يكون الرجل الذي يطلقون عليه اسم « الساحر » .

وأضاف إلى ذلك أحد الملاحين :

- وإنك لعلی حق ياسيدى القبطان . نعم إنه هو هذا الرجل .

وعاد لوئاردو إلى التساؤل :

- وهذا « الساحر » أى نوع من الرجال هو ؟

فأجاب القبطان :

- لست أجيبك عن هذا السؤال ، ولكن ظن به أسوأ الظنون ، فإنك لن تخطئ أو تبالغ . إنه رجل ليس من أهل هذه البقاع الأصليين ، هو أجنبي كما نسميه هنا ، ويقولون عنه إنه كان قاطع طريق فى جبل « سان كاميلو » ، ثم نزل

عن ذلك الجبل منذ سنوات ، وما زال يتنقل فى مختلف قرى حوض « الأراوكا » حتى انتهى إلى إقطاع السيدة باربارا حيث يعمل الآن ، وقد صدق فيه وفيها المثل الذى يقول : الله يخلقهم ، ثم إن الشيطان هو الذى يتكفل بضم بعضهم إلى بعض . وأما اللقب الذى يطلقونه عليه وهو « الساحر » فإنه يرجع إلى ما يقولون إنه مهنته ، فهو « يسحر » الخيل ، ولا يخلو فمه أبداً من عبارات غريبة يزعمون هنا أنها رقى ناجعة تخرج الدود من أجسام البقر وغيرها من الماشية . على أنى أعتقد أن عمله الحقيقى ليس من ذلك فى شيء ، بل هو ما عرضت أنت نفسك به حينما كاد حديثك يؤدى بى إلى التسبب فى اصطدام المركب، ويكفى أن أقول لك إنه يعتبر حارس السيدة باربارا وحامى ظهرها المفضل .

- إذن لم أكن مخطئاً فيما قلت .

- لا ... لم تكن مخطئاً ، غير أنك أخطأت إذ سمحت بأن يرافقتك فى رحلتك مثل هذا الرجل . واسمح لى ياسيدى بأن أوجه إليك نصيحة قد تنفعك فى المستقبل ، فإنك مازلت فى مستقبل شبابك ، ويبدو عليك أنك غريب عن هذه الناحية : لاتعد أبداً إلى قبول رفقة أحد لا تعرفه كما تعرف راحة يدك ، وما دمت قد أبحث لنفسى أن أوجه إليك نصيحة فلا بأس فى أن أتبعها بأخرى ، وما لى فى ذلك من غرض ولا مصلحة إلا أننى أجذك خفيفاً على قلبى ، وقد توسمت فيك الخير منذ رأيته ، ونصيحتى إليك هى أن تأخذ حذرك من السيدة باربارا . إنك متوجه إلى ضيعة « ألتاميرا » ، ومعنى ذلك أنك ستستقر فيما يعتبر ميدان عملها ومجال نفوذها . ولست أرى الآن بأساً فى أن أحدثك ببعض ما أعرفه عنها : إنها امرأة غررت بكثير من الرجال ، فإذا استعصى رجل على معسول كلامها وطيب ظاهرها فإنه لا يلبث أن ينقاد لها بعد ذلك بشراب مسحور تعده له ، أو برقية تحتال حتى تشدها إلى ثيابه ، فهى - كما يحدثون عنها - خبيرة بكل أعمال السحر والتعاويذ . أما إذا عادت أحداً ولم يبق مفر من أن تصارحه بالخصومة فإن عينها لا تفر حتى تزيله عن طريقها ، وهنا تعهد إلى هذا « الساحر » بأداء دوره... لقد أشرت أنت إلى

ذلك فى حديثك وإن كنت لا تعرف هذه التفاصيل ، وما بعدت عن الصواب .
إننى لا أعرف ما الذى أتيت تنشده فى هذه البقاع ، ولكنى لا أرى بأساً فى أن
أكرر لك النصيحة: سر على حذر ، فإن تلك المرأة لديها مقبرة ! ولتفهم
ما أقول.

وكان سانتوس ينصت فى اهتمام إلى كلمات القبطان ، أما هذا فإنه شعر
بأنه أطلق لسانه أكثر مما ينبغى ، فتوقف لحظة ثم أضاف أخيراً وكأنه كان يريد
أن يلقي فى روع الفتى شيئاً من الطمأنينة بعد تلك الكلمات المشيرة للقلق
والرهبة :

- على أنى كما قلت لك هذا فإننى أقول لك شيئاً آخر : إن كل ما ذكرت
ليس إلا ما تلوكة السنة الناس هنا ، غير أنه ينبغى ألا تولى كثيراً من الثقة إلى
جميع ما تردده الأفواه ، فسكان السهول هنا كاذبون بالفطرة ، أعترف بذلك
وإن لم يكن أمراً يعتز به أو يفخر لأجله ، وهم حتى إذا رووا حقيقة فإنهم
ما يزالون يضيفون عليها من المبالغة والإغراق ما يحيلها إلى أكاذوبة ، ثم إنه
ما عليك حتى هذه اللحظة أن تقلق أو تخاف ، فنحن هنا الآن أربعة رجال
مسلحون ، فضلاً عن عناية الله ترافقنا فى مسيرنا .

وكان لوئاردو يتبادل هذا الحديث مع القبطان على شاطئ النهر دون أن
يفطن أحد إلى أن « الساحر » الذى سبقهم إلى النزول كان مختبئاً وراء ربوة
قريبة متسمعاً ذلك الحديث كله ، بينما كان يتناول غداءه الذى كان يحمله فى
جعبته بهذا البطء والتثاقل الذى كانت حركاته تتميز بهما .

وكان الملاحان قد فرشا تحت شجرة « عصا الماء » ملحفة لوئاردو ، ووضعاً
عليها حقيبته الصغيرة التى كان أودعها ما كان يحمل من طعام ، ثم أخرجاً من
المركب طعامهما ، ولحق بهما القبطان ، وجلس الجميع فى ظل الشجرة
الضخمة يتناولون غداءهم البسيط ، بينما كان لوئاردو يحدثهم عن ذكريات
صباه فى سهول هذه المنطقة وبين أنهارها وقنواتها .

فلما فرغوا من الطعام أخلد الجميع إلى الصمت ، وكانت الحرارة قد بلغت أوج شدتها ، وساد السكون المكان ، لا يعكسه إلا ضجيج ارتطام الأمواج بالمركب المشدود إلى رمال الشاطئ .

وكان الإرهاق قد بلغ مبلغه من الجميع ، فاستلقى الملاحان على رمال الشاطئ ، ولم تمض لحظة حتى تعالى شخيرهما واستغرقا في نوم عميق ، أما لوئاردو فقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة وقد استولى على نفسه الصمت الهائل المتوحش الذى يسود المكان حتى لم يعد قادراً على مجرد التفكير ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى غلبه النعاس ، ثم أفاق بعد أن نال نصيباً من الراحة ، وكان القبطان هو المكلف بالحراسة ، فلم يستيقظ لوئاردو حتى خاطبه القبطان قائلاً :

- لقد استغرقت فى النوم طويلاً ياسيدى .

ونظر لوئاردو فيما حوله ، فرأى أشعة الأصيل تؤذن بقرب مغيب الشمس ، وأحس بنسمات رطبة تهب على مياه « الأراوكا » ، وعاد يرجع النظر إلى أمواج النهر العريض ، فرآها وقد ملأتها مئات من النقاط السوداء ، لم تكن إلا معاطف من رءوس التماسيح وغيرها من حيوانات الماء وهى جامدة لا تتحرك ، وقد أخذتها سنة من النعاس ، والأمواج العكرة تعابشها رائحة غادية . وفجأة بدأ يظهر فى وسط النهر رأس تمساح هائل الحجم ، وما زال يرتفع حتى بدا جسمه كله طافياً على سطح الماء ، ثم بدأ يحرك فى ثقلى أجفانه التى تغطيها القشور .

وأسرع سانتوس لوئاردو فشهر بندقيته ووقف على قدميه بسرعة وشرع فى التصويب إلى التمساح الضخم ، وكأنه يريد أن يرد اعتبار نفسه بالإصابة فى هذه المرة ، بعد أن أخطأ الهدف فى المرة السابقة ، ولكن القبطان أسرع بالتدخل .

- لا تطلق النار .

- ولماذا ؟

- لأن ... لأنك لو أصبته فقد يقع علينا انتقام رفيق له ، ولو أنك أخطأت رمية فإن من الممكن أن نتعرض لهجومه ، ثم إن هذا التمساح هو الذى يعرف هنا باسم « أعور مجاز الخوار » الذى لا يثقب الرصاص جسده .
ولكن لو ثاردو أصر على أن يطلق النار عليه ، فعاد القبطان يقول له فى تصميم :

- حذار يافتى من أن تتعرض له ، وألق بالآلة إلى ما أقول .
وفيما هما فى هذا الحديث إذا بهما يلاحظان فجأة شبحاً وراء الربوة ، فاتجهت نظراتهما على صورة آية إلى هناك ، وإذا بهما يريان « الساحر » متكئاً على جذع شجرة وهو يتصنع النوم .
وترك لو ثاردو بندقيته حيث كانت ، وتوجه إلى حيث كان « الساحر » فدار حول الشجرة التى كان مسنداً ظهره إليها ، ثم اتجه إليه بالكلام دون أن يلقي بالآلة إلى ما كان يتظاهر به من الإغراق فى النوم .

- إذن أنت من هؤلاء الذين يعجبهم التلصص على الناس والتسمع إلى ما يدور بينهم من حديث !

وفتح « الساحر » عينيه فى ببطء ... تماماً كما فعل التمساح الهائل قبل ذلك بلحظات ، وأجاب فى هدوء وبرود :

- لست إلا من هؤلاء الذين يعجبهم أن ينصرفوا إلى أمورهم ويفكروا فيما يهمهم من شئون .

- كم كنت أود أن أعرف ما يدور بتفكيرك وأنت تتصنع النعاس !
- ما أصدق ما قال الله لنا من أن هذه الأرض فسيحة تسعنا جميعاً ، نضرب فى مناكبها دون أن يحتاج أحدنا إلى مضايقة أخيه ، ومع ذلك فإننى أعتذر لك ياسيدى من إسناد ظهري إلى هذه الشجرة مادام ذلك يسوؤك !

نطق « الساحر » بهذه العبارة ، ثم نهض ومضى إلى شجرة أخرى بعيدة فاستلقى فى ظلها على ظهره مسنداً رأسه على يديه تحت عنقه .

وكان المشهد القصير يدور تحت النظرات المتطلعة التى كان يوجهها القبطان والملاحان ، وكانا قد استيقظا بسرعة على صوت لوثاردو و « الساحر » ، والناس فى هذه المنطقة متعودون على الانتقال السريع من النوم العميق إلى اليقظة المفاجئة ، شأن كل من اعتاد النوم بين متوقع الأخطار ، وتتم واحد منهما :

- يا للخبيث ! ... يواصل نومه فى هدوء ، كما لو لم يكن يحفل بما يمكن أن يتعرض له من أخطار فى هذه المروج !

وتوجه لوثاردو إلى القبطان وقال له :

لنتابع الرحلة حينما تأمر ، لقد نلنا جميعاً نصيبنا من الراحة .

- إذن لنصعد إلى ظهر المركب الآن .

تم تطلع القبطان إلى « الساحر » المستلقى على ظهره وقال له فى لهجة أمرة :

- كفاك نوماً وانهض ، فنحن متابعون للسير الآن .

ولم يتحرك الرجل من وضعه وقال :

- شكراً ياسيدى ... شكراً على ماتفضلت به من دعوتى لمرافقتكم حتى النهاية ، غير أنى أفضل مواصلة سفرى على قدمى من هنا ، إذ لست بعيداً عن منزلى ، ولست أسألك كم ينبغى أن أدفع لك لقاء إيصالكم إياى إلى هنا ، فما كان السادة الكرام من أمثالكم ليتقاضوا ثمننا على ذلك من أمثالى من المساكين ، ولكنى أضع نفسى فى خدمتكم . إن اسمى هو « ملكيادس جامارا » وإنى أتمنى لكم جميعاً سفرًا موفقًا .

وكان سانتوس قد توجه إلى المركب ، وأما القبطان فإنه وقف يتبادل بعض الكلمات مع الملاحين فى صوت خفيض ، ثم استوقفهما ، وتوجه بالكلام إلى سانتوس لوئاردو :

- انتظر قليلا . إنى لا أستطيع أن أدع هذا الرجل يتلصص وراءنا فى أدغال الجبل . فإما أن ننتظر حتى يذهب أمامنا ، وإما أن نحمله معنا فى المركب .

وكان « الساحر » قد نصب أذنيه ، والتقط سمعه الحاد كل ما قال القبطان فرفع صوته يقول :

- لا تخف ياسيدى القبطان ، فهأنذا ذاهب قبلكم ، وأشكرك ياسيدى على «التوصيات » التى تفضلت بإعطائها على وما تضمنته من عاطر الشاء ؛ إذ إنى أود أن أقول لك إننى سمعت كل ما وصفتنى به من قبل .

وما إن قال ذلك حتى نهض واقفاً ، ورفع عن الأرض ملحفته وألقى كيسه على كتفه ، كل ذلك فى هدوء كامل . ثم انطلق سائراً فى السهل الواسع الممتد إلى ما وراء الغابات التى تحف ضفة النهر .

أما لوئاردو ورفاقه فقد مضوا إلى مركبهم فصعدوا إليه ، وفك الملاحان الحبل الذى شدا به المركب إلى الوتد، ثم دفعاه إلى الماء ، ووثبا إلى المركب ، وأخذ القبطان مكانه أمام عجلة القيادة ، ثم التفت فجأة إلى لوئاردو وسأله :

- اعذرنى ياسيدى إذ أوجه إليك هذا السؤال : هل أنت رام ماهر ؟

- لقد دلت التجربة لسوء حظى أننى رام قليل التوفيق إلى حد أنك اعترضتنى إذ عزمت على تكرارها ، ومع ذلك فقد كنت أحسن حظاً فى مناسبات أخرى .

وصاح القبطان :

- أترى ؟ لقد صدقت فراستى فيك ، فإنك لست رامياً عاجزاً عن الإصابة، تبين لى ذلك من طريقتك فى تقريب البندقية من وجهك لتسديد الرمية ، ومع ذلك فإن الطلقة أخطأت هدف كتلة التماسيح الطافية بنحو ثلاثة أذرع .

- إن المثل يقول : قد يخطئ الأرنب أمهر الصيادين !

- نعم ، بلا شك ، ولكن الأمر بالنسبة لك مختلف عن ذلك ؛ إذ إنك أخطأت الهدف على الرغم مما أنا متأكد منه من كونك رامياً جيداً كثير التوفيق . أتعرف لماذا ؟ لأنه كان إلى جوارك شخص لا يريد لك أن تصيب التماسيح ، ولو أنى تركتك تطلق الرصاص فى المرة الثانية لما كنت أسعد حظاً منك فى الأولى .

- الساحر ؟ أليس كذلك ؟ وهل تعتقد ياسيدى القبطان أن ذلك الرجل له حقاً مثل هذه القوة الخارقة للعادة ؟

- إنك ما زلت شاباً ولم تر شيئاً بعد . إن السحر حقيقة لاشك فى وجودها ، ولو أنك عرفت بعض ما حدثونى به عما يقع لهذا الرجل ؟ ... وعلى أية حال فإنى سأقص الخبر عليك حتى تكون على بينة وحذر منه ..

وبصق الرجل مصاصة التبغ التى كان يلوكها بين أسنانه ، واستعد لرواية الخبر حينما قاطعه أحد الملاحين قائلاً :

- أو سنذهب وحدنا ياسيدى القبطان ؟

- حقاً ... كيف نسينا ذلك ؟ إنه « عمل » آخر من سحر ذلك الرجل المشئوم قاتله الله . لنعد إلى الشاطئ مرة أخرى .

وعلت الدهشة وجه لوثاردو وتساءل :

- ما الذى حدث ؟

- لقد نسينا « الله » على الشاطئ !

وإذا بالركب يعود مرة أخرى إلى نفس المكان الذى كان راسياً فيه منذ قليل ، ومن جديد أعطى القبطان إشارة الإبحار ، ثم رفع صوته متجهاً بالسؤال إلى الملاحين وهو يمد النبرات فى ترنم :

- مع من نذهب ؟

- مع الله !

صاح بها صوت الملاحين فى نغم واحد مستطيل .

وعقب على ذلك القبطان مترنماً :

- ومع العذراء المقدسة !

ثم التفت إلى لوثاردو الذى وقف ينظر إلى ذلك الطقس الغريب يؤديه الرجال الثلاثة فى خشوع كأنهم يصلون فى معبد وقال :

- كان هذا هو مانسيناه عند إقلاعنا من موضع رسو المركب ، فجميع البحارة الذين يشقون أنهار هذه السهول لابد أن يكرروا هذه العبارة ويجهروا بها قبل البدء فى أية رحلة . فالأخطار فى هذه الأنهار كثيرة ، وإذا لم يكن الملاح واثقاً من وجود الله معه فإن الطمأنينة لا تجد سبيلاً إلى قلبه ، فالتمساح يمكن أن يطل عليه فى أى لحظة دون أن يشعر باقترابه منه ، وأسماك « الرعاد » و « البرق » و « المنشار » وأسراب القراقير وغيرها من الحيتان الوحشية تستطيع أن تترك الرجل منا ولم يبق منه إلا عظامه فى لحظة واحدة قبل أن تتيح له فرصة التشهد أو الاستغائة بكرامة الأسماء الثلاثة المقدسة !

وتأمل لوئاردو ما حوله : سهول شاسعة يتيه فيها البصر ، طبيعة هائلة متوحشة ، مروج ليس لها حدود ولا يتنفس فيها إنسان ، أنهار عميقة وحيدة صماء ! ... ما أقل جدوى صرخة الاستغاثة هنا إزاء ضربة واحدة من ذيل تمساح مهاجم ، فى هذه البقاع الهائلة المهجورة ! نعم ، إن هؤلاء الملاحين البسطاء معذورون ، لم يبق لهم إلا الإيمان الساذج البرئ بما فيه من خير وشر يلجأون إليه إذا دهمهم الخطر ، هذا الإيمان الذى يجعلهم يتمسكون بتكرار عبارتهم المعتادة « مع الله ! » ، وإن كان هو الذى يحملهم مع ذلك على أن ينسبوا « كرامات » و « معجزات » خارقة للعادة إلى شخص مثل « الساحر » المشئوم !

« مع الله ! ... »

هكذا عرف سانتوس لوئاردو طقوس الملاحين عند إقدامهم على أية رحلة عبر تلك الأنهار فى منطقة « الأبورى » ، وأمعن لوئاردو التفكير فى حاله هو : إنه يمكن أن يطبق على نفسه هذه العبارة نفسها وهو يبدأ هذه الرحلة إلى عالم مجهول تتوثب فيه من حوله الأخطار .

ما أشبه حاله بحال هؤلاء الملاحين ! ...

ليكن الله معه !

الفصل الثاني سبل الكونا فتشيرة

كان إقطاع « التاميرا » يقع فى أكثر مناطق حوض « الأراوكا » وعورة وأقلها سكاناً ، وكانت مساحته فى أول الأمر تبلغ نحو مائتى فرسخ فى مثلها فى منطقة تعتبر من أخصب ما يوجد فى تلك السهول وأغناها ، ولهذا فقد كان من الطبيعى أن يعد المستحوذ على هذه المساحة الهائلة من الأراضى من أغنى أهل تلك البقاع .

وقد أسس ذلك الإقطاع الكبير منذ عهد بعيد « إدواردو لوئاردو » أحد هؤلاء الرعاة الرحل ، الذين كانوا - ولا يزالون - يضربون فى تلك السهول بقطعانهم باحثين عن المرعى الصالح فى مروج نهر « الكونا فتشى » ، ومتقلين بينها وبين حوض « الأراوكا » الذى كان أقرب إلى المدن العامرة . أما أبناؤه فقد نشأوا كأبيهم رعاة خلصا ممن درج الناس هناك على أن يطلقوا عليهم « حفاة الأقدام الذين يرتدون أفخر الثياب » ، وتعاقت أجيال أسرة لوئاردو فى هذا الإقطاع ، واستقروا فيه ، وما زالوا بجدهم وعملهم يوسعون رقعة ويضاعفون من ثروته حتى أصبحت ضيعتهم أغنى ضياع تلك الجهات ، غير أن تكاثر العائلة وتزايد أموال أفرادها أدى إلى مالا بد منه : وهو تفرقها وانتشارها ، فقد أثر البعض حياة المدن ، فانتقلوا عن موضعهم ، وبقي آخرون تحت سقوف سعف النخيل محافظين على تلك الحياة القبلية التقليدية بما فيها من خير وشر . وإذا كانت هذه الحياة تعتمد فى الغالب على عصبية الأسرة وتماسكها فإنها كثيراً ما تؤدي إلى عكس ذلك من التنافر والاختلاف والنزاع حينما تتشعب فروع الأسرة ويتكاثر أفرادها ، وكان هذا هو ما حدث لأسرة لوئاردو ؛ إذ

نشبت الخصومة بين أعضائها حتى أدت إلى عواقب وخيمة طبعت على حياتها طابع المأساة الرهيبة .

وكان آخر ملاك إقطاع « ألتاميرا » من هذه العائلة هو « خوسيه دى لوس سانتوس » الذى أراد أن يحافظ على أملاك الأسرة من التفتت والتمزق مما لم يكن منه بد بحكم كثرة عدد الورثة من قرابته ، فأثر أن يشتري من هؤلاء ما كانوا يستحقون من الميراث ، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد حياة طويلة من الحرمان والعمل الشاق الذى لا يعرف نصبا ولا كلالا ، فلما مات الرجل ترك ولداً وبتناً : « خوسيه » و « بانتشيتا » التى تزوجت من رجل يدعى « سباستيان باركيرو » . واتفق الوارثان على تقسيم الأرض فيما بينهما . أما خوسيه فقد احتفظ لنصيبه بالاسم القديم للإقطاع : « ألتاميرا » وأما نصيب البنت فقد تغير وأصبح يحمل اسم زوجها ، ولهذا فقد سمي « الباركيرينيا » نسبة إلى « باركيرو » .

ومنذ أن انقسمت الأرض على هذه الصورة دبت نوازع الخلاف من جديد بين الأخوين ، وكان ذلك بسبب عبارة غامضة المعنى وردت فى وثيقة التقسيم فى معرض تحديد ما يخص كلا من الأخوين ، إذ جاء فيها أن الحد الفاصل بين الملكين هو « مرج النخيل الواقع فى موضع لاتشو سميتا » ، فقد كان كل منهما يؤول النص على أن هذا الموضع ينبغى أن يدخل فى ملكه هو ، ووصل النزاع إلى ساحة القضاء ، وكان من نوع هذه الخصومات الطويلة التى تستنزف موارد المتنازعين ولا تعود بالخير والثروة إلا على عدة أجيال من المحامين ، والغريب أن الخصمين لم يكونا يباليان بأى نفقة فى سبيل كسب القضية من أجل المحصول فى النهاية على قطعة أرض ضئيلة مجدبة لاقيمة لها فى الحقيقة ، كان منطقتهم فى ذلك يقوم على العبارة التى كثيراً ما يرددونها أهل تلك السهول فى منازعاتهم : « إما أن أكسب الكل أو أفقد الكل ! » منطق العناد الصلب المتعصب الذى لا يعرف من الأمور وسطا .

ولما كان كسب الكل مستحيلاً بالنسبة للخصمين ، فقد أثر كلاهما أن يخسر كل شيء ، وهكذا أنفقا على تلك القضية المشثومة ما تقلصت به أراضيهما ، وانتهيا إلى أن يقوم كل منهما من جانبه بتسوير موضع « لا تشو سميتا » متعهدا بالألا يمسه حتى تنتهى المحاكم إلى قرار فى النزاع .

ولكن الأمر لم ينته عند ذلك ، فقد كان فى وسط ذلك الموضع قناة قديمة جافة إلا أنها كانت فى فصل الشتاء تحول المكان كله إلى مستنقع بفضل ما كانت تقذفه من الطمى ، ولم يكن يقترب منها أى كائن حى إلا وأغرقته فى أمواجها الرجراجة من الطين والوحل . وفى أحد الأيام بدت على سطحها جثة طافية لبقرة تحمل سمة آل « باركيرو » ، فلم يكن من « خوسيه لوئاردو » إلا أن ذهب إلى صهره يحتج على انتهاكه لتلك الأرض الحرام بدليل جثة تلك البقرة الغارقة فى مستنقعها ، وارتفع لجاح الرجلين وكادا يتماسكان ، واحتد باركيرو فى النقاش ، ورفع خنجراً كبيراً امتدت إليه يده فشهره فى وجه لوئاردو مهدداً ، ولكن هذا أعجله عن العدوان ، فأخرج مسدسه وأطلق عليه رصاصة اخترقت جبهته ، فخر من فوق ظهر حصانه جثة هامة .

وتتابعت الترات وأعمال الانتقام على صورة رهبة بين عائلتى باركيرو ولوئاردو حتى كادتا تتفانيان .

وكأن ذلك لم يكن كافياً ؛ إذ دبت الشحنة والخصومات فى صميم أسرة لوئاردو فى أثناء الحرب التى دارت بين إسبانيا والولايات المتحدة ، وكان خوسيه لوئاردو يعبر دائماً فى مجالسه عن ولائه « للوطن الأم » - كما كان يقول - باعتبار الدماء الإسبانية التى تجرى فى عروقه ، هذا بينما كان ابنه الأكبر فليكس يعلن تأييده للأمريكيين ويتمنى انتصارهم فى تلك الحرب ، ولم يكن الخلاف فى ذلك بين الأب وابنه إلا رمزاً للصراع الدائم بين جيلين : جيل قديم كان مايزال يذكر الوطن الأول الذى انحدرت منه أصوله ، وجيل جديد مستوطن انقطعت الصلة بينه وبين أرض آبائه ، فلم يعد يؤمن إلا بوطنه الجديد ،

ووصلت إلى الضيعة صحف كارا كاس - وكانت لا تصل إلا شهراً بشهر -
وفيها أنباء تلك الحرب ووقائعها ، ولم يكد الفتى يقرأ تلك الأخبار - إذ كان
الأب قد ضعف بصره حتى لم يعد يقوى على القراءة - حتى ثارت مناقشة
حامية عنيفة انتهت بقول العجوز :

- لا بد أن يكون المرء مجنوناً أحمق إذا اعتقد أننا سنخسر الحرب أمام
هؤلاء الأوغاد الأمريكيين من باعة شطائر اللحم فى واشنطنجتون .

وامتقع وجه ابنه فليكس غضباً واضطربت الكلمات على شفثيه وهو
يقول:

- أما أن ينتصر الإسبان فى هذه الحرب فهو أمر قد يكون محتملاً ، ولكن
الذى لا أحتمله هو أن توجه إلى الإهانة دون مبرر يقتضى ذلك .

ونظر إليه الأب فى احتقار من رأسه إلى قدمه ، ثم أطلق ضحكة عالية
ساخرة ، وفقد الفتى أعصابه ، فامتدت يده بغير شعور إلى المسدس الذى كان
يحملة فى نطاقه، وجفت الضحكة على فم الأب فجأة ، ثم توجه بالخطاب إلى
ابنه فى هدوء وبطء دون أن يتحرك من مقعده ، وإن كان قد ارتسم على وجهه
تعبير وحشى رهيب :

- أطلق النار علىَّ إن كنت رجلاً حقاً ، ولكنى أقسم لك أنك إذا أخطأتنى
فلأصلبئك على هذا الحائط بعد أن أنفذ فى صدرك حربة !

وكان هذا يدور فى البيت الريفى القائم وسط الضيعة ، وذلك بعد تناول
طعام الغداء بقليل ، وكانت الأسرة مجتمعة فى قاعة الجلوس حول المصباح
المنصوب على المائدة . واكفهرت وجوه الحاضرين ، وأسرعت السيدة
أسونثيون زوجة خوسيه لوئاردو، فوقفت تحول بين زوجها وابنها .

إن سانتوس لوئاردو يذكر هذا المشهد كما لو كان بالأمس ، وكان يبلغ فى
ذلك الوقت أربعة عشر عاماً وهو يستعيد المنظر فى ذاكرته ويرى نفسه وقد

شلت حركته إزاء رهبة الموقف بين أبيه وأخيه الأكبر ، وقد كاد الأمر يتحول إلى كارثة .

وهو يذكر أن فليكس رد مسدسه إلى حزامه ، ولعله ندم فى هذه اللحظة على ما تسرع به إزاء والده ، أو ربما رد عقله إليه فى هذه الساعة ما قابله به أبوه من هدوء الأعصاب ورباطة الجأش ، ومن يدري ؟ فلعله جبن وخاف إذ كان يعلم أن أباه كان جاداً فيما قال ، وأنه لم يكن ليعدل عن توقيع ما أوعده به من العقاب لو أنه أخطأ الهدف .

وعلى أية حال فإن فليكس غادر القاعة فى تلك اللحظة ، ثم توجه بعد ذلك إلى الحظيرة ، فأسرج حصانه وقد عزم على مغادرة بيت أبيه إلى غير رجعة ، ولم تفلح أمه بإلحاحها فى الرجاء ولا بدموعها الحزينة فى أن تحمله على العدول عما استقرت عليه عزمته ، أما الأب فإنه لم يتحول عن موضعه ، وثبت نظارته على عينيه ومضى يقرأ صحيفته كأن شيئاً لم يحدث ، على أن أنباء الصحيفة لم تكن لتلقى فى نفسه سروراً ولا تفاقواً ، فقد كانت تروى تفاصيل الهزيمة المنكرة التى أوقعها الأمريكيون بالقوات الإسبانية فى « كاييتى » (*) .

أما فليكس فإنه لم يكتف بترك دار أبيه مغاضباً إياه ، بل لجأ إلى خصوم أسرته من عائلة باركيرو ليعيش فى كنفهم ويؤيدهم فى تلك الحرب الدامية التى كانت مستعرة بينهم وبين أسرة أبيه ، والتى كانت تهيج لهيبتها عمته « بانتشيتا » زوجة سباستيان باركيرو . وكانت سلطات الأمن تغمض عيونها عن تلك الحرب الطاحنة؛ إذ كانت تدرك مدى عجزها عن وقف تلك المجزرة ، فقد كانت أسرتا لوئاردو وباركيرو تتقاسمان السيطرة على حوض نهر الأراوكا ، وتفرضان على تلك الأراضى الشاسعة سلطتهما الإقطاعية التى لم يكن أمام الحكومة إزاءها إلا التجاهل والاستسلام .

واستمرت الحرب على أشدها بين الأسرتين بعد لجوء فليكس لوئاردو إلى خصوم أبيه ، وسقط فى الأعمال الانتقامية التى كان الطرفان يرتكبانها مع

معظم أفراد الأسرتين ، حتى كان ذلك الحادث المشؤم الذى راح ضحيته فليكس لوئاردو .

كانت ليلة من تلك الليالى التى يجتمع فيها أهل القرية لمشاهدة صراع الديكة ، وكان فليكس قد علم بأن أباه حاضر ذلك المشهد ، فعزم على استثارته واستفزازه بتحريض من ابن عمته « لورنثو باركيرو » ، وكان قد أفرط ليلتها فى الشراب ، فما إن بدأ العرض حتى وثب فليكس إلى الحلبة المعدة للصراع وقد حمل بين يديه ديكا ، وأقبل يصيح :

- ها هو ذا ديك من « بورتوريكو »(*) - من بلد صغير أصبح تابعا للولايات المتحدة - وأنا أتحدى من يأتى له بديك إسباني يقف فى وجهه ، ولم أت بديك أمريكى لأنى أعرف أنه لن يجد فى ديوك إسبانيا كلها ما يصلح أن يكون كفتا له !

وكانت الحرب بين الولايات المتحدة وإسبانيا قد انتهت كما كان لابد أن تنتهى : بانتصار الأمريكين أصحاب القوة والعدد ، ولم يفه فليكس بجملته هذه إلا شماتة بأبيه وإمعانا فى إغاظته والسخرية منه ، ولم يملك الرجل نفسه ، فوثب إلى الحلبة وفى يده سكين كبير أراد أن يعاقب به ابنه على تلك الإهانة الوقحة ، وامتدت يد الابن إلى مسدسه ، على أن أباه كان أسرع منه ، إذ أخرج مسدسه ولم يتردد فى إطلاقه على الولد العاق .

وفى هذه الليلة عاد الأب بعد لحظات إلى داره وقد أظلم وجهه وتحطم كيانه ، وبدا كما لو كانت السن قد تقدمت به سنوات ، وكان أول ما قاله لامرأته :

- لقد قتلت فليكس الآن ... وهم سيأتون إليك بجسده !

ثم أسرج حصانه ، وخرج إلى البيت الريفى حيث وقع أول مشاهد هذه المأساة بينه وبين ولده الأكبر ، ودخل إلى القاعة بعد أن أمر ألا يزعجه أحد ، ثم خلع عن حزامه الحربة القصيرة التى كانت معلقة به ، وأغمدتها بقوة إلى

مقبضها فى الحائط الخشبى الذى كان قد أنذر ابنه بأن يصلبه إليه فى ذلك اليوم المشئوم الذى جرى فيه النقاش بينهما ، ويقول الناس هناك إن خوسيه لوئاردو كان يعتبر ذلك اليوم هو تاريخ مصرع ابنه الحقيقى ، وإنه ظل مشدوداً إلى مقعده وهو شاخص بعينه إلى الحربة الغائصة فى الحائط ، كأنه يرى فى نظره الدائم إلى ذلك المشهد تذكيراً دائماً له بقتله ابنه وإشعاراً له بقسوة الجريمة التى ارتكبها وعقاباً لنفسه على ما فعل .

ومضت عدة أيام ، والرجل لا يتحول عن موضعه على مقعده ، ونظره مثبت إلى الحربة ، وعيناه لا تكادان تطرفان وقد تعودتا النظر فى ظلام الليل .. مضت الأيام دون أن يتناول الرجل طعاماً ولا شرباً وهو ينتظر الموت الذى حكم على نفسه به تكفيراً عن جريمته ، وهناك وجده أهله بعد أيام ، وقد تصلب جسده الميت على المقعد . ونظره معلق بالحائط مفتوح الحدقتين فى تعبير رهيب مخيف .

وحينما وصلت سلطات الأمن للتحقيق - أو بتعبير أصح لتمثيل المهزلة المعروفة - لم يكن هنالك حاجة لتحرّ أو بحث ، ويقول الناس إن إغلاق عيني الرجل الشاخصتين إلى الحائط قد اقتضى من أهله مجهوداً كبيراً قبل أن يسوقوا جسده إلى مثواه الأخير .

* * *

ولم تمض عدة أيام على وفاة خوسيه لوئاردو حتى كانت أرملة السيدة أسونثيون قد غادرت الضيعة منتقلة إلى كاراكاس لتقضى فيها مابقى من أيامها ، وقد حملت معها ابنها سانتوس ، الوحيد الذى بقى حياً بعد تلك المجزرة المتوحشة ، وكانت أمه تريد أن تنقذه من ذلك الجو الرهيب الذى كان يسود السهول وتوفر له بيئة مختلفة بعيدة تنسيه وهو فى غضاضة الصبا ما كان تعاقب على أسرته من مأس مفرعة . وكانت النقلة مفاجئة على نفس الصبى : من بيئة ريفية خشنة تترك على نفوس أهلها طابعاً من القسوة والصرامة وصلابة

المكسر إلى جو المدينة بما فيها من رخاوة ونعومة، بين أربعة جدران فى بيت هادئ حزين ، وإلى جوار أم محطمة قد هدت أعصابها المصائب المتلاحقة ، كل ذلك خلف فى نفس الصبى آثاراً هزت شخصيته هزاً عنيفاً . فقد كان فى حياته الماضية فى ضيعة أبيه متوقد الذكاء تواقاً إلى الحركة وثاب العزيمة جريء القلب ، وطالما كان أبوه يعبر عن إعجابه وافتخاره به حينما يراه وهو يروض جواداً جموحاً ، أو يياشر مختلف الأعمال الخشنة القاسية فى تلك المراعى دون أن يبالى بما يتعرض له من أخطارها وهو بعد غض الإهاب ، وكان أبوه يقول فى معرض الفخر به إنه حقاً ابن أبيه وسليل مجيد لأجداد لم يعرف الخوف إلى قلوبهم سيلاً قط، أجداد خلدت أسماء الكثيرين منهم فى تلك الأرض ، وإن كان الكثيرون منهم قد اشتهروا بأنهم لم يكونوا أكثر من قطاع طرق ولصوص مواش وسفاكى دماء ، أما الأم فقد كانت تعلق الكثير من الآمال على ابنها الأصغر هذا حينما تسمعه يقوه بعبارات تدل على ذكاء حاد وحس مرهف ، وميل مبكر إلى التفكير العميق والنظرة السديدة الصائبة ، ولكن بيئة المدينة التى انتقل إليها فجأة قد أفقدته بريق شخصيته الأولى ، فعاد خائر العزيمة شارد الذهن ساهم النظرات .

وكانت أمه تنظر إليه وتقول وهى بعد لم تفارقها تلك التعابير الجارية بين أهل السهول والمراعى :

- عجباً لك يابنى ، لقد تغيرت طباعك حتى إنى لأنظر إليك ولا أكاد أتعرف عليك ، وكأنك جواد مستأنس خرج إلى السهول فتأبد واستوحش !

وتجيبها صديقاتها وهن يردن أن يدخلن الطمأنينة إلى قلبها :

- إن هذا طبيعى يحدث للصبيان فى مثل هذه السن التى يتحولون فيها إلى الرجولة ... هذه هى طبيعة النمو والتطور .

وترد هى قائلة :

- بل هو الأثر السيئ الذي تركته فى نفس الصبى المأسى والأهوال التى قاسيناها هناك ...

والواقع أن الرأيين كان لهما نصيبهما من الصواب ، وكان إلى جانب ذلك سبب آخر : هو التحول المفاجئ من بيئة إلى بيئة ؛ إذ لم يكن الصبى معتاداً لهذا الجو المغلق الضيق بعد نشأته فى تلك المراعى الفسيحة التى يمتد فيها الأفق واسعاً عريضاً أمام عينيه ، والريح الحارة الطليقة تلمح وجهه ، والأغنية الخشنة القوية على أفواه الرعاة تصك أذنيه ... حيث الفضاء الهائل الأصم يحيط به ويملك عليه له . كان سانتوس لوئاردو أشبه بياقة من الزهرات البرية قد أتى بها من السهول ثم اتخذت مكانها فى سجن من الفخار تذبل فيه قليلاً قليلاً .

وكثيراً ما كانت السيدة أسونثيون تفاجئ ابنها وقد اعتزل فى حظيرة الدار وهو مستلق على ظهره فوق كوم من التبن والعشب ، وهو مستغرق فى أحلام اليقظة ، وكأنه ثور « معشب » وهو تعبير يطلقه أهل السهول على الثور الذى يلجأ إلى الأعشاب والحشائش فيظل باركاً مستتراً فيها أياماً كاملة دون أن يذوق طعاماً ولا شرباً ، وهو يلقي بين الفينة والفينة خواراً يعبر عن غيظ العاجز المغلوب على أمره ، وذلك حين يلحقون به من التشويه والمثلة ما يفقده ذكوره ويتزع منه زعامة القطيع .

ولكن المدينة تغلبت أخيراً على روح الغلام العصية المتمردة ، ولم يفق سانتوس لوئاردو من سحر الحنين إلى بيئته الأولى ويعتد الجو الجديد حتى رأى نفسه وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهو مع ذلك لم ينل من التعليم قسطاً يزيد بكثير على ما أتى به من حوض الأراوكا ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته ؛ إذ سرعان ما صمم على أن يسترجع ما أضاع من عمر وأقبل على دراسته فى جد وعناية .

أما أمه السيدة أسونثيون فإنها لم تقدم على بيع ضيعة « التاميرا » على الرغم من الأسباب القوية التى كانت تدفعها إلى كراهية تلك الضيعة وإلى

التفكير فى التخلص منها ومن ذكرياتها السود ، فقد كانت أولاً وأخيراً امرأة تربت وعاشت فى تلك السهول، ولم يكن من اليسير على البيئة المدنية اللينة أن تغير من الطبيعة التى يتميز بها أهل تلك الجهات من صلابة وعناد وتعلق شديد بالأرض التى رأوا فيها النور لأول مرة ، وعلى الرغم من أنها قررت قراراً لا رجعة فيه ألا تعود أبداً إلى « ألتاميرا » فإنها لم تشأ أن تقطع صلتها بهذه الأرض قطعاً باتاً ، ولا سيما أنها رأت ألا مبرر لذلك مادام فى الضيعة وكيل مخلص أمين يقوم على رعاية شئونها ويرسل إليها من ريعها كل شهر ما يكفى نفقاتها ويزيد .

وكانت كثيراً ما تقول لمن يشر أمامها مسألة بيع الضيعة :

- فليبعها سانتوس بعد أن أموت ، أما وأنا حية فلا ...

ولكنها وهى على فراش الموت أوصت ابنها قائلة :

- يابنى ، لا تبع « ألتاميرا » طالما أمكنك أن تحتفظ بها .

أطاع سانتوس وصية أمه ، لا لشيء إلا احتراماً لذكرها ، فاحتفظ بالأرض ، لاسيما وأن ريعها كان يسمح له بأن يسد حاجات حياته المعتدلة المقتصدة ، ولولا ذلك لأقدم فى غير تردد على بيعها ، أما شعور الارتباط بالأرض فقد زال من نفسه . ولم يعد يعنيه كثيراً أن يحتفظ بتلك الأرض التى درج عليها ، بل لم يكن يهيمه أن يظل فى وطنه ؛ إذ إن فقد الإحساس الإقليمى لم يلبث أن انتزع من نفسه حتى الشعور بارتباطه بوطنه الأكبر ، وذلك أن تعوده على الحياة فى المدينة وانغماسه فى جوها المتحضر المثقف قد قتل فى نفسه تلك النزعة القديمة إلى حياة المراعى البدائية الطليقة، ولكن هذا الشعور نفسه هو الذى جعله أخيراً لا يرضى عن حياته فى العاصمة ؛ إذ كانت هذه بعيدة عن أن ترضى طموحه . إن كارا كاس لم تكن حينئذ إلا قرية كبيرة ، أكبر قليلاً من تلك التى قضى طفولته فيها قبل أن تدمرها الخصومات والمعارك الدموية التى نشبت فى صميم أسرته ، ولكنها قرية على أية حال ، محط

للمغامرين الجشعين الذين كانوا لا يكفون عن القدوم إليها لجمع الثروة والمال على أية صورة . كانت كاركاس بعيدة عن أن يتجسم فيها المثل الأعلى للمدينة الكاملة ، وكان سانتوس لوئاردو في مثاليته هذه يعتقد أن مثل هذه المدينة لا يمكن أن توجد إلا في القارة الأوربية ذات التقاليد العريقة والحضارة المتأصلة ، ومن هنا راودت الفتى فكرة مغادرة بلاده نهائياً إلى أوروبا بمجرد إتمام دراسته الجامعية .

وكان يرى أن أمله هذا يسير التحقيق بفضل الريع الذي تدره عليه الضيعة، فإذا أنهى دراسته باعها واستغل ثمنها في الانتقال إلى أوروبا ؛ حيث يمكنه أن يستثمر ماله في أعمال البناء بأحد بلادها ؛ إذ كان يقدر أنه لن يكون من السهل عليه أن يباشر مهنته محامياً في تلك البلاد . كانت هذه هي الخطة التي رسمها لوئاردو لنفسه ، غير أن الأحوال قد تغيرت في ذلك الوقت في « ألتاميرا » ؛ إذ لم يعد فيها ذلك الوكيل الأمين المخلص الذي كان يدبر شئونها على عهد أمه ، « فقد خلفه وكلاء بعيدون عن النزاهة والأمانة استغلوا إهماله لأمر أرضه ؛ إذ كان قد اعتاد على أن يلقي على حساباتها نظرة سريعة عارضة . بينما كانوا ينهبون منها ما وسعهم النهب ، بل إنهم كانوا يدعون ميدانها طليقاً يقتحمه كل لص من لصوص المواشى ، فيسطو على ما حلاله ، وما أكثر ما كان هؤلاء يتزعمون من الضيعة ما كان يرعى فيها من رءوس البقر . فيسمونها بأسمائهم وشارات ضياعهم حتى تصير حقاً لهم لا ينازعهم فيه منازع ، ولم ينج من ذلك حتى المواشى الرضيعة ، كل هذا دون أن يحرك أحد في وجوههم ساكناً .

ثم بدأت بعد ذلك القضايا والخصومات مع السيدة باربارا صاحبة الضيعة المجاورة ، ولم يمض وقت طويل حتى انتقلت إلى ملكها مساحات واسعة من ضيعة « ألتاميرا » لايبيع ولا شراء ، وإنما بفضل تلك الأحكام الظالمة التي كانت تصدرها محاكم الدولة .

فلما أتم سانتوس دراسته توجه إلى « سان فرناندو » من أجل الاطلاع على ملفات تلك القضايا حتى يرى ما إذا كان من الممكن له أن يستنقذ

بعض مافقد ، أو يطالب بما انتزع من أرضه غصباً وعدواناً ، ولكنه تبين بعد تردد النظر فى الأوراق وفحص حيثيات الأحكام التى صدرت فى مصلحة تلك المرأة أنها كانت تتمتع بسلطان هائل كان يذل أمامها كل العقبات ، وأن هذه الإقطاعية الداهية كانت لا تتورع عن ارتكاب أى عمل يعينها على تحقيق مآربها من رشوة أو تهديد أو اغتصاب مسلح صريح ، كذلك اكتشف أن كل ما استولت عليه من أراضي وأملاكه إنما كان نتيجة ترتبت على الغموض والاضطراب فى الوثائق التى تثبت ملكية أهله الشرعية فى تلك الأراضي ، وكان ذلك أمراً طبيعياً فى الأوقات الماضية التى كانت تلك السهول فيها طعمة سائغة لمن يضع عليها اليد من المغامرين الذين لا خلاق لهم ، والحق أن جده الأعلى إيفارستو المعروف باسم « الكوناftشيرو » لم يكن إلا واحداً من هؤلاء .

وما إن وصل سانتوس إلى هذه النتيجة حتى رأى ألا فائدة من مواصلة النزاع والمقاضاة ، فقرر بيع الضيعة ، غير أن الأمر لم يكن من اليسر بحيث يعتقد ؛ إذ لم يكن هناك أحد مستعد لأن « يحظى » بجوار السيدة باربارا هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت الثورات المتتابعة التى سادت البلاد قد أفقرت أهل السهول وقللت من عدد القادرين منهم على الشراء ، وهكذا أضاع سانتوس وقتاً طويلاً فى البحث عن مشتر يريحه من عناء تلك الضيعة ، وأخيراً تقدم إليه رجل أبدى استعداداً للشراء ، ولكنه قال له وهو يفاوضه :

- إن هذه الصفقة لا يمكن أن نعقدّها هنا ياسيدى الدكتور ؛ إذ يجب عليك أن ترى بعينك ما استحوالت إليه « ألتاميرا » . إن مراعى الضيعة قد أفقرت وأجدبت ، ولم يعد فيها من رءوس الماشية إلا قلة مهزولة عجفاء ، من الخير ياسيدى أن تذهب إلى هناك وتنتظرنى ، فأنا ذاهب إلى كاراكاس الآن لأبيع قطعاً من البقر ، وسأغيب نحو شهر ثم أمر عليك فى « ألتاميرا » ، وهناك يمكننا التحدث فى الأمر على نحو أفضل .

ووافق سانتوس على أن ينتظر الرجل هناك ، وفي نفس اليوم قرر مواصلة السفر إلى « التاميرا » .

وعلى طول الطريق تواردت الخواطر على ذهن سانتوس مصطرة متضاربة وهو يطالع السهول الفسيحة المهجورة . لم لا يعود إلى هذه الأرض ، فيدافع عن حقوقه فيها ويدود عنها أعداءه ؟ لم لا يجاهد في سبيل إقرار الحق والقانون والقضاء على السلطان الرهيب المشؤم الذي يباشره هناك الإقطاعيون اللصوص من أمثال السيدة باربارا ؟ لماذا يفر من المعركة ويترك أرضه وأرض غيره بمن فيها وما فيها تحت رحمة قوم ليس في قلوبهم رحمة ، وطبيعة قاسية تكاد تفنى أهل تلك البقاع ؟ وكأنما لم يكفهم ما يلاقونه من عنت هؤلاء السادة وظلمهم حتى كان عليهم أن يقاسوا ويلات الطبيعة من جو يعين على نشر الأوبئة والأمراض ، وتتعاقب عليه السيول الجارفة المدمرة والجفاف الشديد الذي كثيراً ما يحيل السهول إلى صحراء قاحلة تقف بين أهلها وبين الحضارة سداً مصمتاً منيعاً !

ولكن ذلك كله لم يكن إلا أفكاراً عابرة عارضة لا تكاد تلقى في نفسه بصيصاً من الأمل والتفاؤل والرغبة في الصمود حتى تطردها أفكار أخرى يسودها اليأس والتشاؤم :

- نعم . إن كل هذا جميل جدير بأن يكافح من أجله ، ولكنه يحتاج إلى جهود جبارة لا تفي بها إرادة رجل واحد . وما قيمة أن يقضى على نفوذ السيدة باربارا الإقطاعي في وادي « الأراوكا » إذا كان من المحتمل أن يحل محله نفوذ جديد تحت اسم آخر ؟ إن حجر الأساس هنا ألا قيمة للقضاء على الشر نفسه ، وإنما ينبغي أن تستأصل جذور هذا الشر ، وأن تتغير ظروف الحياة التي يتولد عنها . والسبيل الوحيدة لبلوغ هذه الغاية هي أن تستصلح هذه الأرض بناس تجرى في عروقهم دماء جديدة ، ولكن كيف يمكن ذلك إلا بعد تطهير الفاسد أولاً ؟ ... حلقة مفرغة لا مخرج منها ولا مخلص !

ظلت هذه الأفكار تدور فى خلد سانتوس حتى استطاع حادث صغير تافه أن يغير مجرى الأمور وأن يتجه به إلى أن يستقر على رأى نهائى لا رجعة فيه : كان ذلك هو لقاءه « للساحر » ، وكلمات قبطان المركب وهو يحذره من اعتراض طريق السيدة باربارا ، وينصحه بأن يتجنب الاصطدام بها ، فقد جاء ذلك فى وقت اشتد فيه الصراع الداخلى فى نفسه بين التفكير المتعقل المتزن والعاطفة الحارة المندفعة ، فكان النصر أخيراً لهذه العزيمة التى رأت من العار على رجولته أن يفر من ميدان المعركة ، وهكذا ثارت فى نفسه تلك الإرادة القوية المصممة على الكفاح .

كانت هذه الروح - روح الاندفاع الجرىء - هى الجذوة التى أورهت إياها أجداده من أسرة لوئاردو ممن عرفوا بالتهور والمغامرة ، والتى أدت بعد ذلك إلى ما حل بهم من كوارث ، ولكن الأمر لدى سانتوس كان مختلفاً بعض الشيء ، فقد كان الاندفاع لديه لا من أجل المغامرة فى حد ذاتها ، بل كان من أجل هدف أسمى وأنبى : هو القضاء على نفوذ السيدة باربارا وسلطانها باعتبارها المثل الذى يتجسد فيه الإقطاع بكل ما فيه من شرور وفساد . لم يستقر عزم سانتوس على الصمود من أجل استنقاذ « ألتاميرا » فحسب ، بل لكى يساهم فى مقاتلة تلك العناصر الفاسدة المفسدة التى كانت تحول بين السهول وبين الحضارة والعمران .

وقرر سانتوس أن يلقي بنفسه فى المعركة بكل ما كانت تمتاز به ذرية « الكوناftشيرو » من إقدام واقتحام للمهالك ، وإن كان يزيد عليهم بما كان يسعى إليه من مثل عليا يأمل تحقيقها فى سبيل خير تلك الأرض ورقبها ...

الفصل الثالث صائدة الرجال

... من مكان بعيد ... فيما وراء نهر « الكونافتشى » ... فيما وراء « الثيناروكو » ... فيما وراء « الميتا » ... من أبعد مكان يمكن تصويره فى الوجود ! هكذا كانوا يقولون عنها فى سهول نهر « الأراوكا » على الرغم من أن المسافات لم تكن تعنى عندهم شيئاً بحكم تعودهم على انبساط الأرض أمامهم وانفساح رقعتها فى وجوههم ، حتى إنهم كثيراً ما يسألون عن مكان يعتبر فى نظر غيرهم من الناس بعيداً شاسعاً ، فيجيبون فى استخفاف : « ... هناك على بعد رمية حجر ... وراء ذلك الدغل » .

هكذا كان يجيب أهل سهول الأراوكا حينما يسألون عن أصل السيدة باربارا ... من هناك قدمت تلك المرأة اللعينة المشثومة . كانت هجينة مولدة : ثمرة لاستهتار الرجل الأبيض المغامر واستسلام الهندية وانقيادها لغريزتها المظلمة . أما من هو الرجل ومن هى المرأة فقد كان سرّاً لم يعرفه أحد ، مستغلقاً استغلاق الغابة العذراء التى لم تطأها قدم إنسان .

كانت باربارا تعود إلى الورا تنظر إلى أعماق ذكرياتها السوداء فترى نفسها فى قارب صغير يشق الأنهار الواسعة التى تخترق الغابات الحافة بضيفتى « الأورينوكو » ، وعلى ظهر القارب ستة رجال بينهم القبطان الذى كان تسميه « تايئا » ، وهى تذكر كيف كان الجميع - فيما عدا العجوز إيوستاكيو - لا يكفون عن مداعبتها وتحسس جسدها فى غلظة وقسوة ، وعن نهش وجهها بقبل تفوح منها روائح التبغ والخمور الرخيصة .

أما عمل صاحب القارب وزملائه فقد كان فى ظاهره تجارة مشروعة ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة إلا ضروباً من ضروب القراصنة ابتليت به هذه المنطقة من مدينة « بوليفار » إلى « النهر الأسود » : كانوا يخرجون بالقارب من المدينة محملين بىراميل الخمر وأحمال القماش الرخيص والحلى الزائفة وأطعمة أكثرها فاسد ، ثم يعودون وقد ملأوا مراكبهم بالمطاط والعطور والأفاويه . وكان عملهم فى بعض القرى يقوم أحياناً على مقايضة الهنود فيستبدلون بما أتوا به إليهم ما يأخذونه مقتصرين على خداعهم بكل وسيلة ممكنة ، غير أنهم كانوا فى أكثر الأحيان يرسون قاربهم ، ثم يشون إلى الشاطئ وقد حملوا بنادقهم على أكتافهم ثم يقتحمون الغابات والمروج المجاورة ، ويعودون بعد ذلك بأحمالهم من المطاط الأسود أو الأفاويه العطرة وقد خضبت بالدماء .

وهى تذكر أنهم كانوا يستعدون للإبحار من « مدينة بوليفار » فى عصر أحد الأيام ، حينما تقدم إلى القبطان شاب فى ملابس رثة ممزقة أشبه بالمتسولين ، وعلى وجهه سيماء الفقر والجوع ، وكانت باربارا قد رآته من قبل ذلك أكثر من مرة واقفاً على سور الميناء يرمقها بعينين تكادان تشبان من محجريهما ، بينما هى مشغلة بإعداد الطعام لقراصنة القارب . وعرف الفتى صاحب القارب باسمه - أسدروبال - ثم قال :

- إننى محتاج للسفر إلى « مناوس » ولست أملك أجره الطريق . فإذا كنت ياسيدى تفضل بحملى إلى « النهر الأسود » فإنى مستعد فى نظير ذلك لخدمتك فيما تأمرنى به : فأنا طبّاخ أو كاتب حسابات ، أو ماشئت من عمل ؛ إذ لن تعدموا وجهاً يمكننى أن أخدمكم فيه .

وكان الفتى خفيفاً لبقاً فى عرض خدماته ، وبدا فى كلامه لطيف المعشر رقيق الألفاظ شأن أمثاله من المتشردين الذين يجمعون إلى الذكاء خفة الروح ودماثة الخلق وطلاوة الحديث ، مما جعل القبطان يستطيب رفقته ويسمع له

بالصعود على ظهر قاربه، على أن يتكفل بالطبخ حتى يريح باربارا من عناء هذا العمل ، وكان القبطان قد بدأ يدلل الفتاة الصغيرة الجميلة التي لم تكن تناهز الخامسة عشرة من عمرها .

ومضت عدة أيام ، واعتاد الرجال رفقة « أسد روبال » ولا سيما في أوقات راحتهم أو في الأمسيات التي كانوا يقضونها على شاطئ النهر وقد أوقدوا النار وجلسوا حولها يتجاذبون أطراف الحديث ؛ إذ كان يسليهم بحديثه الممتع وأقاصيصه الغريبة التي كان يرويها عن حياته المتنقلة المطوفة ، وكانت باربارا تكاد تنفجر من الضحك وهي تنصت إلى حديثه الطلى ، ولكنه كان إذا توقف عن الكلام وقد سره وأعجبه ما أدخله على نفسها من سرور إذا بها تقطع ضحكها فجأة ، وتغض بصرها في قلق ، وصدرها الناهد يعلو ويهبط في ضيق وانقباض لم يكن الفتى يدرى مصدرهما . وفي ذات يوم همست في أذنه قائلة :

- كفى لا تنظر إليّ هكذا ، فإن سيدى لم يعد مرتاحاً إلى ذلك .

وكان ذلك حقاً ، فقد بدأ القبطان يندم على سماحه للفتى بمرافقتهم ، إذ رأى أن الخدمات التي كان الشاب يقدمها توشك أن تكلفه ثمناً غالياً ، ولا سيما ما تطوع به الفتى - دون أن يكلفه أحد بذلك - من تعليم باربارا القراءة والكتابة ، فقد كان أسدروبال يبذل في تلك الدروس غاية جهده . وكثيراً ما كان يأخذ بيد باربارا ليدربها على خط ما يعلمها من حروف ، فيزيد ذلك من دنوه منها ، وكان من الطبيعي أن تذكى هذه العلاقة الخطرة من غيرة القبطان .

وفي عصر يوم من الأيام ، وكان أسدروبال قد انتهى من درسه مع باربارا ، بدأ يقص عليها الجانب الحزين من قصة حياته : سنى طفولته في كنف أب متجرد من الأبوة بلغ من قسوته أن طرده من منزله وهو في تلك السن المبكرة ، ومغامراته الفاشلة الحزينة في البحث عن لقمة العيش ، وتجوالة الهائم في الأرض دون هدف ولا غاية ، وماقاساه من عض الجوع ومشقة العمل في

مناجم « اليوروارى » ، وصراعه المستيئس مع الموت وهو على فراش متواضع فى أحد المستشفيات ، وأخيراً روى لها ما كان قد رسمه لنفسه من خطط : فهو ذاهب فى تلك الرحلة إلى « مناوس » باحثاً عن الثروة فى عمل ثابت مستقر ، فقد أدركه الملل من هذه الحياة الهائمة الجواله ، وهو الآن يسعى إلى حياة ينعم فيها بالاستقرار والهدوء .

وبدا على أسدروبال كما لو كان يريد أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر ، ولكنه توقف فجأة ، وظل يتأمل النهر الذى كان ينساب بين أيديهما وقد حفت بجانبه الغابات الكثيفة السوداء .

وأدركت باربارا أنها لم تكن تحتل من مشروعات الفتى المستقبلية ما كانت تقدر ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وسادت بعد ذلك فترة صمت طويلة ...
يالها من أمسية ! إن ذكرها لم تفارق أبداً مخيلة باربارا ... كان الصمت مطبقاً وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج « الأتورس » وكأنها أنين مريض .

وفجأة يقطع أسدروبال الصمت المخيم ، وينظر إلى عينيها ثم يقول :
- أتعرفين ما ينوى أن يفعل بك القبطان ؟

وسرت فى بدن باربارا رعدة مفاجئة ، ودارت برأسها الأفكار السود وأحست كأن كارثة توشك أن تحل بها عن قريب ، وصاحت :
- سيدى « التايتا » (*) ؟

- إنه لا يستحق منك أن تطلقى عليه هذا اللقب ، فهو يريد أن يبيعك للتركى .

وكان أسدروبال يشير إلى تركى مرور أبرص كان قد جمع ثروة طائلة من المطاط ، وكان مقيماً فى غابات نهر « الأورينوكو » قد اعتزل الناس واعتزلوه بسبب المرض الفظيع الذى كان يلتهم جسده ، ولكنه رغم ذلك كان متعطشاً

إلى متع الحياة ، فكان يحيط نفسه بمجموعة من النساء التعسفات فى مقتبل العمر ، بعضهم خطفن أو اغتصبن بالقوة ، وأخريات اشتراهن من آبائهن ، وكان فى ذلك لايهدف إلى إرواء ظمأ شهوته فحسب ، بل كأنه كان - بحكم مرضه الذى لاشفاء منه - يود أن ينفس عن حقه المسعور على الأصحاء ناقلاً إليهم جراثيم مرضه الرهيب .

وكان أسدروبال قد اكتشف فى بعض ما تسمعه من أحاديث بحارة المركب أن هذا الرجل المشئوم سلطان غابات المطاط قد عرض على القبطان عشرين قطعة ذهبية ثمنًا لباربارا ، وأن هذه الصفقة إذا كانت لم تتم بعد فما ذلك إلا لأن القبطان كان يطمع فى ثمن أعلى ، وهو أمر لم يعد عسيراً بعد أن تحولت الصبية الغريبة خلال عدة شهور إلى امرأة ناضجة يطير جمالها الألباب .

ولم يكن يغيب على باربارا أن مصيرها سينتهى إلى شىء من ذلك ، غير أن الظروف التعسة التى كانت تحيط بها لم تكن لتشير فى نفسها حتى هذه الساعة إلا مزيجاً من الأسف والخوف والرضا فى وقت واحد ، فقد كان يرضى أنوثتها أن ترى نفسها محاطة بنظرات الإعجاب الحيوانية التى كان يوجهها إليها أونثك الذين كانت تشاركهم تلك الحياة الضيقة المحدودة على ظهر القارب .

غير أنها منذ أن تعلق قلبها بحب أسدروبال استيقظت فى أعماقها تلك الروح الميتة الخاملة ، فشعرت بمدى هول المصير الذى يتربص بها ، وامتلاً قلبها ذعراً وفزعاً ، وكانت تهم بأن تصبح به :

- أنقذنى ! ... أنقذنى ! .. احملنى معك إلى حيث تذهب !

ولكنها صمتت عن الكلام وهى ترى القبطان فى هذه اللحظة يقترب منها وبندقيته على كتفه .

- والآن يا فتى ، أرى أنك قد تحدثت بما فيه الكفاية ، وقد آن الأوان لكى تقوم بشيء أكثر جدوى من تضييع الوقت فى الكلام . إن « الضفدع » ذاهب الآن لتسلم شحنة من الأفاويه تنتظرنا هنا ، وعليك بمرافقته ، فخذ معك هذا لتدافع عن نفسك إذا هاجمك الهنود .

قال القبطان هذا وهو يقدم البندقية لأسدروبال .

وبقى الفتى واقفاً لحظة يفكر ... ترى هل سمعه القبطان وهو يذيع سره للفتاة ؟ وهذه المهمة التى عهد بها إليه الآن : ترى هل لها علاقة بذلك ؟ على أية حال ليس هناك الآن مفر من الصدوع بالأمر ومواجهة الموقف .

وحينما هم أسدروبال بالنهوض منفذاً ما أمره به القبطان حاولت باربارا أن تمنعه موجهة إليه نظرة توصل واستعطاف ، ولكنه غمز لها بعينه غمزة سريعة ، وهو ينهض فى عزم مغادراً المكان فى أثر « الضفدع » . أما هذا الرجل الذى كان يحمل ذلك اللقب الكريه فقد كان نائب القبطان وساعده الأيمن فى مهام القرصنة وغيرها من الأعمال المشثومة التى كان رئيسه يكلفه بها . كان أسدروبال يعلم ذلك حق العلم ، ولكنه كان يدرك أنه إذا بدا عليه الخوف أو حاول الامتناع عن تنفيذ ما أمره القبطان به فهو هالك لا محالة ، وحاول أن يطمئن نفسه قائلاً إنه الآن يحمل بندقية ، وسيكون خصمه على أية حال رجلاً واحداً بينما هو فى المعسكر واحد ضد خمسة رجال . ومضى أسدروبال فى طريقه بينما كانت باربارا تتبعه بعينها حتى اختفى وراء مرتفع صغير ، فظل نظرها ثابتاً شاخصاً إلى ذلك المكان عدة لحظات .

وتبادل الملاحون فى أثناء ذلك نظرات ذات مغزى تدل على تفاهمهم فيما بينهم ، وبقي الجميع فى المكان لحظات ثم توجه إليهم القبطان بأمرهم باستطلاع الموضع خوفاً من أن يقوم الهنود بمهاجمته على حين غرة ، وكان قد أدلى قبل ذلك بأمر مماثل لأيوستاكىو العجوز ، وفهم الجميع أن القبطان لم يرد إبعادهم عن المعسكر إلا رغبة فى أن يخلو هو بالفتاة .

وامتعض الملاحون فظلوا يتمتمون بكلمات تدل على الضيق يلوكونها بين أسنانهم، ثم تشجع أحدهم فقال فى صراحة :

- دع هذا إلى ما بعد ياسيدى القبطان ، فنحن نريد الآن أن نستريح .

وكانت هذه الكلمات هى بوادى الثورة التى كانت تختمر فى نفوس هؤلاء الرجال بسبب الفتاة وجمالها المطير للعقول ، واضطر القبطان إلى السكوت ؛ إذ لم يفته أن الرجال كانوا على اتفاق فيما بينهم ، وأنهم على استعداد لكل شىء ، ولهذا فقد أثر أن يؤجل تأديبهم وعقابهم حتى يعود « الضفدع » تابعه المخلص الأمين .

أما باربارا فقد فطنت إلى الغرض الخبيث الذى أراد القبطان من أجله أن ينفرد بها ، فوجهت نظرها إلى البحارة الذين كانوا على وشك الثورة ، ولكنها لم تر نظراتهم الجائعة إليها حتى جمد قلبها الخوف ، ولم تملك نفسها من النظر إلى المكان الذى ودعت فيها أسدروبال وهو فى طريقه إلى الغابة .

وفجأة تردد فى الأفق نقيب « الياكابو »(*) ... بصوته المجلجل الحزين الذى انطلق كأنه أجراس جنازية فى جو الغابة المظلم قاطعاً صمتها المخيم الرهيب :

- يا ... كا ... بو ... و ... و ... ! يا ... كا ... بو ... و ... و ... ! ...

وهى لاتدرى : أترى هذا حقاً نقيب ذلك الطائر نذير الشؤم وجالب الشرور ، أم كان صرخة الموت أطلقها أسدروبال فترددت أصداؤها فى الفضاء ؟ أتراها سمعت حقاً هذا الصوت أم أنه كان ضرباً من ضروب التخيل صورته لها أوهام الخوف والفرع والتوجس بما كان يوشك أن يقع لها ؟ أم أنه كان صدى صادقاً خفق به قلبها وشعرت به شعوراً غامضاً خفياً لصوت آخر بعيد : صوت الطلقة النارية التى وجهتها فى تلك اللحظة نفسها بندقية « الضفدع » إلى عنق أسدروبال ؟

إنها لا تذكر إلا أنها سقطت على وجهها وقد استولى عليها انفعال عنيف مفاجئ، بعد أن أطلقت صرخة حبيسة فى حنجرتها .

وأما الباقي فقد حدث دون أن تشعر : ثورة البحارة المفاجئة ، ومقتل القبطان ثم مساعدته « الضفدع » على أثر عودته وحيداً إلى المعسكر ، ثم الوليمة الصاخبة الحمراء التى كان جسد باربارا فيها قرباناً قدم إلى الرجال الذين انتقموا لمقتل أسدروبال وإن لم يقصدوا إلى ذلك أو يتعمدوه .

وحينما أقبل العجوز إيوساكيو على صوت الصرخات التى كانت باربارا تطلقها فى المعركة غير المتكافئة كان البحارة قد أشبعوا نهمهم وقضوا وطهرهم ، وكان واحد منهم يقول لرفاقه :

- الآن يمكننا أن نسلمها للتركى ، حتى ولو كان فى مقابل القطع الذهبية العشرين التى عرضها من قبل .

* * *

وهج النيران وألسنة اللهب تضىء ظلام الليل ، وفى الجو تتردد أصوات مختلطة وحشية : إنه وقت صيد « الجفان »(*) ، والهنود متعودون فى موسمه على إضرام النيران فى مواضع مختلفة متقاربة حول برك الماء المختفية فى قلب الغابة ، فتعلى أسراب « الجفان » طيرانها فى الجو وقد أصابها الذعر من النار واللفظ ، وقد اضطبغت أجنحتها بلون مورد من وهج اللهب المضطرم فى وسط الظلام الفاحم ، ولكن الصائدين يصمتون فجأة ، ويطفئون فى سرعة ما كانوا أضرموه من شعل ، فإذا بالطيور التى بهر عيونها بريق النار تسقط بين أيدي الصائدين فى سهولة ودون أدنى مقاومة .

شئ قريب من هذا وقع فى حياة باربارا ، فقد كان حب أسدروبال أشبه ما يكون بومضة خاطفة قصيرة ، خفقة جناح مهيض فى قلب الفتاة المسكينة التى ذقت لأول مرة طعم شعور طاهر نقى فى حياة الوحل التى كانت منغمسة

فيها ، ولكن هذا الشعور العارض لم يلبث أن خنقه في مهده بقسوة ووحشية أولئك الرجال صائدو اللذة بما ارتكبوه مع الصبية العاجزة الضعيفة .

ولم ينقذها في هذه الليلة من أيدي أولئك الذئاب إلا إيوستاكيو العجوز ، وهو هندي من قبيلة « البانيا » كان يعمل دليلا للقراصنة على ظهر القارب ، وكان يشعر بالعطف على الصبية منذ أن عهدت أمها إليه بها - وكانت من نفس قبيلته - قبل أن تقضى نحبها من جراء المعاملة السيئة التي كان يصبها عليها القبطان ؛ إذ أوصته أن يرعى الطفلة بقدر ما يستطيع .

وعاشت باربارا بعد ذلك في كنف الهندي العجوز ، غير أن ذكرى تلك الليلة السوداء لم تفارق خيالها قط ، ولم يعف على جراح قلبها منذ ذلك اليوم مرور الزمن ولا الحياة الهادئة التي أدخلت إليها في ظل الكهل الطيب ، ولا طبيعة الاستسلام والرضا بالقضاء التي كانت تثيرها أحيانا في أعماق روحها الهندية نغمات الناي الحزينة التي طالما كانت تنصت إلى ترجيعها في بيتها الجديدة .

لم يعد في قلب باربارا محل إلا للبغض الهائل والرغبة العارمة في الانتقام، ولم تكن تشعر بالراحة واللذة إلا لمنظر الرجل وهو يتضور في براثن قوى الشر المدمرة . ولهذا فإنها أقبلت في الوسط الجديد على استكناه أسرار السحر ، واللعنات التي يصبها على الناس « كاماخاي - ميناري » إله الشر في غابات الأورينوكو ، والقوى الشيطانية المستقرة في أحداق السحرة ، والفوائد العجيبة التي تنسبها الهنديات إلى بعض الأعشاب وجذور النبات ، فيستخرجن منها مادة « البوسانا » التي يزعمن أنها تقوى فحولة الرجال وتهيج من شهوتهم، وإن كانت تحل عزيمتهم وتضعف إرادتهم أمام إغرائهن ودلالهن ، كل ذلك أقبلت باربارا تتعلمه في شغف وحماسة ، حتى إنها لم تعد تعيش إلا من أجل معرفة الطرق الخفية التي يصل بها النساء إلى سحر الرجال وقيادة أزمتهن .

لم تأل باربارا جهداً فى انتحال مبادئ هذا العلم الأسود من أساطينه من طوائف السحرة والكهان التى تغمر هذه البقاع ، وهو علم يدين بوجوده لتلك الحياة الهمجية المتوحشة التى يباشرها الهنود ، تتلمذت الفتاة على أهل الحسد ممن يزعمون أنهم يستطيعون إلحاق أغرب الأمراض وأفظعها بمجرد تسليط النظر على الضحية ، وعلى النافثين ممن يدعون أنهم يشفون من كل مرض إذا نفخوا فى موضع الداء ترياق لعابهم المبارك ، والمعوذنين الذين لا تخلو علة من أن يجدوا لها دعاء يجلب البرء السريع إذا لاكته ألسنتهم وهم متوجهون بنظرهم إلى مكان الوجع حتى ولو كان بينهم وبين المريض عشرات الفراسخ . كل هؤلاء أذاعوا لباربارا أسرار حكمتهم وملأوا روحها بذلك خرافات وعمرها عقلها أساطير .

وكان جمال الفتاة الهجينة قد بدأ يعكر صفو القرية ، فقد كان الشبان يلاحقونها ويتمنى كل منهم الظفر بها ، أما النساء فقد كن يراقبنها فى حذر وغيرة ، وأخيراً أشار بعض الكهول من أولى الرأى والسداد على إيوستاكيو بأن يحملها بعيداً عن القرية بقدر ما يستطيع .

ومرة أخرى تعود باربارا إلى حياة التطواف والرحلة على طول مجارى الأنهار وهى على ظهر مركب فى رفقة الملاحين الهنود .

* * *

« الأورينوكو » نهر تصطبغ أمواجه بلون جلود السباع ، أما « الجواينيا » فإنه يجرها سوداء قائمة ، وفى قلب الغابة تلتقى مياه هذا بذاك ، ولكنهما لا تختلطان إلا بعد مسافة طويلة تحتفظ فيها كل منهما بلونها الخاص ، وقد حدث مثل ذلك فى نفس الفتاة الهجينة ؛ إذ بقى فيها تياران منفصلان من الغريزة العارمة العنيفة ومن البغض الأسود للرجال ، ولم يمتزج هذان الإحساسان فى أعماق نفسها إلا بعد مضى سنوات عدة .

وكان أول ضحية لهذا المزيج الرهيب من العواطف الجارفة هو « لورنثو باركيرو » أصغر أبناء « سباستيان باركيرو » ، وكان قد ذهب يطلب العلم في كاراكاس ، وكان يوشك على إنهاء دراسته في كلية الحقوق بتفوق يبشر له بمستقبل عظيم ، ويهم بالزواج من فتاة جميلة كريمة العائلة تعلق بها قلبه - حينما ثارت المنازعات الأولى بين عائلتي لوثاردو وباركيرو ، ووافق ذلك تطور مفاجئ غريب في شخصية لورنثو باركيرو ، فقد ظهرت عليه بغتة أعراض انحطاط خلقى وعقلى غريب ، إذ كان كثيراً ما تتابه نوبات من شرود العقل وانطفاء الذاكرة وخمود الذهن دون أن يدري أحد لذلك تفسيراً ، وما زال هذا الداء المفاجئ يلح عليه حتى قرر أخيراً أن يقطع تعليمه ويهجر قاعات الجامعة ، ويتولاه نفور من حياة العاصمة بما فيها من مغريات ، فإذا به يعود إلى ضيعة أسرته ، ثم يختار لنفسه منها مرجاً بعيداً خالياً ، ويظل فيه مستلقياً على كرسى طويل أياماً متوالية ، وحيداً صامتاً زائع النظرات شارد العقل ، كأنه وحش مريض منطو على نفسه فى أعماق جحره ، وما زال الأمر كذلك حتى عزم عزماً قاطعاً على الزهد فى كاركاس وفى كل ما كان يحب إليه الحياة فى تلك العاصمة : هجر دراسته وحياة المجتمع الرفيع التى كانت تنتظره ، وقطع صلته بخطيبته ، وقرر العودة النهائية إلى السهول لكى يتردى فى دوامة المأساة التى كانت ترقبه هناك .

وهناك شاء القدر له أن يلتقى فى عصر أحد الأيام بباربارا ، وكان لورنثو يقود قطعاً من الماشية إلى جوار ضفة الأراوكا ؛ حيث توقف لكى يتسلم حملاً من المؤن والأغذية إلى ضيعة أسرته « الباركيرينيا » ، وتصادف فى ذلك الوقت أن توقف قارب إيوستاكيو فى « مجاز الخوار » .

وتكرر لقاء لورنثو وباربارا ، واتصلت العلاقات بينهما ، وكانت فرصة انطلق فيها هذا المزيج المتفجر من عواطف الرغبة والكراهية الذى كان حبساً فى قلب الفتاة الهجينة ، كما لو كان عاصفة من تلك العواصف الهوجاء العنيفة التى اعتاد أهل السهول على رؤيتها تتفجر فى بضع لحظات ، ولكن باربارا لم

تحاول أن تخفى عن لورنثو ما تضطرم به نفسها من شعور البغض للرجال ،
فقالت له مرة بعد أن قصت عليه مأساة حياتها التعسة المثيرة :

- لقد بدوت لى حينما رأيتك لأول مرة كما لو كنت أسدروبال، ولكنى
لاأرى فيك الآن إلا الآخرين: فأنت مرة القبطان، ومرة أخرى « الضفدع » .

ولكنه يجيبها فى غرور المنتصر الواثق من ظفـره :

- نعم . كل واحد من هؤلاء الرجال الذين لا يحملين لهم إلا أشد
الكراهية سيتحول إلى إنسان آخر ما دام يتمثل فى شخصى ، وسترين كيف
أستطيع أن أجعلك تحبينهم جميعاً واحداً واحداً فى شخصى أنا .

وتعود هى فتقول فى حشـرجة تشبه الزئير :

- وسترى أنت كيف سأنتقم منهم جميعاً وسأحطمهم فى شخصك أنت !.

وأحب لورنثو الفتاة ، وكان حباً وحشياً لم يخل من طرافة جعلت له فى
قلب الشاب طعماً غريباً غير معهود، وأضفت على مغامرته مع فتاة القارب
مسحة مثيرة من الأصالة ، وانتهت هذه العلاقة بالقضاء على البقية الباقية من
روح لورنثو باركيرو والشمالة الأخيرة من وعيه وتفكيره .

وحملت منه باربارا ، ولكن الأمومة لم تخفف من حدة هذه الكراهية
العارمة التى كانت تملأ نفس تلك المرأة « صائدة الرجال » ، بل على العكس
زادت من تهيجها وإضرار شعلتها ، فإن وجود جنين فى أحشائها لم يكن يعنى
بالنسبة لها إلا مظهراً من مظاهر انتصار الذكر عليها ، وصورة من صور عبث
الرجل بها وإذلاله لها، وأخيراً ولدت وهى تحت نفوذ هذا الشعور الجارف :
شعور الكراهية المتزايدة للرجال ، فكان المولود أنثى ، ولكن باربارا لم تشأ حتى
مجرد رؤيتها فضلاً عن إرضاعها وتربيتها ، بل ألقت بالطفلة الوليدة إلى نساء
آخر كان فى قلوبهن من الرحمة ما لم يكن فى قلب أمها .

أما لورنشو أبوها فإنه لم يكن أكثر اهتماماً بابنته من باربارا ، وأى اهتمام كان يستطيع أن يوليه للطفلة رجل عقد حلفاً مع الشيطان متجسداً في تلك المرأة التى لم تكن تشبع؟! رجل راح ضحية « العمل » السحري الذى كانت المرأة الشيطانية تخلطه له فى مطعمه ومشربه حتى تمتص آخر قطرة من ماء رجولته! وهكذا لم يمض وقت طويل حتى لم يبق من الشباب الناضر لهذا الرجل الذى كان مؤهلاً لمستقبل باسم إلا جسد قد التهمته الرذائل، وإرادة مهیضة محطمة ، وروح كانت تنتقل بسرعة من الإنسانية إلى أدنى درجات الحيوانية المتوحشة .

ولم يعد لورنشو بقادر على الإحساس ولا التفكير، حتى إنه كان يظل أياماً متوالية وهو متهالك على نفسه فى غيبوبة لا يستطيع لها مغالبة ، بينما كان يسرى فى جسده سم « البوسانا » التى كانت باربارا تعدها له بفضل ماتلقته من سحرة الهنود ، فتؤجج نار شهوته ، وتنضب معين رجولته ، وتسحق ما بقى له من ملكة التفكير والإرادة ، ولم تضيع الخبيثة وقتها فى أثناء ذلك ، فلم يكفها ما فعلت بالرجل ، بل كان هدفها هو أن تنزع منه كل ما يملك .

وكان الذى أدلى إليها بهذه الفكرة رجل كانوا يدعونه « الكولونيل أبولينار » كان يجوب هذه الجهات باحثاً عن أرض يشتريها بفضل ما جمعه من أموال الغصب والرشوة فى أثناء توليه منصباً كبيراً فى الحكم الإدارى لبعض أقاليم المنطقة ، يواطئه على ذلك أعوانه من رجال الأمن الذين هم أشبه بالطيور الجارحة الكاسرة ، ولهذا فقد كان « الكولونيل » أعرف الناس بطرق التحايل على القانون واصطناع صيغ فى السرقة والغصب ليس عليها غبار من الناحية القضائية . ورأى أبولينار الفرصة سانحة: رجل محطم لا إرادة له ولا حول، وامرأة لا خلق لها ولا ضمير ، كل همها - فيما يبدو - أن تجد رجلاً يشبع غريزتها ، فرسم خطته بسرعة وبدأ يتودد إليها ويحاول إيقاعها فى حبائله ، وفى أحد الأيام عرض لها باقتراح كان يرجو أن ينال به ودها :

- إن لدى طريقة فى غاية البساطة تمكن لك من أن تصبحى المالكة الوحيدة لضيعة « الباركيرينا » ، وهى طريقة مؤكدة النجاح لن تحتاجى معها إلى الزواج من لورنثو باركيرو مادمت تنفرين - كما تقولين - من كل رباط يجعل لرجل الحق فى أن يدعوك امرأته ، وهى تنحصر فى بيع صورى ، وكل ما عليك أن تفعلى هو أن تحمليه على توقيع الوثيقة ، وذلك أمر لن يكون من العسير عليك إنهاؤه ، وأنا مستعد لكى أعد لك الصيغة القانونية للمبايعة بالشكل الذى لا يدع مجالاً لأفراد أسرة لورنثو للقيام بأى اعتراض قد يتسبب فى أى صعوبة .

ووجدت الفكرة قبولاً من جانب باربارا :

- أنا موافقة على ذلك ، فاكتب لى هذه الصيغة ، وأنا كفيلة بحمله على توقيعها .

وتم الأمر على مارسم أبو لينار، ووقع لورنثو الوثيقة دون أدنى مقاومة ، ولكن باربارا حينما ذهبت لتسجيلها لدى الموثق اكتشفت أنها تتضمن مادة تنص على أنها تسلمت من أبو لينار ثمن الضيعة كما لو كان قرضاً تتعهد بأن تسدده فى أجل محدود، وأنها تجعل الضيعة خلال هذا الأجل رهناً حتى تؤدى إليه دينه .

ولم يجد أبو لينار عناء فى أن يدلى لها بالتفسير المناسب :

- إننى لم أجد بداً من وضع هذه المادة حتى تحمينا من أى تدخل من جانب أقرباء لورنثو ، فإنهم لو عرفوا أن البيع صورى فإنهم قد يطالبون بالغائه واعتباره باطلاً ، ولهذا فإنى رأيت من أجل رفع كل شك أن أسلمك هذا المبلغ فى محضر الموثق، غير أن هذا ليس إلا مهزلة فيما بيننا نذر بها الرماد فى العيون، إذ تعيدى أنت إلى نقودى بعد ذلك فى مقابل وثيقة أسلمك إياها ، تكون ملغية لما جاء فى المادة السابقة الواردة فى عقد البيع .

وأطلعها أبو لينار على هذه الوثيقة الخاصة ، وكان قد احتاط للأمر ، فأعدها بصورة لا تجعل لها أية قيمة قانونية .

وفطنت باربارا لما كان يدبره أبولينار ، ولكن لم يكن هناك وقت للتراجع ، لا سيما وأنها كانت بدورها قد أعدت خطتها للاستيلاء على هذا المال الذي كان أبو لينار يعزم على استثماره فى ضياع مغتصبة ، فأعادت إليه وثيقته ، وأجابته فى لهجة ودودة لينة :

- حسناً ... سيتم كل شيء على ما ترغب .

وداخل الزهو نفس « الكولونيل » الذى رأى فى لهجة باربارا الطيبة المتقادة مابشره بنجاح خطته من ناحية ، ومن ناحية أخرى بأن باربارا فى طريقها إلى الاستسلام له ومنحه ما كان يسعى إليه من إيقاعها فى شباك هواه . وهنا الرجل نفسه : هاهى تلك المرأة توشك أن تمنحه جسدها ، ولن تتأخر بعد ذلك عن تسليمه الضيعة ، وتعود إليه نقوده كاملة عدداً ونقداً .

ومرت بضعة أيام ، ثم ذهبت باربارا إلى لورنثو ، وأبلغته ما استقر عليه عزمها :

- لقد قررت أن أستبدل بك رجلاً آخر : الكولونيل ، ولهذا فلتعلم أنه لم يعد لك مكان فى هذا البيت .

ولم يفتح الله على التعس إلا بأن يفوه بهذه الأضحوكة :

- ... ولكنى على استعداد لأن أتخذك زوجة شرعية .

ولم تتمالك الخبيثة نفسها من إطلاق قهقهة عالية ، واضطر المخلوق الذى كان رجلاً إلى أن يغادر منزله إلى الأبد ، ويمضى طريداً لاجئاً إلى الكوخ المتواضع الذى كانت باربارا قد ألقت فيه بابنتها بعيداً عن أنظارها ، وكان هذا الكوخ قائماً فى موضع « لاتشو سميتا » الذى لم يكن فى الحقيقة من أملاكه

السابقة ولا من أملاك أسرته ، وذلك منذ أن اتفقت أمه وخاله خوسيه لوئاردو على أن يظل « أرضاً حراماً » حتى ينتهى القضاء فيه إلى حكم أخير .

ومنذ أن آل ملك ضيعة أسرة باركيرو إلى المرأة الملعونة تغير فيها كل شىء ، حتى اسم « الباركيروينا » الذى كان آخر ما يدل على نسبتها إلى تلك الأسرة لم يعد قائماً ؛ إذ قررت المرأة أن تستبدل به اسم « ضيعة الرعب » ، وكأنما كانت تريد أن تعبر بالاسم الجديد عن كل ما كان قلبها يكرهه من الكراهية لكل من حولها وما حولها .

وما كان هذا النجاح الذى أتيح للمرأة الطموح ليشير فى قلبها المظلم الحقوق إلا مزيداً من الطمع والرغبة ، فقررت ألا يهدأ لها بال إلا إذا استولت على جميع الأراضى التى يشتمل عليها حوض الأراوكا ، وتهياً لها من الكولونيل أبو لينار خير معين على تحقيق مآربها بما له من خبرة وتجارب فى طرق التحايل على القانون ، فبدأت ترفع القضايا على جيرانها ، فإذا رأت من القانون صلابة مكسر اتجهت إلى رشوة من لا مانع لديه من قبول الرشوة من القضاة ، وما أكثرهم فى محاكم هذه الجهات ! وهكذا حتى لم تعد لدى عاشقها الجديد حيلة لم تتعلمها ، ولا سر من أسرار « المهنة » لم يفض إليها به ، وحينئذ رأت أنه لم تعد بها إليه من حاجة ، ولا سيما بعد أن أدى دوره فى خدمتها فأحسن الأداء ، وأعانها على مد رقعة أرضها والاستيلاء على كثير من أرض جيرانها ، وهكذا قررت التخلص منه ، ولم يمض وقت طويل حتى اختفى الكولونيل أبو لينار من هذه المنطقة على صورة غامضة خفية ، وانتهت باربارا من ذلك الرجل الذى كان - بما طبع عليه من غرور - يفتخر بين الناس بأنه مالك قيادها .

واتجه نظر المرأة بعد ذلك إلى ضيعة « ألتاميرا » التى كان صاحبها قد أهملها وتركها فى أيدي وكلاء لم تجد باربارا مشقة فى شراء ذمتهم بما كانت تغدقه عليهم من الرشا ، وهكذا لم تلبث ضيعة ألتاميرا أن أصبحت « الفريسة

المفضلة « للمرأة الشرهة الطامعة دائماً فى المزيد . ولجأت باربارا إلى وسائلها المعتادة ، فأقبلت ترفع القضايا على صاحب « ألتاميرا » ، وتمكنت بذلك من التهام مساحات كبيرة من هذه الضيعة ، وظلت الحدود الفاصلة بين أرضها وأرض جارها تتقدم بفضل الأحكام التى حصلت عليها من المحاكم ، ولم تكتف بذلك ، بل كانت تعتمد أيضاً إلى طريقة أخرى أكثر سهولة وأقل مؤونة ؛ إذ كانت تأمر أعوانها بدق الحدود الفاصلة بين الأرضين على صورة تضمن لها أكثر مما تستحق ، وكانت تتخذ من غموض الأحكام القضائية وعدم دقتها فى التحديد ذريعة لما تغتصبه من ضيعة ألتاميرا ، كما كانت تعتمد على تجاهل وكلاء لوئاردو وتغافلهم ؛ إذ كانوا على اتفاق معها بحكم ما كانت ترشوهم به ، ولهذا فإنهم كانوا لا يحركون ساكناً إزاء ما تفعله .

وأما سانتوس لوئاردو فقد كان كلما أتته أنباء خيانة وكيل من وكلائه وتفريطه فى حقوقه عمد إلى تغييره واستبدل به وكيلاً آخر ، ولكن ما أكثر ما كان الوكيل الجديد يتكشف عما هو أسوأ مما كان يرتكبه سلفه ، وهكذا ظلت ضيعة لوئاردو تنتقل من يد إلى يد حتى انتهت أخيراً إلى رجل يدعى « بالينو باييا » ، وكان تاجر خيول شاءت الظروف أن يذهب إلى « ضيعة الرعب » لكى يفاوض صاحبها فى شراء عدد من خيولها ، واتفق أن وجه الرجل إليها فى أثناء الحديث عبارة غزل جريئة وقعت منها موقع القبول ، وكان ذلك فى الوقت الذى انهمكت المرأة فى البحث عن وكيل يدبر شئون ضيعة ألتاميرا دون أن يشك أحد فى حقيقة ما كان بينهما من تفاهم واتفاق .

وسنحت الفرصة أخيراً فى أعقاب آخر قضية كسبتها السيدة باربارا ضد سانتوس لوئاردو ، وكانت المرأة الماكرة قد أوقعت محامى خصمها فى أشراك غرامها مما جعله يتهاون فى حقوق موكله ، وكان الحكم فى هذه القضية قد صدر بفضل معاونة هذا المحامى بإضافة خمسة عشر فرسخاً من أرض ألتاميرا إلى « ضيعة الرعب » ، وقد قنعت السيدة باربارا بهذا القدر فلم تحاول هذه المرة أن تنتهز الفرصة فتضيف إليه مساحة أخرى كما اعتادت ، ولكنها طلبت إلى

ذلك المحامى أن يوصى سانتوس لوثاردو بأن يعهد بمنصب إدارة أعماله الشاغر إلى « بالينو باييا » ، ومنذ ذلك الوقت حملت أعوانها على أن يقتنصوا أكبر عدد من الشيران ورءوس الماشية التى كانت ترعى فى تلك المروج ، فيسموها بميسم « الرعب » ، وتلى ذلك عملية نقل الحدود الفاصلة بين الضيعتين ، موسعة بذلك أرضها على حساب الضيعة التى لم يكن لها حام ولا نصير .

وبينما كانت أرض المرأة الخبيثة تتزايد كل يوم وثروتها تتضخم بسرعة غريبة كان كل ما يقع إلى يديها من النقود ينقطع عن التداول ، ويقولون إنه كان لديها عدد من مكاييل الفخار مملوءة بالقطع الذهبية، فقد كانت تفضل هذا النوع من النقود، وكانت تدفن تلك المكاييل فى أمكنة لا يعرفها أحد غيرها، ويزعم الناس أن تاجراً غنياً من تجار الماشية كان جاراً لها ذهب إليها يوماً ليقترض منها مبلغاً من المال، وكان يعرف عنها عاداتها فى أنها لا تقدر المال بالعد وإنما بالكيل ، فتوجه إليها قائلاً:

- هل تسمحين ياسيدتى بأن تقرضينى « ربعاً » من القطع الذهبية ؟

ويزعم الناس أن باربارا غابت قليلاً ثم أتته بالكيل ، وقد ملأته بالقطع حتى زادت عن سطحه وتكومت فوق حافاته ، ثم سألته :

- أهكذا تريده مكوما أم تفضله مسطحاً مستويًا ؟

- لابل مسطحاً مستويًا ياسيدتى، فإن هذه الزيادة قد تكلفنى كثيراً عندما يحين موعد سداد الدين !

ويقولون إن المرأة أزالَت الزيادة فى الكيل بمسطرة مسطحة كانت قد أعدتها لذلك، وقالت للرجل :

- انظر يا صديقى . حينما تعيد المال إلى فائى أريده هكذا : فى مثل هذا الكيل وقد ملأته إلى قمته ، ثم سويت سطحه بضربة واحدة بالمسطرة !

هكذا كان الناس يحكون عنها ، وربما كان فى هذه القصص كثير من الخيال والمبالغة ، ولكن الحقيقة التى لا شك فيها هى أن السيدة باربارا كانت على قدر عظيم من الغنى ومن البخل فى وقت واحد.

أما ما كانوا يقصونه عن قدرتها على السحر فلم يكن كله ثمرة الخيال الخصب أو الاختراع المفتن، فالواقع أنها كانت تعتقد حقيقة فى قواها الخارقة للعادة ، وكثيراً ما كانت تتحدث عن « شريك » خفى أنقذها من الموت فى ذات ليلة عزم فيها أحد القتلة المأجورين من قبل بعض خصومها على اغتيالها وهى على فراشها، فلم يكن من « الشريك » المزعوم إلا أن أشعل لها شمعة وأيقظها قبل أن يقتحم الرجل مسخدها بلحظات. ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا « الشريك » ناصحاً معيناً لها يشير عليها فى المواقف الحرجة بما ينبغى أن تفعل ، أو يكشف لها عما يهملها من الأحداث المستقبلية أو الواقعة فى مكان بعيد . أما هى فكانت تزعم أنه ليس إلا روح المسيح المقدس المنسوب فى منطقة « أتشاجواس » ، وإن كانت تسميه « الشريك » فى بساطة ودون تصنع ، وأما الناس فى تلك الجهات فقد كانوا يعتقدون أنه الشيطان ، وأن هذه المرأة قد عقدت حلفاً مع قوى الشر الرهيبة التى تستحوذ عليها الشياطين .

على أن الله والشيطان لم يكونا بالنسبة لها إلا شيئاً واحداً ؛ إذ إن روحها كانت مستودعا لهذا المزيج الغريب المختلط من السحر والإيمان بالله، من لعنات المشعوذين وصلوات المتدينين، كل ذلك فى كتلة واحدة من العقيدة، ولهذا لم يكن من الغريب أن تضع السيدة باربارا على صدرها مجموعة من صور مريم العذراء ومن رقى السحرة الهنود وتعاويذهم فى نسق واحد ، ولا أن تجتمع على رفوف الغرف التى خصصتها «محراباً » تتلقى فيه وحى « الشريك » الخفى صور للمسيح والقديسين وصلبان مصنوعة من سعف النخيل المبارك، مع عوذ سحرية من أنياب التماسيح أو الأحجار ذات القوى الروحية الغريبة على زعم الكهان، أو الطواطم التى كانت قد جلبتها معها من قرى الهنود؛ كل ذلك كان يستقى شعلته التى لا تنطفئ من سراج زيتى مشترك.

أما هذا المزيج الغريب الذي كان يضطرب في قرارة نفس « صائدة الرجال » من الشهوة الحسية الطاغية ومن الكراهية العارمة للرجال، فقد بدأ يتطور بحكم مرور الزمن واختلاف الظروف التي كانت تعيش فيها ، فقد طغى الشره الشديد إلى المال والثروة على غريزتها ورغباتها ، وأفقدتها الجانب الأكبر من أنوثتها، حتى تحولت إلى امرأة « مسترجلة » لا تخلع عنها ملابس الرجال، وكانت كثيراً ما تقوم بنفسها بقيادة قطعان مواشيها مستخدمة عقد الحبال على ماجرت به عادة البقارين هناك، أو مروضة الخيول المتوحشة كخير ما يستطيع أن يفعل أمهر رعاة البقر ممن كانوا يعملون في خدمتها ، وقلما كانت ترى إلا وقد تدلى من حزامها الرمح القصير والمسدس المحشو الذي لم تكن تتردد في استخدامه عند الضرورة ؛ إذ لم يكن هدفها من حمله هو مجرد الإرهاب.

كل ذلك باعد بينها وبين النساء ، وإن كانت لا تحجم في بعض المناسبات عن اصطناع الأنوثة إذا رأت في ذلك ما يعينها على بلوغ مأرب من رجل ، كأن يكون عوناً مخلصاً متفانياً في خدمتها، أو آلة طيعة لها في ميدان العدو - كما كان الأمر مع « بالينو بايا » جاسوسها وصنيعتها في ضيعة سانتوس لوئاردو منذ أن استطاعت بحيلتها وكيدها أن تمهد لتعيينه مديراً لأعمال هذه الضيعة ، فقد كانت لا تتورع في بعض الأحيان عن التنازل له بمداعبة رقيقة أو السماح له بأن يوجه لها عبارة غزل. وفيما عدا ذلك فقد كانت ترى الأنوثة مظهراً للضعف والاستسلام، بينما كانت عقيدتها في الحياة أنها ينبغي أن تكون للقوى الذي يأخذ لا للضعيف الذي يعطى وينقاد، وقد بقيت كراهيتها للرجل مستقرة في نفسها ، وإن كانت قد تحولت إلى احتقار شديد له ، وإلى رغبة قوية في إذلاله وإخضاعه .

وعلى الرغم من هذه الحياة البعيدة عن الأنوثة ومن سن الأربعين التي كانت قد ناهزتها ، فقد ظلت امرأة جميلة يشتهيها الرجال ، وإذا كانت قد فقدت الكثير من سحر الأنوثة ورقتها فإن مظهرها المسترجل كان يضيف عليها طابعاً غريباً أصيلاً من الفتنة : مزاجاً من الوحشية والجمال والرغبة الغامضة في وقت واحد .

هكذا كانت السيدة باربارا : غريزة طاغية ، وإيمان بالخرافة والشعوذة ،
شراهة إلى المال وقسوة مريرة تنضح بالشر ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان
يقبع فى أعماق نفسها المظلمة شىء صغير طاهر ، هو ذكرى أسدروبال المؤلمة ،
ذكرى الحب الوحيد الذى مر على روحها مرور الطيف ، والذى كان من الممكن
أن يحولها إلى امرأة طيبة ، ولكن هذه الذكرى نفسها كانت أشبه بإله من آلهة
الشر لا تتم طقوس عبادته إلا إذا قدمت إليه قرابين من التضحيات الغالية ، فقد
كانت تلح عليها دائماً ذكرى أسدروبال كلما جمعها القدر برجل يستحق منها
أن تنصب له الجبائل ؛

الفصل الرابع

طريق واحدة والف طريق مختلفة

مجاز « شجرة الخروب » يؤدي إلى ضيعة « التاميرا » بعد أن يخرق عدة منخفضات تحدد وجه الربى الحافة بمجرى « الأراوكا » .

وما إن نزل سانتوس لوئاردو من القارب الذي كان يحمله وقرب من ذلك المجاز حتى خرج يعلن عن وصوله نافخاً في بوق من المحار ، وعلى صوت ذلك البشير خرجت عدة فتيات مطلات من أعلى الربوة لينظرن إلى القادم الجديد ، بينما هرع إلى شاطئ النهر ثلاثة صبيان ورجلان .

وتفرس سانتوس لوئاردو هذين الرجلين ، فعرف في أحدهما « أنتونيو ساندوفال » بوجهه المستدير ولونه الزيتوني وسحته التي يتميز بها أهل وادي « الأراوكا » ، كان هو أنتونيو « راعي البقر » كما كان سانتوس يدعو في أيام طفولته في ضيعة التاميرا ، ورفيق صباه في جولاته من أجل اختيار عسل النحل والبحث عن أوكار العصافير .

وما إن تقدم سانتوس من الرجل حتى رفع هذا قبعة على رأسه محيياً في احترام ، ولكن سانتوس ألقى عليه ذراعيه يعانقه على نفس الصورة التي سبق أن ودعه بها منذ ثلاث عشرة سنة مضت ، وتأثر التابع الأجير ، فانطلقت منه صيحة انفعال :

- سانتوس !

وقال له لوئاردو ويداه ما تزالان على كتفيه :

- إن ملامحك لم تتغير أبداً منذ افترقنا يا أنتونيو !

وعاد التابع إلى تمالك شعوره بالفرح وإلى مخاطبته باحترام التابع إلى سيده :

- أما أنت يا سيدى فقد تغيرت كثيراً ، وتحولت إلى شخص آخر ، بحيث لو لم أكن أعلم نبأ وصولك على المركب لما تعرفت عليك !

- إذن لم يكن قدومى مفاجئاً لك كما كنت أظن ! وما الذى أدراكم بوصولى على ظهر ذلك المركب ؟

- يبدو أن الخبر أتى به إلى « ضيعة الرعب » التابع الأجير الذى كان يرافق « الساحر » .

- آه ! ... حقاً ... لقد كانا رجلين ، ولا بد أن يكون أولهما قد وصل مساء أمس بطريق البر .

- إن الذى أوصل إلى الخبر هو « خوان برمييتو » : وهو رجل أبله يعمل هناك فى « ضيعة الرعب » ، وهو مع ذلك لا تخفى عليه شاردة ولا واردة ، حتى إنه أشبه ما يكون بجهاز استقبال برقي يلتقط الأنباء ويذيعها فى لحظات . وبهذه المناسبة فإنى ظللت طوال اليوم مشغولاً قلقاً بسبب ما تبينته من إلحاح « الساحر » على مرافقتك فى المركب ، وقد كنت أتحادث عن ذلك مع رفيقى « كارمليتو » حينما انطلق صوت البوق مبشراً بقدومك .

وكان يشير إلى زميله الذى يرافقه ، واستطرد مقدماً إياه إلى سانتوس لوثاردو .

- « كارمليتو لويث » ... رجل يمكنك ياسيدى أن تثق به ثقة عمياء ، وهو حديث العهد بالخدمة هنا ، ولكنه من المعروفين بالولاء والإخلاص لكم إلى أبعد حد ممكن .

- فى خدمتكم ياسيدى .

قالها الرجل فى اقتضاب وجفاف وهو يرفع يده إلى قبعته فى احترام بارد دون أن تدرك أنامله حافة القبعة ، وكان « كارمليتو » رجلاً حاد التقاطيع

مستقيم خطوط الوجه مقرون الحاجبين ، يبدو لأول وهلة كما لو كان رجلاً بعيداً عن الدمائية ولطف المعشر ، شديد التحفظ والانطواء ، ولا سيما فى محضر الغرباء الأجانب .

وعلى الرغم من هذا المظهر الجاف البارد فإن ما وصفه به أنتونيو جعل سانتوس لوئاردو يطمئن إليه ويشعر نحوه بالارتياح والثقة ، وإن كان قد فطن إلى أن هذا الشعور لم يكن متبادلاً بين الجانبين ، فقد شعر فى نظرات «كارمليتو» إليه بأنه لم يلق منه قبولاً طيباً .

والواقع أن كارمليتو كان كما وصف رفيقه أنتونيو من الإخلاص لأسرة لوئاردو ، فقد كان من التابعين الثلاثة أو الأربعة الذين ظلوا متمسكين بالولاء لتلك الأسرة ، والذين كانوا مستعدين للتضحية بكل شىء من أجل إعانة سيدهم على تلك الحرب التى قرر أن يشنها على أعداء عائلته وهاضمى حقوقه ، ولم يكن قد مر على التحاق كارمليتو بخدمة سانتوس إلا زمن قصير ، ولكنه لم يفكر فى مغادرة الضيعة على الرغم مما كان يتعرض له من مضايقات «بالينو باييا» وعنته ، وإذا كان قد بقى فى «ألتاميرا» فما كان ذلك إلا نزولاً على رغبة صديقه أنتونيو الذى كان محافظاً كل المحافظة على سلوك أسرته التقليدى فى الإخلاص لآل لوئاردو والتفانى فى خدمتهم ، ومن أجل ذلك كان يجتهد بكل ما وسعته قوته فى الإبقاء على القلة الباقية من الأجراء الأوفياء فى «ألتاميرا» ، وكان يمينهم بقرب اليوم الذى سيأتى فيه سانتوس لوئاردو لكى يتكفل هو بنفسه بأمر الضيعة ويرعى شئونها ، ولهذا فإن كارمليتو ، مثله فى ذلك كمثلى صديقه أنتونيو ، لم يسمع بخبر قدوم سانتوس حتى ابتهج واستبشر ، فقد قدر على الفور أن «بالينو باييا» سيطرده من العمل الذى كان يتولاه ، وسيطالب بتقديم حساب عن سرقاته وخياناته ، وأنه سيوضع أخيراً حد للجرائم التى ارتكبتها السيدة باربارا ، وبهذا تستقيم الأمور وتصلح ، وتعود المياه إلى مجاريها .

غير أن كارميلتو لم ير سانتوس لوئاردو حتى خاب فيه ظنه ، فقد كان بالنسبة له أبعد ما يكون عن مثال الرجولة الذى كان يتخيله فيه ، بدا له ذلك منذ اللحظات الأولى التى وثب فيها عن ظهر المركب ، فقد رأى فى مظهره المعتد بنفسه غروراً وخيلاء ، ولم ترق له دقة تقاطيع وجهه ورقة بشرته التى لم تلوحها الشمس إلا مدة أيام رحلته ، ولا إشارات المهدبة المعبرة عن دماثة الخلق ، ولا شاربه الخلق فى جهات يعتبر الشارب الكثيف فيها رمزاً للرجولة ، ولا ثيابه الأنيقة الضيقة ، ولا سراويله الواسعة من أعلى والتى تضيق حتى تلتصق بالركبتين بدلاً من حذاء الركوب الطويل الذى كان شائع الاستعمال هناك ، ولا رباط عنقه الذى ينم عن إسراف فى التألق فى مثل هذه الأراضى البدوية الخشنة ؛ كل ذلك بدا لكارميلتو من مظاهر اللين والميوعة التى لا تبعث على الاحترام .

وصر الرجل على أسنانه وتمتم فى غيظ :

- أهذا هو الرجل الذى علقنا آمالنا عليه ؟ وما الذى يصلح له مثل هذا الفتى المرفه الرقيق ؟ .

وفى هذا الوقت كان أبو أنتونيو يتوجه إلى المرسى الذى نزل به سانتوس ، وكان عجوزاً قد تغضن وجهه وإن كان شعره قد ظل فاحم السواد ، وكان يتمايل فى مشيته كأنه يطلع ، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه .

ولم يشاهده سانتوس حتى هرع إليه يصافحه فى حرارة وهو بصيح :

- « مليسيو » العجوز ! ... الذى لم يترك مر السنين على رأسه شعرة واحدة بيضاء !

وأجاب الكهل ضاحكاً :

- ... ولا الهنود يقدرّون على رسمها ياطفلى العزيز !

وبقى يمازح سانتوس لحظة وقد انفرجت أساريره بالضحك . . . ضحكة صامته بدا خلالها فمه الأهمم ولثاته التى سودها ما يلوكه من التبغ ، ثم واصل حديثه قائلاً :

- . . . وهكذا أرى أن « الولد سانتوس » لم ينسنى بعد ! ولتدعنى أخاطبك هكذا بلفظ « الولد » كما كنت أخاطبك منذ أن كنت طفلاً تحبو حتى أعود على تلقيبك بالدكتور ، فأنت تعرف أن الشيوخ من أمثالنا لا تنقاد ألسنتهم اليابسة بسرعة للألقاب الجديدة .

وأجاب سانتوس وهو يتسم :

- لك أن تدعونى بما شئت أيها العجوز !

- وإن كان ذلك لا يمنع الاحترام الواجب ، أليس كذلك يا ولد ؟ والآن تعال إلى منزلى لتنال قسطاً من الراحة قبل أن تواصل المسير إلى الضيعة .

ومضى الراكب فى طريقه صاعدين فى السكة المنحدرة الخارجة من المرسى ، وكانت تمتد على يمين الطريق أسيجة الحظائر التى كانت تتجمع فيها قطعان الماشية الخارجة من هناك إلى المراعى المجاورة ، وقد ابيض خشبها من تعرضها للجو ، وعلى اليسار كانت ترى مجموعة من المساكن التى تتميز بها هذه السهول : بيتان بنيت جدرانهما من روث الماشية وسعف النخيل كانا مسكن ملىسير وأسرته ، وفيما بينهما كوخ مستدير له سقف واطى غليظ من السعف ، وفى وسطه مائدة طويلة يحيط بها عدد من المقاعد الخشبية الطويلة ، وعلى مقربة منه كوخ آخر أوسع وأعلى سقفاً قد ربطت إلى أعمدته ركائب أنتونيو وكارمليتو والمطية التى سبق لهما إحضارها من الضيعة من أجل سانتوس ، وتدلّت من حواجزه المصنوعة من خشب النخيل قطع من جلود الظباء وحيوان «التشجويرى»* حديثه العهد بالدبغ ، إذ كانت تنبعث منها رائحة كريهة نفاذة .

وإلى وراء هذا الكوخ امتد صف من أشجار البرقوق الوارفة
وشجرة الخروب الفارعة التى سمى باسمها المجاز المؤدى إلى ضيعة التاميرا .
وفيما عدا ذلك لم يكن الناظر يرى أمامه إلا السهول الواسعة المنبسطة والمراعى
التى لا يحيط بنهايتها إلا الأفق المستدير ، وفى وسط هذا الامتداد الهائل
الأجرد بدت كتلة سوداء من الشجر معلقة فى الجو كما لو كانت سراباً ، وهى
غابة منعزلة جرى أهل السهول على أن يطلقوا عليها اسم « الخميلة » .

ومد سانتوس بصره فى الفضاء وصاح فى انفعال :

- ألتاميرا ! . . . كم من السنوات مضت دون أن أراك ؟ !

وكانت الفتيات اللاتى أطلن من الربوة على القادم الجديد قد هرعن
إلى داخل البيتين المجاورين ، ونظر إليهن ملىسيو الكهل ثم علق يقول :

- إنهن حفيداتى . . . فتيات « لم يستأنسن » بعد كما اعتدنا هنا أن نقول . . .
لقد ظلن طوال عصر اليوم وعيونهن معلقة بشاطئ النهر فى انتظارك ،
فلا تكاد تصل حتى يتهربن ويختبئن فى داخل البيت !

وتوجه سانتوس بالسؤال إلى أنتونيو :

- أهن بناتك يا أنتونيو ؟

- لا ياسيدى ، فأنا لم أثقل نفسى بعد بمثل هذا العبء والحمد لله .

وأضاف ملىسيو الشيخ :

- هن حفيداتى ، ولكن من أبنائى الآخرين . . . الذين انتقلوا إلى رحمة الله .

وانتقل الرجال الأربعة إلى ناحية الكوخ الأصغر ، وكانت أرضه
قد كنست بعناية ، أما المقاعد الخشبية فقد صنعت على هيئة حدوة الحصان
كما لو كانت أعدت لقضاء سهرة من تلك السهرات الصاخبة التى يقضيها
الرعاة فى الغناء والرقص للتفريج عن أنفسهم ، وفى وسط هذه المقاعد المترصة ،

وفى مكان الشرف منها كرسى وثير قديم يعد من مظاهر الترف فى وسط الأثاث البسيط المتواضع الذى تشتمل عليه بيوت أهل السهول ، وقد كان من الواضح أن هذا الكرسى أعد لجلوس الضيف موضع الحفاوة . وصاح ملىسيو بعد لحظات :

- أخرجن يابنات ... وكفاكن اصطناعا للخجل ... أقبلن لتحية الدكتور .
وكانت حفيداته الثمانى قد توارىن خلف الأبواب ، وكن بالفعل مشوقات إلى تحية الضيف القادم ، وإن كن يحاولن إخفاء خجلهن بالتضحك والتدافع فيما بينهن .

- اخرجى أنت أولا .

- ولماذا لا تخرجين أنت ؟

وأخيراً أقبلن فى صف واحد ، واحدة وراء الأخرى ، كأنهن يمشين على حافة طريق ضيق ، وهن يكررن جملة واحدة لا تتغير كأنهن ينشدن قطعة من المحفوظات :

- كيف حالك ياسيدى ؟ كيف حالك ياسيدى ؟ كيف حالك ياسيدى ؟

بينما كان ملىسيو يتولى مهمة تقديمهن :

- هذه هى « خرفاسيا » بنت « مانويل » ، وتلك هى « فرنسكا » بنت « أندريس رامون » ، وهذه الأخرى هى « خنوفيفا » ، والتى تليها هى « ألتاجراسيا » . . . بقيرات أسرة ساندوفال كما يسميهن الناس هنا ، أما من الذكور فليس لى إلا الصبيان الثلاثة الذين أنزلوا أمتعتك وحقائبك من القارب . . . هذه هى التركة التى أورثنى إياها الأبناء . . . أحد عشر فما كل منها كامل عدد الأسنان .

فلما زال عنهن خجل التحية الأولى والتقديم أقبلن يجلسن على المقاعد المصفوفة واحدة إلى جانب الأخرى بنفس الترتيب الذى دخلن به ، وبقين لحظات لا يعرفن خلالها ما يصنعن بأيديهن ولا أين يتجهن بأبصارهن ولم تكن كبراهن « خينوفيفا » تجاوز السابعة عشرة ، ونظر سانتوس إليهن ، فرأى من بينهن فتيات على جانب من الوسامة قمحيات البشرة وإن كان لونهن مشرباً بالحمرة ، سود العيون ، لامعات النظرة ، يدل مظهرهن على الصحة وقوة البنية .

وبدأ سانتوس الكلام متوجهاً إلى ملىسيو :

- إننى أغبطك ياملىسيو على هذه الأسرة التى يبعث أفرادها الابتهاج والسرور فى النفس ، فكلهم أقوياء أصحاب الجسوم ، وأرى من ذلك أن هذه المنطقة لا تسودها الأمراض التى طالما تفتك بسكان هذه السهول .

وأجاب العجوز وهو ينقل مصاصة التبغ من فك إلى فك :

- سأقول لك يا ولدى : حقا إن جو هذه المنطقة لا تكثر فيه الأمراض كما تكثر فى غيرها من السهول التى مررت عليها فى طريقك ، ولكن لا تحسب أننا بمنجاة من بلائها . ولك فى محدثك عبرة : فقد أنجبت أحد عشر ولداً لم يصل منهم إلى سن الرجولة إلا سبعة فقط ، وها أنت ذا ترى أنه لم يبق لى الآن منهم إلا أنتونيو ، وبمثل ما أقول لك يمكنك أن تسمع من كثير من أهل هذه النواحي ، ولكننا فى هذه الأرض نحسن الصبر ونوطن أنفسنا على الاحتمال ، جعلها الله ساعة سعد وفألاً طيباً تلك التى أقول فيها مثل هذا الكلام ، وأبعد الحسد عن جميع الحاضرين فى هذا المجلس بمنه وفضله ، ولكنى أود أن أذكرك بأن الأمراض هنا ليست قليلة ولا خفيفة المتونة .

وتوقف الشيخ لحظة بصق فيها مصاصة التبغ المرة ، ثم واصل الحديث عائداً إلى اللغة المجازية التى يستخدمها أولئك الرعاة الذين درجوا ونشأوا بين الماشية ، وخاتماً كلامه فى لهجة استسلام للقدر تشويه الدعابة :

- وإذا كنت فى شك مما أقول فانظر إلى : لم يبق لى الموت إلا صغار
الراءوس أما الماشية الكبرى - أعنى الأبناء وزوجات الأبناء - فقد أتى عليها
دود الأرض .

وأطلق ملىسيو ضحكته الخافته الصامته من جديد .

وأراد سانتوس أن يغير مجرى الحديث حتى يبتعد به عن هذا الموضوع
الحزين المثير لذكرىات الأسى فى نفس الشيخ ، فقال :

- ومع ذلك فكم من الشيوخ من أمثالك يا ملىسيو يتمنون أن يكونوا
فى مثل موضعك يحيط بهم هذا العدد الكبير من الحفيدات الجميلات ،
وتمتت خنوفيفا كبرى البنات :

- هذا من تطفك ورقتك ياسيدى .

بينما همهمت الأخريات بمثل هذه العبارة وقد علت وجوههن حمرة
الخجل ، وأطلق العجوز زفرة عميقة ثم قال :

- وهل تظن أن ذلك ما يملأ النفس بالسعادة والفرح ؟ إننى ما أكثر
ما أتمنى أن يكون الله قد أبدلنى بهن سربا من الدميمات إذ إن أمثال هؤلاء
يمكن لهن أن يرعين طليقات دون أن يتجشم المرء عناء حراستهن أو مراقبتهن ،
أما الجميلات فما أشد ما يكلفننى من نصب ، حتى النوم لا أستطيع أن آخذ منه
قسطا فى هدوء وسكينة ، بل إننى لا أستقر على فراشى إلا كما يستقر الكروان
الذى ينصب أذنيه دائما فى حذر وترقب خوفا من الثعلب ، وهكذا أنا : كثيرا
ما أنهض من فراشى بين لحظة وأخرى ، فأهرع إلى حيث يرقدن لكى أعدهن
واحدة واحدة ، ولا يستريح لى بال حتى أطمئن إلى وجود الفتيات الثمانى
بالتمام والكمال .

وعادت الضحكة الصامته إلى الارتسام على وجهه الذى رسمت الغضون والتجاعيد عليه ألف خط ، أما البنات فقد عادت حمرة الخجل تصبغ وجوههن ، وهن يجتهدن فى التغلب على الضحك ، ويقلن فى مهمة لا تكاد تبين :

- تبارك الله يا جدى ! أي كلام تقول ؟ !

وظل المجتمعون فى حديث متبسط وقد ارتفعت الكلفة بين سانتوس وأصحابه ، وهو بين الفينة والأخرى يداعب الفتيات بعبارات مرحة ، وهن يتصايحن مرحات أو يخفضن رءوسهن فى حياء ، ومليسيو العجوز ينظر إليهن وقد ارتسمت على وجهه المغضن ضحكته الصامته ، وأنتونيو يرمق سانتوس بنظرة ملؤها الإعجاب والولاء .

وقدم فى تلك الأثناء أحد الصبيان بأقداح القهوة التى لا يخلو منها أبداً بيت أحد من سكان السهول من أجل تحية الضيف الطارق .

وقال مليسيو والغلام يقدم قدح القهوة إلى سانتوس :

- إنك ستشرب القهوة من نفس القدح الذى كان يحتسيها فيه والدك أظله الله برحماته .

وسادت لحظة صمت قطعه العجوز أخيراً بقوله :

- وهكذا كان من نعمة الله علىّ أننى لم أمت قبل أن أرى « سانتوس »

الولد من جديد !

- شكراً لك يا عم .

- مالك أن تشكرنى على ذلك ، فلست أقول هذا مجاملة لك ، لقد ولدت

أنا وتربيت فى أسر تكم ، وفى أسر تكم ينبغى أن أموت ، إن الناس فى هذه الجهات يقولون عن عائلتنا حينما يعرض ذكرها إن أهل « ساندوفال » حينما يولد لهم ولد يسمون ظهره بميسم أسرة لوئاردو .

- نعم . لقد كُتِمَ دائماً تقاسموننا حياتنا : حلوها ومرها ، خيرها وشرها .
- هكذا كنا ، وأرجو أن نظل أوفياء لكم دائماً ، أبعد الله عنا شر الحسد ،
وأنا أكرر ذلك لكى يسمعه هؤلاء الصبيان الحاضرون لمجلستنا حتى يسيروا
فى نفس الطريق . نعم ياسيدى ، قاسمناكم حياتكم دائماً وأخلصنا لكم رغم
كل شيء ، وسنظل مخلصين : نتكلم حينما يأتى علينا دور الكلام ، ونسكت
طالما لم نسأل ، على أننا لم نتخل فى يوم من الأيام عن واجب كان علينا أدائه .
وإذا كانت قد حدثت هنأت لا أريد الخوض فيها الآن ، فمن يكن سائلاً لنا عن
ذلك فإليه الجواب - وهو ما كنت أردده دائماً لابنى أنتونيو - : إن بنى
ساندوفال لا يتخلون أبداً عن بنى لوثاردو إلا إذا بدا لكم أن تخرجونا عن
أرضكم فعندئذ . . .

وقاطعه ابنه أنتونيو قائلاً وهو يتسم :

- كفى ، كفى يا أبى . . . فإنهم لم يسألونا عن شيء بعد !

وأدرك سانتوس ما كان يرمى إليه ملىسيو بقوله « ونسكت طالما لم نسأل »
إذ أراد العجوز بهذه العبارة أن يسبق ما كان يمكن أن يوجهه سانتوس إليه
وإلى أسرته من عتاب على كونهم لم يبلغوه بما كان يرتكبه وكلاؤه ومدبرو
أمره من سرقات ، كما عبر بها عن امتعاضه وامتعاض أمثاله من المخلصين
لأسرة لوثاردو لاضطرارهم إلى الخضوع لهؤلاء الوكلاء اللصوص المرتشين
من أمثال بالينو باييا الذى كان دخيلاً على تلك الأرض ، بل إن لوثاردو
لم يكن رآه قط من قبل ، وأراد سانتوس أن يلطف الجو فقال :

- نعم إنى أدرك تماماً ، وأعترف بأن المخطئ والمسئول الوحيد عما حدث
هو أنا ، إذ كان ينبغى على أن أعهد إليكم أنتم برعاية مصالحى هنا بدلا من
أولئك الدخلاء ، ولكن الحقيقة هى أننى لم أهتم أبداً بتلك المصالح ولا
بالضيعة نفسها .

وقال أنتونيوفى معرض الاعتذار والتبرير :

- إن دراساته لم تدع له وقتا كافيا لذلك .

وأضاف سانتوس :

- نعم ، والبعد الطويل عن هذه الأرض .

وعلق ملىسيو :

- البعد عن هذه الأرض ! . . . نعم ، هذا أسوأ ما فى الأمر يابنى .

وواصل سانتوس كلامه قائلا :

- إننى أدرك الآن تماما مدى حرج موقفكم فى « التاميرا » إزاء كل ذلك .

فقال أنتونيوفى :

- نعم . مقومين ما اعوج من أمورنا بقدر ما نستطيع .

وأضاف العجوز بأسلوبه المجازى المعهود :

- وما أكثر ما تعرضنا له من العنت والإرهاق حتى اضطررنا أخيراً إلى أن نتظاهر بأنه قد رُوِّضَ منا العصى واستؤنس الجامح ، بل إن أنتونيوفى لم يجد بداً من أن يعلن خضوعه وطاعته لذلك النذل « بالينو » ، وأن يتظاهر بالانقلاب عليك والعداوة لك حتى لا يأمر بطرده . وبهذه المناسبة أظنك قد لاحظت أن هذا الرجل لم يأت لاستقبالك ! .

فأجاب سانتوس :

- نعم ، وأحمد الله على ذلك ، فلعله خير وأفضل ، بل ليته يرحل عن الضيعة قبل أن أصل أنا إليها ، وإلا فأنى حساب يمكن أن يقدمه إلى إلا ما اعتاد أن يقدمه هو ومن سبقوه من سرقة وغش وتزوير ؟ وعلى أية حال فأى عقاب أستطيع أن ألحقه به إذا كنت أنا المسئول عن كل ما وقع ؟

وكان كارمليتو فى هذا الوقت يحكم وضع السروج على الخيل المربوطة إلى أعمدة الكوخ الكبير ، فما إن سمع جواب سانتوس حتى تتم قائلاً لنفسه :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ ها هو ذا يتمنى اجتناب أى تصادم له مع الوكيل الخائن على الرغم من اعترافه بغشه وسرقته . ياله من رجل ! لقد حدث ما توقعت ، وما كنت مخطئاً حينما قلت إن هذا الفتى الرقيق الناعم لا أمل يرجى من ورائه . أما الرحيل عن هذه الضيعة فلا يكونن أنا أول راحل ؛ فإننى لا أقبل المقام فى مثل هذا الجو بعد اليوم .

وربما دار فى نفس أنتونيو مثل هذا التفكير أيضاً على الرغم من الولاء الذي كان يملأ نفسه نحو سانتوس حينما سمع هذا يصرخُ بالرغبة فى السماح لوكيله بالمضى عن الضيعة فى هدوء دون أن يحاسبه على ما قدمت يداه من خيانة ، فزوى أنتونيو ما بين حاجبيه فى استياء وظل صامتا .

أما سانتوس فقد أقبل يحتسى قهوته رشفة رشفة فى تلذذ على عادة أهل السهول الذين لا شىء عندهم يعدل المتعة التى يجدونها فى ترشف قـدح من تلك القهوة السوداء ذات الرائحة الذكية ، ومع هذه الرشفات أحس سانتوس بشعور عنيف يهز نفسه وهو يتأمل المروج الممتدة أمام بصره .

كان كل ما حوله يجدد فى نفسه ذكرى هذه الأرض التى قضى فيها أيام طفولته : أشعة الأصيل المنسكبة على السهول الهائلة المنبسطة التى يسودها سكون مطبق ، والكوخ المتواضع الذى كان جالسا فى ظله يتمتع بنسمات العصر الباردة ، والفتيات الجالسات أمامه فى حياء وقد لبسن حفاوة به أفخر ملابسهن وزين رءوسهن بأزهار برية جمعنها من تلك المروج بعد أن ظللن اليوم كله يترقبن وصوله ، وفرحة العجوز الصادقة وهو يرى أن « الولد سانتوس » لم ينسه بعد ، والولاء الصامت النبيل الذى يطل من عيني أنتونيو

وإن كان يشويه بعض امتعاض واستياء ، كل ذلك كان يقول لسانتوس
إن في هذه الأرض خيراً وطيبة ، وإن العدا والشر لم يكونا فيها كل شيء ،
إن تلك الأرض التي فكر في هجرها وقطع صلته بها مازال فيها ناس صالحون
يحبون ويقاسون ، ولا يأسون .

وغادر سانتوس دار مليسو ، وهذا الشعور الذي أزال الجفوة بينه وبين
هذه الأرض يملأ عليه نفسه ، وكانت الشمس قد انحدرت للمغرب .

مضى سانتوس عبر السهول العريضة . . . السهول التي تبدو للناظر
كما لو كانت طريقاً واحدة . . . وألف طريق مختلفة في الوقت ذاته .

الفصل الخامس حسرة في الحائط

كان الراكب يتقدم ببطء فى الطريق الضيق الذى شقته حوافر الماشية فى وسط المروج ، وكانت الخفافيش تتطاير عن جانبيه وقد أعشت أبصارها الأشعة الأخيرة للشمس المنحدرة للغروب ، ومن هنا وهناك كانت أصوات الكروان الحادة تشق الصمت المخيم العميق .

وعن بعيد بدت بعض الطباء وهى تغذ الجرى هاربة أزواجاً ، حتى تغيب عن النظر فى نهاية الأفق . وكانت ألوان الشفق الدافئة الصارخة تصبغ المروج الفسيحة ، وقد لاح فى وسطها شخص فارس يقود قطيعاً من الماشية وهو على على صهوة جواده ، وقد انفلتت من مجموعته هنا وهناك ثيران وحشية قد شهرت قرونها فى تحدٍّ وزهو ، أو انطلقت تجرى فى جموح واستعصاء ، بينما انقاد سائرهما المستأنس فى طريقه خطوة إلى الحظائر ، حيث ارتفعت سحب من الدخان الأبيض مما اعتاد الرعاة على أن يحرقوه من روث البقر عندما يجن الليل حتى يبعدوا عنهم أسراب البعوض التى تقلق نوم الناس والماشية ، وتراءت عن بعد عاصفة من الغبار أثارتها حوافر فوج من الخيول المتوحشة ، بينما كانت جماعة من الطيور البلسون(*) متخذة سبيلها فى الفضاء متجهة إلى الجنوب واحدة وراء الأخرى فى نظام واتساق .

غير أن المنظر فى السهول المنبسطة أمام ناظرى سانتوس كان يشير الانقباض فى النفس ، وقد كان يذكر ما قيل له من قبل إن ضيعة « التاميرا » لم يعد فيها من الماشية إلا رءوس قليلة مهزولة ، ولكنه كان يعتقد أن ذلك لم يكن إلا ضرباً

من ضروب المبالغة ، على أنه يرى بعينه كيف لم يبق على بسيط المروج الهائلة إلا ما يبلغ نحو مائة من الرؤوس المستأنسة والمتوحشة ، بينما كانت فى أيام أبيه خوسيه لوئاردو قطعاناً من البقر والخيول لا يحصيها العد .

ولم يتمالك سانتوس نفسه وهو يرى حطام هذه الثروة من أن يهتف فى غيظ وقنوط :

- لقد انتهى كل هذا ! . . . وماذا أتيت أستنقذ فى هذه الأرض إذا لم يعد فيها ما يستحق الإنقاذ ؟ !
وأجابه أنتونيو :

- عليك ياسيدى أن تقدر الموقف: إن ماشية هذه الأرض كانت بين نارين: فالسيدة باربارا من ناحية ، ثم عصابة من الوكلاء الخونة لا مجال للمفاضلة بينهم فى باب السرقة والصوصية من ناحية أخرى ، وقطاع الطرق ممن تخصصوا فى السطو على المواشى منقضين عليها من أوكارهم على ضفاف « الكونا فيتشي » لكى يحملوا منها ما طاب لهم كما ينقض الفيضان على أرض العبيد التى لا يحميها أحد ، وأضف إلى ذلك ما ألحقت بها الثورات المتعاقبة وما خلفته من خراب فى هذه المنطقة ، ثم لجان الحكومة التى كانت تأتى إلى هذه الأرض لكى تبحث عن الخيول ، وكانت تستسهل أخذها من هنا ؛ إذ إن السيدة باربارا هى التى كانت تدلهم على هذه الضيعة حتى لا يستولوا على خيولها هى .

وختم سانتوس كلامه قائلاً :

- إنها لمصيبة ! . . . الخراب الذى حل بهذه الأرض وإن كنت أستحقه وأكثر منه !

ولكن أنتونيو استطرد وهو يحاول التخفيف عن سيده :

- ومع ذلك ياسيدى الدكتور فما زالت فى هذه الأرض حتى الآن ثروة كبيرة من الأبقار الوحشية ، ولله الحمد على ذلك ؛ إذ كان من الممكن أن تمتد إليها الأيدى أيضاً ، فقد كان من حسن الحظ أن حملات النهب والاغتصاب من «التاميرا» قد اقتصرت على الماشية المستأنسة ولا سيما منذ أن كثرت العناية بصناعة الجبن ، ولهذا فقد اكتفى الوكلاء حتى الآن بالسطو على ما يستطيعون منها ، وأعرضوا عن الأبقار الوحشية لا زهداً فيها ، وإنما من أجل العناء الذى كانوا يجدونه فى استئناسها ، وكان من لطف الله بنا أنبقى الكثير من هذه الأبقار ، وسوف تمضى فى ليلة من الليالى القادمة إذا شئت إلى المرج الذى ندعوه « الخميعة اللوئاردية » حتى ترى بنفسك مدى الثروة التى تعنيها تلك القطعان والتى تستحق أن تجاهد من أجل المحافظة عليها والدفاع عنها . ولو أنك تأخرت فى القدوم عدة أيام فقط لما وجدت حتى هذه الرءوس ، فقد كان « بالينو بايا » قد عزم على الفتك بها ليقسمها مع السيدة باربارا ، وما ذلك بغريب منذ أن حل غرامها بقلبه ! . . .

وتساءل سانتوس وقد علتة الدهشة :

- ماذا ؟ إذن بايا هو العشيق الجديد للسيدة باربارا ؟

- ولكن . . . ألم تكن تعلم بهذا يادكتور ؟ ألم تكن تعرف أن هذا هو السبب الذى أتى من أجله إلى هنا؟ هذا هو على الأقل ما تقوله السيدة باربارا ؛ إذ تؤكد أنها هى صاحبة الفضل فى اضطراره بإدارة أعمالك فى « التاميرا » .

وأدرك سانتوس فى هذه اللحظة مدى خيانة ذلك المحامى الذى أوصاه باختيار بايا وكيلا له ومدبراً لأمواره فى الضيعة ، فضلاً عن كونه قد تسبب بإهماله وتواطئه مع غريمته فى فقد القضية التى رفعتها عليه ، وأربد وجه سانتوس وارتسم على قسماته المحنقة تعبير عن الصرامة والرجولة والعزم على الانتقام ، ولم يغب على كارمليتو ما يعنيه هذا التعبير الجديد الذى لم يكن ينتظره من رجل كان قليل الثقة فى نخوته ، فلاحته على شفثيه ابتسامة خفيفة ،

وكأنه شعر بالندم على ما حدثته به نفسه قبل ذلك بلحظات من الاستهانة بشأن سانتوس ، والارتياح في قدرته على الكفاح . أما أنتونيو فما كان ليفوت نظراته النافذة ما بدا على كارمليتو من تغير في نظرتة إلى الفتى ، وداخل السرور نفسه من أجل ذلك ، لا سيما بعد أن كان قد بدأ هو نفسه يرتاب أيضاً في رجولة سانتوس وصلابة عزمته .

وحدث أنتونيو نفسه وهو مسرور باكتشافه :

- لقد من الله علينا برجل حقاً : إن سلالة « لوئاردو » لم تنقرض بعد ! وظل التابع الأمين ساكناً وقد غمر نفسه شعور من الاحترام ، أما كارمليتو فلم يعلق بشيء ، وسادت فترة صمت طويلة لم يكن يسمع خلالها إلا وقع حوافر الخيل على أرض الطريق ، ومن بعيد بدا شبح الفارس الذى كان يقود القطيع ، وقد استحال إلى ظل أسود فى وسط الأضواء الخفيفة التى تلقيها على الأفق الشمس المحتضرة بينما انطلق فى الفراغ الهائل الأصم صوت غناء مستطيل النبرات يرجع أغنية من أغاني الرعاة .

ومضى سانتوس يتأمل المنظر المحيط به وذاكرته تعود به إلى أيام طفولته وصباه التى قضاها بين هذه الربوع ، فترك عينيه تجولان فى أنحائها ، واستولى على نفسه شعور من الحنين ألقى على روحه راحة وسكينة ، وأفرغ على قلبه برداً وسلاماً ، فانبسطت أساريره ، وتواثبت على شفثيه أسماء تلك المروج التى طالما رتع بين جنباتها فى صباه :

- « الحميلة القائمة » ، « الكرمة » ، « مرج النخيل » ، « لاتشوسميتا » ..

وما إن نطق سانتوس باسم هذا الموضع المشئوم ناشر سموم الخلاف والنزاع التى أدت إلى تفريق شمل أسرته وتدميرها حتى عصفت بنفسه نوازع من الحقد والغضب والمرارة عكرت عليه ما كانت نفسه قد استعادت من السكينة والسلام . ترى أكان ذلك نكسة من نكسات تلك الكراهية التقليدية الموروثة بين عائلته وأسرة « باركيرو » والتى كان يظن الزمن قد سحب عليها ذبول النسيان ؟

وبينما كان سانتوس يبحث فى قرارة نفسه عن جواب لهذا السؤال الذى كان مجرد تفكيره فيه يدل على وعى جديد ، إذا به يسمع « أنتونيو » وهو يتمتم ، وقد استولى على نفسه أيضاً ذلك الشعور الحقود الذى كانت أسرته تحمله - بحكم التبعية والإخلاص - إزاء أسرة « باركيرو » :

- « مرج لاتشو سميتا » الملعون ! نعم ياسيدى ! . . . حيث يقيم الآن ذلك الشقى الذى حرض الابن على أبيه ، وكأنه يحاول أن يكفر بحياته البائسة التعسة عن خطيئته الشنعاء !

وكان أنتونيو يشير بعبارته إلى « لورنثو باركيرو » ابن عمه سانتوس الذى حرض فليكس لوئاردو على استفزاز أبيه فى تلك الليلة المنكودة التى اجتمع فيها أهل القرية فى حلبة مصارعة الديكة ، والتى انتهت بقتل خوسيه لوئاردو ابنه الأكبر . كان فى نبرات أنتونيو وهو ينطق بهذه الكلمات تشف هائل وشماتة مسعورة كما لو كان ما فعله لورنثو باركيرو موجهاً إلى أسرته لا أسرة سيده .

ولكن لهجة أنتونيو حركت فى نفس سانتوس من يقظة الضمير ما كانت حزازات الثأر القديم توشك أن تخمدته ، فعادت إلى قلبه السكينة وغمره شعور من الغفران والثراء لما حل بذلك الرجل ، فسأل تابعه وقد أحس بالراحة لتجرده من الشماتة :

- أما يزال لورنثو المسكين على قيد الحياة ؟

- بلى . . . إذا كانت الحياة هى مجرد تردد النفس ؛ إذ إن ذلك هو كل ما بقى له من الحياة ، إن الناس يطلقون عليه هنا اسم « شبح الباركيرو » فهو فى الحقيقة ليس إلا حطام رجل ، وهم يقولون إن « باربارا » هى التى أحالته إلى هذا المصير ، ولكنى أعتقد أن الأمر لم يكن إلا انتقاماً رهيباً أوقعه الله به بما قدمت يداه إذ إن شبابه قد بدأ يجف ويذبل قبل أن يعرف باربارا . . . منذ أن أغمد المرحوم خوسيه لوئاردو فى روحه حربته ! . . .

ولم يفهم سانتوس ما كان يقصده أنتونيو على وجه التحديد من هذه العبارة الأخيرة ، ولكنه استاء لزج ذكرى أبيه فى هذا الأمر المثير لكوامن المرارة والأسى ، ولهذا فقد غير مجرى الحديث ملقياً على صاحبه بسؤال عابر حول الماشية التى كانت ترعى هناك .

وغابت الشمس أخيراً ، ولكن الشفق الذى خلفته وراءها ظل معلقاً فى الأفق وقتاً طويلاً ، وقد خط على الجوّ أشرطة عريضة من الألوان القائمة لم يكن يقطعها إلا الخط الدائرى الطويل الذى تلتقى فيه الأرض بالسماء ، بينما أطل فى الاتجاه المقابل قمر هائل كامل الاستدارة ، كان يصب ضياءه المفضضة على أسطح البيوت الصغيرة المتناثرة التى تتوجت هاماتها بالتبن والسعف ، وكأنها غلالة بيضاء شفافة . ومضى الركب فى طريقه إلى التاميرا ، فلم يصل إلى هناك إلا بعد أن خيم الليل وتراكب الظلام .

وأخيراً بدت لسانتوس معالم البيت الكبير الذى بنى من الطين والروث وقد اعوجت جدرانها ، وتمزقت أسطحه ، وكانت دهاليزه قد سقفت بالصاج وأحيط بسور يحميه من الماشية ، ومن ورائه فناء قد زرعت فيه بعض الأشجار القصيرة ، فأهل السهول لا يدعون الشجر الطويل إلى جوار منازلهم خشية الصواعق ، وفى قاع البيت المطبخ وعدة غرف صغيرة أعدت لتكون مخازن للبطاطس والفول وغير ذلك من الخضر والغلال اللازمة لقوت خدام الضيعة ، وإلى يمين المنزل الكبير انتشرت بيوت صغيرة أحدها مخصص لسروج الركائب والخيول ، والأخرى لإقامة الخدم وإيواء الأجراء ، وقد بسطت فيما بينها ألواح عريضة من الخشب أعدت لكى تفرش عليها شرائح اللحم المملح للتعرض للشمس والهواء حتى تجفف وتقدد ، وإن كانت لا تنجو من تجمع أسراب الذباب عليها ، وإلى اليسار مخازن أخرى لحفظ الذرة الشامية والحمص ، وللأخشاب والحبال ، ثم حظائر للماشية والدواجن والخنازير . هكذا كان المنزل الكبير القائم فى ضيعة التاميرا ، على نفس الهيئة التى بناه بها مؤسس

الإقطاع إيفارستو « الكوناftشيرو » منذ سنوات طويلة مضت ، باستثناء ما أضيف إليه من الآجر والصاج ، فقد كان ذلك من الإصلاحات التى أدخلها عليه خوسيه لوئاردو والد سانتوس ، أما فيما عدا ذلك فقد ظلت الدار كما هى - بعيدة عن تهذيب المدينة وعنواناً على هذه الحياة البدوية الخشنة التى يحياها أهل السهول .

ولم يدخل سانتوس ورفيقاه الدار حتى دبت الحركة فيها : فقد خرجت امرأتان كانتا فى المطبخ تطلان فى فضول لرؤية القادم الجديد ، وهرع ثلاثة رجال إلى مدخل البيت ، وكان هؤلاء هم كل من يقطن فى تلك الدار . وبدأ أنتونيو فى تقديمهم بأسمائهم وأعمالهم وصفاتهم إلى رب البيت :

أما الأول فكان رجلاً ذا بشرة فى لون الليمون ، له شارب لا يتجاوز بضع شعرات مسترسلة ، وقدمه أنتونيو قائلاً :

- « فنانشيو » المروض ابن « السيد فنانشيو » متولى صناعة الجبن . أترك تذكر أباه ؟

- بغير شك . . . أسرة مرتبطة بأسرتنا منذ وقت لا يعرف إلا الله مداه .

فقال الرجل باقتضاب :

- ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلت ياسيدى .

غير أن سانتوس رأى فى وجه « فنانشيو » هذا ما سبق أن لحظة على وجه كارمليتو حينما قدم إليه من مظاهر الجفاف والبرود .

وواصل أنتونيو تقديمه للرجل الثانى ، وكان أشقر أحمر الشعر أزرق العينين يبدو من الهجناء المولدين .

- قائد القطعان « ماريانييس » ، رجل من رجال السهول الخالص ، داهية بعيد الغور حتى فى اسمه الذى يبدو كما لو كان اسم امرأة ، وسوف ترى ياسيدى أى نوع من الرجال هو . . . إننى لا أقدم إلا الخلاصة والصفوة ! .

وأجاب الرجل فى أدب :

- هذا من تطفك يا أنتونيو .

ثم عاد إلى سانتوس فقال :

- أنا يا سيدى فى خدمتك فى حدود القليل الذى أصلح له .

أما الثالث فقد كان رجلا شديد السمرة تدل تقاطيع وجهه على أن دمائه تجمع بين جنسى الهنود والزنج ، وكان طويلا مهزول عظم الساقين والذراعين ، يتألق وجهه بالبشر والمرح رغم رثاءة ثيابه وبذاذة هيئته ، ولم يدع الرجل فرصة لأنتونيو حتى يقوم بتقديمه ، إذ سبق صاحبه قائلا :

- بعد إذنك يا سيدى الدكتور سأقوم أنا بتقديم نفسى حتى أتجنب ما يمكن أن يسبق به لسان رفيقى أنتونيو من إساءة وصفى والكشف عن عيوبى ؛ إذ إننى أرى الخبث مرتسما فى عينيه . أنا «خوان بالاثيوس» ولكنهم يطلقون على هنا لقب «باخاروتى» ، وبه يمكن لك أن تدعونى ، ولست من أسرة «مرتبطة بأسرتكم منذ وقت لا يعرف إلا الله مداه» كما سبق أن قلت من قبل ، ولكنك تستطيع أن تعتمد على فى كل ما تسع طاقتى ، ويكفيك أن تنظر إلى لى تعرفنى ، فأنا رجل لا يختلف ظاهره عن باطنه ، بهذه الكلمات التى أرجو ألا أكون فيها مثقلا عليك أضع تحت تصرفك يا سيدى رجلا أسود البشرة يدعونه «باخاروتى» .

ومد الرجل يده مصافحا سانتوس ، فشد عليها هذا بحرارة ، وقد أعجبه منه أسلوبه الصريح المرح ، أما أنتونيو فقد تمت فى إعجاب بطلاقة رفيقه فى الكلام :

- هكذا يقال يا باخاروتى !

فأجاب الرجل فى زهو ساذج :

- نعم ، فإن الله لم يخلق الكلمات إلا لى تقال ! .

وتبادل سانتوس مع رجاله بعض الكلمات ، ثم أوى إلى إحدى غرف البيت لكي ينال قسطاً من الراحة ، فلما خلا أنتونيو برفاقه الثلاثة وجه إليهم هذا السؤال الذى لم ير من الحكمة أن يفوه به فى حضرة سيده :

- كيف لم يبق فى الدار غيركم ؟ وماذا فعل الرجال الآخرون ؟
فأجابه فنانشيو :

- لقد ذهبوا عن الضيعة ، إنكم لم تكادوا أنتم تخرجون لاستقبال سانتوس حتى أسرجوا خيولهم وتوجهوا إلى « ضيعة الرعب » .

- والسيد بالينو باييا . . . أو لم يأت إلى هنا ؟

- لا . . . ولكن ذلك كله لم يكن إلا تدييراً منه ، ولقد كنت منذ زمن أشك فى كونه هو الذى يشجع الرجال على ترك الخدمة هنا حتى تحقق ظنى أخيراً .
وقال أنتونيو بعد تفكير قصير :

- على أية حال لم نفقد الكثير بذهابهم عنا ، فقد كانوا جميعاً قومًا على غير خلق ولا أمانة ، كثيرى التظاهر بالعمل وهم لا يعملون فى الحقيقة شيئاً فضلاً عن كونهم من صنائع بالينو وأعوانه على دسائسه ومؤامراته .

وفى هذه الأثناء كان سانتوس لوئاردو قد استلقى على الفراش الذى أعد له فى إحدى غرف الدار ، وكان الإعياء والإرهاق بعد يومه المثلث بمشاق السفر قد أخذاً منه كل مأخذ ، ولكن روحه كانت متيقظة وأعصابه متوترة ، فلم يذق طعمًا للنوم ، بل أخلد إلى تفكير عميق وأقبل يحلل أحاسيسه ومشاعره ويقلب موقفه على جميع الوجوه .

كانت نفسه حائرة قلقة بين تيارين يتجاذبانها : واحد منهما كان يدفعه إلى تحقيق ما كان يتراءى له من مثل نبيلة عالية ، والآخر يشبط من عزمه ويدعوه إلى الأخذ بالحذر وانتهاج سبيل عملية واقعية دون أن يورط نفسه فى مزيد من المتاعب والمشكلات .

كان يستولى عليه ذلك التفكير الذى تمخضت عنه تأملاته لتلك السهول الشاسعة المهجورة وهو فى طريقه إلى الضيعة : الرغبة فى أن يكرس حياته لخدمة هذه الأرض والعمل فى سبيلها من أجل غاية قومية سامية ، مكافحاً فى سبيل تخليصها مما هى معرضة له من عوامل الفساد سواء من قبل الطبيعة أو من قبل العناصر البشرية السيئة ، ومنادياً بالإصلاح الذى يمكن أن يوفر لسكان هذه البقعة ما يستحقون من رخاء ورفاهية ، كان سانتوس يشعر بهذا شعوراً ملحاً ، وكان يحس أنه فى ذلك لم يكن ينطق عن هوى أو رغبة ، بل كان إيماناً مجرداً نزيهاً بواجبه إزاء بلده ووطنه إذ إن استرداد أرضه المغتصبة وحقوقه المهضومة كان أمراً غير ذى بال بالنسبة له ، وعلى أية حال فهو وسيلة لا غاية .

ولكنه يحس أن هذا الهدف الذى كان تفكيره يسمو إليه لم يكن يخلو من هذه النزعة الجريئة المندفعة المتحررة من قيود المنطق المتزن والقياس العقلى الذى يقدر المقدمات والنتائج ، فهو إلى حد كبير وليد تلك البيئة الجافية الخشنة التى ظلت حتى ذلك الوقت نصف همجية ، وتلك الأرض «أرض الرجال الذكور» كما كان أبوه معتاداً على تسميتها ، فالواقع أن جانباً كبيراً من عزمه على الاحتفاظ بالضيعة ومقاومة السيدة باربارا إنما كان يرجع إلى هذا الحديث الذى دار بينه وبين قبطان المركب الذى أتى على ظهره من تحذير له من التعرض لتلك المرأة وتخويفه من بطشها ودسائسها ، لم يكن هذا التفكير فى البقاء إلا مظهرًا من مظاهر تلك الشخصية العنيدة المقاتلة الكامنة فى نفسه .

وهو يتساءل أخيراً : ألم يكن هذا الاحتكاك بتلك البيئة هو الذى ولد فى نفسه من جديد مشاعر الكراهية التقليدية القديمة ، ونفض الرماد عن جذوة ذلك الشار القديم بينه وبين أسرة باركيرو ، وذلك منذ طالعت عيناه موضع « لاتشوسميتا » الذى كان مصدر تلك الفتنة المهلكة ؟ أليس فى هذه العودة المفاجئة إلى تلك العصبية القديمة وإلى ما تولده فى النفس من عنف ونزعة

إلى الانتقام نذير له بمدى ما تباشره هذه الأرض من نفوذ على من يعودون إليها ؟ لقد عاش سانتوس لوئاردو طوال السنوات الماضية منذ هجرته إلى العاصمة فى جهاد مع نفسه يحاول أن يخمد فيها تلك الشرارة الهمجية الكامنة فيها وتلك النزعة الموروثة إلى العنف والاعتداد بالقوة ، وكان يظن أن حياته الجديدة بما فيها من تحضر وتهذيب قد قتلت فى نفسه تلك المشاعر المنطلقة المتحررة من كل قيد لنظام أو قانون ، ولكنه الآن يرى بعد أن عاد إلى هذه الأرض أن عدواها قد بدأت تصيبه وأنها توشك أن تفسد عليه كل ما اجتهد فى بنائه خلال السنوات الماضية . هو الآن يرى فى نفسه ذلك الأثر المخرب الذى تركه تلك الحياة القاسية الخشنة التى يحياها أهل السهول بما تؤصله فى نفوسهم من النزوع إلى الشر والعدوان ، وبما تطبعه فى أذهانهم من صور مشوهة للرجولة إذ الرجل الحق عندهم هو الذى يعرف كيف يستقيم على صهوة جواده ويجول فى أنحاء هذه الأرض الفسيحة شامخاً بأنفه وكأنها ملك خالص له .

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى التفكير الهادئ المتزن : إن الغرض الأساسى الذى من أجله قدم إلى الضيعة هو بيعها والتخلص منها ، ولعل ذلك أقرب إلى الحكمة والتعقل ، وأوفق لما كان قد خطه لنفسه من مشروعات مستقبلية ، أما ماخطر بذهنه وهو على ظهر المركب من احتفاظ بالأرض وكفاح من أجل ما سما إليه من مثل عالية فربما كان خاطراً عارضاً عبر بذهنه وهو يتأمل تلك السهول التى رأى فيها النور لأول مرة ، وإلا فهل هو حقاً مستعد للعمل الكبير الذى يتطلبه تحقيق تلك المثل ؟ وهل له من التجربة والخبرة ما يسمح له برعاية مثل تلك الضيعة والسهر على مصالحها وتصحيح أوضاع بدائية جرى عليها الناس هناك منذ أجيال عديدة دون أن يفكر أحد فى إصلاحها أو التطور بها ؟ إن الخطوط العامة لبرنامج إصلاحى لم تكن لتغيب عن ذهنه ، ولكن التفاصيل والدقائق . . . أترأه قادراً على تبين معالمها الحقيقية وتنفيذها بعد ذلك ؟

وهل سيكون من اليسير عليه الانتقال من عالم النظريات والمثل الذى كان يحلق فيه إلى عالم الواقع المادى المحسوس المتمثل فى الدقائق التى تعنيها إدارة ضيعة فى مثل تلك الأرض . أم يتبين للجميع عجزه وسوء تصرفه فى « التاميرا » مما انتهى بها إلى ما يراه الآن ؟

ومن هنا كان التردد والإحجام بداخلان قلب سانتوس لوئاردو فقد كان يتهيب العواقب ، ولا يأنس فى نفسه القوة الكافية لمواجهة ما يترتب على الاحتفاظ بالأرض والصمود لعوامل الفساد المستشري فيها ، كان الحذر يقعد به عن المقام والثبوت ، ولعله كان مبالغاً فى تقدير الأخطار المحيطة به .

وقطع عليه حبل تفكيره أنتونيو الذى دخل عليه فى تلك اللحظة معلناً إليه أن المائدة معدة لتناول طعام العشاء ، غير أنه اعتذر قائلاً إنه لا توجد لديه شهية للأكل .

وقال أنتونيو معلقاً :

- حقاً ، فإن التعب والإعياء كثيراً ما يؤديان إلي فقد الرغبة فى الطعام .

ثم أضاف :

- سوف تنام هذه الليلة يا سيدى فى هذه الغرفة على ما هى عليه ، إذ لم يكن لدينا وقت إلا لكنسها وتنظيفها قليلاً ، وسنعمل غداً على تبيض الجدران وتنظيف البيت كله بعناية ، إلا إذا كنت تأمر بترميم الدار وإصلاحها إصلاحاً عاماً شاملاً ، لأنها فى الواقع لا تصلح للسكنى على حالتها الراهنة .

- لست أرى حاجة إلى ذلك الآن ، فلندعها على ما هى عليه ؛ إذ إننى قد أبيع الضيعة ، وسيمر السيد « إنكار ناثيون ماتوتى » من هنا خلال شهر ، وكنت قد فاضته فى أمر بيع الضيعة له ، فلو عرض على لها ثمنًا مقبولاً فإننى سأبيع له « التاميرا » دون تردد .

وظل أنتوني لحظات يفكر فى صمت ، ثم قال :

- ما دمت قد عزمت على ذلك فهكذا سيكون .

ثم قدم إليه مجموعة من المفاتيح وأضاف :

- تلك هي مفاتيح الدار ، وهذا الذى يبدو أكثرها صدءاً هو مفتاح القاعة ، ولعله الآن لا يصلح لفتح بابها ؛ إذ إنه لم يعد أحد إلى دخول تلك القاعة مرة أخرى ، فكل شئ فيها مازال بحاله لم تمسه يد كما تركها المرحوم تغمده الله بعفوه وغفرانه .

«كما تركها المرحوم . . . !» . . . منذ أن أغمد المرحوم فى روحه حربته . . . !

جملتان كررهما أنتوني على مسمع سانتوس لوئاردو فى هذه الليلة ، وقد جمع بينهما فى هذه اللحظة ترابط المعانى وتدايعها فى ذهن الفتى ، ملحة عليه بذكرى تلك الليلة المشؤمة التى قتل أبوه فيها أخاه الأكبر . . . ولم يكن أحد يستطيع أن يقدر أن مثول هذه الذكرى فى ذهنه ستكون بداية لمرحلة حاسمة فى حياته . . .

فقد نهض سانتوس من فراشه ، وتناول الشمعدان الموضوع على المائدة ، وقال لتابعه :

- افتح القاعة .

وصدع أنتوني بالأمر ، فأولج المفتاح فى القفل الذى ران عليه الصدا المتراكب ، وتمكن أخيراً وبعد جهد غير قليل من فتح الباب الذى ظل مغلقاً نحو ثلاثة عشر عاماً متوالية .

وصكت وجه سانتوس موجة من الهواء الراكد المنتن أرغمته على التراجع خطوة وبدا كأن شيئاً أسود قدراً يثير الاشمئزاز قد انقض على من ثنأى الظلام المخيم ، وإذا به خفاش أصاب بجناحيه الشمعة فأطفأها فعاد سانتوس إلى إشعالها واقتحم الغرفة يتبعه أنتوني .

وكان الأمر فى الواقع على ما ذكر أنتونيو : كان كل شىء فى الغرفة مازال على حاله كما تركها خوسيه لوئاردو : المقعد الهزاز الذى مات وهو متصلب فى جلسته عليه ، والحربة الغائصة فى الحائط الخشبى .

ووقف سانتوس لوئاردو لحظة يتأمل الحجرة وقد غلبه تأثر عميق ، ولم ينطق بكلمة ، ولكنه لم يلبث أن تقدم من الحائط فى تصميم وعزم كما لو كان يشعر شعوراً متيقظاً واعياً بأنه مقدم على عمل حاسم بعيد الأثر ، فانتزع الحربة بحركة لا تقل فى قوتها وعنفاً عن تلك التى أغمدتها بها أبوه فى ذلك اليوم المشئوم . وبدت صفحة السنان وقد غطتها طبقة من الصدا المتراكم الأحمر كأنما قد اصطبغت بالدماء ، وألقى سانتوس بالحربة بعيداً عنه وهو يقول لأنتونيو :

- أرايت كيف صنعت أنا بهذا ؟ فلتصنع أنت مثل ذلك بهذا الحقد الذى كان لسانك ينطق به منذ لحظات ، انزع عن قلبك ذلك البغض الذى ما كان لك أن تحمله ، فهو لم يستقر فى نفسك إلا غضباً وحمية لما لم يرتكب فى حقك ولاحق أهلك . إن فرداً من أسرة « لوئاردو » قد غرسه فى قلبك باعتباره فرضاً من فروض الولاء ، والآن قد أتى آخر من أفراد هذه الأسرة لكى يحل عن عنقك منذ هذه اللحظة ريقة ذلك الفرض الكريه . وليكفنا ما فعلت الأحقاد بهذه الأرض حتى الآن ! . .

وبدا على وجه أنتونيو التأثر العميق الذى خلفته فى نفسه كلمات سانتوس ، وبينما كان يمضى منصرفاً عن القاعة فى صمت إذا بسيدته يقول له فى لهجة حازمة :

- اتخذ العدة منذ صباح الغد لإصلاح المنزل وتهيئته للإقامة ، فإننى لن أبيع الضيعة .

وعاد سانتوس إلى فراشه ، وقد قرت نفسه وسكنت سريره ، وملاً قلبه
الثقة والتفاؤل .

واستسلم الفتى لنوم عميق تهدده في الخارج تلك الأصوات التي طالما
رافقت أحلامه في أيام صباه التي قضاها بين جنبات تلك السهول : نبرات
القيثارة المنبعثة من كوخ الرعاة المجاور ، ونهيق الحمير المتمرغة في الأرض
الحارة الرطبة ، ورغاء الماشية في الحظائر ، ونقيق الضفادع في البرك المتناثرة بين
المروج ، والألحان الرتيبة التي توقعها أسراب الجنادب في غير ملل ، ثم ذلك
الصمت العميق الهائل الذي يسود السهول المستسلمة للنوم في ضوء القمر ،
ذلك الصمت الذي يترك في النفوس صدى أوقع وأبلغ من جميع تلك
الأصوات . . .

الفصل السادس

ذكرى أسدروبال

... نفس هذه الليلة فى «ضبعة الرعب» .

كان «الساحر» قد وصل قرب مغيب الشمس إلى دار السيدة باربارا وأبلغه خدم الدار أنها قد جلست فى هذه اللحظة إلى المائدة وشرعت فى تناول العشاء ، ولكنه لم يشأ أن ينتظر حتى تفرغ من طعامها ؛ إذ كان لديه من الحساب ما يريد أن يسويه معها ومن الأخبار الجديدة ما يود أن يبلغها إياه ، فضلاً عن رغبته فى أن يأوى إلى فراشه ليأخذ نصيبه من الراحة بعد يومه المجهد ، ولهذا فقد أثر أن يدخل إليها فور وصوله ، وقد ألقى على كتفه ملحفته ، لم يخلعها بعد .

ولكنه لم يكذ يشارف باب الغرفة التى كانت تتناول فيها الطعام حتى ندم على تسرعه ، فقد رأى أنها لم تكن وحدها ؛ إذ كان يجلس إلى مائدتها «بالينو بايا» الذى لم يكن يشعر نحوه بأى احترام أو مودة ، وحاول «الساحر» أن ينكص عائداً على عقبيه ، ولكن باربارا خاطبته فى هذه اللحظة :

- ادخل يا «ملكيداس» .

- سأعود بعد قليل ياسيدتى ، فواصلى تناول عشاءك فى هدوء .

ورمقه بالينو بنظرة استخفاف وسخرية ، وهو يجفف شاربيه الكبيرين مما علق بهما من دسم الحساء متحسناً لهما بأصابع يده الغليظة وقال :

- تقدم ياملكيداس ، ولا تخف ، فليس هنا كلاب .

وقابله «الساحر» بنظرة عدااء وكراهية وأجابه فى تعريض يطفح بالخبث :

- أترك متأكدًا من ذلك ياسيد بالينو ؟

ولم يفهم بالينو ما كان يقصده «الساحر» من سؤاله المتهمك ، أما هذا فقد واصل كلامه متوجهًا إلى السيدة باربارا :

- لقد أتيت لكى أبلغك بأن الماشية قد وصلت سليمة إلى «سان فرناندو» ، ولكى أسلمك الثمن الذى بيعت به .

وترك الرجل ملحفته على مقعد ، وأخرج من حزامه كيسًا أفرغه على المائدة ، فتكومت أمام المرأة كومة من القطع الذهبية ، بينما قال لها :

- عديها ياسيدتى لترى ما إذا كان المبلغ كاملاً .

أما بالينو فقد نظر فى شراة إلى كومة النقود بطرفى عينيه ، وصاح فى نظرف وهو يعرض بعادة باربارا فى إخفاء الذهب دافنة إياه فى مخابئ لا يعرفها أحد غيرها :

- ذهب ؟! أسعد الله عيونًا اكتحلت برؤيتك !.

ومضى يعلك مضغة اللحم الكبيرة التى حشا بها فمه ، وإن كانت عيناه لا تفارقان كومة القطع الذهبية فى طمع وشراة .

وتقطبت أسارير السيدة باربارا ، ثم انفرجت فى سرعة ، كما ينقبض جناحا الصقر وينبسطان فى لمحة ، فقد أغضبها ما قاله باييا معرضًا بها ؛ إذ لم تكن متعودة على أن تسمح لعاشق من عشاقها بأن يصطنع الظرف على حسابها بمحضر الآخرين ، كما أنها لم تكن تسمح لنفسها بالتبسط مع أحد تبسطًا يوحى بمظهر من مظاهر الأنوثة التى قد تشعرها بالضعف إزاء الرجال ، ولم يكن يهمها من ذلك حديث الناس أو لو كهم سمعتها بما يعرض لهم ، فقد

كانت تحتقر كل من حولها ولا يهتمها ما يتكلمون به عنها من خير أو شر ، ولكنها كانت تصدر فى ذلك عن طبيعتها المسترجلة المتعالية . أما بالنسبة إلى بالينو باييا فقد كانت تكن له شعوراً من الاحتقار العميق .

ولم يكن هذا بدوره يجهل شعور باربارا نحوه ، ولكن غباءه وغروره كانا يحملانه على أن ينتهز كل فرصة تسنح له أمام الناس لكى يظهر ما يعتقد أنه دليل سيطرته عليها ودالته عندها ، حتى ولو جابهته فى كل مرة برد مخجل ملجم للسان ، وكان التعريض الذى قذف به فى هذه المرة من أقل ما يمكن أن تحمله هذه المرأة التى اشتهرت بالبخل أو تسكت عليه ، ولهذا فإنها لم تتردد فى مقابلة الصفعة بمثلها ، وأتى ردها سريعاً وهى تحتفظ بالنقود دون أن تعدها :
- لا حاجة بى إلى عدها ، فهى كاملة بغير شك ، إنك لا تخطيء أبداً ياملكيادس... ليست لديك مثل هذه العادة الذميمة .

وامتدت أصابع بالينو الغليظة إلى شاربيه الكثيفين لا لينظفهما هذه المرة ، وإنما كان يفعل ذلك دائماً كلما بوغت بأمر يضيق به ذرعه أو يخرج له صدره ، فهو لم يحظ أبداً من السيدة باربارا بمثل هذا المظهر من مظاهر الثقة ، بل كانت تعد كل ما يسلمها من نقود عدداً حريصاً دقيقاً ، فلورأت المبلغ ناقصاً - وكثيراً ما كان يحدث مثل ذلك - أقبلت تنظر إليه طويلاً دون أن تفوه بكلمة ، حتى يتظاهر هو بأنه قد فطن إلى نقص المبلغ باعتبار ذلك سهواً غير متعمد ، فيكمله لها مما أبقاه فى جيبه . ثم إن ما ذكرته المرأة من أمر تلك «العادة الذميمة» لم يكن إلا تعريضاً به هو ، فها هو ذا يرى أنه على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها إليها بحكم المنصب الذى كان يتولاه فى إدارة أعمال ضيعة «التاميرا» فإنها لم توله أدنى نصيب من الثقة ، بل لم تحتمل منه مجرد عبارة سبق بها لسانه نظرفاً ومداعبة !.

وواصلت باربارا كلامها موجهة الخطاب إلى «الساحر» :

- والآن يا ملكيادس ، أى جديد من الأنباء لديك ؟ ولماذا أرسلت الأجير قبل قدومك ؟

وقابل ملكيادس سؤالها بسؤال مثله ، محاولاً أن يتجنب الإفاضة فى الكلام أمام بالينو الذى لم يكن يستحق منه كثيراً من الثقة :

- ألم يقص عليك هو كل شىء ؟

- نعم ، لقد روى لى أشياء ، ولكنى أريد التفاصيل منك كاملة .

وكانت باربارا فى حديثها إلى تابعها تتجنب النظر إلى وجهه ، بل كانت متجهة إلى الطبق الموضوع أمامها ، وكان هو يحدثها كذلك دون أن يرفع إليها بصره ، فقد كان كل منهما يعتقد أنه ساحر ، وقد تعلمتا من أساتذتهما الهنود فى أصول السحر أنه يجب عليهما ألا ينظر أحدهما إلى عيني الآخر فى أثناء خطابه له :

- إذن فيإليك الحديث : كنت قد سمعت وأنا فى «سان فرناندو» نبأ وصول الدكتور سانتوس لوئاردو ، وكانوا هناك يتحدثون بأنه لم يقدم إلا لى ينازحك ما كنت قد كسبته من القضايا التى سبق أن رفعتها عليه واحدة واحدة ، وزاد ذلك من رغبتى فى التعرف عليه ، وأخيراً وفقت إلى أن يدلونى عليه ، ولكنى فقدت أثره بعد ذلك ، حتى كان عصر الأمس ، وكنت أستعد لإسراج حصانى من أجل الشروع فى السفر طيلة الليل حتى أصل إلى هنا مع فجر اليوم ، وبينما أنا فى ذلك إذا بى أسمع بوصول مسافر يذكر أن مطيته قد أصيبت بعلة تمنعها من مواصلة الرحلة ، وأنه يرغب فى استئجار مركب اتفق رسوها هناك لنقل شحنة من الجلود حتى توصله إلى «مجاز شجرة الخروب» الذى يؤدى إلى ضيعة «التاميرا» ، وحيث قللت لنفسى : «هذا الرجل ينبغى أن

يكون ضالتي المنشودة بغير شك» ، فأنزلت على الفور سرجي عن ظهر الحصان ، والتفتت بملحفتي ومضيت قدماً إلى الفندق الذي كانوا سيقدّمون فيه الطعام إليه ، واجتهدت في أن أسمع إلى كل ما قد يبدر منه من حديث .

- وسمعت بطبيعة الحال أشياء كثيرة ... هذا هو ما أتصوره عنك .

- أقول لك الحق : لم أسمع منه ما يبرر للمرء أن يتصبب جسده عرقاً من أجل إصابة الآخرين بالحمى كما يقول المثل ، ولكني لا أكتمك أنني لم أتمالك شعوري بالإعجاب بصديقنا الدكتور حينما تحل عقدة لسانه، فهو لطيف المحاورة عذب الحديث، ولهذا فإنه لم تتح لي فرصة التسمع إلى كلامه حتى خاطبت نفسي قائلاً : «إن رجلاً مثله يشعر بإعجاب الناس بحديثه وتشوفهم إليه لا يمكن أن يلتزم الصمت طويلاً ، فالأمر - إذن - لا يعدو أن أعتصم بالصبر وأن أنصب أذني لالتقاط كل ما يمكن أن يتفوه به» ، وعزمت على ملاحقته بقدر ما أستطيع ، فتركت حصاني لرفيقي لكي يواصل السفر به براً ، وقلت له إنني سأحتال في أن أجد مكاناً على ظهر المركب الذي استأجره صديقنا الدكتور .

ثم قص بعد ذلك على سيدته ما دار بينه وبين سانتوس لوئاردو لدى شجرة «عصا الماء» مصوراً إياه بصورة الرجل المغامر الجسور .

وكان هذا الرجل الذي اختارته السيدة باربارا حامياً لظهرها من هؤلاء الأفراد الملتوين المنافقين الذين لا يدل ظاهريهم على حقيقتهم ، ممن يبدوون كما لو كانوا دائماً في حاجة إلى إظهار عكس ما يشعرون به في قرارة أنفسهم ، كان ذلك يظهر في تعابير وجهه وحركات يديه الناطقة باللين والركة ، وفي كلماته الهادئة الناعمة ، وفي العادة التي جرى عليها من إبداء الإعجاب دائماً برجولة الآخرين ، كل ذلك كان يحمل في طويته من الخبث العميق والنزوع المتأصل إلى الشر والأذى ما يجاوز كل حد معقول .

ولم يرق بالبينو ما أسبغه «الساحر» على سانتوس لوثاردو من صفات
الجرأة وقوة الشكيمة ، فقال له :

- خفض عليك ولا تطأطئ الرأس كثيراً يا ماكر ، فإننا نعلم أنك لست
من الرجال الذين يبهر أنظارهم مثل هذا الفتى المخنث !

- انظر ياسيد بالبينو وأصغ لما أقوله لك ، إننى - كما قلت - لست ممن
يطأطئون الرءوس ، ولكن الرجل منتصب القامة شامخ الرأس ، وهو يعرف
كيف يزداد انتصاباً وشموخاً إذا اقتضى الأمر منه ذلك .

ولم يكن بالبينو ممن يسلمون القياد للخصم بسرعة ، فعقب على هذه
الجملة بقوله :

- إذا كان الأمر كذلك فإننا فى الغد سنعرف كيف نظامن من شموخه ،
ونخفض من رأسه ، ونذل من قياده .

وابتسم «الساحر» ، وصمت قليلاً ، ثم قال فى لهجة واعظة حكيمة :

- تذكر ياسيد بالبينو أنه خير لك أن تأخذ الثمرة من أن تؤخذ منك .

- لا تخف ياملكيادس ، فأنا أعرف كيف آخذ من الثمرات غداً ما غرسته
اليوم .

وكان بالبينو يشير بذلك إلى الخطة التى أعدها من أجل إذلال كبرياء
سانتوس لوثاردو وبث هيئته فى نفسه ، وكانت تقوم على إغراء الأجراء الذين
يعملون فى ضيعته بترك الخدمة هناك منذ هذه الليلة ، فإذا كان الغد ظهر بالبينو
فى التاميرا واصطنع نزاعاً مع أول من يلتقى به ممن بقى فى خدمة لوثاردو،
ثم اتخذ من ذلك حجة يطرده بها من العمل بغير أن يحفل بوجود صاحب
الضيعة هناك .

وكان بالينو من هؤلاء الذين لا تستقر فى رء وسهم فكرة شريرة
إلا أعلنوا عنها ، ثم إنه كان يود أن يظهر ملكيادس أنه لا يهاب سانتوس لوئاردو ،
وأنه هو الذى يجرؤ على الصمود فى وجهه ، ولم يكفه ما سبق أن ألمح إليه من
خطئه ، ولهذا فقد ابتلع اللقمة التى كانت تسد فمه بسرعة ، وأقبل على
تفصيل تلك الخطط ، فمضى يقول :

- غداً فى الصباح الباكر سىرى الدكتور لوئاردو أى نوع من الرجال هو
وكيله ومدير أعماله بالينو بايا ...

ولكنه قطع كلامه فجأة لكى يراقب فى دهشة ما كانت تصنعه فى هذه
الأثناء السيدة باربارا .

كانت قد صبت لنفسها كوباً من الماء ورفعته إلى شفيتها ، ولكنها لم
تلبث أن هزت رأسها إلى الوراء ، وقد ارتسمت على وجهها علامات
الاستغراب ، وبقيت شاخصة بعينيها إلى الكوب المعلق فى الهواء أمامها ، وقد
اتسعت حدقتها فى دهشة :

وسألها بالينو :

- ما الذى حدث ؟

- لا شىء ... سوى أن الدكتور لوئاردو أراد أن يأتى بنفسه لكى يرى
صورته .

قالت هذه الكلمات ونظرها مازال مثبتاً فى الكوب المغلق .

وندت من بالينو حركة تدل على القلق والشك ، وأما ملكيادس فقد تقدم
إلى المائدة وانكأ بيميناه على حافتها ، ثم مال بجسده إلى الأمام ليتأمل بدوره
الكوب المسحور ، وواصلت السيدة باربارا كلامها وكأنها تقرأ الغيب من كتاب
مفتوح :

- ما ألطف هذا الصبي ! وما أشد بياض بشرته المشربة بالحمرة ، دليلاً على أنه لم يتعود على لفح شمس السهول التي تلوح الوجوه ، وهو بعد ذلك أنيق الملبس بهي الزى .

أما «الساحر» فقد ترك المائدة وعاد إلى مكانه وهو يخاطب نفسه بقوله :

- ما كان لكلب أن يأكل كلباً مثله ! فاخدعى بالبينو إذا شئت بما تزعمينه من قراءة الغيب ، فإن كل ما ذكرته من أوصاف لوئاردو ليس إلا ما أخبرك به رفيقى الذى وجهت به قبل قدومى .

وكان هذا فى الحقيقة - كما قدر ملكيادس - من الحيل الكثيرة التى طالما كانت السيدة باربارا تحوكم خيوطها من أجل إيهام من يحيط بها بأنها متمكنة فعلاً من شتى فنون السحر ، وبهذا تستطيع أن تبث فى نفوسهم الهيبة لها والخوف من عواقب التعرض لها ، وكان بالبينو يرتاب فى ذلك من قبل ، ولكن عبارات السيدة باربارا المباغثة كان لها وقعها فى نفسه ، فأسرع يهمس بالاستعاذة من شر المرأة الساحرة :

- بحق الأسماء الثلاثة المقدسة !

ثم أضاف مخاطباً نفسه :

- أقول ذلك احتياطاً وحذراً ... فيما لو صح أنها ساحرة حقاً !

أما باربارا فكانت قد وضعت الكوب على المائدة دون أن تمسه بشفتيها ، وبقيت شاردة الفكر مكفهرة الوجه ، وقد ألحت عليها ذكرى مفاجئة لا تدرى كيف عرضت لها فى تلك اللحظة :

«الأمسية القائمة ... وهى على ظهر القارب ... الصمت المطبق ، وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج «الأتورس» وكأنها أنين مريض ... وفجأة يتردد فى الأفق نعيب «الياكابو» بصوته المجلجل الحزين المنطلق كأجراس الجنائز فى جو الغابة المظلم !» .

ومرت لحظات لم يفه خلالها أحد بكلمة ... وأخيراً سألها بالبينو :

- ألا تنتهين من طعامك ؟

ولكن سؤاله ظل دون جواب ، أما ملكيادس فقد انتظر قليلاً ثم سأل بدوره :

- إذا لم يكن لديك ياسيدتى ما تأمرين به ...

ثم رفع ملحفته وألقاها على كتفه وأضاف بعد لحظة :

- إذن ، فإنى أستاذنك فى الانصراف . طاب مساؤك ياسيدتى .

وخرج ملكيادس ، بينما ظل بالبينو يواصل عشاءه فى صمت ، وأما المرأة فقد ظلت غارقة فى تفكيرها دون أن تعير أحداً أى انتباه ، ورجع بالبينو النظر فى طبقه الفارغ ، وامتدت أصابعه إلى شاريه يتحسهما لحظة ، ثم نهض عن المائدة وانصرف فى صمت .

وبدأ لهيب المصباح يتأرجح مؤذناً بالاحتضار ، وانطفأت شعلته أخيراً ، أما السيدة باربارا فكانت جالسة إلى المائدة لم تغادر مكانها بعد ، بينما كان تفكيرها القاتم قد جمد عند هذه اللحظة الفظيعة من تاريخ ماضيها :

«الصمت المطبق وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج «الأتورس» وكأنها أنين مريض ، وفجأة يتردد فى الأفق نعيب «الياكابو» بصوته المجلجل الحزين ...» .

الفصل السابع العفريت الحارس

كانت ليلة من تلك التى يسطع فى سمائها قمر ناصع البياض كامل الاستدارة ، والليالى البدرية فى السهول أصلح ما تكون لقصص الأشباح والعفاريت ، ولا تخلو سهرات الرعاة فى تلك الليالى وهم تحت سقوف أكواخهم أو مستلقون فى حظائرهم من واحد تخصص فى سرد القصص العجيبة عما ظهر له من الأشباح .

ويبدو أن الضياء الشاحبة التى يلقيها القمر على بسيط السهول الفسيحة هى التى تملأ خيال الناس هناك بصور الجن والعفاريت فى مثل هذه الليالى ؛ إذ تحيل الأشياء الصغيرة التى يراها المرء عن بعد إلى شياطين هائلة ومردة جبارة ، والمسافات القريبة إلى أبعاد لا يكاد يحدها قياس ، والأشكال المعهودة المتعارفة إلى أجرام غريبة بالغة الضخامة ... هى ليالى الظلال البيضاء الراقدة تحت أقدام الشجرة ، هى ليالى الفرسان المسحورين الذين يقبعون فى سكون بين أباطح السهول ، فإذا أحدث النظر إليهم عين إنسى اختفوا كما لو كانت الأرض قد ابتلعتهم فجأة ، هى تلك الليالى التى ليس للمسافر فيها إلا «القشعريرة ملء جسده ، وصلوات الاستعاذة على أطراف شفتيه» - على حد قول «باخاروتى» - هى ليالى الأحلام الغريبة والتهاويل المزعجة التى لا يقر فيها نوم حتى للماشية نفسها .

وكان «باخاروتى» هو الذى اشتهر فى ضيعة «التاميرا» برواية أغرب قصص العفاريت وأكثرها إثارة للذعر والهلع ، وأعانتة على ذلك حياته المتقلبة

الضاربة فى تلك الأنحاء فى أثناء قيادته لقطعان الماشية ، ثم خيال خصب
حافل كان يملأ عليه أخبار آلاف المغامرات التى يتحير المرء أمامها : أيها أغرب
من أختها !

وكان كثيراً ما يقول إذا سأله سائل :

- أشباح الأموات ؟ ليس بينها واحد لا أعرفه كما أعرف راحة يدى هذه
على طول تلك السهول الممتدة من نهر «الأوريانتى» إلى «الأورينوكو» ومن
«الأبورى» إلى «الميتا» ، أما العفارىت الأخرى فلا أظن أن هناك صورة من
الصور التى تظهر بها للناس لم تفاجئنى بها ولم تملأ نفسى منها فزعاً ...

نعم ... لم يبق فى جميع تلك السهول عفريت لم يترأى لـ «باخاروتى» :
الأرواح المعذبة التى تجر خطاياها الثقيلة فى الأماكن التى ارتكبت فيها
خطاياها السوداء ، و «الباكية» ذلك الشبح الذى يسكن ضفاف الأنهار
والقنوات والأحساء ، والذى يسمع نواحه الحزين على بعد فراسخ طويلة ،
و «الأرواح المتبتلة» التى يسمع ترتيل صلواتها وتسبيحها فى صوت واحد كأنه
طنين النحل فى سكون الليل ، بين كتل الأعشاب المتكاثفة أو فى البطاح التى
تفضضها ضياء القمر ، و «الروح الوحيدة» التى تتعرض للمسافر بصفيها
لكى تنتزع منه صلاة شافعة ؛ إذ هى أحوج الأرواح إلى الشفاعة وهى ماثلة
على الأعراف ، و «الجلادة» تلك العفريته الجميلة المشحونة بشباب الحداد التى
يسلطها الله لعقاب الرجال الذين يخونون زوجاتهم أو يعتادون السهر الطويل
خارج بيوتهم ، فهى تعرض للرجل من هؤلاء فى إغراء وتأمرة أن يتبعها ، فإذا
مضى وراءها شوطاً من الطريق استدارت فجأة وأبرزت له فماً هائلاً مرعباً
وأسناناً قبيحة يتطاير منها الشرر ، وقطعان الخنازير السوداء التى يحدوها
الشیطان المسافر ، وغير ذلك من آلاف الأشكال المختلفة التى يحلو للعفارىت
أن يتقمصوها .

ولهذا لم يكن من الغريب فى تلك الليلة المقمرة أن يترك «باخاروتى» العود الذى كان قد بدأ العزف عليه ، وأن يقص على رفاقه خبر ظهور «العفريت الحارس» الموكل بالسهر على ضيعة «ألتاميرا» .

أما قصة «العفريت الحارس» فهى خرافة غامضة المصدر شائعة فى أوساط قاطنى السهول منذ أن دخل العمران تلك البقاع . وخلاصة الأمر فيها أن عادة أصحاب الضياع جرت على ألا تؤسس ضيعة هناك إلا أقاموا احتفالاً بسيطاً يبدأونه بدفن حيوان حى فى المكان الذى يشرعون فى تأسيس أول حظيرة للماشية فيه ، وذلك حتى تتولى «روح» هذا الحيوان مهمة رعاية الضيعة والسهر على حراستها هى وأصحابها طالما ظلت هذه الروح حبيسة الموضع الذى دفن فيه ذلك الحيوان ، ومن هنا أتت تسميته بـ «العفريت الحارس» ، وكان ظهور هذا العفريت لأهل الضيعة بين وقت وآخر يؤول على أنه فال طيب وبشير بالخير . وكان الحيوان الذى وقع عليه الاختيار فى «ألتاميرا» ثوراً بنى اللون تزعم الرواية المتناقلة فى الضيعة أن «إيفارستو لوئاردو» دفنه لدى باب الحظيرة ، وكان يطلقون عليه كذلك «ذا النعل الممزقة» ؛ إذ كان ثوراً هرمًا قد طالت أظلاله وتغضنت أطرافها المهدبة كما تتهدل حواشى النعل القديمة الممزقة .

وعلى الرغم من أنه لم يكن أحد يأخذ أحاديث «باخاروتى» مأخذ الجد ولا سيما إذا خاض فى أخبار أشباحه وعفاريته ، فإن رفاقه أولوا الخبر عناية خاصة ، فسرعان ما كف «ماريا نيبس» عن تحريك «الماراكاس» وهى كرات يتخذونها من القرع المجفف، فإذا هزت كان لها صليل موسيقى مستطاب ، أما أنتونيو وفنانثيو فقد نهضا عن سريرهما واعتدلا فى جلستهما ، وكان كارمليتو وحده هو الذى بقى منصتاً دون أن يبدى كثيراً من الاكتراث .

وكان التعبير الذى ارتسم على وجه أنتونيو فى اهتمامه بالإنصات إلى ما استعد باخاروتى لروايته يكشف عن شىء أكثر من مجرد الفضول ، كان تعبير

عن التفاؤل والأمل ، فقد مرت سنوات طويلة لم يسمع أحد خلالها بظهور «العفريت الحارس» ، وكانت تلك هي السنوات العجاف التي وافقت ما حل بأسرة لوئاردو من كوارث متوالية، حتى لم يعد أحد في الضيعة من جيل أنتونيو يذكر شيئاً عن ذلك «العفريت» بشير الخير والرخاء ، وكل ما يدركه أنتونيو من ذلك الأمر هو ما سمعه عن أبيه - مليسو العجوز - في أيام طفولته من تكرار ظهور ذلك «العفريت» لخوسيه دى لوس سانتوس جد سانتوس لوئاردو وآخر أفراد أسرته ممن تمتعت الضيعة في أيامهم بالخير والرفاهية ، فظهور «العفريت الحارس» الآن لباخاروتى إذن ليس إلا طالع سعد وفأل خير يبشر بعودة الرغد والسعادة إلى الضيعة ، ودليلاً على أن مقدم سانتوس لوئاردو سيكون نهاية لتلك السنوات العجاف التي مرت على تلك الأرض وأهلها ، هذا إذا صحت الخرافة وإذا كان «باخاروتى» صادقاً فيما يقول .

- ألق بحديثك يا باخاروتى ، ولنر بعد ذلك إذا كنا نستطيع تصديقك فيما تزعم . كيف كان الأمر ؟

- كانت ساعة الأصيل ، وكنت منهمكاً في جمع شمل صغار الماشية لكى أعود بها إلى الحظائر، حينما لمحت عيناى ثوراً بنى اللون قائماً وحده على بطحاء «الكاراما» هناك لدى «ربوة النمر» ، وكان يبدو كما لو أحاطت به بركة من سراب الماء ، وهو يشير بأظلاله تراباً أصفر كأنه التبر ، وإنى أكاد أقطع بأنه لم يكن إلا «ذا النعل الممزقة» ؛ إذ إننى لم أكّد أطلق فى الجو صرخة عالية مهيبة به حتى اختفى فى لمح البصر كأنما قد ابتلعته الأرض .

وتبادل فنانشيو وماريا نيبس نظرات أراد كل منهما بها أن يستطلع مدى تصديق صاحبه للخبر . أما أنتونيو فقد أسلم لتفكيره العنان وخاطب نفسه يقول :

- إن القصة فى الحقيقة لا تنقصها الحكمة : شبح الثور الحارس والضياء مسطرة عليه وهو مستشرف على الربوة ، مثيراً الغبار التبرى بأظلاله ، فى وسط بركة من السراب ... هكذا كان «العفريت الحارس» يظهر بالفعل فى التاميرا كما سمع هو بنفسه أباه ملبسيو أكثر من مرة حينما يعرض لذكر الصورة التى كان يظهر بها منذ سنوات طويلة ، ثم إن باخاروتى ليس ممن يؤجرون على الكذب إن كان كاذباً، وعلى أية حال ... فما يهم من الأمر ؟ إن الصدق والكذب شىء نسبى ، فالخبر الصادق إما أن يكون رواية لحدث وقع حقيقة أو هو ما تدعو الظروف والمصلحة إلى الاعتقاد فى حقيقته ، سواء كان هذا الاعتقاد عن يقين وإيمان أو عن اصطناع وتكلف . ومهما يكن من شىء فإن ظهور «العفريت الحارس» لباخاروتى لنبا يدعو إلى السرور والتفاؤل ، ومن المصلحة أن يعتقد فى صحته أهل الضيعة جميعاً ، لا سيما وأنه جاء فى أنسب وقت ؛ إذ سترتب عليه أن تزيد ثقة هؤلاء القوم فى سانتوس وتفاؤلهم بمقدمه ، وخصوصاً فى مثل هذه اللحظة الحاسمة التى تؤذن بوقوع الاصطدام بينه وبين السيدة باربارا ، والتى استعدت لها هذه المرأة فشحذت أسلحتها للمعركة القادمة، بدليل ما أقدمت عليه من تحريض صنائع بالينو باييا فى التاميرا على ترك الخدمة فيها والانضواء إلى معسكرها ، ولعل خير نتيجة يمكن التوصل إليها من ترويج هذا الخبر وحمل أهل الضيعة على تصديقه هو الأثر الطيب الذى يمكن أن يتركه فى نفس كارمليتو الذى لم يكن يولى سانتوس كثيراً من الثقة ، وقد قدر أنتونيو أن كارمليتو من الرجال الذين لا غنى عنهم فى المعركة التى توشك أن تدور .

وهم أنتونيو بالكلام ممهداً لخلق جو ملائم لتصديق الخبر الذى طلع به باخاروتى، لولا أن ماريا نيبس سبقه بالسؤال :

- خبرنى يا صديقى باخاروتى : هذا الذى ذكرته ... رأيته أنت بنفسك أم أن أحداً حدثك به ؟

وصاح باخاروتى بصوته الجهير القوى :

- بل رأيت بهاتين العينين اللتين كتب عليهما أن تأكلهما سباع الطير ،
ولا أقول دود الأرض لأننى لن أكون من هؤلاء الذين ترقد أجداثهم ساكنة فى
حفر الأرض لكى ترتعى الديدان على رفاتهم ، هذا إذا صح ما تنبأ لى به السيد
بالبينو ، ويبدو أنه هو الآخر يريد أن يدلى أيضاً بدلوه فى ميدان السحر الذى
برعت فيه سيدته باربارا ، فهو كثيراً ما يقول لى إننى لن أموت على فراشى كما
يموت سائر الناس ، بل سأقتل قتلة بشعة فى وسط أحد الأدغال ، وما ذلك
إلا لأنه يعرف أننى أعد عليه جرائمه وسرقاته واحدة واحدة ، مسجلاً عليه كل
ذلك فى صحيفة حافلة بالخطوط السود .

وصاح فينانثيو مقاطعاً .

- ها هو ذا قد قرصه الذباب ! وإلا فما شأن بالبينو بهذا الحديث ؟

وكان يعنى بذلك ما اعتادوا أن يسمعه فى أحاديث باخاروتى من
اضطراب كلامه ، وتششت أفكاره ، واستطراده من موضوع إلى موضوع دون
رابطة أو اتساق ، فقد كانوا يشبهون ذلك بما تؤدى إليه قرصات الذباب فى
قطعان الماشية ؛ إذ لا تلبث أن ينفرط عقدها ويتفرق شملها .

وتدخل ماريا نيبس فى الحديث قائلاً :

- دعه يبحث لنفسه عن فكاك مما أوثق نفسه فيه !

وكان هذا بدوره يشير بعبارته تلك إلى الحرج الذى وقع فيه باخاروتى
حينما سأله عما إذا كان قد رأى «العفريت الحارس» بنفسه ، وذلك أن ماريا
نيبس كان يرى أن ما زعمه صاحبه ليس إلا صورة مشوهة لما سبق أن قصه
هو نفسه عليه قبل ذلك بأيام .

وحيتئذ أقبل عليه أنتونيوس بالسؤال :

- إذن ، فإنك ترى أنه لا حقيقة لما قصه علينا باخاروتى ؟

فأجاب ماريانا نيبس :

- الحق ، إن الخبر لم يكن مفاجأة لى ، فقد رأيت أنا نفسى هذا الثور الأحمر منذ عدة أيام ، ولكنى لم أراه وسط بركة من ماء السراب ، ولا مثيراً بقوائمه تراباً ذهبى اللون ، كما يذكر العجائز هنا حينما يزعمون ظهور «العفريت الحارس» وكما يقول رفيقى باخاروتى بأنه نظر إليه ، ولست أتعرض لروايته ، فقد اعتدنا منه أن يرى ما لا يرى سائر الناس .

قال ماريانا نيبس هذه العبارة الأخيرة وهو يرمق باخاروتى بنظرة لا تخلو من سخرية وتعريض ، ثم توقف لحظة مستطلعاً أثر كلماته فى الحاضرين ، ومنتظراً من باخاروتى جواباً على ما استنفره به ، ولكن هذا ظل معتصماً بالصمت وكأن الأمر لا يعنيه ، فواصل ماريانا نيبس كلامه قائلاً :

- لماذا سكّت الآن ؟ واصل حديثك وأخبرنا بتفاصيل رؤيتك للعفريت الحارس إذا كنت صادقاً فيما تقول ، ولو أننى أعتقد الآن أنه لن يبقى أحد هنا إلا وأراد أن يزعم لنفسه النظر إليه ، فقد جرى الناس دائماً على هذه العادة : يسبق الرجل إلى الشئ ، ثم يأتى المتخلفون وراءه يشدون ليتتزع كل منهم فضل السبق منه .

وأجاب باخاروتى أخيراً .

- سابق أو متخلف ... هذا أمر لا يهمنى منه شئ ، ولكنى حدثتكم بما نظرت إليه عيناى : شبح الثور الأحمر وهو على ظهر الربوة ... هكذا رأيته .

فعلق ماريانا نيبس قائلاً :

- بل هكذا رأيته أنا كما سبق أن قصصت عليك ، وإنما أضفت أنت إلى القصة وصف بركة السراب والتراب الذهبى حتى تموه علينا الأمر وتزعم لنفسك السبق إلى رؤيته .

ثم استطرد ماريا نيبس مكملأ روايته بدوره قائلاً :

- كان ثوراً أحمر ضخماً الجسد جميل المنظر متناسق الأعضاء ، وقد رأيته يتشمم هنا وهناك لحظة طويلة ، ثم يلتفت برأسه إلى جهة «ضيعة الرعب» ويطلق خواراً عالياً هائلاً لاشك فى أن صدهاء وصل مجلجلاً إلى أسماع من كانوا هناك ، ولكنه لم يلبث أن اختفى فجأة كما لو كانت الربوة قد ابتلعتة .

وابتسم باخاروتى فى تخابث ، فقد كان الأمر فى الحقيقة - على ما قدر رفيقه - اختراعاً جاد به خياله الخصب ، مديجاً تلك القصة التى نقل خلاصتها مما قصة عليه ماريا نيبس ، ثم أضاف إليها تلك التفاصيل التى أراد أن يلقي بها على الصورة ألواناً غريبة أخاذة ، ولم يكن له هدف من نسج الأسطورة إلا أن يدخل إلى نفوس زملائه شعوراً من الثقة فى سانتوس لوئاردو ومن التفاؤل بمصير ألتاميرا بعد أن أقبل يضطلع بشئونها بنفسه ، أما ما دعاه إلى التطوع بذلك فلم يكن إلا أن لوئاردو بدا خفيفاً على قلبه منذ أن رآه أول مرة ، فقد أثار فى نفسه شعوراً طيباً لا يدرى كنهه ، ومن يدرى ؟ فلعله لم يكن مدفوعاً فى ذلك إلا بالرغبة فى مخالفة رفاقه الذين كانوا يشعرون بالارتياح فى رجولة سانتوس لوئاردو ومدى قدرته ، وما كان ليغيب عن باخاروتى مثل هذا الشعور «بعدم الاستلطاف» الذى قابلوا به الفتى منذ أن عاد إلى ألتاميرا .

ولكنه لم يشأ التراجع عن تلك القصة التى ألقى بها إلى زملائه فقال :

- إن مكان الربوة الذى يذكر رفيقى ماريا نيبس أنه رأى الشبح عنده لا يعد كثيراً على أية حال عن الموضع الذى رأيته أنا فيه ، فليس من

الغريب أن يظهر «ذو النعل الممزقة» له مرة عند الربوة ومرة أخرى في وسط ماء السراب المسحور كما رأيته أنا ؛ إذ إن كل هذه المنطقة هي المشتعلة على موضع دفنه ، فظهوره هنا أو هناك سواء .

وأثار هذا الجدل تطلع أنتونيو فسأل في اهتمام متزايد :

- ولماذا لم تقص علينا ذلك من قبل يا ماريا نيبس ؟

- لأن الصورة التي رأيته بها لم تكن تلك التي اعتاد عليها الناس هنا ، ولهذا فقد ظننت أنه ثور أحمر كغيره من الثيران .

وعاد أنتونيو ملحاً بالسؤال :

- ولكن ما رأيته من تشمم الأرض ثم قذفه بتلك الصيحة المدوية في اتجاه «ضيعة الرعب» كان جديراً بأن يشير انتباهك واستطلاعك وأنت خير العارفين بما يعنيه ذلك .

- وقد أثار انتباهي واستطلاعي بالفعل ، ولكن ..

ولم يدعه باخاروتى يكمل عبارته ؛ إذ قاطعه قائلاً :

- ولكن هناك أناساً يفكرون ، إلا أنهم لا يقدمون على عمل حتى تبيض شعورهم شيئا .

وهنا صاح فنانشيو منتهزاً الفرصة للإيقاع بين الرجلين :

- إليك هذه الضربة يا ماريا نيبس ! ها هو ذا الأسود قد بدأ يطأ عقبك !

وكان باخاروتى وماريا نيبس في الواقع صديقين حميمين بل لم يكن الواحد منهم يتردد في فداء صاحبه بنفسه إذا لزم الأمر ، غير أنه لم تكن تعرض فرصة للحوار بينهما إلا اشتبكا في معركة عنيفة من الهجاء الساخر اللاذع ،

وكان ذلك يضيف جواً من المرح على السهرة ويدخل السرور على قلوب الحاضرين بما يتقارضانه من قارص الكلام ، وكان فنانشيو هو الموكل بتأليب كل منهما على صاحبه ، وهكذا فعل حتى يجرحهما إلى العراك ، غير أن أنتونيو كان فى هذه اللية حريصاً على ألا يتغير مجرى الحديث ، فعاد إلى السؤال :

- ومتى كانت رؤيتك للشبح يا ماريا نيبس ؟

ومضى ماريا نيبس يستعيد ذاكرته ويقول فى ببطء :

- متى كانت ؟ ... آه . أنا أذكر الآن : كانت فى يوم الاثنين من الأسبوع الماضى .

ففكر أنتونيو قليلاً ثم صاح :

- انتظر قليلاً ... لقد كان هذا اليوم هو الذى وصل فيه الدكتور إلى «سان فرناندو» فى طريقه إلى ألتاميرا !
وقال باخاروتى بدوره :

- ألا ترون - إذن - فى هذا التوافق دلالة لها مغزاها ؟

وهنا وثب فنانشيو عن سريره وقال وقد علت وجهه مظاهر اهتمام مفاجيء :

- والآن بعد أن تحدث كل منكم بما عنده فإن لدى أنا أيضاً ما أقوله فى هذا الأمر !

وعلق ماريا نيبس على عبارة فنانشيو قائلاً :

- ألم أقل لكم أنا من قبل إنه لن يبقى أحد إلا وسيزعم أنه رأى «ذا النعل الممزقة» ؟

ولكن فنانشيو أجاب بقوله :

- لا ... ليس ذلك هو ما قصدت قوله ، وليس شيئاً جديداً أقوله اليوم لأول مرة ، بل إننى طالما تحدثت به هنا ، وهو أن هناك أشياء غريبة قد حدثت ومازالت تحدث خلال الأيام الأخيرة !

وأيد ماريا نيبس كلام صاحبه قائلاً :

- نعم ... هذا صحيح . وقد ألمحت لنا بشيء من ذلك بالفعل .

- قص علينا خبرك إذن ... ما الذى رأيت ؟

- الحق أقول إننى لم أر شيئاً ، ولكنى تشممت أشياء مثيرة للعجب ، فمن ذلك ما شهدناه جميعاً فى حظائر البقر .

- أتعنى هذه النوبات المفاجئة التى تعترى الماشية ، فتجعلها تضطرب وتخور فى دعر ؟

- نعم ، هو ما أعنيه ، وما كان يخفى على أحد منا أن ذلك كان شيئاً غير طبيعى ولا معتاداً : هذه الأبقار وهى تتضور طول الليل فى هلع وتطلق أصواتاً كأنها نحيب ! ليس هناك من يستطيع أن يقنعنى بأنه لم يكن فى الحظيرة شيء غريب كان مصدر هذه الثورة المفاجئة التى شبت بين رء وس الماشية ، بل إننى أقول لكم شيئاً آخر أكثر غرابة : لقد كنت أسمع وقع أظلاف غريبة على العشب وأراه ينطبق على الأرض كأن أقداماً تطأه ، ثم أنظر فلا أرى شيئاً ، ثم هذا الأمر الذى لعلكم لاحظتموه جميعاً فى مجاولاتنا اليومية للشيران وهو أننا لم نستطع بأى وسيلة أن ندلل قياد تلك الشيران أو نحكم وثاقها . لقد كنا ننظر من بعيد إلى المروج ، فنراها قد اصطبغت بالسواد من كثرة ما كان يمج فيها من رء وس ، فإذا خرجنا على صهوات جياذنا لاستئزالها تفرقت هنا

وهناك ورأينا أنفسنا عاجزين عن اقتناصها بخيلنا ؛ إذ كانت تتفلت من أيدينا بسهولة عجيبة !

وأمن ماريا نيبس على كلامه قائلاً :

- حقًا ... لم نستطع أن نضع أيدينا إلا على الضعيف المهزول منها .

وخشى باخاروتى أن يفرد صديقه فنانشيو بخبر هذه القصة ، وأن يذهب بفضل السبق إليها ، وكأنه يريد أن يكون هو وحده المسيطر على مجرى الحديث ، فتدخل رافعاً صوته الجهير ، شأن رعاة السهول المتعودين على إسماع من يتحدثون إليهم من مسافات بعيدة ، ومتوجهاً بالخطاب إلى كارمليتو :

- ألا تذكر ياكارمليتو ذلك الصباح الذى خرجنا فيه أنا وأنت مع بعض الرعاة الآخرين من «ضيعة الرعب» من أجل تمييز ماشيتنا من ماشيتهم فى مرج «الكولاتا» ؟ ألم تلاحظ أن هؤلاء الرعاة الذين تخصصوا فى اقتناص الثيران لم يتمكن واحد منهم أن يلقي أنشوطته على أى ثور ؟ فقد كانت العقدة المحكمة التى كانوا يقذفون بها إلى قوائم الأبقار تنفك من تلقاء نفسها بقدرة قادر ، بل كانت الجياد التى يمتطونها هى نفسها التى تحل ما وثقوا منها على الرغم من كونها جياداً مدربة على مطاردة الثيران واقتناصها، وبدا كما لو كانت رء وس الماشية تسخر من صائديها كما تسخر عناية الله من أحابيل الشيطان . لقد كان معنا فى ذلك اليوم السيد «توريس» ، ذلك الراعى الكهل الذى يعتبر من أمهر قاذفى الحبال فى حوض «الأراوكا» وكان من نصيبه فى التوزيع الذى قمنا به ثور ضخيم بنى اللون ، فأقبل الصائد العجوز على ظهر فرسه متعقباً إياه حتى ضيق عليه الخناق ، ورأى الثور نفسه أخيراً وهو بين حافة الجبل وبين مطارده ، وبدا الأمر رهين بضع لحظات يسقط الثور بعدها فى الأنشودة التى كان «توريس» يلوح له بها.. وهنا يأتى أعجب ما فى الخبر ، فأولهُ انتباهك

يا أنتونيو : إنك تعرف السيد «توريس» وتعلم أنه من أشجع أهل هذه السهول وأكثرهم إقداماً على صيد الشيران المتوحشة ، بل إن له في ذلك أخباراً تؤثر وقصصاً تضرب بها الأمثال عن محاولاته في مرج «الكاريبي» الذي تعتبر ثيرانه أشد مارأينا في سهول «الأبوري» توحشاً وأعظمها غائلة. فما قولك في أن هذا الرجل الذي لم يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه قط ما كاد يرى الثور أمامه واقفاً بلا حراك حتى شحب وجهه وأصبح في لون الليمون ، ولم يجرؤ على إلقاء أنشوطته والثور أقرب إليه من حبل الوريد، وإذا به يجمع رجاله عائداً وهو يقول : لقد «استبدت بي الرغبة في صيده ، ولم أتنبه وأنا أطارده إلى أنه هو نفسه «ذو النعل الممزقة» حارس التاميرا ، فأقسم بالله لا عدت أبداً إلى قذف حبلتي في هذا المرج مرة أخرى» !

أما كارمليتيو فإنه لم يكن قد فاه حتى هذه اللحظة بكلمة واحدة ، ولم تفلح مساءلة باخاروتي له في إخراجه عن صمته المطبق ، وأراد أنتونيو أن يستطلع رأيه فيما كان يدور حوله من حديث ، فتوجه بالسؤال إليه :

- ما تقول في ذلك ياكارمليتيو ؟ صحيح ما قصه علينا باخاروتي ؟

ولكن هذا اقتصر على الإجابة في لهجة تدل على رغبته في التهرب من ذلك الحديث :

- لقد كنت بعيداً عن ذلك المكان ، أو لعلني كنت أنظر إلى ناحية أخرى .
وخاطب أنتونيو نفسه قائلاً :

- إن الرجل مازال منقبضاً يملأ نفسه الشك والتشاؤم ! .

وعاد باخاروتي إلى الصباح :

- لا ترك الله لي لساناً يفوه بكذبة أخرى إذا لم أكن صادقاً في هذا الحديث . أما عن «ذو النعل الممزقة» فإذا كنتم في شك من رؤيتي إياه فلا

تصدقوا ما قلت ، ولكن رفيقى ماريا نيبس رآه أيضاً، وهو رجل لم يعرف أحد عنه أنه يكذب فيما يقول. وفي كل هذا دليل على ظهور «العفريت الحارس» ، وعلى أنه بشير بانحسار الشؤم وسوء الحظ عن ألتاميرا ، وإيدان باقتراب نهاية الساحرة الملعونة التى طالما أضرت بنا قوى الشر التى تعينها . فكف إذن عن المراوغة والتهرب يا كارمليتو ، فالحق واضح لا سبيل إلى التشكيك فيه أو النيل منه !

وهنا اعتدل كارمليتو فى جلسته وقال فى امتعاض وخشونة :

- حتى متى ستظلون ترددون هذه الترهات عن القوى السحرية التى تزعمون أنها تعين السيدة باربارا ؟ إن كل ما فى الأمر أن هذه المرأة لديها من الرجولة ما لم يقدر لكثير من الرجال ، وهكذا ينبغى أن يكون كل من يريد أن يفرض احترامه وهيبته فى هذه الأرض .

وتمتم أنتونيو محدثاً نفسه .

- ها هو ذا دخان الضجر والتذمر قد بدأ يتصاعد من منخرينه !

وعقب باخاروتى قائلاً فى لهجة ذات مغزى :

- ليس هناك شك فى صحة ما تقول ياكارمليتو ، ولكن رويدك وأصغ لما أقول : ليس كل من اصطنع مظاهر الرجولة جديراً بأن يوصف بها ، ولا كل من أبدى شعر صدره حرياً بأن يبت الهيبة والاحترام فى النفوس ، فإن كثيراً من الرجال يرون من المصلحة أن يخفوا شعر صدورهم إذا كان الخير فى ذلك ، دون أن يعنى ذلك انتقاصاً من كمال رجولتهم ، ومن أجل هذا خلق الله قمصاناً يسترون بها مناكبهم وخرقاً تتدلى من أعناقهم . أما عن تمكن السيدة باربارا من فنون السحر فلا أظن أحداً يستطيع إنكار ذلك ، وإذا أردتم مزيداً من الأدلة عليه فاستمعوا إلى هذا الخبر ألقيه عليكم كما رووه لى بغير نقص ولا زيادة .

وتوقف لحظة ليلقى ببصقة من طرف فمه ثم استطرد يقول :

- كان ذلك منذ نحو سبعة أيام ، وكان رعاة «ضيعة الرعب» قد خرجوا مع انبثاق الفجر متوجهين إلى مرج «الكوروثال» لمحاولة الشيران السارحة هناك وترويضها ، وأنتم تعرفون أن هذا الموضع من أكثر تلك المروج امتلاءً بالأبقار الوحشية لا يكاد يخلو منها لحظة في ليل أو نهار ، وفيما كانوا يعدون عدتهم للسير إذا بالسيدة باربارا تطل عليهم من نافذة غرفتها وهي بعد بثياب نومها وتقول : «لا حاجة بكم اليوم إلى إضاعة وقتكم هناك ، فإنكم لن تستطيعوا اقتناص رأس واحد !» . ولكن الرجال كانوا قد اتخذوا أهبتهم فلم يروا التراجع ، ومضوا إلى المرج على صهوات جيادهم وكان الأمر على ما تنبأت به المرأة : لم يتمكنوا من اقتناص رأس واحد على الرغم من أن هذا المرعى حافل دائماً بالمواشى الراعية فيه .

وتوقف باخاروتى مرة أخرى ثم واصل حديثه :

- ولكن هذا ليس كل شيء ، بل سيأتى ما هو أغرب وأوقع : بعد أن مضت عدة أيام على ذلك ... أى منذ يومين اثنين ، نهضت المرأة من فراشها مع أذان الديكة فى الصباح المبكر ، فأيقظت رجالها وقالت لهم : «أسرجوا خيولكم بسرعة ، واخرجوا الآن بغير تلبث إلى مروج «لا جار تيخيرا» فإن بها قطعاً من الأبقار الوحشية يبلغ عدده خمسة وسبعين رأساً ، ولن تجدوا أى عناء فى تذليلها واقتناصها؛ إذ ستقع فى أيديكم بلا مقاومة» ، وحدث كل شيء على نحو ما سبقت نبوءتها به ! فخبرنى أنت ياكارمليتو: كيف استطاعت هذه المرأة أن تعد- وهى فى بيتها - الأبقار السارحة فى «لاجار تيخيرا» وهى على بعد فرسخين من منزلها ؟

ولكن كارمليتو لم يول محدثه شرف الرد عليه ؛ إذ بقي ملتزماً للصمت ، فتدخل ماريا نيبس فى الحديث حتى لا يشعر باخاروتى بالخرج والخجل :

- الذى أراه أنا أن هذه المرأة تعلمت من الهنود كثيراً من أمور السحر التى تمنحها من القوة والقدرة ما لا قبل للرجال به . ولماذا ننكر ذلك وهى نفسها لم تحاول إخفاءه والتستر عليه ؟ إنى أعرف مثلاً أن صديقاً لها حذرهما مرة من أحد عشاقها وأسرَّ إليها بأنه كان يعمد إلى سرقة بعض مواشيها بين حين وآخر ، ولكنها أجابته دون أن تولى الخبر كثيراً من الاهتمام : «لن يتمكن هذا الرجل ولا غيره من إخراج رأس واحد من هنا بغير إذننى، وقد يكون فى وسعه أن يجمع من الرءوس ما شاء وأن يسوقها إلى حيث يشاء ، ولكنه لن يجاوز حدود الضيعة ، ولو أنه بذل كل ما أوتى من قوة ليجتاز تلك الحدود بما حدثته نفسه أن يسرق من ماشية فإنها لن تصل إلى سياج الضيعة حتى يضطرب نظامها وتتفرق يمين ويسرة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى مراعيها ، وأنا واثقة مما أقول لأن لدى من يعيننى ويسهر على مصالحى !» .

وأتم فينانثيو العبارة قائلاً :

- بلا شك ... لديها من يعينها ويسهر على مصالحها ... فالتكفل بذلك ليس إلا الشيطان نفسه ، أو «الشريك» كما اعتادت هى على تسميته ، وإلا فمع من تجرى هذه المناجيات الخفية التى أفردت لها صومعة فى بيتها لا تسمح بدخولها لأحد ؟!

وكان من الممكن أن يمتد الحديث عن الأعمال السحرية التى تباشرها السيدة باربارا إلى ما لا نهاية له لولا أن باخاروتى غير مجرى الحديث قائلاً :

- ولكن كل هذا قد شارف نهايته ، فإن الحوار الذى سمع رفيقى ماريا نيبس الثور الأحمر يطلقه فى اتجاه «ضيعة الرعب» ليس إلا النذير للسيدة

باربارا بأن ساعتها الأخيرة قد اقتربت ، ويكفينا الآن من بشائر الخير الواردة مع قدوم الدكتور أن بالينو ذلك اللص الكبير قد سدت عليه منذ الآن سبل السرقة والنهب التي طالما سلكها . نعم ... بالينو المجرم أمهر الناس في العدوان على حقوق الناس ! ذلك الرجل الذي لا أظنه يتردد في سرقة صندوق النذور القائم في ضريح «أخير يليتو» ، ويكفى هذا في بيان ما يمكن أن يصل إليه سطو ذلك الرجل !

وبدت الفرصة سانحة لماريا نيبس بعد هذه العبارة لكي يوجه إلى باخاروتى سهام سخريته اللاذعة وليشتبك معه فى مناقضاتهما المعهودة :

- خير لك يا صديقى باخاروتى ألا تعرض لهذا الموضوع ، فإننى أعرف واحداً لم يتورع كذلك عن مديده إلى صندوق النذور هنا فى ضريح «الروح المقدسة» !

وكان ضريح «أخير يليتو» الذى ذكره باخاروتى واحداً من الأضرحة الكثيرة المنتشرة على طول السهول وعرضها ، وأهل حوض «الأراوكا» يولونه من التعظيم والتقديس ما جعله من أشهر المتعبدات التى يلزمونها إذا حاقت بأحد منهم أزمة ، ولا يمر مسافر بهذه البقعة إلا استهل رحلته بالصلاة على روح الولى الصالح ساكن الضريح ، فإذا كان على طريقه فإنه يترجل عنده ويوقد له شمعة ويودع صندوق النذور الموضوع فيه صدقة ، وكان هذا الضريح بناءً صغيراً بدائياً مسقوفاً بسعف النخيل تحت قدمى شجرة ضخمة ، وقد جعل فيه سراج زيتى دائم الانتقاد ، وموضع لشموع المسافرين ، ثم صندوق الصدقات ، وكان وعاء خشبياً مكشوقاً لا حارس له ولا رقيب عليه ، وكان قسيس أقرب قرية يأتى إليه بين حين وآخر ليأخذ ما تجمع فيه من صدقات وليؤدى الصلوات على روح صاحب الضريح . ويقول أهل تلك البقاع إنه لم يكن من النادر أن يرى بين قطع النقود الصغيرة المتجمعة فى صندوق النذور

هذا أوقيات وقطع ذهبية كبيرة القيمة ؛ إذ إن النذور المقدمة كانت تتوقف على ثروة المارين وعلى حرج الأزمات والمآزق التى تعرض فى حياة الناذرين . أما أصل بناء الضريح فمصدرها عادى معهود فى أمثال هذه الأضرحة : عابر طريق يجدون جثته هناك لدى جذع الشجرة فى المرج الذى يحمل اسم «أخير يليتو» ، فيدفن بذلك الموضع ، ثم يتفق أن يمر بالمكان مسافر آخر يقع فى ورطة وهو على مقربة من مدفن ذلك الرجل ، فيهتف : «يارب أنقذنى من هذه بحق روح المدفون فى أخير يليتو !» ، ويستجيب الله لدعائه فيخرج سليماً من الأزمة التى حلت به ، ثم يتفق مروره بذلك الموضع مرة أخرى ، فيترجل عن جواده ، ويقوم ببناء ذلك الضريح المتواضع ، ويوقد الشمعة الأولى فيه .

أما البقية فإن الزمن بها كفىل ...

ولم يسكت باخاروتى على ما عرض له به ماريا نيبس ، فأسرع بالجواب :
- ليس فى الأمر يا صديقى ما يدعو إلى التلويح والإغماض ، فليس هناك أحد غيرى تقصده بما قلت ، وإنى لمعترف به ، فقد مددت يدي بالفعل إلى صندوق النذور الموضوع فى ضريح «الروح المقدسة» ، ولكنى أرى لزماً على أن ألقى إليكم ببقية الخبر ؛ إذ إن سائر الحاضرين هنا لا يعرفونه ، حتى أقطع السبيل على ما يمكن أن تفتريه على الألسنة الطوال الحداد ، وخلاصة الأمر أننى كنت قد رأيت نفسى فى أحد الأيام الماضية مفلساً نظيف الجيوب ، وكنت شديد الرغبة فى الحصول على بعض المال ، فالإفلاس وطلب المال أمران كثيراً ما يتلازمان ، واتفق أن مررت - وأنا فى هذه الحال - على ضريح «أخير يليتو» ، وحيث طرأت إلى فكرة الحصول على الدريهمات التى كنت مفتقراً إليها ، فدنوت من الشجرة ، وترجلت عن حصانى ، وهتفت بالأسماء المقدسة الثلاثة ، ثم حييت روح الرجل الصالح وسألته : «كيف حالك يا صديقى ؟ وكيف حال رصيدك اليوم ؟» ، ولم تجبني الروح ، ولكن صندوق النذور القابع

فى الضرىح نظر إلى عىنى وتحدث إلى قائلأ : «إن لى هنا بين النقود الصغىرة التى ترى أربع قطع ذهبىة» ، وحقكت أنا رأسى فقد بدأت الفكرة تساورنى وتداعب ذهنى فى إلحاح ، ثم قلت : اسمع يا صدىقى ، لنأخذ هذه القطع الذهبىة الأربع ، ولنمض بها إلى بىت القمار فلنلعب بها ، فإن لى إحساسأ عمىقأ يحدثنى بأننا سنؤدى بأول ما يصادفنا فى الطرىق من بىوت اللعب إلى الإفلاس والخراب ، فلنكن شرىكىن : أنت تضع المال الذى سنقامر به ، وأنا أضع المكر الذى سىكفل لنا الربىح الوفىر !» ، وأجابتنى الروح - كما اعتادت الأرواح أن تتكلم - دون أن أسمع لها صوتا : «ولم لا يا باخاروتى ؟ خذ ماشئت من الصندوق» ، وترددت قلىلأ فأهابت بى : «حتى متى ستظل هكذا متردداً خائفأ ؟ خذ النقود بغير إحجام ، فلو أنك خسرتها لما كان مصىرها على ىدىك أسوأ من مصىرها على ىدى القسىس الذى يأتى لجمعها !». وصدعت بالأمر ، فأخذت القطع الذهبىة ، ومضىت إلى «أتشاجوا» فلم أكد أصل حتى توجهت إلى بىت القمار حىث قامرت بالقطع كلها فى لعبة واحدة .

وسأل أنتونىو :

- وأفلست صاحب محل القمار ؟

- لا يا صاحبى ، لقد كان الأمر على عكس ما ظننت ؛ إذ خسرت القطع الذهبىة كلها فى لحظات ، فالشىاطىن التى تسكن بىوت القمار لا تحترم أحداً ، حتى ولو كان الروح المقدسة نفسها . وعدت فى تلك اللىلة إلى فراشى خائبأ صفر الىدىن ، ومررت فى طرىقى بأخىر ىلىتو ، فتوقفت عند الضرىح وقلت للمرحوم : «قد علمت يا شرىكى أن الحظ لم يواتنا فى هذه المرة ، فعسانا نكون أسعد طالعا فى المرة القادمة ، ومع ذلك فقد أتى لك بهدىة قىمة» ، ثم أشعلت له شمعأ من الشمع الجىد الثمىن ، وما كانت القطع الذهبىة الأربع التى أخذتها من صندوقه لتمنحه أكثر من هذه الشمعة لو أنها وقعت فى ىد قسىس القرىة !

وتعالت ضحكات الحاضرين وتعليقاتهم المرحّة على فعلة باخاروتى ، ثم
جرهم الحديث إلى آخر كرامات «الروح المقدسة» ، وأخيراً أووا إلى أسرتهم .

* * *

السكون مخيم على الكوخ ، وأشعة القمر تنساح على بسيط السهول ،
فتعد المسافات وتبعد خط الأفق ، وفى حظائر الدجاج ديك خدعه ضوء القمر ،
فانطلق بصيح ناشراً الحركة والاضطراب بين الدجاج ، والكلاب المستلقية
فى الفناء ترفع رء وسها وتنصب آذانها ، ولكنها لا تسمع إلا خفق أجنحة
الخفافيش وهى تتطاير حول شجرة التين الضخمة ، فتعود إلى دس رء وسها
بين أرجلها ، ومن بعيد يأتى صوت خوار ثور يبدو أنه تشمم حركة تنبئ
باقتراب النمر .

ويترنم باخاروتى والنعاس يغالب عينيه :

- إلى أيها الثور العجوز .. لقد استعصيت على الخيول والحبال ، ولكنك
إذا أردت رجلاً فهأنذا لك !

ويضحك أحد رفاقه ويتساءل :

- أترأه «ذا النعل الممزقة» ؟

ويجيب أنتونيو :

- ليته يكون ، فما أحوجنا إليه الآن !

ثم يخلد الجميع إلى الصمت ...

الفصل الثامن الترويض

السهول الممتدة جميلة رهيبة فى آن واحد : فى جنباتها تتعايش الحياة الرائعة الجذابة والموت الهائل الشنيع ... الموت هنا يتربص فى كل ناحية ، ولكن الناس لا يرهّبونه ، فانبساط السهول الشاسعة يبعث الخوف إلى القلوب ، ولكنه خوف لا يشيع فى القلوب برودة ولا انكماشاً ، بل هو خوف حار ملتهب كأنه الريح اللافحة المضطربة فى مفازاتها التى ليس لها حدود تحت أشعة الشمس المحرقة ، أو الحمى التى تولدها فى الأجسام مستنقعاتها الساكنة الراكدة .

السهول تصيب سكانها بضرب من الجنون ، وجنونهم هو أن يعيشوا فى هذه الأرض ويموتوا فيها لا يفكرون فى أن يجدوا عنها بديلاً ؛ الجنون هنا هو محور كل شىء : هو فى الحرب طاقة لا تقاوم تولدت منها أساطير خالدة فى سجل البطولة والاستبسال ، وهو فى العمل اليومى ما يشتغلون به من ترويض وحشى الثيران والخيول ومجاولتها بالحبال ؛ إذ إن ذلك ليس فى الحقيقة عملاً ، ولكنه تهور وإلقاء بالأيدى إلى التهلكة ، وهو فى ساعات الراحة انطلاق لا يعرف الحدود ، تراه فى لذع النكتة عند السخرية ، وفى شدة المعارضة عند الجواب ، وفى التعرض المكشوف لما لا يليق عند رواية القصة أو النادرة ، الجنون هو ما يخلدون إليه كثيراً من الإهمال الكسول الذى لا يبالى بشىء : فالأرض فسيحة أمامهم وهم عازفون عن الضرب فى مناكبها ، والأفق ممتد إلى ما لا نهاية وهم لا يبحثون فى أرجائه عن شىء ؛ جنون فى الصداقة : إذ تبدأ

بالتشكك وإساءة الظن ، ثم لا تلبث أن تنقلب إلى صراحة مطلقة وتبسط كامل وإخلاص لا حدود له ، جنون فى الحب يقدم الرجل فيه جواده على أى امرأة يتعلق بها قلبه ... الجنون هو سنة الحياة فى السهول !

الأرض المكشوفة المنبسطة ، الأرض الطيبة التى خلقت للعمل المثمر والمآثر الخالدة المجيدة ... أرض كلها آفاق كأنها الأمل ، كلها طرق كأنها الإرادة .

- أفيقوا من نومكم يا رجال ، فقد أتى الفجر كأنه فارس تحف به كلاب صيده !

كان صوت باخاروتى الذى يستيقظ دائماً وقد ملأ قلبه البشر والمرح والتفاؤل ، ولسانه ينطلق دائماً بأمثال هذه التشبيهات الساذجة التى يتميز بها هؤلاء الرعاة الشعراء ، أما كلاب الصيد التى أتى بها الفجر فإنه لم يكن يعنى بها إلا تلك الغيوم الرقيقة التى يلونها الشفق فى جنبات السماء مظلة على الأفق بين أدغال الأعشاب المتكاثفة .

ويتوافد المبكرون من رجال الضيعة واحداً واحداً على المطبخ ، وهو حجرة واسعة يتدلى من سقفها فتيل سراج مشتعل ، وقد غطت جدرانها طبقة كثيفة من الدخان الأسود الممزوج بدسم الطعام ، وجلس الرجال يتبادلون الحديث عما ينتظرهم من عملهم اليومى ، بينما كانت « كاسيلدا » الطباخة تقدم لهم أقداح القهوة ، وكان التفاؤل والبشر يسودان الجو فيما عدا كارمليتو الذى كان قد أسرج جواده مستعداً لمغادرة الضيعة .

وببدأ أنتونيو الحديث فيقول :

- إن أول ما ينبغى أن نقوم به هو ترويض المهر الأحمر ؛ لأن الدكتور يحتاج إلى مطية صالحة لركوبه ، وأظن أن هذا الجواد هو خير ما يناسبه .

فيوافقه على ذلك فنانشيو المروض قائلا :

- إنه قلما يوجد له مثل هنا .

ويضيف باخاروتى :

- ومن أجل ذلك وضع بالبينو نظره عليه تمهيدا للاستيلاء عليه ،
وبالبينو رجل يعرف ما يفعل ، وما كان لأحد أن ينكر عليه تمييزه للخيل
ومعرفته للجيد الصالح منها .

أما كارميليتو فقد تتم مخاطباً لنفسه :

- ما أسوأ حظ هذه البهيمة ! لقد كانت تستحق أن يعلو ظهرها من هو
أكثر منه رجولة !

وبينما كان عدد من الرجال يتوجهون إلى الحظيرة التى كان بها ذلك
الحصان انتحى كارميليتو بآنتونيو وقال له :

- يؤسفنى أن أقول لك إننى قررت ألا أبقى بعد الآن فى التاميرا ،
ولا تسألنى عن سبب لهذا للقرار .

فأجاب أنتونيو :

- لا ، لن أسألك عن شىء ، فأنا أعرف ما يجرى لك ، ولست أطلب
منك أن تعدل عن الذهاب ، ولو أنى كنت أعتمد عليك وأتخذك عدة لى أكثر
من اعتمادى على أى صديق آخر ، ولكنى لا أطالبك إلا بشىء واحد : هو أن
تنتظر قليلا ... يومين اثنين لا أكثر ، حتى أعود بعض الشىء على فكرة ذهابك ،
وحتى أحاول أن أسد الفراغ الذى ستخلفه وراءك .

وأدرك كارمليتو أن أنتونيو لم يطلب إليه هذه المهلة إلا لهدف واحد هو رجاءه في أن يغير رأيه في سانتوس لوثاردو ، وعلى الرغم من ذلك فقد قبل تأجيل رحلته :

- حسنًا ، سأجيبك إلى ما سألت ، لالشيء إلا لإرضائك فيما توجهت فيه إلى ، سأظل خلال هذين اليومين حتى تعود على فكرة رحيلي كما تقول ، ولو أن هناك أشياء لا أظن التعود عليها ممكنًا في هذه الأرض .

ولا تلبث أشعة الصباح أن تغمر السهول ، وتبدأ النسمات الرطبة الباردة في الهبوب على المروج وقد أثقلتها رائحة الأعشاب والماشية ، والدجاج تشرع في الهبوط عن جذوع شجر « الميريكوري(*) » الضخم ، فيناديها الديك البري ، وتتوافد عليه واحدة لكى يبسط عليها جناحه الذهبى ويذيقها لذة الحب فى شهبانيتها التى لا تشبع ، وطيور الحجل تتوثب بين المروج مطلقة صفيرها المرح ، وعصافير الحقول توقع ألحانها الفضية الرتيبة على سياج الحظائر ، وأسراب من البط البرى الصغير تحلق فى السماء فى لفظ مختلط الأصوات ، بينما تحلق هنا وهناك عصائب من الطيور الجارحة متربصة بما يقدر لها من غنيمة . وعلى الأرض الممتدة المترامية تتحرك قطعان الأبقار الوحشية ، والخيول الجموحة محمية الصباح بأبواق صهيلها . الحياة المنطلقة الخشنة تنبض فى السهول بقوة عارمة ، وها هو ذا سانتوس لوثاردو يتأمل من دهليز الدار ذلك المنظر الكبير الذى يخلب النظر ويأخذ بالفؤاد ، وهو يشعر فى تأمله له بأنه قد أيقظ فى نفسه أحاسيس بدائية وحشية كان يظنها قد خمدت إلى الأبد .

وقطعت عليه حبل تفكيره أصوات عالية غاضبة هناك إلى جوار الحظيرة فى نقاش محتدم :

- إن هذا المهر الوحشى من ماشية الدكتور لوثاردو ، وقد ولد هنا فى التاميرا ، فلا تأتنى اليوم بهذه القصة المختلقة عن كون أمه فرساً من أفراس « ضيعة الرعب » ، لقد حانت الساعة لكى تنتهى هنا تلك الحيل والألاعيب !

كان صوت أنتونيو ساندوفال ، وهو يواجه رجلاً عملاقاً كان قد أقبل فى هذه اللحظة ، والرجل ينهره فى لهجة آمرة ويسأله عمن أمره باستئصال المهر الأحمر الذى كان قد تحدث عنه قبل ذلك مع مروض الخيول الوحشية .

وأدرك سانتوس فى الحال أن الرجل الذى وصل منذ قليل ينبغى أن يكون مدير أعماله ووكيله بالينو باييا ، على أنه توجه إلى حيث كانت المشادة العنيفة بين الرجلين ، حتى يضع حداً لهذا النقاش ، ثم سأل :

- ماذا حدث ؟

غير أنه لم يتلق جواباً عن سؤاله ، فقد كان أنتونيو فى غمرة النقاش المحتد ، وكان وجهه المحتقن ينبئ عما كان يضطرب فى صدره من غيظ شغله عن رد الجواب ، أما الآخر فإنه لم يحفل بالنظر إلى سانتوس ، وكأنه رأى أنه غير ملزم بتقديم حساب عن أعماله أمام رجل غريب ، وحيث أن أعاد سانتوس سؤاله فى لهجة صارمة آمرة :

- ما الذى جرى ؟

فأجاب العملاق :

- إن هذا الرجل تهجم على بوقاحة .

فعاد سانتوس إلى السؤال ، وهو يتظاهر بأنه لا يعرف شخصية محدثه :

- ومن أنت ؟

فقدم الرجل نفسه قائلاً :

- بالبينو باييا ... فى خدمتك يا سيدى .

فصاح سانتوس حيثئذ ، وهو مواصل تجاهله لشخصية الرجل :

- آه ... إذن أنت مدير أعمال الضيعة ! لقد بكرت فى القدوم كثيراً ! ثم إذا بك تأتى لتشير العراك والشجار بدلا من تقديم الاعتذار لى عن غيابك عن الضيعة مساء أمس ، مع أن واجبك كان الحضور لاستقبالى عند قدومى .

وامتدت أصابع بالبينو باييا إلى شاربيه لمسحهما فى حيرة واضطراب ، فقد كانت عبارات سانتوس مفاجأة له لم يتوقعها ؛ إذ لم تكن داخلية فى برنامج الذى كان قد أعدده من قبل لفرض احترامه وهيبته على سانتوس لوثاردو منذ اللحظة الأولى ، ولهذا فقد بقى فى حيرة لا يدرى ما يفعل ، وأخيراً اضطر إلى الاعتذار :

- إننى لم أكن أعلم أنك قادم ولا فى أى وقت ، وقد عرفت أنك هنا الآن فقط ... منذ لحظات . أقول ذلك لأننى أحسب أنك سيد هذه الضيعة إذا لم يخطئ افتراضى .

- لا . لم تكن مخطئاً فى افتراضك .

وشعر بالبينو بأنه فقد هذه الجولة الأولى مع سانتوس لوثاردو الذى باغته بتلك الكلمات الشديدة التى لم يكن يتظرها ، والتى أوقعته لأول وهلة فى الاضطراب والحيرة ، فحاول أن يسترد رباطة جأشه ، ويستعيد الأرض التى فقدتها ، فقال :

- والآن وقد قدمت إليك اعتذارى بما فيه الكفاية أظن أنه قد جاء دورك فى الكلام ؛ لأن اللهجة التى خاطبتنى بها .. بصراحة .. ليست هى اللهجة التى اعتدتها ممن يتوجهون إلى بالكلام !

والتزم سانتوس لوئاردو الرزاة وبرود الأعصاب ، غير أن ابتسامة ساخرة
علت شفثفه وهو يقول :

- هكذا ؟ .. يالك من رجل متواضع متساهل فى حقوقك !

وكان رجال الضففة قد توقفوا يراقبون المشهد فى فضول ، وهتف
باخاروتى مخاطباً لنفسه :

- لقد من الله علينا برئفس حق الرجولة .

وانقطع بالبفنو بعد هذه الكلمة المفحمة ، فلم يعد راغباً فى مواصلة
اصطناع الشجاعة والتشديق بعبارات الاستعلاء ، بل رأى أنه لم ببق إلا القليل
بفنه وبن فقد منصبه كمدير لأعمال الضففة ؛ إذ إن ذلك قد أصبح فى حكم
الأمر الواقع ، فقال متسائلاً :

- هل أفهم من هذا أنك قررت الاستغناء عنى ، وأن خدماتى قد انتهت
هنا ؟

- لا ، لم تنته بعد ؛ إذ بقى عليك قبل ذلك أن تقدم لى حساباً وافياً عن
تصرفاتك وأعمالك ، ولكن لندع هذا إلى وقت آخر .

قالها سانتوس ، ثم أدار ظهره له ، بفنما كان بالبفنو يقول وهو يصصر على
أسنانه :

- سأكون تحت تصرفك فى الوقت الذى تريد .

وكانت عينا أنتونفو تجول فى الحاضرفن باحثفنف عن كارملىتو ، أما
باخاروتى ، فقد توجه إلى مارفا نىفس وفنانثفو ، وكانا فى مدخل الحظففة
يرقبان المشهد . وإن كانا فتنصنعان الاشتغال بإعداد الحبال لربط قوائم الجواد

الأحمر مدار النزاع بين أنتونيو وبالبينو بايا ، وصاح باخاروتى برفيقه فى لهجة مليئة بالتورية والتعريض :

- حسنًا يا أولاد ... ولكن ماذا تصنعون حتى تبطشوا كل هذا الوقت فى الإلقاء بهذا الحيوان إلى الأرض ؟ ألا ترونه يرتعد من الغيظ كأنما تملكه الرعب ؟ هذا وهو لم ير بعد إلا السرج المعد لتذليله للركوب ، فما بالكم به حين تمرغونه فى التراب ؟

وتعالت ضحكات ماريا نيبس وفناثيو من كلمات رفيقهما ذات المعنى المزدوج ؛ إذ كانت تعنى الحصان وبالبينو فى وقت واحد ، وأجاباه مجاريين له فى تعريضه :

- لا تعجل فإن مصيره إلى ذلك ، وسنرى الآن ما إذا كان سيستطيع التخلص من هذا الحبل كما تخلص من غيره فيما مضى !

أما الجواد فقد كان رائع تقاسيم الجسد ، شامخ النظرة ، لامع الشعر ، سريع الحركة ، وكانت عيناه تلتصقان ببريق الأنفة والاستماتة فى المقاومة ، وما إن قذف فناثيو وماريا نيبس الحبل على رجليه الأماميتين حتى نفر وتخلص منه كما قدر الرجلان بالفعل ، وكأنما هدته غريزته إلى أنه كان هدف العملية التى كان يستعد لها الرجال المحيطون به ، فظل يدافعهم فى استبسال ، محاولاً أن يندس فى وسط الخيول الأخرى التى كانت تجرى هنا وهناك فى قلب الحظيرة .

على أن باخاروتى تمكن أخيراً من إلقاء عقدة الحبل على قائمتى الجواد الجموح ، وشد على طرفه الآخر بيديه ، ثم أثبت قدميه فى الأرض ، وظل يجذب الحبل وهو ملق بجسده إلى الوراء بكل قوة ، وهكذا حتى استطاع الإلقاء بالجواد إلى الأرض ، ثم أهاب بماريا نيبس صائحاً :

- أسرع بإدخال ذنبه بين رجليه ، ولا تدع له فرصة النهوض .

ولكن الجواد كان أسرع حركة ؛ إذ إنه لم يلبث أن أقام عنقه وشد صدره ، واستوى على قائمته وهو ما زال باركا على الأرض ، وجسده يرتعد حمية وغضباً واستماتة فى القتال ، ولم يهجه باخاروتى إذ أثر أن يتركه حتى يهدأ ويسكن ، ثم اقترب منه قليلا قليلا وهو يقرب إليه الغشاوة الجلدية التى يعصبون بها أعين الخيل الجامحة عند ترويضها .

وهاج ذلك من ثورة الجواد ، فالتمعت عيناه ببريق وحشى غاضب ، ولكنه ترك الرجل يدنو منه ، وفطن أنتونيو إلى سوء نية الجواد ، فصاح بباخاروتى يحذره :

- احترس ، فإن هذا الوحش سوف ينقض عليك .

ولكن باخاروتى تقدم ماداً ذراعه بالغشاوة فى بطاء وحذر ، غير أنه لم يستطع أن يثبتها على جبين الحصان ؛ إذ لم تكد تلمس أذنيه حتى هجم هذا عليه قاذفاً برجليه الأماميتين فى وجهه ، ووثب باخاروتى فى خفة مبتعداً عنه وهو يصيح :

- تبا لك يابن الفاعلة !

غير أن تلك اللحظة كانت كافية لكى يستطيع الجواد النهوض من جديد والدفاع عن نفسه مختفيا فى غمار الخيول الأخرى التى كانت واقفة فى الحظيرة ، تنظر إلى ما يدور فيها ، وقد مدت أعناقها ونصبت آذانها فى توجس وقلق .

وصاح أنتونيو :

- والآن ألق على عنقه أنشودة الحبل .

وفعل باخاروتى ، وظل عنق الجواد يضطرب فى الأنشطة الواسعة ، وهى تضيق ويستحكم وثاقها كلما حاول التملص منها ، وأسرع ماريا نيبس وفنانثيو بدورهما فألقيا بحبالهما على قوائمه ، وأعجزته الحبال عن الحركة ، وأخذت الأنشطة بمخنقه ، فارتدى على الأرض وقد أرهقته المقاومة ، وأنفاسه تطرد فى سرعة وتلاحق .

وتمكن الرجال حيثئذ من إثبات الغشاوة الجلدية على عيني الجواد والعصابة المكمة على فمه ، وزادوا من إحكام عقد الحبال على قوائمه ، ثم نفسوا قليلا عن مخنقه ، فاستوى باركا على الأرض ، وحيثئذ وضع فنانثيو على ظهره السرج البسيط الذى يستخدمه المروضون ، ولم يزل الجواد يضطرب غيظا وحنقا حتى لم ير جدوى من الكفاح ، فسكن وقد أجمه الغضب وشل حركته ، وتصيب جسده عرقا تحت عار السرج الذى لم يذل له جنباه من قبل قط .

وكان سانتوس لوئاردو يراقب هذا المشهد كله وهو متكئ بمرفقيه على سياج الحظيرة الخشبي ، وقد هاج فى نفسه ذكريات طفولته وصباه ، وتصور نفسه فى تلك السنوات الخالية ، وهو يمتطى صهوة مثل هذا الجواد بغير سرج ولا ركاب ، وريح السهول اللافحة تصك وجهه وهو ينطلق فى أرجاء المرج الفسيح ، ولكن صوت أنتونيو قطع عليه حبل التأمل ، بينما كان فنانثيو يستعد لإلقاء رجله على ظهر الحصان . كان أنتونيو قد دنا منه وهمس فى أذنه :

- سانتوس ! أتذكر أيام كنت بنفسك تروض الخيول الجموحة التى كان أبوك ينتخبها لك ؟!

قالها أنتونيو فى صوت خفيض هامس ، وقد رفع الكلفة بينه وبين سانتوس كما كان يفعل حين كان رفيق طفولته المفضل ، ولم يكن هذا بحاجة إلى أن يزيده التابع المخلص تفسيراً لما أودعه ذلك السؤال ... الترويض ! محك

الرجولة الحقّة لدى أهل السهول ، وامتحان الشجاعة والفروسية الذى ينتظر منه أولئك الرجال أن يجتازوه حتى يسمعو له ويطيعوا ، وحتى تتأصل فى نفوسهم هيبتة واحترامه ، وامتد بصره وهو فى تفكيره هذا - دون أن يشعر - إلى كارمليتو الذى كان ينظر مثله إلى المشهد من وراء السياج فى الطرف المقابل حيث كان يقف . وانطلقت الكلمات من فم سانتوس ، وكأنه واقع تحت أثر مخدر :

- دع الجواد يافنانثيو ، فسأتولى أنا ترويضه !

وابتسم أنتونيوفى سرور ، فقد رأى أن كلماته لم تضع عبثاً وأنه لم يخطئ الظن بسيده ، أما فنانشيو وماريا نيبس فقد تبادلا نظرات تنطوى على مزيج من الدهشة والتشكك ، وأما باخاروتى فقد قال بصراحتة الخشنة التى لا تعرف المواربة ولا المداراة :

- لا حاجة بك إلى هذا يا دكتور ، فنحن هنا جميعاً نعرف أن رجولتك لا يعوزها إظهار ، فدع فنانشيو يقم بترويضه .

ولكن سانتوس لم يكن فى هذه اللحظة لسمع إلى حجة ولا ليلتفت إلى منطق ، فعبر السياج ، ووثب على ظهر الجواد الشرس ، ولم يشعر به الحيوان حتى تمرغ فى الأرض محاولاً اقتلاعه عن جنبه .

وارتسم على وجه كارمليتو تعبير عن الدهشة ، ثم بقى جامداً فى موضعه يرقب حركات الفارس وقد التصقت ساقاه بقوة على جنبى الحصان ، وهو يتململ من الغشاوة التى تغطى عينيه والكمامة التى كان باخاروتى وماريا نيبس ما زالا يقبضان منها على مقدم فمه ، وجسده يرتعش فى غيظ وهو يسبح فى بحر من العرق الغزير ، وأشفاره قد استطالت وتناثر منها الزبد .

وكان بالينو باييا لا يزال واقفاً هناك يتأمل المنظر ، وكان قد بقى فى انتظار فرصة تسمح له بأن يرى لوئاردو أنه قادر على أن يكيل له الصاع صاعين لو جرؤ على توجيه الخطاب إليه بمثل ما فعل عند أول لقاء له به ، وابتسم بالينو فى سخرية واحتقار ، وقال محدثاً نفسه :

- عن قريب سىرى هذا ... الفتى المغرور كيف يندق رأسه فى تراب أرضه !
أما أنتونيو فكان فى ولائه الساذج المخلص يجتهد فى ترديد نصائحه لسانتوس ، وكأنه كان يخشى أن يكون مضى السنين قد أنساه ما كان يمارسه فى صباه من ترويض الخيول الوحشية :

- دعه فى أول الأمر يجر ما شاء ، وأطلق له من العنان كل ما أراد ، حتى يأخذ منه الرهق والنصب ، فحيثما حاول أن تسيطر عليه قليلاً قليلاً ، ولا تكثر من الضغط على أضلاعه إلا فى وقت الضرورة ، وتمكن من صهوته منذ الآن قبل أن يندفع بك ، فهذا الجواد عنيف الهجمة سريع الحركة ، وهو من النوع الذى لا يقوس ظهره للقذف براكبه، ولكنه إذا انطلق عادياً فكأنما ركبه شيطان ، وستبعك أنا وفنانثيو عن كذب بقدر ما نستطيع .

ولكن سانتوس كان بعيداً عن أن يصفى إلى نصائح تابعه وتوجيهاته ، فقد كانت مشاعره الملهبة فى هذه اللحظة هى التى تقوده وتسيطر عليه ، وكانت أعصابه متوترة مضطربة تتأجج حمية واستبسالا ... تماماً مثل أعصاب هذا الجواد الجامح المتوحش ، وانحنى على رأس الحصان ليقتلع الغشاوة التى كانت تغطى عينيه وهو يصيح :

- دعوه ينطلق !

فصاح أنتونيو :

- باسم الله !

ونزع باخاروتى وماريا نيبس حبالهما عن الجواد وتركاه طليقاً بعد أن وثبا منفرجين عن جانبيه ، أما الحصان فقد قوس ظهره محاولاً أن يلقي براكبه ، ثم قذف بنفسه على الأرض وهو فى سورة الغضب ، فكادت تنزل من تحته ، ولكن سانتوس أثبت ساقيه على ظهره حتى بدا الجواد وفارسه كأنما أصبحا كتلة واحدة ، وارتفعت سحابة من الغبار لم تكد تنقشع حتى كانا قد غابا عن الأنظار ، فقد انطلق الجواد يعدو وكأنه يشرب هواء المرج الفسيح الممتد أمامه بلا نهاية .

ومضى أنتونيوفناتشو يعدوان وراءه على صهوتى جواديهما ، ولكنهما لم يلحقاه ، وسرعان ما فقدوا كل أثر للحصان وراكبه .

وتمتم كارملينو وقد غلبه التأثر :

- لقد أخطأت فى حق الرجل !

بينما صاح باخاروتى :

- ألم أقل إن رباط العنق ليس إلا خرقة يستر بها الرجل شعر صدره ؟ ألا تراه كيف استوى على ظهر الجواد كأنه صخرة ثابتة ؟ وما كان الحصان ليقتلع مثل هذا الفارس عن صهوته إلا إذا أثر أن يعجرى على ظهره عوضاً عن قوائمه .

ثم توجه إلى حيث كان بالينو واقفاً واستطرد قائلاً فى استفزاز صريح :

- سيرى أشباه النساء الآن كيف تكون سراويل الرجال الذين يعرفون كيف يحكمونها على أجسادهم . وقد آن لنا أن نعرف ما إذا كان أسداً حقاً كل ما يزار !

ولكن بالينو تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً ، فقد كان يعرف أن باخاروتى إذا اجتراً على مثل هذه العبارة فإن جرأته لن تقتصر على مجرد الكلام .

وأقبل بالبينو يحدث نفسه .

- لا يخلو هذا الصبى المغتر بنفسه من شجاعة واجترأ ، ولكن الجواد لم يعد بعد ، ولعله لا يعود أبداً ، فإن هذه السهول تبدو من هنا منبسطة مستوية ، ولكن فيها رغم ذلك وهاداً وأغواراً كفيلة بأن تندق فيها رقاب المتهورين ومصطنعى الجرأة من الفرسان !

ومع ذلك فإن بالبينو لم يطل المقام منتظراً ما يسفر عنه الأمر ، فمضى برهة يتجول هنا وهناك بين أكواخ الرعاة فى الضيعة كأنه يبحث عن شىء مفقود ، وأخيراً اعتلى مطيته وغادر التاميرا قبل أن يجبروه على أن يقدم حساباً عن سرقاته وأفاعيله .

* * *

الأرض الواسعة المبسوطة ... الأرض الطيبة الصالحة للأعمال الجبارة والمآثر الخالدة المجيدة ؛ حيث السراب الذى يلوح فى آفاق السهول ينداح كدائرة تلتقى خطوطها حول محور من السرعة التى يصيب الرءوس منها دوار ... الريح تلقى فى الأذان صفيها الحاد ، وأعواد القصب والبوص تنقبض وتنفرج فى سرعة محمومة ، وخمائل الأعشاب الطويلة تنحسر بين يدي الفارس المغذ وتصيب جسده بأطرافها الحادة القاطعة كأنها الخناجر ، ولكن الجسد لا يحس بألم الضربات ولا الجروح ، وكثيراً ما يرى الفارس أن الأرض تحت أقدام جواده لم تعد أرضاً ، بل هى أشراك ووهاد تلتقف ما يلقي إليها ، ولكن الجواد يشب عليها دون أن يلمسها كأنه طائر ، ووقع حوافره يتردد ، فيغطى إيقاعه المدوى على كل صوت آخر فى تلك الأرض .. الأرض الواسعة التى يجرى فيها الفارس المجد أياماً كاملة دون أن يدرك لها نهاية .. سهول تطوى وما زالت بعد أمامه سهول ! ..

* * *

وتتضاءل أخيراً وحشية الجواد ، وتستكين سORTEه الجامحة ، ويتساقط عدوه شيئاً فشيئاً ، ها هو ذاع يقرع الأرض بحوافره قرعاً منسجماً بعد أن كان لا يكاد يطاقها ، ويتنفس تنفساً سريعاً متلاحقاً ، ويهز رأسه الغارق فى سيل من العرق والزبد . لقد تمكن فارسه من السيطرة عليه والتحكم فيه ، ولكنه ما زال متعالياً شامخ الأنف ، وهو يعود أخيراً إلى بيوت الضيعة ، وقد حف به جواداً أنتونيوفنانثيو ، ويرتفع صهيله فى اعتداد وزهو ، ولعله كان يشعر بأن له سلوى عن فقد حريره ووحشيته : هى أنه كان يحمل على ظهره رجلاً حق الرجولة .

ويستقبله باخاروتى بعبارة الإطراء التى اعتاد الرعاة من أهل السهول أن يوجهوها إلى الخيل التى تعود بعد ترويضها :

- جواد أصيل كريم ، قد لوحت الشمس جلده المورد ! جواد لا يدركه التعب إلا إذا حل برحابه الموت ! ...

الفصل التاسع المرأة الغامضة

مهنة مربحة مثقلة بالغنائم كانت تلك التى خلفها بالينو بايا وراء ظهره بعد أن بدأ ينتفع منها حق الانتفاع ؛ إذ إن المستفيد الوحيد من تولى بالينو لعمل الإشراف على ضيعة ألتاميرا وتصريف شئونها لم يكن حتى ذلك الوقت إلا السيدة باربارا ، فقد استطاعت المرأة الداهية أن تضع يدها على آلاف الثيران والأبقار كانت مما نهبتة أو انتزعتة من «ألتاميرا» بعد أن وسمتها بميسم «ضيعة الرعب» ، أما بالينو فلم يستول لحسابه الخاص من كل ذلك إلا على نحو ثلاثمائة ، وهو عدد ضئيل لا يقاس بما كان ينبغى أن يناله إذا دخل فى التقدير مدى «براعته» الإدارية .

وهو الآن بعد طرده من عمله فى ألتاميرا لم يبق أمامه إلا أن يجد مثل هذا العمل فى ضيعة السيدة باربارا ، ومع أنه لم يكن يملأ يده من عاطفة المرأة نحوه - على الرغم من إصراره على أنه عشيقها الجديد - فإنه كان يتعين عليها أن تعوضه عما فقد من عمل جزاء وفاً على الخدمات الكثيرة التى قدمها إليها فى أثناء إدارته لأعمال ضيعة سانتوس لوئاردو .

ولم يكن ذلك وحده هو كل ما يقلق بالينو ويزعجه ، بل أضيف إليه أيضاً هم جديد كان يحدث به نفسه فى ضجر وضيق : ذلك هو أن انسحابه من الميدان الآن لا يمكن أن يفسر إلا على أنه اعتراف منه بما أنكره على رءوس الملاء فى الليلة الماضية من رجولة سانتوس لوئاردو وقوة شكيمة . وماذا سيكون موقفه الآن لو خطر «للساحر» أن يستقبله بهذه الكلمات فى تشف وشماتة :

- ألم أقل لك ياسيد بالبينو إنه «خير لك أن تأخذ الثمرة من أن تؤخذ منك» ؟

ومضى بالبينو يحدث نفسه بهذه الهموم الطارئة وهو فى طريقه إلى «ضيعة الرعب» ، ولم يقطع شوطاً من الطريق حتى التقى بثلاثة رجال كانوا متوجهين أيضاً إلى منزل السيدة باربارا ، فسألهم :

- ما الذى يبحث عنه «الموندراجونس» فى هذه النواحي ؟

أجابوه قائلين :

- أأست تعرف الخبر الجديد ياسيد بالبينو ؟ لقد أمرت السيدة بأن نخلى دار «الماكانيال» ، ويبدو أنها لم تعد تريد مقامنا هناك !

وكان «الموندراجونس» هؤلاء إخوة ثلاثة قدموا من سهول «باريناس» ، وكان الناس يلقبـونهم - لما عرف من جرائمهم وإقدامهم على الشر - بـ «الفهد» و «النمر» و «الأسد» ، ثم إنهم اضطروا إلى الهرب من ولاية «باريناس» بعد ما ارتكبوه من جرائم هناك خوفاً من مطاردة العدالة لهم ، واستقروا فى ولاية «أبورى» ؛ حيث ظلوا يتنقلون هنا وهناك منقطعين إلى سرقة الماشية زمناً ما ، وأخيراً دخلوا فى خدمة السيدة باربارا ووجدوا فى ذراها من الحماية والرعاية ما كان يجده أمثالهم من المجرمين واللصوص الذين يحلون فى حوض «الأراوكا» .

أما دار «الماكانيال» فقد كانت تقع على الحدود الفاصلة بين ضياع السيدة باربارا وضيعة «ألتاميرا» . وذلك حسبما تقرر فى حكم آخر قضية كسبتها هذه المرأة ، ولكن الحدود والدار كانت قد تحولت من موضعها وانتقلت إلى داخل أرض ألتاميرا ، وذلك بفضل الإخوة الثلاثة «الموندراجونس» الذين لم تكن لهم مهمة إلا المغالطة فى الحدود الفاصلة والتقدم بها بين وقت وآخر إلى داخل

«التاميرا» مقتطعين بذلك جزءاً منها ليضيفوه إلى أملاك السيدة باربارا ، وكان مما أعانهم على ذلك أن حكم المحكمة في آخر قضية لم يضع بين الضيعتين إلا حدوداً مائة غامضة ؛ إذ كان ينص على أن هذه الحدود هي الخط الذي يمر بدار «الماكانيال» القائمة بين الملكين ، ولكن هذه الدار التي ليست إلا قوائم وألواحاً من الخشب كان من الميسور فكها ونقل موضعها ثم إعادة بنائها كما كانت في بضع ساعات ، دون أن يفتن أحد لأول وهلة إلى أى تغيير جذير بالملاحظة في هذه السهول الفسيحة الهائلة ، وكان «الموندراجونس» القاطنون بهذه الدار هم الذين وكلت إليهم أعمال الانتقال بالحدود شيئاً فشيئاً ، وبهذه الحيلة استطاعت السيدة باربارا أن تستولى على شريط كبير من الأرض يبلغ عرضه نحو نصف فرسخ في خلال ستة شهور ، هذا بينما كانت تستعد لرفع قضية أخرى ضد جارها .

ولم يقع الخبر الجديد موقع الرضا من نفس بالينو ، ولكن دهشته واستياءه زادا حينما أضاف «النمر» إلى ذلك قوله :

- هذا والذي يسوؤنا في الأمر ليس ما قررته بشأن إخلاء الدار ، ولكنه ما حدث هذا الصباح حينما قدم علينا ملكيادس بأمر منها تكلفنا فيه بأن نفك الدار وننقلها إلى حيث كانت من قبل وبأن نعود بحدود الضيعة إلى ما كانت عليه في الماضي ، وكأن نقل كل ذلك أمر يسير يمكن أن يتم في ليلة واحدة ، ثم إنه لا يعجبنا أن نعود إلى الوراء بعد أن تقدمنا إلى الأمام ، ولهذا فقد قدمنا على السيدة من أجل أن تعفينا من هذا العمل ، وأن تعهد به إلى أشخاص غيرنا .

وقطب بالينو حاجبيه وأخلد إلى التفكير بينما كان «الأسد» ينهى حديث أخيه :

- الذى أقوله أنا إن هناك أشياء غريبة تحدث هنا دون أن أعرف لها تفسيراً معقولاً ... إلا إذا كانت السيدة قد بدأت تشعر بالخوف من جارها الجديد !

ولكن بالينو قال أخيراً للإخوة الثلاثة :

- لا تنقلوا الدار الآن، ولا تغيروا مكان الحدود الفاصلة بين الضيعتين، ولا تذهبوا للكلام معها ، بل اتركوا هذا الأمر لى أنا حتى أتمكن من تسويته معها .

وبقى «الموندراجونس» متشاغلين بالحديث مع بعض رجال الضيعة الذين كانوا واقفين هناك ، بينما توجه بالينو إلى المنزل ، فاستأذن فى الدخول على السيدة باربارا فى الحال . وكان أول ما فوجئ به بالينو ووقع من نفسه موقعاً سيئاً هو ذلك التغير الكامل الذى لاحظته على هيئة المرأة ؛ إذ رأى أنها قد خلعت عنها ذلك الثوب الأبيض البسيط ذا الأكمام الطويلة الذى كان يعتبر أقصى ما تسمح به أنوثتها اليابسة المسترجلة ، وارتدت عوضاً عنه ثوباً آخر لم يره بالينو عليها قط من قبل ، كان ثوباً بلا أكمام مفتوح الصدر تزين حوافه شرائط وتطاريز ملونة ، وفضلاً عن ذلك فقد بدت مهندمة مسرحية الشعر على صورة جعلتها تبدو أكثر جمالاً وشباباً .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التغير الذى صدم عينيه لم يرق له ، وتوجس منه شراً لم يكن يتوقعه ؛ فقطب حاجبيه ، وتمتم بكلمات تعبر عن الضيق وسوء الظن .

وزاد من استيائه تلك الابتسامة الساخرة التى ارتسمت على شفتى المرأة ، وهى تسأله معرضة بما تشدق به فى الليلة السابقة من الاستخفاف بلوثاردو وبما ظل يجمع به من خطط رسمها من أجل إذلاله وإرهابه :

- هل ذلت قياده وأوطأت ركابه ؟

وأحق السؤال المتهمكم بالينو باييا وأخرجه ، فلم يملك إلا أن يجيب فى لهجة جافة خشنة :

- لقد عدت إلى الضيعة بعد أن اتخذت طريقى إلى هنا منتظراً أن يدعونى لكى أقدم له حساباً عن عملى ، وياليتنه فعل ! فإنه سىرى حينئذ من هو الذى يتحتم عليه أن يقدم الحساب !

ولم ترد عليه باربارا الجواب ، ولكنها شخصت بعينيهما إليه ، وظلت مثبتة نظرها فيه دون أن تفارق شفثيها الابتسامة الساخرة ، وارتفعت يد بالينو إلى شاربيه يتحسسهما مرتين أو ثلاثاً ، ثم نطق قائلاً :

- ولكنى لم أذهب إلى هناك إلا ابتغاء مرضاتك أنت !
وتوارت الابتسامة عن وجهها ، ولكنها ظلت ملتزمة ذلك الصمت المحير المثير .

وبداً التوجس والارتباب على وجه بالينو وحدث نفسه قائلاً :

- إن مبادئ هذا الأمر تدل على سوء عواقبه !

والواقع أن سر قوة هذه المرأة وسيطرتها على من يحيطون بها وما كانت تبثه فى نفوسهم من هيبة وخوف ، إنما كان ينحصر فى أنها كانت تعرف كيف تصمت عن الكلام وتنتظر ما يقوله أو يفعله الآخرون ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن ينتزع منها سرّاً تحرص على عدم إفشائه ، أما خططها وتدابيرها فإنها لم تكن تطلع مخلوقاً على كلمة واحدة عنها ، وأما عن مشاعرهما وأحاسيسهما إزاء من يعيشون حولها أو يتصلون بها فما جرؤ أحد على أن يسبر غورها أو يستكنه غوامضها . كان تكتمها الشديد وتحفظها المطلق يحيران كل من يعرفها ، حتى الذين راودهم الأمل فى الظفر بقلبها لم يستطع واحد منهم أن يتأكد من حقيقة عواطفها نحوه ، فإذا دنا منها ممناً نفسه بأنها قد انقادت له

فما أكثر ما يفاجأ بما يقلب خططه ومشاريعه رأساً على عقب . أما الذين يكتب عليه أن يعشقها عشقاً خالصاً كما قدر على «لورنثو باركيرو» فلا مفر من أن تتحول حياته إلى مأساة فاجعة مدمرة !

والحق أن مشاعر بالينو فى علاقته بالسيدة باربارا كانت أبعد ما تكون عن مثل هذا الهوى الذى ملك على «باركيرو» قلبه وحواسه ، ولكنه لم يكن قد فقد الأمل بعد من التمتع بنعيم وصالها ، ولا سيما إذا كان هذا الوصال مغنياً جالباً للثروة فى الوقت ذاته ، وما أكثر ما اغتنى على حساب هذه المرأة أولئك العشاق الذين وكلت إليهم إدارة شئون ضياعها ، وربما كان مكر هؤلاء ودهاؤهم هو الذى زين لهم أن يروجوا تلك الأسطورة المتعلقة بالقوى السحرية الخفية التى تعين السيدة باربارا ، والتى كان جميع الناس هناك - وأولهم المرأة نفسها - مقتنعين بمقتضاها بأنه ليس لأحد - مهما بلغ - قبل بأن يسرق منها رأساً واحداً من رءوس الماشية ، فقد كانت باربارا كثيراً ما تهمل حراسة ماشيتها وتتهاون فى رعايتها ؛ إذ تأصل فى نفسها اليقين بأن على مالها «حارساً» يقف لكل من يتعرض لها بالمرصاد ، وأعان ذلك وكلاءها ومديرى أعمالها على أن ينتهبوا منها الكثير دون أن تفتن هى إلى شىء على الرغم من بخلها وتقتيرها .

وانتهز بالينو فرصة ما حدثه به الإخوة «الموندراجونس» لكى يجس نبض المرأة الغامضة ، ويستطلع حقيقة مشاعرها وتدابيرها ، فقال :

- لقد تركت الباب «الموندراجونس» الذين وصلوا فى هذه اللحظة قادمين من دار «الماكانيال» .

وتساءلت هى :

- وماذا أتوا يفعلون ؟

فأجاب بلهجة أكثر «رسمية» واحتراماً :

- يبدو أنهم قدموا للكلام معك ياسيدتى ، فهم - على ما يظهر - غير مرتاحين لمسألة فك البيت الذين يسكنونه هناك وإعادته إلى موضعه السابق .

وندت من باربارا لفظة سريعة غاضبة ، ثم قالت بلهجة صارمة :

- كيف قلت ؟ غير مرتاحين ؟ ومن الذى سألهم إذا كان هذا الأمر يعجبهم أم لا ؟ اذهب فنادهم الآن وأدخلهم على .

وتلكأ بالينو برهة ثم أضاف فى تردد وتراجع :

- لا ، لم أقصد أن أقول إنهم يمتنعون عن تنفيذ الأمر الصادر إليهم ، ولكنهم يقولون إنهم ثلاثة رجال فقط وإنهم لا يستطيعون أن ينقلوا البيت والحدود الفاصلة للضيعة فى ليلة واحدة .

- إذن ، فليساعدهم فى ذلك كل من يلزمهم من الرجال ، وليكن فى علمك وعلمهم أننى أريد الدار والحدود فى نفس مواضعها السابقة قبل أن يشرق صباح الغد .

وهز بالينو كتفيه وقال :

- سأبلغهم ذلك .

- لقد كان واجبك يقضى بأن تبلغهم ذلك منذ البدء ، فأنت تعرف تماماً أننى لا أقبل أن يناقش أحد ما أصدر من أوامر .

وخرج بالينو إلى فناء المنزل ، فنادى «الموندراجونس» وانفرد بهم ثم قال :

- لقد أخطأتم فى تقدير الأمر الذى كلفتم به ، فهو ليس خوفاً من الجار الجديد كما ظننتم ، ولكنها خدعة نصبنا حائلها له حتى يظن أننا نهاه ونرهبه ، فيسوقه ذلك إلى الانزلاق فى تحدينا ومبادأتنا بالعدوان ، فاطمئنوا واذهبوا لتنفيذ ما صدر لكم من أوامر ، واحملوا معكم كل من تحتاجون إليه من

رجال ، حتى لا يشرق صباح الغد إلا والدار فى موضعها السابق ، وحدود الضيعة فى نفس المكان الذى صدر به حكم المحكمة .

فقال «الفهد» :

- هذا شىء آخر ، أما والأمر كذلك فلا بأس ، وستوجه الآن لنقل البيت والحدود وكل ما يلزم .

وانطلق من فوره مع أخويه بعد أن استصحب عدداً آخر من الرجال للبدء فى النهوض بذلك العمل .

أما بالبينو فقد عاد إلى السيدة باربارا ، فوجه إليها عدداً من الأسئلة لم يظفر عليه بجواب ، وأخيراً قرر أن يعرض لها بما يخرجها من ظلام الشك والإبهام الذى كان يكتنف خططها ومشاعرها نحو لوئاردو ، فقال :

- لست أعرف ما حل بملكىادس ؛ إذ يبدو لى أنه قد فقد الذاكرة وانحسرت عنه تلك الجرأة والجسارة التى عهدناها فيه... وإلا فما الذى تعنيه مرافقته للرجل على ظهر القارب حيث لم يكن يستطيع القيام بشىء ؟ مع أن فى سفح جبل «الأراوكو» أكثر من مرصد كان يمكنه فيه أن يتربص بالرجل ويحول بينه وبين الوصول إلى ضيعته ... ثم نهراً مثل هذا ترتع فيه التماسيح المستعدة لكى تحمل تبعة كل جيفة تلقى إلى مياهه ! أما الآن فالأمر أعسر بكثير ؛ إذ لابد للسلطات أن تأتى لتزعجنا بتحرياتها وتحقيقاتها، حتى وإن كان ذلك لمجرد القيام بواجب الشكليات أو لذر الرماد فى العيون !

ولم يفت السيدة باربارا ما قصده الرجل بتعريضه الخبيث المنكر ، ولكنها لم تحرك ساكناً ، بل وجهت إليه نظرة بطيئة قائمة ، ثم قالت فى لهجة صارمة حافلة بالتهديد :

- كان الله فى عون من يتعرض لسانتوس لوئاردو بأى سوء ! فحذار من العودة إلى مثل هذا التفكير .. إن هذا الرجل من شأنى أنا وحدى !

الفصل العاشر شبح الباركيرينيا

غابة من الأدغال والأعشاب الطويلة المتكاثفة ، عميقة صافية ، تغطي منخفضًا واسعًا يقطع استواء المروج المنبسطة ... أما الاسم الذي كان الناس يطلقونه عليها : «لاتشو سميتا» فإنهم كانوا يعنون به عصفورة زرقاء صغيرة كانت هي الكائن الحى الوحيد الذى يسكن تلك الغابة حسبما تذكر أسطورة قديمة شائعة . كان مكانًا حلت عليه اللعنة . . . الصمت يأخذ فيه بالألباب ، وهنا وهناك جذوع نخل خاوية أحرقتها الصواعق فحولتها إلى كتل متفحمة ، وفى وسطه بركة من الوحل الرجراج الذى لا يكاد كائن حى يجروء على المخاطرة باقتحامه حتى يتلعه ابتلاعًا .

وتقول الأسطورة إن تلك العصفورة الزرقاء لم تكن إلا روحًا معذبة لفتاة هندية بنت أحد الزعماء الهنود من قبيلة «اليارورو» التى كانت تقطن هذا المكان منذ زمن بعيد، حينما قدم «إيفارستو لوئاردو» المعروف «بالكونافتشيرو» سائقًا ماشيته إلى حوض «الأراوكا» بحثًا عن مراعى جديدة ، فى أول استعمار هذه الجهات . ووجد المغامر الشرس من تلك الأرض لقمة سائغة ، فحاول أن ينتزعها من الهنود أصحابها الشرعيين ، ولكن هؤلاء قاوموا الدخيل المغتصب دفاعًا عن أرضهم وأنفسهم ، فلم يتورع عن سفك دمائهم واستئصالهم بالنار والحديد . فلما رأى الزعيم الهندى ما آلت إليه أرضه وأرض قبيلته من خراب ووحشة صب لعنته ودعواته على ذلك الموضع ، ودعا الآلهة ألا تدع فيه إلا الدمار ، وأن تحيق نقيمتها على مغتصب أرضه هو وذريته من بعده ، وأن تأتى

الصواعق على ماشيته وحرثه ونسله ، على أنه تنبأ بأن هذه الأرض ستعود مرة أخرى إلى قبيلة «اليارورو» حينما يوفق واحد من سلالتها إلى استخراج حجر اللعنة المسحور من باطن أرضها .

ويقول قاطنو هذه الجهات إن نبوءة الزعيم الهندي قد تحققت بحذافيرها ؛ إذ لم تطرق تلك السهول صاعقة إلا وأفرغت على الموضع الملعون معظم بلائها ، وما أكثر ما تعرضت للموت بسببها قطعان كاملة من مواشى أسرة «لوثاردو» لم ينج منها رأس واحد ، ولم يكن فى ذلك وحده مصداق استجابة دعوة الهندي ، بل كان من غريب الموافقات أن هذا الموضع نفسه كان هو الشرارة التى انبعثت منها نار الفتنة الجائحة ساحبة ذيول النكبات والكوارث على آل «لوثاردو» . أما الصواعق التى كانت سياطها تنهال على تلك الأرض فقد كان يتردد على ألسنة الناس حتى أيام خوسيه لوثاردو والد سانتوس أنه لم تقع إحداها إلا ورأوا فى أعقابها هنديا لا يعرف أحد من أين أتى ، وهو ينبش التراب والرماد المتخلف فى مكان سقوطها جادا فى البحث عن «حجر اللعنة المسحور» !

ولكن الأسطورة كانت فى طريقها إلى الاندثار ، ولم يعد أحد يرى فى السنوات الأخيرة هنوداً من قبيلة «اليارورو» فى ذلك المكان ، ولعلمهم نسوا تلك النبوءة أو يئسوا من إمكان تحقيقها ، أما فى «ألتاميرا» فلم يكن أحد يجهر باعتقاد فى صحتها أو نصديقه لها ، ومع ذلك فإنهم جميعاً كانوا يؤثرون أن يدوروا حول ذلك الموضع دورة طويلة حتى لا يضطروا لاختراق أرضه التى حلت عليها اللعنة .

أقبل سانتوس على ظهر جواده ، فلم يصل إلى المكان الموحد حتى سار بحذاء أطرافه على شريط فى أرض يغطيها طين لزج أسود إلا أنها صالحة للمشى لا خطر على السائر فيها ، وكان رشاش الطين يتطاير عن حوافر الجواد

، بينما بدت بركة الوحل الرجراج المخيفة وقد حف جنباتها إطار من العشب الأخضر الرطب ، وكانت تنبعث من هذه الخضرة الجميلة نسمات لطيفة ترتاح لها الحواس ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يسودها جو قائم قابض للصدر ، وجال سانتوس ببصره فى المكان الهادئ العريض ... لم ير تلك العصفورة الزرقاء التى تتحدث عنها الأسطورة ، وإنما كان هناك كركى وحيد كئيب المنظر قد نصب ساقيه العجفاوين على جزيرة من الأعشاب فى وسط البركة ، فى صمت عميق كأنه هدوء الموت .

ومضى سانتوس قدماً وقد استغرق فى تفكير عميق فى الأمر الذى أتى به إلى هذا المكان ، وأفاق فجأة على شىء رآه يتحرك فى جانب من جوانب الفضاء الذى كان نظره يسرح فيه ، وأدق النظر ، فإذا به يرى صبية مشعثة الشعر لا تغطى جسدها إلا خرق مهلهلة قذرة ، وكانت تحمل على رأسها حزمة من الخطب ، ولاحظ سانتوس أن الفتاة لم تكد تراه حتى نفرت كأنها حيوان مذعور ، محاولة الاختفاء وراء شجرة من شجر النخيل .

وأوقف سانتوس دابته ثم نادى الصبية :

- يابنت ... أتعرفين أين تقع دار لورنثو باركيرو هنا ؟

وأجابت هذه بعد أن زامت كأنها حيوان نفور :

- ألسـت تعرفه إذن ؟

- لا ... لا أعرفه ، ومن أجل هذا سألتك .

- وهذه السقيفة التى ترى هناك ... لمن تكون إذن إن لم تكن الدار التى تقصد ؟

- لقد كان بوسعك أن تبدئى بذلك .

قالها سانتوس ومضى فى طريقه إلى حيث أشارت الفتاة . وكانت داراً صغيرة متواضعة نصفها كوخ ونصفها الآخر حظيرة . أما الكوخ فقد كان يتألف من جدران أربعة أقيمت من الطين والتبن بغير طلاء ولا بياض ، ولها باب بغير قفل ولا مزلاج ، وأما الحظيرة فقد كانت أربعة أعمدة من الخشب يعلوها سقف أسود ممزق الجوانب من سعف النخيل وأوراق الشجر ، وقد علقت بين اثنين من أعمدتها شبكة قد اتخذت سريراً متأرجحاً فى الهواء . كانت هذه هى الدار التى اتخذها لسكناه «شبح الباركيرينيا» كما درج الناس هناك على أن يسموا «لورنثو باركيرو» .

وكان سانتوس قد رأى لورنثو فى صباه أكثر من مرة ، ولهذا فقد كان يحتفظ فى ذاكرته عنه بصورة مبهمه مشوشة ، على أنه حتى لو كانت تلك الصورة واضحة محددة المعالم لما استطاع سانتوس أن يتعرف مرة أخرى عليه حينما وقع نظره على ذلك الرجل المتكوم فى السرير المتأرجح فى الهواء بين عمودى الحظيرة .

كان رجلاً مهزولاً مغضن الجلد شاحب اللون رمادى الشعر يبدو كما لو كان عجوزاً متهالكاً مع أنه لم يكن يناهز الأربعين من عمره . وكانت يداه الطويلتان المعروقتان تتدليان من السرير فى رعدة دائمة لا تتوقف ، وفى حدقتيه اللتين مازجت الخضرة لونهما الأسود بريق يلمع بالجنون ، ورأسه متدل على صدره كأنما نصبت على عنقه ربة تشبه تلك التى تثقل كاهل الماشية . أما تقاطيع وجهه وحركات جسده فقد كانت تنم عن تحلل الإرادة واختلال العقل . وقد ارتسمت على فمه الموج التواءة انفرجت عنها أسنانه تدل على نوبات السكر العنيفة . ولم يكد هذا الحطام البشرى بحس بوصول القادم حتى ظهر عليه أنه يبذل مجهوداً كبيراً لكى تنفرج شفتاه عن صوت كان يبدو كما لو أنه خارج من قعر كهف عميق :

- مع من لى شرف الكلام ؟

وكان سانتوس قد ترجل عن جواده وربطه إلى أحد أعمدة الحظيرة ، ثم تقدم إلى حيث اضطجع لورنثو باركيرو قائلاً :

- أنا سانتوس لوئاردو ، وقد قدمت لكى أعرض عليك صداقتى .

ولكن نار الحقد العائلى الموروث لم تكن قد خمدت بعد فى ذلك الحطام البشرى ، فإذا به يصيح متحاملاً على نفسه :

- رجل من بنى لوئاردو فى بيت واحد من أسرة باركيرو ؟

ورآه سانتوس ينهض عن سريره ، وقد تملكته رجفة عنيفة ، وهو يترنح ويتعثر ناظراً حواليه كأنما يبحث عن سلاح ، ولكن سانتوس تقدم ماداً يده إليه :

- لنكن عقلاء يا لورنثو . إنه من السخف والحماقة أن نظل محتفظين فى أعماق أنفسنا حتى اليوم بذلك البغض المشئوم الذى توارثته أسرتانا ، أما أنا فلأنى لم أعد أشعر بشيء من ذلك ، وأما أنت ...

فقاطعه لورنثو مكماً عبارته والكلمات تتعثر على لسانه كما كانت الأفكار تضطرب وتتناثر فى ذهنه :

- ... وأما أنا فلأنى لم أعد رجلاً ! ... أليس هذا هو ما أردت أن تقول ؟

- لا يا لورنثو . معاذ الله أن يخطر ببالى شيء من ذلك .

قالها سانتوس وقد بدأ يداخل نفسه شعور من الرثاء الصادق المخلص للرجل التعس الوقف أمامه ؛ إذ إن سانتوس لم يكن يشعر حتى ذلك الوقت إلا بالرغبة فى إنهاء هذه العداوة التقليدية القديمة .

ولكن لورنثو عاد إلى الإصرار على ما قال :

- لا ، بل كنت تريد أن تقول إنه لم يعد فى أثر من آثار الرجولة !

وكان لورنشو حتى هذه اللحظة ينطق بكلماته المتلعثمة المتعثرة ، ولكن صوته كان ما يزال جهيراً يتهدج بالكراهية والتحدى ، وكان يحاول أن يقيم عوده لمواجهة زائره ، غير أن الجهد الذى بذله فى ذلك استنفد قواه كلها ، فلم يلبث أن انهار بنيانه وتداعى إرادته الخائرة ، فتهالك على نفسه مكماً كلامه فى صوت منطفيء حزين قد تزايدت رعشته :

- ... وما حدث عن الصواب يا سانتوس لوئاردو ، فإننى لم أعد رجلاً ...
لست إلا شبحاً لرجل قد طواه الموت ، فافعل بى ما تشاء .

- لست أريد إلا ما سبق أن قلته لك : أن أعرض عليك صداقتى ، وأن أضع نفسى تحت تصرفك فى كل ما يمكن أن تراه نافعاً لك . لقد أتيت إلى «التاميرا» لكى أتعهد بنفسي شئون الضيعة ، ولكى ..

غير أن لورنشو عاد إلى مقاطعته صائحاً وهو يحاول أن يصلب قوامه مثبتاً يديه المهزولتين على كتفى سانتوس :

- وأنت أيضاً يا سانتوس لوئاردو ؟ أنت أيضاً سمعت النداء ؟ نعم ...
ليس هناك مفر من ذلك . لقد كتب علينا جميعاً أن نسمع النداء ، وأن نهرع إلى تلبيةه !

- ليست أفهم ما تقول . أى نداء تعنيه ؟

وكان لورنشو قد تشبث بكتفيه غارساً فيهما أصابعه الطويلة المعروفة وشاخصاً بعينيه المحمومتين إلى وجهه ، ولم يعد سانتوس قادراً على تحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه ، فأراد أن يخلص منه مغيراً مجرى الحديث :

- ولكنك إلى الآن لم تعرض على مقعداً للجلوس .

- هذا صحيح ، فانظرنى قليلاً حتى أخرج إليك كرسيّاً .

ولكن سانتوس رآه يترنح فى مشيته ويوشك أن يسقط إعياء ، فقال :

- لا تكلف نفسك عناء ذلك ، فبوسعى أنا أن أدخل لإحضاره .

- لا ... لتبق أنت هنا . فإنك لا تستطيع الدخول ، بل أنا الذى لا أريد لك أن تدخل ، فإن هذا الذى تراه ليس بيتاً ، ولكنه جحر وحش من الوحوش .

ودلف لورنثو إلى داخل الكوخ حائياً قامته المتوسطة بطبيعتها لكى يتمكن من جواز الباب القصير .

ولكنه قبل أن يمد يده لتناول الكرسي الذى أراد أن يقدمه إلى الضيف القادم توجه إلى مائدة قائمة فى قاع الغرفة ، وقد وضع عليها إبريق على فمه كوب مكفوء .

ورآه سانتوس فاقرب من باب الغرفة قائلاً له :

- أرجوك ألا تشرب يالورنثو !

- جرعة واحدة فقط . دعنى أشرب جرعة واحدة ، فأنا فى حاجة إليها الآن . ولست أدعوك لمشاركتى هذا الشراب ، فهو لن يبدو لك إلا كماء الغسيل القذر ، ولكن إذا أردت ...

- شكراً ، فلست متعوداً على الشراب .

- ستتعود عليه فيما بعد .

وارتسمت ابتسامة معوجة رهيبة كالحة على وجهه الذى حفرته الأخاديد ، بينما كانت يدها المرتجفتان تحاولان تقريب الكوب من فم الإبريق .

ولما رأى سانتوس القدر الكبير الذى صبه أخيراً فى الكوب من تلك الخمر القوية أسرع إليه محاولاً منعه من شربها ، ولكنه لم يحتمل البقاء طويلاً

فى هواء الغرفة الراكدة المتنن ، فلم يجاوز مدخل الباب ، وكان لورنثو قد ملأ الكأس حتى حوافيها وأقبل يفرغها فى جوفه فى جرعات كبيرة .

فلما قضى أربه من شرابه رفع ذراعه ماسحاً شاربیه بساعده كما لو كان طفلاً لم يتعود بعد استخدام يده ، ثم أمسك بيديه كرسياً صغيراً ومقعداً آخر من جلد قدر لم يدبغ ، وخرج من الغرفة وهو يقول :

- عشنا ورأينا !... ابن لوثراردو فى بيت واحد من سلالة باركسيرو ، وكلاهما ما يزال على قيد الحياة !... البقية الباقية من ذرية الأسرتين !

- أرجوك يا لورنثو ، لا ...

فقاطعه هذا قائلاً :

- لا تكرر على رجاءك ، فأنا أعرفه ، وقد سبق أن قلته لى من قبل . فابن لورناردو لم يأت لقتل غريمه ، وغريمه يقدم له هذا المقعد ، أفخر ما فى بيته من متاع ، ويقول له فى أدب وحفاوة : تفضل بالجلوس ! فيجلس ... نعم ... هكذا !

وكان كرسى لورنثو قصيراً واطئاً ، مما اضطره إلى الجلوس طاوياً ساقيه ومسنداً ذراعيه على ركبتيه ، ويداه الطويلتان متدلّيتان تتأرجحان بين ساقيه على هيئة منفرة تثير الاشمئزاز والتقزز من هذا الحطام الإنسانى التعس ، ولم يكن عليه من الثياب إلا سراويل من قماش رخيص ، قد جمد عليها القدر ، وتمزق أسفلها حتى ركبتيه من كل جانب ، وقد ستر أعلى جسده بقميص مخطط ظهر من خروقه شعر صدره .

ولم يتمالك سانتوس وهو يطيل النظر فى هذه البقية البائسة من ذلك المخلوق البشرى من الشعور برهبة المصير المقدر المكتوب . إن هذا «الشيء»

الجالس أمامه كان فى يوم من الأيام رجلاً يبعث فى نفوس من يحيط به من الناس مشاعر من الإعجاب والأمل والحب . فأين كل ذلك الآن ؟

وأراد سانتوس أن يفعل شيئاً يبرر مخاطبة الرجل القابع أمامه دون أن يقتضى ذلك النظر إلى هيئته ، فأخرج «سيجارة» تشاغل بإشعالها وهو يقول .
- هذه هى ثانى مرة أراك فيها يالورنشو .

ورد عليه هذا متسائلاً وقد بدا عليه أن يبذل مجهوداً جباراً لإدراك ما يخاطبه به محدثه :

- ثانى مرة ؟ تعنى أننا قد تعارفنا من قبل ؟

- نعم ، فقد كانت المرة الأولى منذ سنوات طويلة ، كنت أنا حينذاك فى الثامنة من عمري ، وكان هذا اللقاء فى بيتنا .

واستقام لورنشو على كرسيه وهو يقول :

- لماذا أتيت تحدثنى عن ذلك ؟

وأجاب سانتوس وهو يحاول إخفاء ما قصد إليه من إخراج هذه الروح البائسة التعسة من الدرك الذى انحدرت إليه ، وإذكاء ما لعله بقى فيها من جذوة صالحة نبيلة .

- ليس فى الأمر إلا ذكرى مفاجئة عرضت لى الآن . لقد كنت حينئذ طفلاً صغيراً، غير أنى كنت لا أنفك أسمع الجميع يطيلون الشئاء عليك والتمدح بصفاتك ، ولا سيما أمى التى كانت لا تكف عن ترديد هذه الجملة على مسمعى : «يابنى ، تعلم من لورنشو !» كلما أرادت أن تشجعنى وتحثنى على الاجتهاد والعمل ، كل ذلك جعل منك فى تصورى مثلاً أعلى للرجل الكامل . إنى لم أكن أعرفك معرفة شخصية فى ذلك الوقت ، ولكنى كنت

أخذك قدوة لى ، بل لم يكن لى تفكير إلا فى أن أصل إلى ما وصل إليه «ابن
عمتى الذى يقيم فى كاراكاس ويدرس فى جامعتها لكى يحصل على إجازة
الدكتوراه» ، ولم أكن أسمع ممن حولى بكلمة اعتدت أنت على ترديدها
أو عادة جريت عليها أو فعل قمت به إلا سارعت لاقتباس ذلك منك وتقليدك فيه ،
وأنا أذكر حتى الآن مدى عمق الانفعال الذى تركه فى نفسى فى يوم من أيام
طفولتى ما قالته لى أُمى : «تعال لأقدمك إلى ابن عمك لورنثو» ، كان إحساساً
أخذ بمشاعرى وهزها هزة عنيفة . وأنا أستطيع أن أعيد لك رسم المشهد كله
بتفاصيله : ألقيت أنت على ثلاثة أسئلة أو أربعة مما يلقي على الصبيان الصغار
لاختبار ذكائهم أو مقدرتهم حينما يقدمون إلى الكبار ، ثم وردت فى سياق
الحديث عبارة لأبى لعله قالها فى معرض الفخر والاعتزاز بى على ما جرت
عليه عادة أهل السهول الذين لا يعتدون بشيء قدر اعتدادهم بالفروسية
والشجاعة ، فقد كان مما أثنى به على عند تقديمى إليك أن أشار إلى مهارتى فى
ركوب الخيل والاستواء على صهواتها رغم سنى المبكرة ، ولكنك بدلاً من أن
تبدى إعجابك بذلك رددت عليه بخطاب طويل مازال فى أذنى منه حتى اليوم
صدى عميق ، فقد بدا لى ساعتها كما لو كان لحنًا قدسياً ألقى به السماء .
وربما كان له على نفسى هذا الوقع لأنى لم أصل إلى فهم معانى عبارته ،
أو لعل السبب فى ذلك هو مجرد صدور تلك الكلمات من فمك أنت ، ولم تكن
كلماتك بالنسبة إلى إلا المثل الأعلى للبلاغة والبيان . ومع ذلك فما زلت
أذكر جملة قلتها فى ذلك الخطاب كان لها فى نفسى وقع غريب خالد :
«يجب علينا - نحن سكان السهول - أن نقتل الوحش الكامن فى نفوسنا
جميعاً ، ذلك الوحش الذى تحدثنا الأساطير الإغريقية عنه فتقول إن نصفه
الأعلى بشرى ركب على جسد جواد !» . ولم أكن لأفهم حينئذ ما تقصده
أنت بهذا الوحش الغريب ، ولا لأعرف كيف نحمله نحن أهل السهول فى
داخل أنفسنا ، ولكن العبارة ملكت على لى وبقيت محفورة فى ذاكرتى إلى

اليوم ، حتى إنى لأعترف لك بأن محاولاتي الأولى فى ميدان الخطابة - وللخطابة عندنا جميعاً مكانة مرموقة عالية - كانت تدور كلها حول جملتك تلك : «ينبغى أن نقتل الوحش الرابض فى أعماق نفوسنا» ، وكنت كثيراً ما أخلو بنفسى فأردد هذه العبارة فى نبرات خطابية رنانة دون أن أدرك لها معنى ولا أتجاوزها إلى ما يمكن أن يشرحها أو يلقي عليها ضوءاً مفسراً. وأقول لك بهذه المناسبة إن شهرتك فى ميدان الخطابة كانت حديث الناس جميعاً ، وإن إعجابى بك كان يتزايد كلما سمعت كل من عرفك يطيب عليك الشاء فى هذا الميدان .

وتوقف سانتوس قليلاً ، كأنه متشاغل بنفض الرماد عن سيجارته بينما هو لم يقصد فى الحقيقة إلا لتترك كلماته أثرها فى نفس لورنثو وتثير كامن ذكرياته وشجونه .

وشعر سانتوس بالاغتياب وهو يرى أن كلماته لم تذهب أدراج الرياح ، فقد كان الانفعال الذى ولدته فى نفسه الخامدة أشبه بعاصفة هائلة انفجرت فجأة ، ظهر ذلك على قسماط وجهه وعلى حركات يديه اللتين كانتا تمسحان وجهه من جبهته إلى عنقه فى اضطراب متوتر هائج .

وواصل سانتوس كلامه قائلاً :

- ومضت على ذلك سنوات ، وكنت قد انتقلت إلى كاراكاس لأستكمل دراستى ، وهناك وقع بين يدي يوماً كتيب كان يتضمن نص خطاب ألقيته فى أحد الأعياد الوطنية ، ولك أن تتصور مدى تأثرى حينما رأيت جملتك المشهورة فى ثنايا هذا الخطاب . أتذكر ذلك الكتيب ومناسبة خطابك الذى تضمنته صفحاته ؟ لقد كان موضوعه مركزاً فى هذه العبارة : «الوحش الرابض فى أعماقنا هو التخلف والهمجية ، ولهذا فإنه لا سبيل لنا إلى التقدم

إلا إذا قضينا على تلك الهمجية الكامنة فى نفوسنا ، وهنا فقط أدركت معنى تلك الحملة الماثورة ، وتوصلت إلى تمثل ما تنطوى عليه من نظرية جديدة ثورية كان من الممكن أن يتجه تاريخ بلادنا بمقتضاها إلى طريق الصلاح والخير والتقدم . وأنا أذكر أن خطابك هذا أثار عليك نائرة المحافظين التقليديين ممن كانوا يرون فى حياة السهول البدائية ألواناً أخاذة من ملامح البطولة ينبغى ألا تنقرض . وعلى أية حال فقد كنت أرى - والغبطة والفخر يملآن نفسى - أن آراءك كانت مستهل مرحلة جديدة فى منهاج التفكير وفى طريق النظر إلى تاريخنا القومى وتقديره بميزان صحيح . كنت قد بلغت حيثئذ من السن والنضج ما يسمح لى بتمثل آراءك ، وكنت بتفكيرى وإحساسى على وفاق كامل مع هذه الآراء التى كنت أنت أول من نادى بها . ولا غرو ؛ فإن إعجابى بك وكثرة ترديدى لعبارتك المشهورة كانا كفيلين بأن يتركبا فى نفسى مثل هذا الأثر . أأست توافقنى فى ذلك على ما أقول ؟

ولم يلق لورنثو بالا إلى سؤال سانتوس ، فقد كانت يدها المرتعشتان تذرعان رأسه ووجهه فى انفعال عصبى عنيف ، فقد أثارت كلمات محدثه إعصاراً هائلاً من الذكريات تحت عظام هذه الجمجمة البالية .

هذه هى صور حياته الماضية تتوارد متدافعة على ذاكرته فى موكب سريع متلاحق : شبابه الناضر المبشر بمستقبل مزهر مشرق ، والآمال المعقودة عليه من جانب أهله وأصدقائه ... كإراكاس ... الحياة الجامعية بما فيها من متع وآمال ... حلاوة النجاح ولذة السبق والظفر ... الأصدقاء الذين كانوا ينظرون إليه فى إعجاب وتقدير ... المرأة التى أودعته كل حبها . كل هذه الأشياء التى كانت تكفل لشباب فى مثل سنه أسمى ما يمكن أن يطمح إليه ... ودراسته التى أوشك أن يكملها ويتوجهها بالحصول على درجة «الدكتوراه» وهالة الحب والعطف والمودة التى كانت تحيط باسمه . وشعوره بالفخر والاعتزاز بما أنعم الله عليه به

من ذكاء ومواهب ... وبينما هو فى نعيم هذه الحياة إذا به يسمع النداء المفاجئ المحتوم ... نداء الوحشية مكتوباً بخط أمه فى رسالة وجهت بها إليه : «أقبل بسرعة ، فإن خوسيه لوئاردو قتل أباك أمس ، فتعال للأخذ بثأر أبيك من خالك !» .

وشعر سانتوس بمدى هذا الصراع المستئس الذى كان يضطرم فى نفس الرجل الجالس أمامه بين حاضره الشقى البائس وبين بقية نبيلة راكدة فى قاع روحه التى ران عليها الصدا ؛ فمضى مواصلاً حديثه :

- أظنك عرفت الآن لماذا لا أستطيع أن أكن لك أى شعور بالعداوة ، فقد كنت أنت مثلى الأعلى وقدوتى الحسنة منذ صغرى ، وكنت أشعر نحوك دائماً بإعجاب لا نهاية له ، ثم إنك قدمت لى - دون أن تعلم - أجل خدمة ومعونة فى أثناء حياتى الدراسية وفى علاقاتى الاجتماعية ؛ إذ إن كثيراً مما كنت أقابل به من مظاهر التكريم والحفاوة والرعاية لم يكن إلا ثمرة لما خلفته أنت فى نفوس الناس هناك من أثر طيب وذكر حميد ، وأخيراً أقول لك إننى أدين لك بتوجيه روحى لا يفى لسانى بشكره ولا أداء حقه ، فقد كان ولعى بتقليدك وانتهاج خطاك هو الذى ولد فى نفسى طموحاً نبيلاً ورغبة مستمرة فى أن أسمو بنفسى إلى أقصى ما تسمح به قوى .

وكان سانتوس مخلصاً صادقاً فى هذه الكلمات لا ينبغى بها استئلاً ولا مجاملة ، ولكن الموقف كان يضيف عليها لوناً من السخرية والتهكم لم يعد فى وسع لورنثو باركيرو أن يحتمل منه المزيد ، فنهض فى عصبية ظاهرة عن المقعد الذى كان متكوماً عليه رازحاً تحت بلاء شقائه وعبء ذكرياته ، وأسرع إلى باب الكوخ دالفاً إلى داخله .

ولم يلبث سانتوس أن سمع من الداخل صوت الكوب وهو يرتطم بضم إبريق الخمر ، وهو يتأرجح بين اليدين المرتجفتين .

وتمتم سانتوس مخاطباً نفسه فى يأس وقنوط :

- لا فائدة ! ... إن هذا التعس لم يعد له من وسيلة إلى الخلاص إلا الفرار من وعيه وضميره تحت وطأة السكر القاتل !

وكان سانتوس يهيم بالقيام والانسحاب حينما أطل لورنشو من باب الكوخ وقد اعتدلت خطواته واستقام عوده ، وبدت على وجهه معالم ذكاء مفاجئ لم يكن إلا أثراً عابراً لما عاد إلى احتسائه من الخمر ، وصاح بسانتوس فى نبرات متماسكة قوية :

- لا ... ليس فى استطاعتك أن تذهب الآن . عليك أن تسمع إلى ما أقول . لقد حدثنى بما لديك ، وقد أتى الدور على أنا لأتكلم ، فاجلس وأصغ إلى الجواب .

- دع هذا يا لورنشو إلى يوم آخر ، فسوف أعود لزيارتك مراراً لكى نواصل الحديث .

- لا ... ينبغى أن يكون ذلك الآن .. فى هذه اللحظة ... إنى أرجوك أن تسمعنى .

ثم أضاف صائحاً بلهجة من استبد به الجنون فجأة :

- لا ... لست أرجوك ، ولكنى أمرك أن تسمعنى . لقد أتيت لكى تستفرننى وتشير كوامن ثائرتى ، فعليك الآن أن تصغى لما أقول !

واستجاب له سانتوس ، فعاد إلى الجلوس وهو يقول :

- حسناً ، فهأنذا سامع لك ومطيع . أنا فى انتظارك فقل كل ما تريد أن تقول .

- نعم ، سأتكلم ... أخيراً . يا له من شىء رائع جميل ... القدرة على الكلام يا سانتوس لوثاردو .

- ولكن ... ألا تجد هنا أحداً تتحدث إليه ؟ وأبتك ؟ ألا تعيش معك هنا ؟

- دع ابنتي وشأنها الآن ، واسكت أنت واكتف بالسماع . نعم ... هكذا .
انظر إلى يا سانتوس لوثاردو .. أنعم النظر في هذا الرجل الجالس أمامك ، بل
في هذا الشبح الذي كان رجلاً في يوم من الأيام ثم انتهى إلى ما ترى ... انظر
إلى هذا الحطام البشري .. إلى تلك القاذورة التي تتحدث إليك ، والتي كانت
مثلاً أعلى بالنسبة لك كما تقول . نعم . لقد كنت أنا نفسي هذا الذي حدثتني
عنه منذ لحظات ، ولكنني لست الآن إلا ما ترى أمام عينيك ! ألا يلقي هذا في
روحك الخوف والرهبة ؟

- الخوف والرهبة ؟ ... مم ، ولماذا ؟

- لا . لست أسألك لكي تلقى إلى رجوع الجواب ، ولكن لتسمع بقية
حديثي . إن لورنثو باركيرو ذلك الذي حدثتني عنه لم يكن إلا أكذوبة ضخمة ،
أما الحقيقة فهي ما تراه الآن ماثلاً أمامك وأنت أيضاً لست إلا أكذوبة أخرى
سوف تتوارى عن قريب وراء الحقيقة الرهيبة المرة . إن هذه الأرض لا ترحم !
أنت أيضاً سمعت النداء ... نداء هذه الأرض صائدة الرجال ، ولكأني بك
مرتجياً بين ذراعيها في سكرة اللقاء ، فإذا فتحتهما لم تر نفسك إلا حطاماً لرجل
كان ثم انقضى ... مثلي أنا تماماً . انظر إلى هذه الأرض ! انظر تر السراب في
كل مكان يقع عليه بصرك .. هنا سراب وهناك سراب ! السهول ليست
إلا رقعة هائلة من السراب ! وما ذنبي أنا في أن واحداً من بني لوثاردو - فأنا
من بني لوثاردو على أية حال ، وإن كان يؤلمني الاعتراف بذلك - قد اتخذ مثلاً
أعلى وقدوة حسنة ؟ ولكننا لسنا وحيدين فيما حل بنا أو سيحل يا سانتوس !
هذا هو ما بقي لنا من العزاء . فما أكثر من عرفت أنا - وعرفت أنت على ما
أعتقد - من شباب كانوا معقد الرجاء والأمل وهم يناهزون سن العشرين ...
ولكن دعهم يتجاوزوا العقد الثالث من عمرهم ، فسوف تراهم وهم يقتربون

سريعاً من نهايتهم المحتومة . ستراهم يذوبون كما تذوب الأشباح .. كما يختفى السراب في رمضاء الأرض الحارة ! ولكن عليك أن تعي ما أقول : إننى لم أخطئ تقدير نفسى قط ، فقد كنت دائماً واثقاً من أن كل ما كان يعجب الناس مما سميت « ذكائى » و « مواهبي » لم يكن إلا كذباً وخرافة . وقد تكشف لى ذلك بعد تجربة فى حياتى الدراسية كانت تعتبر من أعظم مظاهر نجاحى وبشائر مستقبلى المرموق ، فقد كان علىّ أن أؤدى الامتحان فى مادة لم أكن قد استعددت لها أدنى استعداد . وسألنى الممتحنون فى موضوع كنت لا أعرف عنه قليلاً ولا كثيراً ، ولكننى بدأت الكلام ... وتكفلت الكلمات الخاوية المجردة من كل معنى بكل شيء . وكانت النتيجة أن نجحت نجاحاً باهراً ، بل إن الأساتذة الممتحنين انطلقوا يصفقون لى فى إعجاب ليس بعده إعجاب ... يا للأغبياء المعاتيه ! لقد لاحظت منذ هذه الواقعة أن ... « ذكائى » أو تلك « العبقرية » التى كان الجميع يصفونها علىّ لم تكن تنشط إلا وأنا أمارس الكلام ، فإذا سكّت أمحى ذلك السراب وتكشف لى عن حقيقتى : وهى أننى لم أكن أعرف شيئاً عن أى شيء ! لقد تبينت منذ تلك اللحظة أسطورة « مواهبي » وكذب إخلاصى ! أتدرك أنت هذه المفارقة ؟ الكذب الكامن فيما كنت أحسبه صدقاً وإخلاصاً بينى وبين نفسى ... إن هذا هو شر خيبة تحل بالمرء ... لقد رأيت الكذب قابلاً فى قاع نفسى كما يحس الجسد بقرحه السرطان الموروث تنخر فى لحمه الذى يبدو ظاهره للناس سليماً صحيحاً . وهكذا بدأت أشعر بعميق الكراهية للجامعة ، ولحياة المدينة ، وللأصدقاء الذين كانوا يهرفون بكلمات الإعجاب والثناء ، ولخطيئتي ، ولكل ما كان سبباً أو نتيجة لهذا الزيف الهائل الذى كنت أحس به فى قرارة قلبى !

وكان سانتوس يصفى إليه فى اهتمام متزايد ، وقد بدأ التفاؤل والاستبشار يغمران نفسه : إن الذى يصدر عنه مثل هذا التفكير ويعبر بهذا الوضوح المشرق لرجل جدير بالآيأس من إمكان صلاحه وإنقاذه .

غير أن هذه الصحوة لم تستطع المقاومة طويلاً ، فقد كانت أثراً من آثار اللهيب التي تتركها الخمر القوية في نفس مدمنها ، ولم يكن ذلك الجسد المتداعى ليحتمل مثل هذه الصحوة المفاجئة إلا لحظات قصاراً يعقبها الانتكاس والانهيار . وكان الأمر كذلك ؛ إذ كانت هذه البرهة التي أخلد فيها إلى الصمت ليستريح من المجهود الذي بذله كافية لكي يعود إلى اضطرابه وتشتت ذهنه ، ولو أنه استجمع آخر ما بقى من قواه لكي يختم كلامه بقوله :

- « قتل الوحش الكامن في أنفسنا » ؟ ها... ها... لا تكن أبله يا سانتوس لوئاردو ! أظن أن هذا الوحش ليس إلا ثمرة لخيال خصب أو كلمة أتشدق بها مصطنعاً الفصاحة والبلاغة ؟ إنى أؤكد لك أن هذا الوحش كائن حقيقى حى . لقد سمعته يصهل ورأيتَه كل يوم وهو يأتى ويذهب على هذه الأرض ، وهو ليس هنا فحسب ، بل هو أيضاً هناك فى كاراكاس وفيما هو أبعد منها بكثير . حيثما وجد امرؤ تجرى فى عروقه دماء بنى لوئاردو فلا مفر من أن يسمع صهيل الوحش . وأنت أيضاً يا سانتوس سمعت صهيله ونداءه . ولهذا أتيت إلى هنا . من الذى قال إن قتل ذلك الوحش أمر ممكن التحقيق ؟ .. أنا ؟ .. إذن فابصق فى وجهى يا سانتوس لوئاردو ! إن الوحش - سواء شئنا أم لم نشأ - حقيقة واقعة مؤكدة ، وقد مرت عليه مائة عام وهو يركض فى هذه الأرض ، وستمر مائة عام أخرى وهو فى ركضه هذا الذى ليس له نهاية . لقد كنت أظن أننى رجل متحضر ... أول متحضر فى عائلتى ، ولكن كان يكفى أن يبعثوا إلى قائلين : « أقبل لتتقم لمصرع أبيك » ! حتى ظهر هذا الكائن الهمجى المتوحش الذى كان رابضاً فى أعماقى . وهو ما حدث لك أنت : فقد سمعت النداء فأقبلت مهرولاً تستجيب له . ولن ألبث أن أراك بين ذراعيها هائماً كالمجنون بأى ابتسامة أو ملاطفة منها .. ثم تلقى بك كالجيفة تحت قدميها ، فإذا قلت لها : « إننى مستعد لأن أتخذك زوجة شرعية » فإنها ستضحك ملء فيها من بؤسك وشؤمك ... و ...

ومرت أصابعه المتشنجة تذرع شعر رأسه فى هياج ، واستولت على نفسه هذه الفكرة الأخيرة ، فبدأ جثمانه فى الانهيار ، وتدلت ذراعاها على رجليه وقد قبضت أصابعه على شعرات انتزعها من رأسه ، ثم اندلق رأسه مرة أخرى على صدره وهو يتمتم فى انفعال مخبول يائس :

- صائدة الرجال ! ... صائدة الرجال ! ...

وتأمل سانتوس هذا المشهد المؤثر فى صمت ، وقد انقبض قلبه ودخلت الرهبة إلى نفسه وهو ينظر إلى بقايا الرجل الذى أمامه ، ثم حاول أن يغير مجرى الحديث ، وأن يعيد إلى نفسه مثل هذه الصحوة الطارئة ، فأقبل يقول :

- وبتك ؟

ولكن لورنثو كان فى شغل عن ذلك السؤال ؛ إذ بقى نظره معلقاً بالأفق البعيد الواسع للسهول وهو يردد :

- السهول ... السهول الملعونة ... صائدة الرجال !

وخاطب سانتوس نفسه قائلاً :

- إن الذى يبدو لى الآن أن هذا المسكين لم يفعل به إغراء السيدة باربارا قدر ما فعلت به هذه الأرض التى حولته إلى حيوان متوحش !

وظهرت على قسماات وجه لورنثو ملامح تنبه ووعى خاطف ، وانحسرت عن وجهه تلك الاعوجاجة التى كانت تطبع على فمه سمة السكرات القائمة الحزينة ، ورفع صوته منادياً :

- «ماريسىلا» ! تعالى لأعرفك بابن خالك .

ولكن المكان كان خالياً ، فلم يتلق الرجل جواباً على ندائه ، فأضاف قائلاً :

- إن هذه البنت لا تخرج لأحد ، حتى ولو جروها من شعرها جراً ، فهي أكثر نفوراً واستيحاشاً من مهر جامح لم يستأنس .. نعم . مهر جامح !
ثم عاد رأسه متدلياً من جديد على صدره ، وأخذت خيوط من اللعاب تنحدر في بطة من جانبي فمه .

ونهض سانتوس واقفاً وهو يقول :

- حسناً يا لورنثو . سأتردد عليك كثيراً لزيارتك .

ووقف هذا بدوره ، فتوجه إلى الكوخ وهو يترنح في مشيته ويتعثر في طريقه ، وظن سانتوس أنه ذاهب للبحث عن ابنته ، فناداه قائلاً :

- دعها الآن ولا تعمل على إزعاجها ، فستكون لي فرصة معرفتها في زيارة أخرى .

ومضى إلى جواده يفكه عن عمود الحظيرة ، ولكنه لم يكد يثبت قدمه في الركاب حتى رأى لورنثو وهو في داخل الكوخ رافعاً إبريق الخمر بين يديه المرتعشتين ، وهو يحاول تصويب فم الإبريق إلى حلقه ، ولكن رعشته وسكره جعلتا الخمر المنصبة تنحدر إلى جوفه فضلاً عن انسكابها على وجهه وثيابه ، فأسرع سانتوس داخلاً إلى الغرفة ومحاولاً انتزاع الإبريق من بين يديه .

ولكن التعس كان قد شرب ما فيه الكفاية لصرع البقية الباقية منه ، فقبض على ذراعي سانتوس في قوة ، وشخص إليه بعينين محمومتين يطل منهما الجنون وهو يصيح :

- سانتوس لوئاردو ! انظر إلى نفسك فيّ أنا ! إن هذه الأرض لا ترحم !

الفصل الحادى عشر الحسناء النائمة

اتخذ سانتوس طريقه عائداً إلى التاميرا وقد ملأ نفسه شعور من الألم والحزن وهو يستعيد المشهد الذى كان فيه منذ لحظات . والتقى فى طريقه بالصبية التى كان قد سألها عن الدار التى كان يريد التوجه إليها . ولم يكن يخطر بباله أن هذه المخلوقة يمكن أن تكون ابنة لورنشو باركيرو ، ولكنه بعد أن رأى البؤس الذى يعيش فيه الشقى لم يستبعد هذا الاحتمال . وكانت الصبية بالفعل أشبه ما تكون بحيوان شرس ، مشعشة الشعر ، بادية القذارة ، ولم يكن يستر جسدها إلا خرق بالية ممزقة من كل جانب .

وكانت قد ألقت على الأرض حزمة الحطب والسعف التى كانت تحملها ، واضطجعت إلى جوارها ، وقد غرست فى التراب مرفقيها ، وأسندت وجهها إلى راحتيها ، وأقبلت تنظر إلى الفضاء بعينين حالمتين .

وقف سانتوس يتأملها لحظة وهى عنه فى شغل . كانت هلاهيلها القدرة الممزقة ملتصقة بجسدها ، وبدت له تقويسة ظهرها وخطوط ردفها وفخذيها تدل على جسم رائع الجمال بديع التقاطيع كأنه تمثال أبدعته يد فنان ، ولكن عيني سانتوس لم تلبثا أن اصطدما بمنظر قدميها العريضتين الغليظتين ، وقد استحالت صفحتهما إلى جلد يابس مشقق من أثر اعتيادها المشى حافية . ووقف بصر سانتوس يتأمل هذا المنظر الدميم وقد غمر نفسه شعور بالرثاء والعطف .

وأطلق جواد سانتوس صهيلاً أخرج الصبية من شرودها ، فتنبهت إلى وجود الرجل الذى وقف يتأملها على بعد خطوات، ولم تكذب تراه حتى تقلصت فى اضطجاعتها ، وأقبلت تشد خرقها على جسدها حتى تغطى ما تعرى من ساقها ، وألقت من حنجرتها زحيراً وبضع شتائم وكلمات احتجاج زمجرت بها ، ثم مضت تضحك وهى مازالت مستلقية بوجهها على الأرض .

وسألها سانتوس :

- أنت ماريسيلا ؟

ولم تتحرك من مكانها ، ثم كررت السؤال فى تقليد ساخر مستخف ، وأجابت فى جفاء ونفور يشوبه شعور بالحياء والخجل :

- إذا كنت تعرف اسمى فما معنى هذا السؤال ؟

- لم أكن أعرف ، ولكننى شككت فى أنك ابنة لورنثو باركيرو التى تحمل هذا الاسم ، ولهذا فقد أردت التحقق .

ولم تفهم الصبية هذا اللفظ الأخير ، فبدأ عليها مزيد من النفور والتوجس ؛ إذ كانت - كما شبهها أبوها - مثل المهر الجامح ، فقالت بعد أن زامت من جديد :

- «التحقق» ؟ أى شىء هذا ؟ يبدو أنك رجل سيئ النظر والنية ... فامض عنى فى سبيلك .

وخاطب سانتوس نفسه قائلاً :

- من حسن الحظ أن النفور يحيط براءتها وسذاجتها بسيج يقيها تطفل الغرباء .

ثم عاد إلى مساء لثها :

- ولكن ما الذى تفهمينه من كلمة التحقق ؟

فأجابت صائحة وقد عادت إلى الضحك :

- أف ! يالك من رجل كثير السؤال !

وعاد سانتوس إلى مساء لة نفسه :

- أتراها سذاجة وبراءة ، أم لون من ألوان المكر ؟

على أنه فهم من لهجة الفتاة أن وقوفه لمحادثتها لم يغيظها ، ولم يقع منها موقعا سيئا ، بل كان يبدو أنه قد أصاب منها رضا وقبولا ، ولكنه ظل يتأمل في رثاء وعطف تلك الكتلة من الأوساخ والهلاهيل .

وزمجرت الصبية من جديد :

- إلى متى ستظل هكذا واقفا هنا ؟ ولماذا لا تذهب ماضيا لشأنك ؟

فأجاب سانتوس :

- هذا هو ما أسألك أنت عنه أيضا : إلى متى ستظلين هنا على هذه الصورة ؟ لقد آن لك أن تعودى إلى منزلك ، ألا تخافين المشى وحيدة فى هذه البقاع المهجورة ؟

- ولماذا أخاف ؟ أترانى متعرضة لتأكلنى حشرات الجبل ووحوشه ؟ ولكن .. ما الذى يهمنى أنت من أمرى ؟ ومن مشى وحيدة إلى حيث أريد ؟ وهل أنت أبى حتى تأتى إلى تؤنبنى على ما أفعل ؟ .

- ما هذه الطريقة الجافة الخشنة فى مخاطبة الناس يا صبية ؟ ألم يعلمك أحد كيف تتكلمين مع الناس فى أدب وتهذيب ؟

وأقبلت الفتاة تضحك فى سخرية وجسدها المستلقى على الأرض يهتز فى عنف :

- ولماذا لا تعلمنى أنت إذن ؟

فأجابها سانتوس وقد تحول شعور الرثاء فى نفسه إلى مودة واستلطاف :
- نعم . أنا مستعد لتعليمك ، ولكن عليك أن تدفعى لى مقدماً أجر ما سأعطيك من دروس ، وذلك بأن ترينى وجهك هذا الذى تجتهدين فى إخفائه .
وصاحت فى حياء وهى تضم أطراف ملابسها البالية على جسدها :
- يا للجرأة ! امضى عنى إلى طريقك ، ولا تكثر من الكلام ، فإن الظلام سوف يفاجئك وأنت ما تزال فى هذه الجبال الموحشة .
- إننى لن أغادر هذا المكان حتى ترينى وجهك . لقد أتيت لا لغرض إلا لكى أتعرف عليك ، فقد حدثونى أنك فى غاية الدمامة ، ولست أستطيع تصديق ذلك إلا بعد أن أراك بعينى رأسى ؛ فإننى لا أتصور أن قريبة لى يمكن أن تكون قبيحة الشكل . آه .. حقاً ، إننى لم أقل لك من قبل إننا أبناء عمومة .
فصاحت الفتاة :

- أبناء عمومة ؟ إننى لا أعرف أسرة لى فيما عدا أبى ، حتى أمى لا أستطيع أن أقول إنى أعرفها .
ولم يرد ذكر أم الصبية حتى اكفهر وجه سانتوس وفارقه هذا الشعور المتفائل الذى أقبل يخاطب به الفتاة ، وبدأ على هذه أنها خشيت أن تكون قد أغضبته حقاً ، فوجهت إليه نظرة متوارية من تحت ذراعها الذى غطت به وجهها وقالت :

- ألسن ترى أنه لا قرابة بينى وبينك كما تقول ؟ فلو كنت قريباً لى لما ظللت صامتاً هكذا !

وعاد سانتوس إلى لهجته العاطفة اللينة :

- نعم ياطفلتى الصغيرة . أنا سانتوس لوئاردو ابن خال أبىك ، فاسأليه أنت إذا أردت التحقق ، وأرجو ألا تسيئى الظن مرة أخرى بهذه الكلمة .

- حسنًا ، مادمتم حقًا ابن خال لي ، ولو أني لا أظن ذلك . أف ! والناس بعد ذلك يزعمون أننا - معشر النساء - فضوليات محبات للاستطلاع كأن الرجال بمنجاة من هذا العيب ! انظر إذن وامض بعد ذلك في سبيلك .

ونفضت الفتاة وإن كان سانتوس قد كف عن إصراره على رؤية وجهها ، ثم خفضت رأسها وأغمضت عينيها ، وشدت على شفتيها حتى لا يند من بينهما الضحك الذي كانت تجتهد في كتمانها ، دلالة ساذجًا يشويه الحياء .

وتأمل سانتوس وجه الصبية . كانت تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، وعلى الرغم من سوء مطعمها ومشربها ومن تلك الحياة البائسة التي كانت تذبل صباها الغض وتكسوها بمظاهر القذارة في خرقها الممزقة وشعرها المنفوش المشعث - فقد طالع سانتوس من وراء ذلك كله وجهًا رائع القسمات وسيم الملامح .

وصاح سانتوس وشعور الرثاء الذي كان يملأ نفسه قد تحول إلى إعجاب وهو يتأمل وجه الصبية :

- يالك من فتاة رائعة الجمال !

وبدا كما لو كانت هذه العبارة قد استأنست الصبية وأعادتها إلى الإنسانية ، فلم تعد تلك المخلوقة النفور الجامحة ، وتملكها شعور غريب لم تعهده من قبل في نفسها ؛ إذ كان لتلك الكلمات رنين في أذنيها لم تتعود على سماعه ، ثم قالت له في صوت رقيق مستعطف :

- اذهب عني إذن !

وأجاب سانتوس :

- لا ، لم تنته بعد ، فإنك لم تريني عينيك ، فدعيني أنظر إليهما . آه لقد فهمت الآن لماذا لا تجروين على فتحهما أمامي ، فأنت حولاء على ما أرجح ، ولهذا تريدان ألا أرى قبح عينيك .

- حولاء .. أنا ؟ إذن فانظر .

وبدا على الصبية التأهب والتحفز ، ثم فتحت عينيها ، وإذا بهما أجمل ما تميز به وجهها الصبوح ، وظل سانتوس شاخصاً ببصره إليها دون أن تطرف عيناه ، وعاد يصيح :

- ما أجملك أيتها الطفلة !

وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة تحت طبقة القذارة التي كانت تكسوه وقالت له وهو لا يكف عن النظر إليها :

- كفى واذهب عني الآن .

- انتظري قليلاً ، فإنى سأعطيك الآن أول هذه الدروس التي دفعت لى ثمنها مقدماً .

ثم نزل عن جواده ، ودنا من الصبية ، فارتسم على عينيها السوداوين الكبيرتين تعبير عن الخوف والاستعطاف ، ولكنه أنهضها وأخذ بذراعها وهو يقول :

- تعالى هنا يا ابنة خالى ، فإنى سوف أعلمك فائدة الماء . إنك جميلة ، ولكنك ستكونين أجمل بكثير لو أنك أوليت نفسك قليلاً من العناية .

وبدأت الصبية تطمئن ويزول عنها شعور الخوف الغريزي الذى انتابها أول الأمر بعد أن رأت فى نبرات صوته ما يوحى بالثقة ويؤكد لها أنه لا ينوى بها شراً ، فتركت قيادها لهذا الرجل الذى كان ينتمى إلى عالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الذى تعهد، ومضت معه إلى بركة من الماء الصافى كانت هناك إلى جوار ضفة المستنقع الموحد ، وكانت تحاول إخفاء وجهها بذراعها الطليق ، وهى تطلق ضحكة فيها مزيج من الرضا والحياء .

ووصل الاثنان إلى حافة البركة ، فعطف سانتوس قوامها على الماء ، ثم جعل يغترف منه في باطن راحتيه ، ويصبه على جسمها غاسلاً ذراعيها ووجهها ، كما يفعل بالأطفال الصغار ، بينما كان يقول لها :

- تعلمي تنظيف جسمك وتعودي على حب الماء ، فهو سيضفي عليك مزيداً من الجمال . إن أباك مخطئ إذ لا يوليك من العناية ما أنت به جديرة ، ولكنك تأثمين في حق الطبيعة التي جعلت منك فتاة جميلة إذا كنت تهملين نفسك على هذه الصورة . وما دامت الأرض لا تظن عليك بمائها فلا أقل من أن تكوني نظيفة دائماً . وسأتكفل أنا بأن أرسل إليك ثياباً جديدة حتى تخلعي عنك هذه الخرق التي لا تكاد تستر جسدك ، ومشطاً تسرحين به شعرك ، وخذاء تحمين به قدميك من المشى حافية . نعم ... هكذا . هكذا . يا لله ! كم من الوقت مضى دون أن يلمس الماء وجهك !

وتركت ماري سيلا وجهها لبرد الماء النقي وقد ضمت شفتيها وأغمضت عينيها ، وجسدها يرتجف تحت وقع ملامسته ليدي الرجل الكبيرتين . فلما فرغت من اغتسالها أخرج منديلا من جيبه لتجفف به وجهها ، ثم رفع رأسها إليه مسنداً ذقنها بيده ، وفتحت الصبية عينيها وجعلت تنظر إليه وقد تفرقت في عينيها الدموع .

وقال لها سانتوس :

- والآن عليك أن تعودى إلى منزلك ، وسأرافقك أنا ؛ إذ ليس من الحكمة أن تسيرى الآن وحيدة في هذا المكان وفي مثل هذه الساعة . ولكنها اعترضته قائلة :

- لا ، سأعود وحدي . فاذهب أنت أولاً في طريقك ، ولكن صوتها وهى تفوه بتلك العبارة بدا كما لو كان صوتاً جديداً آخر .

* * *

كانت يدا سانتوس تغسلان وجهها بينما كانت كلماته توظف روحها
النائمة الخاملة . وهى تشعر الآن بأن كل ما حولها قد تغير فجأة ، حتى هى
نفسها كأنما تحولت إلى شخص آخر لم تكن تعرفه من قبل .

هى تحس بنظافة بشرتها ، وتتردد على سمعها هذه العبارة : «ما أجملك
أيتها الطفلة !» ، فينتابها فضول يلح عليها فى أن تعرف نفسها وصورتها كيف
هى ؟ كيف تكون هيئة عينيها وفمها وقسمات وجهها ؟ وهى ترفع يدها إلى
وجهها تمر على تقاطيعه ، وتلمس خديها وتداعبهما ، وتتحسس تكوين
جسدها وكأنما هى تناشد يديها أن تخبرها كيف تكون صورة ماريسيلا
وشكلها .

ولكأنها باليدين تعودان إليها فتقولان :

- لقد بلغنا من الخشونة واليبس حداً جعلنا لا نحس بشيء . إن اقتطاع
الحطب واقتلاع الشوك قد غطانا بطبقة غليظة من الجلد تحول بيننا وبين ذلك !
لماذا لا يحس الجسم بجماله كما يحس بالألم ؟

إن سانتوس على أية حال قد طبع فى نفسها شيئين رقيقين :

برد الماء وهو يتصبب على خديها مولداً فى قرارة نفسها أحاسيس غريبة
لم تعهدها من قبل ... بلى ! إن الجسم يشعر بجماله حقاً . أليست هذه
الأحاسيس الجديدة الغريبة وليدة لشعورها بجمالها ؟ هكذا ينبغى أن تشعر
المروج حينما تصبح يوماً بعد موسم الجفاف والحريق فى شهر مارس ،
فإذا بصفحتها قد اكتست بالخضرة من جديد ! هكذا ينبغى أن تشعر الشجرة
تحت قشرتها اليابسة المغضنة بالبراعم الجديدة وهى تشق بطنها فى طريقها إلى
الحياة !.

ثم هذا الإحساس العميق الذى خلفته فى نفسها كلمات لم تسمعها من قبل : « ما أجملك أيتها الطفلة ! » ، وهى تردد هذه الألفاظ ، فتسمع أصداءها تتجاوب فى قرارة قلبها ، وتحس حينئذ بأن هذا القلب كان حتى هذه اللحظة قائماً عميقاً ، خاوياً أصم ، ولكنه فى الوقت ذاته سريع الاستجابة لما يتردد فيه من أصوات .. تماماً مثل البئر التى تجاور منزلها ، تلك البئر المظلمة العميقة التى استقرت فى قاعها رغم ذلك مرآة من الماء النقى . « ما أجملك أيتها الطفلة ! » .. ويتردد صدى الصوت فى قلبها الخاوى العميق كما يتردد فى البئر حينما يلقي أحد من أعلى حوافيها بالنداء .

وأحست الصبية بأن العالم المحيط بها لم يعد هو ما تعرفه وتعتاده ، لم يعد جبلاً متشعب المسالك مورداً لاقطاع الحطب والسعف ، ولا خميلة من شجر النخيل حيث كانت تقضى ساعات وساعات وهى مستلقية على التراب ، وقد جمد جسمها فلا حراك ، وتبلدت نفسها فلا شعور ولا تفكير ! لا .. هى الآن تسمع هديل الطيور ، وتحس باللذة والمتاع وهى منصتة إليه ، هى الآن تطالع صفحة البركة وتكتشف جمال هذه الأشجار وقد انعكست صورها فى الماء فبدت مقلوبة على رء وسها ، وصفاء تلك السماء التى تبدو مرتسمة فى قاع المستنقع ، وهى تشم الآن عبير تلك الأزهار البرية التى اختلطت بكومة الحطب والسعف ، فتملأ نفسها بالنشوة والارتياح . إنها تدرك الآن أن الجمال ليس فيها هى وحدها ، بل فى كل مكان : فى تغريد العندليب وهو يوقع لحنه الرتيب المتواصل ، فى مياه البركة والإطار الأخضر الذى يحف بها ، فى خميلة النخيل العميقة الشفافة ، فى المرج الهائل الفسيح ، فى أشعة الأصيل التى تسكب ذهبها على السهول فى رقة وسكون . كيف لم تنتبه من قبل إلى كل هذا الذى خلقه الله متعة تسرح فيها النظر ؟

ولأول مرة ترى ماريسيلا كيف بجانب جفنيها النوم وهى متمددة على

قطعة الحصير التى كانت تأوى إليها كل ليلة . إنها تحس بجنبها يجفوان هذا الفراش القذر وسعفه الخشن كأن جسمها لم يتعود على مثل هذا الشظف ، وهى تشعر بالنفور من لمس خرقها الممزقة الذفرة التى لم تكن تخلعها عن جسدها حتى حينما تسكن إلى النوم ، وكأنها تلبسها الآن لأول مرة . إن حواسها فى هذه الليلة بدأت تبغض هذه الحياة البائسة القذرة حتى لم تعد تحتملها ، كما لو كانت قد دبت فى روحها حساسية جديدة مفاجئة .

وهى تشعر فضلاً عن ذلك بأن أنوثتها قد استيقظت من سبات عميق ، باعثة فى روحها الغضة ألواناً من المشاعر المعقدة المتماوجة ، بعد أن كانت حياتها بسيطة أشبه بريح السهول التى لا تعرف إلا المضى الساذج فى أرجاء السهول .. انفعالات غريبة لا تعرف هى كنهها قد شرعت تهز نفسها هزة مضطربة راجفة : نشوة يخالطها الألم ، وأمل تعبث به المخاوف ، ورغبة فى أن تهز رأسها محاولة أن تبعد عنها فكرة ملحة ، ثم استسلام للهدوء والسكون حتى تعود إليها تلك الفكرة الملحة ، وأشياء أخرى كثيرة مضطربة لا تستطيع هى نفسها أن تتبينها أو تستكنه أسرارها .

* * *

تصايح الطيور يعلن قرب طلوع الفجر الجديد ، وكأنها تهيب بالصبية منادية :

- ماريسيلا ! انهضى من نومك . إن الماء البارد النقى ينتظرك فى قاع البئر . لقد ألقت البرودة إليه تلك النجوم التى ظلت تهوم مطلة على فوهة البئر طول الليل ! انهضى فما زالت بعض النجوم مستقرة فى قاعه . فألقى بالدلو إليها وأخرجها ثم اسكبها على جسده ، فسترين كيف تدعك مثلها نظيفة نقية ! .

وتبرز فى الأفق البعيد دائرة الشمس ، بينما ينحدر القمر للأفول ، وتهتز
خميلة النخيل فى سكون الفجر كأنها غابة مقدسة ...

والدلو تذرع البئر نازلة صاعدة بغير توقف ، والماء المخبوء الذى لم ير
النور قط من قبل يتصبب متألق القطرات على الجسد العارى الذى تفتحت فيه
براعم الأنوثة العذراء .

الفصل الثاني عشر حلم يتحقق

ما كان أشد دهشة أنتونيو حينما رأى فى اليوم التالى كيف تراجع كوخ «الماكانيال» الذى كان يقيم فيه الإخوة «الموندراجونس» إلى مكانه القديم ، وكان أنتونيو قد رافق سانتوس إلى حدود الضيعة لكى يرى بنفسه كيف كانت «الماكانيال» الفاصلة بين «ألتاميرا» و «ضيعة الرعب» تتقدم فى اطراد مضيئة إلى أرض السيدة باربارا أجزاء من أرضه هو .

وصاح أنتونيو :

- لقد نقلوها فى ليلة أمس . انظروا سيدى إلى حيث كانت الأعمدة الفاصلة . إن حفرها القديمة ما زالت آثارها على الأرض باقية :

فقال سانتوس :

- هذا شىء طيب على أية حال . فالحدود الآن فى مكانها الصحيح ، وقد وفر علينا ذلك كثيراً من المتاعب ، على الأقل حتى هذه اللحظة . وإنى أرى الآن لذلك أن نسور ملكنا بسياج ثابت عند هذه الحدود حتى نتجنب فى المستقبل ما يمكن أن يحدث من نقلها أو التلاعب بها فى ظلام الليل .

فاعترض أنتونيو قائلاً :

- ولكن ... هل معنى ذلك أنك ستقبل الوضع الراهن لهذه الحدود ؟ وهل ستسلم للسيدة باربارا بما انتهت به من أرضك بحكم تلك القضايا التى كسبتها منك بطرق نعرف جميعاً ما كان فيها من تحايل وتدليس ؟

- إن كل ذلك قد أصبح الآن أمراً واقعاً سبق به حكم القضاء ، فلا سبيل إلى رده، ولقد كان بوسعى أن أستأنف تلك القضايا بل وربما كنت أستطيع أن أسترده كثيراً من حقوقى إن لم أقل كلها فى ساحة القضاء لو أننى أوليت هذه الأرض من العناية ما أهملت ، ولكننى لم أتلاف ذلك فى وقته . وعلى أية حال فإن ما بقى من هذه الأرض مازال كثيراً بحمد الله ، ولكن الماشية هى التى أراها قليلة ، فالعين لا تلمح هنا وهناك إلا قطعانا متناثرة قليلة العدد .

- لا ياسيدى . ليست الماشية قليلة هنا كما تظن ، وكل ما هناك هو أن معظمها قد نفر وتوحش ، فالأبقار الوحشية كثيرة فى «ألتاميرا» كما قلت لك . وذلك لأن المخلصين لك من أصدقائك أمثالنا ممن بقينا فى الضيعة عملنا عامدين على أن نتركها متوحشة فى مروجها لتتناسل وتتكاثر بدلاً من استئناسها كما كان المفروض أن نعمل ، وذلك لأن هذه كانت هى الطريقة الوحيدة للمحافظة على الماشية هنا ، وإلا لتصيدها وشطها عليها من تعرف من جيران السوء . إن الشئ الوحيد الذى ينقصنا هنا ليس إلا الرجال من الرعاية والأجراء واليد العاملة .

- نعم . هذا صحيح فأنا أرى الآن كيف تحولت «ألتاميرا» إلى صحراء ، وأنا أذكر منذ أيام صباى أن كل هذا الفضاء كان يعج بالبيوت والناس فى كل مكان .

- حتى البقية القليلة التى ظلت منهم على أطراف الضيعة لم يلبثوا أن أخلوا ديارهم وأرضهم منذ أن تولى السيد بالينو الإشراف على العمل هنا وإدارته ، وذلك بأمر وتدبير منه ؛ إذ رأى أن فى وجودهم حراسة للضيعة ، وأن جلاءهم عنها سيمكن الجيران من اقتحامها فى أى وقت يريدون حاملين معهم كل ما يعرض لهم فى طريقهم من ماشية .

- وهكذا أرى أن السيدة باربارا لم تكن هي العدو الوحيد الذى يعيث
فساداً فى هذه الأرض !

- لقد فعلت هى كل ما طاب لها دون محاسب ولا رقيب ، ولكن
الآخرين فعلوا كذلك كل ما شاءوا : كل بقدر قوته وطاقته . وهكذا أيبسوا
مثلاً كل القنوات التى كانت الماشية تردّها فى «التاميرا» ثم فتحوا هذه المشارب
حيث أرادوا فى أرضهم ، وبذلك أصبحت ماشيتنا مضطرة إلى المسير إلى
أرضهم لتنهّل من قنواتهم ، وبهذا تقع فى أيديهم غنيمة باردة سائغة . ولو
نظرت إلى تلك القنوات فى «ضيعة الرعب» فى ساعة الظهيرة لرأيت لدى كل
منها أربعة رجال أو خمسة ليس لهم عمل إلا إلقاء حبالهم على ماشيتنا
والاستحواذ عليها فى سهولة ويسر . أترى هذا السواد الذى يلوح هناك ؟ إنه
قطيع من الماشية متوجه إلى قنوات «مجاز الخوار» الذى يقع الآن فى «ضيعة
الرعب» وكان من قبل جزءاً من أرضنا نحن . ولتكن على ثقة من أن كل رأس
تطأ ضفة قناة من تلك القنوات فقل عليها السلام ! بل إن رجال السيدة باربارا
كثيراً ما كانوا يسوقون ماشيتنا إلى قنواتهم ومشاربهم حتى تعودت على ذلك ،
ولم يجرؤ أحد منا على التعرض لهم أو الحيلولة بين مواشينا والتماس الماء
عندهم . ثم هذا الرجل الأمريكى الذى يسيطر الآن على تلك القناة الجافة التى
اعتادت الماشية على قصدها لكى تلعق طينها ... «مستر دينجر» الذى حدثتك
عنه هذا الصباح ، والذى أخذ عن مجرمى السهول وقطاع طرقها كل ما أحاط
به علمهم من وسائل الغصب والنهب حتى فاقهم فيها ! إن أى رأس من رء
وس ماشيتنا يجتاز بطحاء «مرج النخيل» حيث يقيم هذا الأمريكى فإنه لا يعود
إلى أرضنا أبداً . الذى أرى أن نبداً به ياسيدى هو أن نعود إلى فتح القنوات فى
أرضنا ونعود مواشينا الاستقاء منها بدلاً من ورود قنوات الجيران ، ثم إحاطة
«مرج النخيل» بالسياج الذى كان قائماً فى أيام أبيك حتى نحول بين مواشينا

والتوجه إلى القناة الملحة الجافة بحثاً عن الموضع الذى اعتادت على لعق طينه .
ويمكننا أن نبدأ فى هذا العمل منذ اليوم ، فلنشرع من الآن فى إقامة أعمدة
السياج .

- لا داعى للعجلة . فأنا أريد أن أدرس أولاً جميع وثائق الملك التى لدينا
فى «التاميرا» حتى أعرف حدود أرضنا وأؤكد منها ، ثم أراجع تفاصيل «قانون
السهول» وما تضمنه من مواد .

وأجاب أنتونيوفى استخفاف :

- «قانون السهول» ؟ أتعرف كيف يسميه الناس هنا ؟ «قانون السيدة
باربارا» ؛ إذ إن الجميع مقتنعون بأنها عملت على رشوة واضعیه لكى
«يفصلوه» لها على حسب رغباتها !

- لست أستبعد ذلك بعد أن رأيت الأمور كيف تجرى هنا ، ولكنه مادام
قانوناً فليس أمامنا إلا احترامه واتباعه . لنطالب بتعديله وإصلاحه ، ولكن
لا سبيل لنا إلى خرقه أو الاستخفاف به .

وعكف سانتوس فى مساء هذا اليوم على فحص وثائق ملكيته لأرضه
ودراسة «قانون السهول» ، فلما فرغ من ذلك قرر أن يرسل خطابين إلى كل من
السيدة باربارا و «مستر دينجر» يعلمهما بأن عزمه قد استقر على إحاطة
«التاميرا» بسياج مسور ثابت ، ويدعوهما إلى إخراج مواشيهما التى ترعى فى
أرضه مستأذناً إياهما فى الوقت نفسه فى أن يسحب هو ماشيته السارحة فى
أرضهما .

وحمل أنتونيوفى الرسالتين ومضى يحدث نفسه فى الطريق قائلاً :

- لنر ما سوف يصيب السيدة باربارا حينما تتلقى الرسالة من غضب
وهياج . إن إحاطة الضيعة بسياج مسور أمر مشروع يجيزه القانون ، وهو -

وإن لم يكن يعجبني أنا شخصياً - فأنا واثق من أنه سيقع على رأسها وقع الصاعقة . لقد آن الأوان لكى نضع حداً لما قاسته هذه الأرض من ويلات مكرها وأفاعيلها .

* * *

وفى مساء اليوم التالى خرج سانتوس يرافقه أنتونيو منطلقين إلى «الخميلة اللوئاردية» ، ووصلاً أخيراً بعد أن قطعاً نحو ساعتين على صهوتى جواديهما إلى حقل واسع تملأه الأزهار البرية وشجيرات الحسك المر ، ولكنه بدا خالياً من أى أثر للماشية.

وارتفعت دائرة القمر وراء الربوة القائمة التى قامت عليها الخميلة الكثيفة ، ملقياً أشعته الشاحبة على المرج الواسع .

وأوقف أنتونيو دابته ، ثم أوصى لوئاردو بالتزام الصمت والحذر ، وصعد الرجلان بعد ذلك إلى مرتفع كان هناك .

والتفت أنتونيو إلى سيده قائلاً فى صوت خفيض :

- انظر بانتباه ، فإنك سترى الآن ما لم يكن يخطر لك على بال !

ثم قوس يديه على فمه متخذاً منهما بوقاً ، وألقى من أعلى الربوة صرخة حادة عالية قطعت السكون المخيم على المكان .

ولم يكد يفعل حتى انبثقت من وراء الخميلة أصوات ضجيج متزايد القوة ، ثم ما هى لحظات حتى امتلأ المرج بقطعان الأبقار المتوحشة ، وقد استولى الذعر عليها فأقبلت تركض بسرعة هائلة ، والأرض تكاد تميد من تحت قوائمها .

وصاح أنتونيو :

- أترى ؟ هذه هي آلاف وآلاف من الرءوس الوحشية التي لم تر الإنسان قط . إن الخيل لم تدخل هذا المكان منذ سبع سنوات . وهذا الذي رأيت لا يقاس بقطعان أخرى مازالت في هذه المروج - هناك في الداخل حيث مجرى نهر «الكونافتشى» . إن «ألتاميرا» مازالت بخير رغم كل شيء . وقد كان إنقاذها بفضل ما قمنا به من إخراج القطعان إلى داخل هذه السهول حتى تتأبد وتكون مدخراً لنا في وقت الحاجة . أما الآن فالواجب علينا هو أن نستنزلها ونستأنسها ، وإنى متحرق إلى البدء في اصطیاد هذه الأبقار وإيداعها الحظائر ، ولكن هذا عمل يقتضى عدداً من الرعاة الماهرين ذوي الخبرة في استخدام أناشيط الحبال ، فليس كل الرعاة يصلحون لهذا العمل . وعلى أية حال فأنا أعرف كثيراً من هؤلاء ، وفي وسعنى أن أتكفل باستقدامهم . وفضلاً عن ذلك فإننى أرى من الخير أن نعود إلى إقامة مصانع الجبن التي كانت كثيرة في «ألتاميرا» ، ولكنها أخذت في الانقراض منذ سنوات . فمصانع الجبن ليست مورداً آخر للمال جديراً بالعناية من أجل ذلك فحسب ، وإنما هي كذلك وسيلة تعيننا على استئناس هذه المواشى وتذليل قيادها ؛ إذ إن فى بقائها على وحشيتها ضرراً كثيراً يصيب الناس والحيوان على السواء .

وبدت الأسباب التي ساقها أنتونيو لإنشاء مصانع الجبن وجيهة خليقة بالاهتمام ، ولكن الفكرة لم ترق سانتوس من أجل ماسوف تدر من النفع فقط ، بل لأنه رأى فى تحقيقها تحقيقاً للحلم الذي كان يراوده منذ أن فكر فى الاضطلاع بشئون الضيعة : وهو القضاء على مظاهر التوحش السائدة فى هذه الأرض سواء بين حيوانها أو بشرها .

* * *

وفى اليوم التالى أقبل عليه أنتونيو يقول :

- لقد توغلنا فى المروج صباح اليوم ، وتمكنا هناك من اقتناص خمسين رأساً من تلك الرء وس الوحشية الطليقة .

واقتناص تلك الثيران الطليقة بأناشيط الحبال يعتبر فى نظر رعاة السهول فى هذه المناطق بحوض «الأبورى» هواية تملك عليهم ألبابهم . ولما كانت ضياع تلك السهول غير مسورة ولا واضحة الحدود ؛ فقد اعتادوا هناك على أن يتركوا قطعان الماشية طليقة حيث شاءت . أما ملكية هذه المواشى فهى من حق من وضع اليد عليها من أصحاب الضياع ، وهو حق إما أن يكتسبه هؤلاء باتفاق بينهم يجتمعون فيقسمون ما وقع بأيديهم من ماشية ، ثم يسم كل واحد منهم الماشية التى تقع فى سهمه بميسم ضيعته بعد أن يتم اقتناصها بأناشيط الحبال، وإما أن يدعوا ذلك رهيناً بالقوة وحدها. والواقع أن هذه الطريقة البدائية فى اكتساب الحقوق كانت أمراً طبيعياً تقضى به هذه البيئة نصف المتوحشة ، بل وتعترف به القوانين السائدة نفسها ، ولم يوضع على ذلك من قيود إلا التزام المالك ألا يتجاوز حدود أرضه ، وهى حدود مائعة لا يعرف أحد معها على وجه التحديد أين تبدأ أرض هذا ولا أين تنتهى أرض ذاك . ولعل الناس هناك فى جريهم على هذه الأوضاع كانوا يرون فيها متعة الحرية والانطلاق الذى يكفل للرجل السطو على ما يريد من ماشية دون خطر أو تقييد ، طالما كانت قوته وجراته تمكنان له من ذلك . فالحق والقوة عند رعاة السهول أمران متلازمان !

وكلما أمعن سانتوس لوئاردو التفكير فى هذه الأوضاع زاد اقتناعه بأن تسوير الضياع فى السهول هو الخطوة الأولى فى سبيل إقرار الحقوق واحترامها والبدء فى انتهاج حياة مستقرة منحصرة لا يعدو فيها الرجل على أخيه لمجرد

كونه أقوى منه . كان هذا هو ما يدور فى رأس سانتوس حينما أتى أنتونيو إليه يبلغه نبأ اقتناص تلك الماشية السوام ، فقال له :

- إن ما تفعلونه من ذلك يضر بتناسل هذه الماشية وتكاثرها ، ولو أن أصحاب الضياع التزموا بتسوير ما يملكونه من أرض لأمكن كلا منهم أن يستأنس ماشية أرضه ، وأن يعتنى بتربيتها والاستكثار منها على صورة أكثر استقراراً وتحضراً .

- قد تكون محقاً فيما تقول ياسيدى ، ولكنك إذا أردت أن يستقيم لك ذلك فعليك أولاً أن تغير طبيعة رجل السهول وكيانه ، فالسهلى هنا يكره الأسوار والحدود ؛ إذ هو يريد لها كذلك من أجل ما ذكرت لك الآن : اقتناص كل ما يقع فى أنشطته من حيوان ، فلو أتيت لتحرمه من هذه اللذة فإنه يموت أسفاً وكمداً . إن السهلى لا يشعر بالرضا والغبطة إلا إذا استطاع أن يقول : اقتنصت كذا وكذا من رءوس الماشية . ولا يهمه إذ يملأ فاه بذلك أن يكون جاره مفتخراً بمثل فعله ، فهو يعتقد دائماً أن ماشيته مصنونة لا يقربها أحد ، وأن ما اقتنصه لم يكن إلا من مال الآخرين .

وعلى الرغم من ذلك فقد بقى لوئاردو مصراً فى تفكيره على ضرورة إصلاح «قانون السهول» ، بحيث يمكن إلزام أصحاب الأرض بتسوير ضياعهم واحترام حدودها . إن هذه الأسوار الفاصلة هى الطريق إلى نشر الحضارة فى هذه الربوع ، هى الأسوار التى ستحمى قوة الحق من حق القوة ، هى الحدود التى ستحمل الرجل على احترام المبادئ والمثل .

ها هو ذا قد اهتدى إلى الواجب الذى ينبغى أن يضطلع به فى هذا العمل الحضارى الكبير الذى ظل يحلم به . وكانت أفكاره تسرح به بسرعة أعادت إلى ذاكرته ذلك الجواد الجموح الذى كان يطوى الأرض به منذ أيام وهو يعالج ترويضه ... ها هو ذا يرى مراعى السهول وقد تقسمت قطعاً مخططة تفصل

بينها أسيجة من الأسلاك الشائكة . إن تلك الحدود الفاصلة هي الخط المستقيم الذي يقابل به الرجل المتحضر تلك الأقواس المعوجة الملتوية التي رسمتها الطبيعة ... هي الطريق الواضحة المباشرة إلى المستقبل في أرض كانت الآمال فيها تائهة لا تهتدى إلى الطريق ! ...

كان سانتوس يهتف بهذه الآمال والأحلام مخاطبًا نفسه بصوت عال وقد أخذته الحماسة ، والحق أن منظر هذه السهول المائل في خياله بدا له رائعًا جميلًا وقد دبت فيها الحضارة والرخاء .

وكانت شمس الأصيل تغمر المروج أمامه بالضياء ، والرياح الشديدة تموج البساط الأخضر الذي يكسوها . وبدت عن بعد في الأفق دوائر من الدخان تدور وتضطرب بين الربى البعيدة .

ومضى سانتوس في حلمه الجميل ناسيًا الحقيقة المحيطة به أو منساقًا وراء سراب الخيال فإذا به يصيح :

- القطار ... هذا هو القطار قد وصل !

ولكنه لم يلبث أن ابتسم في انكسار وحزن ... لقد كان حلمًا من أحلام اليقظة ، وعاد إلى تأمل المنظر الممتد أمام عينيه ، ثم تمتم وقد ملأ التفاؤل نفسه من جديد :

- ولم لا ؟ ستحقق هذه الأحلام في يوما ما ... ستدخل الحضارة والتقدم إلى هذه السهول ، وستنحسر عنها الوحشية مقهورة منهزمة . وربما لا ندرك نحن هذا التطور الجديد ، ولكن عزاءنا هو أن دمًا من دمائنا هو الذي سينبض في عروق من يطالعه ويراه .

حقوق دينجر

كان كتلة ضخمة من العضلات المفتولة ، تعلوها بشرة حمراء وعينان شديدتا الزرقة وخصل من الشعر فى لون الكتان ، وكان قد وصل إلى هذه الأرض منذ بضع سنوات وعلى كتفه بندقية ؛ إذ إنه أقبل باحثاً عن تماسيح وغور يصيدها ، ثم أعجبه البقعة ، فقد كانت مثل روحه : بدائية متوحشة ، أرضاً موطأة مدللة للغزاة الفاتحين من أمثاله ، يسكنها ناس يعتبرهم أقل منه فى درجات البشرية ؛ إذ إنهم لم يكونوا مثله شقر الشعور زرق العيون . وعلى الرغم من البندقية التى كان يلفيها على عاتقه فقد اعتقد الناس هناك أنه قدم لينشئ ضيعة ، أو أتى مبشراً بآراء وأفكار جديدة تعم بالنفع أهل تلك البقاع ، فأودعوه ثقتهم وأملهم ، واستقبلوه بحفاوة وترحاب ، ولكنه لم يفعل أكثر من الإلقاء بعصا ترحاله فى أرض غريبة دون أن يستأذن على أهلها ، ثم دق فيها أربعة أعمدة ألقى عليها بعد ذلك سقفاً من السعف وورق النخيل ، وعلق ما بين اثنين من أعمدتها سريره المتأرجح ، ونحى عنه بندقيته ، ثم اعتلى سريره وأشعل «بيته» وتمطى مرخياً عضلات ذراعيه القوية ، وهو يقول فى لغة هى مزيج من الإنجليزية والإسبانية الركيكة :

- «أول رايت» ! ها أنذا فى بيتى !

وكان يقول إن اسمه «وليم دينجر»(*) ، وإنه من أمريكا الشمالية من ولاية ألاسكا ، من أب إيرلندى وأم دانماركية كانا قدما إلى ذلك الموضع بحثاً عن الذهب ، ولكن الناس كانوا يشكون فى أن اسمه الثانى «دينجر» اسم حقيقى ؛ إذ إنه كان يسرع بترجمته إلى الإسبانية فيقول لمن يتعرفون به إنه يمكن لهم أن يدعوه «السيد جيرمو خطر» ليريحهم من عناء النطق بالإنجليزية ، ولعله رأى أن فى هذه الترجمة الحرفية ما يضيفى عليه فى نظر الناس هيبة ورهبة ، فقد كان

رجلاً محباً للدعابة والمزاح على طريقته الخاصة ، فى سذاجة تجعله يبدو كأنه طفل كبير .

على أن هالة من الغموض كانت تحيط بشخصيته وسر قدومه إلى هذه الجهات ، ويقولون إنه كان فى الأيام الأولى لاستقراره هناك كثيراً ما يطلع الناس على قصاصات من صحف صادرة فى نيويورك ، وقد حملت دائماً عنوان «الرجل الذى لا وطن له» ، وفيها يحتج كاتب المقالات على معاملة ظالمة تعرض لها مواطن لم يذكر اسمه ، وكان «مستر دينجر» يفهم الناس أنه هو المعنى بتلك المقالات . ولو أنه لم يشرح لأحد أبداً حقيقة تلك المعاملة الظالمة ولا أسبابها ، ولا الدوافع التى حملته على إخفاء اسمه وراء هذا اللقب الذى اتخذته لنفسه . وعلى الرغم من ذلك فقد فتحت له جميع الأبواب فى انتظار أنهار الدولارات التى كان الناس يأملون أن تتفجر على يديه فى تلك السهول .

ولم يكن لمستر دينجر عمل فى الحقيقة إلا صيد التماسيح التى كان يصدر من جلودها مقادير كبيرة فى كل سنة ، وكانت هوايته صيد النمرور والأسود وكل ما يعرض لبندقيته من وحوش . ووقع له فى يوم من أيام خروجه للصيد أن قتل أنثى نوع من أنواع الفهود كانت قريبة عهد بالوضع ، فاقتنص شبلًا من أشبالها وعمل على ترويضه واستئناسه ، وكان كثيراً ما يلعبه بمرحه المعهود الذى كان يجعله يبدو كما لو كان طفلاً كبيراً متوحشاً ، وكان الفهد الصغير يترك على جسد الأمريكى العملاق آثاراً من الخدوش والجروح ، ولكن هذا كان يرى الناس تلك الآثار فى سرور وزهو كأنما يجد فى ذلك لذة ومتعة ، وقد أضفى كل هذا عليه شعبية بين أهل تلك البقاع لا تقل عما كفلته له قصاصات الصحف التى كان كثيراً ما يطلعهم عليها فى أول عهده بالمقام .

أما الكوخ الذى أقامه الأجنبى لسكناه فإنه سرعان ما تحول إلى بيت مجهز بكل وسائل الراحة تحيط به مساحة واسعة أقام عليها حظائر للماشية ،

وأما قصة هذا التطور الذى كان يدل على أن «الرجل الذى لا وطن له» قد ألقى جذوراً ثابتة فى ذلك الوطن الجديد فإنها لم تكن بمعزل عن الصلة التى قامت بينه وبين السيدة باربارا .

كان ذلك فى الأيام التى توثقت فيها العلاقة بين باربارا و «الكولونيل أبو لينار» الذى رسم لها خطة انتزاع ضياع «الباركيرينيا» من «لورنثو باركيرو» ، وكانت باربارا تستعد للاحتفال باستيلائها على ذلك الإقطاع بعد أن استبدلت باسمه القديم اسم «ضيعة الرعب» ، وكان الاحتفال يقضى فيما جرت به العادة بدفن ذلك الحيوان الذى تسند إليه الخرافة حماية الضيعة الجديدة وحراستها . ولم تكن السيدة باربارا فى اعتقادها فى السحر وإيمانها بمثل هذه الخرافات لتدع مثل هذا التقليد المتوارث . أما مستر دينجر فإنه كان منذ أن سمع بأسطورة «العفريت الحارس» تواقاً إلى حضور احتفال تجرى فيه مثل هذه الطقوس الوحشية الهمجية فى نظر رجل «متحضر» مثله ، ومن أجل ذلك عزم على زيارة السيدة باربارا ، لا سيما وأنه كان يدين لها بأداء فروض الشكر ؛ إذ إن قطعة الأرض التى أقام عليها كوخه كانت جزءاً من أملاكها هى .

وتم كل شئ فى لحظات : النظر إلى الأجنبى العملاق ، والاستماع إلى الرغبة التى حدثت به لزيارتها وإيقاعه فى غرامها ، ثم رسم خطتها الجديدة . وكان أول ما قامت به فى تنفيذ هذه الخطة هى أنها حملت أبو لينار على دعوة الأمريكى للعشاء معهما . وتعمدت فى أثناء تناول الطعام الإثقال فى الشراب على الرجلين ، وكان كلاهما مشغوقاً بالخمر ، أما أبو لينار فقد كان أضعف احتمالاً ، وكانت سكراته من النوع الذى سرعان ما يتحول بالرجل إلى البلاهة وفقد الوعي ، ولهذا فإنه لم يفتن خلال الطعام إلى النظرات والغمزات التى كان يتبادلها الضيف والمرأة التى كان يعتقد أنها مدلهة فى هواه ، ولا إلى المشروع الغادر الذى كان يختمر فى نفس المرأة الداهية والذى قدر على الشقى أن يذهب ضحية له .

وكان أجراء الضيعة خلال هذا الوقت قد عملوا بسرعة على إعداد الحفرة التى تقرر أن يودع فيها حصان عجوز كان قد أصيب فى عموده الفقرى إصابة قاتلة ، ولهذا فلم يعد يصلح لشيء غير القيام بدور «العفريت الحارس» .

وكان مما قالته السيدة باربارا :

- سنعمل على دفنه عند انتصاف الليل ؛ إذ إن هذه هى الساعة المشهودة ، ولن يحضر المشهد إلا نحن الثلاثة فقط ؛ إذ إن الأجراء والفعله ينبغى ألا يشهدوه ؛ هكذا يجب أن يكون حسب السنة الجارية والتقليد المتبع .

فصاح الأجنبى معلقاً :

- هذا جميل ! النجوم من فوق ، ونحن من تحت ، بينما نلقى الثرى على الحصان المدفون حياً . هذا شيء جميل غريب ... رائع حقاً ! .

أما أبو لينار فما كان يلقي بالا للسنة الجارية ولا للتقليد المتبع ، ولا ليبدى أى اعتراض ، بل كان لإفراطه فى السكر غير قادر على الحركة ، حتى إن مستر دينجر اضطر إلى حمله بين ذراعيه ووضعته على ظهر جواده حينما حلت ساعة الخروج إلى المكان الذى تقرر لدفن الحصان فى موضع منقطع بعيد عن البيوت القائمة فى الضيعة .

وكانت الحفرة قد أعدت ، والحصان عاجز ، مربوطاً إلى وتد ثبت فى الأرض بجوارها ، فى انتظار الإلقاء به إليها قرباناً فى هذا الطقس الهمجى الغريب . وإلى جوار الحفرة وضعت ثلاثة مجارف ليستخدمها الدافنون ، وكان الظلام يلف المكان المهجور بثوب غليظ قاتم السواد .

وحل مستر دينجر وثاق الحصان ، ثم قاده إلى الحفرة وهو يربت على ظهره ويردد جملاً تعبر عن شفقتة عليه وراثته له وأسفه على المصير الذى

ينتظره ، بينما كان أبو لينار يطلق قهقهة عالية بلهاء . وأخيراً تحامل هذا على نفسه ودفع بالحيوان المسكين دفعة قوية ملقياً به فى الحفرة .

وأمسك أبو لينار بإحدى المجارف الثلاث ، ولكنه ظل واقفاً يترنح مغالباً قوانين الجاذبية فى محاولته الانحناء على الأرض لكى يملأ مجرفته من الثرى المتكوم على شفا الحفرة ، وهو يتفوه بعبارات بذئية يبدو أنه أراد أن يفرغ فيها كل ما ظن أنه أوتى من ظرف وخففة روح ؛ إذ كان لا يروى «نادر» منها إلا وكاد جسده يتفتت من الضحك . وأخيراً استطاع ملء مجرفته وتقدم إلى الحفرة لكى يلقى فيها بما حمل من تراب ، ولكن الثمل كان قد أخذ منه كل مأخذ ، فظل يتطوح بها يمنة ويسرة ، وهى لا تستقر بين ذراعيه .

وصاح به مستر دينجر :

- ما أشد ماسكرت يا صديقى الكولونيل !

قالها الأجنبى وهو منهمك فى عمله فى جد وإخلاص ملقياً بأكوام التراب إلى الحفرة فى سرعة ، ولكنه لم يلبث أن رأى أبو لينار وقد سقطت المجرفة من يده ورفع يديه إلى جنبه ، وهو يتلوى ويطلق صرخة ألم شديد ، ثم يهوى بعد ذلك فى الحفرة ، وقد أغمدت حربته القصيرة فى ظهره .

وصاح مستر دينجر وقد باغته المنظر ، فتوقف عما كان مستغرقاً فيه :

- أوه ! إن هذا «الشيء» لم يكن فى برنامج اليوم . مسكين هذا الكولونيل !

وأجابته السيدة باربارا وهى تلتقط من الأرض المجرفة التى سقطت من يد القتيل .

- لا تكثر من الترحم عليه يا صديقي ، فقد كان هو بدوره يريد اغتيالى .
والآن لتساعدنى على دفنه ، وعلى أية حال فإنك لست من الرجال الذين
تطرف أعينهم أمام مثل هذا المشهد ، فأنا أعتقد أنك فعلت أشياء أفزع من هذا
بكثير فى بلادك !

فرد الأمريكى فى إسبانيته الركيكة :

- يالله ! إنك يا سيدتى لا تعدمين جواباً عن أى شىء ! ولكن مستر
دينجر ليس معتاداً على القيام بشىء لم يدخل فى البرنامج الموضوع ، فهو لم
يأت إلى هنا إلا من أجل دفن «العفريت الحارس» فقط .

قال ذلك ، وترك معرفته ، وامتنطى صهوة حصانه ، وعاد يركض به إلى
داره لكى يواصل ملاعبة فهذه المستأنس .

ولكنه كتم السر على الرغم من ذلك ، فقد كان يريد أولاً أن يتجنب كل
تعقيد يمكن أن يلقي مزيداً من المتاعب على كاهل «الرجل الذى لا وطن له» ،
ثم إنه كان بعد ذلك أجنياً يعتبر نفسه من طينة أنقى وأسمى من طينة أولئك
الناس الذين كان لا يحس نحوهم إلا بعميق الاحتقار ؛ إذ كان يرى أن
أبو لينار لم يكن يزيد كثيراً على ذلك الحصان الهرم الذى شاطره مقبرته . ولهذا
فإنه التزم الصمت وترك الناس يصدقون الرواية التى لفقتها السيدة باربارا حول
موته ، وهى أنه مات غريقاً فى قناة «الخوار» بينما كان يحاول عبورها . وكان
الدليل الوحيد على ذلك هو أنهم عثروا فى بطن تمساح اصطيده فى القناة على
خاتم تعرفت عليه باربارا وزعمت أنه هو بعينه الخاتم الذى كان يلبسه
أبو لينار .

وأحسنت السيدة باربارا جزاء كتمانها الخبر ، فأطلقت له العنان فى الأرض
التي احتلها ، وهكذا تحول كوخه إلى بيت فاخر مريح ، وتحول من صائد

تماسيح إلى مربى ماشية ، أو بتعبير أصبح إلى صائد ماشية ، فقد كان عمله الحقيقى هو السطو على كل ما يعرض له من رءوس سواء من «التاميرا» أو من «ضيعة الرعب» ، ثم كىها مثبتاً عليها سمته ، وأرخت له السيدة باربارا حبله على غاربه ولم تعرض له بسوء ، حتى أتى يوماً إلى «ضيعة الرعب» فاجتمع بصاحبها وألقى إليها بهذا الحديث :

- لقد سمعت أنك عازمة على طرد السيد لورنثو باركيرو من قطعة الأرض التى كنت قد تركتها له إلى جوار مرج النخيل الواقع فى «لاتشو سميتا» ، وقد جئت أقول لك إنك لا تستطيعين الإقدام على مثل هذا العمل الظالم ؛ إذ إنه الآن فى حمايتى ، وسأضطلع أنا بالدفاع عن حقوقه وتدير شئون تلك الأرض له ، فهى آخر ما بقى لهذا الرجل البائس . وأنا أقول لك إنه ليس من حقك الآن أن تبغى رجالك ليستحوذوا على الماشية التى ترعى فى ذلك المكان .

ولكن حقوق لورنثو باركيرو لم تكن لتنتقل من يد غاصب إلى يد غاصب إلا جديد . إذ لم ينل الشقى من ريع تلك الأرض الباقية له إلا زجاجات «البراندى» التى كان مستر دينجر يبعث بها إليه عند عودته من «كاراكاس» أو من «سان فرناندو» محملاً بألوان الشراب التى يستطيعها ، أو أباريق الخمر الرديئة التى كان يكلف مشرب ضيعة الرعب بإرسالها إليه ، وحتى هذه الأباريق كان يتناسى دفع ثمنها للسيدة باربارا .

هذا بينما كانت ثروة الأجنبى المغامر تزايد يوماً بعد يوم بفضل ما كان يتصيد من المواشى السارحة فى تلك الأرض ، وكان ممّا أعانه على ذلك أن هذه القطعة الباقية من إقطاع «الباركينيا» القديم كانت مرجاً تخترقه قناة غير دائمة الماء ، فقد كانت تجف فى فصل الصيف ، وكان مجراها يتميز بصخوره الملحة التى كانت تجذب إليها قطعان الماشية ، فتأخذ فى لعقها بألستها ،

ولهذا فإن الصيف لم يكن يستهل حتى يعج هذا الموضع برء وس قادمة إليها من جميع الضياع المجاورة . وكان من أيسر الأمور على مستر دينجر أن يضع يده على كثير من هذه الرء وس بغير مشقة ولا جهد ، على أن مساحة هذه الأرض كانت تنقص عن الحد الأدنى الذى قرره «قانون السهول» لكى تصبح أرضاً مشاعة تجوبها القطعان المتوحشة الطليقة ، من هذه الناحية كان من الممكن إلزام مستر دينجر بتسويرها ومنع الماشية من الوصول إلى القناة الملحة ، ولكن الأمريكى المغامر لم يكن ممن يترددون فى انتهاك حرمة أى قانون ، لا سيما إذا كان وكلاء ضيعة سانتوس لوئاردو رجالاً يسهل شراء ذممهم ، وإذا كانت صاحبة «ضيعة الرعب» لا تجرؤ على الاحتجاج .

وكان مستر دينجر قد اعتاد الخروج من الضيعة عند استهلال فصل الشتاء إلى القرى المجاورة لكى يبيع المواشى المتجمعة من تلك الغنيمة الباردة ؛ إذ إن قدوم الشتاء كان يؤذن بهطول الأمطار وامتلاء القناة الملحة بالماء ، مما يحول بين الماشية والتردد على تلك الأرض التى اتخذها الأمريكى شركاً مجرب النفع ، فإذا امتلأت جيوبه بالمال بقى فى سان فرناندو أو كاراكاس طيلة أيام الشتاء إلى أن تجف مياه القناة . ولم يكن له من عمل فى هاتين العاصمتين إلا إنفاق ما جمعه من مال على سهرات وسكرات هائلة منكرة ، فالمال لم يكن فى نظر مستر دينجر أمراً يستحق منه كبير عناية ، ثم إنه كان من الكثرة بحيث لا تأتى عليه يداه الكبيرتان مهما أنفق فى بذخ وإسراف .

* * *

وكان مستر دينجر يستعد للسفر فى عطلته السنوية المعتادة حينما تلقى خطاب لوئاردو الذى أرسله إليه مبلغاً إياه عزمه على إعادة السياج القديم الذى كان يحيط بمرج «الكوروثاليتو» ، وهو المرج الذى كانت ماشية ضيعة ألتاميرا تجتازه إلى القناة الملحة ذاهبة إلى غير رجعة .

ولم يقرأ الأمريكى الخطاب حتى صاح فى ضيق وغيظ :

- أوه ! ترى ما الذى يسعى إليه هذا الرجل ؟

ثم التفت إلى أنتونيو الذى حمل إليه رسالة سيده وقال له :

- اسمع يا أنتونيو . اذهب إلى الدكتور ، فقل له إن مستر دينجر قرأ خطابه ووعى ما فيه وإنه يقول مايلى : إن مستر دينجر مُصر على أنه يبقى مرج «الكوروثاليتو» مفتوحاً طليقاً كما ظل حتى الآن ، وإن له حقوقاً فى هذه الأرض تخول له منع الدكتور لوثاردو من إقامة أى سياج هناك .

ونقل أنتونيو رسالة الأمريكى إلى سيده ، ولكن هذا لم يقتنع بما ذكر ، فأثر أن يذهب بنفسه فى اليوم التالى لزيارة مستر دينجر فى داره حتى يفاوضه فى المسألة ويبحثها معه .

* * *

نباح الكلاب يتعالى فى حديقة مستر دينجر ، ولا تمضى لحظات حتى تطل من الدهليز صورة الأمريكى العملاق ، وهو يستقبل ضيفه فى حرارة وحفاوة بالغة :

- تقدم يا سيدى الدكتور ... تقدم . لقد كنت أعلم أنك قادم لزيارتى ، وإنى آسف كل الأسف لاضطرارى لإبلاغك أنه ليس من حقك أن تحيط مرج «الكوروثاليتو» بسياج ، ولكن تفضل ياسيدى أولاً بالمرور .

ثم قاد لوثاردو إلى قاعة بدت جدرانها مغطاة بنتاج ما كان يقتنصه من حيوان فى هوايته المفضلة : رء وس ظباء متشابكة القرون ، وجلود نمور وفهود ودببة من ذلك النوع الذى يعيش فى غابات النخيل ، ثم جلد تمساح هائل يحتل رقعة واسعة من أحد الجدران .

- تفضل بالجلوس يا سيدى الدكتور ، ولا تخف ، فإن فهدى الصغير يقبع الآن فى قفصه .

ثم دنا من المنضدة التى وضعت عليها زجاجة «ويسكى» واستطرد :

- لنتناول معاً كأسين من شراب الصباح !

وأجاب سانتوس معتذراً عن رفضه لمجاملة مضيفه :

- شكراً فلست متعوداً على الشراب .

- أوه ! لا تجب طلبى بالرفض يا سيدى الدكتور ، إننى سعيد لرؤيتك فى بيتى ، وأريد أن تتفضل على بمشاركتى فى الكأس .

واضطر سانتوس تحت إلحاح الأمريكى إلى تناول كأس ، ثم دخل فى الموضوع مباشرة فقال :

- أظن أنك يا مستر دينجر غير محق فيما تراه حول حدود ضيعة «الباركيرينيا».

وأجاب الأجنبى :

- لا ياسيدى ، فأنا لا أخطئ أبداً فى شىء مما أقول ؛ فإن لدى خريطة للمكان تثبت صحة كلامى . اسمح لى بالخروج لحظة .

ثم خرج إلى غرفة مجاورة ولم يغب إلا لحظة ثم عاد ومعه عدة أوراق حفظها فى جيبه ، وتناول من بينها ورقة كبيرة مطوية ، فعمل على نشرها أمام ناظرى سانتوس وهو يقول مشيراً عليها بإصبعه :

- ها هو ذا ياسيدى الدكتور ... فأنت ترى أن مرج «الكوروثاليتو» و «مرج البلوط السفلى» داخلان فى حوزة ما أملك من أرض ، ولك أن تتأمل ذلك بعينيك .

أما الخريطة فقد كان من الواضح أنها من رسم مستر دينجر نفسه ، وكان المرجان اللذان أشار إليهما يبدو أن عليها كما لو كانا فعلاً داخلين في حدود ضيعة «الباركيرينيا» . وأخذ سانتوس الخريطة بين يديه تأدباً ، ثم ألقى عليها نظرة سريعة وقال :

- اسمح لى أن أقول لك إن هذه الخريطة لا تعتبر حجة قاطعة كافية ؛ إذ ينبغي أن تقابل على عقود الملكية الخاصة بضيعة «الباركيرينيا» وبضيعة ألتاميرا التى لم آت بها الآن معى إليك ، وأنا آسف لذلك .

وأجاب الأمريكى محتجاً والابتسامة مازالت مرتسمة على شفثيه :

- أوه ! هذا أمر سيئ ! أظن الدكتور أننى أرسم على السورق أشياء لا وجود لها إلا فى خيالى ؟ إننى لا أقول كلمة واحدة إلا إذا كنت متبثناً منها كل التثبت .

- ما كان لك ياسيدى أن تؤوّل كلماتى مثل هذا التأويل ، فكل ما أقوله هو أن هذه الخريطة ليست حجة كافية ، ولست أنكر أنه قد يكون لديك من الوثائق ما يمكن أن يعتبر دليلاً أقوى وأوضح . ومادمت تسعى إلى إطلاعى على ما تقول إنك واثق من صحته فإنى أرجوك أن ترينى ما قد يكون لديك من وثائق أخرى .

وبقى مستر دينجر صامتاً متشاغلاً بالنظر إلى الدخان المتصاعد من «بيته» دون أن يولى محدثه كثيراً من الاهتمام ، فبدأ الضيق على وجه سانتوس ، وأضاف بلهجة أكثر شدة وحزماً :

- وإنى لأذكرك بأننى لم آت لمناقشة هذه المسألة معك إلا بعد أن درستها بعناية ودقة مقابلاً ذلك على عقود ملكيتى ، واسمح لى بأن أقول لك إننى واثق تماماً من كل ما أقول إذ أؤكد لك أن مرج «الكورو ثاليتو» و «مرج البلوط

السفلى» داخلان فى ضيعة ألتاميرا ، ولهذا فإن حقى فى تسوير ذلك المرج واضح لا خفاء به ولا نزاع فيه ، بل إنى أذكرك بأن ذلك السياج الذى أنوى إقامته ليس شيئاً جديداً مستحدثاً ، فقد كان قائماً فى زمن أبى منذ سنوات قليلة ، وما زالت الحفر التى دقت فى مكانها أعمدة ذلك السياج بادية الآثار حتى اليوم .

فقال مستر دينجر :

- فى زمن أيبك !.. فى زمن أيبك !.. إننى لا أريد أن أضطـرـر لمواجهتك بأنك لا تعرف ما تقول ؛ إذ تؤكد أن حقوقك فى ذلك المكان ما زالت قائمة .

واحتمل سانتوس على مضض ما اتسمت به لهجة الأمريكى من استخفاف وتهكم ، ثم عاد يسأله :

- أتراك تعتقد إذن أن حقوقى هذه قد سقطت وأصبحت كأن لم تكن ؟

فأجاب الأمريكى فى ضجر وتلملل :

- أوه ! إننى لا أريد أن أواصل هذا الحوار الذى لا طائل من ورائه ، فما كنت ممن يلقون الكلام على عواهنه .

وأضاف وهو يخرج من جيبه ما كان قد احتفظ به من أوراق :

- ... إذ إن كل ما أقول مثبت فى هذه الأوراق ، ولك أن تطلع عليها . ويسعدنى أن تقتنع بنفسك مما ستراه بأنه لم يعد من حقلك أن تقيم أى سياج فى هذه الناحية .

قال ذلك وهو يضع بين يدى سانتوس وثيقة عليها توقيع لورنشو باركيرو وواحد ممن كانوا يضطلعون بإدارة ضيعة ألتاميرا بعد وفاة خوسيه لوئاردو والد

سانتوس ، وقرأ سانتوس الوثيقة فإذا بها عقد مبايعة ينص على أن مرج «الكوروثالينو» و «مرج البلوط السلفى» قد آل ملكها بالشراء إلى صاحب «الباركيرينيا» ، وإذا فى الوثيقة نفسها أن صاحب التاميرا يتعهد بألا يقيم فى الناحيتين أى سياج ولا بناء يترتب عليه الحيلولة بين الماشية وبين الرعى طليقة حرة فى أنحاء ذلك المكان .

وكان من الواضح أن الهدف من هذه الوثيقة ومن ذلك الشرط الذى ارتبط به صاحب ضيعة التاميرا هو ألا يقف أى عائق بين ماشية هذه الضيعة والتوغل فى أرض الضياع المجاورة ، وكثيراً ما كانت تفعل طلباً لتلك القناة الجافة التى كانت الماشية تنال عليها لتلحق تربتها الملحة ، وهو ما كان يؤدى إلى وقوعها غنيمة باردة فى أيدى من يعن لهم السطو عليها من أمثال مستر دينجر ، ولكن سانتوس رأى نفسه أمام حجة لم يكن يقدر لها حساباً ، فقد كان يجهل وجود تلك الوثيقة وما تضمنته من تعهد. ومن يدرى ؟ فلعل لدى خصومه الآن كثيراً من أمثال تلك الوثائق التى اقتطعت بها أجزاء من أرضه، والتى اغتنى منها أولئك الوكلاء الخونة المرتشون ذوو «الذمم الواسعة» ممن تعاقبوا على إدارة أعماله ! فهو يرى الآن أن عقد البيع الذى أراه مستر دينجر إياه لم يحتفظ بأى صورة منه فيما بين يديه من أوراق ووثائق .

ولم يكن هناك مجال للتشكيك فى هذه الوثيقة ، فقد رأى عليها من أختام التسجيل والتوثيق ما يدفع كل شبهة فى زيفها ، ولهذا فإنه لم يتمالك شعور الخجل والاستخذاء يغزو نفسه ، فقد ثبت له الآن أنه لا مناص من الاعتراف بجهله حقيقة الموقف فى التاميرا .

ولم يكتف مستر دينجر بتلك الوثيقة التى تثبت سقوط حق لوثاردو فى ملكية تلك الأرض ، بل إنه شفعها بوثيقة أخرى هى عقد شراء مبرم بينه وبين لورنشو باركيرو ، وفيه يشهد هذا الأخير بأنه باع للأمريكى المروج المحيطة

بالقناة الملحة . على أن سانتوس تأمل توقيع لورنثو باركيرو فرآه مكتوباً بخط متعرج غير متجانس حتى إنه لا يكاد يقرأ كما لو كانت قد خطته يد أمي أخذوا بيده لكي يكتب غير ما يعرف . وتراءى لسانتوس وهو يفحص ذلك التوقيع أن لديه دليلاً عملياً على سوء النية من جانب الأمريكي حينما حمل الرجل على توقيع تلك الوثيقة دون أن يعرف ما تضمنته متهمزاً فرصة تلك الغيبوبة المستمرة التي كان المسكين مخلداً إليها في سكره الذي لم يكن يستفيق منه ، ورأى سانتوس أنه ليس من العسير عليه أن يثبت أن ذلك البيع لم يكن إلا ضرباً من ضروب الاغتصاب ، وأنه من نوع تلك البيوع الصورية التي برعت السيدة باربارا من قبل في حمل ذلك الشقى على توقيعها .

وأقبل سانتوس على نفسه يحدثها وهو ما يزال ينعم النظر في ذلك التوقيع الذي كتب بحروف لا تكاد تقرأ :

- إن الأمر أكثر تعقيداً مما تصورت ؛ فلا بأس الآن بأن أنسى ما قدمت لأجله أولاً . لقد أتيت وفي خاطري أن أنصب نفسي مدافعاً عن الحقوق المهضومة ، غير أنه لم يخطر ببالى حتى الآن أن أبحث فيما إذا كان من الممكن الدفاع عن حقوق ذلك الرجل المسكين . وإنى لأرى الآن أن أمثال هذه البيوع الصورية قد يكون عليها من الشبهات ما يمكن أن أتخذه ثغرة أنفذ منها إلى مطالبة القضاء بإلغائها والحكم ببطالانها .

أما مستر دينجر فقد كان في هذه الأثناء قد نهض من مقعده ، واتجه إلى المنضدة ، ثم أفرغ على الكأسين من زجاجة الويسكى ما ملأهما ، وكأنه كان يريد الاحتفال بانتصاره على ذلك الجار الذي جاء يطالب بحقوق لم يعد لها من أثر ، كان التشفى والفرح المزهو يملآن نفسه ويحدوان به إلى إذلال ذلك الرجل الذي خلقه الله من طبقة بشرية أدنى من طبقته ، والذي أتى مع ذلك مجترئاً على أن يناقش الأمريكي «حقوقه» .

- كأساً أخرى يا دكتور ؟

ولكن سانتوس نهض مصوباً إليه نظرة تنم عن الكرامة الجريئة ، على أن الأمريكي لم يول ذلك أدنى اهتمام ، واستمر يصب الخمر في الكأسين في هدوء .

وأعاد لوئاردو إليه وثائقه وهو يقول :

- لقد كنت أجهل ما أطلعتني عليه الآن من أمر ييسع مرجى «الكوروثاليتو» و «البلوط السفلى» ، ولو أنني كنت على علم بذلك لما كلفت نفسي عناء إزعاجك مطالباً إياك بما ليس من حقي ؛ فأرجو أن تقبل عذري عن ذلك .

- ليس للأمر أهمية يا سيدى الدكتور ، فلا تزعج نفسك به ، فقد كنت على يقين من أنك كنت تتكلم دون معرفة كافية بتلك القضية . والآن لنعقد حبل السلام ، ولنتناول من أجل ذلك معاً قليلاً من الويسكى ؛ فأنا أريد أن أكون صديقاً لك ، والويسكى هو خير شيء لتوثيق الروابط بين الأصدقاء .

وتماسك لوئاردو ضابطاً لأعصابه حيال هذه الكلمات التى كانت أشبه بالتحدى منها إلى الدعوة ، ثم أجاب :

- يؤسفنى ألا أستطيع تلبية هذه الدعوة !

وأدرك مستر دينجر أن لوئاردو لم يعتذر عن عدم قبول تلك الكأس فحسب ، بل كانت كلماته تعنى رفضه لتلك الصداقة التى عرضها عليه الأمريكي ، وانصرف لوئاردو ، أما مستر دينجر فقد أتبعه ببصره وهو يقول :

- يا لأشباه الرجال هؤلاء ! ما أكثر ما يخوضون فيما لا علم لهم به !

* * *

أما سانتوس فقد اتخذ سبيله إلى التاميرا ، على أنه أثر أن يعرج في طريقه على دار لورنثو باركيرو ؛ إذ أراد أن يغتنم الفرصة لكي يستفسره عن تفاصيل الخبر في فقدته لملكية ما كان قد بقى له من ضيعة «الباركيريينا» .

وكان لورنثو باركيرو مستلقياً على سريره القذر مستغرقاً في نوم عميق من جراء سكرة البارحة بلاشك ، وقد انطلق من حنجرتة شخير أشبه ما يكون بأنات من يعانى سكرات الموت ، وتهدل من شفثيه المنفرجتين لعاب لزج . وتأمله سانتوس لحظات ناظراً إلى وجهه الذى كانت ترسم عليه علامات الاحتضار بادية من تحت ذلك النوم العميق الذى يتركه التسمم بفعل الكحول على معالم المخمور . وانزعج سانتوس لذلك المنظر ، فاقترب من الرجل وأمسك بذراعه المتدلية من السرير ليتحسس نبضه ، فأحس بخفقات الدم العنيفة وهى تتردد فى شرايينه كأنها دقات مطرقة . وظل سانتوس برهة يرمقه بنظرات عطف ورثاء ، وهو يحدث نفسه قائلاً :

- إن هذا التعس لم يبق من عمره فى عالم الأحياء إلا القليل . ولكن هذا لا يمنع أن نحاول شيئاً من أجله .

وكان إلى جوار السرير وعاء خشبى قد وضعت فيه قرعة مجففة ، وكوب ضخمة وملعقة كلاهما من الخشب ، وكان من الواضح أن لورنثو لم يكن يحتاج إلى مجهود كبير لكي يحتسى ما شاء من شراب ؛ إذ لم يكن عليه إلا أن يمد ذراعه إلى الأرض لكي يملأ كأسه ، وكان من البين أن الرجل قد شرب ما كان أودعه القرعة المجففة من الخمر ملقياً إياه فى جوفه جرعة جرعة كما اعتاد المخمورون هناك أن يفعلوا إذا عزموا على سكرة هائلة .

واستجمع لوئاردو قواه ، ثم ألقى بالوعاء إلى خارج الغرفة بضربة قوية بقدمه ، وأمسك بالإبريق الموضوع على المنضدة وكان ما يزال يحتوى على قدر

كبير من تلك الخمر الرخيصة القوية ، وقذف به إلى خارج الدار ، ثم هم بإيقاظ لورنثو ، ولكنه رأى قلة جدوى ذلك وهو فى مثل هذه الحال ، فآثر المضى فى طريقه ، ولكنه لم يكد يعزم على الخروج حتى فوجئ بجسد الأمريكى الفارع الضخم يسد عليه الباب ، وعلى وجهه الأحمر تلك الابتسامة الكبيرة التى لم تكن تفارق شفثيه .

وتظاهر مستر دينجر بالدهشة لالتقائه بلوثاردو هناك ، ولكن هذا فطن على الفور إلى أن الأمريكى كان يتبع خطواته ، فلم يحاول أن يخفى شعوره بالامتعاض والضيق .

وأوما الأمريكى برأسه إلى لورنثو وهو متوجه بالخطاب إلى سانتوس :
- مخمور ... أليس كذلك ؟ لابد أنه قد ابتلع كل ما بعثت به إليه أمس من خمر .

وأجاب سانتوس :

- ليس من حسن الصنيع أن تبعث بالشراب إلى هذا الرجل .

- إن هذا الرجل لا شفاء له ياسيدى الدكتور ، فدعه يمض إلى مصيره المحتوم الذى لا مفر منه . إنه هو نفسه لا يريد الحياة ، أتعرف أنه مازال يحب باربارا الجميلة؟ ... نعم ، يحبها بعنف وجنون ، وهو يشرب ويشرب حتى يستطيع السلو عنها . وطالما قلت له : « يا لورنثو ، إنك تقتل نفسك قليلاً قليلاً ! » ، ولكنه لا يريد أن يلقي بالآ إلى ما أقول ، حتى إن الكأس لا تفارق شفثيه لحظة واحدة !

واقترب مستر دينجر من السرير المتأرجح الذى تمدد فيه لورنثو ، فأمسك بعضادتيه ، وأقبل يهزه هزاً عنيفاً وهو يصيح به :

- إيه !... ياسيد لورنثو ! انهض من نومك ، فإن صديقاً لك قد قدم لزيارتك . حتى متى ستظل فى هذا الشخير وأنت قابع فى سريرك ؟ انهض فقد أتى الدكتور لوئاردو لتحييتك .

فقال سانتوس وهو يهم بالانصراف :

- من الخير أن تدعه مخلداً إلى نومه .

أما لورنثو فقد فتح جفنيه فى بطاء وهو يتمتم بكلمات لا تستبين ، بينما أهوى الأمريكى بيده الكبيرة على وجهه فى نظرف متوحش وهو يطلق قهقهة عالية ويقول :

- يا لها من سكرة جبارة تلك التى استولت عليك يا ولد !

وعاد مستر دينجر وهو يتضحك مقبلاً بوجهه على سانتوس ، ثم ظل لحظة ينظر عبر باب الدار المطل على مرج النخيل ، ولكنه لم يلبث فجأة أن قوس قامته وقلص جسده وشد أصابعه كأنه يهم بأن ينشب أظفاره فى عدو متوثب عليه ، وانفجرت شفتاه عن أسنانه ، وأطلق من حنجرته صوتاً أشبه بزئير وحش ، وبدا الرجل كما لو كان يقلد حركات ذلك الفهد الصغير الذى اعتاد ملاعبته وموائبته .

وارتسمت علائم الدهشة على وجه سانتوس من حركات الأمريكى المفاجئة وأقبل يسائل نفسه : « ترى ما الذى حل بهذا الرجل ؟ » ، بينما أطلق هذا ضحكته القاصفة وهو يشرح لسانتوس سر تلك الحركات :

- إنها الفتاة قد أقبلت ... ماريسيلا ... يا له من اسم يبدو كما لو كان اسم إحدى الرقصات الشعبية هنا !

والتفت سانتوس وراءه ، فإذا بها ماريسيلا مقبلة وعلى رأسها حزمة من الحطب ، تمامًا كما رآها في أول يوم التقى بها فيه ، ولكنها بدت لسانتوس كما لو أصبحت شخصاً آخر ، فهي لم تعد تلك الصبية القذرة المشعثة التي لا يستر جسدها إلا يسير من الخرق والهلاهيل ، بل هي تلبس الآن ثوباً جديداً نظيفاً كان سانتوس قد بعث به إليها بعد أن كلف بخياطته إحدى حفيدات مليسيو ساندوفال ، وكل شيء في مظهرها يدل على النظافة ، بل هو يتجاوز ذلك إلى قدر من الأناقة والتجمل على الرغم من جو البؤس والفقر الذي كان ما يزال محيطاً بها . واغتنب سانتوس وهو يرى هذا التغير الذي لم يكن إلا ثمرة بضعة كلمات تبادلهما مع الصبية في أول لقاء جمع بينهما . وفي هذه اللحظة فقط تنبه إلى شيء آخر لم يكن قد لاحظته من قبل عند دخوله إلى دار لورنثو باركيرو : وهو أن الدار نفسها لم تعد ذلك الكوخ القذر الذي تبعث منه روائح منتنة كريهة ، فهو يرى أرضها الآن وقد كنست بعناية ، وإذا كان البؤس مازال هو الطابع الغالب على البيت كما كان ؛ فإنه قد تحول إلى مكان نظيف يصلح لسكنى الآدميين بعد أن كان أشبه بوكر من أوكار الوحوش .

أما مستر دينجر فقد واصل حديثه لسانتوس :

- إنها الآن جديرة بأن تدعى «الآنسة ماريسيلا» ، ولكنها مازالت نفورة شكسة الطباع كأنها فهدة !

ثم اتجه إلى الفتاة فقال لها وهو يحرك في وجهها سبابته في وعيد :

- لقد أدميت جسدي بالأمس بما تركته آثار أظفارك !

وأجابت ماريسيلا مزمجرة .

- واه ! ... وما الذي دفعك إلى مد يديك على ؟

وتضاحك الأمريكى وهو يقول لسانتوس :

- إنها كثيراً ما تغضب منى وتهتاج على حينما أقول لها إننى اشتريتك من أبيك، وحينما يموت فإنى سأحملك معى ، وذلك لأن فى بيتى فهذا ذكراً ، وأنا أريد أن أضم إليه أنثى من جنسه حتى يملأ على الدار فهوذاً صغاراً .

وعاد مستر دينجر إلى إطلاق قهقهاته المدوية معلقاً بها على «حسن نادرته» الغليظة ، بينما كانت ماري سيلا تزمجر بكلمات تدل على الغيظ والحق . أما سانتوس فقد أدرك ما تتعرض له الصبية من خطر فى ظل حماية هذا الرجل الذى ليس للرحمة سبيل إلى قلبه ، وتأجج فى نفسه شعور من الكراهية والعداوة لذلك الدخيل المستهتر .

ولم يستطع سانتوس تمالك نفسه إزاء استخفاف الأجنبى ومعايباته الفظة ، فصاح به فى غضب :

- إن هذا أكثر مما أستطيع أن أتحمل ! فأنت أولاً تسكر الرجل المسكين لكى تنتزع منه كل أملاكه وتحرم ابنته من حقوقها المشروعة ، ثم لا تكتفى بذلك بل تعاملها معاملة خالية من أدنى فروض الذوق واللياقة !

وجمدت الضحكات على شفتى الأمريكى على الفور ، وامتنع وجهه ، وأظلم لون عينيه الأزرق ، ولكنه تمالك نفسه وقال دون أن يغير الغضب من نبرات صوته :

- أمر سيىء ! أمر سيىء أنك تريد أن تصبح عدواً لى ، مع أننى أستطيع أن أمنعك من وطء هذه الأرض التى تنصب عليها عودك الآن . إن لى حقوقاً تخول لى منعك ... أتعرف ذلك ؟

- وأنا أعرف عن أى طريق نلت هذه الحقوق .

ووقف الأمريكى يفكر لحظة ، ثم أعرض عن سانتوس ، واشتغل بإخراج بيته وملئها بالتبغ ، وأقبل عليها متشاغلاً بإشعالها بعود ثقاب ، وبينما هو يعالج ذلك بيديه الكبيرتين اللتين يغطيهما شعر كثيف وينفث الدخان من فمه ومنخرية توجه بالخطاب إلى سانتوس قائلاً :

- إنك لا تعرف شيئاً أيها الفتى ! إنك لا تعرف ولا حتى مالك من حقوق !.

وانصرف الأمريكى ووقع قدميه العريضتين يترك على الأرض الجامدة اليابسة وقعاً رتيباً عالياً بدا فى سمع لوئاردو كما لو كان قعقة سلاح يحمله جندى فاتح محتل أرض لم يحسن أهلها الدفاع عنها ، وشعر سانتوس وهو يتأمل بالغضب يتحول فى نفسه إلى خجل وإحساس بالعار ، ولكنه تمالك نفسه ولاحقه بقوله :

- عما قريب سترى ما إذا كنت أعرف حقوقى وأحسن الدفاع عنها !

واستقر فى نفسه منذ هذه اللحظة العزم على استنقاذ لورنثو وابنته وحملهما إلى داره حتى يتيح لهما الخلاص من ربقة الذل التى تعنيها حياتهما فى ظل الأجنبى ...

القِسْمُ الثَّانِي

الفصل الأول حادثة فريد

كان تصرفاً ماكرًا خبيثًا هو ذلك الذي اصطنعتة السيدة باربارا حينما تلقت رسالة لوثراردو التي أبلغها فيها أنه عازم على إحاطة ضيعة ألتاميرا بسياج ثابت ، والواقع أنه لم يكن يسوء المرأة شيء بقدر ذلك الخبر الذي يعلن إليها مثل هذا القرار من إقامة حدود فاصلة بين أرضها وأرض جيرانها ؛ مما قد يترتب عليه الحد من مطامعها التي لا تنتهى فى اغتصاب ما ليس من أملاكها ، على أن هذه المرأة الطموحة كانت كثيراً ما تصطنع أمام الناس القناعة ، فتقول إذا سمعت أحداً يتحدث عن رغبتها فى مزيد من الأرض :

- إننى لفى غاية الدهشة مما تلوكة عنى ألسنة السوء ؛ إذ تتحدث عما يسمونه رغبتى فى مد رقعة أرضى ! فالحقيقة أنه يكفينى أن أكون مالكة لقطعة يسيرة من الأرض ...

ثم تضيف فى تخابث :

- ... قطعة تكفينى لكى أكون فى وسط أملاكى أينما وقفت !

ولم تكذب باربارا تقرأ خطاب لوثراردو حتى صاحت وقد اكتسى وجهها قناع الطيبة والبساطة :

- الحمد لله ! أخيراً ستنتهى المنازعات والمشكلات من أجل تلك الحدود الفاصلة بين ضيعتى وألتاميرا ، بعد أن كلفنا ذلك كثيراً من العناء لا مبرر له ! قد قرر الدكتور لوثراردو إحاطة أرضه بسياج ، وبهذا ستجنب كل خلاف

أو سوء فهم . هذا هو عين الصواب . نعم ... عين الصواب ! وهكذا سيعرف كل منا حدود أرضه ، ويتحقق قول المثل : « كل واحد منا فى داره ، والله فى دور الجميع يشملهم برحمته » . هكذا ينبغى أن يكون . لقد طالما كنت أفكر فى إقامة هذا السياج الثابت من قبل ، ولكنى لم أستطع تحقيق تلك الأمنية ؛ لأنها تقتضى كثيراً من النفقات . أما الدكتور فإنه قادر على ذلك ؛ إذ إن لديه من المال ما يسمح له به ، وهو يحسن صنعاً إذ ينفق فى إقامة ذلك السياج قليلاً من ماله .

وكان بالينو باييا قد أسرع للمشول بين يدي السيدة باربارا منذ أن سمع بخبر تلك الرسالة التى بعث بها سانتوس لوثاردو إليها ، فقد كان يخشى أن تكون متعلقة به هو ، ولم يسمع الرجل كلمات سيدته حتى أقبل يردد النظر إلى وجهها فى دهشة دون أن يخطر بباله أنها حيلة اصطنعتها المرأة الداهية لكى تموه بها على أنتونيو ساندوفال الذى حمل إليها رسالة سيده ووقف ينتظر جوابها . وكانت باربارا تريد أن ينقل الرسول إلى لوثاردو كلمتها التى تعبر عن ترحيبها بفكرته وموافقتها عليها .

غير أن أنتونيو كان كثيراً ما يسمع أن هذه المرأة لم تكن تصطنع مثل هذا الأسلوب الرقيق الوديع إلا إذا كانت تبيتُ أمراً له ما وراءه ، فراح يخاطب نفسه قائلاً :

- إنها أخطر ما تكون فى مثل هذه اللحظة !

أما باربارا فقد ختمت كلامها متوجهة إلى رسول لوثاردو وهى تقول له :

- أبلغ الدكتور لوثاردو أننى قد علمت ما تفضل بإنهائه إلىّ ، وأننى موافقة على ما اقترح ، أما ما ذكره من اشتراكنا مناصفة فى نفقات إقامة ذلك السياج الفاصل فإنى آسفة لعجزى عن دفع نصيبى منها الآن . فإذا كان متعجلاً

لذلك - وإنى أراه من أولى العزم الذين لا يشرعون فى شىء إلا أتموه -
فليعمل منذ هذه اللحظة على إقامة سياجه ، وسيتم بيننا التفاهم على هذه
المسألة بعد ، فما كنا لنختلف أو نتنازع على أمر تافه مثل هذا .

ولكن أنتونيو عاد إلى مساءلتها :

- وما رأى السيدة فيما طلب الدكتور الجواب عنه حول مسألة تمييز ماشيته
من ماشيتكم والفصل بينهما حتى يعرف كل ما له وما عليه ؟

- آه ... لقد فاتنى أن أذكر أنه تحدث عن هذا أيضاً . أبلغه إذن أن مروج
ضيعتى لا تسمح فى الوقت الراهن بالبدا فى ذلك العمل . ولكن ليطمئن ،
فإنى سوف أعلمه بإمكانه الشروع فيه بمجرد تهيؤ أرضى له . وعلى أية حال
فإن بوسعه الآن أن يدق أوتاد الحدود الفاصلة ؛ إذ إن ذلك سيقضى منه بعض
الوقت ، وفى أثناء ذلك سيستعد كل لإخراج ماشية جاره من أرضه . قل له
ذلك واقراً عليه خالص سلامى وتحيتى .

وانصرف أنتونيو حاملاً الرسالة إلى سيده ، ولم يكذب بعد حتى توجه
بالينو بابيا بالخطاب إلى المرأة ، معبراً لها عما قد اختمر فى رأسه من أفكار
يملئها الشر وسوء الطوية :

- إن الذى أفترضه هو أن الدكتور لوئاردو لن يتاح له الوقت الكافى
لإقامة ذلك السياج الفاصل .

فأجابته باربارا بينما كانت تطوى رسالة سانتوس لوئاردو وتودعها
مظروفها من جديد :

- ولماذا ؟ إن إقامة السياج لا تقتضى إلا عدة أسابيع لا أكثر ، هذا إلا إذا
خطر له أن يخطئ فى دق الأوتاد فيقتحم بها أرضاً داخلية فى حدود أرضى !

ثم استطردت وقد استعاد صوتها نبرته الطبيعية بغير سخرية ولا تهكم ؛
إذ لم يعد هناك ما يدعو إلى ذلك :

- اذهب الآن فائتنى بالإخوة «الموندراجونس» .

* * *

وفى اليوم التالى بدت الأوتاد الفاصلة بين الضيعتين وقد تحولت عن مكانها الأخير من جديد ، كما تحولت معها دار «الماكانيال» التى كانت أهم معالم الحدود الفاصلة كما نص عليها ذلك الحكم القضائى المبهم الذى أصدرته المحكمة حول هذه المسألة ، وكان مثل هذا التغيير فى الحدود أمراً جرت عليه السيدة باربارا كلما أرادت أن تقتطع من أرض جارها قطعة ، ولكن الجديد الغريب هو أن الحدود لم تنتقل هذه المرة إلى داخل ضيعة ألتاميرا كما كان يحدث من قبل ، بل فى الاتجاه المضاد مقتطعة شريطاً عريضاً من الأرض الداخلة فى حدود ضيعتها هى كما نص عليها الحكم القضائى الأخير .

وكان هدف السيدة باربارا من ذلك هو أن يقع لوثاردو فى الشرك المنصوب له ، فيقيم سياجه حيث تقوم الأوتاد التى أمرت جارتها الماكرة بنصبها متخذاً دليلاً فى إقامة الحدود منزل «الماكانيال» الذى نص عليه القضاء ، فإذا فرغ من ذلك قامت المرأة بشكواه واتهامه أمام القضاء بأنه هو الذى تلاعب وغالط فى الحدود الفاصلة محولاً ذلك المنزل عن مكانه الأول بعد أن اغتنم فرصة غياب الإخوة الثلاثة «الموندراجونس» الذين كانوا هم القاطنين الوحيدين لتلك الدار فى ذلك الموضع المهجور .

هكذا كانت خطة السيدة باربارا كما شرحتها لبالينو باييا ، ولم يسع الرجل عندئذ إلا الاعتراف بدهاء المرأة وهو الذى لم يكن يعترف لأحد بفضل مهما كان :

- لم يبق موضع لكلمة واحدة ! يالها من امرأة ! إنها ترى الدودة حيث لا يرى الرجل منا الثور ! ولست أعرف ما إذا كان هذا بفضل نصائح «الشريك» الذى تخلو به، ولكن الثابت هو أن كيدها شديد وخطتها محكمة بعيدة الغور !

ولكن الحقيقة كانت بعيدة عما توهمه بالينو باييا ؛ إذ لم يكن أمر السيدة باربارا رجالها بأن يغيروا مواضع الحدود فى هذه المرة - ولا فى المرة السابقة التى عادوا فيها بتلك الحدود إلى حيث نص القضاء - ثمرة لخطه أحكمت تقديرها من قبل ، فهى لم يكن يخطر ببالها أبداً أن يفكر لوئاردو فى مسألة الفصل بين حدود الضيعتين ، ولكن المرأة رأت فى ذلك شركاً قد يكون صالحاً لكى يتورط فيه جارها ، فانخدعت هى نفسها فيما كانت تدخله فى روع رجالها مما يظنونه تدابير تقوم على المكر والدهاء ، ومشاريع تحكم هى حوكها لتفوت على خصومها أهدافهم بفضل ما كان يشير به عليها ذلك «الشريك» الشيطانى الذى يمدّها بالقوة والعون ، لم يكن الأمر إلا نوازع تخطر لها دون أن تربط بينها روابط «خطة محكمة» ، ولكن النجاح كان يحالفها دائماً فى كل ما تقوم به - أو هكذا كانت تعتقد - ، فيظن من حولها أن فضل ذلك إنما يعود إلى بعد غورها ونفاذ بصرها فى الأمور . والواقع أن خبث هذه المرأة كان من ذلك النوع الساذج الذى لا يعرف رسم «خطة» حقيقية بمعنى الكلمة ، ولكن مهارتها كانت تقوم على استغلال كل ضربة موفقة تسوقها إليها غريزتها الشريرة حتى يستقر فى أذهان الملتفين حولها أنها تستمد العون من قوى جبارة خارقة للعادة .

غير أن الظروف فى هذه المرة لم تهرع إلى نجاتها كما كان يحدث فى المرات السابقة ، فقد أخذ سانتوس حذره منذ أن أوجس له تابعه ورسوله أنتونيو بشكوكه وريبه حول ما لاحظته من لهجتها الناعمة الوديدة وما تستبطنه

من سوء الطوية وخبث السريرة ، ثم إن الدرس الذى تلقاه لوئاردو على يد مستر دينجر كان عظة له وعبرة ، ولهذا فإنه أقبل على التروى فى أمره ، فدرس حدود أرضه بعناية، وأخيراً أمر بإلقاء أوتاد السياج حيث كان ينبغى أن توضع ، ولم يتسرع بدقها حيث أوحى له جارتة وغريمته أن يفعل . وكان ذلك مفاجأة سيئة لها ؛ إذ كانت تقدر أنه سيقع فى الشرك المنصوب له ، ولهذا فإنها لم تكذب ترى تصرف لوئاردو حتى بدأ يساورها إحساس غامض بأن شيئاً جديداً لا تتوقعه قد بدرت بوادره منذ هذه اللحظة .

ولكن الغرور كان ما يزال يملأ قلبها على الرغم من ذلك ، ولم يزدها فشلها الأخير إلا لجأجا ونزوعاً إلى العنف الصريح ، فلم تر بأساً بالتصريح بذلك حينما أوفد إليها لوئاردو بعد ذلك بأيام رسولا يطالبها بأن تنفذ ما وعدت به من استخراج ماشيته السارحة فى أرضها ؛ إذ لم تتردد فى مواجهته بأنها ترفض ذلك رفضاً باتاً قاطعاً .

وانطلق أنتونيو إلى سيده يقول له فى تعريض :

- والآن أظنك ياسيدى الدكتور سترد لها جزاء من نوع العمل . إن من حقك الآن أن تقيم السياج الفاصل دون أن تخرج إليها ماشيتها التى ترعى فى أراضيك ... أليس كذلك ؟

- لا ... بل سأستنفد قبل ذلك كل وسيلة مشروعة ، سأقوم بتقديم شكوى إلى السلطة المختصة حتى ترغمها على تنفيذ ما يأمر به القانون ، وسأطلب من إدارة الحكم المدنى هنا أن تجمعنى بها وبالسيد دينجر لنتناقش الأمر ، فلعلنا نوفق إلى تسوية من الناحيتين .

- وهل تظن أن «السيد بيرنالىتى» سيلقى بالاً إلى ما تقول ؟

وكان أنتونيو يشير باعتراضه هذا إلى الحاكم المدني ورئيس الحكومة المحلية فى المنطقة التى تخضع لها ضيعة سانتوس وباربارا ، ثم واصل كلامه قائلاً :

- إن الجميع هنا يعرفون أن بيرنالبى والسيدة باربارا ليسا إلا إصبعاً واحداً هى لحمه وعظمه وهو ظفـره كما يقولون .

- على أية حال لنر أولاً ما إذا كان ممتنعاً عن إقرار العدالة والحكم بالسوية .

وفى اليوم التالى توجه سانتوس لوئاردو إلى البلد الذى استقرت فيه الحكومة المحلية باعتباره عاصمة المنطقة .

* * *

خرائب فى وسط الأدغال والأعشاب ، وآثار مبان تدل على أنها بقايا بلد كان فيما مضى من الزمان مدينة عامرة أهلة ، وبيوت ريفية بنيت من الطين وسعف النخيل تناثرت فى أنحاء المرج ، ثم مجموعة أخرى من البيوت قد تكومت حول طريق غير مرصوف ولا معبد ، وفيما بينها ميدان صغير قد امتدت فيه حشائش متسلقة تحت ظل عدة أشجار أرز هرمة لا يقل عمرها عن عدة مئات من السنين . وفى جانب من جوانب الميدان بقايا كنيسة ضخمة لم يتم بناؤها ، وتحول ما بنى منها إلى حطام وركام ، وكانت تبدو رغم ذلك أكبر بكثير مما يحتاج إليه سكان البلد فى صورته الراهنة ، ثم أخيراً بضعة بيوت قديمة متينة البناء ، إلا أن أكثرها مهجور ، وبعضها لا يعرف له صاحب ، وقد بدا أحد هذه البيوت وقد اعوج سقفه ، وتحطمت جدرانـه ، واستند إليه جذع شجرة ضخمة كان قد ألقى بها إعصار شديد منذ سنوات كثيرة ، أما أهل هذا البلد فقد كانوا يبدون بقية أسر انقرضت أو هاجر معظم أفرادها ، كان البلد

واحدة من تلك القرى الكثيرة التى تغص بها أرض فنزويلا ، والتى تعاونت الحروب والأوبئة وأمراض الملاريا والإنكلستوما وغيرها من الكوارث على أن تحيلها إلى خرائب وأكوام من الحطام .

هكذا كان ذلك البلد عاصمة المنطقة ومقر الحكومة المدنية فى الإقليم الذى كان مسرحاً لذلك النزاع الدامى الهائل المشتعل بين أسرتى لوئاردو وباركيرو منذ سنوات مضت .

واخترق سانتوس الطريق الرئيسى كله دون أن يلتقى بأحد ، وأخيراً رأى عدداً من الرجال واقفين فى مشرب على أحد جانبي الطريق . كانوا صامتين جامدين لا يتحركون وإن كان قد بدا عليهم أنهم ينتظرون وقوع شىء من لحظة إلى أخرى ... رجال قد انتفخت بطونهم وشحبت وجوههم الهزيلة المعروقة ، وتهذلت شواربهم ، وظهرت فى نظراتهم معالم الذبول والانكسار .

وتقدم إليهم سانتوس متسائلاً :

- أيتفضل أحدكم أن يدلنى على موضع الحكومة المدنية هنا ؟

وتطلع بعضهم إلى بعض كما لو كان ساءهم أن يخرجهم عن صمتهم ، وأخيراً بدأ أحدهم فى إرشاده إلى ما طلب ، وهو يتحدث فى صوت خافت كسير كأنه أنات جريح ، ثم إذا برجل خارج من المشرب يقف إزاءه ويصيح :

- لوئاردو ! ... سانتوس لوئاردو ! ... ما الذى أتى بك إلى هنا يافتى ؟

وأقبل الرجل عليه فاتحاً ذراعيه ، غير أنه توقف بعد أن رأى سانتوس ينظر إليه فى دهشة كأنه لا يعرفه .

- ألا تذكرنى ؟

- بصراحة ...

فقاطعه الرجل :

- تذكر يا فتى ... حاول التذكر ... «موخيكيتا الصغير» ! ألا تذكر موخيكيتا الذى كان زميل دراسة لك فى السنة الأولى من كلية الحقوق ؟
والحقيقة أن سانتوس لم يستطع تذكره ، ولكن كان من القسوة والجفاء أن يتركه فاتحاً ذراعيه وينكر معرفته إياه ، فقال مجارياً :

- وكيف لا ؟ الآن تذكرت ! ... موخيكيتا ... نعم .

وكان موخيكيتا - شأنه فى ذلك شأن الرجال المجتمعين فى المشرب - يلوح كما لو كان من جنس بشرى آخر يختلف عن ذلك الذى يقيم فى مروج السهول : رجال السهول أقوياء مرحون ، وهؤلاء ضعاف محطمون يبدو فى عيونهم الحزن والانقباض ، ويظهر فى وجوههم وأجسادهم ما تصبه الأمراض وسوء الغذاء عليهم من هزال وضعف . أما موخيكيتا فقد كان من أكثرهم إثارة للشفقة والرثاء ، كان شعره وشواربه وعيناه وبشرته تبدو كما لو نثر عليها ذلك التراب الأصفر الشاحب الذى يغطى شوارع البلد ، كان كل شىء فيه يجعله أشبه بهذه الشجرات المسكينة التى تحف جانبى الطريق ، حائلة غرباء لا يكاد أن يميز لها لون . ولم يكن ذلك راجعاً إلى قذارة جسد أو ملبس ، وإنما كان أشبه بصدأ ران على جسمه وروحه ، وذبول حط من قواه ، وشحوب كثيراً ما يورثه الناس هناك إدمانهم على الخمر الرديئة القوية . كان الانكسار والحزن الدليل يغلبان على موخيكيتا حتى فى العبارات التى أطلقها فى فرحته وسروره بقاء سانتوس ؛ إذ كان ينطق بها فى صوت كأنه حشرة مريض :

- نعم ياسانتوس ! زميلك فى الدراسة ! يالها من أيام تلك التى قضيناها فى رحاب الجامعة ! أتذكر «أورتولان» و «الدكتور أربانيخا» ؟ «موخيكيتا الصغير» هكذا كنتم تدعوننى آنذاك ، وهكذا يدعونى الأصدقاء حتى الآن .

لقد كنت خير طالب فى الفصل ، وكنت أكثرنا اجتهداً وعملاً بغير منازع .
إننى لم أنسك أبداً . أتذكر أنت حينما كنت تعيننى على استذكار دروس الفقه
الرومانى ونحن نذرع أروقة الجامعة ذهاباً وجيئة ؟ أتذكر تلك العبارة اللاتينية
التي كنا نسمعها دائماً فى دروس هذه المادة : «الأب هو ولى أمر العروس
حتى تتزوج» ؟ إن هذه الذكريات مازالت محفورة فى ذهنى كأنما كانت
بالأمس . ومع ذلك فقد كانت ذاكرتى عنيدة على دروس الفقه الرومانى ،
كثيراً ما كنت تغضب منى إذ تجتهد فى شرح ما استعصى عَلىَّ منها ثم ترى
جهودك فى ذلك قد ذهبت أدراج الرياح . آه ياسانتوس لوئاردو ، يالها من أيام !
إننى لأتخيلك الآن كما كنت فى ذلك الوقت وأنت تلقى علينا إحدى خطبك
الثائرة الرائعة التي كانت تملك علينا ألبابنا . من كان يظن بعد مرور هذا الزمن
أننى سأعود للالتقاء بك ؟ إنى أظنك قد أكملت دراستك وتخرجت الآن من
الجامعة . أليس كذلك ؟ وكيف لا ؟ وقد كنت خير طالب أنجبه فصلنا . وبعد ،
فما الذى جئت تبحث عنه هنا ؟

- مقر الحكومة المحلية .

- لقد تركته من ورائك . إنك لم تتنبه إليه لأن مكاتبه كانت مغلقة
الأبواب ، وذلك لأننى لم أقم بفتحها اليوم بسبب غياب الجنرال عن القرية ؛ إذ
إنه ذهب لتفقد بعض ضياعه . ولأذكر لك بهذه المناسبة أنك تتحدث إلى
سكرتير الحكومة المحلية المائل أمامك .

- إذن أنت تعمل فى هذه الإدارة ؟ إننى لسعيد بأننى عثرت عليك .

ثم قص عليه سانتوس الغرض من زيارته ، وبقي موخيكتنا مخلداً إلى
التفكير برهة ، ثم قال :

- لقد كان من حسن حظك أنك لم تلتق بالكولونيل أولاً ؛ إذ لو أنك
فعلت لكان مجهوداً ضائعاً لا طائل وراءه ، فهو صديق حميم للسيدة باربارا ،

أما عن علاقته بمستر دينجر فلعلك تعرف أن «المستر» - شأنه شأن أمثاله - يتمتع فى هذه الأرض بضمانات لا يعرفها أهلها . ولكنى سأعرف كيف أمهد لك الأمور ، وكيف لا أفعل ياسانتوس وقد كنا أصدقاء منذ سنوات طويلة ؟ سأوجه إلى السيدة باربارا وإلى مستر دينجر استدعيهما للمثول هنا باسم «الحاكم المدنى» رئيس إدارة الحكومة المحلية ، متظاهراً بأننى كنت أجهل ما بينك وبينهما ، فإذا قدما إلى هنا أسقط فى أيديهما ولم يبق بد من أن أجمعك بهما حتى تعرض شكواك كاملة .

- معنى ذلك إذن أنه لولا التقائى بك ...

- ... لوليت عن إدارة الحكومة المحلية خاوى الوفاض صفر اليدين . آه ياسانتوس لوثاردو ؟ إنك حديث عهد بالتخرج من الجامعة ، وأنت تظن أن المطالبة بالحقوق أمر سهل كما يبدو فى الكتب التى درسناها ! ولكن لا تقلق بالك على أية حال ، فقد وصلنا إلى أهم ما فى الموضوع ، وهو استدعاء السيدة باربارا ومستر دينجر إلى هنا حتى تعرض شكواك منهما . وسأغتنم أنا فرصة غياب الكولونيل ، فأصطنع الجهل بما بينكم من نزاع ، وأستدعيهما للمثول ، وسأقوم الآن ببعث رسول خاص إليهما يحثهما على الإسراع بالقدوم فى أجل أضربه لهما . أما أنت فابق هنا متستراً ؛ إذ يحسن ألا يراك أحد حتى لا يبلغ الكولونيل أنك قدمت أولاً ، وحتى أتجنب ما يمكن أن يحمله على مساءلتى قبل أن يراك .

- إذن ينبغى علىّ أن أظل حبيس غرفة الفندق ، هذا إذا كان فى هذه القرية فندق يمكن النزول فيه .

- نعم ، هو فندق صغير متواضع قد لا يليق بك ، ولكن ... لولا أنى أخشى أن يتنبه الجنرال إلى ما يربط بيننا من علاقة لألححت عليك فى أن تنزل فى بيتى .

- شكراً لك ياموخيكيता .

- «موخيكيता الصغير» ... كما كنت تدعوني أيام زمالتنا في الجامعة ، فإنه يسرنى أن أكون بالنسبة لك الآن كما كنت حيثئذ . إنك لا تتصور مدى فرحتى اليوم بلقائك . يالها من أيام تلك التى قضيناها في الجامعة ! أتذكر «ليرا» العجوز ؟ أترأه مازال حياً بعد ؟ . و «موديستو» الذى كان لا يكف أبداً عن الصلاة ؟ ما كان أطيبه نفساً وأكرمه أخلاقاً ! ... أليس كذلك ؟

- حقيقة كان فتى طيباً كريم الخلق ... والآن اسمع ياموخيكيता : إننى أشكرك على مدى إهتمامك بأمرى ونهوضك إلى معونتى ، غير أنى أود أن أقول لك إن الذى أتيت أطلب به أمر مشروع لا غبار عليه . فلماذا أضطر إلى التستر والتكتم ؟ إن هذا «الحاكم المدنى» الذى لا أعرف ما إذا كان برتبة جنرال أو كولونيل¹ - فانت تطلق عليه هذا مرة وذاك مرة أخرى - ينبغى أن يستجيب لطلبى ...

ولكن موخيكيता قاطعه قبل أن يتم عبارته :

- انظر ياسانتوس : دعنى أشر عليك بما يجب أن تفعل ، واتبع ما أدلى به إليك من نصيحة . إنك قادم هنا بما تعرفه حق المعرفة من نظريات فى القانون أتقنت درسها فى الجامعة ، ولكنى أدرى منك بالواقع المحسوس الذى نعيش فيه . فلا تخالفنى والزم الفندق . تظاهر بالمرض مثلاً ولا تخرج إلى عرض الطريق حتى أبعث أنا إليك رسولاً ...

* * *

كان أشبه ما يكون بأمثاله ممن يتولون مثل منصبه ، تماماً كما أن الثور الأسود أشبه شىء بشور أسود من جنسه ؛ إذ لم تكن مزاياه وخلالله تزيد ولا تنقص عما كان يستلزمه الاضطلاع بوظيفة «حاكم مدنى» لبلد مثل هذا من

بلدان فنزويلا : جهل مطبق ، ونزوع إلى التسلط والطغيان ، ثم رتبة عسكرية نالها في بعض ما كان يجتاح البلاد من فتن وحروب . أما رتبة «السيد بيرناليتي» التي بلغها في شبابه فقد كانت بدرجة «كولونيل» ، ولكن مرء وسيه وأصدقاءه كانوا كثيراً ما يصفون عليه درجة «جنرال» تطوعاً منهم ، على أن بقية السكان في هذه المنطقة كانوا يكتفون بتسميته «سى بيرناليتي» .

وكان بيرناليتي جالساً على مكتبه وأمامه موخيكيثا يعرض عليه بعض شئون العمل ، وقد علق على الحائط من فوق رأسه سيف مغمدة في قرابه ، غير أن مقبضه الذي تأكل نيكله يدل على أنه لم يكن مجرد حلية ، بل كان كثير الاستعمال ، وبينما هما فيما كانا يتحدثان فيه إذ بهما يسمعان في الطريق وقع حوافر جياذ تقترب .

وشحب وجه موخيكيثا فجأة على الرغم من أنه كان قد اتخذ أهبتة وأعد كلامه لهذه اللحظة ، إذ صاح وهو يتظاهر بأنه تذكر أمراً كان قد نسيه :
- آه ! ... لقد فاتني أن أقول لك ياسيدي الجنرال ...

ثم ألقى إليه الخبر مبرراً تسرعه في الإجراء الذي اتخذه من استدعاء جاري سانتوس للمثول في إدارة الحكومة المحلية بأنه خشى أن يقوم لوئاردو بالاقتصاص لنفسه منهما بيده إذا لم يجد من السلطات استعداداً للتحقيق في شكواه ، فقد كان لوئاردو أولاً وأخيراً من تلك الأسيرة التي عرفت بالعنف والتهور . وختم موخيكيثا كلامه بقوله :

- ثم إنك ياسيدي كنت قد ذهبت إلى ضيعتك في «لاس مابوراس» دون أن تخبرني عن مدى الوقت الذي كنت ستضطر إلى تغيبه عن مكتبك ، ولهذا فقد رأيت من الخير أن أنصرف على عجل تجنباً لإضاعة الوقت .

وتركه بيرناليتى يلقي إليه بالحديث كله ، حتى إذا انتهى رمقه بنظرة فاحصة استعرضه بها من رأسه إلى قدميه ، ثم قال :

- لقد كنت أعرف أنك قد أعددت لى خبيثاً ياموخيكيثا ؛ إذ إنك منذ أمس وأنت أشبه بكلب قد أحاط به الذباب اللاسع ، وإنى أرى أنك إذا لم تكن قد ذهبت لتطل من الباب فى ترقب وقلق مائة مرة منذ قدمت هذا الصباح فربما كان ذلك لأنك ذهبت أكثر من هذا العدد . إذن أنت رأيت من الخير أن تتصرف على عجل ! انظر ياموخيكيثا : أظن أننى لا أعرف أن ذلك الصبى الذى يدعونه «الدكتور» والمقيم الآن فى الفندق إنما هو صديق لك ؟

ولم يكمل السيد بيرناليتى حديثه ؛ إذ كانت السيدة باربارا ومستر دينجر قد بلغا باب مكتبه ، فأثر أن يترك تعنيفه لسكرتيه إلى فرصة أخرى ، إذ لم يكن من مصلحته أن يعرف القادمان أن هناك شيئاً يمكن لأحد القيام به فى مكتبه دون إذنه . وتوجه بيرناليتى بسرعة إلى باب الغرفة لكى يستقبل الزائرين بعد أن رأى أنه لم يكن هناك مفر من أن يقبل على مضض ذلك الدور الذى أرغمه موخيكيثا على النهوض به ، وإن كان عازماً على أن يوقع شديد عقابه على كاتبه فيما بعد جزاءً وفاقاً على ما فعل .

- تفضلى ياسيدتى... يالله! ألا يمكننا أن نتشرف برؤيتك هنا إلا بهذه الوسيلة ؟ تفضلى بالجلوس ... لا ، فى هذا المقعد الآخر ، فهو أكثر إراحة . وأنت ياموخيكيثا، خذ قبعتك من ذلك الكرسي حتى يجلس مستر دينجر . لقد نبهتك ألف مرة إلى أنه يجب عليك أن تكف عن وضع قبعتك على كراسى المكتب !

وأسرع موخيكيثا ليصعد بأمر رئيسه : كان ذلك أول «قسط» من الثمن الذى كان عليه أن يدفعه لقاء ما ارتكب من ذنب، فقد كان عليه دائماً أن يتلقى سيلاً من الإهانات الجارحة كلما حاول أن يتدخل لمساعدة مظلوم أو إنصاف

مطالب بحق ، كان ذلك هو العقوبة المنتظرة على جرأته وتدخله فيما لا يعنيه : عقوبة من التأنيب الوقح بمحضر من الناس ، وكان الكولونيل يعتمد أن يرفع صوته بتلك الإهانات لموخيكتنا أمام ضيوفه حتى يخمد فيه كل نخوة تشيرها كرامته الإنسانية . لقد أصبح فى أذن المسكين منها وقر ثقبل مؤلم ، ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا ينصفون موخيكتنا ولا يقدرّون مدى التضحيات التى يقوم بها فى سبيل الدفاع عن حقوقهم المهضومة على حساب كرامته ورجولته . وما أكثر ما كانت امرأته تقول له : حتى متى ستنظر هكذا مصطنعاً دور البطل المنقذ ؟ وذلك حينما تراه عائداً إلى داره بعد تلقى مثل تلك الإهانات وقد انقبضت نفسه وملاً قلبه الحزن والقنوط والدموع تكاد تطفّر من عينيه ، ولكنه كان يجيها إجابة واحدة لا تتغير : وماذا أفعل ؟ لست أصطنع بطولة ولا جرأة ، ولكن من الذى يحتمل هذا الرجل الطاغية ؟

وظل موخيكتنا يتعثر فى خطواته وقد استبد به الخزي والتجمل وهو لا يعرف ماذا يفعل بقبعته بين يديه .

وبدأ مستر دينجر الحديث قائلاً :

- والآن ... ها نحن أولاء قد أتينا لنكون رهن أمرك .

أما السيدة باربارا فإنها لم تخف ضيقها وامتعاضها لاضطرارها إلى القدوم على هذه الصورة ، فأضافت :

- لقد استحثتنا على الحضور حتى كادت خيلنا تنفق بسبب إجهادها فى السير، وذلك حتى نأتى فى الأجل المضروب .

ورمق بيرنالىتى كاتبه بنظرة شرراء يكاد يتطاير منها الشرر ، ثم قال موجهًا الخطاب إليه :

- والان اذهب فاستدع الدكتور لوئاردو ، وقل له أن يسرع بالمجيء فإن السادة لا يستطيعون الانتظار طويلاً .

وخرج موخيكتا من المكتب وهو يقول لنفسه وقد دبّت فيها الهواجس
السوداء :

- هكذا أنا دائماً ... لست أظن إلا أنى سأفقد وظيفتى من جراء هذه
الفعلة . والله لقد كانت امرأتى على حق إذ تقول لى : ما لك واصطناع دور
البطل المنقذ ؟!

* * *

وعاد موخيكتا ومعه لوئاردو بعد ذلك بلحظات . وكانت السيدة باربارا
قد زال عنها شعور الضيق والغضب المكتوم ، واسترد وجهها تعبيره الطبيعى
الخالى من كل تعبير ، إلا مسحة خفية من الاغبتاط المفعم بالخبث والشر تدل
على أنها قد تفاهمت خلال تلك اللحظات مع السيد بيرنالىتى على كل شىء .
ولكنها لم تكذ ترى لوئاردو داخلاً من الباب حتى شعرت باضطراب وقلق
يداخلان نفسها كأنما قد هجس فى خاطرها إحساس غامض يتنبأ لها بمأساة
الختام .

أما بيرنالىتى فقد بدأ الحديث دون أن يولى لوئاردو شرف رد التحية التى
ألقي بها هذا وهو داخل إلى الغرفة :

- والآن لندخل فى الموضوع بصفة مباشرة . هاهما السيدان قد حضرا
لكى ينصتا إلى الشكوى التى قدمتها ضدّهما .

ووقف سانتوس لوئاردو لحظة دون أن يدعو أحداً إلى الجلوس ، فقد كان
بيرنالىتى أبعد ما يكون عن معاملته بما تقضى به فروض التلطف والأدب ، أما
موخيكتا فقد كان فى شغل بمصيره عن مجاملات قد تتسبب له فى مزيد من
المتاعب ، فلم ير لوئاردو بدءاً من أن يجلس بغير استئذان على مقعد كان خالياً
وقال :

- نعم ، أود أن أبدأ بعرض شكواي أولاً من السيد دينجر ، ولتعدرنى السيدة على أن أؤخر حديثي عنها ...

ولم تفت لوئاردو تلك الغمزة السريعة التى تبادلها الأمريكى والحاكم المدنى ، وفهم من ذلك أن الاتفاق قد تم بينهما من قبل على ما سيفعلان ، إلا أنه توقف قليلاً حتى يدع لهما فرصة الاستمتاع بتفاؤلهما الماكر ، ثم واصل حديثه :

- أما السيد دينجر فإن فى حظائره ماشية قد وسمت بسمته هو ، ولكنها فى الحقيقة من مواشى ضيعتى ، وبوسعى أن أقدم الدليل على ذلك .
فتدخل الأجنبى فى الحديث، وقد باغته أن يثير سانتوس موضوعاً لم يكن يتوقعه، فتساءل :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

- هو لا يعنى شيئاً أكثر من أنك استوليت على مال ليس من حقك .

- سبحان الله ! إن ما تقوله يدل على أنك حديث عهد بكل ما يتعلق بالسهول وبالحياة فيها ، وأن علمك بذلك مازال غريباً قاصراً . ألا تعلم ياسيدى الدكتور أن الدليل الوحيد على ملك رأس من الماشية هو السمة التى تكوى بالحديد على جسدها ، وأن كل ما عدا ذلك لا عبرة به طالما كان وسم الماشية جارياً على التقليد المتبع ؟

- إذن معنى ذلك أنه يحق لك الاستيلاء على الأبقار الطليقة ووسمها بميسمك حتى ولو كنت تعرف أنها من مال الآخرين ؟

- ولم لا ؟ إننى ما أزال أصيد من تلك الثيران ما يعن لى حتى يكل ذراعى . ولو أنك أوليت ضيعتك نصيباً من الاهتمام من قبل لفعلت مثل فعلى وأكثر . ألسنت على حق فيما أقول ياسيدى الكولونيل ؟

وفتح الكولونيل فاه لكى يؤمن على كلام مستر دينجر ، ولكن لوئاردو سبقه بالكلام قائلا :

- هذا يكفينى ؛ فإن الذى يهمنى أن أصل إليه هو اعترافك بأنك تصيد الثيران الوحشية الطليقة فى «الباركيرينيا» .

فصاح الأمريكى فى دهشة :

- عجباً ! ولكن أليست «الباركيرينيا» ملكاً لى ؟ إننى أحمل هنا على صدرى الوثائق التى تثبت ملكيتى لهذه الضيعة . فهل تريد أن تحرم على حقاً أمارسه فى ملكى بينما تحلله لنفسك ؟

- لست أكتملك أن شيئاً من هذا هو ما أسعى إليه بالفعل . والآن ياسيدى الكولونيل ، هل تفضل بمطالبة السيد دينجر بأن يريك تلك الوثائق التى تثبت ملكيته للضيعة .

ولم يتمالك السيد بيرنالىتى نفسه فصاح فى غضب صياح من نفذ صبره :
- ولكن هل تسمح لى يادكتور لوئاردو بأن تفهمنى ما الذى تسعى أنت إليه من هذا الجدل ؟

- الذى أسعى إليه هو أن أثبت أن السيد دينجر خارج على القانون ؛ إذ إن وثائق ملكيته «للباركيرينيا» - وهو ما لا أظعن فيه - تدل على أن مساحة أرضه أقل من الحد الأدنى الذى قرره «قانون السهول» لمن لهم الحق فى صيد الثيران الوحشية الطليقة .

فأطلق دينجر صيحة ضيق وتذمر ، بينما امتنع وجهه من الغضب دون أن يجد جواباً على ما قاله لوئاردو ؛ إذ كان كل ما ذكره صحيحاً لا سبيل إلى الاعتراض عليه .

ولم يدع هذا لغريمه فرصة تمالك نفسه بعد هذه الضربة المباشرة ، فأنهى كلامه له قائلاً :

- أترى الآن أننى أعرف حقوقى وأننى على استعداد للدفاع عنها ؟ لقد كنت تظن أننى أت لكى أدافع عن حقى فى إحاطة مرج «الكوروثاليتو» بسياج ، فها أنت ذا الآن ترى أنك أنت الملزم بإقامة ذلك السياج ؛ إذ ليس من حقك بحكم القانون أن تصيد الثيران الطليقة ، والقانون يلزم من هم فى مثل وضعك بأن يحيطوا أملاكهم بسياج فاصل .

ولم يحر مستر دينجر جواباً على ذلك ، ولكن بيرنالىتى كان قد ضاق ذرعه ، فصاح فى هياج وهو يهوى على منضدة المكتب الذى كان جالساً إليه بقبضة يده :

- ولكن لنعرف أولاً : أى دور أقوم أنا به هنا يادكتور لوئاردو ؟ إنك تتحدث بلهجة تبدو معها وكأنك أنت ممثل السلطة والناطق بلسان القانون ! فأجابه سانتوس فى هدوء :

- لا ياسيدى الكولونيل ... على الإطلاق ، بل هى لهجة من يطالب أمام ممثل السلطة باحترام القوانين والخضوع لها . والآن بعد أن عرضت موضوع السيد دينجر فإننى منتقل منه إلى شكواى من السيدة .

وكانت السيدة باربارا فى أثناء هذا النقاش قد التزمت الصمت وامتنعت عن التدخل ، ولكنها كانت تراقب الجدل فى اهتمام متزايد ، والواقع أن لوئاردو كان قد بث فى نفسها - على الرغم منها - شعوراً من الهيبة والاحترام منذ أن وقع عليه نظرها وهو داخل إلى مكتب الكولونيل بيرنالىتى ، ثم تحولت هذه الهيبة إلى ضرب من الإعجاب بالرجل وهى تتابع ما أبداه من براعة فى استدراجه للأمريكى حتى اضطره إلى الاعتراف بما أصبح بعد ذلك حجة

شاهدة عليه مدينة له ، أعجب ذلك السيدة باربارا ؛ لأنها رأت فيها مظهرًا من مظاهر المكر والدهاء ، والمكر والدهاء كانا أكثر ما يمكن أن يشير في نفسها شعورًا من الإعجاب بمن يتصف بهما ، ثم إنها كانت تشعر في قرارة نفسها بكرامية عميقة لذلك الأمريكي المتكبر الذي كان ينظر إلى جميع من حوله نظرة احتقار واستخفاف ؛ إذ كانوا بالنسبة له طبقة أدنى من طبقات البشر ، ولهذا فقد سرها أن يقيض لهذا الرجل من يقهره ويذله ، ولا سيما أنه الرجل الوحيد الذي كان بوسعه أن يفتخر بأنه لم يستسلم لسلطانها ولم يتحول إلى مطية من مطاياها ، وأخيرًا كان مستر دينجر أجنبيًا على أية حال ، وكانت باربارا تحمل في أعماق نفسها أشد البغض للأجانب .

غير أن كلمات سانتوس الأخيرة أطارت من وجهها ذلك الشعور بالارتياح والشماتة، وأعادتها إلى عالم الواقع ؛ حيث لم يكن لوئاردو بالنسبة إليها إلا ذلك الغريم اللدود ، والخصم الذي أعلنت عليه حربًا لا لين فيها ولا هوادة .

ومضى سانتوس في كلامه قائلاً :

- أما السيدة فإنها تنكر على حقى فى أن أستخرج ماشيتى السارحة فى أرضها على أن تفعل هى مثل ذلك بماشيتها التى ترعى فى أرضى ، وهو أمر رغبت إليها فى أن تسمح لى به ، ثم إن «قانون السهول» ينص على إلزامها بذلك .

فأجابت السيدة باربارا :

- إنى معترفة بأن ما يقوله الدكتور حق وصدق .

وصاح الحاكم المدنى معلقاً :

- لا أظن أن ديكًا يصيح بمثل هذه الفصاحة والإبانة !

فأجاب لوثاردو :

- ولكن القانون أيضاً فصيح مبين لاخفاء به ، وأنا أطالب السيدة بأن تخضع لما ينص عليه القانون .

- وإنى له لخاضعة منقادة ... ياسيدى .

وابتسم بيرنالىتى لعبارة باربارا التى لم تكن إلا جزءاً من المسرحية التى اتفق معها على تمثيلها ، فتوجه بالخطاب إلى موخيكيثا الذى كان جالساً إلى المائدة فى صمت يسجل كل ما يدور فى المجلس فى أحد الدفاتر الموضوعه أمامه ، وكان متظاهراً بالانصراف إلى عمله والاستغراق فيه .

- موخيكيثا ... لنر ماذا يقول فى ذلك «قانون السهول» الذى يجرى العمل به ؟

وأسرع السكرتير بتنفيذ الأمر ، وهرع إليه بالقانون ، فانتزعه رئيسه من يديه فى عنف وغلظة ، ثم أقبل يقلب صفحاته وهو يبل أنامله بلعابه حتى صاح أخيراً وهو يضع سبابته على إحدى مواد القانون :

- ها هى ذى !... لنر ماذا يقول فى ذلك القانون المبجل ! نعم ياسيدتى ... إن الدكتور على حق فيما يقول : إن القانون فصيح مبين لاخفاء به ، فأنصتى إلى ما هو وارد فيه : «كل صاحب ضيعة أو إقطاع ملزم بأن ...» .

فقاطعته السيدة باربارا :

- نعم ياسيدى ، لا حاجة بك إلى قراءة هذه المادة ، فأنا أحفظها عن ظهر قلب .

فعاد بيرنالىتى يتساءل وهو مستمر فى تمثيل دور المحقق النزيه :

- إذن ؟ ...

- إذن ماذا ؟

- يجب عليك الانقياد لما يقوله القانون.

- وأنا منقادة خاضعة له كما سبق أن قلت . إننى أرفض ما يطلبه الدكتور لوثاردو فى غير موارد ، وأنا مصرة على ذلك ، فلتوقع على العقوبة التى ينص عليها القانون .

فاصطنع بيرنالىتى الدهشة وهو يقول :

- العقوبة ؟! لئلا إذن ماذا يقول فى ذلك القانون المبجل .

فقاطعه سانتوس وهو يهب واقفاً :

- لا تزعج نفسك بالبحث ياسيدى الكولونيل ، فإنك لن تجد فى هذا القانون ذكراً لأية عقوبة ، لن تجد فيه نصاً على سجن أو غرامة ، وهما الإجراء الجزائى الوحيد الذى يمكن أن توقعه السلطة المدنية التى تمثلها أنت .

- إذن ما دام الأمر كذلك فإننى أسألك : ما الذى تطالبنى بفعله إذا كان القانون لا يخولنى ذلك الحق ؟

- لست أطلبك بفعل شئ . لقد كنت فى أول الأمر أنوى المطالبة . المطالبة بأن تفهم السيدة أن القانون وإن لم يفرض عقوبة محددة من سجن أو غرامة فإنه يلزم الناس بمجرد اعتباره قانوناً . فإذا كانت السيدة تنكر على حقى المشروع الذى ينص عليه ذلك القانون ، وإذا كانت ترفض الاستجابة لما أطلب فإننى سأمنحها مهلة ثمانية أيام ، فإذا انقضى الأجل دون أن أرى منها قبولاً فإننى سأرفع الأمر للقضاء . وسأفعل ذلك أيضاً بالنسبة للسيد دينجر ، وأنا أحمل كليهما تبعة تصرفهما . ولست أرى بعد ذلك مبرراً للاسترسال فى النقاش .

قال سانتوس هذا ، وانصرف لا يلوى عن شئ .

وأعقبت ذلك لحظات سادها صمت عميق ، وخاطب موخيكتنا خلالها
نفسه قائلاً :

- آه ... سانتوس لوثاردو ... هو هو لم يتغير فى شىء !

أما الكولونيل بيرنالىتى فقد انفجر أخيراً :

- ما كنت لأترك هذا الأمر ينتهى على تلك الصورة ! على أحد أن يدفع
ثمن هذه الغطرسة الوقحة التى أتناها بها هذا الفتى ... عجباً والله ! عشنا ورأينا !..
صبى مغرور يجئ ليلقى على أنا درساً فى القوانين !

نعم ... ولا سيما فى القوانين التى ليس لها من صفات الإلزام إلا كونها
قوانين ، دون حاجة إلى استخدام منطق القوة الغاشمة ، وهو المنطق الوحيد
الذى كان يفهمه السيد بيرنالىتى ويحترمه ، ولهذا فقد غاظه أن لوثاردو واجهه
بتلك العبارات مستنداً إلى نص القانون فى الاعتراض على سلطته ، على تلك
السلطة كما اعتاد على فهمها وتأويلها هو وأمثاله من الحكام الطغاة المستبدين
الذين لا يحكمون إلا بالبطش والإرهاب . ومن ثم فقد كان «على أحد أن
يدفع الثمن» ، ثم تلك الإهانة التى أصابت كبرياءه على رء وس الأَشهاد !

أما موخيكتنا المسكين فقد كانت البقية الباقية من دماء وجهه قد هربت
وعلاه شحوب كشحوب الموت ؛ إذ رأى أن هذه الكلمات إنما هى موجهة إليه
هو أولاً قبل كل الحاضرين . ولم يتحقق السيد بيرنالىتى من الأثر الذى تركته
كلماته فى نفس مرءوسه حتى استدار إلى السيدة باربارا ، فقد كان يحس بأنها
تحمّل تبعه ما عرضته له ، ثم إنه كان يضيق بها فى قرارة نفسه ؛ إذ كان يمضه أن
تعامله معاملة الند للند ، وأن يضطر هو إلى مجاملتها والانصياع إلى مطالبها ،
وهو ما كان يرى فيه حداً من تلك السلطة المطلقة التى كانت نفسه تنزع إليها

بطبيعتها المستبدة الطغيانية ؛ ولهذا فإنه لم يلبث أن أضاف وقد غير قليلاً من لهجته :

- والآن أود أن أقول لك شيئاً يا سيدتى ، ولك أنت أيضاً يا مستر دينجر : إن الذى قاله هذا الفتى هو الحقيقة المحضة ، القانون ينبغى تنفيذه وله صفة الإلزام لمجرد كونه قانوناً ، أى أمراً تصدره الدولة بأن نصنع هذا أو نمتنع عن ذاك . ولو لم يعن ذلك لما كان قانوناً . ويبدو لى أن هذا الصبى المحامى يعرف من أين تؤتى البيوت . ومن أجل هذا فإننى أنصحكما بأن تتفاهما معه . أما أنت يامستر دينجر فلتلق سياجاً حول أرضك ؛ إذ إنك - والحق يقال - مخالف للقانون . فافعل وإن لم يكن ذلك إلا ذراً للرماد فى العيون ، وانقياداً لشكلية القانون . وأنت تعرف ما أعنى ؛ إذ إن أى سياج خشبى يمكن أن تقع اليوم منه خشبة ، ثم تقع أخرى فى غد ، وهكذا ... أما الماشية المتوجهة من أرض ألتاميرا إلى القناة الملحة فإنها لا تحتاج إلى ثغرات كبيرة لكى تمر إلى أرضك ، فتفعل بها ما كنت تفعل حتى اليوم . ومن الذى سيلاحظ هذا ؟ فإذا احتج الجار عليك أقمتم أعمدة السياج من جديد ، فتظل يومين أو ثلاثة ، ثم تعود أخشابه وحدها إلى السقوط واحدة بعد واحدة ؛ إذ إن أرضك من تربة ضعيفة هشة ! أليس كذلك ؟

- أوه ! هشة جداً ياسيدى الكولونيل . لقد أصبت عين الحقيقة !

قال دينجر ذلك وهو يهوى بكفيه الكيرتين على كتفى الحاكم المدنى بما كانت تقتضيه دالته عليه وارتفاع الكلفة بينه وبينه ، وهو يطلق قهقهته العالية ، ثم أضاف :

- يا لهذا الكولونيل من رجل بعيد الغور متفتق الذهن عن أبرع الحيل ! إنه أكثر لفاً ودوراناً من قرنى ثور ! ... ولذلك فقد أعددت له هناك بقرتين حلوبين من خير البقر ، وسأرسلهما إليه فى يوم من الأيام القادمة .

- هدية مقبولة تشكر عليها يامستر دينجر !
- آه ... يا أيها الكولونيل ... يارب الكفايات الذى لم ير له مثيل .
ألا تريد الآن أن تحتسى معى بضع كئوس ؟!
- لا مانع ، ولكن بعد لحظات . سأمر عليك بعد قليل فى فندقك ؛ فأنا أعتقد أنك لا تنوى السفر الآن .
- حسناً . لقد اتفقنا ، سأنتظرك هناك إذن . وأنت يا موخيكيتا ، ألا تود مرافقتى ؟
- شكراً لك يا مستر دينجر ، ولكنى لا أستطيع .
- أوه ! هذا شىء غريب حقاً ! موخيكيتا زاهد اليوم فى الشراب ! إلى اللقاء إذن بعد قليل . إلى اللقاء ياسيدتى باربارا ... بعد أقل من القليل كما اعتدتم هنا أن تقولوا ...
- ثم أضاف وهو يطلق ضحكاته المدوية :
- إن السيدة باربارا قد غلب عليها الوجوم والتفكير العميق اليوم !
- وكان هذا حقاً ، فقد بقيت مقطبة الأسارير ، مخلدة إلى تفكير ساهم مهموم ، ويدها مبسوطة على «قانون السهول» الذى كان السيد بيرنالىتى قد رجع إليه ، وهو يمثل دوره فى تلك المهزلة التى حبك معها خيوطها فى سخريتها من مطالب لوئاردو ... «قانون السهول» أو «قانون السيدة باربارا» كما كانوا يسمونه هناك ؛ إذ إنه لم يكن إلا ثمرة الأموال التى أنفقتها هى لرشوة واضعیه حتى يجرى «مفصلاً» يتلاءم مع هواها ورغباتها . كانت المرأة وهى تنظر إلى نسخة القانون تجتر غيظها الذى ولدته فى نفسها كلمات سانتوس لوئاردو .

لقد سمعت الآن أول تهديد جرؤ لسان على أن يقذف به فى وجهها ،
وكان أشد ما فى الأمر عليها أن ذلك القانون الذى وضع من أجلها والذى
دفعت ثمنه بمالها هو الذى استند إليه غريمها فى مطالبتها بما صممت على
رفضه . وامتدت أصابعها بغير وعى ، فانتزعت الورقة التى كتبت فيها تلك
المادة الملزمة لها وعصرتها فى يدها فى حنق وهى تتمتم قائلة :

- أترى لهذه الورقة ... لهذه القصاصة التى أستطيع أن أطويها فى يدي
وأن أمزقها إرباً ... أترى لها من القوة ما يكرهنى على أن أفعل ما لا أريد أن
أفعل ؟! ...

ولكن هذه الكلمات لم تكن تعبر عن ذلك الغيظ الهائل الذى ملك عليها
نفسها فحسب ، بل كانت نذيراً وإرهاصاً بشيء آخر ، بحادث فريد فذ : هو
شعور جديد لم تعرفه باريارا من قبل ... شعور بالاحترام نحو رجل تراه لأول
مرة ! ...

الفصل الثاني الاستئناس

كان كارمليتو قد أمضى الأيام الأخيرة وهو ينصب أشراكه مترصداً فرصة يتمكن فيها من صيد «كثيرا» أجمل أفراس «ذى القوائم السود» .

أما «ذو القوائم السود» فلم يكن فى التاميرا حصان وحشى أكثر منه شهوة إلى الإناث ، وبذلك طارت شهرته فى الضيعة ، وأطلق عليه ذلك اللقب المميز . وكان لا يكاد يرى فرساً جميلة فى حظيرة أى حصان آخر إلا حاول السطو عليها وانتزاعها منه ، ولم يكن من اليسير على خيول التاج الأخرى الحيلولة بينه وبين ذلك ، إذ كان له فى سطوات أنيابه ومن رفسات قوائمه القوية ما يسمح له بالتفوق على كل من يتصدى لطريقه . أما رجال الضيعة فإنهم جميعاً فشلوا فى اقتناصه على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلوها من أجل ذلك ، وطالما تعقبوه أميالاً كثيرة ليلقوا عليه أناشيظهم ونصبوا له أشراكاً أقاموها على هيئة حظائر أتقنوا مواراتها وتزييفها ونصبوها بين الأعشاب الطويلة فى سفح الجبل ، ولكن «ذا القوائم السود» كان أكثر منهم مكرراً وأشد كيداً ؛ إذ لم يكن يحس بأن تلك الحظائر ليست إلا فخاخاً أعدوها له حتى يولى عنها هارباً إلى المروج الطليقة قبل أن يمدوا إليه يداً .

وأما «كثيرا» فقد كانت بيضاء رشيقة كأنها يمامة . ولم يكن هناك أجمل منها فى الأفراس الإناث اللاتى كن فى ظل «ذى القوائم السود» وتحت حمايته . وكانت ابنة له درجت فى كنفه حتى بلغت من العمر سنّاً لم يعد لها بعدها مكان بين «حريمه» . وأخيراً أرخى لها أذنيه وكشر عن أنيابه وكأنه يندرها بأنها

منذ تلك اللحظة قد أصبحت طليقة حرة تتوجه حيث تشاء بعيداً عنه . وتركها وسط المرج وحيدة تنظر إلى أبيها وهو يتعد عنها وحوله أفراسه . وقفت «كتيرا» تلقى نظرة على تلك الأسرة التي كانت حتى تلك اللحظة عضواً من أعضائها ، وقد ارتعدت أشفارها الموردة ، وانتصبت قوائمها الدقيقة ، وارتسمت على عينيها الصافيتين مسحة من الحزن .

ومضت «كتيرا» في بطاء وملل وحيدة تضرب في أنحاء المرج ، ولمح كارمليتو سوادها من بعيد وهو يترصدها بينما كانت تتبع بنظرها عاصفة الغبار التي أثارتها في الأفق حركة أسرتها السابقة وهي تمضي عنها بعيداً .

وفي صباح اليوم التالي بكر كارمليتو ، فكمّن لها بين دغل كثيف من شجر «الميريكوري»(*) يطل على القناة التي اعتادت قطعان الخيول الوحشية الشرب منها ، وقد أعد أنشوطته ، ولكن الفرس كانت من المكر والحذر بحيث كان أبوها ، فلم تمكنه من فرصة لاصطيادها ، وظل كارمليتو يكمن لها كل صباح متربصاً منها غرة طوال أسبوع كامل .

وأخيراً وقعت في الشرك الذي نصبه لها كارمليتو ، فتمكن من إلقاء حبل أنشوطته عليها ، وأتى بها إلى الضيعة وهو يربت على ظهرها ويعزيها عن فقد حريتها بكلمات ودودة ملاطفة .

وأطلت عليه ماريسيلا وهو يقود الفرس الجميلة وقد تعثرت قوائمها في الحبال :

- يا لها من دابة رائعة الجمال . ليت لي مثلها !

فعرض سانتوس على كارمليتو أن يشتريها منه ، ولكن هذا أجابه في جفاف :

- لا ياسيدي الدكتور . ليست هذه الفرس للبيع .

وتقاليد السهول تجرى على أن الذى يصيد حيواناً وحشياً فهو ملك له لا لصاحب الضيعة ، وأن هذا إذا أراد أن يظفر به من صائده فلا بد له من شرائه منه بثمان لا يعدل فى الحقيقة إلا أجرة صيده واستئناسه . ولكن الصائد من حقه أن يمتنع عن البيع إذا شاء ، على أن يخصص ذلك الحيوان لاستعماله هو ، فلا يبيعه لأحد آخر ، كان هذا هو العرف الجارى فى السهول ، ولا غرو فإنه لم يكن إلا تحقيقاً لذلك المثل الشائع بين الناس هناك ، والذى يقول : «إن الملك المتحرك ليس إلا ملكاً مشاعاً لا يختص به أحد» .

وأما ترويض «كثيرا» واستئناسها فقد كلف كارمليتو كثيراً من العناء والجهد ، فقد كانت نفوراً جموحاً تستعصى على المروضين ، ولا تكاد تشعر باعتلاء إنسان على ظهرها حتى تقوس عنقها وتتوثب فى عنف وقوة حتى تقذف به على الأرض ، ولكن كارمليتو كان من أمهر المروضين ، وقد طارت شهرته فى هذه البقاع بأنه لا يجتهد فى استئناس دابة متوحشة إلا أصبحت ذلولاً طيعة كأنما تحول ظهرها إلى ثوب من الحرير .

وكان لوئاردو كثيراً ما يسأل كارمليتو إذا التقى به :

- كيف ترويضك لـ «كثيرا» ؟

فكان هذا يجيبه :

- على ما أرجو ياسيدى الدكتور ، فقد أصبحت تنقاد الآن للراكب قليلاً قليلاً . وأنت ، كيف يمضى العمل الذى تضطلع به ؟

وكان كارمليتو يشير بذلك إلى عمل «استئناس» آخر أخذه سانتوس على عاتقه نحو ماريسيلا ، فقد كان يجتهد - منذ آواها فى داره - فى تعليمها وتهذيبها .

وقد كانت ماري سيلا تشبه فرس كارمليتو ؛ إذ كانت أيضاً جموحة عصبية على التعليم ، لا لقلّة في إدراكها ولا لنقص في ذكائها ، ولكن لأنها كثيراً ما كانت تنفر من الدروس ويستولاهما حنين إلى حياتها الوحشية الماضية ، فتقول لأستاذها في تمّة متذمرة ضجرة :

- كفى ، فقد تعبت . دعنى أذهب إلى سفح الجبل الذى أتيت منه .

فكان يجيبها فى مداعبة :

- اذهبي إذا شئت . ولكنى سأطاردك فى كل مكان مصلحاً لك ما تخطئين فيه من الحديث ، فأقول لك : لا يقال « كذا » ، وإنما صوابه « كذا » .

وكان يشير بذلك إلى تلك الكلمات التى كان يسبق بها لسان ماري سيلا ، والتى كانت تعتبر سوقية جافية فى عرف البيئات المهذبة الرقيقة .

فتعذر هى عن ذلك قائلة :

- إنها كلمات جرى التعود بها على لسانى دون أن أشعر .

ثم تغير مجرى الحديث فتقدم له إناء من فخار وتقول :

- انظر إلى هذا الذى عثرت عليه فى ركن من أركان الدار . ألا يعجبك أن أضع فيه زهوراً تزين المائدة ؟

ويقول هو لها :

- لست أكنتمك أنه إناء ليس من جمال الصورة بحيث يصلح إصيصاً للزهور .

فتجيب فى ضجر :

- أترى ؟ لقد كنت أعرف أنك لن تعدم نقداً توجهه إلى ما أفعل ؟

- لا تسرعى يا طفلى فإنك لم تتركينى أكمل عبارتى ، فالإصيص إذا لم يكن جميلاً فهذا ليس من ذنبك ، غير أنه مما يعجبني فيك أنك فكرت فى تزيين المائدة بالزهور ، فالفضل فى هذا لك أنت .

- ألا ترى إذن أننى لست من الجلافة وغلظة الطبع بحيث تظن ؟ ولتذكر أن هذا شيء لم تقم أنت بتعليمى إياه .

- ومن قال إنك جلفة غليظة الطبع ؟ إننى كثيراً ما كنت أقول إنك فتاة ذكية متوقدة الذهن .

- نعم . لقد رددت ذلك على مسامعى كثيراً .

- ولكن يبدو أنه لا يعجبك أن تسمعى مثل هذا الإطراء ، ماذا تريدن إذن أن أقول لك أكثر من هذا ؟

- «واه !» وهل قلت أنا إننى أريد شيئاً ؟ وهل طلبت إليك مزيداً مما تفعل فى سبيلى ؟

- «واه !» مرة أخرى ؟ ألا تكفين عن استخدام هذه الكلمة ؟

- إنك تعد على كل كلمة أقول !

- صبراً يا صغيرتى ! لا تضجرى . إننى أعدد عليك فعلاً هذه الكلمات التى لا يحسن بك استخدامها ، ولكنى أقول لك إنه من حسن الحظ أن استعملك لهذه الكلمة قد تضاعف أخيراً بشكل محسوس ، حتى إنك لم تقوليها اليوم إلا مرة واحدة ، وهذا فال طيب وبشير بخير على أية حال .

وكان سانتوس حقيقة يجتهد فى أن تقل ماري سيلا من استعمال تلك الألفاظ التى جرت على النطق بها فى بيئتها الأولى ، أما تلك الدروس التى كان يعمل على تلقينها للصبية فقد كانت دائماً تبدأ فى المساء بعد أن ينتهى من

عمله اليومي المرهق ، وقد سارت تلك الدروس فى طريق تبشر بالنجاح ، فقد أصبحت ماريسيلا تتقن القراءة والكتابة بعد أن أنساها الزمن كثيراً من قواعدهما . وكانت القراءة والكتابة هما الشيء الوحيد الذى علمه إياها أبوها منذ أن كانت صغيرة . أما غير ذلك من الدروس فقد كان يبدو للفتاة ممتعاً شائقاً ، وكانت تقبل عليه فى اهتمام كبير وتتعلمه فى سرعة وسهولة ، وكان سانتوس يعمل على تهذيب سلوكها الاجتماعى ضارباً لها أمثلة من صديقات له فى كاراكاس كن أمثلة عليا للأدب والتهذيب والرقية .

وكانت ماريسيلا تبتسم إذا ورد ذكر هؤلاء الصديقات ؛ إذ لم يكن يغيب على خيالها المتيقظ أن كل ذلك لم يكن إلا اختراعاً من سانتوس يعمل به على أن يضع نصب عينها أمثلة جديدة بأن تحتذيها وتنهج نهجها . على أنها كانت تضيق بذلك إذا رأت سانتوس يسرف فى وصف تلك الصديقات والتمدح بهن حتى يتحول كلامه إلى شكوى من حياة ذلك الوسط البدوى الريفى الذى يعيش فيه وحينئذ إلى حياة العاصمة . ولكن كل ذلك كان يحثها على أن تجتهد فى التعلم والإقبال على الدروس حتى لا تبدو فى مرتبة دون مرتبة من يشير إليهن هو فى حديثه ، حتى إذا انصرف هو عن الدروس أو شغلته عنها مشاغله ساقتها غريزتها إلى الاستزادة من الثقافة والمعرفة . ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الصبية إلى فتاة نظيفة معتدة بنفسها كأنها زهرة برية من تلك الزهور التى كانت تملأ المرج بعطرها ، والتى كانت أسراب النحل ترتشف منها رحيقها الذكى الطيب . لم يعد هناك أثر من ماريسيلا ؛ تلك الفتاة القذرة المهلهلة التى رآها سانتوس لأول مرة حاملة حزمة من الحطب على رأسها .

ولم يأل سانتوس جهداً فى الاهتمام بشبابها وزينتها ، فاشتري لها خير ما أتى به على عربته ذلك المهاجر العربى الذى كان فى مثل هذا الموسم من العام يجوب قرى حوض «الأراوكا» بائعاً لأهلها ما حمل من قماش وثياب وعطور

وأدوات زينة ، وهكذا أصبح لديها من الملابس والأحذية ما لا يقل عما يتاح
لأية فتاة مثلها من الأسر ذات الوفر واليسار. أما أول ما لبسته من ثياب فقد
تكفلت به حفيدات «مليسيو ساندوفال» ، ولكن سانتوس نفسه أدلى فيه
بدلوه أيضاً ، فجعل يرسم لها نماذج الملابس ، وكثيراً ما أدى هذا إلى
مشاهد طريفة بينه وبين ماريسيلا ، فقد كانت الرسوم الإجمالية لما يقترحه لها
من فساتين مقبولة لا بأس بها ، أما الرسوم التفصيلية فقد كانت تبدو فى كثير
من الأحيان معقدة غريبة لا قبل لأحد بأن يفصل ثوباً على أساسها ، وفى بعض
الأحيان كانت ماريسيلا تراها بشعة بعيدة عن الأناقة ، فتقول متذمرة :

- من المستحيل أن أضع على جسدى مثل هذه الأضحوكة !

ويجيبها هو مسلماً لها باعتراضها :

- لديك حق ، فالثوب على هذه الصورة مثقل بكثير من أشرطة الزينة التى
تقلل من مدى أناقته ، لقد ملأته بالكشاكيش والثنيات التى لا مبرر لها ، لنقص
منه كل هذا الجزء .

- وذلك الجزء أيضاً ، فأنا لا تعجبني هذه الدوائر المحيطة بالعنق .

ويضطر سانتوس للاعتراف لها بأن فطرتها البسيطة الساذجة تملئ عليها
فى ذلك آراء صائبة موفقة ، وهو يشعر بالارتياح لما يراه فى الفتاة من طبيعة
صلبة المكسر، إلا أنها مع ذلك مرنة طيعة إذا وجدت من يسهر على تربيتها
وتهذيبها . كانت ماريسيلا تبدو له وكأنها خلاصة هذا الجنس كله من أهل
السهول ، فهم قوم أشداء المراس ميالون إلى القوة والعنف، ولكن لديهم
استعداداً فطرياً للحضارة والتهذب ... تربة خصبة صالحة لمن يحسن فيها
الغرس .

وكان سانتوس فى الوقت نفسه مهتماً بأمر لورنثو باركيرو ساهراً على مهمة شفائه من داء الشراب الذى كان يسير به إلى أسوأ نهاية وإعادته إلى عالم البشر ، وقد كان يرى فى هذا العمل الذى اضطلع به لإنقاذ هذا المسكين راحة لروحه ولذة تعوضه عما كان يقاسيه فى عمله اليومى فى الضيعة من عناء ومشقة ، وقد بدأ بأن قلل عنه نسبة الشراب ، وأصبح لا يعطيه منه إلا بحساب متقن ، وكان يحمله معه طول اليوم إلى المروج لكى يشترك فى أعمال الضيعة ، فإذا انتهى العمل وبدأت مجالس المساء حاول أن يتطرق الحديث إلى موضوعات يمكن أن تثير فى نفسه الاهتمام والتفكير ، حتى ينبه فى نفسه ذلك الذكاء الذى لم يكن يتوهج إلا تحت أثر الخمر ، وكان سانتوس يلاحظ فى رضا واغتيباط أن الرجل نفسه قد أصبح تواقاً إلى إنقاذ روحه وتخليصها من رذيلة الشراب .

كان سانتوس يتأمل كل ذلك فيزيده ثقة وتفاؤلاً ، ولكن ماريسيلا لم تكن فى نظره مجرد هذه التجربة الحضارية الناجحة ، بل كانت أكثر من ذلك بكثير ، فقد ملأت عليه البيت مرحاً وبهجة ، وسدت فيه فراغاً لم تكن لتسده إلا فتاة مثلها . لقد استقرت ماريسيلا فى «التاميرا» بعد أن كانت أشبه بجحر قدر تأوى إليه الخفافيش والهوام ، وكان من أول ما اهتم به سانتوس هو تنظيف حجراتها وطلاؤها بعد أن ظلت طوال السنوات الماضية مهملة تتكوم فيها الأقدار . نعم ، كل هذا حق ، ولكنها ظلت على الرغم من ذلك كله منزلاً بلا امرأة ... منزلاً ليس فيه إبرة تعرف كيف ترفو ثوباً ، منزلاً يقدم الطعام له فيه أحد الأجراء من خدم الضيعة ، هذا من الناحية المادية ، أما من الناحية الروحية - وهو ما كان سانتوس يوليه أكثر اهتمامه - فقد كان منزلاً غير ذى حرمة ، يستطيع المرء أن يجلس فيه أو ينام أو يأكل على أى صورة أراد ، وأن يصك سمعه فيه أى لفظ

ناب يطلقه أحد الخدم فى غير حرج ، ولم يكن يغيب على سانتوس لوئاردو ما فى ذلك من آثار سيئة تنتهى إلى إهمال الدار والاستخفاف بحرماتها وكرامة ساكنيها .

أما الآن بعد أن قدمت ماريسيللا فقد تغير كل ذلك تغيراً كاملاً ؛ إذ عليه أن يعود بعد يومه المثلث بالعمل وقد عاد يحمل باقة من زهور المروج ليقدمها إلى «فتاة البيت» ، وعليه أن يغتسل ويغير من ثيابه ويزيل عن جسده رائحة الخيول والثيران الملتصقة بجسده ، ثم يجلس على المائدة لكى يضرب لمن يحيط به مثلاً فى احترام المجالس ورقة الكلام وأدب المعاملة .

وهكذا كان سانتوس يرى كيف كانت تربيته لماريسيللا وتهذيبها درعاً واقعياً له هو يحميه من الانسياق تحت تأثير تلك البيئة الخشنة الغليظة والخضوع لما تطبعه على نفوس أهلها من عيوب تبعد بينهم وبين رقة الحضارة .

ولكن التلميذة كانت فى بعض الأحيان تعود إلى نفورها وجموحها ، فتتعمكر فى عروقها الدماء على حد قولها هى ، وتمتنع عن تلقى الدروس ملقية بعبارتها المعهودة :

- دعنى أذهب إلى سفح الجبل الذى أتيت منه !

غير أن كل ذلك لم يكن إلا انفعالات مؤقتة كانت تدفعها إليها طبيعتها الناشز العصية، فضلاً عن شعور مبهم بدأ يغزو روحها نحو سانتوس لوئاردو ؛ إذ إنها كانت سرعان ما تعود إليه فى اعتذار وتودد قائلة :

- وبعد ... ألن أتلقى دروسى فى هذا المساء ؟

* * *

ولكن كارمليتو انتهى من مهمته قبل أن يفرغ سانتوس من أمر ماريسيلا ،
وفى عصر أحد الأيام أقبل الرجل وهو يقود فرسه إلى سانتوس قائلاً له :

- أرجو أن تسمح لى بأن أخبرك بشيء ياسيدى الدكتور : لقد رأيت أنه
ليس فى الضيعة مطية طيبة يمكن للآنسة ماريسيلا أن تستخدمها لركوبها ،
ولهذا فقد أتيت بها دون سرج ولا لجام ، وإن كنت أحمل معى ذلك إذا اقتضته
الضرورة .

وكان أول ما فكر فيه سانتوس حينما سمع كلمات كارمليتو هو أن هذه
الكلمات لم تكن إلا عنواناً على شخصية الرجل وطبيعته الأبية المتحفظة ، فقد
كان بوسعه أن يجيبه حينما اقترح عليه شراء الفرس بأنه لا يريد بيعها إذ كان
يعزم على إهدائها لماريسيلا ، بدلاً من ذلك الجواب الحشن الذى جابهه به
قائلاً إنها ليس معروضة للبيع ، ولكنه بعد أن أمعن التفكير فى كلمات الرجل
عرضت له فكرة أخرى لم ترتح لها نفسه : لماذا اختار كارمليتو شخص
ماريسيلا لكى يقدم إليها هذه الهدية التى لم يرد بها فى الحقيقة إلا التودد إلى
لوثاردو ومراضاته بعد أن ظن به أولاً ظنون السوء ؟ أترأه يعتقد أن سانتوس
مغرم بالفتاة ؟ وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن يضيف كثيراً إلى الشعور النقى
الذى كانت تثيره فيه الصبية دون أن يتجاوزها إلى أى حد أبعد ، فإنه فكر فى أن
ما قام به كارمليتو قد يكون صدى لما يتردد بين رجال الضيعة من أن قلبه قد
تعلق بماريسيلا ، فقد ساءه أن يفسر الناس هناك اهتمامه بالفتاة على أنه نابع من
شعور غرام من رجل بامرأة .

وعلى أية حال فقد نادى ماريسيلا حتى تقوم هى بتوجيه الشكر إلى
كارمليتو ، فلم تعلم الفتاة نبأ الهدية حتى صفقت طرباً وسروراً وصاحت :

- يا له من خبر مبهج ! إذن كانت الفرس من نصيبى ! ولماذا لم تقل لى ذلك من قبل يا كارمليتو ؟ ولماذا تركتنى طوال هذه الأيام وأنا أحسدك على هذه الدابة الرائعة ؟ والآن أسرجها لى حتى أتنزه عليها قليلاً .

ثم أضافت بعد ذلك فى انكسار :

- إن المؤسف هو أن أبى اليوم متعب لا يكاد يتحرك ولا أظنه قادراً على مرافقتى ؛

فقال لها سانتوس .

- لا تقلقى من أجل ذلك ، فأنا مستعد لمرافقتك إذا شئت .

وإضاف كارمليتو :

- واسمح لى أنا أيضاً ياسيدى الدكتور بأن أقوم بمرافقتكما ، فأنا أريد أن أرى كيف تكون معالجة الأنسة ماريسيلا - «كتيرا» ، وذلك لأن هذه الدواب قد تسلس قيادها للرجال ثم تستعصى بعد ذلك على النساء .

وقد كان السبب الذى ساقه كارمليتو وجيهاً معقولاً ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة كل شىء .

ومضى الثلاثة فى طريقهم ، وسبقت ماريسيلا على صهوة فرسها الجديدة ، أما سانتوس وكارمليتو فقد تأخرا قليلاً ، واتصل بينهما الحديث ، وكان سانتوس قد عزم على أن يعرف عن كارمليتو أكثر مما يعرف ، إذ كان هذا كما تعود سانتوس أن يراه كتوماً شديد التحفظ ، ثم إنه كان يذكر ذلك الشئ الخالص الذى كان أنتونيو ساندوفال لا يكف عن توجيهه إلى الرجل ، وكان سانتوس يشعر بأنه حقيقة جدير بالثقة ، ولهذا فقد عزم على أن ينتهز الفرصة فيستخلص منه قصة حياته ، ولكن كارمليتو ظل مستمسكاً بصمته ، فكان

لا يجيب عن أسئلة سيده إلا بردود مقتضبة ، حتى رأى أخيراً أن يستجيب لإلحاح لوئاردو :

- إننى ياسيدى الدكتور لم أكن مثل هؤلاء الأجراء الرعاة الذين تراهم فى هذه البقاع ، فقد كانت أسرتى من خير العائلات التى كانت تقيم فى قرية «أتشاجواس» ، وكثير من أهل قرابتى ممن لا يزالون فى «سان فرناندو» وفى كاراكاس نفسها يعتبرون من ذوى المراكز الاجتماعية الكبيرة ، بل لعلك أنت تعرف بعضهم مثل فلان وفلان .

ثم ذكر له أسماء أشخاص ذوى مكانة كان سانتوس يعرفهم بالفعل ، وواصل كارمليتو حديثه قائلاً :

- أما أبى فلم يكن من ذوى الثروة الطائلة ، ولكنه كان ميسور الحال ، وكان من أملاكه تلك الضيعة التى تدعى «آفى ماريا» . وفى يوم من الأيام - وكانت سنى فى ذلك الوقت نحو خمسة عشر عاماً - هاجمت ضيعتنا عصابة من لصوص الماشية ، من تلك العصابات التى كانت تتخذ من كل تلك السهول مسرحاً لجرائمها ، والتى كانت ترصد الضياع فى مداخل قنوات المياه ومخارجها ، فلا تدع فيها مالاً إلا انتهبته ، وكان اللصوص قد قدموا للسطو على عدد من الخيول التى كنا نملكها . غير أن أبى أحس باقتربهم فى الوقت المناسب ، فاستدعانى وقال لى : «إن فى الحظيرة نحو أربعين جواداً ، وعليك أن تستخرجها ثم تمضى لإخفائها فى الجبل ، وخذ معك كل الرعاة الأجراء هنا حتى يعينوك على ذلك ، ولتظلوا هناك فلا تعودوا إلا إذا وجهت إليكم برسول» ، فصعدت بالأمر ، ورافقنى الأجراء الثلاثة الذين كانوا يعملون فى ضيعتنا ، وأخرجنا الخيول من الحظيرة ، ثم علقنا فى ذيولها بعض فروع الشجر حتى تعفى على آثار حوافرها وتعمى على اللصوص الطريق التى سلكناها للاختباء بها فى الجبل ، وظللنا هناك فى مكنتنا ونحن نراقب الدواب فى

رعيها خلال النهار وتتناوب حراستها فى الليل ، وليس معنا من الزاد إلا بعض قرب الماء المشدودة إلى سروج الخيل ، وقد كان ذلك العام شديد الجفاف ، وظللنا على ذلك أكثر من أسبوع لا نكاد نذوق خلاله طعاماً ، وأصابتنا حمى شديدة ، فضلاً عن لدغات بعض الهوام حتى تورمت وجوهنا وأجسادنا بحيث لم يكن فى وسع أحد منا أن يميز وجوه رفاقه . أما الماشية فقد أصابها الهزال وعلت أجسادها القروح بعد أن تعرضت للسعات ذباب الخيل والدود . وكنا فى انتظار ذلك الرسول الذى وعد أبى بيعثه إذا ابتعد خطر اللصوص ، فلما رأيت الأيام تمر دون أن نتلقى منه خبراً عزمت على أن أعود إلى الدار وحدى لأرى ما الذى يجرى هناك . الذى كان يجرى ؟... لقد كان كل شىء قد جرى بالفعل ، ولم يكن إلى رده من سبيل . إننى لم أكد أطأ عتبة الدار حتى انحسرت عن قدمى أسراب هائلة فظيعة من الدود ، وكان أبى وأمى هناك طريحين على الأرض ولم يبق منهما إلا هيكلان من العظام . وفى ركن من أركان الدار وجدت أخى الصغير - أخى « رافايل » الذى حدثتك عنه منذ زمن وقلت لك إننى أرسلت إليه لكى يأتى إلى هنا حتى يشتغل معى فى خدمتك ، وكان فى ذلك الوقت طفلاً يحبو ؛ إذ لم تكن سنه تزيد عن بضعة شهور ، لقد رفعته عن الأرض وهو مُشفٍ على الهلاك جوعاً .

وصمت كارمليتو لحظات ثم أكمل حديثه :

- إنك تعرف ياسيدى ذلك الرجل الذى يسمونه « السيد بيرنالييتى » ،
والذى أصبح الآن حاكماً مدنياً على هذه المنطقة . لقد كان حينذاك أحد أفراد
هذه العصابة من اللصوص المجرمين ، وهو ما يزال حتى اليوم حياً يرزق ؛ لأنه
كان الوحيد الذى امتنع من بينهم عن مد يده إلى والدى كما علمت فيما بعد .
أما الباقون فقد دفعوا ثمن جريمتهم واحداً واحداً . إننى أعرف أن غسل الدم
بالدم ليس أمراً حميداً يستحق الفخر ، ولكن هذا هو السبيل الوحيدة أمامنا

من نعيش فى هذه الأرض حتى نقتضى ديون الدماء المهدرة ... وأما أنا فقد انتهت بى هذه الأحوال إلى ما ترى ... إلى العمل هنا أجيراً ، ولو أن العمل معك وفى ظلك أمر أقبل عليه فى سرور ولذة .

وعاد كارمليتو إلى صمته بينما مضى سانتوس يعلق على الخبر بما كان معتاداً على الحديث فيه من إنكار فكرة الانتقام والحملة على كل سلوك يحمل المرء على أن يقتص بيده ممن ينبغى أن يوكل أمرهم إلى الله والقضاء .

وكانت ماريسيلا فى هذه الأثناء تسمع أطرافاً من الحديث ، ولكن الموضوع الذى استأثر بانتباه سانتوس واهتمامه لم يكن ليهما كثيراً ، ثم إنه كان يضايقها أن يظل مشغولاً عنها طوال ساعة كاملة لم يوجه خلالها إليها كلمة واحدة ، فشدت بعقبها على أضلاع الفرس حائرة إياها على الإسراع ، ورفعت صوتها بغناء إحدى تلك المقطوعات التى اعتاد فرسان السهول على أن يحدوا بها مطاياهم ، والتى ضمنوا كلماتهم تعبيراً عن كل ما يعتلج فى نفوسهم من أحاسيس مختلفة .

وابتعدت ماريسيلا ، فلم يعد سانتوس يميز كلمات الأغنية ، ولكن صوت الفتاة الجميل كان يتماوج فى رقة وحرارة ، وقطع سانتوس حديثه مع صاحبه حتى يتتبع غناء الصبية ، أما كارمليتو فقد نفّض عنه مرارة الذكرى الحزينة ، وأقبل بسمعه على نغمات الأغنية الممتعة ، فلما صمتت ماريسيلا التفت إلى سيده وقال :

- آه ياسيدى الدكتور ... لقد تبين لى أن كلينا مروض لا بأس به .
ألا ترى إلى «كثيرا» كيف استقامت خطواتها وتسوطاً ظهرها بعد أن قمت أنا باستئناسها ؟ ... وأما أنت ...

الفصل الثالث طيور الشؤم

كانت «الاختصاصات» فى «ضيعة الرعب» قد أحسن توزيعها واختيار أصلح رجل لكل منها: أما الطعنات الخفية الغادرة فقد كان ملكيادس «الساحر» هو فارس حليتها ، وأما السطوات المنكرة والسرقات المحكمة فقد كان بالبينو هو بطلها المغوار ، وأما الرسائل والسفارات التى كانت توجه بها السيدة باربارا فما كان لها إلا «خوان بريميتو» ، غير أن كثيراً من الرسائل التى كان يضطلع بها خوان بريميتو ، لم تكن دون تلك الطعنات المسددة التى تفنن فيها ملكيادس !

وكان رسول السيدة باربارا هذا نموذجاً بشرياً غريباً : كان قدراً مشعث الشعر بشع الهيئة ذا لحية هائلة منفوشة فى غير انتظام ولا تهذيب ، لم يفلح أحد فى حمله على قصها أو تشذيب أطرافها ، وكان غيباً أبله إلا أنه كانت تتملكه فى بعض الأحيان نزعات جنونية ثائرة ، ولم يكن ذهنه يخلو مع ذلك من التوهج بومضات من المكر الخبيث ، أما نزعات جنونه فقد كان من أغربها امتناعه عن شرب أى ماء فى بيوت «ضيعة الرعب» ، وكان تقززه من ذلك الماء يبلغ به إلى حد أنه لم يكن يتردد فى أن يسير على قدميه فراسخ طويلة بحثاً عن ماء يشربه فى أى مكان آخر . كذلك كان من نوادر جنونه ما اعتاده من ملء بعض أوعية الفخار بسوائل غريبة ثم وضعه إياها على سطوح أكواخ الضيعة حتى تشرب منها طيور وهمية لم يكن لها وجود إلا فى خياله ، وكان يطلق عليها اسم «طيور الشؤم» .

وما كان بوسع أحد أن يعرف حقيقة هذه الطيور الغريبة ، وكل ما كان يمكن استخلاصه مما كان خوان بريميتو يهرف به من كلام متضارب لا ترابط فيه هو أن تلك الطيور لم تكن إلا ضرباً من الرموز تتجسد فيها غرائز السيدة باربارا ونوازعها المختلفة ، ولهذا فقد كانت هناك دائماً علاقة بين كل نازعة شريرة تتحرك فى نفس تلك المرأة وبين السائل الذى يبدو لخوان بريميتو أن يصبه فى أوعية الفخار حتى تروى «طيور الشؤم» منها عطشها الرهيب ؛ فإذا أحس بأنها تدبر اغتيالاً أو كميناً فهو دم نجيع ، وإذا كانت تعد قضية ترفعها أمام المحاكم فهو خل وزيت ، وأما إذا شرعت فى نصب حبال سحرها لضحية جديدة من ضحايا عشاقها فهو مزيج من عسل النحل ومن مرارة يستخرجها من كبد حيوان !

- اشربى يا حشرات السوء ! اروى ظمأك ودعى النصرانى يعيش فى أمن وسلام!

هكذا كان خوان بريميتو يتمتم بينما كان يحكم رص أوعيته على السطوح !

وكانت «حشرات السوء» لا تتروى أبداً ، ومن أجل هذا زهد خوان بريميتو فى ماء «ضيعة الرعب» ، فقد كان يخشى أن يحل به بلاؤها وشؤمها إذا احتسى من ذلك الماء حسوة ؛ إذ كان يؤكد أن تلك الطيور الشيطانية لا تكاد تغمس مناقيرها فى ماء حتى يستحيل إلى السائل الذى تشتهيه ، فإذا اجتراً أحد على الشرب منه فإنه لا يلبث أن تصيبه العدوى أو تنقلب المقادير فينزل به الشر الذى كان مكتوباً على آخر .

ولم يكن لساكنى الضيعة عمل منذ أن تسامعوا بنأ قدوم صاحب التاميرا إلا التساؤل عن موعد وصول «طيور الشؤم» وقرب رؤية خوان بريميتو لها وهى

تخفق بأجنحتها فى سماء الضيعة ، ومنذ ذلك اليوم الذى أتى فيه سانتوس لوثاردو لم يكن لخوان بريميتو من شغل إلا تأمل السماء وترقب الأسراب الشيطانية ، وقد أعد أوانيه لمثلها بما يتراءى للطيور أن تشرب .

وكثيراً ما كان الأجراء الذى يعملون لدى السيدة باربارا يتخذون من الرجل المعتوه مادة للتندر والتفكه ، فيأتون إليه ليسأئلوه :

- كيف الحال ياخوان بريميتو ؟ ألم تظهر بعد البشائر ؟

فيسط يده على حاجبيه مظللاً بها عينيه ، ثم يرفع بصره إلى السماء كما لو كان يرى شيئاً فى الأفق البعيد الواضح ويجيب :

- نعم ، لكأنى أرى واحداً منها قد لاح هناك !

غير أن رجال ضيعة الرعب ما كانوا ليصدقوا عته خوان بريميتو وجنونه ، بل كانوا يعتبرونه مأكراً وخبيثاً ، ويرون أن مخرقاته هذه ليست إلا ستاراً لمكره وخبثه .

وأخيراً أتى خوان بريميتو إلى رفاقه فى الضيعة وصاح بهم :

- لقد وصلت «طيور الشؤم» إلى هنا فى النهاية ! تبارك اسم العذراء وتقدس ! انظروا يا أولاد . ألا ترون هذا السرب الهائل من تلك الطيور السود وقد ألفت على السماء الصحو المشرقة بثوب قاتم ؟

ولكن الذين كانوا يعرفون سر خوان بريميتو أدركوا على التو أنهم لم يكونوا بحاجة إلى رفع أبصارهم إلى السماء وإنما كان يكفيهم النظر إلى وجه السيدة باربارا بعد عودتها من القرية ، وقد تقطبت أساريرها وارتسم عليها ذلك التعبير عن الغضب والحنق .

ومنذ ذلك اليوم حتى بضعة أيام تلتها ظل خوان بريميتو يرقب من مرصده تحرك تلك الطيور الخيالية المشثومة حتى يعرف أى نوع من السوائل تريد أن يقدم لها حتى يروى ظمأها المسعور ، وسواء أكان منساقاً فى ترقبه ذلك بطبيعة جنونه أم من فيض مكره - إذ كان الجنون والمكر فى نفسه متمازجين بحيث لا يستطيع أحد ولا هونفسه أن يعرف أين ينتهى هذا وأين يبدأ ذاك - فقد كان بين مطالعته لصفحة السماء يسترق النظر من وقت لآخر إلى وجه السيدة باربارا حتى يستكنه ما هى مقدمة عليه .

- تراه خلأً وزيتاً ما تريد تلك الحشرات الملعونة أن تطفى ظمأها به ؟ لا ... لست أظن ذلك ؛ إذ إن العادة فى مثل هذه الحال هى أن نرى السيدة وقد قلبت ما فى البيت رأساً على عقب نابشة عن أوراق ووثائق !... إن خفق هذه الأجنحة مألوف لدى على أية حال ، أم تراه مزيجاً من شهد النحل والحنظل النقيع ؟ ولكن الأمر لو كان كذلك لرأيناها تصفق بأجنحتها فى طرب ومرح . غير أنها تطير فى صمت عميق . يالله ... إن الذى يبدو لى هو أن ظمأها هذه المرة لن يرويه إلا الدم المسفوك !...

وهكذا مضت أيام ، وخوان بريميتو فى حركة دائبة وعمل لا يعرف الهدوء بين أوعية الفخار المصفوفة على السطوح ، وبرك الدم التى تتخلف عن رءوس الماشية التى تذبح فى الضيعة لكى يتغذى ساكنوها على لحومها ، وخلايا النحل يشتر منها بعض عسلها ، ومشارب الضيعة حيث كان يتزود بقليل من الخل والزيت . وكان فى أثناء ذلك يتطلع إلى وجه السيدة باربارا فيرى أساريرها لا تنفرج والعبوس مازال ملازماً لها ، فيتحول جنونه الأبله إلى انفعال عصبي هائج .

والواقع أن هذا الانفعال الهائج كان هو الذى استولى أيضاً على نفس باربارا . كان الغيظ يملك روحها ؛ لأنها لم تستطع أن تسكت إلى الأبد ذلك

اللسان الذى جسر على أن يقذف فى وجهها بأول تهديد يصك سمعها : « وإذا كانت السيدة ترفض الاستجابة لما أطلب فإنى سأمنحها مهلة ثمانية أيام ، فإذا انقضى الأجل دون أن أرى منها قبولاً فإنى سأرفع الأمر للقضاء ! » .

وانصرفت باربارا خلال هذه الأيام إلى نشاط محموم فى أعمال الضيعة اليومية كما لو كانت ترى فى العمل تنفيساً عن ذلك الغيظ الذى كان يأتكل فى روحها ، فكانت تقضى اليوم كله وهى على ظهر جوادها وقد بدت فى هيئة مسترجلة مثيرة للاشمئزاز : سراويل مما يرتديه الرجال تغطى ساقىها حتى عقبيها ، بينما شمرت ثوبها النسائى المعقود بخصرها وعقدته إلى سرج حصانها ، وبيدها الأنشطة التى اعتاد استخدامها رعاة البقر ، وهى تركض لاقتناص كل رأس ماشية من ضيعة التاميرا تراها سارحة فى أرضها ، وكلمات السباب وأقذع الشتائم تتزاحم على شفثيها لمن يبدو منه أدنى خطأ أو إهمال من جانب رجال ضيعتها ، وقد أدمت بمهمازها ظهر جوادها وأضلّاعه، أما الليل فقد كانت تقضيه وحيدة مغلقة على نفسها أبواب تلك الصومعة التى خصصتها لمناجاة « الشريك » الشيطانى حتى صباح الديكة مؤذنة بمطلع الفجر .

وكانت لا تنفك خلال مناجاتها الطويلة للشريك تردد هذا السؤال وهى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً بينما كان خوان برمييتو يسمع حديثها من وراء الباب :

- لنر ما إذا كان سيجرؤ على إنفاذ ما أوعده به !

ويؤكد خوان برمييتو أنه كان يسمع فى كل مرة جواب « الشريك » على ذلك السؤال :

- أجل ... سيجرؤ !

ولم يكن ذلك إلا صوتها هي ... صوتاً خشناً متهدجاً يشوبه الغضب العاجز اليائس نابعاً من اقتناعها العميق المستقر في قرارة نفسها بأن لوئاردو لابد أن يفى بما أنذر لها به .

وحيثما حل اليوم الأخير الباقي من الأجل الذي ضربه لها نادى باربارا رسولها ، فهرع هذا إليها ملبياً النداء وقد ارتسم على وجه الأبله تعبير عن الذعر المتطير والاستسلام الذليل ، ووقف منتظراً ما تأمر به ، وقد انتشبت أظافره السود في شعر لحيته الكثة القذرة .

- اذهب الآن إلى التاميرا ، فاسأل عن الدكتور لوئاردو وأبلغه أنني مستعدة لإجابته إلى ما طلب من فصل ماشيته عن ماشيتي ، واطلب إليه أن يحدد المكان والساعة لكي يلتقى رجاله برجالى من أجل إتمام ذلك العمل .

وكان خوان برمييتو ينظر إلى عيني المرأة ، فيرى أحداقها السود يلتمع فيها الشر المخبوء والنية الخبيثة وهي تلقى إليه بأوامرها ، فأسرع إلى أوعية الفخار يملؤها من الدماء المتجمعة في حوض مذبح الضيعة ، ثم أحكم وضعها على سطوح الأكواخ وهو يتمتم :

- نعم ! كان الدم هو ما تشتهى شرابه هذه المرة !

وأقبل يتطلع إلى السماء ويقول :

- اشربى يا حشرات السوء ! .. اروى ظمأك ودعى النصرانى يعش فى أمن وسلام ! ...

ومضى خوان برمييتو يشد فى سيره ، ما كان هناك أحد يدانيه فى طي المسافات وابتلاع الأميال ، وهو بين حين وحين يلتفت برأسه إلى وراء كأن أحداً يطارده وهو يتمتم :

- تباً لهؤلاء النسوة ... أخوات الشياطين !

ولم يكن يقصد بكلامه هذا السيدة باربارا ، ولا كان يعبر عن تدمره أو ضجره بالمهمة الموكولة إليه ، ولكنه كان يعنى المرأة بوجه عام ، وكان هذا واحدة من نزعاته الجنونية ، فقد كان يتصور أن النساء يتعقبنه لكي يلحقن به كيدهن ، وقد ألح عليه هذا الشعور إلحاحاً شديداً وهو فى سيره المحموم عبر المروج الفسيحة الخالية .

ولم تكن الرسالة التى حملته إياها سيدته هى الحافز الوحيد الذى يحثه على الإسراع ، بل كان هناك دافع آخر ، هو شوقه إلى رؤية ماريسيلا .

نعم ... كانت ماريسيلا هى الإنسان الوحيد الذى استطاع أن يشير فيه شعوراً من الود والمحبة ، حتى لم يكن هناك ما يلتذ به ويرتاح إليه أكثر من مبادلتها الحديث . كانت ماريسيلا هى أول مخلوق يطلع على ذلك الجانب الصغير المشرق من جوانب روحه المظلمة البلهاء ، جانب المראה الإنسانية الكامنة فى نفس هذا المعتوه . كان خوان بريميتو قد شهد مولدها ، بل إن الاسم الذى اختير لها لم يكن إلا من اقتراحه هو ، وبين ذراعيه وجدت أول مهد رفيق حنون بعد أن نبذتها أمها وكرهها أبوها ، كان خوان بريميتو هو مربيتها الرءوم يحيطها بعطف غريب غامض المصدر من ذلك النوع الذى يحسه الأغبياء المعاتيه ، إحساساً تلقائياً لا تصنع فيه ولا هدف من ورائه ، وكانت أول كلمات رقيقة حلوة سمعتها ماريسيلا هى التى وجهها إليها حينما كان ينادىها بقوله «ياسواد عينى» ... كلمات تنبعث من بين مشافره الغليظة التى تحف بها غابة من الشعر الكثيف القدر كما ينبعث الشهد من بين الخلايا السود ، ولم يكن يقع إلى يدى هذا المسكين أى قدر من النقود إلا أنفقه فى هدايا يختص بها «سواد عينيه» من تلك السلع الرخيصة التى يحملها الباعة المتجولون ممن كانوا يجوبون بعرباتهم تلك البقاع . بل إنه كان من الممكن أن تموت الطفلة جوعاً - حينما طرد أبوها لورنشو باركيرو من ضيعته واضطر إلى اللجوء بها إلى ذلك المرج

المقفر المهجور فى «لاتشو سميتا» منصرفاً إلى خمره وسكره - لولا أن تداركها خوان برمييتو بعنايته ورعايته ، فقد كان هو الذى يحمل إليها كل يوم فضلات ما يأكله الرعاة والأجراء فى ضيعة أمها ، ويعلم الله مدى الجهد الذى كان يتكبده فى جمع تلك الفضلات أو استجدائها قبل أن يأتى إلى الصبية وقد ملأ بها جعبته ليقدمها إليها وهو يقول والابتسامة البلهاء ترسم على وجهه : «هأنذا قد أتيتك بلقيماتك ياسواد عيني !» ،

فإذا فرغت من طعامها أقبل عليها بأحاديثه الغريبة ونوادر جنونه وهذيانه التى كانت تدخل السرور إلى قلبها ، وكانت الصبية تتمتع بهذا الحديث فتطلق ضحكاتها المرحية ، وكان هو يجد لذة فى بث المرح فى نفسها وفى الاستماع إلى رنين ضحكها . كانت روحاهما متجاوبتين انعقدت بينهما مودة متبادلة هى شعاع من النور فى ظلمات هذه الحياة البائسة الساذجة .

ولكن سانتوس لوئاردو حرم الرجل من تلك المتعة التى بقيت له من متع الحياة حينما حمل معه ماريسيلا إلى داره فى ألتاميرا . وعلى الرغم من ذلك فما كان خوان برمييتو ليدع زيارة الفتاة كل يوم - إذ إن المسافات لم يكن لها وجود عند الرجل - لولا أن الأجراء والرعاة فى «ضيعة الرعب» كانوا لا يكفون عن التندر به ومطاردته بمعايشتهم الغليظة الجافية ، فلم يكن أحد منهم يراه حتى يقول له فى سخرية :

- مسكين خوان برمييتو ... لقد انتزعوا منه خطيبته !

فكان يهيج ويغضب ، ولم تلبث هذه العبارات المتكررة أن أثارت فى قرارة نفسه بركة من المشاعر الموحلة كانت مخبوءة نائمة : غيرة وحشية ، وأفكاراً خبيثة عكرت ذلك الود الصافى بينه وبين الصبية ، وهكذا تحولت ماريسيلا فى خيالاته المجنونة إلى واحدة من أولئك النساء اللاتى كن يطاردنه

عاريات الأجساد عبر المروج المقفرة ، كأنه نبي تحاول أن تفتنه عن ربه مغريات الحياة !

كانت هذه الأفكار السيئة تلح عليه فى قسوة بالغة ، فتتغص عليه عيشه ، وتعرضه لأزمات كان يتخبط فيها كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، وبلغ ذلك به حدًا كادت السيدة باربارا معه أن تلقى به إلى أحد تلك المستشفيات التى خصصت لإيواء المجانين .

ومضى الزمن ، وانحسرت عن خوان بريميتو تلك النزعات الجنونية والأزمات العصبية ، وبدا كأنه يحاول نسيانها ومحوها من ذاكرته ، حتى إنه كان يتجنب النطق باسمها ، فإذا سأله أحد عنها أجاب :

- ألا تعلم أنها ماتت ؟ أما تلك التى تعيش فى ألتاميرا فإنها شخص آخر !.

* * *

ومع ذلك فإنه لم يكلف بإبلاغ رسالة السيدة باربارا إلى صاحب ألتاميرا حتى مضى ركضًا لم يألفه هو نفسه من قبل مع ماعرف عنه وشهر به من الإغذاء فى السير ، بل كان يرى أن قدميه لا تعينانه على ما كان يرجو من شدة العدو ، فقد كان يحثه الأمل فى رؤية «سواد عينيه» من جديد .

وأخيرًا بلغ دار سانتوس لوثاردو ، وكانت ماريسيلا هى أول من خرج لتلقيه ، وبدأت له حقًا كأنها شخص آخر على حد ما كان يقول ، ولم يتمالك الأبلسه نفسه ؛ إذ جمد فى مكانه وقد أصابه ضرب من الدهول ، ثم صاح :

- أهى أنت ... ياسواد عيني ؟

وضحكت ماري سيلا ضحكة فيها مزيج من الحياء والفرح لرؤيته :

- ومن أكون إذن ياخوان برمييتو ؟

- يالله ! لقد تحولت أيتها الطفلة إلى امرأة رائعة الجمال ! بل إنى أراك وقد امتلأ جسدك وبدت عليك معالم الصحة والقوة دليلاً على أنك الآن تأكلين وجبات كاملة من الطعام ! وهذا الثوب البديع ، من الذى اشتراه لك ؟ وهذا الحذاء ؟ يا للعجب ! ... أنت ... تلبسين الآن حذاء ؟ من كان يصدق ذلك ياسواد عيني ؟ !

واحمر وجه الفتاة خجلاً وقالت :

- ياه !.. لقد أصبحت ثقيل الظل كثير السؤال ياخوان برمييتو !

- أما أنت فقد أصبح من نعمة الله النظر إليك وأنت فى هذه الهيئة . إنك الآن أجمل من زهرة الأعاجيب !.. أى سر أودعه الله الثياب حتى يحيل من يرتديها إلى شخص آخر مختلف كل الاختلاف !

- هذا لكى تتعلم إذن ، حتى تغير هذه الخرق التى مازلت تحملها على جسدك ، والتى تبعث القشعريرة فى نفس من يراها .

- أنا ؟ ... أتريدى منى أن أرتدى ثياباً نظيفة ؟ ذلك شىء يصلح لك أنت ؛ إذ لديك من تريدى إعجابه ، وخبرينى بهذه المناسبة : أهو يحبك كثيراً ؟ قولى لى الحقيقة .

فاحمر وجهها من جديد وهى تقول :

- لا تكن أحمق ياخوان برمييتو .

ولكن خجلها هذه المرة كان من نوع جديد ومعبراً عن مشاعر أخرى ، وكان يصبغ خديها حتى يكاد الدم يتفجر منهما ، بينما كانت أهدابها الوظف تسبل عليهما ظلاً ناعماً رقيقاً .

ولكن الأبله مضى يتساءل فى لهجة تعريض :

- هم ... م ... م !... لا تحاولى الإنكار ؛ فأنا أعرف كل شيء ...

وهمت ماريسيلا بالاعتراض حتى يستمر خوان برمييتو فى مداعباته وتعريضاته ؛ إذ إن حديثه كان فى الحقيقة يلقى من نفسها قبولاً وارتياحاً ، لولا أن الرجل أكمل عبارته بقوله :

- ... نعم . أعرف كل شيء ؛ إذ قد أدلى به إلى طائر صغير يكشر المجئ هنا !

وبدر منها سؤال نطق به لسانها بغير وعى :

- أهو واحد من «طيور الشؤم» ؟

وتداعت المعانى فى ذهن الفتاة بعد هذا السؤال الذى فاه به لسانها بشكل آلى ، فبدا الجد على وجهها فجأة ومضت تسأله مرة أخرى :

- كيف حال تلك الطيور هناك ؟ ألا تزال أسرابها تترى فى ضجيج وجلبة ؟

وكان لفظ «هناك» هو الذى تستخدمه ماريسيلا إذا أرادت أن تشير إلى أمها ، إذ لم تكن تسميها باسمها أبداً .

وأجاب خوان برمييتو :

- لا تذكرينى بذلك يا بنية ! إن الحياة هناك فى «ضبعة الرعب» أصبحت لا نطاق ! فإن هذه الحشرات لا تكف أسرابها عن التهويم على سطوح الأكواخ وهى ترج الجو كله بصفقات أجنحتها طوال اليوم . تبارك اسم العذراء المقدسة ! لقد ضاق ذرعى بمعالجة تلك الطيور الملعونة التى انشالت علينا من أغوار الجحيم . وما كان أشد رغبتى فى أن آتى لأعيش هنا ... إلى جوارك يا بنية ،

ولكنى لا أستطيع . إن مكانى هناك لأرد غائلة «طيور الشؤم» هذه ، ولأضع لها شرابها فى الوقت الملائم . إذ لو لم أفعل ... آه ! ... إنك لا تعرفين ما تجشمنى هذه الطيور من عناء ... إن تلك الحشرات الملعونة خبيثة يا سواد عينى ... خبيثة حقًا ! ...

وعادت ماريسيلا للتساؤل فى لهجة ذات مغزى تشف عن القلق الذى بدأ يساور نفسها :

- وما الذى وضعت أنت لشرابها فى هذه الأيام ؟

فأجاب وفمه يفتقر عن تلك الابتسامة العريضة البلهاء :

- دماء نجيعًا يا بنيتى ... ما أغرب ما تشتهيئه تلك الطيور ؟ وهل هناك أغرب من أن تتوق إلى احتساء الدم وهو ما هو من قبح المنظر وبشاعة الطعم ؟ أليس كذلك يا بنية ؟ لقد فرغت الآن من ملء أطباق الفخار لها بالدماء ، وأظنها الآن قد ارتوت منه حتى الامتلاء ! ...

ثم غير خوان بريميتو مجرى الحديث فسأل الفتاة :

- أخبرينى قبل أن أنسى : أين الدكتور لوثاردو ؟ فأنا أحمل إليه رسالة من السيدة ...

وكان رسول باربارا قد تعمد أن يلقي بسؤاله عن لوثاردو بعد حديثه مع ماريسيلا عن «طيور الشؤم» تدبيراً منه كان يصطنعه عندما تحمله سيدته رسالة إلى أحد حتى يلقي فى روعه طرفاً من نوايا المرأة إزاءه ، ويبث فى نفسه بذلك هاجساً من الخوف والرغبة ، وفطنت ماريسيلا إلى ذلك ، فاقشعر جسدها ذعراً ، وصاحت فيه وقد تملكها الغضب :

- حتى متى ستظل مشتغلاً بهذه الحرفة أيها الشقى الأبله ؟ ليكون هلاكك من جراء تلك الرسائل التى تغدو بها وتروح ! ... اخرج الآن من هنا ولا تعد أبداً ! .

وهنا أطل سانتوس لوثاردو وكان واقفاً بمقربة يتسمع الحديث الذى كان
يجرى بين ماريسيلا والرجل المعتوه ، فتدخل قائلاً :

- دعيه يا ماريسيلا ... وأنت ياخوان برمييتو ، أى رسالة هى تلك التى
أتيتنى بها ؟

والتفت خوان برمييتو وقد أتى صوت لوثاردو منقذاً له من ثورة الفتاة ،
وأبلغه رسالة السيدة باربارا بكلماتها حرقاً بحرف ، بينما كان ينشب أظفاره
السود القذرة فى شعر لحية الغليظ المتكاثف .

- أبلغ السيدة جوابى عن رسالتها : إننى سأنتظرها ورجالها فى «الخميلة
القائمة» غداً عند مطلع الفجر ، وسيكون معى الرجال اللازمون .

قال سانتوس لوثاردو ذلك ومضى داخلاً إلى الدار .

وانتظرت ماريسيلا قليلاً حتى أصبحت بمأمن من أن يسمعها سانتوس ،
فلما اطمأنت إلى ذلك قبضت بيديها على ذراعى خوان برمييتو ، فجعلت تهزه
فى عنف وهى تقول :

- لتعلم أنك إذا عدت ثانية حاملاً إلينا رسائل من هناك فلاهيجن وراءك
كلاب الضيعة حتى تقتص بشارى منك !

فصاح الرجل فى جزع وخيبة أمل :

- ورائى أنا ... ياسواد عينى ؟ ...

- نعم ، وراءك أنت . والآن اغرب عن وجهى ، وابتعد من هنا بأسرع
ما تستطيع ! ...

وعاد خوان برمييتو إلى «ضيعة الرعب» وقد ملأ نفسه الحزن من أجل
ما ودعته به الفتاة «سواد عينية» ، وهو الذى كان قد ذهب لرؤيتها وقد غمر قلبه

السرور بلقائها من جديد . وشعر بأنه منكود سئ الحظ ، وإلا فما غضبها منه وهو الذى أراد بها وبلوثاردو الخير ؟ ... أما كان من النصيحة لهما أن يقول ما قال عن الدم حتى يطلع لوثراردو على شيء مما تدبره له المرأة فيأخذ بعد ذلك حذره ؟

على أنه لم يصل إلى حيث كانت السيدة باربارا حتى زايله شعور الحزن والانقباض ، ثم أدلى للمرأة بما قاله له لوثراردو ، فما إن ختم رسالته حتى شرع يتحدث عن ماريسيلا :

- لو أنك رأيته ياسيدتى لما استطعت معرفتها . لقد كانت صبية فتحوّلت إلى شابة بالغة الجمال : وماذا أقول فى عينيها الساحرتين ؟ ... إنهما أجمل من عينيك أنت ياسيدتى ! ... ثم إنها أصبحت نظيفة أنيقة حتى إن النظر إليها متعة ما بعدها متعة . وما أجمل تلك الثياب التى ألبسها إياها الدكتور : من الحذاء فما فوقه ! ... حقاً إنه من النعيم ياسيدتى أن تكون بقرب الرجل امرأة فى جمال هذه الفتاة ! ...

وما كان ليهم السيدة باربارا أى حديث متعلق بماريسيلا ، فهى لم تشعر نحوها بذلك الحب الغريزى الذى تحسه الدابة الأم نحو وليدها الرضيع ، ولهذا فإن كلمات خوان برمينتو لم تثر فى نفسها الآن إلا شعوراً دافقاً بالغيرة: غيرة امرأة من امرأة ... لا أكثر من ذلك ! ...

وأخيراً عمدت إلى إسكات رسولها الثرثار ومنعه من الاسترسال فى الكلام :

- حسناً ... إن هذا حديث لا يهمنى فى شيء ، فانصرف عني الآن .

ولكن خوان برمينتو لو أمعن النظر حيثذ قليلاً فى وجه المرأة لاستطاع أن يعرف أى نوع من الظمأ قد استبد ساعتهما بطيور الشؤم .

الفصل الرابع المجاوله

فى تلك الليلة لم يكن هناك حديث فى ألتاميرا إلا عن رسالة السيدة باربارا إلى سانتوس لوئاردو ، فقد كانت هذه أول مرة تعترف فيها المرأة الجبارة بالهزيمة وتستسلم لها . وفى فجر اليوم التالى اجتمع رجال الضيعة ، وأقبلوا على خيولهم يسرجونها بينما كان أنتونيو ساندوفال يوصيهم .

- أظن من الخير أن يعمل كل من لديه مسدس منكم على حملة ، فربما لم تقتصر مجاولاتنا اليوم على رءوس الماشية .

وأجاب باخاروتى :

- أما أنا فساخرج بغير مسدس ، فقد رهنته منذ أيام ، ولكنى قد دستت تحت ثيابى سكينًا كبيرة يبلغ طولها نحو نصف قصبة ، وعلى أية حالة فإنها لو قصرت عن بلوغ الهدف فإن فى مدة ذراعى ما يكفيها طولاً .

ومضى الركب بعد ذلك قبل أن ينشق نور الصباح وقد استعدوا لكل طارئ ، فتوجهوا إلى «الخميلة» وعلى رأسهم سانتوس لوئاردو .

وكان الركب يتألف من الرجال الخمسة الذين ظلوا على وفائهم لسانتوس لوئاردو والذين استقبلوه عند قدومه إلى الضيعة ، ثم ثلاثة آخرون من رعاة السهول لم يستطع أنتونيو الإتيان بهم إلا بعد جهد جهيد ، وذلك لأن السيدة باربارا كانت قد جلبت إلى أرضها كل يد عاملة قادرة حتى تحرم منها ضيعة ألتاميرا ، ولكن الرجال الثمانية كانوا من خيرة أهل السهول فروسية وبسالة ،

وكانوا على استعداد لبذل كل شيء فى سبيل ذلك الرجل الذى قدم لكى يواجه إقطاعية حوض «الأراوكا» ويوقفها عند حدها .

وكانت المروج ماتزال نائمة قد لفها الظلام بثوبه الأسود، وران عليها الصمت تحت بريق النجوم المتألقة ، وعلى وقع حوافر الخيل وهى تتوغل براكبيها فى المروج كانت تبدو فى الأفق البعيد قطعان من الثيران والخيول الوحشية وهى تفر مذعورة خائفة منذ أن اشتمت رائحة الإنسان المقرب . وكانت العيون لا تميز منها إلا كتلاً سوداء متحركة كأنها قطع من الليل المظلم تتحرك هنا وهناك بين أدغال الأعشاب ، ولها هزيم مكتوم ، وللأعشاب المنفرجة عن أسرابها حفيف خافت ، غير أن رجل السهول بما يتمتع به من حاسة مرهفة لم يكن بحاجة إلى مزيد من الشواهد لكى يميز تلك القطعان بعضها عن بعض كأنه يراها عن كذب رأى العين :

- هذا هو القطيع الذى يقوده الثور الأحمر ، والذى يسرح فى «مرج الكرمة» .

- وذلك هو قطيع «ذى القوائم السود» متجهاً إلى «الكوروثاليتو» .

ووصلت القافلة أخيراً إلى مكان الاجتماع وقد لاحت خيوط الصباح ، وكان رجال «ضيعة الرعب» قد بكروا فى القدوم واكتمل عقدهم هناك تتقدمهم السيدة باربارا ، وكانوا قد وطنوا العزم على أن يفسدوا العمل الذى قدم من أجله لوئاردو ، فيغتنموا فرصة اشتغاله هو ورجاله بجمع ما يجده من ماشيته فى مكان من أمكنة الضيعة ، بينما يعمدون هم على تهيجها وحملها على الفرار فى مكان آخر ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من رءوس ضيعة ألتاميرا التى كانت فى أرض السيدة باربارا كان يتألف من أبقار استولت المرأة على عجولها الصغار التى كانت بعد فى سن الرضاع ، فوسمت جنوبها بميسم «ضيعة الرعب» ، وكانت هذه هى الطريقة المفضلة لديها فى الاستيلاء على

ماشية جيرانها بالتواطؤ مع من تستطيع شراء ذمتهم من مديري الأعمال لضياح أولئك الجيران الذي يهملون النظر في أمور أرضهم .

غير أن أنتونيو فطن إلى ما كانت أعدته من تدبير بحكم معرفته بأساليب المرأة في تجاربه الماضية ، فلم يكذب يرى العدد الكبير من الرجال الذين أتت بهم باربارا حتى همس في أذن صاحبه :

- لقد أتت بهؤلاء الناس كأنهم سيعينونك على جمع ماشيتك حتى تطمئن وتدخل الثقة نفسك ، فتقوم باستشارة الماشية كلها في وقت واحد ، وحينئذ يعمل رجالها على تهيجها حتى تنفلت منا في أنحاء المروج ، ويكون من العسير بعد ذلك أن نميز ماشيتنا ونستخلصها من بين تلك القطعان .

ورسم سانتوس خطته بسرعة على ضوء هذا التحذير الذي أفضى به تابعه إليه . ثم دنا قليلاً من الموضع الذي وقفت فيه السيدة باربارا ، وحياها برفع قبعته وهو في موضعه ، ولكنها تقدمت نحوه مادة إليه يدها ، وعلى شفيتها تلك الابتسامة التي يكمن المكر فيها وراء ظاهر من الوداعة والنعومة . ولم يكذب سانتوس يحقق النظر فيها حتى بدت على وجهه مظاهر الدهشة ؛ فقد تغير مظهرها حتى كأنما تحولت إلى امرأة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن تلك الخشنة المسترجلة التي رآها منذ أيام في مكتب الحاكم المدني للمنطقة .

كانت باربارا تبدو في هذه اللحظة امرأة مكتملة الأنوثة ، وقد أسبلت عينيها المتألفتين الساحرتين كأنما تنتظر قبلة من رجل ، وضمت شفيتها المكتنزتين فارتسم إلى جانبيهما في وجتيتها قوسان أبرز جمال طلعتها ، وكانت تعقد في جيدها منديلاً من الحرير الأزرق تتهدل أهدابه على صدرها فوق فتحة ثوبها الواسعة ، أما الجزء الأسفل من ثوبها فقد كان من ذلك النوع الذي يستخدمه النساء عند ركوب الخيل ، ولاحظ سانتوس أنها لم ترتد من زى الرجال الذي اعتادت لباسه إلا تلك القبعة العريضة من السعف المجدول ،

مما يستخدمه رعاة السهول ، وإن كانت قد أحكمت إثباتها على رأسها فى دلال
حلو وأنوثة رقيقة ، حتى الطريقة التى انتصبت بها على صهوة جوادها كانت
على النحو المألوف لدى النساء ضامة ساقها إلى جانب من ظهر المطية لا كما
اعتاد الناس هناك أن يروها حين تركب . نعم ... كان كل شىء يدل على أن
باربارا فى تلك الساعة لم تعد تلك المرأة المسترجلة التى ييست على جسدها
كل علائم الأنوثة .

ولم يغب عن سانتوس أنها لم تصطنع هذا المظهر الجديد إلا لتقع من نفسه
موقع القبول ، ولكنه على الرغم من تأكده من ذلك لم يستطع أن يتمالك
شعوراً قاهراً بالإعجاب بها .

وأما هى فإنها لم تكذ تنظر إليه بدورها حتى أمحت عن قسماتها تلك
الابتسامة التى تستبطن المكر والخبث ، وداخلها ذلك الشعور الذى أحست به
من قبل : بأن حياتها منذ تلك اللحظة منساقة فى تيار جديد غريب لا تعرف
إلى أين سينتهى بها ، شعور غامض يضطرب دائماً فى نفوس المؤمنين بالقدر
المكتوب الذى لا حيلة للإنسان فى دفعه ولا رده ، ويلقى فى أنفسهم إرهاباً
بما بيته الغيب لهم دون أن يستطيعوا منه نجاة ولا فكاكاً . لم تعد باربارا تذكر
تلك الكلمات المتوددة الملائمة التى كانت قد أعدتها فى عناية لهذه المناسبة ،
وانحسرت عن قلبها المظلم تلك النوايا السود التى كانت تستمد وجودها من
العاطفة الوحيدة التى وجهت حياتها حتى ذلك اليوم : عاطفة البغض الشديد
للرجل ... لكل رجل ! شعرت باربارا فجأة ، بأن كل ما كانت تحس به نحو
الحياة ونحو الرجال قد زایلها فجأة ، وحل محله إحساس جديد ... ماكنه وما
طبيعته ؟ سؤال لم تستطع هى أن تجيب عنه فى تلك اللحظة .

وتبادلت معه بعض الكلمات ، وكان سانتوس لوثاردو يتوجه إليها
بالخطاب فى أدب بالغ وتهذيب رقيق كما لو كان يتحدث فى بعض حفلات

المجتمع الرفيع مع سيدة جديرة بالاحترام ، فكانت تتعثر فى الجواب وقد بهرتها هذه الكلمات المستقاة المهدبة ، وإن كانت فى الوقت نفسه جافة باردة . وكان أكثر ما أخذ بنفسها هو ما كانت ترى عليه من مظاهر الرجولة الحقة ... من ذلك المزيج الذى لم تره فى رجل قبله من الشعور بالكبرياء والكرامة والحديث اللطيف الرقيق . وهى تستعرض الآن من موهبها على حياتها من رجال ، فتري بين سانتوس لوئاردو وبينهم بونا شاسعاً ، فهى لم تجد فى أحد منهم ما تجده الآن فى هذا الفتى من علائم القوة والاعتداد بنفسه ، تلوح فى نظراته الحادة التى تبدو كأنها نار هادئة ، وفى التعبير الصارم الرزين الذى يرتسم على وجهه ، وفى الكلمات القليلة التى يبين عنها فى إفصاح وضغط على مخارج الحروف .

كان سانتوس لا يتحدث إليها إلا بقدر - حديثاً موجزاً متعلقاً بشئون العمل ، ولكنها كانت تجد فى حديثه راحة لنفسها ، وفى الاستماع إليه لذة وممتعة .

وكان بالبينو بايلا لا يرفع نظره عنهما وقد رابه وساء ما بدا على باربارا من إعجاب بالفتى وارتياح إليه ، ولكنه كان يحاول مداراة امتعاضه وضيقه بالتندر على سانتوس والسخرية منه مثيراً بذلك ضحكات رجاله من رعاة «ضيعة الرعب» وأجرائها، هذا بينما وقف رجال لوئاردو بعيداً يتبادلون الحديث والتعليق على ما يرون .

وبدأ سانتوس بعد لحظات يلقي بأوامره وتعليماته حول سير العمل ، ولكن بالبينو الذى لم تكن تستقر فى رأسه أية فكرة خبيثة لم يستطع البقاء فى هدوء ، فسارع إلى مقاطعته :

- إننا ثلاثة وثلاثون رجلاً ، ويمكن لنا جميعاً أن نستشير الماشية كلها فى وقت واحد ، فإن ذلك خير للإسراع فى العمل .

وشعر بالبينو بالارتياح ، كأنما تخلص بكلمته هذه من عبء كان يشغل ظهره ، وتبادل أنتونيو النظرات مع سانتوس ، ثم أجاب هذا :

- لا . لا ضرورة لذلك ؛ إذ إننا سنعمل اليوم فى جماعات صغيرة يشترك فى كل منها رجال منا ومنكم : رجل منا لكل ثلاثة منكم ؛ إذ إن من أتيتم به يبلغون ثلاثة أضعافنا نحن .

فاعترض بالبينو :

- وهذا الخلط بين رجالنا ورجالك ، ما العلة فيه ؟ لقد كان العمل دائماً يتم هنا على أساس أنكم فريق وأنا فريق ، ثم يشتغل واحد بتميز الماشية فى مرج من مروج الضيعة ، بينما يقوم الثانى بتمييزها فى مرج آخر .
- نعم . أعرف ذلك ، ولكن العمل سيتم اليوم على أساس جديد .

وعاد بالبينو إلى السؤال فى لهجة احتجاج واستنكار ؛ فقد كان ما اقترحه سانوس لوئاردو مفسداً للخطة التى كانت باربارا قد رسمتها من قبل ؛ إذ إن وجود رجل من رجاله مع كل جماعة من رجالها كان كفيلاً بأن يضمن مراقبة العمل والحيلولة بين أتباعها وبين ما أرادوه :

- هل أفهم من هذا أنك لا تثق فىنا ؟

وهم لوئاردو بالجواب ، لولا أن باربارا تدخلت قائلة :

- سيكون العمل كما أردت أن يكون يادكتور لوئاردو . وإذا كنت ترى أن رجالى يزيدون عما يقتضيه العمل ، فإننى مستعدة لصرف من تريد منهم .

فقال لوئاردو فى جفاف :

- لا حاجة بنا إلى صرف أحد منهم ياسيدتى .

وعقدت الدهشة ألسنة رجال «ضيعة الرعب» ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ... نظرات كانت تعبر في وجوه بعضهم عن الاستياء والتذمر ، وفي وجوه آخرين عن التعريض الماكر بما قد أصاب سيدهم من تحول له دلالة ، اختلف ذلك بحسب درجة الإخلاص الذي كان هؤلاء وأولئك يشعرون به نحو المرأة ، بينما ارتفعت يد بالينو إلى شاريه يربت عليهما كما كانت عادته كلما وخر الغيظ صدره ، أما رجال سانتوس فقد كانوا يراقبون المشهد في صمت ، وإن كان باخاروتى قد انطلق - وهو يصطنع التشاغل بشيء آخر - يدندن أغنية في صوت لا يكاد يبين من بين أسنانه :

- الثور يصفر للبقرة ، فتحن له وتهرع .

وأما العجل الصغير فينصرف عنها إلى حال سبيله ...

ولم تكن أغنية باخاروتى إلا تعريضاً عبر به عن الفكرة التى دارت برءوس جميع الحاضرين :

- لقد وقعت المرأة فى غرام سانتوس لوئاردو ، أما بالينو فليوطن نفسه على قرب الرحيل ، وليبحث لنفسه عن «مرعى» آخر !

والتفت لوئاردو فى هذه الأثناء إلى أنتونيو ، فقال له :

- تكفل أنت يا أنتونيو بإدارة هذا العمل وتوزيعه .

وبدأ أنتونيو فى إلقاء أوامره باعتباره نائباً عن سانتوس ووكيلاً له فى إدارة شئون الضيعة ، فقال وهو يتجه إلى رجال السيدة باربارا :

- ليخرج من هناك الرجل ذو الحصان المرمى ، وله أن يختار من رجاله خمسة ، وليرافقهم كارمليتو وبارخاروتى ، ثم ليخرج الجميع إلى ما وراء هذه الربوة ، فيستثيروا ما هناك من ماشية ثم يميزوها . واذكروا أن تلك الرءوس ستجرى مصعدة على سفح الربوة ، فدعوها تفعل .

ولكن الرجل ذا الحصان المرمى لم يبد عليه أنه سمع ؛ إذ لم يتحرك من مكانه بين صفوف رجال السيدة باربارا ، فعاد أنتونيوي يقول مشيراً إليه :

- إنما أوجه الكلام إليك أنت يا صديقي !

وكان الرجل المعنى واحداً من الإخوة الثلاثة المعروفين باسم «الموندراجونس» ، وكان هو الذى يلقبونه بـ «الفهد» . وكان أنتونيوي قد ترك له حرية اختيار أخويه من بين مرافقيه . وإن كان قد وكل بهم كارمليتو وباخاروتى ، وكانا لا يقلان عن أولئك الإخوة رجولة وجراءة .

وبقى الرجل واقفاً فى مكانه لا يتحرك ، وقد غاظه أن يتلقى مثل هذا الأمر من أحد رجال لوئاردو ، ثم أجاب :

- إن لى اسماً أدعى به ، ولقباً يعرفنى به الناس .

وعاد رجال التاميرا إلى تبادل النظرات ، وقد أعدوا أنفسهم لكل احتمال طارئ ، وكأنما كانوا يقولون :

- ها هو ذا الأمر قد بدأ يهدد بالانفجار !

غير أن السيدة باربارا عادت مرة أخرى إلى التدخل قائلة لتابعها :

- افعل ما أمرت به ، وإلا فأنصرف لشأنك !

وأطاع «الفهد» فى تملل وتشاقل وهو يجمع بمبارات امتعاض ، ثم خرج بعد أن اختار أخويه لمرافقته وتوجه إلى أصحابه بقوله :

- مازال هناك فى فريقنا مكانان لرجلين آخرين لمن يريد منكم الخروج معنا .

أما كارمليتو وباخاروتى فقد رفع كل منهما إلى وجه صاحبه نظرة سريعة ، وتمتم ثانيهما بصوت لا يكاد يبين :

- سنرى الآن ما إذا كانوا رجالاً أو نساء .

واستمر أنتونيو فى توزيع الرجال جماعات ، ثم حدد لكل جماعة مرجاً مباشر عملها فيه ، فلما فرغ توجه إلى بالينو باييا فقال له :

- أما أنت فإذا كنت تريد أن تأتى معى ...

وإنما أراد أنتونيو بدعوة بالينو أن يحفظ له رتبته ، ولهذا فقد عرض عليه أن يرافقه باعتباره هو نائباً عن سانتوس وباعتبار بالينو فى مثل هذه المرتبة من السيدة باربارا ، وكان التقليد يقتضى أن يترافق الأكفاء ، ولكن ذلك لم يكن هو الحافز الوحيد لأنتونيو ؛ إذ أراد فى الوقت ذاته أن يتيح لنفسه فرصة مماثلة لما أتاحه لزميله كارمليتو وباخاروتى حينما أخرج معهما الإخوة «الموندراجونس» ، فقد كان أنتونيو يتوق إلى أن يقتضى من بالينو دين تلك العبارات المتكبرة المتعجرفة التى وجهها هذا إليه فى صبيحة اليوم التالى لقدوم سانتوس لوئاردو إلى ألتاميرا بسبب ترويض الجواد الأحمر .

وكان بالينو قد فطن إلى ذلك ، فرفض دعوة أنتونيو وهو يقول :

- شكراً لك ياسيدى ، ولكنى سأبقى هنا مع بياض الناس .

و «بياض الناس» فى اصطلاح أهل السهول تعبير يعنون به اجتماع أصحاب الضياع الذين يحضرون أعمال «المجاولة» دون أن يشتركوا فيها ، بل يكتفون بمراقبة تجميع رءوس الماشية وتمييزها وفصل ملك كل واحد عن ملك غيره ، وذلك حتى يحموا حقوقهم ومصالحهم . وقد كان «بياض الناس» الذين يجتمعون لحضور المجاولات العامة فى أيام خوسيه لوئاردو والدسانتوس

يقدر بنحو عشرين من ملاك الضياع فى هذه البقعة من حوض «الأراوكا» ، ولكن أملاك هؤلاء انتقلت بعد ذلك إلى يد السيدة باربارا التى ابتلعتها واحداً واحداً ، ولم يبق من تلك الأراضى إلا أسماؤها القديمة التى أصبحت تطلق الآن على مختلف المروج التى تتألف منها «ضيعة الرعب» .

كان سانتوس يفكر فى ذلك ، فبقى ساهما يجتر تلك الذكريات ، وهو فى شغل عن ذلك الحديث المتواصل الذى كانت باربارا تحاول به إخراجه عن صمته وجره إلى مبادلتها الكلام تمهيداً لعلاقة مستقبلية من الود والصداقة ، ولم تكن المرأة تتوجه إليه هو بالحديث على نحو مباشر ، وإنما كانت تتظاهر بمخاطبة بالينو خائضة معه فى أمور شتى ، إلا أن واجب اللياقة والأدب كان يقتضى أن يشارك هو فى الحديث ويتدخل فيه .

وأخيراً عازمت باربارا على أن تلقى إليه بالخطاب فى صراحة :

- ألم تر مجاورة من قبل أبداً يادكتور لوثاردو ؟

فأجاب دون أن يلتفت للنظر إليها :

- حينما كنت صبيّاً صغيراً ، ولهذا فإن كل ما أرى الآن يعتبر فى نظرى فى حكم الجديد .

- حقاً ؟ ... أنسيت إذن تلك العادات التى جرى عليها أهلك فى أرضك ؟

- لك ياسيدتى أن تتصورى ذلك ... سنوات طويلة وأنا بعيد عن هذه الأرض ! ...

فنظرت إليه نظرة طويلة ، وكأن عينيها تلاطفانه فى رقة وحنان ، ثم قالت :

- ومع ذلك فقد سمعت عن ترويضك للجواد الأحمر ولما يمش على وصولك أيام ... إنها لمأثرة مجيدة رائعة ... وهى تدل على أنك لست من ضعف الذاكرة بحيث تريد تصوير نفسك .

وكان سانتوس يصفى إلى صوت باربارا ... صوت غريب كأنه ناي ينفخ فيه ذلك الشيطان الذى يكمن فى جسدها ويجعل منها مزيجاً متنافراً اتحدت فيه خشونة الرجل ورقة الأنثى ... هزيم الغابة الأجش وأنين السهول الحاد . كان لصوت باربارا رنين ينفرد به ، وسحر طالما فتن قلوب من ينصتون إليها من الرجال ، ولكن سانتوس لوئاردو لم يكن هناك لكى يتمتع بجمال صوتها أو سحر نبراتهما . حقاً إنه شعر فى بعض اللحظات برغبة تدفعه إلى استطلاع تلك الهوة السحيقة المظلمة التى تكمن فى أعماق روحها واستكناه ذلك السر الغامض الذى جعل من هذه المرأة مزيجاً من الجمال الجذاب والوحشية المنفرة فى آن واحد ، ولكن هذه الرغبة التى جاشت بها نفسه لم تكن إلا ضرباً من ضروب التجارب الذهنية المثيرة .. مثلها فى ذلك كمثل ما يثور فى نفس الإنسان من أحاسيس وهو يتأمل مظهراً هائلاً من مظاهر الطبيعة ؛ إذ يعجبه ما يتصف به من جمال ويأخذ بقلبه ما يراه فيه من هول ورهبة ، ولكنه لا يملك نفسه على كل حال من محاولة استطلاع سره واستكشاف حقيقته ، ولكن شعوراً مفاجئاً غلب عليه فى تلك اللحظة ، فصرفه عن تلك «المغامرة العقلية» التى هم أن يخوضوها : شعوراً من الاشمئزاز والنفور من رفقة تلك المرأة ، لا لأنها كانت عدواً له ، وإنما كان شيئاً غامضاً يحس به دون أن يدرك له تفسيراً . فلم يلبث أن قطع حديثه معها وتوجه بعيداً إلى حيث كان بعض رعاة «ضيعة الرعب» يراقبون عدداً من رءوس الماشية المستأنسة كانوا يستخدمونها لترويض الأبقار الوحشية .

وابتسم بالينو باييا ، وامتدت أصابعه إلى شاربيه لمسحهما فى شماته وهو يرى سانتوس منصرفاً عن باربارا فى مجافاة وصدود ، وكان يراقبهما عن كثر فى تستر ، ولكنه لم ير فى هذه المناسبة ما اعتاد أن يراه على وجه المرأة من

مظاهر الضيق والغضب، ولم ير حاجبيها وهما ينقبضان ثم ينفرجان فى سرعة كأنهما جناحا صقر ، وإنما رأى على وجهها تعبيراً لم يسبق له أن رآه من قبل ، وفى عينيها نظرة ساهمة شاردة كأنما ذهب بها التفكير إلى آفاق بعيدة .

وكان الرعاة قد فرغوا من استشارة الماشية ثم تجميعها ، فبدأت المروج مكتظة بها بعد أن كانت ترى من قبل وكأنها مهجورة خالية . كانت القطعان تظهر من بين أدغال الحشائش ومن الوهاد البعيدة قوافل كبيرة من الماشية وهى تركض ركضاً مرحاً صاخباً ، وقد تقدمتها الثيران الفحول ، أما الإناث فقد أحاطت بها عجولها الصغار وهى تتوثب من حولها ، وأما التى ظلت جموحة نفورة فقد كانت تحاول الإفلات وهى تطلق خواراً فزعاً حزيناً .

وتعالى صياح الرعاة ، وتزايد ركض الماشية الوحشية وهى تنطلق فى كل صوب محاولة أن تجد لها منافذ عبر الحصار المحكم الذى كان الفرسان يضيقونه حولها أعلى سهوات خيولهم . أما الثيران المتوحشة فقد كانت تخفض رء وسها وهى تندفع هنا وهناك مستعدة للهجوم والقتال ، ولكن الرعاة لم يدعوا لها فرصة لذلك فقد زادوا من سرعة جيادهم وأطلقوا عدداً هائلاً من قطعان البقر المستأنس مختلطة بالثيران المتوحشة حتى تكسر من حدة هياجها وتحيل اندفاعها للهجوم إلى خوف وفرار .

وبدأت بعض القطعان تتجمع فى المكان الذى أعد لها حيث كانت بعض الرءوس المستأنسة ، ولكن بعضها الآخر كان يواصل مقاومته المستبسلة مستعصياً على الرعاة المكلفين بسوقها ، وكان على هؤلاء أن يضاعفوا من جهودهم فيتوثبوا على ظهور جيادهم هنا وهناك حتى لا ينفرط عقد القطيع ، وهو ما يقتضى من الفرسان والجياد على السواء مهارة متناهية فيما كانوا

يضطرون إليه من تغيير مفاجئ لخط سيرهم ومن محاولة ما قد يتعرضون له من هجمات الشيران الوحشية .

وشرع الرعاة فى تجميع القطعان التى كلف كل منهم بقيادتها إلى المكان الموعود ، وكانت جلبتهم وخوار الماشية تتزايد وتتعالى ، وقد ثارت من حولهم عواصف من الغبار الكثيف ، ومن هنا وهناك تسمع صيحات الرعاة المختلطة :

- هيا... و...و...و... هيا... و...و...و... سددوا الطريق من هنا !...
ضيق الحصار هناك !....

كان سانتوس لوئاردو يتأمل هذا المشهد المثير وقد توهجت نظرات عينيه ، والذاكرة تعود به سنين إلى الوراء أيام طفولته حينما كان يشترك إلى جوار أبيه فى غمار هذه المعركة مع الرعاة المكلفين بأعمال المجاورة ، وأحس بأن أعصابه التى كانت قد نسيت هذا الانفعال العارم تعود الآن إلى الاهتزاز بقوة وعنف إزاء ذلك المنظر الرائع الذى يبذل فيه الرجال والشيران على السواء من الشجاعة والاستبسال كل ما وسعهم . لقد كان سانتوس يعجب دائماً بهذه السهول ؛ إذ يراها تمتد أمام عينيه فسيحة رهيبة جميلة ، ولكنه يحس الآن وهو يشهدها ميداناً لتلك المعركة كأنها زادت فسحة ورهبة وجمالاً أكثر مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، فقد كان يرى بين أطرافها المترامية كيف يخلق الإنسان الحضارة ... كيف يذل الوحش ويستأنسه ... ثم هو يرى أخيراً فى هذه الأرض العريضة متسعاً للجميع .

وتم تجميع الماشية ، وتوقفت أعمال المجاورة ، وبدا المكان مكتظاً بمئات ومئات من رؤوس الماشية . كان العمل عسيراً عنيفاً : الجياد تلهث وقد تصيب منها العرق وغطت أفواهها طبقات من الزبد ، وتخضبت جنوبها بالدماء ؛ إذ كان كثير منها قد أصابته نطحات الشيران المتوحشة . ولكن العمل لم يكن قد

انتهى بعد ، فقد كانت الشيران الهائجة ما تزال قلقة لم تأس بعد من استرداد حررتها المسلوبة ، فكانت تشق طريقها بين الماشية المستأنسة فى عنف لا يعرف الهوادة ، وهى تشمم هواء المرج الطليق عبر السياج الخشبى الذى انتصب حائلاً بينها وبين الحرية ، دون أن تدع للرعاة الواقفين هناك لحظة يتنسمون فيها هدوءاً أو راحة ، وكان الضجيج يتعالى فى أنحاء المروج ، وأصواته المختلطة المتنافرة تكاد تصم الآذان : أنين الأبقار التى كانت تنادى صغارها الضائعة فى غمار الزحام ، ورغاء هذه وكأنها تسأل عن أمهاتها فى حزن وحسرة ، وخوار الشيران الفحول التى كانت تبحث عن قطعانها النائية ، وهذه تجاوبها عن بعد ، واصطدام قرون بعضها ببعض وهى ذاهبة جائية ، وصياح الرعاة يتناوبون وقد جفت حلوقهم وبحت أصواتهم .

وبدا أخيراً أن الماشية قد استسلمت لمصيرها ، فقد هدأت ثورتها ، وبدأت الشيران الفحول التى كانت تقود القطعان المختلفة فى التعرف على قطعانها ، وشرع كل من هذه فى التجمع حول قائده ، وأصواتها تخفت ، ونزعاتها الثائرة آخذة فى التظامن والسكون ، بينما كان الرعاة يحدونها بما اعتادوا أن يترنموا به من غناء يعين على تسكين هياجها ، وهم فى أثناء ذلك يضيقون حلقة الحصار مكونين دائرة كبيرة حول الماشية المتجمعة ، حتى إذا اطمأنوا لذلك توجه الرعاة الذين جرحت خيولهم فى المجاورة إلى دغل قريب لكى يستبدلوا بها خيولاً أخرى . وتهياً أنتونيو للإلقاء بأمره إلى الرعاة بأن يخرجوا الماشية المستأنسة التى استعانوا بها على تهدئة الشيران الوحشية حتى يبدءوا العمل فى تمييز الرءوس وفصل ما هو ملك منها لصاحبه عما هو ملك للسيدة باربارا ، غير أن شيئاً وقع فى هذه اللحظة كاد يودى إلى إفساد ما اجتهد الرعاة منذ صباحهم فى القيام به ، فقد ترجل أحد القائمين بالحراسة عن جواده متشاغلاً بإحكام رباط سرجه بينما كان ثور هائج يفتح خشب السياج فى الموضع الذى كان فيه ذلك

الحارس نافذاً من الثغرة التي فتحتها فى السياج ، ولم تر بقية الماشية ذلك حتى انثالت وراءه محاولة الفرار إلى الخارج .

وتنبه بعض الرعاة إلى ذلك الخطر ، فصاحوا كلهم فى صوت واحد :

- أقفل تلك الثغرة !... أقفل !...

وهرعوا إلى المكان فى ركض سريع يحاولون الحيلولة بين الماشية وبين ما كانت مقبلة عليه من الفرار والتفرق .

ولكن الوقت كان قد فات ، فقد تمكنت قطعان كثيرة من النفوذ من تلك الثغرة وراء ذلك الثور الذى فتح بابها فى وجوهها ، وعادت إلى التبدد فى أنحاء المرج دون أن يستطيع الرجال الوقوف دونها .

- يا للساحرة الملعونة !

هكذا صاح رجال ألتاميرا وهم ينسبون الحدث الواقع إلى ما ثبت من أذهان الناس هناك من قوى السحر الأسود التى تعين باربارا ، غير أن أنتونيو الذى كان يراقب المشهد لم يفتنه أن الإهمال الذى وقع من حارس تلك الجهة من السياج والذى أدى إلى تفرق الماشية وانفلاتها لم يكن محض مصادفة ، بل كان أمراً دبره عن عمد وسوء نية ، ولا سيما أن ذلك الحارس لم يكن إلا واحداً من الإخوة «الموندراجونس» وهو المدعو بالفهد .

وكان «الفهد» قد لاحظ فى أثناء المجاورة أن هناك عدداً كبيراً من الأبقار المتجمعة يحمل سمة ضيعة ألتاميرا وإن كانت صغارها الرضيعة قد وسمت غصباً بميسم «ضيعة الرعب» ، وهكذا رأى أن الفصل بين ماشية الضيعتين سيعود بالخسارة على سيدته باربارا ؛ إذ سيؤدى إلى فقدانها كل هذا العدد من الرءوس . ومن أجل هذا تعمد أن يتظاهر بإصلاح رباط سرجه متغافلاً عن

ذلك الثور الذى اقتحم السياج فى الموضع الذى كان مكلفاً بحراسته ، حتى تعود الماشية إلى التدد .

ولكن إخلاصه لباربارا كلفه ثمناً باهظاً ، فقد انطلقت الماشية وراء ذلك الثور الهائج كأنها إعصار ، وحاول «الفهد» الفرار فلم يستطع ؛ إذ أعجله تزامم الشيران ووثوبها عليه وعلى حصانه ، ولم تمض لحظات حتى كانت الماشية تدوسهما بأظلافها قطعاً بعد قطع ، فلم ينجل الغبار بعد ذلك حتى هرع الرعاة إلى حيث كان ، فالتقطوه من الأرض وقد أصبح كتلة مختلطة من اللحم والعظام ، تغطيها طبقة من الدماء والطين .

وفى هذه الأثناء كان سانتوس لوئاردو قد ترك العنان لجواده ، وقد غلبت عليه طبيعة أهل السهول الذين لا يعرفون أمام الخطر قعوداً ولا إحجاماً ، فانضم إلى بقية الرجال الذين هرعوا ليسدوا الطريق على الماشية المنطلقة الجامحة .

ثم انبعث من ورائه صوت يصيح به :

- حاذر ! فإن قطعاً آتياً من ناحية هذا الدغل يوشك أن تندلع فيه الثورة ، وعلى رأسه ثور جامح يتقدم بنية الهجوم .

وكان صوت باخاروتى الذى شد وراء سانتوس للحاق به قبل أن يتعرض لصدمة ذلك الثور ، وهرع إليه كذلك أنتونيو وكارمليتو وبعض رجال السيدة باربارا ، وقد حمل كل منهم الحبال فى أيديهم مستعدين لإلقائها على الثور الهائج الذى كان هو قائد القطعان التى اقتحمت ثغرة السياج .

ولكن سانتوس استعد بحبله أيضاً ونهياً لإلقاء أنشوطته على ذلك الثور متجهاً إلى الناحية التى أشار إليها باخاروتى .

وبدأت رء وس الماشية التى انفلتت من السياج جريها وراء هذا الثور ،
متجهة إلى مخاضة قناة كانت تقطع المروج فى تلك الناحية ، وصياح الرعاة
يحيط بها من كل جانب ، فلما رأت دنو الرجال الذين أسرعوا الاقتفاء أثرها
توقفت عن المسير ، وتفرق شملها ، وقد شهرت قرونها مستعدة للقتال ، وقد
تقدمها ذلك الثور الضخم قائد القطيع .

وصاح باخاروتى :

- إن هذا هو الثور القسطللى اللون ذو الغرة الذى لم يزل صيده مستعصياً
علينا منذ سنتين ، ولكنه لن يفلت من أيدينا اليوم !

وتوقف الثور لحظة ، ثم ظل يجرى هنا وهناك وقد خفض رأسه ، وقوس
ظهره مصلتاً قرنيه الهائلين ، وعيناه تدوران بين الرجال الذين كانوا يتبعونه
يستعرضهم ليرى على من يبدأ الهجوم ، ثم إذا به ينطلق فى سرعة السهم ناحية
سفح الربوة التى كان لوثاردو محاذياً لها .

وعاد باخاروتى للصياح محذراً صاحبه ومشيراً عليه :

- أوسع له الأنشطة الخفيفة ، فهو مقبل عليك الآن !

بينما صاح به أنتونيو وكارمليتو وقد رأياه فى موقف حرج بين القائم لما
على سفح الربوة والثور المهاجم له ، وهما يجريان لنجدته :

- ... أو دع الصدمة الأولى يتلقاها الحصان !

ولكن سانتوس لوثاردو لم يكن من القرب بحيث يسمع
تحذير أصحابه ولا نصائحهم ، وإن كان فى الواقع غير محتاج إليها ؛ إذ لم يكن
قد نسى تجاربه الماضية فى مثل هذا الموقف وهو صبى فى الخامسة عشرة من
عمره . وهكذا لم يكد الثور ينقض عليه حتى حاد بجواده عنه فى مناورة

لا يحكمها إلا فارس مجرب ، وبهذا تجنب الصدمة وقطع الطريق على الثور ،
ثم قذف بأنشوطته عليه من فوق كفل جواده ، فاشتبكت بقرنيه .

وصاح باخاروتى فى حماسة وابتهاج :

- يا لها من قذفة ماهرة تدل على أن صاحبها ممن يعرفون كيف تحز
المفاصل !

وأوقف سانتوس جواده فجأة حتى تستحكم الأنشودة وتوثق رأس الثور ،
ولكن هذا كان من الثيران ذات القوة الهائلة التى لا تكفى أنشودة واحدة لشل
حركتها وتبريكها على الأرض، غير أن اعتلاقة الحبل برأسه باغتته وأقعده على
قائمتيه الخلفيتين، وكان الحبل قبل أن يضيق على قرنيه قد جذب بذيله جذبة
قوية آلمته ، فأطلق صرخة مختنقة ، ثم بدأ يتململ ويتضور محاولاً تخلص
رأسه من الأنشودة . وفى هذه اللحظة أدركه أنتونيو وكارمليتو وباخاروتى ،
فقدفوا عليه بأناشيطهم حتى أحكموا وثاق قرنيه ، وانطلقوا يصيحون فى
صوت واحد :

- ها نحن أولاء قد «ألبسناه» !...

وهدأت الجياد من سرعتها وارتعدت الحبال فى أيدي الرجال وهى تضيق
حصارها على الثور حتى أضجعتته على الأرض مشيراً من حوله إعصاراً من
الغبار .

ولم يكد يسقط إلى الأرض حتى صاح أنتونيو :

- أدخل أنت ذنبه بين رجلية يا باخاروتى ، وسأتكفل أنا بغرس قرنيه فى
الأرض بينما يعمل كارمليتو على شل حركته .

وأمر سانتوس أصحابه وهو يذكر أيامه الخالية :

- اخطموه واخصوه وهو فى مكانه هذا .

فقبض باخاروتى على ذيل الثور فى قوة وأنفذه بين رجليه . ثم مضى يدفعه بكل قوته حتى أضجعه على جنبه ، بينما كان أنتونيو متكئاً على رأسه حتى يغمد قرنيه فى تراب الأرض فلم تعد به قدرة على الحراك ، وأسرع كارمليتو إليه وهو فى صدمة المفاجأة قبل أن يسترد أنفاسه ، فثقب أنفه وأنفذ فيه خطاماً ليذل به قياده ، ثم خصاه بضربة سريعة صائبة ووسم أذنيه بميسم ألتاميرا ، فلما فرغ من عمله قال وهو يتنفس الصعداء :

- لقد أمانا جانب هذا الوحش ، فلن يعود بعدها إلى إقلاق مضاجعنا .
وعلينا الآن أن نربطه إلى جذع شجرة .

وأضاف باخاروتى فى زهو :

- إن هذا المارد من سلالة «لوثاردية» عريقة الأصول ، ولهذا فقد طالما استعصى على القانصين إذ لم يكن يريد أن يوسم إلا بالسمة التى حملتها أمه من قبل ، فظل ينتظر حتى يلقي بيديه إلى سليل أسرة لوثاردو نفسه ، ومن أجل ذلك لم يسمح لأحد منا باقتناصه فى المجاورة الأخيرة !

فقال كارمليتو مكماً عبارة زميله :

- ولقد تم اقتناصه على الصورة التى تتلاءم مع مكانته وقدره ! وإنى لأتساءل : إذا كان حديثو العهد بهذا العمل يلقون بالأنشطة على ما رأينا فما الذى تركوه إذن لأمثالنا ممن قضوا زهرة حياتهم فيه ؟!

وهتف أنتونيو ساندوفال وهو مبتهج لما أظهر سانتوس من براعة ومقدرة :

- إن السهل يظل سهلاً حتى الجيل الخامس من السلالة المنحدرة من

صلبه !

وفى هذا الوقت كانت السيدة باربارا قد وصلت إلى المكان ، فتوجهت بالخطاب إلى سانتوس لوئاردو وقد أضاء وجهها بابتسامة مشرقة :

- يالك من سهلى ماكر !... ومع ذلك فإنك تدعى نسيانك لعادات أهل أرضك !

نطقت بهذه العبارة دون أن تعباً بما تعرضت له منذ لحظات من إهمال الفتى لها وصدوده عنها وهى تحاول مبادلتة الحديث ، وكأنها تتجاهل أنها وهى نفسها تعرف كيف تقتنص الثيران بأنشطتها خيراً مما فعل لوئاردو ، بل وتحسن كل ما فعله رجاله وأعوانه وحدها بغير معونة أحد .

غير أنها فى تلك اللحظة لم تكن إلا امرأة أعجبها وبهر نظرها ما رآته من رجل كان يهتمها أن تتوثق صلتها به .

وأجاب سانتوس :

- ليس فى الأمر ما يستحق مدحاً ولا إطراء ياسيدتى ، فهذا شىء لم أقم به وحدى ، فالفضل فيه إذن ليس لى . وعلى أية حال فإن الذى طالما سمعت به هنا هو أنك أنت تحسنين من أساليب الاقتناص ما لا يجاريك فيه أمهر رجالك المجربين .

وعادت باربارا إلى الابتسامة وهى تقول :

- أرى من هذا إذن أنهم حدثوك عنى . فما الذى قالوه غير ذلك ؟ إننى أيضاً أعرف الكثير عن نفسى مما أستطيع أن أقصه عليك مما لا أظن أن أحداً رواه لك ، ولكن سيكون لدينا متسع من الوقت لكى نتحدث عن كل هذا ... أليس كذلك ؟ .

فأجاب لوئاردو فى لهجة حاول أن يفهمها بها قلة ترحيبه ما عرضت له به :

- بلى ... سيكون من الوقت متسع على ما أقدر .

ولكنها لم تحمل عبارته على ما أراد هو أن تفهم منها ، فحدثت نفسها
قائلة :

- الآن أرى أن هذا أيضاً قد وقع فى الأنشطة ! ...

ولم يتلبث لوئاردو ؛ إذ سرعان ما أعمل مهمازه فى جنب جواده ، فانطلق
به مسرعاً لكى يلحق بأصحابه الذين كانوا يبتعدون عن بصره بعد أن ربطوا
الثور إلى جذع شجرة من أشجار الدغل ، ومرة أخرى ترك المرأة وحيدة واقفة
فى المرج .

وظلت باربارا لحظة فى ذلك المكان لم تتحرك عنه ، وهى ترقب الفتى
النفور يبتعد عن مرمى بصرها ، ولكن ابتسامة الأمل والثقة فى اقتراب موعد
الانتصار ظلت متألقة على وجهها ، وهى تتمم قائلة :

- لندعه يذهب . لقد انتشبت رأسه فى الأنشطة ، فلا ضير أن أرخى له
الحبل قليلاً ! ...

ومدت باربارا نظرها بعد ذلك إلى حيث اضطجع الثور الصريع ، وقد
التصق رأسه ذليلاً بتراب الأرض عند جذع الشجرة ، وقد ألمه ما أوقعوا به من
المثلة ، فظل يخور خواراً يصم الأذان .

وابتسمت باربارا مرة ثانية ، ولكن ابتسامتها فى هذه المرة كان لها
معنى جديد ! ...

الفصل الخامس

أحوال السيدة باربارا

كان ما أصاب السيدة باربارا من تغير غريب طراً على أحوالها منذ ذلك اليوم مشيراً لتساؤل الرجال فى «ضبعة الرعب» ولتعليقاتهم الفكهة الضاحكة :

- ليت شعرى يارفيقى ... ما الذى حدث للسيدة فى هذه الأيام ؟ لقد كفت عن القدوم إلى هنا كما كانت تفعل ، لم تعد تأتى لتعنيفنا والصراخ فى وجوهنا كما كانت تصنع حينما تتعكر فى عروقها دماء أبيها الأبيض وأمها الهندية . فتنتفخ أوداجها وتنطلق حنجرتها بالصياح كأنها ديك برى ! ... ولا للتبسط معنا أو العزف على عودها ومرافقتنا للغناء حينما يعتدل مزاجها وتطيب نفسها كما كان يحلو لها أن تفعل . ما بالها الآن تقضى اليوم كله فى غرفتها كأنما قد تحولت إلى سيدة حقيقية ممن يقرن فى بيوتهن ولا يخرجن أو يتكلمن إلا بحساب ؟ ! حتى علاقتها بالسيد بالينو نفسه قد فترت إلى حد يحقق القول المعروف : «لست أذكر ما إذا كنت قد رأيتك من قبل أم لا !» .

- نعم يا صديقى ، ولكن ألا تعرف أن حبل الشص ينبغى أن يكون بقدر حجم الحوت ؟ والحوت فى هذه المرة ليس من تلك الأسماك الهينة التى تعمر جوانب الشاطئ التى يكفى أن يلقي الصائد عليها شبكة حتى تخرج فى يسر من أول مرة ، وإنما هو من ذلك النوع الرواغ الذى يتطلب الكثير من الجهد والعناء حتى يعض الطعم .

- حقاً ... إذ إنه ليس ممن يسكرون أو يشربون من الماء ما عكرته الأخلاط والمسايق .

وكان هذا يشير بقوله إلى تلك الأشربة المسحورة التي كانت السيدة باربارا تعدها لمن تسعى إلى إيقاعهم في غرافها حتى تحل إرادتهم وتذيب رجولتهم .

ولم تخل تلك التعليقات فن إشارات إلى سهرات السيدة باربارا في الصوفعة التي أفردتها لما تباشره فن سحر :

- هذا فع أن «الشريك» لم يخلد ساعة واحدة إلى الراحة طوال الليالي الماضية ، فقد دأبت السيدة على استبقائه طويلاً بعيداً عن جحيمة . ولست أستبعد أن يطول بينهما الحديث في بعض هذه الليالي حتى يفاجئه صياح ديكة السحر وهو عائد في طريقه إلى فأواه في جهنم !

- وكيف تفسر ذلك ؟ أ يكون لدى الآخر فا هو أقوى وأنجع فن فنون السحر ؟

- ... أو أن الفنون في هذا الجانب قد استهلكت وفترت قواها بحكم كثرة الاستعمال .

ولكن خوان برمييتو يجيب في ثقة :

- لا ... لا تصدقوا فثل هذا ... لقد استودعته السيدة عينيها في صبيحة يوم المجاورة في «الخميلة القائمة» ، ولا بد أن يأتي هو في عاجل أو آجل لكي يعيدهما إليها ... لابد ، فهما صلب عوده أو طالت فقاوفته !

كان أجراء ضيعة الرعب يرددون فثل هذه العبارات على الرغم مما قد استقر في نفوسهم فن احترام للسيدة باربارا وفن الإخلاص الذي كانوا يشعرون به في خدفتهم لها ، ولكن فا كانوا يلاحظون عليها فن تغير أطوارها في الأيام الأخيرة كان أفرأ غريباً جديراً بأن يبحثوا له عن تفسير فعقول .

ولو أنها هي نفسها سئلت عن علة فإصابها لما استطاعت أن ترد جواباً ،
فقد كان هذا التغير فظاها لمشاعر جديدة لم يكن لها بها عهد في حياتها
الماضية ، فشاعر أقوى منها ؛ فهي لا تستطيع تحكماً فيها ولا ضبطاً لها .

أحست باربارا لأول مرة في حياتها بأنها مجرد امرأة في حضرة رجل ،
لقد ذهبت إلى المجاورة في «الخميلة القائمة» يحدو بها غرض واحد : هو إيقاع
سانتوس لوئاردو في شباكهها واجتذاب قلبه بمفاتنها ، كانت تريد أن يكرر
سانتوس فعها قصة لورنثو باركيرو ، ولكن هل كان حب الاستئثار والبغض
الشديد الذي كانت تحس به نحو الرجال كلهم هما الدافعان الوحيدان لها
في فحاولتها الظفر بقلب الفتى ؟ لقد كانت تحاول إقناع نفسها بذلك ،
ولكن الحقيقة هي أنه كان شعور آخر يقبع في نفسها إلى جانب ذلك كله :
شعور بالرغبة العارفة في هذا الرجل والشهوة في اقتلاكه بأي وسيلة . لقد كان
عشاق باربارا حتى تلك اللحظة إذا ضحايا لطمعها الذي لم تكن له نهاية
أو أدوات طيبة في خدفة قسوتها ، كانوا فلماً خالصاً لها تتصرف فيهم كما
تتصرف في رءوس الماشية التي تحمل سمها ، ولكن الأفرع هذا الرجل كان
فختلفاً كل الاختلاف ، لقد رأت في نظراته إليها لأول مرة رجلاً لا يخشاها
ولا يشتهيها . وقد تعرضت فنه لمواقف أذلها وأخجلتها مرة بعد مرة ، وفن
أجل هذا اشتعلت في قلبها نار الرغبة بنفس العنف الذي كانت تتأجج به في
نفسها نار الكراهية للرجل والسعى إلى تحطيمه ، لقد انقلبت الأحوال
وأصبحت هي التي تريد أن تصبح فلماً لسانتوس لوئاردو حتى ولو أصبحت
فثل تلك الماشية التي كويت بالنار على جنوبها سمة التافيرا .

كانت باربارا تحس في أعماق نفسها أول الأفرع بهياج يهز فشاعرها هزاً
عنيفاً ، ولكنه لم يكن فن ذلك النوع المظلم المعذب الذي كان يدفعها إلى
إشباع غرائزها العارفة المضطربة ، بل كان شيئاً جديداً غريباً يحملها على أن

تبحث فى قرارة نفسها على السكينة والهدوء ... فى هذا الركن المجهول الذى اكتشفته لأول مرة فجأة فى جانب فن عزل فن جوانب روحها . كانت المرأة تقضى أياها طويلا وهى تنزه راکضة على جواذها فى أنحاء المروج دون هدف ولا اتجاه ، وإنما كانت تريد أن تنفس عن فيض الطاقة الهائلة التى كانت تضربها غرائزها المتوقدة بحثاً عن الحب الحقيقى . كانت أزفة سن الأربعين ... أزفة الحاجة التى تملك على المرأة حواسها إلى أشعة الشمس والريح الطليقة والفضاء الفسيح .

كان هذا الإحساس يولد فى نفسها ابتهاجاً باطنياً وسعادة فشرقة ، وكان ذلك يدفعها إلى ألوان فن الكرم والإنفاق لم يعهدا أحد فنا دون أن يعنى ذلك فنا تحول طبيعتها إلى الكرم أو نفسها إلى السماح ، ولكنها هزة أريحية نبعت عن ذلك الشعور الجديد ، حتى إنها وزعت مرة جملة كبيرة فن المال على رجال الضيعة لكى ينفقوه فى فتعتهم والترويح عن أنفسهم ، وفوجئ الرجال بذلك ، فأقبلوا على النقود التى فلأت بها أكفهم يعضونها بأسنانهم ويلقونها على حجر ليتسمعوا رنينها ، وهم لم يتحققوا بعد فن أنها نقود ضربت فن خالص الفضة . وحق لهم ، فقد عهدوا السيدة باربارا فثلاً بضرب فى البخل والتقتير ، فما الذى أصابها اليوم حتى توزع المال عن يمين وعن شمال ؟!

وفى يوم آخر أعدت باربارا فأدبة أرادت أن تكرم بها سانتوس لوئاردو بمناسبة فا بدأ بينهما فن فظاهر التعاون فى فسألة تمييز فواشيها وفصلها ، وكانت تريد أن تغدق عليه فن الحفاوة والإكرام فا تكسب به وده ، ويزيل تلك العداوة التى طالما باعدت بينه وبينها وأثارت النزاع بين رجاله ورجالها ، ولكنه لم يلب الدعوة ! ...

كانت هناك فكرة واحدة قد استولت على جماع قلبها : أن يقع فى غرافها ذلك الرجل الذى لم يكن شىء يجمع بينه وبين الرجال الذين عرفتهم حتى هذه اللحظة : رجل لا تطل فن عينيه تلك النظرات الشهوانية التى رأتها فى عينى لورنثو باركير ؛ فند أن عرفته لأول مرة ، ولا يحاول أن يجتذب قلبها برجولته الطاغية المتوحشة كما حاول أن يفعل آخرون ممن تعاقبوا على حياتها . ولم تصل باربارا فى تفكيرها إلى هذا المدى حتى أحست بالخبيل فى نفسها ؛ إذ استسلمت فن قبل لعشاق جفاة غلاظ الطبع أغبياء التفكير . فع أن الدنيا لم تكن تخلو فن رجال فثل ذلك الرجل لا تستطير قلوبهم أفام أول ابتسافة توجهها إليهم .

وعرض لباربارا فى بعض خطرات تفكيرها أن تلجأ إلى «قوى» السحر تستعين بها ، وأن تستصرخ أرواح الشر التى كانت تعتقد أنها رهن إشارتها ، أو تطلب إلى «الشريك» أن يأتيها بذلك الرجل الرواغ المتهرب ، ولكن الفكرة بدت لها بعد ذلك كريهة ، وأثارت فى نفسها اشمئزاً لم تستطلع كنهه . إن المرأة الجديدة التى برزت فى نفسها فى صبيحة يوم «الخميلة القائمة» كانت تريد أن تظفر بالرجل ، ولكن لا بفضل واسطة أو «شريك» ، وإنما بما وهبه الله إياها فن قوى للمرأة باعتبارها أنثى فحسب .

ولكن سانتوس لوئاردو لم يطل بعد فن عتبة بابها ، فكانت تقضى وقتها ساهمة ففكرة ، وإن كانت تبدو دائماً فتجمل فتزينة ، كانت لا تكف عن التمشى فى أروقة الدار ذاهبة جائية ، ونظرها خافض إلى الأرض وذراعاها فتشابكتان على صدرها ، أو قضاء ساعات وساعات وهى واقفة على سياج دارها ، ونظراتها التائهة تسبح فى الفضاء فتوجهة إلى حيث ضيعة ألتافيرا ، أو النزهة على ظهر جوادها فى المروج ، غير أن الجواد لم يكن يعود عندئذ وقد دفى جنباه وعلا الزبد فشافره كما كان الأفر فن قبل ، فقد كانت نزهتها تجوالاً بطيئاً يسيطر عليها خلاله تفكير عميق ساهم .

وكثيراً ما كانت باربارا تفتن لنفسها فجأة ، فتري أن هدف نظراتها لم يكن تلك المروج ، وأن محط الأفكار السابحة في خيالها لم يكن ألتاميرا ، بل ذلك النهر بمخره قارب صغير ... وفي أذنيها تدوى كلمات «أسدروبال» التي كانت قد بثت في نفسها لأول مرة قشعريرة غريبة ... إحساساً بالرغبة في تطهير نفسها وشوقاً إلى الخير . إن هذا الإحساس وذلك الشوق هما اللذان يسيطران الآن على قلبها الذي ألح عليه الشر حتى سئمه ومله .

* * *

وأخيراً بدا لها سانتوس لوئاردو وهو متوجه إلى دارها ، فحدثت نفسها قائلة والاعتباط يغمر نفسها :

- لقد حدث أخيراً ما كان ينبغي أن يحدث !

نطقت بهذه العبارة في فرح وشماتة ، وقد عادت إلى نفسها مشاعر المرأة التي تؤمن بشعوذات الخرافة ، وتعتقد أن القوى الخفية قد هرعت إلى نجاتها أخيراً . وكانت هذه هي حقيقة نفس باربارا وباطنها العميق غلب أخيراً على ما طاف بذهنها من تلك الرغبة في التطهر والنزعة إلى الخير والتوق إلى التحرر .

وترجل سانتوس عن جواده تحت شجرة وارفة أمام المنزل ، ثم تقدم إلى دهليز الدار وقد أمسك بقبعته في يده .

وكانت باربارا تطل عليه ، وقد أدركت بنظرة واحدة أن الأمل العريض الذي علقته على هذه الزيارة لم يكن له مبرر قوى ولا أساس متين ، فقد كانت نظراته ومشيته تدل على مدى ثقته في نفسه وتمكنه من ضبطها . غير أنها لم تكن تسمع إلا صوت عاطفتها المشبوبة ، فهرعت إليه تستقبله في حرارة وترحيب :

- حقاً إن الأحداث السعيدة لا تقع إلا فتأخرة بعد أن يفرغ صبر فن
ينتظرها ! فرحاً بك يا دكتور لوئاردو ، وسعدت عيون اكتحلت بطلعتك !...
تفضل بالدخول والجلوس . أخيراً أتحى لى فرصة التمتع برؤيتك زائراً لبيتى .

وأجاب سانتوس فى لهجة فؤدية وإن كانت لا تخلو فن رنة تهكم :

- شكراً ياسيدتى ، إنك لطيفة دفئة إلى أبعد حد .

ثم أضاف حتى يقطع عليها سبيل المزيد فن عبارات التلطف والمجافلة :

- لقد أتيت فن أجل أفارين : فطلب أذكرك به ، ورجاء أتوجه به إليك .
أفا الأول فهو المتعلق بمسألة إقافة السياج الفاصل التى سبق أن كتبت إليك فيها .

- أفا زلت تفكر فى هذا بعد ؟ لقد كنت أظنك قد اقتنعت بأن إقافة هذا
السياج هنا ليست ممكنة التنفيذ ولا فحقة الفائدة .

- أفا عن الإفكان فذلك فتوقف على الموارد المالية المهيأة لكل فنا ، وأنا
لا أكتمك أن فا لدى الآن فن المال قليل لا يفى بكل فا يتطلبه التسوير فن
نفقات ، ولهذا فأنا فضطر إلى الانتظار بعض الوقت . وأفا عن جدوى ذلك
العمل فلكل فنا رأيه ، ولكن الذى أود فعرفته هو فا إذا كنت فستعدة
للمساهمة بالنصف فى إقافة ذلك السياج الفاصل بين ضيعتينا كما ينبغى فى
فثل هذه الأحوال . لقد أردت قبل اللجوء إلى أى إجراء آخر أن أتباحث فعك
فى هذه المسألة ...

وتوقف قليلاً ، فأسرعت هى بإكمال عبارته وهى تبتسم :

- ... بشكل ودى . أليس كذلك ؟ قلها ياسيدى ولا تخف !...

وافتمض سانتوس كما لو أنها وجهت إليه إهانة ، ثم قال :

- إنه قدر قليل فن النقود ، لا أظنه ينقصك الكثير ... و ...

- أفا هذه النقود التى ينبغى أن تنفق فن أجل ذلك فهو أفر يسير لا يحتاج فنا إلى كثير فناقشة ، وأظن بهذه المناسبة أنهم قالوا لك عنى إننى عظيمة الثروة طائلة الغنى ، ولعلمهم حدثوك كذلك عما يسمونه بخلى الشديد ، أليس كذلك ؟ غير أنه لو أنصت الواحد فنا إلى كل فا تلوكة ألسنة الناس ...

ولكن سانتوس قاطعها فى لهجة شديدة :

- أرجوك أن نلتزم بالموضوع الذى جئت فن أجل الحديث فعك فيه ، فأنا لا يمهنى على الإطلاق أن أعرف فا إذا كنت غنية أم لا ، ولا يعنينى أن أحقق فا ينسبه الناس إليك فن عيوب حتى أعرف فا إذا كانت صحيحة أو زائفة . لقد أتيت لكى أوجه إليك سؤالاً ، وأنا فتنظر عليه الجواب .

فصاحت السيدة باربارا وقد عادت الابتسافة ترسم على وجهها ، غير أنها لم تكن فى هذه المرة ابتسافة تودد واستلانة ، وإنما كانت فعبرة عن شعور بمتعة حقيقية وهى تسمع لهجة ذلك الرجل الذى شعرت بالتضاؤل أفام قوته وسيطرته :

- أوه !... يادكتور . يا لك فن رجل فتأفر نزاع إلى التسلط والسيطرة ! ألا يمكن أن تسمح للواحد - أقصد الواحد - بأن تخرج عن فوضوع الحديث ولا حتى للحظة عابرة ؟

واضطر سانتوس إلى التراجع قليلاً وهو يؤنب نفسه على كلماته التى كانت فسرفة فى الصرافة والقسوة ، فأجاب باسمًا :

- لا ياسيدتى . ليس الأفر على فا تظنين ، ولكنى أرجوك أن نعود إلى فوضوع الحديث .

- إذن أنا فوافقة ، فأنا أرى فن الخير تنفيذ فكرة السياج الفاصل ؛ إذ سيكون فيها حل نهائى قاطع لهذه المسألة التى سببت لنا كثيراً فن المتاعب ، وهى فسألة الحدود بين ضيعتنا ، لا سيما وأنها كانت دائماً فعقدة غافضة .

وضغطت باربارا على فخارج الحروف فى المقطع الأخير فن جملتها على صورة كان يبدو فيها أنها تريد أن تتحقق فن فدى تماسكه وضبطه لأعصابه .
فأجاب :

- هذا صحيح . فلنلتزم فى تخطيط هذه الحدود الوضع الراهن الواقع ،
وإن كان يمكن الاعتراض عليه فن الناحية القانونية .

- أنت على أية حال أعلم فنى بذلك ؛ إذ إنك فحام تعرف فثل هذه
الأفور .

- ... ولكنى رجل لا أحب الخصوفات ولا القضايا كما سترين .

- نعم ... إن الذى أراه هو أنك رجل غريب حقًا ، وإنى أعترف لك بأنه
لم يحدث فن قبل قط أن اعترض طريق حياتى رجل فثير للاهتمام بقدرك أنت
... لا ، لا تعجل ولا يضق ذرعك ، فلست أريد الخروج عن الموضوع فرة
أخرى . لا سمح الله لى بذلك ، ولكنى قبل أن أجيبك إلى فا تريد أود أن
أسألك سؤالاً : أى حد سنلتزفه عند نصب أعمدة السياج ؟ أهو الخط الذى يمر
على دار «الماكانيال» ؟

- ولكن فا فعنى هذا السؤال ؟ ألا تعرفين أين بدأت أنا فى حفر الأرض
لنصب أعمدة السياج الفاصل ؟ ... إلا إذا كنت تحاولين إفهافى بأن هذا الحد
المنصوص عليه فى آخر حكم قضائى غير فطابق للواقع ، وأنه ليس فى مكانه
الصحيح !

- وهو بالفعل كذلك : غير فطابق للواقع ، ولا هو فى مكانه الصحيح .

وبقيت لحظة شاخصة إليه فثبته فيه نظرها .

- هل فعنى ذلك أنك لا تريد أن نضع أنفسنا فى الميدان ... «الودى»
كما قلت أنت فنذ قليل فن أجل حل تلك المسألة ؟

ولكنها أجابت وهي تضيف على صوتها أقصى ما تستطيع فن تودد وفلاطفة :

- ولماذا تضيف « كما قلت أنا » ؟ لماذا لا تقول : « الميدان الودى » فقط وببساطة ؟

فأجاب سانتوس فعتراضاً :

- سيدتى . إنك تعلمين حق العلم أننا لا نستطيع أن نكون أصدقاء . ففى وسعى أن أسلك سبيل المسالمة والمودعة إلى هذا الحد الذى ترين : حد القدوم عليك لكى نتفاوض فى الأفر ، ولكنى أعتقد أننى لست ممن ينسون بسرعة ! .

قال سانتوس هذه العبارة فى قوة وشدة على الرغم من أنه كان ينطق بصوت هادئ ثابت ، فكان له على المرأة وقع شديد ؛ إذ بدا كأنها قد استسلمت تمامًا ، فاختفت من وجهها تلك الابتسامة المغرية التى كانت فزيجاً من الدهاء والحكمة ، وبقيت لحظة طويلة تنظر إلى ذلك الرجل الذى جرؤ على أن يوجه إليها فتل هذه الكلمات ... نظرات فيها كثير من الاحترام وفن العاطفة المشبوبة المتأججة ، ثم نطقت أخيراً :

- ترى فا كنت تقول يادكتور لوئاردو لو أننى قلت لك إن هذا السياج الفاصل ينبغى إقافته فيما وراء « الماكانيال » فن ناحية أرضى فسافة طويلة ، أى فى آخر حدود التافيرا قبل أن تبدأ القضايا والمنازعات التى تحول بينك وبين اعتبارى صديقة لك ؟

فقطب سانتوس وجهه فى دهشة يخالطها سوء الظن ، ولكنه ظل فحفظاً بهدوء أعصابه ، وأجابها فى ببطء وهو يضغط على فخارج الحروف ، وإن كانت لهجته قد بدت أقل خشونة :

- إفا أن تكونى قد عزفت على السخرية فنى وإفا أن أكون حالماً ! ...
أنهم فن ذلك أنك تعرضين على فا كسبته فى ساحة القضاء فن أرضى ؟ !

ولكنى لا أعرف كيف يمكنك أن تنفذ ذلك دون أن تجرحى حساسيتى
أو تعرضينى لما لا أَرْضى لنفسى .

- لست أنا ساخرة فنك ولا أنت حالم . فالواقع هو أنك لم تعرفنى
بعد حتى الآن ، ولكنك تعرف فالك وفا عليك : تعرف أننى قد انتزعت فنك
هذه الأرض التى هى فوضع حديثنا بطرق غير فشروعة . هذا صحيح ، ولكن
أصغ إلى يادكتور لوئاردو : إن المسئول عن كل ذلك هو أنت وحدك !...

- نحن فتفقان إذن ، فأنا لا أنكر فا تقولين ، ولكن تلك الحدود القائمة
الآن شىء قد نفذت به أحكام القضاء فى ساحات المحاكم ، وأظن فن الخير
ألا نخوض فيه .

- إننى لم أنه حديثى بعد ، فأرجوك أن تسمع فنى فا أقول : لو أننى
التقيت فى طريقى فن قبل برجل فثلك لتغيرت حياتى كلها ، ولكانت غير فا
ترى الآن !.

وعاود سانتوس ذلك الشعور الذى أحس به لأول مرة فى «الخميلة القائمة» :
شعور الرغبة فى استطلاع تلك الهوة السحيقة المظلمة الكافئة فى أعماق نفس
هذه المرأة ... فحالة الإقدام على هذه المغامرة الذهنية فن أجل استكناه سر
تلك الروح التى كانت أشبه بمرآة تنعكس عليها طبيعة السهول : فهى فثلها
صلبة قوية ، عنيفة رهيبة . وفن يدرى ؟ فلعل فى هذه الروح فثل فا فى
السهول فن فناطق فخبوءة لم تتلوث ، يمتد عليها ظل وارف ، وتشيع فيها
نسمات عطرة فن السكىنة الطيبة ، والطمأنينة الجميلة !.. وإلا فمن أين نبعت
تلك الكلمات التى انطلقت فن بين شفيتها فى حرارة وإخلاص احتجاجاً على
فا قال واعترافاً بما تحمله فى قرارة نفسها فن عذاب ؟!...

نعم ... كانت كلمات باربارا فى الحقيقة تعبيراً خالصاً صادقاً عن ثورة هذه الروح الصلبة العنيفة على المصير الذى تعثرت فيه ، وكانت وهى تبوح بسرّها لسانتوس لا تهدف فن ذلك إلى خداع ، ولا ترفى إلى تليين قلبه عليها أو إثارة عاطفة المودة فى نفسه نحوها ، لقد اختفت فى هذه اللحظة فن كيائها تلك المرأة العاشقة العطشى إلى فلاطفة الحبيب وحنانه ، وحلت محلها روح قوية تكفى نفسها بنفسها وتواجه حقيقتها الباطنة فى فرارة صريحة وشجاعة وحشية .

وغلب التأثير على سانتوس لوئاردو وهو يسمع هذه الكلمات القليلة الموجزة التى تركزت فيها عصارة روح إنسانية كافلة .

ولكن فا بدا على باربارا فن إخلاص وصدق لم يستطع أن يقاوم طويلاً ؛ إذ سرعان فا اختفى عن قسماتها ذلك التعبير الذى طبعته تلك الكلمات عليها ، وعادت إلى هيئتها المبتدلة السوقية وهى تقول :

- أفا الطريقة التى تكفل لك عودة حقوقك فهى أن أرجع إليك أراضيك المتزعة بمقتضى عقد بيع صورى . قل لى إنك فوافق على ذلك وسنعمل على كتابة صيغة الوثيقة فى هذه اللحظة دون تأخير ... أقصد أنك أنت ستكون المتكفل بتحريرها وصياغتها ، أفا توثيقها والتصديق عليها فسنقوم به بعد ذلك فى الوقت الذى تريد . إن لى هنا الورق والأختام . فهل تريد أن آتيك بها الآن ؟

وفى هذه الأثناء كان سانتوس قد رأى الفرصة فواتية لكى يباشر الكلام فى الهدف الثانى فن هدفى زيارته ، فأجاب :

- انتظرى قليلاً ياسيدتى . إنى لأشكر لك هذا الاستعداد الطيب الذى تبدينه لى ، لا سيما وأن هذا العرض الذى تقدفين قد سبقته فنك كلمات

لا أكتمك - صادقًا فخلصًا - أنها قد وقعت فن نفسي أجمل وقع ، وخلفت فيها أبلغ أثر ، ولكنى كنت قد أنهيت إليك فنذ البدء أننى قدفت للحدث فعك فى دارك حول فوضوعين اثنين . وقد حان وقت الكلام عن هذا الأفر الثانى ، لا سيما وأنت قد أثرت فسألة إعادة فا اقتطع فن أرضى إلى . إننى بعد عرضك الكريم أعتبر هذه الأرض كما لو أنها قد عادت بالفعل إلى فلكى ، فن الناحية المعنوية على الأقل ، ولهذا فإننى أقترح عليك شيئًا آخر سأكون لك عليه أكثر شكرًا واعترافًا بالجميل مما لو قبلت فنك فا عرضت : أعيدى إلى ابنتك فاريسىلا فا بقى فن أرض «الباركيرينيا» .

وفرة أخرى تغلبت فى نفس باربارا حقيقتها الكافنة وباطنها العميق على الرغبة العارضة التى كانت تحثها على التطهر وتدفعها إلى التجدد . عادت المرأة إلى هيئتها السوقية المتبدلة ، بينما اتكأت إلى الوراء على كرسيها المتأرجح بعد أن همت بالقيام عنه ، وقالت بصوت ناشز النبرات وهى تتأفل أظافر يديها :

- آه .. الآن وقد ذكرتها .. لقد حدثونى بهذه المناسبة أن فاريسىلا قد اكتمل جمالها ونضجت أنوثتها ، حتى إنها أصبحت فتاة أخرى فنذ أن انتقلت «لتعيش» فعك !

قالت هذه الكلمات فى هدوء وبطء وهى تضغط على كلمة «لتعيش» كأنها قصدت أن تبرز المعنى المزدوج لهذا اللفظ غير فحولة أن تخفى تعريضها السيء اللاذع وأفكارها الخبيثة التى تكمن وراء عبارتها . ولم يستطع سانتوس أن يتمالك نفسه ، فهب واقفًا فى حركة آلية ، وهو يقول فى صوت يرتعد غضبًا وثورة :

- حقًا إنها تعيش فى بيتى وتحت حمايتى ، وهو شىء يختلف كل الاختلاف عما أردت أنت أن تعرضى به . إنها تعيش فى ظل حمايتى ؛ لأنها كانت لا تجد لقمة العيش بينما أنت عظيمة الثروة طائلة الغنى كما قلت لى فنذ

لحظات . ولكنى كنت فخطئاً حينما أتيت لأطلب إليك فإليس فى وسعك أن تمنحى : عاطفة الأفوفة !.. فاعتبرى الآن كأننا لم نتحدث بكلمة واحدة لا عن هذا الموضوع ولا عن غيره !

ثم أدار لها ظهره فنصرفاً دون أن يلقى إليها بتحية وداع .
وأفا باربارا فقد انطلقت فى سرعة إلى فائدة فكتبها حيث كانت تضع فسدسها ، إذ لم تكن تحمله فى جيبيها ، ولكن قوة خفية قبضت على فعصمها وهى تقول :

- لا ... لن تقتلى ... إنك لم تعودى نفس المرأة !...

الفصل السادس ماردالمجاز

يوم الخميس ... من أيام الأسبوع المقدس .

يوم يحرم على الكاثوليك فيه أكل لحم الحيوان الذى يأكل من نبات الأرض ؛ لأن الأرض هى جسد السيد المسيح المرفوع على الصليب ، والذى يأكل من لحوم الحيوان السارح فى جنباتها إنما يتهك بأسنانه حرمة جسد المسيح ... يوم يمتنع الناس فيه عن العمل فى المروج والحظائر ؛ لأن العمل فيه لابد من أن ينتهى إلى خراب يلزم المرء طول حياته ... يوم تتوقف فيه المجابن عن خفق اللبنة ؛ لأن اللبن المخفوق فى أيام الأسبوع المقدس لا يستمسك أبداً ، بل إنه لا يلبث أن يتحول إلى دم ... يوم لا عمل فيه لساكنى السهول إلا الخروج لصيد السمك وجمع المحار واقتناص التماسيح واشتبار العسل من خلايا النحل .

أما السمك والمحار فقد كان هو الطعام الوحيد الذى يباح للناس أكله فى يومى الخميس والجمعة المقدسين ، وأما اقتناص التماسيح فإن رعاة السهول كانوا يغتنمون فرصة عطلة هذين اليومين لكى يوجهوا حملاتهم إلى القنوات التى تعمرها التماسيح فى تلك النواحي ، فىكون ذلك تطهيراً لها من تلك الوحوش الضارية ، ثم إن المسك المستخرج من التماسيح التى يصيدونها فى الأيام المقدسة يعتبر فى نظر الناس هناك مسكاً مباركاً أنجع فى الشفاء وأجلب للصحة ، وأما أنياب هذه التماسيح فهى كذلك أحجبة وتعاويز يطرح الله فيها مزيداً من بركاته .

وها هم الرعاة قد استعدوا لتلك الرياضة ، فأقاموا على منحدر القناة السفلى سياجاً من الخشب يخترقها من ضفة إلى ضفة ، وقد غطوه بأكوام من السعف وغصون الشجر تاركين في وسطه فتحة كبيرة كانوا يطلقون عليها اسم «البوابة» ، وإلى جوارها «البوابون» خائضين في الماء إلى خصورهم ، بينما اصطف في أعلى القناة من يدعونهم «الضاربين» وقد تزودوا بعصى طويلة وهم يخطون بها صفحة الماء في قوة وعنف ، وقد أطلقوا صياحاً متصلاً عالياً بكل ما تسعهم به حناجرهم القوية حتى يهيجوا كل حيوان أخفته أمواج القناة العكرة ، ويدفعوه إلى النزول مع تيار الماء نحو الموضع الذي تربص فيه الصائدون . وكان هؤلاء قد حنوا ظهورهم على الماء وأيديهم متشابكة بحيث لا يفوت «البوابين» أى حيوان يحاول اختراق المكان الذي اختاروه لترصدهم ، وكانوا صامتين جامدين ، ولم يكن هناك من دليل على اقتراب الصيد إلا ما يلاحظه الناظر من تقلص عضلات وجوههم أو شحوب مفاجيء يعلو تلك الوجوه .

ووقف سانتوس لوئاردو يراقب هذه الرياضة الجريئة المتهورة ، وكان جامعو القواقع والسلاحف قد حفروا على رمال ضفة القناة حوضاً صغيراً ، ورأى سانتوس كيف امتلأ هذا الحوض بالمحار في عدة لحظات ، ولكنه واصل مسيره بعد ذلك إلى حيث كان بقية رجال ضيعته وهم مشغولون بصيد التماسيح .

وكانت تلك القناة مثل سائر قنوات السهول بركة تتوالد فيها التماسيح التى طالما أضرت بهذه النواحي ، فقد هلك فى الأيام الأخيرة على أيديها عدد كبير من رءوس الماشية ، ولهذا فإن أنتونيو قد اختارها لكى يباشر بها حملة الصيد التقليدية بمناسبة يوم الخميس المقدس .

وكان الناس هناك يعمدون إلى صيد التماسيح إما بإطلاق النار عليها من الشاطئ أو من داخل الماء ، ولكن سانتوس وصل حينما كان إطلاق النار قد توقف ، وبدا عدد كبير من هذه الوحوش المائية مغطية صفحة الماء على مقربة من الشاطئ وقد طفت وانقلبت على ظهورها جثثا هامة .

وقال أنتونيو لرفاقه وهو يرى سانتوس قادمًا :

- لقد انتهت «الحفلة» !... ولو أن الدكتور لوثاردو قد أتى عازمًا على أن يشترك في الصيد بطلقة من بندقيته .

أما الصائدون فقد كان الصمت يعقد ألسنتهم ، وكانوا قد ابتعدوا عن الشاطئ ولكن انتباههم كان موجهًا إلى شيء ما يحدث في داخل القناة ، ولم يكادوا يرون لوثاردو حتى وضعوا أصابعهم على أفواههم مشيرين عليه بالتزام الصمت ، وأما أنتونيو فقد توجه إلى لوثاردو قائلاً بعد أن ألقى نظرة على أولئك الرجال :

- أترى إلى هاتين القرعتين الكبيرتين الطافيتين في وسط القناة ؟ إن تحتكما رجلين يترقبان ظهور تمساح يطفو بقربهما حتى يطعناه بحرا بهما تحت إبطيه من تحت الماء . فالصيد على هذه الصفة هو الذي يعتد به دون غيره . وأنا أكاد أقطع بأن هذين الرجلين هما باخاروتى وماريا نيبس .

وعقب كارمليتو على قول رفيقه :

- إنهما هما بالفعل . أما التمساح الذي يترقبانه فإنه «أعور مجاز الخوار» لا أقل ... مارد المجاز الذي أعجز الصائدين قد ساقه التيار حتى وصل إلى هنا .

كان هو نفسه ذلك التمساح الهائل الذى حاول سانتوس لوئاردو الإطلاق عليه من الشاطئ فى مكان القيلولة الذى توقف عنده لدى شجرة «عصا الماء» فى يوم وصوله ، وكانوا يسمونه «مارد المجاز» و «وحش نهر الأراوكا» ، فقد كانت ضحاياه من الرجال والماشية من الكثرة بحيث لم يعد أحد قادراً على تتبع أعدادها ، وكان الناس هناك يزعمون أن عمره يتجاوز بضعة قرون ، وما أكثر ما أطلق الصائدون عليه رصاصهم ، فكان ينحسر عن قشور ظهره الصلبة ولا يصيبه بسوء ، مما جعل الناس ينسجون حوله خرافة تقول إنه تمساح مسحور لا قبل للرجال به . أما مكانه المفضل فقد كان قناة «الخوار» الواقعة فى أرض «ضيعة الرعب» ، ولكنه كان يسيطر من ذلك المكان على كل حوض الأراوكا والنهيرات المتفرعة منه ، وكثيراً ما كان يتوغل فى تلك النهيرات فيقوم فيها بحملات ناجحة موفقة يعود بعدها وقد ملأ بطنه الكبير لكى يستلقى على رمال الشاطئ فى مكانه المألوف وهو نصف نائم بينما يستسلم لعملية الهضم العسيرة الطويلة . وكانت رمال «الخوار» مكاناً آمناً له لا يهيج فيه أحد ، فقد كانت السيدة باريارا بما هى عليه من الإيمان بالخرافات تعتقد أنه حيوان مسحور حقاً ، ولهذا فقد حرمت على رجالها التعرض له بسوء ، لا سيما أنه كان فى صعوده إلى أعلى مجرى القناة كثيراً ما يوقع ضرباته بمواشى ضيعة التاميرا لا بمواشى ضيعتها هى ، وكأنه على وفاق معها فى ذلك .

وقال سانتوس :

- لقد كان ينبغى عليك يا كارمليتى ألا تدع باخاروتى وماريا نيبس يخاطران بحياتهما على هذه الصورة . وأنا أطلب إليك الآن أن تشير إليهما لكى يخرجنا من هناك .

فتدخل أنتونيو فى الحديث .

- لم يعد ذلك ممكناً الآن ، فإن الثقوب التى فى قرعتى الخشب الطافيتين وهى الموضع الوحيد الذى يمكن لهما النظر منه مطلة على الاتجاه المضاد ، ثم إن الوقت متأخر فهما لا يستطيعان الآن القيام بأدنى حركة فقد دنا منهما التمساح الآن . انظر إلى تموج الماء دليلاً على انسياحه من تحت سطحه .

وكان هذا صحيحاً ؛ إذ بدا ظهر الماء الجامد يتجعد على بعد أمتار من الموضع الذى كمن فيه الرجلان .

وصفر جميع الرجال الذين كانوا يرقبون المنظر صغيراً يطلبون فيه التزام الصمت الكامل بينما خفضوا رؤوسهم وحنوا قاماتهم حتى لا يلمحهم التمساح .

ثم أخذت رأسه الهائلة الفظيعة فى الظهور على سطح الماء فى تباطؤ وشموخ يكفلهما له تقدم سنه وجلالة مكانته بين وحوش الماء ، وأبرز بعد ذلك ظهره المصفح بدروع من صلب القشور .

أما القرعتان فقد بدأتا تنزلقان فى بطن إلى الشاطئ المقابل كما لو كان يجرفها تيار لين هادئ ، بينما تنفس الرجال المترقبون بجوار الشاطئ تنفساً عميقاً كأنما انزاح عن صدورهم كابوس مزعج ، بينما كان أنتونيو يتمتم قائلاً وهو ما يزال جامد الحركة :

- لقد استدارا إليه من جانب عينه العوراء .

ومضت القرعتان تواصلان انحدارهما نحو التمساح ، ولو أنه لم يكن قادراً على رؤيتهما ؛ إذ كانت عينه المبصرة تنظر فى اتجاه الشاطئ ، وكان جسده الآن يبدو كله طافياً على صفحة الماء ، ولكن الخطر لم يكن قد زال بعد ، فقد كان الرجلان فى متناول يدي التمساح أو ضربة ذيله ، بحيث لو ارتكبا أدنى خطأ لدفعا حياتهما ثمناً له .

وفى هذه اللحظة التفت التمساح فجأة ، فأدار رأسه وبقي برهة ينظر إلى ذلك الشيء الطافى على الماء بمقربة منه . ومن الشاطئ صوبت إليه ثلاث بنادق أطلقت عليه رصاصها فى وقت واحد ؛ وكان مطلقوها يعرفون مدى ما يغامرون به فى ذلك ، فقد كانت حياة الرجلين القريبين من موضع التمساح رهينة بتسديد الإصابة وإحكامها. ثم بدأت القرعتان تتحركان على الماء حركة عنيفة مضطربة ، وكان ذلك دليلاً على أن باخاروتى وماريا نيبس قد شرعا فى ترك الاعتصام بهما مقامرين بحياتهما فى ضربة واحدة . وانقض الرجلان على التمساح ؛ إذ كان ذلك هو الفرصة الوحيدة التى بقيت لهما فى النجاة .

واضطربت مياه القناة الموحلة هناك اضطراباً شديداً عنيفاً ، وظلت الأمواج لحظات تدور دورات سريعة كأنما تعرضت لإعصار ، ثم ارتفع الشج فى الهواء ارتفاعاً شاهقاً ، وعاد يخبط صفحة القناة فى انحداره وله صخب مروع . وأخيراً بدا جسم التمساح جامداً لا حراك به ، وقد طفا على الماء بطنه الأبيض الهائل والدم ينزف غزيراً من إبطيه ، بينما كان باخاروتى وماريا نيبس يخرجان رأسيهما من الماء وهما يصيحان :

- تبارك الله وجلت قدرته !

وارتفعت أصوات الجمع الذى كان يراقب المعركة الهائلة من الشاطئ مهللة مبتهجة :

- الحمد لله ... لقد انتهى «مارد المجاز» ! ...

- وبنهايته سينتهى كذلك سلطان السحر الأسود الذى تنفثه ساحرة «ضيعة الرعب» ... وإنا لها لبالمرصاد ! ...

الفصل السابع عسل النحل

مجاز شجرة الخروب تنبعث منه أصوات موقعة الألحان كأنها نغمات
قيثارة ، أما هذه فهي ما تهزج به أسراب النحل فى طنينها الذى لا يتوقف .

وأحفاد «مليسيو» يتسلقون الشجرة التى اتخذ النحل فيها خلاياها ، وهم
يعملون على تطهير أسرابها بدخان كريحه الرائحة ينبعث من خرق قد أشعلوا
فيها النار ، ثم يتزعمون ما استودعته خلاياها السمرء من غذاء طيب حلو ،
فيسلمونه إلى أخواتهم اللواتى تجمعن لدى ساق الشجرة .

وتمضى الفتيات بعد ذلك فى طريقهن عائدات وهن يطلقن صرخات حادة
مرحة إذا تسربت إلى شعر إحداهن نحلة أغضبها أن يقتحم الأجانب مسكنها ،
ولكنهن بعد ذلك يستغرقن فى الضحك ويشتبكن فى معركة شديدة من أجل
اقتسام الشهد الحلو اللاذع :

- لقد أخذت أنت نصيبك ، فالدور الآن على .

- لا ... بل هو دورى أنا ! ... دورى أنا !

أما هؤلاء الفتيات فكن سبعاً ، وأما الثامنة وهى كبراهن «خنوفيفا» فقد
بقيت تتبادل الحديث مع ماريسيلا فى ذلك الكوخ الذى رصت فيه المقاعد حول
المائدة . جلست خنوفيفا ومرفقاها على المائدة ووجهها بين راحتها مصغية
إلى ما كانت تقصه عليها ماريسيلا :

- إننى أنهض فى الصباح الباكر ، فأغتسل ... آه ! ما ألد هذا الماء البارد وهو يتصبب على جسدى ! وليس فى وسعك أن تتصورى ما أحدثه من ضوضاء وأنا أستحم ؛ إذ إنى لا أكف خلال ذلك عن الغناء ، ومن حولى جموع من الديكة والبط والدجاج البرى الذى يعتلى غصون شجر الأرز ، فإذا فرغت من ذلك توجهت إلى المطبخ لأرى ما إذا كانوا قد انتهوا هناك من ترويق القهوة ، ولا يكاد سانتوس يخرج من غرفته حتى أكون قد أسرعرت لأقدم إليه قدحاً من القهوة المركزة السوداء ؛ إذ إنها لا تعجبه إلا إن كانت كذلك ، وبعد هذا أقوم بأعمال البيت . فما أزال أكنس الأرض حتى أحس باللهيب يتصاعد من راحتى ، أو أقوم برفو ما ينبغى رفوه وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من الثياب والمتاع ، وبعد ذلك أبدأ فى استذكار دروسى ومراجعتها ، فإذا حلت ساعة رجوعه من المروج مضيت ثانية إلى المطبخ فعكفت فيه على إعداد الطعام له . إنه لا يأكل إلا ما تطبخه يداى ، إذ يشعر بالتقرز من الطعام الذى تطهوه له الطباخة ، وهو متشدد فى كل ما يتعلق بالنظافة إلى حد الوسوسة ، ولهذا فإنى أقضى اليوم كله متعقبة آثار الذباب أطرده عن الغرف ، أو مهيبة بالدجاج أن تخرج إذا اجتازت عتبة الدار ، ولقد عودتها ألا تضع بيضها إلا فى أعشاشها المخصصة لها . وقد اعتاد سانتوس أن يحضر معه باقات من الأزهار عند وصوله إلى البيت قادماً من المروج ، ولكن الأصص كلها كثيراً ما تبدو مليئة بما أجمعه أنا من زهور مما ينبت حول الدار بحيث لا يبقى مكان فيها لزهرة واحدة ، وذلك أنى أحب أن أجملّ بالزهر كل مكان فى الدار حتى إننى علقت باقة منها من السقف بعد أن ضاق بها المكان ، وأنا أذكر أنه لم يرها حتى صاح : «وما هذا ؟ خلية نحل علقتها فى السقف ؟ » ثم أطلق ضحكة ساخرة عالية ، فغضبت أنا فى أول الأمر ، ولكنى اقتنعت بعد ذلك بأنه كان على حق . آه ! ... لقد ذكرت الآن شيئاً آخر ... ألا تعرفين أن جمعاً من الهنود اقتحم على البيت بالأمس ؟ وكنت ساعتها وحدى فى الدار ، إذ كان قد توجه إلى المروج ومعه أبى

وسائر الرجال ، أما نساء المطبخ فقد كن ذهبن إلى القناة لكي يغسلن الثياب ، وإذا بى أسمع فى هذه اللحظة أصواتاً تقول : «سيدتى ... هل تسمحين بربط كلابك حتى لا تهاجمنا ؟» وأطل أنا من النافذة فأرى نحو عشرين من الهنود من قبيلة «البارورو» قد دلفوا إلى الردهة كأنهم يدخلون دارهم ، وقد أسندوا سهامهم ونبالهم فى أركانها ، ومضوا قدماً إلى داخل المنزل .

- ولم يملك قلبك الخوف منهم ؟

- الخوف؟ ... لقد خرجت لمواجهة صائحة : «اخرجوا من هنا أيها المتجاسرون . لماذا تقتحمون منزلاً لم تستأذنوا على أهله؟ لئن لم تخرجوا لأهيجن عليكم الكلاب!» ... ياللمساكين ! لقد كانوا هنوداً وادعين مسالمين، وكانوا يجوبون المروج جامعين بعض ما يتبلغون به من خضرها وأعشابها ، ثم خطر لهم أن يتقدموا إلى الدار طالبين قليلاً من الملح وأقماع السكر الأحمر ، فأنت تعرفين أنهم لا يقدرّون هدية كما يقدرّون قطعة من ذلك السكر ، ولكن ... آه لو أنك أعطيت لأحد منهم أكثر مما تعطين لرفيقه ! ... عليك أن توزعيه عليهم بميزان عادل لا يزيد ذرة ولا ينقص . غير أنى واصلت تظاهرى بالغضب وصحت بهم : «أيها القذرون ! كيف تجرؤون ؟ ألا ترون كيف تركتم لى الأرض بعد أن وطئتموها بأقدامكم ؟ لوددت والله أن يراكم رجال قبيلة «الكوبياس»(*) القادمون من شواطئ نهر «الميتا» والذين تعرفون مدى بأسهم وشرهم وبلائهم فى القتال ! فقد كانوا هنا منذ قليل ، ولك أن تتصورى مدى ما تملكهم من جزع ، فقد فركوا أعينهم فى رهبة وسألوا : «سيدتى .. أرايت رجال الكوبياس هنا ؟» ... ولكن ... ولكن ... لماذا أقص عليك كل هذا ؟ ... آه ... لقد ذكرت الآن : لو أنك رأيت ما استولى على سانتوس من قلق وانزعاج عندما علم بأن الهنود فاجأوني وحيدة فى المنزل ؟ ... لقد ظل حتى حانت ساعة الدروس فى المساء وهو ساهم مشغول الفكر .

- وتشخص خنوفيفا إليها يبصرها ، فيعلوها الخجل وتبتسم قائلة :
- لا ، ليس فى الأمر شىء مما تظنين ... لا شىء من ذلك ، يالله ! ...
لماذا تطيلين إلى النظر هكذا ؟
- إنك جميلة رائعة الحسن ، ولو أن ما أقول ليس جديداً بالنسبة لك ،
فلعلمهم كثيراً ما رددوا ذلك على مسامعك !
- إنك مخطئة فى التقدير ... ولا كلمة واحدة !
- لست أعتقد ذلك ، على الأقل اليوم وأنت فى هذه الطلعة ، أظن أنك
تلقيت منه كلمة مغازلة أو إطراء .
- الإطراء الوحيد هو الذى أسمع منك أنت الآن . إنه لا يقول لى
إلا أننى فى غاية الذكاء . لقد سئمت هذه العبارة حتى إننى أود فى بعض الأحيان
لو لم أستاذكر دروسى حتى تتغير لهجته فى مخاطبتى ، ولكن ... فيم تطيلين
النظر إلى ؟
- فى هذا الثوب الذى ترتدين . إنه مفصل عليك أبداع تفصيل .
- ذلك بفضلك أنت . ولكن لا تظنى أنى لا أعرف ما تفكرين فيه ! . ثم
نقص ماريسيلا على صاحبها ما قام به سانتوس من رسم نماذج ثيابها ،
وتتضحك الفتاتان من حديث تلك الأطواق والأشرطة المحيطة بالعنق التى
رفضت ماريسيلا أن تضعها فى فستانها ، ثم تخفض خنوفيفا عينيها ، وتريح
أصابعها على حافة المائدة ، فتقرعها قرعات رتبية منتظمة ، وتقول :
- ما أسعدك يا ماريسيلا على الرغم من كل ما تقولين !
- وتزوم ماريسيلا فى ارتياب وتقول :
- كونى على حذر إذن .

- على حذر؟... من ماذا؟

- أنت تعرفين ما أعنى .

- أنا؟... ومن أين لى أن أعرف؟

- لا تكونى منافقة . اعترفى ... اعترفى بأنك أنت تحبينه أيضاً .

وتصيح خنوفيفا :

- أنا؟ وهل كان لفتاة تافهة مثلى أن تسمو ببصرها لكى تحب الدكتور؟

أتراك جنت؟ إنه فتى لطيف جداً ما فى ذلك شك ، ولكن الشهد لم يخلق
لكى تلعه ألسنة الحمير!...

وتجيب ماريسيلا مرددة ما قالت مخاطبتها لا لشيء إلا لشعورها بالمتعة فى

ترديده :

- أليس حقاً أنه فتى لطيف جداً كما قلت؟

ولكن اللهجة التى رددت بها هذه الكلمات كانت على الرغم منها تعبر
عن الرغبة فيما لا تستطيع نيله وعن الأمل الذى لا سبيل إلى تحقيقه . فقد كان
سلوك سانتوس معها يدل على كل شيء فيما عدا الحب : كانت فيه صرامة
الأب أو المربى حينما يلقي إليها بتوجيه أو نصيحة ، وحنان الأخ الأكبر وزمالة
حينما تستريح نفسه ويفرغ إلى راحته ، وكانت هى فى بعض الأحيان تطيل
النظر إليه ، فيخلد هو إلى الصمت ، ثم يرفع نظره إلى عينيها وترسم على
شفتيه ابتسامة تعبر عن الاستعلاء ، فتتكسر نظراتها الحلوة التى ينطبع الحب
فيها إلى خجل تذوب له نفسها ، ثم إنها لاحظت أن سانتوس لم يكن له من
حديث على المائدة فى الأيام الأخيرة على الخصوص إلا عن صديقاته فى
كاراكاس ، لا لكى تتخذ هى منهن قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ، وإنما كان

يبدو عليه أنه يستريح إلى ذكراهن ويتلذذ بترداد الحديث عنهن ، ولا سيما حينما يعرض لذكر إحداهن : «لويسانا لوخان» التى لم يكن ينطق باسمها حتى يظل غارقاً فى تفكير عميق .

وقالت ماريسيلا بدورها :

- أنا كذلك أقول مثل ما تقولين يا خنوفيفا : إن الشهد لم يخلق لكى تلعقه السنة الحمير !

وتكنى ماريسيلا على حافة المائدة ، فتقرعها بأصابعها قرعات رتيبة منتظمة مرافقة صاحبتها فى ذلك .

وفى الخارج كانت أسراب النحل مستميتة فى ذود الأيدي المتطفلة عن خلاياها ، وهى تطن هنا وهناك شاهرة أشواكها فى وجوه المقتحمين حتى استطاعت أن تستنقذ اثنتين من خلاياها لم تعد الأصابع المشتارة قادرة على أن تمتد إليهما لاغتصاب أريهما الحلو .

وتتنحج ماريسيلا وهى تحاول أن تكتم رغبة فى البكاء كانت تعترض كالشجا فى حلقها ، فتسائلها خينوفيفا :

- ما الذى بك يا صبية ؟

إن حلقى يكاد يلتهب لما التهمت من عسل النحل .

فتقول خنوفيفا :

- هذا هو عيب عسل النحل . إنه لذيذ إلى أبعد غاية ، ولكنه يلهب الجوف كأنه نار حامية ! ...

الفصل الثامن الحياة المتجددة

كان دوى الرعد يتردد فى أعماق السهول المنبسطة الخالية الصامتة معلناً عن اقتراب هطول الأمطار ، وكانت فى الأفق قطع كبيرة من السحب القائمة سائرة نحو الغرب حتى تتجمع هناك عند سلسلة الجبال العالية حيث ينهل منها الماء الذى ينحدر بعد إلى السهول . وبدأت البروق تسطع فى أولى ساعات المساء . كان الصيف يلقي تحية الوداع على السهول ، وكأن جنادب الحقول كانت تجاوبه بصرصرتها التى لا تتوقف ، وهى بين أدغال الأعشاب الطويلة اليابسة . أما المراعى فقد اكتست ثوباً أصفر يمتد على مدى البصر ، بينما جفت المستنقعات وبرك الوحل المشرقة فى البسائط ، فبدت مشققة كأنها أفواه هائلة قد فغرت منتظرة قطرات من الماء تبل به ظمأها . كان الجو مثقلاً بالدخان المنبعث من الحرائق التى بدأت تنتشر فى أنحاء المروج ، كان دخاناً ثقيلاً يجثم على السهول فى جمود أياماً كاملة ، لا يقطعه إلا سطعات النيران المتوهجة تتناثر هنا وهناك .

كان القيظ قد بلغ منتهاه ، وكان انعكاس أشعة الشمس يملأ المروج ببرك السراب ، وبدا كل شىء هادئاً جامداً لا حركة فيه إلا تذبذب الهواء الثقيل الغريب الذى كان يملأ الجو ، وفجأة أقبلت لفحة من الريح تدور على نفسها كأنها إعصار ، ووافق ذلك حادث غريب : أسراب من طيور البرك كانت تطير فى اتجاه الأكواخ وهى تطلق نعيباً فزعاً خائفاً ، وقطعان من الجياد والماشية تركض فى الاتجاه نفسه بعضها نحو الحظائر وبعضها الآخر نحو الأفق الواسع المفتوح فى هرب مذعور .

وكان سانتوس لوئاردو يغالب نوم القيلولة فى دهليز البيت الأمامى حينما لاحظ هذه الحركة الغريبة التى نادت من الطيور والماشية ، فتساءل فى صوت مرتفع :

- لماذا تأتى الماشية عائدة إلى الحظائر فى مثل هذه الساعة ؟

فأجابه كارمليتو ، وكان قد توجه مرتين إلى المروج لاستطلاع ما يجرى هناك كأنه ينتظر حدوث شىء :

- لقد تشممت الماشية رائحة الحريق . انظر هناك وراء دغل الأعشاب الذى يبدو فى هذا الطرف البعيد ، فإن النار قد بدأت فى ذلك الموضع وهى ما زالت تتوثب بعد ذلك فى هذا الاتجاه وهى تثير سحباً من الدخان ، إن النار قادمة من موضع بيت «الماكانيال» ومتوغلة فى أرضنا بعد ذلك .

واللجوء إلى النار فكرة بدائية متأصلة فى نفوس سكان الحقول والسهول فى فنزويلا ، وهو مظهر لشعورهم بالعجز والضعف أمام هذه الأرض الهائلة الفسيحة التى تطالب بمزيد من الجهد والعمل لا يقى به عددهم القليل ، ومن هنا لا يكاد أهل السهول يحسون باقتراب موسم الأمطار حتى يشبوا النيران فى المراعى التى أيبستها حرارة الصيف ، ويرون فى ذلك الضمان القوى الوحيد لكى تعود الحياة فتتجدد فى المراعى مضاعفة من خصوبتها ، كذلك يرون فيه وسيلة للقضاء على الديدان والشبث الذى يضر بالماشية ، وفى هذا الموسم يعتاد السهلون على ألا يجد أحد فى طريقه كومة من التبن أو السعف - حتى ما يكون منها فى غير أرضه - إلا أشعل فيها النار ، فهو يعتبر ذلك نوعاً من التضامن يسدى به خدمة إلى المجموع .

ولكن سانتوس لوئاردو لم يسمح بأن تشب هذه الحرائق فى التاميرا ؛ إذ رأى أن اللجوء إلى النار إجراء ضار لا يمكن أن يعود منه خير حقيقى ، وصمم على أن يقوم بتجربة أخرى يتجنب بها إحراق المراعى ، وهى أن يقوموا

بالسهر على كل قطع من قطعان الماشية واحداً بعد واحد ، فينظفوه مما قد يعلق به من الشبث وغيره من الحشرات الضارة ، أما المراعى فقد كان يرى أن أرضها يمكن أن تتجدد فيها الخصوبة من تلقاء نفسها حينما يبدأ موسم الأمطار ، هذا بينما كان يدرس إمكان إدخال بعض المحاصيل الزراعية على مراعى السهول حتى ينتفع منها خلال ذلك الوقت .

كانت أراضي التاميرا من أجل ذلك قد أخذ الجفاف منها كل مأخذ ، ومن هنا لم تكد النار تشتعل فى أطرافها حتى بدأت تمتد وتنتشر فى سرعة هائلة ، ولم تمض لحظات حتى كانت تطوى المروج طياً ، وكانت بعض أدغال الأعشاب هنا وهناك تنصب أعوادها لمقاومة بأسلة مستيئة ، ولكن النار كانت أقوى منها ، فكانت لا تلبث بعد ذلك أن تقذف بنفسها إلى ألسنة اللهب وهى تدور يمينا ويسرة وتطلق صفيراً حاداً غاضباً ، ثم تتقوس أغصانها وهى فى غمار ذلك الصراع ، بينما تنبعث منها حلقات متتابعة من الدخان الأسود ، ولكن تلك الحشائش لا تقوى على المقاومة طويلاً ، فتستسلم للنار فى النهاية ، واحتراقها يحدث أصوات فرقة فى وسط هزيم اللهب ، وتمضى النار المنتصرة فى طريقها قدماً ، وهى تنذر بضرب حصارها حول بيوت الضيعة وأكواخها .

على أن هذه البيوت لم تكن فى خطر محقق بفضل ما كان يحيط بها من برك ومستنقعات ما زال يملؤها الماء والوحل ، ومن حقول رطبة قد استراح إليها بعض قطعان الماشية ، ولكن الهواء الساخن الثقيل بالدخان كان يهب على البيوت والحظائر مهدداً باختناق كل كائن حى متنفس !

ووقف سانتوس يتأمل المنظر ثم قال :

- يبدو لى أن هذا شىء لم يحدث بطريق الصدفة ، بل عن عمد وتدير .

وتمتم كارمليتو :

- نعم يا سيدى . إن ألسنة اللهب لم تكن لتمتد حتى هذا الموضع لو لم تضرمها يد جانية آثمة .

وكان كارمليتو هو الوحيد الذى بقى من رجال الضيعة ، فقد كان الجميع - بما فيهم أنتونيو ساندوفال - قد ذهبوا بعد الغداء ليواصلوا ما كانوا قد بدأوه من صيد التماسيح فى قنوات الضيعة ، أما كارميلتو فقد مكث هناك متجولاً حول الدار كأنه فى نوبة حراسة ، وذلك أن أحد الزراع ممن كان قد التقى بهم فى الليلة السابقة ألقى إليه بخير أثار اهتمامه وقلقه ، فقد ذكر له أنه كان قد توقف قبل ذلك بمشرب «ضيعة الرعب» ، وهناك التقط سمعه حديثاً كان يدور بين الأخوين الباقيين من «الموندراجونس» ؛ حديثاً فهم منه أنهما كانا يدبران شيئاً ضد التاميرا .

واحتفظ كارمليتو بالخبر ، فلم يبح لأحد به ؛ إذ أراد أن يبلغه لسانتوس نفسه دليلاً على إخلاصه له ورغبة فى أن يحضه نصيحته ووده ، وإن لم يكن يريد من ذلك أن يمتن بهذه الخدمة أو يدل بها عليه .

وكان يقول لنفسه وهو يفكر فى احتمال مهاجمة الأخوين أو رجالهما :

- مهما يكن عدد هؤلاء القادمين من هناك فإن الدكتور بيندقيته وأنا بخنجرى قديران على أن نحول بينهم وبين الدار .

ولكنه يرى الآن أن ثمرة الخطة التى تم تدبيرها فى «ضيعة الرعب» كانت هى تلك الحرائق ، فيقول لنفسه :

- الحمد لله على أن الأمر اقتصر على هذا ، فإن ألسنة اللهب سيتوقف امتدادها حينما تصل إلى مذابح الضيعة ومساكنها .

وكان ما قاله صحيحاً ؛ إذ إن النار لم تصل إلى ذلك الموضع حتى ضعفت قوتها ، وأعان على ذلك أن الريح التى كانت تدفعها قد خمدت فى هدأة الأصيل فلم تبق منها إلا ألسنة تسعى هنا وهناك بين المستنقعات ، ولكن منظر السهول بعد انطفاء النار كان كثيباً مشيراً لرهبة الموت ! كانت المروج الممتدة أمام البصر إلى مدى الأفق تبدو متفحمة كساها الرماد تحت سماء قائمة مكفهرة ،

ولم يكن يضىء ما يلف المروج من سواد إلا لمعات خاطفة من بقية شعل محتضرة كانت قد اضطربت فى الأعمدة الأولى التى أمر سانتوس بإقامتها نواة للسياج الفاصل بين أرضه و «ضبعة الرعب» .

كان سانتوس حينما أمر بنبذ فكرة تلك الحرائق التى جرى عليها عرف أهل السهول يريد أن يدخل بذلك على تلك الأرض تجديداً يوطد فيها قدم الحضارة ، ولكن السهول أعلنت عليه الثورة تعاضدها الرياح الجائحة التى لا يقف فى طريقها شىء عبر المروج الفسيحة التى ليس لها حدود . وها هى ذى الآن ترقد هادئة ساكنة - إلا ما يدور فى أنحائها من زوابع الرماد - كأنها مارد استلقى جسده الهائل بعد أكلة دسمة وهو يتنفس فى لذة وارتياح .

وانطفأت النار فى تلك الليلة ، ولكنها عادت إلى التوهج فى الأيام التالية فى مواضع مختلفة ، وكان من نتائج ذلك أن الماشية المتوحشة كانت تفر مذعورة من الأرض الصخرية المشققة التى كانت تسطع فيها شعل النيران ، فتنتشر فى كل مكان، وكان ذلك يزيد من الخطر الذى يتعرض له رعاة المروج فى مجاولاتهم للماشية وهم يسوقونها إلى مراعى لم يصبها بعد لهب الحريق ، وكثيراً ما كانت بعض القطعان المتوحشة تتفرق صفوفها ويتصدع شملها وهى فى هربها المذعور المتواصل ، أما الماشية المستأنسة التى لم تلحقها بعد عدوى الثيران الوحشية فقد كانت تعود كل مساء إلى الحظائر وقد نال منها الإرهاق والجوع .

ولم ينج من بلاء الحريق إلا تلك المروج التى كانت تحميها القنوات المخترقة للضيعة ، ولكن الرعاة اضطروا إلى بذل جهود جبارة هائلة قبل أن يقودوا إليها القطعان التى لم يحملها الذعر على الفرار والتبدد فى الضياع المجاورة .

وكان رجال التاميرا فى حديثهم عما وقع يؤكدون :

- ليس هذا إلا من تدبير السيدة باربارا ، فإن مثل هذه الحرائق لم تشاهد فى مروجنا من قبل قط .

وأقبل باخاروتى على سانتوس مقترحاً :

- لسنا نريد منك يا دكتور لوثاردو إلا أن تأذن لنا - أنا وزميلي ماريا نيبس بعلبتين من الثقاب ، فهو كل ما يلزمنا لكى نشعل النار فى «ضيعة الرعب» من جوانبها الأربعة .

ولكن لوثاردو أجابه بما غلب عليه من طبيعة الرجل المستمسك بالقانون ؛
النفور من كل قصاص يأخذ الرجل فيه ثأره بيده :

- لا يا باخاروتى ؛ لنحاول أولاً أن نعرف الجناة الذين ارتكبوا ذلك إذا كانت تلك الحرائق قد ارتكبتها بالفعل يد جانية ، ثم نقدمهم إلى السلطات حتى توقع عليهم ما يستحقون من عقوبة .

وكان رأى معظم رجال الضيعة مخالفاً لرأيه فى ذلك ، حتى لورنشو باركيرو نفسه لم يلبث أن أفاق من شروده وانطوائه ، وأشار على سانتوس بالمضى فى طريق الانتقام المباشر :

- ما الذى تقول ؟ ... إذا كانت تلك الحرائق قد ارتكبتها يد جانية ؟
أو عندك شك حتى الآن فى أن هذا تدبير من غريمتك ؟ ألم تر النار تنبعث من حدود «ضيعة الرعب» ؟

- بلى ، ولكنى لا أستطيع توجيه اتهام بهذا المعنى إلى السلطات إلا إذا كنت واثقاً من ذلك كل الثقة ، وليس لدى الآن إلا إحساس عابر لا يقوم عليه دليل .

- اتهام ؟ ومن الذى قال بجدوى تقديم اتهام إلى السلطات ؟ ألسنت من سلالة لوثاردو ؟ افعل إذن ما كان يفعله آباؤك من قبل ... اقتل هذه المرأة التى أعلنت عليك الحرب ... ما الذى تنتظر للإجهاز عليها ؟

كانت هذه هى الثورة المكبوتة انفجرت أخيراً فى نفس لورنشو باركيرو ..
حققت سنوات طويلة ظل مدفوناً فى روحه التى أبيضت الخمر ما كان فيها من حمية ، حتى اشتعل فى تلك اللحظة ... رمق الرجولة قد ارتد إليه أخيراً

فى وحشية وعنف ، غير أنه بدا لسانتوس على الرغم من كل شىء رد فعل جديراً بالتقدير بعد السنوات التى قضاهـا مسلوب الإرادة مجرداً من كل علائم الكرامة والنخوة ، تحت أسواط الخمر القاتلة التى كان يريد أن ينسى فيها تعاسته وشقاءه . كان لوئاردو يلاحظ بارتياح أن هذا التحول قد بدأ فى نفس لورنثو باركيرو منذ قدومه إلى ألتاميرا ، ولكن الرجل كان حتى تلك اللحظة لا يجرؤ على الكلام عن السيدة باربارا من قريب ولا من بعيد ، كان حديثه لا يدور إلا عن ذكرياته الباقية من أيام دراسته ، وكان يلح على ذلك إلحاحاً شديداً حتى إنه كان يعصر ذاكرته لكى لا يفوته شىء من تلك الذكريات ، حتى ما دق من أسماء أصدقائه وزملائه وأشكالهم وسمات وجوههم ومن تفاصيل الأحداث الجارية معهم مهما كان صغرها ، وكثيراً ما كان الحديث يجره على الرغم منه إلى الموضوع الذى كان يحرص على تجنبه أشد الحرص ، فكان يضطر إلى قطعه فجأة ، ويخوض فى استطرادات غير مترابطة ولا منطقية حتى لا يلحظ سانتوس شيئاً مما قصد إليه من تغيير مجرى الحديث ، وكان كلامه يبدو من أجل ذلك كما لو كان تعبيراً متناقضاً مضطرباً عن أفكار تتوالب بين أطلال ذهنه متلاقية تارة ومتنافرة تارة أخرى كأنها أشباح مجنونة تتطارد بين أكوام من الخرائب ، ولكنه الآن يشير فى صراحة لأول مرة إلى تلك المرأة التى كانت سبب بلائه ومأساة حياته ، وكان سانتوس يرى فى عينيه بريق الوحشية المحموم يلمع فى عينيه وهو يحدثه عن ضرورة الانتقام .

وأراد سانتوس أن يهدئ من هياجه ويسكن من روعه ، فقال :

- لا يستحق الأمر هذا القدر من الاهتمام يا لورنثو . إن النار قادمة حقاً من «ضيعة الرعب» ، ولكن ينبغى على أن أعترف بأن جانباً كبيراً من التبعة يقع على أنا ؛ إذ إننى لو لم أعترض على الحرائق الجزئية التى يقوم الناس بها حسب السنة الجارية لما كان من السهل أن تشتعل النار فى جميع المروج فى وقت واحد . إن ما حاولت القيام به من تنظيف قطعان الماشية واحداً واحداً

كان خطأ وجب على أن أدفع ثمنه ، وكان الثمن غالياً بغير شك ، لقد أرغمتنى السهول على أن أخضع للتقليد المتبع والسنة الجارية !

ولكن شعور الكراهية الهوجاء المشبوبة الذى أخذ بمجامع قلب لورنثو باركيرو كان يلهبه ويشعل فى نفسه نارا تعوضه عن كثوس الخمر التى كانت تعوزه كلما خائته الذاكرة أو خبا نور ذكائه فتراقصت بين أطلال ذهنه تلك الأشباح المجنونة وهى تلتقى وتفرق فى آن واحد ، ولم يكن أمام سانتوس لوئاردو سبيل لكى يحمله على العدول عن فكرة الانتقام الدموى الأهوج ؛ إذ كان لورنثو يجيبه بقوله :

- لا ... دعك من هذه العبارات البراقة ، ليس هناك إلا طريقان : إما أن تقتل ، إما أن تموت قتيلاً ! وأنت رجل لا تعوزه القوة ولا الشجاعة ، وفى وسعك أن تحمل الناس على أن يرهبوك ويهابوك . اقتلها إذن وانصب نفسك سيداً لحوض «الأراوكا» طاغية فيه ! ... إن بنى لوئاردو كلهم لم يكونوا إلا طواغيت سفاكين للدماء ، وأنت لا يمكن أن تكون شيئاً غير هذا ... إن هذه الأرض لا تحترم إلا من يجروء على سفك الدم ، فلا تتورع عن ذلك ، ولا يأخذنك التقزز من ذلك «المجد الأحمر» الذى لا تناله إلا الأيدي المخضبة بالدماء !

* * *

وفى خلال ذلك الوقت كانت الحياة فى «ضبعة الرعب» تعود إلى سابق العهد بها ، وأما السيدة باربارا فقد كانت حياتها فى طريقها إلى العودة كما كانت فى الماضى بعد أن فشلت تلك المحاولة التى أرادت بها أن تعيد بناء حياتها وتظهر روحها فى ذلك اليوم الذى اجتمع فيه لوئاردو بها فى دارها ، فقد قضت باربارا بعد ذلك أياماً سوداء وهى متوترة الأعصاب منصرفة بكل تفكيرها إلى تدبير خطط انتقامية ضد لوئاردو ، وكانت تقضى ليالى كاملة فى

الصومعة التى خصصتها لمناجيات «الشريك» ، ولكن هذا كان يخلف موعدها ويتعمد هجرانها على ما يظهر ، مما كان يزيد من غضبها وهياج أعصابها ، حتى لم يعد أحد يجسر على الاقتراب منها أو التحدث معها .

وأول بالينو باييا ذلك بأنه دليل على أن باربارا قد أعلنتها على سانتوس لوئاردو حرباً صريحة لا هوادة فيها ، ومن هنا دبر خطة تلك الحرائق التى اشتعلت فى ضيعة ألتاميرا سابقاً بتنفيذها ما يمكن أن يكون عزم سيدهته قد اتجه إلى التفكير فيه ، ومحاولاً أن يسترد بذلك ما كان قد فقده من نعمة وصالها . أما الاضطلاع بتلك الحرائق فقد وكله بالينو إلى الأخوين الباقيين من «الموندراجونس» بعد مصرع أخيهما الثالث فى صبيحة يوم المجاورة فى «الخميلة القائمة» ، وكانا قد عادا إلى سكنى دار «الماكانيال» على الحدود بين ضيعة الرعب وألتاميرا ، ثم إنهما كانا الشخصين الوحيدين اللذين يطيعان بالينو طاعة عمياء بين رجال ضيعة السيدة باربارا ، ولكن بالينو احتفظ بخطته تلك سرّاً لم يعلنه لأحد خوفاً من أن تستاء لها باربارا ، فهو يذكر قولها له وهو يعرض لها بإمكان التخلص من سانتوس : «كان الله فى عون من يتعرض لسانتوس لوئاردو بأى سوء !» . أما هى فإنها لم تر فى تلك الحرائق التى اجتاحت ألتاميرا دون أن تعرف مصدرها إلا مظهراً من مظاهر تلك «القوى الخفية» التى كانت تهرع إلى عونها ؛ إذ إن إحراق السياج الذى أراد لوئاردو به أن يضع حداً لأطماعها وسطواتها لم يكن إلا تحقيقاً لرغبة كانت تتردد فى نفسها . ولم تصل باربارا فى تفكيرها إلى هذه المرحلة حتى شعرت بالطمأنينة تغزو قلبها وبالثقة تعاودها فى نفسها ... لن يمضى وقت طويل حتى تتساقط أعمدة السياج الآخر الذى يفصل بينها وبين ذلك الرجل الذى تشتبه بكل حواسها بفضل تلك القوى السحرية التى لم تتخل بعد عنها ، وحتى يمضى ذلك الرجل إليها بقدميه معدود الخطوات لكى يسلمها روحه تفعل بها كيف تشاء ! ...

والحقيقة أن ألتاميرا كانت تبدو فى هذه الأيام كما لو كانت بالفعل واقعة تحت نير لعنة شريرة جائحة . كان العمل اليومي فى المروج قد زادت مشاقه ، وتعقدت مشكلاته ؛ إذ كان الرعاة والبقارون يقاسون الكثير فى جمع الماشية الظامئة وقيادتها إلى مشارب الماء التى لم تجف بعد ، وتعويدها على التوجه إلى تلك المشارب ، وكثيراً ما تعرضت حياتهم للخطر بين الثيران الوحشية المتفرقة فى أنحاء المروج ، ولم يكن عناؤهم ينتهى بذلك العمل اليومي المرير ؛ إذ كان عليهم بعد ذلك أن يتناوبوا الحراسة طول الليل حتى يصدوا هجمات الثعالب الجائعة المسعورة التى كانت أسرابها تجوب أراضي الضيعة محاولة اقتحام البيوت والتسلل إلى الحظائر ، وكان عليهم أيضاً أن يحموا أنفسهم وبيوتهم من تسرب الثعابين التى كانت شعل الحرائق قد هاجتها عن أوكارها ، وكأن كل ذلك لم يكن كافياً ؛ إذ كان على سانتوس أن يتحمل ذلك المنظر الكريه الذى كان يقابله به لورنثو باركيرو كلما هم أن يخلد فى منزله إلى قليل من الراحة : كان لورنثو لا يكف عن الصياح بصوته المرتجف الذى زاد من رعشته وتهدجه ما كانت نفسه تضطرم به من حقد عاجز قليل الحيلة ، وكثيراً ما كان يلح على سانتوس فى أن يسمح له بأن يمضى فى طريق الأعمال الانتقامية من السيدة باربارا إلى النهاية ، واضعاً ذراعه فى خدمة تلك الشهوة التى كانت تتلظى فى صدره إلى الثأر من المرأة التى جنت عليه .

وأخيراً ماريسيلا التى كان فى تغير طباعها المفاجئ ما طفح به كيل سانتوس لوثاردو ، فقد أدت بها خيبة أملها فى حب سانتوس إلى أن تحولت مرة أخرى إلى مخلوقة جافية شرسة بغیضة المحضر ، وعادت إلى لسانها تلك التعابير السوقية والألفاظ الحوشية التى كان سانتوس قد تجشم الكثير من العناء من أجل عدول الفتاة عنها ، ولم يكن يتوجه إليها بسؤال حتى يتجهم وجهها وتربد أساريرها ويكون جوابها على سؤاله همهمات مزمجرة عابسة ، وكان ذلك خطة مدبرة منها قد أصرت عليها ، وهى أن تفعل كل ما يمكن أن يسوءه

ويقع من نفسه موقع الضيق والضجر ، تحولت طباع ماريسيلا إلى مزاج منقلب وتبرم دائم وجواب واحد لا تبرح تصك به أذنيه كلما أدلى إليها بملاحظة أو عرض لها بتوجيه ، محاولاً أن يقيم بذلك ما عاد إلى الاعوجاج من أخلاقها وسلوكها مع الناس .

- ولماذا لا تتركنى أعود مرة أخرى إلى سفح الجبل الذى أتيت منه ؟

ومرت أيام ، وتواتر مرور كسف الغيوم المتكاثفة على سماء المروج ، وكثرت ومضات البروق فى عرض الأفق ، وفى فجر كل ليلة كانت أسراب طائر «الكاراو» * تصدح بأهازيجها مبشرة باقتراب موسم الأمطار :

- لقد بدأ هطول المطر على الجبال القريبة ، وقد شرعت البروق فى تغيير وجهتها ، ولن يمضى وقت طويل حتى تهب الرياح القادمة من سهول «باريناس» .

وصحت النبوءة ؛ إذ بدا الجو فى اليوم التالى وقد ساد هدوء ثقيل ينذر بتغيير مفاجئ ، ولم يدن اليوم من نهايته حتى شرعت فى الهبوب تلك الرياح التى تقبض الصدور ، والتي تهبط من أعالي سهول «باريناس» ، حاملة معها البشرى المحققة بانهمال مياه المطر ، وتغيرت وجهة البروق الساطعة ، وتردد فى المسامع هدير الرعود الصاخبة من ناحية وادى «الأبورى» السفلى ثم بدأت المياه تنسكب على المروج البعيدة التى تحف نهر «الكونافتشى» وقد حملتها عواصف عنيفة كانت تذرع السهول فى هياج محموم . وكانت الغيوم التى أثقلها الماء تغطى صفحة السماء وهى فى مرورها السريع حيث تلقى دفوقها ، بينما يتردد فى جنبات المروج عواء الريح الحاد ، وبين وقت وآخر تنشق ملحفة السماء عن برق خاطف كأنه شجرة هائلة ترتسم أغصانها الفضية على لوحة الجوى القاتم ، والرعود المدوية تكاد تصم الآذان ... ولم تمض لحظات حتى كانت برك الماء تملأ صفحة المروج .

وأصبح الناس يوماً ، فإذا بالسهول المنبسطة وقد اكتست لوناً بهيجاً أخضر .
وقال أنتونيو :

- عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ! ... إن الحرائق التي اجتاحت
التاميرا كانت علينا خيراً وبركة ، فقد أضفت على الأرض خصباً جديداً ، وها
هي ذى المراعى قد دبّت فيها الحياة بعد موات وجذب ، ومهما قيل من شيء
فإنه لا شك في أن الحرائق هي خير ما يث في عروق المروج دماء القوة
والخصوبة ، ولهذا فإننا لن نبدأ موسم المجاورة القادم حتى تكون تلك المروج قد
انشالت فيها قطعان الماشية على صورة لم نرها من قبل . أما ماشيتنا نحن
فستعود إلى مسارحها القديمة في المراعى ، وأما مواشى الآخرين فستأتى إلى
أرضنا تسوقها أرجلها إلينا حتى تعوضنا عما فقدناه في الحرائق التي أشعلها
خصومنا لإهلاك حيواننا ! ...

عادت الماشية الوحشية إلى ربوعها التي اعتادتها ، والقطعان المستأنسة إلى
سيرها الوثيد الرتيب تأكل مما أنبتت الأرض ، والأفراس الوليدة إلى ركضها
المرح المتواثب حول أمهاتها ... وعادت أيدي الرجال في الأمسيات الهادئة إلى
العزف على أوتار أعوادهم ، وماريسيلا إلى حسن الخلق ودمائه الطبع التي
كانت قد زابلتها فترة من الزمن ، وإلى تلقى دروسها تحت مصباح القاعة .
مضت المشاق والآلام ، وعادت الحياة إلى التجدد كما تجددت أرض
السهول بعد ما أصابها من شعل الحريق ...

الفصل التاسع

سراة الرعاة

أزف موعد المجاورة العامة التى جرى العرف فى السهول على أن يقوموا بها بعد موسم المطر ، وكانت العادة تقضى فى هذه الأرض التى لا تفصل بين ضياعها حدود ثابتة بأن يقوم الرعاة فى كل مجموعة متجاورة من الضياع بأن يقوموا مشتركين بمجاورة الماشية السارحة فيها من أجل تمييز قطعانها مرة أو مرتين فى السنة . أما هذه المجاورة فقد كانت تمتد شاملة المنطقة كلها : يجمعون كل ما تفرق وانتشر فيها من ماشية مستأنسة ووحشية ، فيميزون قطعان كل ضيعة ويسمون بمياسم الحديد كل رأس لم يوسم من قبل ، بعد أن يتبينوا إلى أى ملك ينتمى ، وكان هذا العمل يتم فى الضياع كلها واحدة بعد واحدة تحت إشراف رئيس للرعاة ينتخبونه قبل ذلك فى اجتماع عام يضم كل طوائف البقارين المختلفة فى جميع الضياع ، وأما هذه المجاولات فقد كانت تستمر أياماً متواصلة ، وكانت تعتبر مجالاً للفروسية ، وميداناً للتفاخر والمنافسة بين مختلف الضياع ، فقد كان كل منهم يحتفل لأيام المجاورة الأخيرة أعظم الاحتفال ولا يبعث إليها إلا خيرة رعاته وأكثرهم قدرة ومهارة ، ولا يختار هؤلاء لركوبهم إلا أجود خيولهم وأكثرها دربة على فنون مراوغة الثيران وترويضها ، فضلاً عن عنايتهم بسروجها وأعتها حتى تبدو فى أبهى منظر ، كانت المجاولات تتحول إلى ضرب من المسابقات الرياضية ؛ إذ يغتنمها البقارون فرصة سانحة ليستعرضوا براعتهم فى الركوب والاقتناص ، فقد كانوا يعرفون أنها مناقب أو مثالب ستكون حديثاً للناس بعد ذلك بزمن طويل .

وكان الفجر قد بدأت بشائره فى الظهور والديكة قد شرعت فى أذانها المبكر حينما كان الاستعداد لمجاوله اليوم على أشده فى التاميرا ، وكان رجال الضيعة ورعاتها قد بلغ عددهم ثلاثين ، انضم إليهم عدد من البقارين القادمين من ضيعتى «خويرو أونديو» و «آفى ماريا» ، وتزايدت جلبه الرجال وهم يسرجون خيولهم على عجل ؛ إذ كان عليهم أن يفاجئوا الماشية وهى فى مخائى نومها قبل أن تفرقها أشعة الشمس لمراعيها المعتادة ، وكانت صيحاتهم تتردد هنا وهناك ، بينما كان كل منهم يبحث عن أدوات ركوبه :

- حزام ركوبى ... أين هو ؟ فإنى لا أجده فى أى مكان ! ليسلمه إلى من يعثر عليه ؛ إذ لن يسهل عليه أن يخفيه عنى زمنا طويلا ، فليس هنا من لا يميزه ، لقد علقت به فأسا لا أرى أثرا لضربة من ضرباتها فى مكان إلا وتمكنت من تمييزها والتعرف عليها ! ...

ويصيح باخاروتى بصوته الجهير :

- ما خبر القهوة ؟ ألم يتم إعدادها بعد ، وأشعة الصباح تكاد تطل علينا ، ونحن هنا بعد فى جيئة وذهاب لم نخرج إلى ما ينتظرنا من عمل حتى الساعة !

ثم يعود إلى حصانه فيحكم حزامه على بطنه وهو يقول :

- وأنت يا جوادى القسطلى الأغر ، لنر اليوم كيف يكون تحقيقك لما أعلق عليك من أمل . إن الحبل الذى أحمله قد جف ويبست أليافه حتى عاد كأنه شعر زنجى ، ولكنى لن ألقى عليه الزيت لتطريته ، فإن هناك ثورا وحشيا ضخما ينتظرنا لكى نقوم باستئناسه أنت وأنا ، ولن تبدأ المجاوله حتى نتوثب عليه فتثقب خطامه وننفذ من خلاله ذلك الحبل ، فليعودن بعد ذلك لنا طريا كأنه شعر رجل أبيض .

ويهيب أنتونيو بالرجال قائلاً :

- أسرعوا يا أولاد ، فليس لدينا وقت لإضاعته ، وليعمل الذين يمتطون خيولاً قصيرة الذبول على أن يضفروا ذيولها ويثبتوا بها حبال الأناشيط ؛ إذ إننا سنشرع فى اقتناص الماشية الوحشية فور وصولنا إلى مرابضها .

وتصايح الذين فرغوا من إسراج خيولهم وهم يتوجهون إلى المطبخ :

- هيا يا «كاسيلدا» ... أسرعى بتقديم القهوة .

وكان فرن المطبخ يتوهج بنار تبعث الدفء والمرح ، والشرار يتطاير من حول حطبها الصمغى الطرى ، وعلى صاحبه الأسود قامت الجفنة الكبيرة التى كانت القهوة تعد فيها ، وقد تدلت من سقف المطبخ مصفاة كبيرة من الصوف الرقيق مربوطة ببعض الأسلاك ، ويدأ «كاسيلدا» فى حركة دائبة وهى تمر والقهوة خلال هذه المصفاة ، وتلقاها فى وعاء آخر ، بينما كانت النساء الآخر مشتغلات بغسل الأقداح والأطباق ثم صب القهوة فيها للرجال الذين قدموا إلى المطبخ ليتناولوا إفطارهم وقد عيل صبرهم ، وظل المطبخ لحظات وهو يعج بحركة الداخلين والخارجين ، وبصياح الرجال وما كانوا يوجهونه من عبارات الإطراء والغزل الجريئة والتعريضات اللاذعة ، وبردود النساء وضحكاتهن .

وفرغ الرجال من قهوتهم ، وهم يعرفون أنه لن ينزل طعام فى بطونهم حتى ساعة الغداء المتأخر بعد الانتهاء من العمل فى المروج بعد العصر إلا نغباً من الماء العكر وعصارات من التبغ المر الذى كانوا يلوكونه فى فترات الراحة من العمل ، وتوجهت القافلة بعد ذلك وعلى رأسها سانتوس لوئاردو ، وقد غلب المرح على الرجال وهم يعلقون على ما ينتظرهم من عمل مشير ، أو يتبادلون النوادر والفكاهات والمناقضات التى لا تخلو من حضور بديهة وشدة عارضة ، أو يتذكرون أخبار المجاولات السابقة وما تعرضوا له فيها من أخطار أو إصابات وهم يغامرون بحياتهم بين قرون ثور هائج أو تحت

قوائم جـواد مذـور ، أو يلـقى أحـدهم بـتـحد صـارخ فى وجـوه الآخـرين ،
كـما فـعل باخـاروتى :

- لنـر منكم من هو مستـعد لكى يـدخل فى هـذه المـضاربة ، لـقد آليت على
نفسى أن أقتـنص - أنا وحـدى - عـشرين ثـوراً وحـشياً وأقـوم بـخصائـها ،
وسـيكون ما أقتـطع منـها هو الدليل على عـددها ... فـهل منكم من يـراهنـنى
على ذلـك ؟

* * *

واستمرت المجـاولـة وما كانت تـقتضيه من عـمل مـجهد عـسير حـتى انتـصاف
النهار ، فلم تـخلد حـبال الرعـاة وأناشـيطهم إلى الرـاحة لـحظة واحـدة ، وسـقط
كثير من الجـياد صـريعة تحت أظـلاف الثـيران المتوحـشة الهائـجة ، وأما ما بـقى منـها
حيـاً فـكان لا يـستطيع الثبات على قوائمـه من فرط الجـهد وما أصـابه من هـجمات
الثـيران ، ولـكن المجـاولـة توقفت بعـد ذلـك وبـدت المـروج هـادئة صـامتة ؛ إذ إن
الثـيران كذلـك كان قد حل بها الإعياء والرهق بعـد طـول الجـرى والمـراوغة ،
كان الرعـاة فـقط هم الذـين بقوا على صـهوات جـيادهم التى كانت تـفصد عـرقاً ،
وقد انتـصبت قاماتهم كأنهم لم يحسوا بعـد ما بذلوه من جـهد طـوال الـيوم بـوطأة
الكلال ولا بعـض الجـوع والعـطش ؛ كانت حـناجرهم قد بـحست وتهـدجت
من فرط الصياح ، ومع ذلـك فقد بـقيت فىـها بـقية تـسمح لـهم بـترتيل ذلـك الحـداء
الذى كانوا يـستعينون به على تهـدئة المـاشية وإذهاب الـروع عـنها .

وكانت سـاعة العـصر قد انتـصفت حينما أمر أنتونيـو بالبـدء فى قـسمة المـاشية
وتـميزها ، فأوغل ماريا نيبس فى وسط صفوف المـواشى المـستأنسة مـهيباً بها ،
وتـعرفت هـذه على صـوت مـستأنسها ، فـانقادت له ذلـولة طـبعة ، وكانـت قد
تـعودت على ما يـتبع فى القـسمة ، فتـجمع بعـضها إلى بعـض ، ثم انحازت
وحدها مـنفصلة عن بـقية القـطعان إلى جانـب من جـوانب المـرج ، وكانـت هـذه
المـاشية التى يـستعين بها الرعـاة على تهـدئة غرائز المـواشى المتوحـشة هى أول
ما يـتم فـصله وتـميزه .

ومضى العمل بعد ذلك ، فميزت ماشية ضيعة الرعب ، وبعدها ماشية ضيعة «خوييرو أوندو» ، وأخيراً بقي بعد ذلك عدد من الرؤوس كانت تحمل سمة ضيعة «الأمارينيا» المجاورة ، ولم يكن لها مثل يرعى مصالحها في تلك المجاورة العامة ؛ إذ كانت على بعد غير قليل من موضعها ، واضطلع بالينو باييا بمهمة فصل هذه الماشية وتجميعها بناحية .

وكان سانتوس لوئاردو يراقب ما كان يقوم به بالينو في صمت دون أن يفوه بكلمة ، غير أنه كان يحد النظر إلى سمة كل رأس من ماشية «الأمارينيا» ثم ينظر إلى سمة الجواد الذي امتطاه بالينو ، وهكذا حتى نفذ صبر الرجل ، فتوجه إليه متسائلاً :

- لماذا ينظر الدكتور إلى كفل جوادى كلما فصلت رأساً من رؤوس ضيعة «الأمارينيا» ؟

- لأن السمة التى يحملها هذا الجواد ليست هى المثبتة على جلود تلك الماشية التى أنت آخذ فى فصلها وتمييزها .

ولم يفه سانتوس بهذه الألفاظ حتى بدت له هو نفسه غريبة على ما جرى به لسانه من كلام ، فقد كانت أشبه بما يعبر به أهل السهول الخالص ، لا ما ينطق به سكان المدينة من أمثاله .

واضططر بالينو إلى تبرير عمله فقال :

- لقد وكلنى أصحاب ضيعة «الأمارينيا» فى أن أمثلهم وأميز ماشيتهم لأحملها إليهم بعد انتهاء العمل .

فقال له سانتوس :

- إذن أرنى هذا التوكيل ، فإنك لن تستطيع أن تحمل أى رأس ليس لك الحق فى المضى بها ما لم تطلعنى على ما يثبت لك مثل هذا الحق .

- وما الذى تريد أن تفعله أنت بهذه الماشية إذا لم أطلعك على ذلك التوكيل ؟ لعلك إذن عازم على الاستيلاء عليها ! ..

فأجاب سانتوس فى لهجة جافة عنيفة :

- لست ملزماً بأن أبرر ما أفعل أمام وقح مثلك ، ومع ذلك فإننى قائل لك : لقد أتت هذه الماشية إلى هنا بأقدامها عبر المروج . وعبر المروج ستعود مرة أخرى إلى أصحابها فى «الأمارينيا» إذا لم يبعث أهل هذه الضيعة أحداً لكى يتسلمها .

وصاح بايبا فى دهشة وخيبة أمل :

- عجباً لك ! .. يبدو أنك تريد أن تغير ما جرى به العرف دائماً فى السهول ! .

- نعم ... هذا هو بالفعل ما أسعى إليه : أن أغير بعض ما جرى العرف به هنا من عادات .

ولم ير بالينو بايبا بدءاً من السكوت وهو يرى لوئاردو يحول أولاً بينه وبين ما درج عليه من سرقة فى التاميرا أيام أن كان مدير أعمال الضيعة ، ثم يستكثر عليه بعد ذلك حتى هذه الرؤوس التى كان يريد الاستيلاء عليها من مال ضيعة «الأمارينيا» ، ولم تكن هذه من الكثرة بمكان ، ولكنها كانت تكفى لتدر عليه بعض الربح بعد أن يفعل بها ما اعتاد أن يفعل : وهو «كشط» السمّة التى تحملها وإبدالها بسمّة مواشيه هو ، وكانت تلك الطريقة فى تزييف الماشية مما برع فيه بالينو بايبا ، وطالما استولى بها على غير ماله .

* * *

وفرغ الرعاة من فصل الماشية المستأنسة عن بقية القطعان وإيداعها الحظائر ، وكانت هذه اللحظة هى أكثر لحظات المجاورة تشويقاً وإثارة : كانت الماشية

المتوحشة تضطرب بين أسيجة الخشب المحيطة بها ، وكانت هذه الأسيجة تضيق عليها شيئاً فشيئاً ، ولا تترك لها منفذاً إلا الباب الضيق الموصل إلى الحظائر وقد ضرب الرعاة الفرسان عليها حصاراً شديداً حتى لا تحاول الإفلات والتفرق ، وكأنما كانت الخيل تشعر بأنها تشارك فرسانها فى قيادة الماشية والسيطرة عليها ، فكانت لا تنفك مصعدة مصوبة وهى ترفع قوائمها فى إنذار ووعيد ثم تهوى بها إلى الأرض ، واضطربت الأصوات واختلطت : احتكاك قرون الثيران فى تناطحها الغاضب المقهور ، وخوار الفحول التى تتزعم القطعان ، وأنين الصغار وهى تنادى أمهاتها ، وصهيل الخيل وقرعاتها على الأرض بحوافرها ، وقد علت على ذلك كله أصوات الرعاة فى نصايحهم المعهود :

- من هنا ! .. ضيق الحصار فى هذه الناحية ! ... احرس ذلك الجانب ! ...

ومضى البقارون فى عملهم وهم يسوقون الماشية إلى حظائرهم مجتهدين فى ألا يدعوا لها فرصة اقتحام السياج أو الجموح وهم يهددون بها صائحين :
- هـ ... و ... و ... هـ ! ... هـ ... و ... و ... هـ ! ...

وانتهى إيداع المواشى فى الحظائر ، وأحكم الرعاة إغلاق الأبواب ووضع الحواجز الخشبية عليها ، وبقي المكلفون بالحراسة يدورون حول أسيجة الحظائر وهم يرفعون أصواتهم بالغناء ، بينما اتجه سائر الرجال إلى دور الضيعة ليحلوا السروج عن ظهور خيلهم وليقوم كل منهم بغسل جواده .

وربت باخاروتى على عنق حصانه وهو يقول له :

- لقد كنت جديراً بما أودعتك من ثقة وحسن ظن أيها القسطللى الأغر ...
لم يقترب منك ثور وحشى إلا وأنلته ما يستحق من الجزاء . هذا وإن كان بعض حسادك من رجال «ضيعة الرعب» قد سخرؤا منك فى هذا الصباح

قائلين عنك إنك كَوَدَنْ لا خير فيه ، والذي يؤسفني أنني لم أعرف من هو الذي فاه بهذه العبارة ، وإلا لنال على يدى باسمك ما هو أهل له جزاءً وفاقاً على تهكمه الوقح ! ..

عودة الرعاة والبقارين من العمل تبث الحركة والحياة فى الفناء الواسع الذى يتوسط أكواخ الضيعة ، وما هم الرجال يتقاطرون وفوداً فى ساعة الأصيل ولهم جلبة وضجيج ؛ إذ يبدأ أحدهم بتوجيه كلمة إلى صاحبه ، ثم ينتهون جميعاً وهم محولون حديثهم المعتاد إلى مقطعات ترتفع أصواتهم بغنائها ، فليست هناك حاجة من حاجات الحياة فى السهول إلا وللرعاة فى التعبير عنها أغنية تقوم مقام الألفاظ ، بل تصورها خيراً مما يصوره الكلام المنشور ، فهى حياة بسيطة لا يكاد يجد فيها جديد ، ثم إن أرواح هؤلاء الناس بما فيها من بساطة ، وحياتهم القائمة على الفطرة كانت أنزع بهم إلى الشعر وما يقتضيه من انسجام النغم ، وسعة الخيال .

وما إن فرغ الرجال من غسل جيادهم وإطلاقها فى المراعى حتى عادوا إلى الغناء حيث كان الفرن قد أشعلت النار فيه ، ووضعت بعض العجول على السفافيد ، وقد انبعثت منها رائحة الشواء النفاذة . وكانوا قد أتوا من المطبخ بقليل من اللبن الخائر ، وأعدوا مقادير من الموز المشوى والبطاطس المسلوقة ، إلى جانب ما كانوا يعدونه من لحم الشواء ، وأقبلوا على طعامهم هذا وهم واقفون أو متقرفصون ، يقضمون منه فى عجلة ، ليردوا عن بطونهم القنوعة عض الجوع بعد الساعات الطويلة التى قضوها فى العمل الشاق دون أن يتذوقوا شيئاً من الطعام بعد أقذاح القهوة التى تناولوها فى فجر ذلك اليوم .

وكانوا لا يكفون عن الكلام خلال الطعام بين لقمة وأخرى ؛ أحاديث عن عمل اليوم وما تخلله من أحداث ، وتعريضات وغمزات ساخرة يقذف البعض بها فى وجوه البعض ، وادعاءات مبالغ فى معرض التفاخر والاختيال ،

وفى أثناء ذلك كله الكلمة اللاذعة تتضمنها الدعابة المازحة ، والجواب السريع الحاضر ، كلمات خاطفة وعبارات موجزة تتركز فيها حياة رعاة البقر وحياة الماشية ... تلك الحياة البسيطة المثيرة التى يستغرقها العمل الشاق العنيف ، والسير الصبور المتباطئ ، وفى صدر كل رجل قلب شاعر ، وعلى شفثيه مقطع أغنية.

أما الحراس الذين وكل إليهم حماية الحظائر فقد ظلوا هناك لا يكفون عن الصفير والغناء ، فقد كانت الماشية هناك ما تزال قلقة تضطرب ، وهى تشمم هواء المروج الطليقة فى انتظار أى فرصة تسنح لاسترداد حريتها المسلوبة ، وكان على هؤلاء الرجال أن يراقبوها وهم على حذر وأهبة ، فإن أية حركة مفاجئة يبدأ بها ثور نازع إلى الثورة والجموح يمكن أن تؤدى بالماشية إلى محاولة اقتحام السياج والتفرق مرة أخرى هاربة فى أنحاء المروج .

أما فى الفناء الواسع بين الأكواخ فقد استمرت سهرة الرعاة الصاخبة : العزف على العود وصليل كرات «الماراكاس» ، وعلى هذه الموسيقى البدائية الأهازيج والمقطعات تجرى على ألسنة المرتجلين فى طبع وانطلاق ، هو الشعر الوليد فى مهده ...

وكان باخاروتى وماريا نيبس هما سيدى هذا الميدان ... ميدان ارتجال الشعر ، ومع كل منهما آله الموسيقى المفضلة : هذا بعوده ، والآخر بكرات «الماراكاس» فى يديه ، وهما يتبادلان الإنشاد ، يلقي أحدهما بمقطوعته فيجاوبه رفيقه دون تفكير ولا روية :

- حينما أهلت على الدنيا طلعة المسيح

كان ممتطياً جواداً أصهب

وأقبل يركض مغامراً بحياته

من أجل اقتناص ثور وحشى ! ..

- حينما أهلت على الدنيا طلعة المسيح
كان ذلك فى شهر أغسطس
فما أكثر ما أكل هذا المسيح
من تفاح الماء وكيزان الذرة الغضة ! ...

وهكذا مضى الرجلان فى معارضات شعرية يجاوب أحدهما بها الآخر ..
أهازيج بسيطة بساطة السهول ، ساذجة سذاجة هؤلاء الذين يعيشون على
الفطرة فى أحضان تلك الطبيعة ، وكانت شياطين شعرهم من أجل ذلك مثلهم
تقذف بأمثال هذه الأبيات فى تلقائية مطبوعة متوثبة بهم من غرض إلى غرض
دون تمهيد ولا رابطة : من العاطفى الغرامى إلى الهجائى الساخر ، ومن
الفكاهة المضحكة إلى المأساة الحزينة الباكية ، وهم ماضون فى مناقضاتهم
ومساجلاتهم فى غير توقف ولا تلثم ، وموسيقاهم لا تكف عن مرافقة ما
ينشدون ، طالما بقيت للعود أوتار ، ولكرات «الماراكاس» صليل . فإذا غضب
معين القريحة وجف ماء البديهة فلا بأس فى أن يستعيروا بعض ما نظمه
«فلورنتينو» مغنى وادى «الأراوكا» المشهور الذى طار صيته فى جميع أنحاء
السهول ، والذى لم يبق شىء يقال إلا أودعه أهازيجه وأغانيه ... «فلورنتينو»
الذى بلغ من بديهته وارتجاله على ما يزعم الناس هناك أن الشيطان مثل له ليلة
وهو متخف فى زى رجل فتحداه فى ارتجال الأغانى : أيهما أطول فيها نفساً
وأوسع باعاً ، ومضيا بتساجلان حتى لم تعد فى «فلورنتينو» إلا ثمالة صوت ،
ولكن عبقريته ظلت حية متوقدة ، وكانا قد أدركتهما ساعة السحر ، ولم يبق
إلا القليل على شروع الديكة فى الصباح ، فلم ير «فلورنتينو» بدأ وقد ارتاب
فى أمر رفيقه وقريعه إلا أن يرتجل أغنية ذكر فيها اسم الله والأسماء الثلاثة
المقدسة ، فما لبث الشيطان أن استولى عليه الرعب ، فهرع عائداً إلى جحيمه
لا يلوى على شىء ، وقد سلم بالهزيمة خاسئاً مدحوراً .

وتتخلل كل ذلك أحاديث باخاروتى وحكاياته الغريبة :

- عفريت فظيع هو الذى رأيته فى بعض الليالى وأنا على ظهر قارب بمخر مياه نهر «الميتا» ، وكنت فى رفقة من الأصدقاء ، وكنا قد لمحنا على ضفة النهر أضواء فظننا أنها بيوت ، وكان أن دنونا من الشاطئ لطرق أبوابها حتى نبحت فيها عن شىء نتبلغ به ؛ إذ كان زادنا قد نفذ ، والجوع أخذ منا مأخذه ، وأنعمنا النظر فى الربوة التى كانت الأضواء تتوهج من فوقها ، فما الذى تقدرون أن تكون تلك الأضواء ؟ حزمة ضخمة هائلة من الشعابن فيها أكثر من ألف حية ، وقد التفت وأقبل بعضها يحك جسم بعض - تبارك اسم العذراء ! - والشرر يتطاير عنها كما لو كنت قد فركت ما بين أصابع يديك حزمة من أعواد الثقاب ! ...

ويقول ماريا نيبس فى ارتياب :

- دعك من هذه المبالغات يا رفيقى !

- مبالغات ؟ ... ، كل ما هنالك هو أنك لم تر شيئاً فى هذه الدنيا أيتها الهندى ! ... فإذا كنت ترغب فى مطالعة الغرائب فعليك باقتحام هذه الأنهار فلترين فيها ما لا عين رأت ولا خطر على خيال بشر ! وليس فيما ذكرت ما يزيد فى الغرابة على ذلك الخبر الذى قصصته عليكم من قبل مما وقع لى حينما كنت أعمل فى صيد السلاحف فى نهر «الأورينوكو» .

ويتساءل بعض الرجال حديثى العهد بالخدمة ممن يجهلون القصة :

- وكيف كان ذلك ؟

- سأرويهم عليكم ... هو شىء يحدث مرة فى السنة ، فى يوم لست أذكر الآن أى الأيام هو ؛ إذ لا ينتصف الليل حتى يبدو فى النهر قارب خفيف يسوقه رجل عجوز نحيف الجسد ، لم يقدر لأحد حتى الآن أن يعرف من هو ولا من

أين يأتى ، ويزعم البعض هناك أنه سيدنا المسيح بنفسه وشخصه ، ولكن الثابت أنه يرسو بقاربه فى موضع من مواضع الشاطئ ، ثم يقذف بصيحة هائلة تسمعها كل سلاحف «الأورينوكو» من منابعه هناك لدى وادى «رريمه» حتى مصبه فى «البوكاس» ، وهذه الصيحة هى كلمة السر التى تنتظرها السلاحف حتى تخرج لتضع بيضها فى رمال الشاطئ ، والذى يقف هناك لا يتمالك نفسه من الارتباع وهو يسمع قعقة ملايين السلاحف وهى آتية فى أسراب ضخمة لا يكاد يحصيها العد ، وقد ارتطمت أصداف بعضها ببعض ارتطاماً دونه دوى الرعود ، وهذه هى أيضاً «كلمة السر» التى يعرفها صائدو السلاحف الماهرة ؛ إذ يخرجون إليها فى تلك اللحظة ، فيجمعون منها ما يشاءون بأيديهم دون جهد ولا عناء .

ويتوقف باخاروتى لحظة ثم يمضى مواصلاً حديثه قبل أن تمزق الضحكات المتشككة فترة التصديق المؤقت الذى يبدو على وجوه سامعيه :

- ... وهذا البريق الساطع الذى يغمر السماء فى «إلدورادو» ؟ لقد رآه الإسبانيون ، وأنا أيضاً رأيته ، فكثيراً ما قدر لى أن أميزه من هنا على بعد المسافة ؛ إذ إنه لا يلتصع إلا فى الجهات التى يخترقها نهر «الميتا» .

- إن هذا ليس إلا بعض الحرائق التى يشعلونها فى السهول يا باخاروتى .

- لا يا رفيقى أنتونيو ... إن بوسعى أن أؤكد لك أن هذه الناحية لا بد أن تكون تلك المنطقة التى يسمونها «إلدورادو» والتى جاء ذكرها فى بعض هذه الكتب التى قرأتها على مرة . إن الضوء يرى فيها واضحاً متوهجاً هناك حيث يجرى نهر «الميتا» حتى تبدو السماء فيها وكأنها تحولت إلى مدينة من الذهب ! .

ويعلق بعض الرجال :

- لست أظن هناك شيئاً لم يره باخاروتى .

ويطلق السامعون ضحكاتهم .

ثم يتوجه ماريانيس إلى صاحبه ويقول :

- والآن قص علينا يا باخاروتى كيف تمكنت من أولئك الذين أرادوا أن يعدموك رمياً بالرصاص .

ويتصايح الذين يعرفون الخبر فى مرح :

- إنها لقصة طريفة ، فألق حديثها يا باخاروتى ، فإن من بيننا كثيرين لم يسمعوها من قبل .

ويلبى باخاروتى رغبتهم فيقول :

- كنا قد وقعنا أسرى فى أيدي بعض هذه الطوائف التى كانت قد أعلنت الثورة على الحكومة ، وكنا قد أوقعنا الكثير بهذه الطائفة حيثما عثرنا على رجل منها ، وإذا كنا قد اشتركنا جميعاً فيما فعلناه بأولئك الثوار فإن كل فعلة منكورة من أمثال تلك الفعلات لم تكن تنسب لأحد غير باخاروتى ، وهكذا لم أكد أقع فى أسرهم حتى أخذونى بجرائرى وجرائر الآخرين ، وقرروا إعدامى رمياً بالرصاص . كان ذلك قريباً من مصب نهر «الأبورى» ، وكان النهر فى موسم الفيضان فى ذلك الوقت ، أما الرجال الذين عهد إليهم بإعدامى فقد كانوا قربوا خيولهم إلى ضفة النهر لكى يستقوا من مائه ، وكنا جميعاً غارقين فى الوحل والطين حتى أنوفنا ، وخطر لقائد الفرقة حينئذ أن يستحم فى ماء النهر ... ولكن على مقربة من الشاطئ ؛ إذ إنه لم يكن يحسن العوم . وأعملت أنا ذهنى حتى أخلص مما وقعت فيه ، فدبرت من أمرى ما ترون : نظرت إليه ثم قلت بصوت تعمدت أن يصل إلى مسامع الضابط قائد الفرقة :

« - يا لهذا القائد من رجل قوى العزم بالغ الجرأة ! والله لو كنت فى موضعه لما خطر ببالى أن أسبح فى الماء هكذا فى طمأنينة وهدوء بال ، مع ما فى هذا النهر من تماسيح ! » .

وسمعتنى الرجل ، فبدا عليه الاضطراب والتحير شأن من يريد أن يتدارك من أمره ما تصدع ، ولكن عناية الله كانت هناك متكفلة بما بقى ، وذلك أن الضابط رسم كذلك خطته ، وهى خطة لم تكن لتنتوى على خير ولا بركة ، فتوجه إلى مسائلاً :

« - إنك من أهل هذه السهول ، أليس كذلك ؟ » .

فأجبتة وأنا أصطنع السذاجة والوداعة :

« - بلى يا سيدى ! من أهل السهول أنا ، ولكنى لا أجوب هذه الأرض إلا على ظهر حصان ؛ فإذا افتقدتنى فابحث عنى فى جنبات الأرض ، أما الماء فليس لى قبل به ، ولن تجدنى فيه ... بل ولا حتى على شطآنه ! » .

وصدقنى الرجل ؛ إذ كان قضاء الله سبق بأن يكتب لى الفرج من تلك المحنة ، وكان قد أمضى عزمه ، فأمر رجاله بأن يفكوا وثاقى وأن يقذفوا بى إلى الماء زاعماً أنه يريد لى أن أغتسل ، ولست أدري إن كان قيد أمر بما أمر لمجرد العبث بى أو لكى يتجنب النظر إلى وهم يطلقون على الرصاص ، على أية حال أوعز الضابط إلى جنوده بأن ينزلونى إلى الماء وهو يقول :

« - اقرب يا صديقى ولا تجزع ، فلسنا نريد إلا أن نغسل لك قوائمك ، حتى لا تلوث السماء غداً بقدر رجلك حينما يؤذن لك بدخول الجنة » .

وقهقه الجنود ضاحكين من نادرة ضابطهم ، أما أنا فقد حدثت نفسى قائلاً : « لقد جاءك الفرج ونجوت يا باخاروتى ! » ، ولكنى واصلت تمثيل الدور فصحت فى استعطاف :

« - لا يا سيدى القائد بحق الله وحق حيائك ! أتوسل إليك ! ... إننى أؤثر أن تعدمونى بالرصاص إذا كان مصيرى سينتهى إلى ذلك على أن يلتقمنى فكاً تمساح ! » .

ولكنه صاح بجنوده :

« - اقدفوا بهذا الجبان إلى الماء ! » .

وصدعوا بما أمروا به ، فألقوا بي حتى أغرق أو أكون لقمة سائغة
للتماسيح ، وكان ذلك فى الضفة المقابلة لنهر «الأبورى» . أما أنا فقد غصت
فى النهر كما لو كنت ماضياً قدماً إلى القاع لا ألوى على شىء .
ويتوقف باخاروتى عن الكلام ، وتسود لحظة صمت ، فيهب به أحد
الحاضرين :

- وما الذى وقع بعد ذلك ؟ أتارك أنت الخبر قبل أن تلقى إلينا بخاتمته ؟
- ولكن ... ألا ترانى الآن فى هذه الضفة حياً أرزق ، لقد مضيت أسبح
تحت الماء ، فلم أخرج رأسى إلا بعد أن بلغت الشاطئ المقابل ، ثم صحت بهم .
- « لا تحرمونى من متعة هذه البطشة مرة أخرى إذا قدر لنا لقاء ! »
وصوب الرجال بنادقهم إلى ، وأطلقوا على من الرصاص ما شاءت
أيديهم أن تطلق ، ولكن ... من الذى يدرك باخاروتى حينما يقول لساقيه :
أى جدوى منكما إذا لم تسعفانى فى مثل هذا المقام ؟ » .
وسأله كارمليتو :

- وأنت ... ما كنت فعلت حتى يقبضوا عليك ؟
- لا شىء ... إلا أننى كنت رجلاً مسالماً عَزَوْفاً عن الحرب والقتال
وما يرددونه عن وجوب أداء الخدمة العسكرية ، ثم إن يدي امتدت إلى بعض
صناديق التوفير حتى أقاسمها دريهمات مما أبتزعت به ، وكانت قد حفلت
بالنقود بفضل ما كان يعم الناس من ... رخاء ، ويسودهم من سلام وأمن ! .
فقد كان لباخاروتى آراؤه الخاصة التى يتميز بها أهل السهول حول الحرب
وتوزيع الثروة بين أفراد الشعب ! ...

* * *

مساء يوم السبت ... سهرة راقصة صاخبة حتى مطلع الفجر .

وكان أهل الضيعة قد استعدوا للحفلة فأخلوا الكوخ الكبير الذى كانوا يودعون فيه سروج الخيل ، ثم كنسوا أرضه ورشوها ، ووضعوا شمعدانا على كل من الأعمدة الخشبية التى قام عليها الكوخ ، وكانت كاسيلدا قد أعدت ما سيقدم للحاضرين من شراب متخذ من الشعير المتخمر والحلوى المصنوعة من مربى البرقوق ، بينما كانت الطاهيات فى المطبخ مشغولات بشى قطع من اللحم وقليلها ، وفى جانب من جوانب الكوخ أقيم مشرب صفت عليه زجاجات من الخمر القوية ، وكانوا قد أحضروا «رامون نولاسكو» من قرية «لاس بنياس» ، وكان خير عازف على آلة «الهارب» فى جميع حوض «الأراوكا» ، أما للغناء وهز «الماراكاس» فقد استدعوا «أمبروسيو الأعور» الذى كان معروفا بأنه أعظم مرتجل للأغاني فى هذه البقاع بعد «فلورنتينو» المغنى المشهور .

ووصلت ركبان الفتيات من القرى والضياع المجاورة : من «الخروب» ومن «آفى ماريا» و «خوييرو أوندو» ، فنزلن وأسرعن إلى الجلوس على الدكك الطويلة التى رصت صفوفها فى الكوخ ، وكن من الكثرة بحيث لم تكد المقاعد تكفى لجلوسهن .

وكانت ماريسيلا تقوم بمهمة المضيقة : تستقبل القادمين وهى غادية رائحة هنا وهناك ، ولم تكن تلتقى بفتاة أو امرأة إلا همست فى أذنيها بشىء ، فتصاعد الدماء إلى وجه ماريسيلا ، ثم تطلق ضحكة وتجيّب :

- ولكن ... من أين تأتين بهذا الكلام ؟

وهى تنتقل بين جماعة وجماعة ، وتتلقى المداعبات وعبارات الشاء والإطراء .

وتلحف خنوفيفا فى سؤالها .

- أحق ما تقولين من أنه ليس هناك شىء حتى الآن ؟

- لا شىء ... بل إن الأمر أسوأ بكثير من هذه الأيام ، فقد زاد جفاؤه وخشونته أخيراً حتى لم يعد مجال لأى شىء من ذلك .

- لا أكاد أصدق ما تقولين ... لا سيما وقد تزايد فى هذه الأيام جمالك !

- سأحدثك بعد قليل بكل شىء .

وبدأت الحفلة ؛ إذ شرع عازف «الهارب» فى جس أوتار آله ، وبدأ «أمبروسيو الأعور» فى تحريك كرات «الماراكاس» مرتين أو ثلاثاً .

وأوحى «رامون نولاسكو» إليه بإشارة متفق عليها بينهما ، فتحنح المغنى حتى يصفى حنجرتة ويصلح صوته ، ثم ألقى ببصقة من أحد جانبيه فمه ، وأعلن على الحاضرين :

- إليكم الآن لحن «التشيولا» ! * .

وشرع أمبروسيو فى الغناء ، بينما هرع الرجال إلى حيث كانت النساء جالسات لكي يخرجوا بهن إلى حلبة الرقص :

- تشيولا ... افتحى لى ذراعيك

فما أشوقنى منك إلى ضمة عناق

ودعيني أسترح إلى لذة الوصال

قبل أن يظفر بها رجل آخر !

وتبدأ رقصة «الخوروبو» * بخطوات سريعة مائجة ترتفع لها ثياب النساء عن سوقهن .

ولكن ماريسيلا تظل فى موضعها جالسة ، أما سانتوس فقد بقى هناك بعيداً لم يفكر حتى فى مجرد الدنو منها ، وكان هو الوحيد الذى يستطيع

مراقبتها ؛ إذ إن رجال الضيعة وأجراءها لم يكونوا لتبلغ بهم المرأة إلى هذا الحد ، وكان سانتوس يبدو فى تلك الليلة منصرفاً عن الرقص كل الانصراف .

وتنبعث الألحان من بين يدي العازف : الأوتار الدقيقة تطلق أصواتاً حادة رفيعة ، والأوتار الغليظة تحشرج فى دوى مزمر مبحوح ، وأصابع رامون نولاسكو السمراء بين هذه وتلك تبدو كأنها عناكب سوداء تنسج خيوط بيوتها وهى فى طراد متواصل ، وتمضى الألحان عنيفة رتيبة فى انسجام حزين مثير ، وأزواج الراقصين لا تكاد تتحرك عن شبر من الأرض قد استقرت عليه أقدام كل منها ، أما اللحن فكانوا يستجيبون له بحركات خصورهم ، وبين فينة وأخرى تتوقف كرات «الماراكاس» عن الصليل ، ثم تعود مرة أخرى فى عنف وثورة ، ويرتفع صوت أمبروسيو مرة أخرى بالغناء :

- لو أن أبانا المقدس وصل إلى علمه

ما فى رقصات «التشيولا» من ثورة دفاقة

لخلع عنه مسوح رهبته

ولأقبل تاركاً كنيسه وحيدة مهجورة !

وكانت هذه المقطوعة إيذاناً بتلك «الثورة» التى كان العازف يعدّها ليهيج بها حمى الرقص ، وتتوالب أصابعه الماهرة بين الأوتار الدقيقة والغليظة ، وتنطلق صيحات الراقصين فى طرب وامتعة ، ويعود «الخوروبو» إلى لحنه الأول وقد زاد عنفه وارتفعت جلبته ، ويقرع الراقصون الأرض بأعقابهم قرعاً يكاد يتزلزل له المكان ، ثم يفترق الأزواج ويمضون صفوفاً يتبع الرجل منهم فيها صاحبه وسط الزحام ، ويعودون بعد ذلك إلى الالتقاء متخاصرين ، وترتفع ثياب النساء مرة أخرى عن سوقهن فى حركة سريعة مؤذنة بانتهاء الرقصة ، وتخفت الموسيقى شيئاً فشيئاً حتى تتوقف ويتوقف معها الراقصون .

وتعود النساء إلى مقاعدهن ، وأما الرجال فيسرعون إلى المشرب ، ويزيد
الشراب من نشاطهم ومرحهم ، ثم يتوجه باخاروتى إلى العازف مهيباً به :
- على لحن «الدودة» يارامون نولاسكو ! .. سترى الآن شيئاً طريفاً ممتعاً
يا سيدى الدكتور .

ثم يصبح منادياً «كاسيلدا» :

- كاسيلدا ! .. أين ذهبت السيدة كاسيلدا ؟ .. تعالى هنا ، ومثلنى دور
الجيفة الميتة حتى يرى المشاهدون كيف تدور هذه الدودة لكى ترتعى
على رفاتك ! ...

أما لحن «الدودة» فقد كان ضرباً من الموسيقى الراقصة ، من تلك
الضروب الكثيرة التى كانت تحمل أسماء الحيوان أو الحشرات فى السهول ،
والرقص فيه يقوم على تمثيل مقلد لا يضطلع به فى أمثال هذه السهرات إلا من
يريدون إضحاك الناس وبث السرور فى نفوسهم ؛ إذ يعمد الراقص على لحن
الموسيقى إلى تقليد حركات الدودة وهى تستعد للوثوب على جيفة البقرة الميتة،
وكان باخاروتى قد اشتهر بأنه خير راقص لهذا الضرب فى جميع تلك الجهات ؛
إذ كان يعينه على إحكام التقليد جسده الطويل المعروق وعظامه المهزولة ، أما
كاسيلدا فكانت تقوم بدور الجيفة الميتة ، وكانت هى المرأة الوحيدة التى تقبل
القيام بذلك الدور ؛ إذ كانت مستعدة دائماً لمرافقة باخاروتى فى تلك التمثيلية
الهزلية الراقصة . ولهذا فإنه لم تكن سهرة راقصة فى تلك الجهات تخلو
من عزف ذلك اللحن الذى كان باخاروتى ورفيقته يثيران به ضحكات السرور
بين الحاضرين .

وأوسع الراقصون لهم الحلبة ، وشرع رامون نولاسكو فى العزف ،
بينما انطلق صوت أمبروسيو الأعور :

- أقبلنى يا ديدان بركة الوحل

لدى شجرات البلوط فى أسفل الوادى

فلتروا الآن أيها السادة

كيف يعود الشيطان خاسئاً مدحوراً

- أقبلى يا ديدان بركة الوحل

لدى شجرات البلوط فى الوادى البارد

لقد أنتم البشائر أيها السادة

بأن «فلورنتينو» قد كاد يُفْرُ بالهزيمة

وكانت هذه المقطوعات هى التى يزعم الناس أنها دارت بين «فلورنتينو»
مغنى وادى الأراوكا والشيطان فى ذلك التحدى الخرافى الذى دار بينهما
فى ارتجال الأغانى .

ووقفت كاسيلدا فى وسط المكان وقد أغمضت عينيها وتصلبت عضلات
جسدها ، وكانت ترافق الموسيقى جامدة الجسم إلا حركات خفيفة كانت تهز بها
كتفيها ، أما باخاروتى فقد كان يرقص دائراً حولها وهو يفتق خياشيمه متشهماً
ويحرك ذراعيه الطويلتين حركات سريعة متتابعة ، وجسده يتقبض ويتمدد وهو
بين وقت وآخر يتوثب فى الهواء وثبات هائلة مقلداً فى ذلك حركات الدودة ،
وهى تهز جناحيها وتزحف بجسدها الطويل متقدمة نحو الجيفة المطروحة .

وكان الحاضرون يوشكون على التفطر ضحكاً ، ولكن الرقصة لم ترق
سانتوس ، فظل يتأملها لحظة ثم قال :

- كفى يا باخاروتى ... لقد أضحكنا بما فيه الكفاية .

وعدل العازف إلى لحن آخر ، واستمر الرقص ، أما ماريسيلا فقد ظلت
فى مكانها جالسة ، بينما كان سانتوس يصفى إلى حديث كان أنتونيو يلقيه إليه
عن بعض نوادر باخاروتى الأخيرة ، ورأى هذا أنهما يخوضان فى ذكره فأقبل

يتسمع إلى الحديث ، حينما توجهت إليه ماريسيلا فجأة فقالت له :

أتريد أن تراقصنى يا باخاروتى ؟

فصاح الرجل مجيئاً لها وهو يتمثل :

- زعموا أنهم قالوا للميت : أتريد صلاة تتلى على روحك ؟ ولكنه لم يلبث أن أضاف بعد أن رمقه أنتونيو بنظرة لها مغزاها .

- لا يا بنيتى ... فهذا شئ ليس باخاروتى أهلاً له . غير أن سانتوس قال له :

- قم يا باخاروتى ... قم وراقصها .

وعضت ماريسيلا على شفتيها غيظاً ، بينما كان باخاروتى يخاصرها ويمضى بها إلى حلبة الرقص وهو يصيح فى طريقه بالعازف والمغنى :

- أصلح أوتارك يا رامون نولاسكو ، وأحكم الصليل يا أمبروسيو الأعور ، بل ما كان أجدر كراتك هذه أن تكون من ذهب خالص . فها هو ذا باخاروتى قد خرج مراقصاً لزهرة التاميرا ... شرف ما كان ليستحقه ! أفسحوا الطريق يا أولاد .. أفسحوا الطريق .

الفصل العاشر شعور لا اسم له

- خوفيفا ... ألا تعرفين ما وقع لى ؟
- ماذا ؟ ... جعله الله خيراً !
- تعالى أحدثك به ... هناك إلى جوار السياج حيث لا يسمعنا أحد ...
تحسسى يدي واسمعى دقات قلبي .
- آه ! لقد عرفت ... لقد باح لك بحبه أخيراً .
- لا ... ولا كلمة واحدة ، أقسم لك على ذلك ! وإنما بحث له أنا بحبى !
- ما هذا ؟ أو قد انقلبت الآية : فأصبحت الظباء هى التى تطارد
كلاب الصيد ؟
- لقد فعلت دون وعى ولا تفكير . اسمعى إلى ما أقول : لقد كنت
غاضبة منه ، وبلغ من غيظى أن الدموع كانت توشك أن تطفّر من عيني ،
وفجأة وجدته ينظر إلى ، فأردت أن أكتّم ما بنفسى حتى لا يظن أننى محنقة ،
وابتسمت ، ولكنها كانت ابتسامة مصطنعة متكلفة لا على ما كنت أشتهى
أن أبتسم ... أتفهمين ؟
- نعم ... إننى أتصور هذه الابتسامة .
- ولكن هل تعرفين ما بدا لى فى هذه اللحظة حتى أعالج من الأمر
ما فسد ؟ لقد زدته فساداً عما كان ؛ إذ ظللت شاخصة ببصرى إليه هنيهة
ثم قلت له : «ثقل الظل !» .

ويصطبغ خداهما بحمرة الخجل ثم تقول :

- ما الذى ترين فى هذا ؟ أرايت امرأة أكثر منى جرأة ، أو أقل حياء ؟
وتشف العبارة الأخيرة عن سذاجة وبراءة ، ولكن خنوفيفاً تستغرق
فى التفكير وقد خطر ببالها شيء جعلت تحدث به نفسها :
أترى فى ذلك تحقيق المثل الذى طالما يجرى به لسان جدى :
« واث الشىء لا يغتصبه ! » .

- ماذا بك يا خنوفيفاً ؟

- لا ... لا شيء . لقد كنت أنتظر منك مواصلة الحديث حتى نهايته .
- وما الذى تريدین بعد ذلك ؟ أبدو لك ما قصصت قليلاً ؟ لقد شرحت
لك كل شيء فى كلمة واحدة !

- وهو ... هل فهم من كلامك أنت ما كنت تقصدين ؟

- يكفى أن أقول لك إنه اضطرب اضطراباً مفاجئاً ، فتعثرت خطواته
فى الرقص مع أن أذنه تعرف كيف تتجاوب مع الموسيقى الراقصة إلى أبعد
درجة . إنه لم يجبنى بكلمة واحدة ، ولم تعد عيناه إلى النظر إلى وجهى ...
الحقيقة أننى لا أعرف ما إذا كان قد عاود النظر إلى أم لا ؛ إذ إننى لم أجرؤ بعد
ما قلت على رفع عينى إليه .

وتعود خنوفيفاً إلى تفكيرها الساهم ، وتخلد ماريسيلا إلى الصمت لحظة ،
بينما يتيه نظرها فى آفاق المروج البعيدة النائمة تحت ضياء القمر ، ثم تنبه
إلى نفسها بغتة ، وتصفق بيديها وتصيح :

- لقد اعترفت له ... لقد قلت له كل شيء ؛ فالأمر الآن متوقف عليه هو .

وتنظر خنوفيفاً إليها وتقول :

والآن ... ما الذى سوف يحدث يا ماريسيلا ؟

وتكرر ماريسيلا السؤال كما لو كانت غير فاهمة :

- والآن .. ماذا ؟

ثم تضيف :

- ... ولكن ألا تقدرين ؟ ما الذى كان على أن أفعل ؟ ... ضعى نفسك فى موضعى ؛ لقد كنت طول اليوم أحلم بهذه الحفلة وأنا أقول لنفسى : سيروح لى فى هذه الليلة بحبه ! ثم إن الكلمات قد بدرت منى - كما قلت لك - دون أن أدعى ما أقول . إنك أنت المسؤولة عن ذلك ، إذ لم نكن نلتقى إلا وجهت إلى هذا السؤال : « ألم يقل لك شيئاً حتى الآن ؟ » وأخيراً أنا أرى أنك تشعرين بالغيرة لأنك تحبينه أيضاً !

- لا يا ماريسيلا . كل ما هناك هو أنني كنت أفكر فيك أنت .

- ... بهذا الوجه الذى ارتسم عليه القلق والانزعاج ؟ بينما تفيض نفسى أنا بالفرح والسعادة ! ...

وفى هذه اللحظة قدم باخاروتى فقطع عليهما جبل الحديث ؛ إذ كان العازفون قد بدأوا فى ضرب القطعة التى كان يريد أن يراقص خنوفيفا على نغماتها .

وبقيت ماريسيلا وحدها إلى جوار السياج منتظرة أن يتقدم إليها أحد عارضاً مراقبتها ، ولكن اللحظات مرت دون أن يدعوها أحد ، فظلت فى مكانها وقد غلب عليها التفكير ، وترددت فى أذنيها كلمات خنوفيفا :

- والآن ما الذى سوف يحدث يا ماريسيلا ؟

- نعم ... ما الذى سيحدث ؟ أتظنين أنه من الممكن أن يستمر كل شىء على ما كان بعد أن وقع ما وقع ؟ أنتصوريين أنك قد حسمت الموقف بهذه الكلمات التى أطلقتها فى وجهه بينما هو نفسه لم يجرؤ على أن يتوجه بها

إليك ؟ ألا ترين أنك عقدت المسألة من حيث أردت أن تجدى لها حلاً ؟ وبأى وجه ستقفين غداً أمام سانتوس إذا لم يقترب هو منك فى هذه الليلة لكى يعترف لك بحبه ؟ ... ولكنه لا يأتى ... لن يأتى على طول هذه الليلة ! ... يا له من موقف مزر مخجل ! والسبب هو أنك لم تعرفى كيف تتحكمين فى أعصابك ولا كيف تكتمين مشاعرك ، ولتصورى ما الذى يدور الآن فى تفكيره عنك ! ترى ما هو قائل هذا الفتى ... «ثقل الظل» ! ...

- نعم ... أنا أعرف ذلك عن نفسى حق المعرفة ... فقد سبق لك أن أطلقت على هذه الصفة من قبل .

- آه ! ... أكنت هنا إذن ؟

- نعم . ها أنذا هنا ، ألا تريننى ؟

- وما الذى حملك على أن تأتى هكذا على أطراف قدميك متجسساً على ما يفكر فيه الناس ؟

- أنا لم آت فى هذه الصفة التى تقولين ، ولست ممن وهبهم الله فضيلة التجسس على الأفكار ... أما إذا كان الناس قد اعتادوا أن يفكروا بصوت مرتفع فإنهم يعرضون أنفسهم حينئذ لأن يطلع الآخرون على أفكارهم .

- إننى لم أقل شيئاً .

- وأنا إذن لم أسمع شيئاً .

وتسود لحظة صمت ، ثم تتساءل ماريسيلا :

- ولكن ... إلى متى ستظل ساكناً هكذا ؟ لم يكن يبدو عليك أنك خجول إلى هذا الحد ، أترى من اللازم إذن أن تستخرج الكلمات منك استخراجاً ؟

- لا بأس ... فليكن ذلك .

- ماذا ؟

- لا شيء .

ويستغرق هو في الضحك فتسائله :

- مم تضحك ؟

- لا شيء ...

ويستمر في الضحك .

- لعلك مجنون إذن .

- إنهم يقولون هنا إن قمر السهول يذهب بعقول الناس .

- هذا من شأنك أنت ... أما أنا فإن عقلي لم يذهب به شيء .

- ومع ذلك فإن هذا الذي هبط عليك فجأة من الغرام بياخاروتى ليس إلا ضرباً من ضروب الجنون . وما أريد بذلك نقداً لباخاروتى ، فهو خير رجل لما يصلح له ، ولكن ... أترينه صالحاً لكى يكون خطيباً لك ؟

- وماذا فى الأمر ؟ ألم أكن أنا حشرة من حشرات ذلك الجبل حينما التقطتنى أنت لتولينى عطفك ورعايتك ؟ إن المثل هنا يقول : « مثل ذلك الأب لمثل تلك الأم » .

- لقد كنت أعرف أن هذه ستكون ليلة الكلمات السوقية والأمثال التى يتفوه بها سقط الناس ، ولكن ليس من العسير على أحد أن يكتشف بلمحة عين أنك تتعمدين الإتيان بمثل هذه العبارات ... هى مهزلة أجدت تمثيلها ، ولهذا فإننى أقول لك : إذا أردت أن تخدعيني فابحثى لك عن حيلة أخرى أكثر دهاءً وأشد مكرًا .

- وأنت ... لماذا لم تبحث لك عن شيء آخر أكثر ذكاء وفطنة من قولك
إنني أصبحت مغرمة بياخاروتى ؟ والآن دعنى أنا بدورى أستغرق فى الضحك
... ألا ترى إلى التلميذة كيف تعد على أستاذها كبواته وأخطاءه ؟

ويظل هو محددًا فيها يتأملها فى صمت ثم يسألها :

- هل انتهيت من الضحك ؟

- يكفينى الآن هذا القدر ، فلتقل الآن شيئًا آخر من هذه العبارات العبقرية
التي كثيرًا ما تعرض لك ، فربما عاودتنى الرغبة فى الضحك مرة أخرى .
قل مثلاً إنك أتيت هنا لتقف إلى جوار السياج ثم تخلص إلى التفكير فى إحدى
هؤلاء الصديقات اللاتي تركتهن فى كاراكاس ... أقول «صديقة» وإنما أعنى
بها خطيبة ...

- إذا كنت تريد من ذلك أن تضحكى منى ...

- لست بحاجة إلى قول شيء ... فهذا أنذا أضحك مرة أخرى ...
ألا تسمع ؟

- استمرى ... استمرى ... إذ يعجبني أن أراك تضحكين .

- إذن فسأكف عن الضحك ، وسيكتسى وجهى ملامح الجد والصرامة ،
فإننى لست ألعوبة فى يد أحد يسيرنى كيف شاء .

- وأما أنا فإننى أدنو منك قليلاً قليلاً ثم أسألك : أتجبنين يا ماريسيلا ؟

- وأنا أجيبك : إننى أعبدك يا .. ثقيل الظل !

* * *

ولكن هذا المشهد لم يكن يدور إلا فى خيال ماريسيلا ، ولعله كان يحدث
بالفعل لو أن سانتوس تبعها إلى حيث كانت واقفة إلى جوار السياج ، ولكنه
لم يعرج على ذلك الموضع من قريب ولا من بعيد .

وتمضى ماريسيلا فى أفكارها :

- ولكن من الذى قال إنه ينبغى أن يبوح هو لى بحبه ؟ وأى بأس فى أن أواصل أنا حبه من جانبى دون أن أنتظر منه أن يبادلنى نفس الشعور ؟ ولماذا ينبغى أن أطلق كلمة «الحب» على شعور المودة الذى أحمله نحوه ؟ لا يا ماريسيلا ، المودة يمكن أن يشعر بها الإنسان نحو العالم كله ... نحو أشخاص كثيرين فى وقت واحد . ماكنه هذا الشعور إذن ؟ ... عبادة ؟ ... ولكن لماذا ينبغى أن يكون لكل شىء فى الدنيا اسم متعارف محدد ؟

وهكذا ظنت ماريسيلا أنها وجدت حلاً لهذه المشكلة التى حيرت نفسها وأقلقت ما فى روحها من بساطة معقدة !

والحق أن هذا الحب الذى تحرك فى نفس ماريسيلا كان شيئاً غريباً لا يسهل تحديده ولا تعريفه ... لعله كان فى مكان وسط بين الرغبة البسيطة المادية والعبادة البسيطة الروحية ... وللحياة بعد ذلك أن تميل به إلى جانب أو آخر محددة صورته الأخيرة . أما الآن فهو فى ذلك التوازن المتأرجح بين الحلم والحقيقة لا يزال «شعوراً لا اسم له» ! .

الفصل الحادى عشر

حلول وهمية

الغريب فى الأمر هو أن سانتوس لوئاردو كان كذلك يفكر بدوره فى حلول وهمية من نتاج الخيال .

وكان قد جلس إلى مكتبه بعد أن نظفه من أكوام الكتب والأوراق التى كانت قد تناثرت عليه فى فوضى واختلاط ، ففصل بين هذه وتلك ، وأعاد صف الكتب بعضها فوق بعض ، أما الأوراق والوثائق التى كان يسجل فيها نفقات الضيعة وحساباتها من دخل ومنصرف فقد أعاد تنظيمها وكأنه كان يريد بذلك أن يعبر عن رغبته فى ترتيب أفكاره وضم شتات مشاعره ، واتكأ بيديه على ما احتشد على مكتبه ، ثم مضى يفكر فى هدوء محاولاً تحليل أحاسيسه تحليلاً نزيهاً مجرداً عن الهوى ، وتقدير الموقف من جميع جوانبه كما لو كان أمام مشكلة رياضية تقتضى الوصول إلى نتيجة منطقية ، ونظر إلى الأوراق التى أراح عليها يسراه ، ثم أقبل يقول مخاطباً نفسه :

- أما إن ماريسيللا قد أغرمت بى فهذا شىء واضح لا ريب فيه ، ومعدرة عما فى هذا القول من تمدح أو غرور ، وقد كان من المنطقى أن يحدث ذلك ؛ فالمرحلة التى تجتازها الفتاة من عمرها ، والمعاشية ، وغير ذلك من الملابس كان من الطبيعى أن تنتهى بها إلى تلك النتيجة . أما هى فإنها جميلة حقاً ... نموذج رائع لجمال النساء هنا ممن تولدن من خليط من الدماء والأجناس ، وهى بعد ذلك لطيفة رقيقة ، ورفيقة طيبة دائمة الابتسام والبشر ، ولعلها خير عون لرجل مثلى كتب عليه أن يعيش وحيداً مقاسياً عناء الحياة الخشنة بين الرعاية

والماشية ، وهى فتاة صناع لا تكف عن العمل ، قوية شجاعة إذا ما اضطرت إلى مواجهة موقف عصيب ، ثم إنها أولاً وقبل كل شىء روح جديرة بالعناية والاهتمام ... ولكن ... هذا أمر لا ينبغي أن يكون ! ...

وندت من يده اليسرى حركة بدا كما لو كان قد أراد أن يمحو بها ما كان قد أثبت على الأوراق الجاثمة تحت مرفقه ، ثم تقبضت يده اليمنى فى حركة عصبية على صف الكتب المرصوفة وهو يقول :

- كل ما فى الأمر أن هناك «استلطافاً» بيننا ، وهو شىء طبيعى لا يستغرب ، أما من ناحيتى أنا فألى جانب ذلك رغبة مجردة عن الهوى فى إنقاذ فتاة مسكينة كان قد كتب عليها مصير مؤلم حزين ، ومهما بالغت فى تقدير شعورى نحوها فإنه لا يزيد على حاجة - روحية خالصة - إلى رفيقة من جنس الإناث تشاطرنى أعباء الحياة ، ولكن إذا كان هذا الشعور فى طريقه إلى أن يجر معه مشكلات عاطفية فمن الحكمة أن أضع له حداً بصفة عاجلة .

ورفع سانتوس يديه عن الكتب والأوراق ، واستلقى بظهره على مقعده ، ملقياً برأسه على مسنده ، ثم واصل خطابه لنفسه :

- نعم ... على ماريسيلا أن تغادر هذا البيت ، ولكن إلى أين ؟ أما أن تعود إلى تلك الدار التى استنقذتها أنا منها فهو ما لم يكن ليخطر لى على بال ؛ إذ معنى ذلك أن أسلم الفتاة فريسة سهلة لمسترد دينجر ، آه لو أن هاتين العمتين العجوزين اللتين تعيشان فى «سان فرناندو» قبلتا إقامتهما معهما ! .

إن ماريسيلا ستكون مفيدة لهما من غير شك ، وستؤديان هما إليها خدمة جليلة ؛ إذ ستوليان إنهاء تعليمها وتربيتها وستتمان بذلك العمل الذى بدأته أنا ، مع فارق له قيمته ؛ هو أنهما امرأتان ، وللنساء فى تعليم الفتيات الصغار فن وفضل رقة لا يحسنهما الرجال مهما كان عطفهم أو حنانهم ، ولهذا فهما جديرتان بأن تصلا من تهذيب ماريسيلا ورعايتها إلى حيث لم أكن أنا متمكنًا

من الوصول . أما لورنثو باركيرو فما كان لى أن أطلب عمتى هاتين بأن تتكفلا أيضاً به ، ولهذا فليبق معى هنا . لقد تعهدت بالاضطلاع بأمره منذ البدء ، ولا مفر لى من أن أحمل هذه الرسالة حتى النهاية ، وعلى أية حال فإن ابنته ستكون قريبة منه . ثم إن لورنثو نفسه من الدوافع التى تستحثنى على حل هذه المشكلة ؛ إذ إن بقاء ماريسيلا معى وتحت سقف بيتى له ما يبرره طالما ظل أبوها على قيد الحياة ، حتى وإن ظل معتكفاً فى غرفته طول اليوم لا يخرج منها أبداً ولا حتى لتناول الطعام ، ولكن أى مبرر لإقامة ماريسيلا معى إذا حلت المنية بلورنثو ؟ وهى بعد ذلك عائق يحول بينى وبين التصرف فى حياتى كما أشاء حراً طليقاً ، فلو أنى قررت مثلاً بيع الضيعة والاستقرار فى كاراكاس أو السفر إلى أوربا كما كنت عازماً فى أول الأمر على أن أفعل ، أو كما يخطر لى حتى الآن فى بعض الأحيان فما الذى أفعل بهذه الفتاة ؟ أما التخلي عنها وتركها لمصيرها فإنه يبدو لى قاسياً مجرداً من الإنسانية ، لقد ارتبطت بواجب خلقى إزاء ضميرى منذ أن اضطلعت بمهمة تعليمها ، وكان فى ذلك تغيير كامل لمصير روح بشرية ؛ إذ لولاه لما حال شىء دون وقوعها فى براثن مستر دينجر ، ومن ثم فقد كان مقدراً لها أن تسلك نفس السبيل التى سارت فيها أمها من قبل . فهل من المروءة أن أقول لها الآن : اذهبى إلى المكان الذى منه أتيت ؟ !

ويشعل سانتوس سيجارة ، فهو يجد لذة فى التفكير بينما تتطلع عيناه إلى الدخان المتصاعد فى الهواء ، ولا سيما إذا كانت أفكاره عابرة هى أشبه ما تكون بما ينفثه من فمه ومنخرية ؛ دخاناً متصاعداً فى الهواء .

- لا ... ليس هناك حل للمشكلة إلا ما ذكرت ؛ أن توافق العمتان على إيواء ماريسيلا فى منزلهما ، ولكن ينبغى تمهيد الجو الملائم لذلك ، وهو ما لا يمكن أن يتم إلا بزيارة أوديتها بنفسى لهما ؛ لأن الرسائل فى مثل هذه الحالة لن تعنى إلا إضاعة الوقت ، وإنى لأتصور الآن الصرخة التى ستند عنهما بعد قراءة خطابى - لو أننى اعتمدت على الكتابة وحدها - : « ابنة الساحرة المشثومة

فى بيتنا نحن ؟ ! » ولهذا فلا بد من أن أقوم بنفسى بشرح المسألة لهما وإقناعهما بلين القول بأن يؤوياها ويحسننا رعايتها ، وبأنه ليس هناك خطر فى ذلك عليهما من سحر أمها وخبثها .

ويقذف سانتوس بعقب السجارة بعد أن تركت النفثة الأخيرة فى فمه طعمًا مرًا ، ثم تمتد يده بحركة آلية إلى الأوراق المكدسة فيرتبها وينسق أطرافها ، بينما يخاطب نفسه فى صوت مرتفع :

- ولكنى لا أستطيع الرحلة الآن إلى سان فرناندو ؛ إذ ينبغى أن أنتظر حتى تنتهى من تمييز الماشية وفصلها ومعرفة ما أملك منها ، وقد بدأ الموسم فلا سبيل لى إلى التغيب عن الضيعة فى هذا الوقت ، وما دام الأمر كذلك فلأنتهز الفرصة ولأقم بإصلاح ذلك البيت الآخر الذى أملكه فى ضيعة « البروسكال » وإعداده لسكنى لورنثو باركيرو وابنته .

وعزم على أن ينفذ هذه الفكرة الأخيرة فصاح منادياً :

أنتونيو !

وأتى إليه الجواب من الداخل يحمله صوت ماريسيلا :

- إن أنتونيو ليس هنا الآن ... هو فى الخارج .

والغريب أن تغيب أنتونيو العارض بدا وكأنه قد حل المشكلة ، أو بتعبير أصح حل تلك الرغبة الملحة العاجلة فى حلها .

ومرة أخرى عاد سانتوس إلى مخاطبة نفسه :

- ولكن هل تغير وضع العلاقة بينى وبين ماريسيلا حقًا منذ الليلة الماضية حينما اكتشفت حبها لى وأنا أراقصها فى الحفلة الساهرة ؟ ألا ينم هذا الاعتراف الذى ألقى به إلى وهى تقول « ثقیل الظل ! » عن الطابع الخاص الذى كان يميز مشاعر الفتاة نحوى ، وهو طابع البراءة والسذاجة مما لا يستغرب من صبية فى مثل سنّها ما تزال بعد طفلة مراهقة ؟ فلماذا لا أكون أنا مبالغًا فى القلق والتوجس موليًا الأمر أكثر مما يستحق من الاهتمام أو يعنيه من الخطر ؟

ولعل سانتوس لم يكن يريد بهذه الفكرة الأخيرة إلا أن يتخلص من محاصرة تلك الهموم له ، وأن يهون من شأنها ، أو لعل صوت ماريسيلا الذى رد عليه الجواب من داخل البيت ذكره فجأة بما سيكون عليه هذا البيت من حزن وكآبة ، وبما سيرين عليه من صمت ووحدة لو أن الفتاة غادرته ومضت إلى مكان آخر ، وسواء كان هذا أو ذاك أو الأمران معاً فى وقت واحد ، فإن سانتوس لوئاردو أنهى تفكيره فى المسألة قائلاً :

- إننى أفعل خيراً ؛ إذ أشغل تفكيرى بالبحث عن حل لهذه المشكلة ، ولكن ... لم كل هذه العجلة ؟ أترانى خائفاً من حياة «ابنة الساحرة» معى ؟ لم يبق إذن إلا القليل وألحق فى الجبن بعمتى ! وإلا فأى ضير فى أن تواصل ماريسيلا حياتها معى تحت سقف مشترك - قرية بعيدة فى وقت واحد كما عاشت حتى الآن ؟ إن هذا لا يخلو من أن يضيف على الحياة لوناً غريباً من الجمال والسحر ؛ حب لا يقتضى إلا إحساساً متبادلاً بوجوده دون أن يتطلب من الطرفين تغيير منهاج حياتهما ، ودون أن تزيد هذه المعاشة منه أو تنقص ، ولا أن تسير به إلى طريق غير التى سلك حتى الآن ، حب مجرد قائم بذاته كاف لنفسه لا يعوزه أن يترجم إلى أقوال أو أفعال .. شىء مثل نقود الذهب التى يدخرها البخيل ، ولعل البخيل من هذه الناحية هو أكثر الناس مثالية مجردة خالصة ؛ إذ إن هذه النقود بالنسبة له ليست إلا أحلاماً ، وثقة كاملة فى أنه لن يشتري بها ما يمكن أن يجبر عليه خيبة أمل أو تحطم رجاء .

* * *

ولكن الإنسان إذا لم تكن روحه بسيطة ساذجة كما كانت روح ماريسيلا ولا شديدة التعقيد كما لم تكن روح سانتوس لوئاردو فإن الحلول الناجمة لا بد أن تكون إيجابية بعيدة عن شطحات الخيال ، وإلا فإنه معرض لأن يصيبه

ما أصاب سانتوس : إذا فقد السيطرة على مشاعره وأصبح العوبة فى أيدى
انفعالات متضاربة متناقضة .

ماريسىلا ... أهى قرية بعيدة فى آن واحد كما ظن ؟ إذا صح ذلك فإنه لا شك
فى أنها تزداد دنواً منه فى كل يوم ، حتى لم يعد هناك سبيل إلى البقاء
فى هذا البيت دون أن يحس بوجودها يملؤه عليه : لعلها الآن فى المطبخ تعد له
من ألوان الطعام ما يشتهيها ، وهو لا يراها ، ولكنه لا يلبث أن يسمع صوتها
مرتفعاً بضحكة مرحة عالية أو بأغنية هازجة دافئة . وقد تكون خارج الدار ،
وها هو ذا سانتوس قد بقى وحده فى البيت الذى غلب عليه الصمت والسكون ،
ولكن لينظر إلى حيث شاء من أركانه وجوانبه فلن تستقر عيناه فى مكان
إلا أحس بها فيه ماثلة ، هنا أو هناك باقية من الزهور قامت هى بوضعها ،
وهو لا يجلس فى مقعد إلا واضطر إلى رفع كتاب قد تركته فوقه أو شغل
من أشغال الإبرة كانت قد عكفت عليه وهو يبحث عن شىء يحتاج إليه فلا يمد
ذراعه إلا وجده فى متناول يده حيث وضعت هى فى مكانه ؛ إذ هى لا تكف
عن ترتيب البيت ووضع كل شىء فى موضعه ، وهو لا يدخل من باب الدار
إلا والتقى بها ؛ إذ يتفق أن تكون هى مستعدة للخروج فى هذه اللحظة ،
ولا يخرج إلا واضطر إلى الانحراف جانباً وإفساح الطريق لها وإلا جرفته
أمامها فى عدوها السريع المرح وهى تقتحم الباب ، وهو يخلد لحظات إلى نوم
القيولة ، فلا يجد فى نعاسه إلا أقصى ما يمكن أن يجد من راحة حتى إنه بمأمن
من إزعاج طنين الذباب له ، فإن ماريسىلا قد أعلنت الحرب على الذباب طوال
اليوم حتى لم تعد تجرؤ على اقتحام نوافذ الدار ، ثم إنها حريصة على ألا تند
أية حركة يمكن أن توقظه من نومه ؛ فإذا مشت كان مشيها على أمشاط قدميها ،
وإذا انطلقت من بين شفتيها أغنية تترنم بها دون وعى تنبعت فجأة فعضت
لسانها وحبست صوتها ، أما إذا لم يعد سانتوس فى حاجة إلى أن يسود
الصمت جوانب الدار فإنها تنطلق صادحة تغنى بصوت كصوت يمام السهول

التي تبدو كما لو كانت حناجرها من فضة ، وهي لا تقدم على عمل من أعمال البيت إلا حدثت نفسها بصوت مرتفع عما هي مشغولة به حتى لا يعود سانتوس في حاجة إلى سؤالها عما تصنع :

- أنا الآن أقوم برفو الثياب ... هأنذا ماضية في كنس القاعة ...
الآن أروى الزهور والزرع ... الآن أعكف على دروسي أستذكرها .

ماريسيليا إذن قريبة قريبة ... وكل يوم يمضى يزيد من دنوها وتغلغلها في حياته ، ومن أجل هذا فإنه ينبغي أن يعمل على إبعاد الشقة بينه وبينها قليلاً قليلاً . غير أن سانتوس نسي المشروع الذي أراد به أن يبعث بماريسيليا إلى عمتيه لتعيش معهما ، ولكن فكرة أخرى عرضت له في أثناء تناول الطعام، فألقى بها إلى لورنثو باركيرو .

- إنى أعتقد الآن أن ماريسيليا قد نالت من مبادئ التعليم قسطاً يسمح لها بأن تبدأ مرحلة دراسية حقيقية تلائم الفتيات في مثل سنها ، وأنا أظن أن ذلك لا يتوافر إلا بإلحاقها بمدرسة داخلية للبنات ، وأنا أعرف في كاراكاس عدداً من هذه المدارس ، ولهذا فينبغى لنا أن نفكر في إرسالها إلى إحداها في أقرب فرصة .

ويتساءل لورنثو :

- معنى ذلك أنه يجب على أن أتولى دفع نفقات إلحاقها ومقامها بتلك المدرسة ؟

- لا يشغلك هذا الأمر ، فأنا متكفل بتلك النفقات ، وكل ما أريده منك هو أن تأذن لى فى أن أشرع فى اتخاذ ما يلزم من إجراء .

- لك مطلق الحرية فى أن تفعل ما يبدو لك .

وكانت ماري سيلا على المائدة تنصت إلى ذلك الحديث ، فعضت على شفتيها وهمت بالقيام حانقة مغضبة ، ثم خطرت لها فكرة عزمته على تنفيذها ، فكتمت ما بها وظلت تتناول طعامها فى هدوء ، وظن سانتوس أن المشروع قد لقي منها قبولا .

ولكنه لم يعد إلى البيت فى مساء ذلك اليوم حتى وجد على الباب قطعة من الورق وقد خطت ماري سيلا عليها بيدها هذه الكلمات بحروف كبيرة :
«المدرسة الداخلية للطالبات ، خير مدرسة فى الجمهورية كلها» .

وضحك سانتوس لما قرأ ، ثم نزع الورقة ، ولم يعد للحديث مرة أخرى عن ذلك المشروع .

* * *

سانتوس جالس إلى المائدة ومعه ماري سيلا ، وهو يشعر فيما بينه وبين نفسه أن المائدة هكذا - هو وهى وحدهما - خفيفة على قلبه ؛ إذ لا يعكر صفاءها محضر لورنثو باركيرو بهيئته المنفرة التى تقبض القلب ، وماري سيلا تقدم له أطباق الطعام ، وتحثه على الأكل :

- جرب هذا ، فهو طيب لذيد الطعم !

ثم نصب له الماء فى كوبه قبل أن يستطيع هو أن يفعل ، وهى فى هذه الأثناء تتكلم وتتكلم دون توقف .

كان لصوتها رنين بديع ، ولضحكاتها وقع يسر النفس ، ولحديثها طلاوة ، وفى حركاتها ولفتاتها رشاقة ولطف ، وهى ماضية فى الحديث فى حماسة وحرارة قد التمع فى عينيها بريق ينبض بالحركة والحياة .

- مهلاً ، مهلاً ! لقد أصبت رأسى بالدوار ! ...

- ولكن لماذا لا تتكلم أنت أيضاً ؟

- أتكلم ؟ وهل تتركين لى أنت فرصة الكلام ؟ على أن أقنع بهذا الدور ؛
دور المنصت المستسلم .

- يا لك من مبالغ ! ألم تحتكر أنت الكلام هذا الصباح على مائدة الغداء ،
فلم يتحدث أحد غيرك ؟

- بلى ، ولكنه كان صرخة فى واد ، فقد كنت شاردة تفكرين فى أشياء
أخرى ؛ فأنا على ثقة من أننى لو سألتك عما قلته فى ذلك الحديث لما استطعت
أن تحيرى جواباً .

- ظريف والله ! وأنا أتحداك أيضاً أن تكرر على مسمى ما قلته أنا الآن .

- نعم ، أنت على حق ، ولكن إذا كنت أنا عاجزاً عن ترديد كلامك
فما ذلك لأنى كنت منصرفاً عما تقولين ، ولكن لأن من العسير على أى واحد
أن يتابع خيط حديثك ، فأنت تنتقلين من موضوع إلى موضوع دون تمهيد
وبسرعة تصيب من يستمع إليك بالدوار .

- إذن ألا تسمح لأحد بالكلام إلا إذا كان حديثه متساوفاً مرتباً كأنه خطبة ؟

- الحق أن الخطب تورث الملل والضجر ، كما كان كلامى هذا الصباح
فى وقت الغداء . أليس كذلك ؟

- لا . لم أرد أن أقول ذلك ، ولكن لكل منا طريقته فى التفكير
وفى التعبير تبعاً لذلك ، أما أنت فإنك تستطيع الكلام ساعتين متواليتين تتابع
الحديث خلالهما كما يتتابع انهلال المطر من السحب البيضاء .

- شكراً لك على التشبيه ، ولا سيما أنك لم تقولى إن حديثى كان
مملأً ثقيلًا .

- لا ... ليس مملأً على الإطلاق ، فأنت قدير على الحديث طول هذا
الوقت دون أن يقتصر كلامك على موضوع واحد ، ودون أن يفطن أحد
إلى انتقالك من موضوع إلى غيره ، أما أنا فطريقتى تختلف عن ذلك .

- نعم ، فحديثك أنت أشبه ما يكون بمطر ينسكب وابلًا بعد وابل ، ولكنه مطر لا يحجب ضياء الشمس وإشراقها ، وأنا أرد بهذا تشبيهك اللطيف بمثله .
- نحن لا نكف عن النقاش ، كما يقول الناس فى المثل «الشیطان وامرأته لا يكفان عن العراك» ... آه ! معذرة عما سبق به لسانى .
ويصطبغ خداهما بحمرة الخجل ، وتضحك ، ويتأملها هو مبتسمًا ثم يقول :
- نعم ، ولكنى أظن أننى لست ذلك الشيطان الذى يتحدث عنه المثل ...
وتقاطعه هى قبل أن يكمل عبارته :

- ألا تعرف ؟

- ماذا ؟

- آه ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟

ويبدو عليها أنها نسيت ما كانت تهم بقوله ، ولكنه لا يخفى عليه أنها حركة مصطنعة كثيراً ما تعتمد إليها لتغير مجرى الحديث ، فيقلدها فى حركاتها ويصيح :

- لا ، بل أنت تعرفين ما تريدین أن تقولى حق المعرفة ! .

ويعود إلى تأملها من جديد ... ما أجمل ماریسیلا ! وما أكثر ما يتزايد جمالها وينضج يوماً بعد يوم ! ولكنه يغض من بصره ، ويمضى فى أحد هذه الأحاديث الطويلة المتتابعة حول موضوعات جافة معقدة ، وهو لا يهدف من ذلك إلا إلى إملالها أو إثارة اهتمامها العقلى ، وكلا الهدفين بالنسبة إليه وسيلة من تلك الوسائل الدفاعية المستثناة التى يلجأ إليها لحماية نفسه من التعلق بحب الفتاة .

ولكن ماریسیلا لا تسأم حديثه ، ولا تهتم بما يقول ذلك الاهتمام العقلى الذى كان يريد أن يثيره فى ذهنها ، بل هى تشخص إليه ببصرها ، بينما تدع تفكيرها شاردًا طليقًا وراء كل خطرة تعرض لها .

ثم لا تلبث أن تقاطعه :

- ألا تعرف ؟ ... إن تلك الظبية التى أهديتنى إياها لم تكن نموذجاً للشرف والعفة ، فهى موشكة على أن تخرج إلى النور ظباءً صفاراً !

ويرد عليها سانتوس بما يعرض له ، ثم يتابع طعامه فى صمت ، ولكن الضحكات تنطلق منه فجأة ، ولا تهتدى هى إلى تفسير لتلك الضحكات المفاجئة ، وتظل تنظر إليه فى دهشة ، ثم تتنبه إلى ما سبق لها أن نطقت به فتعود دماء الخجل إلى التصاعد إلى خديها ، وتحاول أن تكتم ما بها فيدور تفكيرها فى سرعة باحثاً عن شىء تقوله لتحول به مجرى الحديث ، ولكنها لا تهتدى إلى ما تقول ، ولا تتمالك نفسها بدورها عن الضحك ... وهكذا يمضى الحديث بينهما دون أن يتمكن سانتوس من التحكم فيه ؛ إذ لا يكاد يفتح فاه ليقول شيئاً حتى تعلو ضحكاتها ، ويحاول هو ضبط أعصابه فتغلبه وإذا به أيضاً مغرق فى الضحك .

ولكن ضحكات ماريسيلا الماكرة كانت صافية خالصة أبعد ما تكون عن الخبث ... كانت ضحكات بريئة براءة هذه الجملة التى انطلق بها لسانها ، وإن كانت فى الوقت ذاته بعيدة عن السذاجة بعد هذه الخطيئة التى ارتكبتها الظبية عن الخلق السوى .

كان ضحكها هو الطبيعة نفسها ؛ لا خير فيها ولا شر ، ولكن الرجل الذى تعلم فى المدينة ، والذى هذبته الحضارة ورققت حاشيته لم يكن ليقبل مثل هذا التفسير .

ولو أن رجلاً آخر عادياً له نصيب من التفكير السليم كان فى موضعه لما قدر موقفه من ماريسيلا إلا على هذه الصورة ؛ إن هذه الفتاة ثمرة لارتباط غير شرعى بين رجل ذهب عقله وانحطت أخلاقه وامرأة مشثومة خبيثة ،

ولعلها تكون قد ورثت عن أبويها شر طباعهما وشمائلهما ، فإذا كانت كذلك فما أبعداها عن أن تكون المرأة الصالحة التى تستحق أن يستودعها رجل له مسكة من العقل حبه وثقته . أما سانتوس لوئاردو فقد كان تفكيره يتجه إلى ناحية أخرى من روح ماري سيلا ؛ إن هذه الفتاة بسيطة ساذجة حقًا كالطبيعة ، ولكن فيها ما يشير الخوف والقلق تمامًا مثل ما يكمن فى مظاهر الطبيعة الهائلة الرهيبة . فقد كانت تبدو كما لو كان معين رقة العاطفة وحنان المشاعر قد نضب فى أعماق روحها . حقًا إنها كانت مرحلة لطيفة متبسطة فى الحديث ، بعيدة عن التكلف ، ولكن علاقتها بأبيها كانت تتسم دائمًا بالجفاء وصلابة القلب . إن سانتوس لم ير فى معاملتها له أبدًا ما يشعر بهذا البر والحب الذى يحمله الأبناء لأبائهم ، بل كان يبدو عليها عدم المبالاة بما كان الرجل يقاسيه من آلام . وكل ما هناك هو أنها إذا التقت به وهى فى عدوها السريع من هنا إلى هناك فى أرجاء البيت فإنها قد تتوقف لتلقى إليه بعبارة عابثة مرحلة وهى تعتمد ترفيع صوتها وترقيقه ، كأنها طفلة صغيرة ، ولكن كلماتها كانت دائمًا خالية من كل ما يمكن أن يشف عن رقة أو بر حقيقى خالص .

وكثيراً ما كان سانتوس يقول لنفسه وهو يتأمل هذه الظاهرة !

- إن هذه الفتاة ليس لها قلب . حقًا إنه ليس فيها حتى الآن تلك القسوة القائمة الشريرة التى تميزت بها أمها ، ولكن قسوتها من لون آخر لعوب مثل تلك التى تكمن فى نفوس أفلاء الوحوش الصغيرة ، وما بين هذه وتلك إلا خطوة قد تتكفل بها الظروف والملابسات . أما علة ذلك فقد تكون راجعة إلى نقص فى تربيتها وتعليمها ، وإلى أن الحساسية التى قد تكون كامنة فى روحها - إذا أحسنا الظن بها - لم تتح لها الفرصة بعد لكى تستيقظ ، وليس ذلك بممكن إلا إذا كانت فى كفالة امرأة ؛ إذ إن النساء وحدهن هن اللاتى يستطعن بث الرقة وإرهاف الشعور فى روحها الجافة المغلقة .

ولكن سانتوس لوئاردو لم يكن يرى فى النهاية بدءاً من أن يعترف بأن هذه الأفكار المتشائمة كانت تثير فى نفسه شعوراً من الانقباض والألم ، فقد كان يجدها

الفصل الثامن عشر

أغان وأحاديث

... ولكن مع هذا كله فإن الحلول الوهمية المتولدة من نتاج الخيال لم تفعل شيئاً أكثر من تعقيد المشكلة ، حتى إن الحياة فى نظر سانتوس لوئاردو أصبحت لا تطاق فى داخل ذلك البيت .

ومن حسن حظه أنه كان يمضى أكثر وقته فى الخارج ؛ إذ كانت أعباء العمل فى الضيعة تتزايد وتتضاعف .

وكانوا قد فرغوا من جمع الماشية ، وبدأت بذلك مهمة وسمها بسمه الضيعة ، وهو عمل شاق كان يقتضى أن يبدأ رجال الضيعة فيه منذ ساعات السحر المبكرة ، وأول مرحلة فيه هو فصل البقر عن عجولها الصغيرة ، وإيداع كل فريق فى حظائره .

كانت الأبقار تطلق خواراً حزيناً ، وأما العجول فكانت تن فى ألم وحسرة ، وكأنما كان لديها إرهاص يتنبأ بما ستعرض له من تعذيب الكى ، وها هو ذا باخاروتى المكلف بذلك العمل قد شهر فى يده قضيب الحديد المتوهج مستعداً للطبع به على جنوب الماشية . وينطلق صوت باخاروتى العريض بأغنية يعلن بها إشارة الشروع فى العمل ، ويباشر بقية الرجال مهمة طرح العجول على الأرض ، ثم وضع العلامة المميزة يرسمونها بشفرة الموسيقى على آذانها ، ويَطَوُّون بعد ذلك رءوسها بأقدامهم حتى تسكن حركتها ، بينما يثبت باخاروتى على جنوبها مكواة الحديد ، وهو يترنم عند رسم كل رأس بأغنية ملائمة يذكر فيها صفاتها والموضع الذى اعتادت أن ترعى فيه من المروج ،

والقطيع الذى تنتمى إليه ، والمجاولة التى تم اقتناصها فيها وغير ذلك مما يتصل بحياة كل رأس ماشية ، وهو تاريخ يعرفه راعى السهول كما يعرف تاريخ حياته هو .

ومع كل سمة كان يثبتها على جنب كل حيوان كان يخط علامة بسكينه على قطعة كبيرة من الجلد اتخذها سجلاً لحسابه ، هكذا كانت العادة الجارية فى رسم الماشية وحساب عددها منذ أن قدم «إيفارستو الكوناftشيرو» إلى هذه الأرض فى الأزمنة الخالية ، ولم يدخل التاميرا منذ ذلك العهد أى تجديد لتلك العادة الساذجة البدائية حتى الآن .

كان سانتوس يفكر فى ذلك الأمر وهو يراقب العمل ، وكان يقول لنفسه إن الوقت قد آن لكى يضطلع بتنفيذ ما كان فيه من مشاريع الإصلاح والتجديد حتى تسير تلك السهول ملاحقة ركب الحضارة ، وكان قد اضطر تحت ضغط الظروف إلى تأجيل الكثير من تلك المشاريع حتى تنهيا له المناسبة .

وانتهى العمل أخيراً بعد أيام متواصلة ، وأتى أنتونيو إليه وهو يريه البطاقة الجبلية التى سجل فيها عدد الرءوس التى تم رسمها ويقول :

- لقد جاء الحساب خيراً مما كنا مقدرين : ثلاثة آلاف رأس ، وستمائة لم تكن قد رسمت بعد . أظن الوقت الآن ملائماً لكى نعمل على تشغيل مصانع الجبن .

أما «مصانع الجبن» هذه فلم تكن إلا أوتاداً من الخشب دقوها على الأرض بجوار ضفة «مجاز الخوار» ثم ألقوا عليها سقفاً من القش والسعف ، وجعلوا بداخله قريباً من جلود البقر من أجل خض اللبن المعد لصناعة الجبن ، ثم أوعية لتجميد اللبن ، وأوراقاً قد اتخذت من شجر النخيل يستخدمونها لعصر الجبن وتجفيفه ، وإلى جوار ذلك أقاموا فى موضع حظيرة مهجورة سياجاً يحيط بها أحكموا تثبيت أعمدته ثم وضعوا فى داخله عدداً من الأبقار المستأنسة وأبقاراً

أخرى كانت ما تزال وحشية مما اقتنصوه فى «الخميلة القائمة» ، وعهدوا بكل ذلك إلى «ريميخيو» العجوز ، وكان جباناً قدم من أرض «جوارىكا» وتصادف أن مر بالضبعة باحثاً عن عمل له ولحفيد له صغير كان يدعو «خيسوسيتو» .

هكذا كانت «مصانع الجبن» ، ولم يكد سانتوس يرى أن «المصانع» قد اقتصرت على هذا البنيان القائم فى وسط ربوة من ربوات السهول فى نفس المكان الذى يقوم فيه مثله منذ أكثر من عشرين سنة وعلى نفس الطريقة الأولية البسيطة - حتى شعر بالخجل بينه وبين نفسه : أهكذا ستحول التاميرا إلى مزرعة حديثة متحضرة كما كان يبنى نفسه منذ أن قدم ليضطلع بأمور الضيعة بنفسه ؟ أهكذا تتقدم تلك الصناعات المشتقة من الرعى والزراعة على يده مجارياً بها ما بلغته الصناعة فى مضمار الحضارة ؟

وأجابه أنتونيو حينما أفضى إليه بما تردد فى نفسه :

- إن العمل فى صناعة الجبن لا يجرى خيراً مما يجرى عليه هنا فى أية بقعة من بقاع السهول . هو عمل من وحى البيئة وأجهزته كلها من ثمراتها ؛ أوتاد وأعمدة من خشب أشجار السهول ، وأوراق من شجر نخيلها ، وقرب من جلود حيوانها ...

وأكمل سانتوس :

- نعم ... وتقليد متبع لم يتغير منذ قرون طويلة ، إننى إذا كنت أعجب من شىء فمن أن الماشية لم تهلك بعد فى هذه السهول منذ أن أدخلها المستعمرون الإسبانيون إلى هذه الأرض . إن أهل السهول لم يفعلوا حتى الآن شيئاً يدخلون به بعض التحسين أو التقدم على ما جرى التقليد عليه فى مراعيهم أو صناعاتهم ، وهى حقيقة يحز فى نفسى أن أعترف بها ، إن مثلهم الأعلى هو أن يحولوا ما يقع إلى أيديهم من نقود إلى ذهب ، ثم يودعونه فى صناديق يدفنونها فى باطن الأرض ، هكذا فعل أجدادى

وهكذا سينتهى بى المصير إلى أن أفعل أنا أيضاً . فإن هذه الأرض ليست إلا حجراً غليظاً يلقي الصداً والكلالة على كل حد قاطع مشحود ، وها أنت ذا ترى كيف يجرى العمل فى مصانع الجبن ، نحن الآن منها ومن كل مشروع آخر لم نجاوز الموضع الذى كنا فيه منذ عشرين سنة ، هذا بينما يسير نسل الماشية من سىء إلى أسوأ بحكم الآفات والأمراض التى تصيبها ، ثم لأننا لم نعرف كيف نزواج بين دمائها حتى تتحسن أصولها وسلالاتها . إننا نعمل حتى الآن على شفاء أمراض الماشية بقراءة الصلوات والتعاويد عليها حتى يخرج الدود من أجسادها ، والسحرة المداوون كثيرون هنا بحمد الله ! ... وهكذا يجرى الأمر حتى يضطر أكثر الناس ذكاء بحكم العادة الغالبة إلى أن يؤمنوا أيضاً بأمثال هذه الخرافات ، ويتظنوا فعل التعاويد المباركة دون أن يحركوا ساكناً من أجل علاج المرض أو البحث عن مصدر الداء ! ...

فأجاب أنتونيو :

- كل هذا الذى قلته صحيح يا سيدى الدكتور ، ولكن على ذكر ما أشرت إليه من المزاوجة بين دماء الماشية من أجل تحسين سلالاتها - وهو أمر مازلت أسمع الناس يتحدثون عنه منذ أن كنت طفلاً - لست أرى فى ذلك كثير خير . نعم إن النسل سيكون أحسن بغير شك ، ولكن لمصلحة من ؟ ألكى تستولى عليه كل شرذمة يخطر لها أن تقوم بالثورة على الحكومة كما درجت هذه الطوائف على أن تفعل ؟ لا يا سيدى ... دع الماشية كما هى بخيرها وشرها ؛ لأن اللحم إذا طاب ولذ مطعمه فإن عدد الثورات والانقلابات السياسية سيزداد تبعاً لذلك . هذا فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة ليست هى الحرب الصريحة وإن كانت أشبه ما تكون بها . ولأذكر على سبيل المثال سلطات الحكومة التى تسعى إلى اغتصاب كل شىء .

ولكن سانتوس عاد إلى إصراره على رأيه :

- سفسطة ! ومحاولات لتبرير ذلك الكسل الذى يكمن فى دمائنا ،
والذى أورثنا إياه أجدادنا الهنود ، إن كل ما تقوله ينبغى أن يكون دافعاً يحثنا
على إيصال الحضارة إلى هذه السهول ، وعلى قطع دابر الإقطاع الغاشم
والاغتصاب المسلح والتسلط الذى لا يستند إلا إلى القوة . يجب أن نضع حداً
لوقوفنا هكذا مكتوفى الأذرع أمام الطبيعة وأمام البشر .

وختم أنتونيو النقاش بقوله :

- لا تعجل يا سيدى الدكتور ، فسيكون هناك وقت كاف لكل ما تقول .
أما الآن فإن مصانع الجبن على حالتها الراهنة تفى ببعض الغرض ، وتؤدى بنا
إلى الهدف الذى نسعى إليه . ولو لم يكن لها من فضل إلا إعانتنا على
استئناس الأبقار الوحشية لكان ذلك مكسباً له قيمته ، والمهم الآن هو أن نتمكن
من اقتناص الأبقار المتوحشة كلها بأسرع ما نستطيع ، ثم محاولة استئناسها
وتعويدها على المضى وحدها إلى حيث مصانع الجبن .

أما ريميخيو الجبان القادم من إقليم «جوارىكا» فقد كان رجلاً مجرباً خبيراً
بأصول مهنته متقناً لها ، ولكن الاعتماد فى صناعة الجبن على ماشية ماتزال
وحشية - كما كانت ماشية ألتاميرا - كان مهمة عسيرة شاقة .

وكان الرجل يظل طول اليوم رابئاً على ظهور هذه الأبقار مردداً الاسم
الذى اختاره لكل منها حتى يعودها على أن تألفه وتألف الاسم الذى يناديها به :

- أعجوبة ... أعجوبة ... أعجوبة ...

- سويداء ... سويداء ... سويداء ...

وهو لا يكف عن المرور بها وهى فى حظائرها أو فى مراعيها حيث تكون
سارحة ، فلا يدنو من واحدة منها هو أو حفيده « خيسوسيتو » البقار حتى يردد
اسمها ويمسح ظهرها بيده فى رفق .

وبدأت بعض هذه البقر تتعود ذلك وتألفه ، وكان ذلك يلحظ في نظرات عيونها التي تحولت بالتدريج إلى الوداعة والاستكانة وهي تسمع الأسماء التي كان العجوز يطلقها عليها ، ولكن سائر ماشية القطيع كانت ماتزال شموساً بطل من عيونها بريق الوحشية .

وهكذا بدأت الحضارة تشق طريقها في الضيعة منذ أن تحولت مصانع الجبن إلى ميدان للكسر من وحشية الماشية ، هذا بينما كانت أناشيط الرعاة لا تكف عن اقتناص الشيران الطليقة في المروج .

وكان البقارون كثيراً ما يفاجئون الماشية في مرابضها ، فتنتلق قطعانها تركض مذعورة في مروج النعناع البري ، ولوقع حوافرها على الأرض دوى تكاد تتزلزل له ، ولكنها كانت تعود في بعض الأحيان فتهاجم مطارديها ، وعلى الرغم من دربة هؤلاء وبراعتهم فإنهم كانوا لا يستطيعون تجنب الاصطدام بالشيران الهائجة ، وكثيراً ما كانت خيولهم تهلك في أمثال هذه الصدمات ، أو تهوى إلى الأرض عاجزة جريحة وقد أشفت على الموت من ألم الارتطام .

كذلك كانت بعض الشيران تموت من الحنق والغضب الذي كان يصعق أجسادها كما لو كان قد سرى فيها تيار من الكهرباء وهي ترى نفسها وقد أذلها الإنسان وملك قيادها ، أو من الحزن والغيب يتولاها بعد أن تتعرض لمثلة الخصاء ، فتظل مستلقية في أدغال الأعشاب مؤثرة أن تموت جوعاً وظماً ، وملقية بين الوقت والوقت بخوار مسعور أصم ، وهي ترى نفسها وقد حرمت من قيادة القطيع المتوحش ومن الحياة الطليقة الحرة في المروج الواسعة أو في سفوح الجبال المنيع .

وكان سانتوس لوئاردو يشارك الرعاة أعمالهم ، ويتعرض معهم لأخطار تلك الصدمات ، وكثيراً ما كانت الانفعالات الناتجة التي تهيئها في نفسه تلك الحياة تنسيه ما كان يفكر به من مشاريع الحضارة ، وما أكثر ما كان يخطر له

..

فى مجاولاته مثل هذا التفكير : إن للسهول جمالاً طاغياً وسحراً دافقاً على ما هى عليه من الخشونة والتوحش . حقاً إنها الوحشية والتخلف ، ولكن إذا كانت حياة رجل واحد لا تكفى للقضاء عليهما وللسير بالسهول فى طريق المدنية ؛ فلماذا ينفق هو حياته من أجل هذا الهدف البعيد الذى قد يحتاج إلى أجيال عديدة ؟ ثم إن الحياة الوحشية فيها من اللذة الغريبة ما يستحق أن يتمتع به الإنسان ويقضى فى ذلك سنوات عمره . إنها قمة ما يمكن أن تصل إليه الرجولة الثائرة التى تأبى أن تخضع لأى قيد أو يحد من سلطانها أى حد ! .

* * *

ماريا نيبس هو الرجل الذى يتحول إلى بطل من أبطال الأساطير إذا جاء دوره فى قيادة الماشية عبر الأنهار الكبار حيث الموت يتربص وراء كل موجة ، وهما هو ذا الآن يستعد لهذا العمل معرضاً نفسه لضربة قاتلة من ذيل تمساح قد يتوثب عليه من حيث لا يحتسب ، وهو لا يحمل من السلاح إلا سكيناً كبيراً فى يده ، وأغنية على شفثيه .

حظائر «مجاز الخروب» قد امتلأت بالماشية ، وقد اتخذ الرجال أهبتهم لقيادتها قطعاً بعد قطع إلى نهر «الأراوكا» وقد نصب لها طريق أعد من ألواح الخشب لكى تمر عليه من باب الحظيرة حتى ضفة النهر ، ووقف على جانبه عدد من الفرسان لكى لا تضطرب الماشية أو تتزاحم . وهما هو ذا ماريا نيبس قد تأهب لقيادة القطيع عوماً من ضفة إلى ضفة . إنه أشهر من تعرفه سهول نهر «الأبورى» ممن يسمونهم هناك «رجال الماء» الذين يعهد إليهم بمثل هذا العمل ، وهو لا يغتبط بشيء بقدر اغتباطه بهذه اللحظة التى يصل فيها الماء إلى عنقه ، ومن ورائه قطعان الماشية لا تبدو منها إلا قرونها وقد انطلقت فى أثره أولاً تلك الثيران الفحول التى تضطلع بالقيادة تتبعها بقية القطعان ، وماريا نيبس يمضى قدماً وهو يسبح فى النهر العريض الذى ملأه ماء الفيضان ، فامتد من سفح الجبل إلى سفح الجبل .

ها هو ذا ماريا نيبس قد خاض فى ماء النهر على صهوة جواده ،
وهو يتبادل الحديث فى صباح مرتفع مع ربانة القوارب الذين وكل إليهم
تأليف صفين بحيطان بالماشية فى عرض النهر حتى لا يحملها التيار فتتفرق
عن الخط الذى ينبغى أن تتبعه فى أثر ماريا نيبس .

وفى الحظائر يتعالى صباح الرعاة الذين يسوقون القطعان لإخراجها
إلى ضفة النهر ، وقد برزت من الباب تلك الشيران التى تتزعم القطعان تسير
فى موكب مهيب ، وها هى تمضى على خشب المجاز الذى أعد لها إلى الضفة
ومن ورائها قطعانها ، ويقطع ماريا نيبس الأغشية التى بدأ فى ترتيلها ،
ثم يقذف بنفسه عن صهوة الجواد إلى الماء ، فالحصان لم يعد صالحاً إلا لكى
يرتفق عليه بيده اليسرى ، أما ذراعه الأيمن فهو مجدافه فى العوم ، وقد حمل
فى يده سكينه الكبير قد شهره مستعداً للدفاع عن نفسه إذا تعرض لهجوم
التمساح . ومن ورائه الشيران القائدة تثب فى النهر تابعة أثره ، ويغطيها الماء
حتى لا يكاد يظهر منها إلا قرونها ومناخرها .

ويصيح الرعاة :

- ضيق الحصار هنا ! ... أقفل الثغرة هناك ! ...

وتشد الخيول على رءوس الماشية الباقية على البر ، فتساقط فى الماء واحدة
بعد أخرى ، وهى تخور فى خوف وجزع ، ويحاول بعضها الرجوع أو الفرار ،
ويحمل التيار بعضها الآخر فى غير الاتجاه المرسوم ، ولكن الرعاة على الشاطئ
والملاحين المصطفين فى زوارقهم فى عرض النهر يعيدون النظام ويقيمون
الصفوف .

ولا يكاد يبين للناظرين على شاطئ النهر إلا قرون الماشية الملتفة طافية على
الماء محددة الاتجاه الذى تسير فيه القافلة ، ومن أمامها رأس ماريا نيبس وإلى
جواره رأس جواده ، وينطلق صوت الرجال فى حدائه المرتفع متردداً على
صفحة النهر العريض الذى تربص من تحت لججه غدرات التماسيح وهجمات
الأسماك المتوحشة من أسراب القراير وحيثان «الرعاد» و «البرق» و «المنشار» .

وأخيراً يصل ماريا نيسس إلى الضفة المقابلة بعد سباحة طويلة عبر مئات الأمطار ، ثم تخرج رءوس الماشية واحدة واحدة وهى تلقى بخوار مستطيل ينم عن الألم ، ويجمعها الرجل حتى يطمئن إلى خروج القطيع كله من الماء ، فإذا انتهى عاد إلى القذف بنفسه فى الماء راجعاً إلى الضفة الأولى حتى يجيز قطعاً آخر .

والرجال فى هذه الضفة منهمكون فى إخراج بقية الماشية من حظائرها وسوقها عبر المجاز الخشبي حتى تواصل خوضها للنهر ، أما شاطئ «الأراوكا» المقابل فقد تجمعت مئات الرءوس على رماله الجافة وتحت سماء رمادية اللون ملبدة بالغيوم ، وهى تطلق فى الجو خوارها المنتحب ، والرجال فى عمل دائم جيئة وذهاباً فى انتظار تجمع القطعان ثم المسير بها عبر السهول الموحلة التى تغمرها مياه السهول ... فراسخ وفراسخ فى الطريق إلى كاراكاس ستمضى خلالها الماشية فى طريقها خطوة خطوة تهددها أغاني الحداة :

- انتظم فى صف القافلة أيها الثور الصغير

واقف آثار قائد الرعاة ...

وهو يعد عليك الخطوات

من الحظيرة إلى المذبح !

وفى هذه الأثناء كانت جموع أخرى من القطعان تتوجه فى طريق آخر نحو منطقة الجبال لكى تباع هناك ، تماماً كما كان الأمر فى تلك الأيام الطيبة ... أيام أجداد لوئاردو حينما كانت ألتاميرا خير ضياع حوض الأراوكا وأغناها بالحرث والنسل .

وتمضى الحياة هكذا جميلة قوية خشنة ... هى حياة السهول الهائلة والأنهار العريضة حيث لا تفارق الأغنية شفتى الرجل وهو فى غمرة الأخطار والمشاق ... حياة هى عين الملحمة : السهول الوحشية بمنظرها الرائع الرهيب والشتاء الذى يقتضى مزيداً من الصبر ومن الجرأة ، والسيول العارمة

التي تضاعف من أخطار العمل وتشعر الرجل وهو مثبت قدميه على قطعة من الأرض تحفها المياه من كل ناحية بعظمة هذه الصحراء المحيطة به ... ولكنها تشعره أيضاً بعظمة الرجل نفسه حينما تجبره الظروف على ألا ينتظر النجدة من أحد ، ويخوض مع ذلك ما يتوثب حوله من أخطار في ثبات وثقة ! ...

* * *

المطر ينسكب ... وينسكب ... وينسكب ... منذ أيام كاملة وليس هناك في السهول من حدث إلا هطول الأمطار ، وقد عاد كل غائب من أهل السهول إلى داره معتصماً بها ، فإن الأنهار والقنوات ستمتلئ عن قريب بمياه الفيضان والسيول ، ولن يبقى في المروج بعد ذلك طريق يمكن لأحد أن يسلكها ، بل لن يعود أحد بحاجة إلى سلوك أى طريق ؛ إذ إن هذا هو موسم «العكوف» في البيوت على سرير وزق خمر ومصاصة تبغ ، كما اعتاد الناس هنا أن يقولوا ، وبذلك يعيش السهلي قانعاً راضياً سعيداً تحت سقف اتخذ من ورق الشجر وسعف النخيل ، بينما ينهل المطر في الخارج كأفواه القرب .

ومع الأمطار الأولى المنسكبة في السهول يبدأ موسم عودة طيور البلشون ، فتبدو أسرابها قادمة من الجنوب إلى حيث توجهت في شهور الصيف دون أن يعرف أحد أى مكان بلغت في سفرها الطويل ، وهى تتوافد جماعات لا يحصيها العد ، وتصل وقد نال منها التعب ، فتتوقف متأرجحة على غصون الأشجار القائمة في سفح الجبل الذى يسميه الناس هناك «جبل البلشون» نسبة إليها ، وكثير منها يصل وقد أخذ الظمأ منه مأخذه ، فتسرع إلى ضفاف البرك الموحلة ، ولا يلبث سفح الجبل وصفحة الماء أن يغطيهما بياض تلك الأسراب .

ويبدو للمتأمل كأن هناك قصصاً وحكايات تدور بين هذا الجمع وذاك حول ما رآه كل منهما خلال رحلته الطويلة ، فقد أتى كل من منطقة غير تلك التي توجه منها الآخر ، وسرب الجبل ينظر إلى سرب الماء وقد مدت طيور

كل منها أعناقها وخفقت أجنحتها ، ثم أطلقت صراخاً حاداً ، وأخلدت بعد ذلك إلى الصمت وهي تتبادل النظرات وقد استدارت حدقاتها الصافية وظلت شاخصة لا تطرف ، وقد يشجر العراك بين واحدة وأخرى على غصن أراد كل منهما أن يتخذه مهذاً يؤويه أو على بقية عش تخلف عن موسم السنة الماضية ، ولكن الخصام لا يطول ، وسرعان ما يستقر كل طائر فى مكان هو فى الغالب نفس المكان الذى اختاره منذ الموسم الماضى .

وتأتى لتحية القادمات أسراب الطيور التى لم ترحل : البط الوحشى ، وطيور «الكوروكورا» (*) الحمر ، والعصافير الزرق ، و «الجفان» ، والغربان البحرية ، وغيرها من طيور تلك البقاع ، متوافدة إلى حيث استقرت البلشون من جهات السماء الأربع ، وبدا على الجميع كأنها تتبادل الأحاديث وتتقاذف الأخبار .

والبرك والمستنقعات قد امتلأت بالماء ؛ إذ إن الشتاء قد أفرغ على السهول كل ما حملته سحبه القائمة من مطر ، وعما قريب سينساح على صفحة القنوات لعاب أسود ... إنه نذير بقدوم التماسيح ، لقد طفحت الأنهار والقنوات وامتد الماء إلى كل منخفض فى السهول حيثما وجد . والتماسيح كذلك قادمة بعد رحلة طويلة من مكان بعيد ... أكثرها آت من نهر «الأورينوكو» ، ولكنها مخلدة إلى الصمت لا تقص خبراً ولا تلقى بحديث ؛ إذ هى تقضى اليوم كله نائمة أو متصنعة النوم ، وربما كان من الخير أن تظل هكذا ملتزمة الصمت ، وإلا فأى حديث يمكن أن ترويه إن لم يكن حديث الجرائم السود ؟ !

وتبدأ طيور البلشون فى تغيير ريشها وتبدله بريش جديد ، وها هو ذا «جبل البلشان» يبدو فى الفجر وكأنما قد غطاه الجليد ، فبياض الريش الذى نفضته عنها الطيور فى مساء الليل يغطى كل مكان : ها هو ذا يكلل قمم الأشجار ويتعلق بفروعها التى اتخذت الطيور مأواها بينها ، ويجلل الأوكار المندسة فى ثناياها ... ألوف من هذا الريش الناصع قد انتشرت هنا وهناك

وطفت على البرك الموحلة أو علقت بالشقائق السابحة على سطح الماء .
إنه لم يعد موضع فى المروج الفسيحة إلا والتصق به ذلك الريش الذى خلعته
عنها الطيور فى مساء أمس ، كأنه قطرات الندى التى تتخلف فى الفجر
على أوراق الزهور .

وفى مطلع الفجر يبدأ جامعو الريش عملهم فيخرجون إلى البرك
والقنوات على ظهور قوارب شراعية خفيفة ، ولكنهم لا يوغلون فى الماء قليلاً
حتى لا يروا بداً من ترك القوارب والنزول إلى الماء يخوضونه حتى يغمر
أوساطهم ، ويأخذون فى جمع المحصول وهم غائصون فى ذلك الماء الذى
يطفو عليه لعاب التماسيح الأسود وتملأه الأسماك الوحشية من قراقير
ورعادات مفترسة ، ولكنهم لا يبالون بكل ذلك ؛ إذ يمضون خائضين فى الماء
منصرفين إلى عملهم ، يتحدون الموت ، وهم يتبادلون الصياح
أو تنبعث من حناجرهم أغان مرحة ، فرجال السهول لم يتعودوا أبداً
على العمل فى صمت ، هم لا يكفون أبداً خلال عملهم عن الصياح أو الغناء .

وينهل المطر غزيراً متواصلاً ، وتمتلئ مجارى القنوات ثم تفيض غامرة
السهول الخافة بها ... ويبدأ الرجال فى التساقط واحداً بعد واحد ؛ إذ هذا هو
موسم الحمى نصيب الرجل فجأة ، فإذا بجسده يرتعد وأسنانه تصطك ووجهه
يعلوه الشحوب والاصفرار ، ثم يتحول لونه إلى الخضرة ... وتتكاثر الصلبان
المنصوبة على مقبرة التاميرا ، وهى ليست إلا مربعاً صغيراً من الأرض فى وسط
المروج تحيط به الأسلاك الشائكة ، فرجل السهول لا يرضى بديلاً عن مروج
حتى بعد موته وفى مثواه الأخير .

ولكن الماء يعود بعد ذلك إلى الانحسار ، والبرك المتناثرة فى المروج إلى
الجفاف ، وتبدأ التماسيح فى الانسحاب من القنوات عائدة إلى الأنهار التى
قدمت منها ، فبعضها يرجع إلى مأواه القديم بين أمواج «الأراوكا» ، وبعضها
الآخر إلى «الأورينوكو» بعد أن ملأت بطونها الضخمة من لحم ماشية التاميرا .

ومع انحسار الماء يبتعد خطر الحمى ، وتعود القيثارة وكرات «الماراكاس» إلى أيدي الرعاة ، ومجالس سمرهم التي تتخللها الأغنية المرحية والحديث الطريف والنقاش الصاخب ... هي عودة تلك الروح العنيفة الضاحكة التي ما تزال تصدح بالأغنية معبرة عن كل ما يحيط بها من عمل ومن حب ومن استهتار بالحياة .

ويقول أنتونيو ساندوفال لسانتوس وهو يحاوره :

- لقد سألتني من أين يستمد رجل السهول قوته وهو الذي يبدو مهزولاً شاحب الوجه ، ومع ذلك فإنه يحتمل مشقة العمل على ظهر جواده يومه كله وراء قطيع ماشيته أو خائضاً في الماء إلى وسطه على ما في ذلك من خطر وتعرض لمكروه ؟ ومن أين تهيأ له هذا المرح والتفاؤل يملآن نفسه حتى في أشد الأوقات عسراً وتجهماً ؟ فأنا مجيبك على ذلك يا سيدى الدكتور بقصة سأرويها عليك ، وستستخلص منها رد الجواب : بينما كنت منصرفاً إلى بعض عملى فى يوم من الأيام إذا برجل يتقدم إلى آتياً من بعض جهات نهر «الكوناftشى» لبحث عن عمل ، ولكنه لم يرشح نفسه لبعض هذه الأعمال المتواضعة الهيئة التي يشتغل بها كثير من الأجراء هنا ، بل ذكر لى أنه خبير بأعمال الترويض لا أقل من ذلك . وكان الرجل يبدو بذ الهيئة رث الثياب ، قد امتطى ظهر بغل مهزول متهالك القوى حتى إنه لم يكن ليحمل راكبه إلا بجهد جهيد ، ولم يكن عليه من أدوات الركوب إلا قطعة ممزقة من اللباد ، فأقبلت أنظر إليه قليلاً فى عجب ، ثم قلت له :

- حسناً يا صديقى . ليس لدى ما يمنع من إلحاقك بالخدمة هنا ، وسأمنحك دابة تستعين بها على شأنك : جواداً من هذه الجياد الوحشية السارحة هناك فى المروج فتخير منها ما يعجبك وانصب له شركاً أو ترصده بأنشوطتك حتى تقتنصه ، فإذا فعلت فانصرف إلى ترويضه حتى تذل قياده وتتخذ لركوبك ، أما أدوات الركوب نفسها فلست أنا مسئولاً عنها ، فلتكفل بها أنت .

فأجابني الرجل وهو يضع يده على قطعة اللباد الممزق التي علت ظهر بغله
وقال في بساطة :

- أما أدوات الركوب فإن لدى منها ما يكفي بحمد الله ، صحيح أنه ليس
لدى سرج ، وأما الجعبة فقد ضاعت منى لا أدري أين ، والركاب قد ذهب به
بعض اللصوص ، وأما السيور فإننى لا أملك منها شيئاً ، ولكن بقى لى
ما هو أهم من ذلك كله فى صناعة الركوب : قلب صبور على المشقة ونفس
حمالة للألم ! .

وختم أنتونيو كلماته كأنه يلقي بحكمة أو موعظة :

- هكذا أجابنى الرجل فى بساطة ... وأنا أزيدك تعريفاً به ، فأقول لك إنه
لم يكن إلا «باخاروتى» الذى رأيت أنت منه ما تعلم . لقد أتى بتلك القطعة
الرقيقة الممزقة من اللباد ، ومع ذلك فقد كان يعتبر نفسه مستكماً لأدوات
الركوب ؛ إذ قد بقى له ما هو أهم من ذلك كله : نفس حمالة للألم ! ولك أن
تجربى هذه القصة وما اشتملت عليه من عبرة على سائر أهل السهول . إنهم
جميعاً تكمن فيهم هذه النفوس الحاملة للألم والإرادة الصلبة المستعدة لكى
تقاسى مشقة العمل وأعباءه فى تفاؤل وصبر ... من هنا أتت لرجال السهول
قوتهم على الرغم من بذاذة هيئاتهم واقتحام العيون لهم لأول وهلة !

وما كان أنتونيو مبالغاً أو مسرفاً فى مقاله ، فقد رأى سانتوس ذلك جلياً
فى حياة هؤلاء الناس على الرغم مما يكتنفها من مشقة ونصب : رآه فى هذا
الفلاح البدوى المتواضع يعانى قسوة العمل فى قطعة أرضه الضئيلة يستخلص
منها رزق يومه ، ورآه فى ذلك الراعى المرح وهو يختال فى وسط مروجيه
الفسيحة ، كلاهما يكافح قوى الطبيعة من أجل قوته وقوت عياله ، وكلاهما
مع ذلك لا يتردد فى مشاطرة ضيفه النازل برحابه ما تجشم أقصى الجهد لكى
يحصل عليه من قطعة لحم أو درنة من البطاطس ، وهو طعام لا يتم إكرام
الضيف به إلا إذا اتبعه بقدح من القهوة وشئ من التبغ ، وهو مع ذلك راضٍ

بحياته قانع من لذات العيش بسرير ينصبه بين أعمدة حظيرته وغطاء متواضع يقيه غائلة السماء ، ولا بأس بكل ذلك ما دام لديه لركوبه جواد مطهم كريم وسرج محلى جميل ، فإذا انتهى من عمله فإنه ينصرف إلى عوده يعزف عليه ، وإلى قطع الليل فى مجالس سمر وغناء يرتفع فيها صوته صادحا حتى يبح ، بعد أن أنفق يومه كله فى عمل مضمّن شديد ، فإذا أتاحت له سهرة راقصة فلا بأس فى أن يظل حتى مطلع الفجر منكبا على رقصة «الخوروبو» حتى تتفكك مفاصله ، ولا سيما إذا كان فى السهرة فتيات جميلات ممن عناهن الشاعر السهل بمثل هذه المقطوعة :

- خذ فى رقصك من الثور التفاف قرونه .

ومن الجواد ركضه وتقريبه .

ومن النساء الجميلات كل ما يعطيك .

من خصور جائلة وأرداف مكتنزة !

وهو يرى رجل السهول ومسلكه إزاء ما يحيط به ؛ فهو أمام الحياة قوى الاحتمال شديد المراس صعب القياد ، يعمل - إذا عمل - فلا يدركه التعب ، ولكنه مع ذلك كسول متهاون ؛ وهو فى الصراع متهور سريع الاندفاع إلا أنه ماكر واسع الخيلة بعيد غور الدهاء ، وهو فى علاقته برىء مخلص أمين ، غير أنه فوضوى مهممل لا يخضع لنظام ، وهو مع الصديق متحفظ جاف فى أول الأمر ، فإذا اطمأن ووثق فهو مستعد لبذل كل شىء فى سبيل الصديق ، وهو مع المرأة قاس خشن ، تعجبه متعة التنقل بين النساء ، وهو مع نفسه مقبل على اللذات الحسية ، وإن كان مع ذلك قنوعا يرضى بالقليل ، وهو فى أحاديثه سريع البديهة شديد العارضة ، ولكنه ساذج بسيط ، متشكك قليل التصديق لما يلقى إليه ، غير أنه مع ذلك يؤمن بالخرافة ، وهو فى كل أحواله مرح وإن كان يشيع فى قرارة نفسه تيار من الحزن والمرارة ، عملى واقعى ، ومع ذلك فهو حالم واسع الخيال ، وهو متواضع إذا كان راجلا ، فإذا اعتلى صهوة جواد

فهو شامخ بأنفه كثير الخيلاء والاعتداد بنفسه . قد اجتمعت فيه كل هذه المتناقضات دون أن تتزاحم أو يضيق بعضها ببعض ، كما تتمازج العيوب والفضائل فى الأرواح الفتية الجديدة .

كل هذا ينعكس على الأهازيج والمقطعات التى تتفتق عنها قرائح شعراء السهول ، حيث يمتزج المرح المسرف فى الخيلاء الذى تميز به الأندلسى ، والاستسلام المبتسم الذى فطر عليه الزنجى الأسود المتعود على الخضوع ، والنزعة المريرة إلى التمرد الموروثة عن الهندى . لقد ورث السهلى عن هذه الأجناس التى اختلطت دماؤها فى عروقه كل الخصائص التى تميز بها كل منها ، والتى ساهمت بنصيب فى تكوين روحه . رأى سانتوس كل ذلك مصوراً أوضح تصوير فى أغانى الرعاة ، فما فاته من طبائع أهل السهول مما لم يستطع فهمه من خلال أغانيهم أو ما سمعه فى صباه ثم قدم به العهد فنسيه ؛ فإنه يعود الآن فيتمثل له فى غمار أحاديثهم ومجالس سمرهم ، فى أثناء مشاركته إياهم فى العمل الشاق ، أو فى السهرات الصاخبة التى كانوا يعدونها حينما يخلدون إلى شىء من راحة .

ها هو ذا سانتوس يطلع من هذه النافذة على حياة السهول ، وهو يحس بالنفوذ الطاغى الذى تباشره هذه الأرض على روحه المتفتحة إلى القوة ، والجمال ، والألم مما تضطرب به أرجاء هذه السهول . ومن هنا خامرته الرغبة فى أن يحب هذه الأرض على علاقتها ... كما هى ، بكل ما فيها من وحشية وجمال ، والعزم على أن يترك نفسه لها حتى تشكلها كما تشاء ، والإقلاع عما كانت نفسه تحذره به من محاولة نشر الحضارة فى تلك السهول أو الخوف من أن يحيد به نفوذ البيئة عما كان قد رسمه لمنهاج حياته ، فقد كان عندما وطئ هذه الأرض من جديد يخشى أن يجرفه تيارها إلى إثارة حياتها البسيطة الخسنة ... حياة رعاة السهول .

إن الذى يختار هذه الحياة عليه أن يدفع ضريبتها القاسية ؛ فالحق أن الرجل من أهل السهول لا يروض حصاناً وحشياً ولا يصيد ثوراً من هذه الثيران الطليقة فى المروج إلا نال جزاء على ما فعل . والجزاء هو أن يصبح الرجل عبداً للسهول لا يستطيع من أسرها خلاصاً ولا من نفوذها هرباً ! ... نعم ، إن السهول تعرف كيف تنال ثأرها إذ هى لا تلبث أن تسترجع الصيد والصائد ! .. لقد أشار أنتونيو ساندوفال إلى شىء من ذلك حينما قال : «إن السهلى يظل سهلياً حتى الجيل الخامس من السلالة المنحدرة من صلبه» . أما بالنسبة لسانتوس لوئاردو فقد كان هناك فوق ذلك كله شىء آخر لم يكن هو يفكر فيه ، ولكنه كان على كل حال كامناً ينبض فى قاع روحه ... شىء يتسلط نفوذه على مشاعر هذا الرجل الحضري القادم من المدينة كما تسلطت على نفسه بيئة السهول الجميلة الموحشة : ماريسيلا ... هذه الفتاة التى ينعكس عليها جمال السهول كما ينعكس على الألحان المنبعثة من القيثارة الهازجة فى أيدي الرعاة ... ماريسيلا ذات الروح الساذجة اللعوب فى آن واحد ... البرية كأنها زهرة «البرجوتان» * التى يعطر شذاها هواء الخمائيل ، ويسكب الرحيق فى شهد خلايا النحل .

الفصل الثالث عشر

الساعة وظلمها

كان الظلام يوشك أن يمد أظنابه على الأرض حينما توجهت ماري سيلا إلى المطبخ لتعد العشاء لسانتوس ، وكانت تهتم بالدخول حينما التقط سمعها المحاورة التي كانت تدور بين «إيوفراسيا» الهندية وكاسيلدا ، والأولى تقول لصاحبتها :

- ... وإلا فكيف تفسرين أنت هذا الإلحاح من جانب «خوان بريميتو» على أن يدعه الدكتور يأخذ مقاييس قامته ؟ فمن الذى تهمة هذه المقاييس ؛ إن لم يكن السيدة باربارا ؟ ثم لا تنسى أنه لا حديث للناس الآن إلا عن السيدة باربارا وعن غرامها الجديد بالدكتور لوئاردو ، فهو أمر شائع ذائع يتردد على كل لسان .

- وهل تعتقدين أنت فى صحة هذا الذى يذكر عن أخذ المقاييس ؟

- أعتقد ؟ وهل فى ذلك شك ؟ أم تظنين أننى لم أربعنى رأسى أدلة عليه دامغة وشواهد قاطعة ؟ إن المرأة التى تشد على خصرها خيطاً أخذ به مقاس رجل فإنها تفعل بذلك الرجل ما تشاء . لقد فعلت «خوستينا» الهندية ذلك بالفتى «دومنجيتو» من أهل قرية «تشكواكال» ؛ إذ ربطت مقاسه بوسطها ، فأذهبت عقله ، نعم ... خيط ألقته على جسده ثم لفته حولها و ...
رحمك الله يا دومنجيتو !

وصاحت كاسيلدا :

- أبعد الله عنا السوء ! وما دمت أنت تعرفين ذلك فلماذا لم تحذري الدكتور وتنصحيه بالألا يسمح لخوان برمييتو بأخذ مقاسه ؟ .

- نعم ... لقد فكرت فى هذا بالفعل ، ولكنى قدرت أن الدكتور ليس ممن يعتقدون فى هذه الأشياء ، ثم إنه كان يبدو مسروراً جداً بما كان ذلك المعتوه الأبله يقول ويفعل حتى إننى لم أجروء على مخاطبته ، ولكنى فكرت فى أن أنتزع ذلك الخيط من خوان برمييتو ، إلا أنه ألقى فى عيني بالتراب كما يقولون ؛ إذ إننى تبعته مجتهدة فى إدراكه ، فلم ألحق ولا غباره ... إنه لابد أن يكون الآن قد ابتعد فى طريقه كثيراً ، ولو أن ما حدث لم يقع إلا منذ لحظات ، فأنت تعرفين أنه لا يشرع فى العدو حتى يعجز كل من يروم اللحق به .

وكان ما تحدثت عنه إيوفراسيا هو أغلظ ما أثر فى باب الإيمان بالخرافات والاعتقاد فى الخزعبلات مما استقر فى نفوس أهل السهول من ضروب الشعوذة ، ولكن ماريسيلا لم تتسمع هذا الحوار حتى سرت فى بدنها قشعريرة باردة ، وعلى الرغم مما اجتهد سانتوس فيه من انتزاع مثل هذه الاعتقادات فى القوى السحرية من نفس الفتاة ، وعلى الرغم من أنها كانت كثيراً ما تؤكد له أنها لم تعد تصدق هذه الترهات ؛ فإن الإيمان بالسحر الأسود كان ما يزال كامناً فى قرارة روحها بعد ، ثم إن كلام المرأتين الذى كانت تنصت إليه وهى تحبس أنفاسها وقلبها يكاد يثب فزعاً من بين أضلاعها لم يكن إلا تأكيداً لهذه الشكوك الفظيعة التى طالما هجست نفسها بها : إن أمها قد عشقت ذلك الرجل الذى أودعته هى خالص حبها ! ...

وكتمت ماريسيلا صيحة الذعر التى أوشكت على أن تند منها مغطية فمها بيد مرتجفة ، ونسيت الغرض الذى قدمت من أجله إلى المطبخ ، ثم سارت مخترقة البهو إلى حيث غرف الدار الداخلية ، ولكنها عادت من بعد إلى حيث كانت ، وظلت هكذا مترددة حائرة فى جيئة وذهاب كما لو كانت الأفكار الفظيعة التى تتناهبها قد تحولت إلى حركات آلية لا تملك فيها تصرفاً .

وفيما هي في ذلك إذا بها ترى باخاروتى قادمًا ، فتهرع إلى لقائه وتسائله :

- ألم تر خوان برميتو في طريقك ؟

- بلى ... لقد التقينا في الطريق هناك فيما وراء شجرات البلوط ،
ولابد أن يكون قد وصل الآن إلى «ضبعة الرعب» ، فقد كان يهرول كأنه روح
قد حملها الشيطان .

وبقيت ماريسيلا تفكر لحظة ثم قالت :

- إننى محتاجة الآن إلى الذهاب إلى «ضبعة الرعب» ، فهل تريد مرافقتى ؟

وتساءل باخاروتى :

- والدكتور ... أليس هنا ؟

- هو في الدار ، ولكنه ينبغي ألا يعرف أى شيء عن ذلك ، سأتكم الخبر
وأذهب خفية ، فأخرج الآن لتسرج لى «كثيرا» دون أن يفتن أحد إلى جلية
الخبر .

واعترض باخاروتى :

- ولكن يا بنية ، إن هذا ...

فقاطعته قائلة :

- لا يا باخاروتى . لا تحاول ، فلا جدوى من النقاش ، ولا تضيع وقتك
عشًا فى أن تحملنى على أن أعدل عما استقر عزمى عليه . يجب أن أذهب إلى
الضبعة الآن ... فى هذه اللحظة ؛ فإذا كنت لا تجرؤ على مرافقتى ...

- لا تزيدى بعد ما قلت كلمة ، سأذهب الآن لكى أسرج لك «كثيرا»
فانتظرينى أنت وراء شجرة الموز ، وهكذا لن يراك أحد وأنت خارجة .

وقدر باخاروتى أن هناك شيئاً خطيراً حمل ماريسيلا على اتخاذ هذا القرار ،
ومن أجل هذا قرر مرافقتها بغير مناقشة ، ثم إنه ما كان عليه أن يفعل غير ذلك
بعد أن قالت له «إذا كنت لا تجرؤ ...» إنه لم يولد أحد بعد يستطيع أن يقول :
«على هذا لا يجرؤ باخاروتى !» .

وتسللت ماريسيلا ومعها باخاروتى ماضيين بعيداً عن بيوت التاميرا بعد
أن اتخذا من شجرة الموز جنةً تقيهما عيون الناظرين ، وكان الظلام قد بدأ
يرخى ستوره القاتمة ، وأخذا يتبادلان الحديث فى الطريق ، وكانت ماريسيلا
ترجو بينها وبين نفسها ألا تضطر إلى مواجهة أمها ، ولكنها لم ترد التصريح
لباخاروتى ؛ فقالت له :

- أظن أننا لو حثنا السير فإننا مدركان خوان برمييتو قبل أن يصل ؟

- لا ... ولو حططنا ظهور دوابنا واستخرجنا منها أقصى ما تستطيع من عدو ،
فقد سبقنا بزمان طويل ، ثم إنك تعرفين مدى وثباته إذا ما أطلق ساقيه للريح ،
وإذا لم يكن قد وصل الآن بالفعل فلا بد أنه لم يبق عليه إلا أقل القليل .

ولم يخطئ تقدير باخاروتى ، فقد كان خوان برمييتو فى هذه اللحظة
قد بلغ «ضيعة الرعب» ، فدخل مسرعاً إلى حيث كانت السيدة باربارا جالسة
إلى المائدة وحدها ؛ إذ كان بالبينو باييا قد انقطع عن شهود مجلسها فى الأيام
الأخيرة ، فقد كان يخشى أن يتسبب حضوره فى التعجيل بقطع تلك العلاقة
الواهية الفاترة التى كانت تربطه بالمرأة ، وكان الجميع هناك يتوقعون أنه
لن يمضى وقت طويل حتى تطرده السيدة باربارا من خدمتها ، ولهذا فقد أثر أن
يختفى عن الأنظار عدة أيام .

وقال خوان برمييتو وهو يخرج من جيبه كيسه القماشى ويفكه ثم يبرز منه
الخيوط الذى أخذ به مقاييس سانتوس ويضعه على المائدة :

- إليك يا سيدتى ما كنت قد كلفتينى به ، هو مقياسه المضبوط لا ينقص
عنه شعرة ولا يزيد .

ثم بدأ يقص عليها ما اضطر إلى اصطناعه من حيلة حتى يظفر بمراده من سانتوس لوئاردو ، فلما فرغ قالت له :

- حسناً ، والآن يمكنك الانصراف . اذهب إلى المشرب واطلب هناك ما شئت .

وظلت بعد ذلك ساهمة مخلدة إلى التفكير وهي تتأمل هذه القطعة القذرة من الخيط ... ها هو ذا أخيراً شيء يمت بصلة إلى سانتوس لوئاردو ، بل هو الذى لابد أن يأتيها بهذا الرجل فى عاجل أو آجل لكى يرتقى بين ذراعيها على ما يقتضيه ذلك الاعتقاد الراسخ الذى استقرت جذوره فى روحها ، لقد تحولت الرغبة التى كانت تعتلج فى نفسها إلى شهوة عارمة طاغية ، وإذا كان الرجل الذى أرادت أن تستحوذ عليه والذى كانت تعتقد أنه سيمضى إليها «معدود الخطوات» - قد بدا منه الحiran والاستعصاء فإنه لم يكن لها مفر من اللجوء إلى الحيلة ، ومن ثم أتى تصميمها الخبيث على تنفيذ تلك الفكرة النابعة من ظلمات روحها الساحرة المؤمنة بتعاويد الخرافة ، وهكذا تسيطر على قياده بنواميس السحر الأسود ورقاه مادامت عاجزة عن اجتذاب قلبه بإغراء المرأة ومفاتن الأنثى !

* * *

وكانت ماريسيلا فى هذه الأثناء قد وصلت إلى الضيعة وأصبحت على مقربة من الدار ، وأخيراً قطعت ذلك الصمت الساهم القلق الذى كان مستولياً عليها طول المسير ، وتوجهت إلى باخاروتى قائلة :

- إننى بحاجة إلى الكلام مع ... أمى ! فلتبق أنت هنا وسأدخل أنا الدار ، ولتظل فى موضعك قريباً حتى إذا ما دهمنى أمر تمكنت من سماع صراخى .

فأجاب الرجل وهو معجب بشجاعة الفتاة وتصميمها :

- ما دمت تريد ذلك فهكذا سيكون. وعلى أية حال فلا يداخلك القلق، فإنك لن تحتاجى إلى الصراخ مرتين .

وتوقفا لحظة متواريين فى ظل خميلة من الشجر ، ثم نزلت ماريسيلا عن ظهر فرسها ، وتقدمت فى عزم ورباطة جأش إلى الدار محاذية السياج الخشبي الذى كان يحيط بالحظيرة المجاورة .

وعبرت الدهليز ، ولكنها لم تكد تتقدم فيه خطوات حتى أدركها التردد وكادت عزيمتها أن تخور وهى تطأ عتبة هذا البيت الذى كانت تدخله الآن لأول مرة ، لقد بدا لها فى هذه اللحظة أن قلبها قد توقف عن الحركة ، وأن رجليها تنوءان بحملها ، وكادت تنبعث من صدرها تلك الصرخة التى اتفقت مع باخاروتى على أن تكون إشارتها إليه . ولكنها تماكنت نفسها ولم يبق لها مفر من المضى فيما عزمت عليه ، إنها الآن فى مدخل هذه القاعة المتخذة لتناول الطعام ولاستقبال الزائرين فى وقت واحد ، ولا بد لها من التقدم ...

وكانت السيدة باربارا قد فرغت من عشاؤها وانتقلت إلى الغرفة المجاورة .

وهدأت نفس ماريسيلا قليلاً ، ثم تقدمت من تلك الغرفة خطوة فخطوة ، وهى تنظر حولها فى حذر ، كانت دقات قلبها تدوى فى مسمعيها كما لو كانت طرقات صاحبة هائلة ، ولكن الخوف كان قد زایلها وبدأت أكثر تصميمًا وأمضى عزماً .

أما باربارا فكانت واقفة فى صومعة سحرها أمام الرف الذى اصطفت عليه صور العذراء والقديسين وطواطم السحر ورقاه ، كلها فى نسق واحد وقد أشعلت شمعة متراقصة اللهب ، وهى تنظر إلى الخيط الذى دار حول قامة سانتوس لوثاردو وتردد فى صوت محشرج هامس تلك الرقية التى عليها المعول فى إذلال قياد الرجل الحرون :

- باثنتين أنظر إليك ... وبثلاثة أشد وثاقك : بأسماء الأب ، والابن والروح القدس ... تعال أيها الرجل ... ولأنظر إليك بين يدي وأنت أكثر خضوعاً وذلًا من المسيح بين يدي بيلاتوس !

وكانت تستعد لفك عقدة الخيط وإحاطة خصرها به حينما باغتتها يدان تنزعان الخيط من بين يديها فى قوة .

والتفت باربارا إلى الوراء وقد صدمتها المفاجأة ، فلم تر الفتاة أمامها حتى وقفت مبهوتة وقد ألجم لسانها وجمد حراكها .

كانت هذه أول مرة تلتقى فيها الأم وبتتها وجهاً لوجه منذ أن اضطر لورنشو باركيرو إلى مغادرة تلك الدار ، وقد كانت باربارا تعلم حقاً أن ماريسيلا قد تحولت إلى فتاة أخرى منذ أن انتقلت لتعيش فى ألتاميرا ، ولكنها لم تتصورها بهذا الجمال ، وزاد ذلك من ذهولها وهى تتطلع إليها ، فضلاً عما أوقعته بها صدمة المفاجأة ، فبقيت لحظات تنظر إليها فى دهشة دون أن تجرؤ على القيام بأى شىء .

ولكنها تمالكت نفسها بعد ، فهمت بالانقضاض على الفتاة حتى تستعيد الخيط منها ، ولكن ماريسيلا قبضت بيديها عليه فى قوة وهى تصيح :

– أيتها الساحرة الخبيثة !

ولم تكد باربارا تسمع هذا اللقب المهين الذى لم يجرؤ أحد أبداً على أن يفوه به فى محضرها حتى اندلعت فى قلبها ثورة مستطيرة ... ثورة هذا الصراع الهائل بين التعود على الشر والطموح إلى الخير ، بين ما كانت هى دائماً وما تمت أن تصبو إليه حتى تظفر بحب سانتوس لوئاردو ... شعوران اصطدما فى روحها بعنف فاصطربا واختلطتا ، ثم انفجرت شظاياهما فى مزيج واحد مضطرب كأنهما كتلتان ارتطمت إحداهما بالأخرى ، فارتفعت أشلاؤهما فى الهواء ثم تهاوت إلى الأرض متناثرة فى كل مكان .

وكانت ماريسيلا خلال ذلك قد اندفعت إلى الرف الذى وقفت أمها أمامه ، وقذفت إلى الأرض بضربة واحدة من يدها كل ما كان قد اصطف عليه من صور للعذراء والقديسين وعود سحرية وطواطم مما كانت قد اجتلبته من قرى

الهنود ، ثم هذا السراج الذى كان يشتعل أمام صورة المسيح ، والشموع التى كانت ذبالاتها تتراقص وتضطرب ، بينما كان صوتها المبحوح يزمجر وقد خالطه الحنق والبكاء المكبوت :

- ساحرة خبيثة ! ساحرة خبيثة !

وتملكك باربارا نوبة من الغضب المسعور ، فانقضت وهى تزأر على الفتاة ، فقبضت على ذراعيها بقوة ، وحاولت أن تنزع الخيط من يديها .

وقاومت الفتاة بكل ما تستطيع من قوة ، وأخذ جسدها يرتجف بشدة تحت وطأة هاتين اليدين اللتين كانتا أشبه بأيدي الرجال قوة وصلابة ، وكانت ماريسيلا قد خبأت الخيط فى حجرها ، فامتدت يدا باربارا إلى أخذه منها عنوة ، وقد مزقت عن الفتاة قميصها فى غمرة ذلك الصراع ، فأنكشف عن ثدييها الناهدين ، وكادت باربارا تظفر بيغيتها أخيراً حينما انبعث من ورائها صوت يصيح فى لهجة أمرة جافة :

- اتركها !

كان سانتوس لوئاردو الذى بدا على عتبة الباب فى هذه اللحظة .

وأطاعت باربارا ، وإن كانت قد بذلت مجهوداً جباراً فى محاولة إخفاء مشاعرها وإلقاء مسحة من الهدوء والبشر على وجهها المشثوم ، ولكن الابتسامة التى اجتهدت فى أن ترسمها على شفيتها لم تبد إلا التواء كريهة كئيبة كأنها تعبير عن الأمل الخائب .

* * *

وكان الهياج الذى اضطرب فى روحها هذه الليلة من الشدة والعمق بحيث لم تتمكن من التفاهم مع «الشريك» نفسه !

جمعت باربارا من الأرض ما كانت ماريسيلا قد قذفت به من صور المسيح والقديسين وطواطم السحر وتعاويذه ، وعادت إلى صفها على رف

«المحrab» وبدأ السراج فى الاشتعال مرة أخرى ، وإن كان فتيله المضطرب لا ينفك ملقياً بفرقعات الشرر بحكم ما امتزج فيه من زيت وماء ، كانت الشعلة تتأود وتهتز بمئة ويسرة مع أن الغرفة محكمة الإغلاق ، والهواء راكد لا تهب فيه نسمة . وألقت باربارا مراراً بالدعاء الذى اعتادت توجيهه إلى «الشريك» فلا يلبث أن يسمع ويلبى النداء ، ولكن شيطانها لم يهرع إليها فى هذه الليلة ، فقد كانت الأحاسيس المضطربة تضطرب فى نفس باربارا جاثية ذاهبة دون أن تهتدى إلى توفيق بينها ، تماماً كما كان فتيل السراج يتطوح عن يمين وعن شمال ، فيقذف بالشرر المتطاير دون أن يوفق بين ما اختلط فيه من ماء وزيت .

وأقبلت باربارا مهدئة من أعصابها المضطربة وهى تقول لنفسها :

- هدوءاً ... مزيداً من الهدوء !

وبدا لها فى هذه اللحظة أنها تسمع عبارة كانت هى نفسها تفكر فيها وإن لم تشرع فى التفوه بها :

- كل شىء يعود إلى المكان الذى منه خرج .

كانت هى الجملة التى أوشكت على أن تلقى بها إلى نفسها حتى تهتدى من هذا الهياج الذى كان يعتل فى روحها ، ولكن «الشريك» كان قد انتزعها من بين شفتيها وسبقها إلى قولها بهذه النبرات الغريبة المألوفة فى وقت واحد كأنما هو صوت الإنسان نفسه حينما يتردد صدها فى سمعه .

ورفعت باربارا نظرها إلى حيث ظلها الذى انطبع على حائط المحراب ، ومن حوله ذلك النور المرتجف الذى ينبعث من السراج . ها هو ذا «الشريك» قد أقبل أخيراً وشبحة الأسود الطويل مرتسم فى ظلها القاتم ، وهى تدق النظر فلا تميز وجهه وهو ما تعودته من قبل ؛ إذ لم تستطع أبداً أن تبين له وجهها ولا ملامح ، ولكنها تشعر أنه هو ... قد أتى فى النهاية بعد أن ساقته إليها تلك الالتواءة الكريهة الكثيبة التى رسمت على وجهها مشروع ابتسامة فاشلاً .

وهي مقتنعة الآن بأن هذه العبارة التي تواردت إلى خاطرها ثم سمعتها تلقى عليها كما يعود إليها رجع الصدى إنما كانت مما فاه به الشبح الأسود الذي انتصب أمامها ، وكانت تريد أن يفرخ روعها وتهدا أعصابها بهذه الكلمات حينما كانت تحدث نفسها بها ، ولكن «الشريك» لم يكد يسبقها إليها حتى بدت لها كما لو كانت نبوءة رهيبة وكهانة تنذر بالشر ، فأقبلت ترددها في تساؤل قلق :

- كل شيء يعود إلى المكان الذي منه خرج .

إذن كان ينبغي عليها أن تعترف عن تلك الأحاسيس التي أتت بها من «الخميلة القائمة» يوم لقائها لسانتوس لوئاردو ؛ أكان عليها أن تنبذ هذه المشاعر الزائفة التي لم تكن إلا طائفاً عرض دون أن يعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة روحها ؟ أكان من العبث أن تفكر - كما فكرت - في اجتذاب سانتوس لوئاردو كما يمكن لأي امرأة عاشقة أن تجتذب إليها الرجل الذي تحب ؟ أكان عليها في أول الأمر أن تستحوذ على إرادته بنفس الصورة التي استحوذت بها على إرادة لورنثو باركيرو ، وإلا أزالته عن طريقها كما فعلت بجميع الرجال الذين حاولوا التمرد على نزواتها ورغباتها ؟

ولكن ... هل كانت مشاعرها تلك التي ولدت يوم لقائها بسانتوس لوئاردو زائفة حقاً ؟ هل يمكن أن تصف بالكذب هذا الإحساس بالرغبة في حياة جديدة نقية ؟ ألم تشعر به يجرف قلبها بنفس القوة الجائحة التي كانت تثور بها في نفسها الرغبات الشريرة والغرائز الخبيثة ؟ ألم تكن صادقة مخلصمة فيما اندفعت إليه بكل ما في طبيعتها من قوة وعنق من أمل في تطهير روحها حينما أرادت أن تدفن في نفسها تلك المرأة المشثومة ... تلك «الساحرة الخبيثة» كما دعتها ماري سيلا منذ قليل ؟

وكأنما انحل هذا الازدواج الذي كانت شخصية باربارا منطوية عليه ، فبدأ الجدل بين روحها ؛ بين ما كانت عليه دائماً وما كانت تطمح في أن تصبح إليه،

بين المرأة المشثومة الشريرة والمرأة الطيبة التى كان من الممكن أن تفتح فى نفسها لو لم تحصد حياة «أسدروبال» تلك الطلقة النارية التى انبعثت من بندقية «الضفدع» ، بين المنطقة المظلمة التى كانت تتراءى لها فى نفسها وقد لاح فى ظلامها الدامس شبح رجل قضى عليه سحرها الأسود وشبح آخر يهوى ليديه وفمه فى قاع حفرة ، وقد غاصت فى ظهره حربة دامية ، وبين المنطقة الأخرى التى أشرق فيها ضياء حب طاهر على ظهر قارب القراصنة ، وإن كان كومىض البرق لم يدم إلا لحظات ؛

- أعود الحية إلى الثوب الذى انشق عنها ؟ أعود ماء النهر إلى منابعه ؟

- بل يعود الثور إلى حظيرته ، ويعود التائه إلى المشرق الذى ضل عنده الطريق ! .

- فى مجاورة «الخميلة القائمة» ؛

- لا بل بين أذرع القراصنة .

وما كان لأحد أن يميز بين ما تلقىه هى من سؤال وما ينطق به «الشريك» من رجوع الجواب ؛ إذ إنها هى نفسها لم تكن تدرى المكان الذى ضلت فيه الطريق ! .

كانت باربارا تبحث عن نفسها فلا تجد إلا الاضطراب والحيرة ... كانت تريد أن تسمع ما ينصح لها به «الشريك» ، ولكنه لم يكن يشرع فى الكلام حتى تصوغ هى عليه الجواب ، فكانت الجملتان تتعاقبان وتزاحمان وهى تحس بكليتهما كما لو كانتا صوتاً نابعاً من أعماقها ، ولكنها تسمعهما كما لو كانتا آيتين من مكان غريب بعيد ، وكأن تفكيرها قد تحول إلى أمواج عصف بها مد وجزر مصطخب هائل يندفع ما بينها وبين الشبح الأسود .

وكان ذلك أمراً غريباً جديداً عليها ، فقد كانت تعهد في «شريكها» الشيطاني أن تكون نصائحه ونذره صريحة واضحة كما لو كانت نابعة من تفكير ليس بينه وبين تفكيرها أدنى علاقة ، وكانت كلماته تنبعث كأن لساناً آخر ينطق بها ، فيميزها سمعها ، معبرة عن أفكار لم تخطر لها قط على بال ، أما الليلة فإنها تحس بأن ما تقوله وتسمعه إنما هو منطلق من قرارة نفسها وباطن روحها ، ومع ذلك فقد كانت العبارات تبدو لها مستغلقة لا سبيل إلى فهمها ، كأنما لم تعد لها صلة بتلك الألفاظ بمجرد أن يهمس بها «الشريك» ! .

وهمست باربارا قائلة :

- هدوءاً ... مزيداً من الهدوء ! فإننا لن نستطيع التفاهم على هذه الصورة !
ودفنت جبهتها المتوقدة ما بين يديها الباردتين ، وظلت هكذا فترة طويلة وهي جامدة التفكير .

وقذفت ذبالة السراج بالشرر ، وهي تنتفض انتفاضة أخيرة قوية في طريقها إلى الانطفاء ، ووصل إلى أذنى باربارا المبهورتين صوت واضح متميز :
- إذا أردت أن يأتى هو إليك فأدى الرسالة وسلمى الأمانة !

ورفعت من جديد نظرها إلى حيث ظلها المرتسم على الحائط ، فقد حدثها الشبح أخيراً بشيء لم يكن يدور في خيالها ... ولكن السراج كان قد انطفأ ، وتحول كل شيء من حولها إلى ظلال ...

القسم الثالث

الفصل الأول

شيطان المروج

«ملكياسدس جامارا» رجل لا يرى بأساً في أن يكلفوه بالعمل المتواصل عاماً كاملاً بدون أن يتقاضى أجراً ، إذا كان واثقاً من أن عمله سيعود بالضرر على أحد ، فإذا عهد إليه بشيء لا يترتب عليه أذى ولا مضرة فإنه سرعان ما يمله ويسأله مهما أوسع له في الجزاء وضوعف في الأجر ، ولهذا فقد كان أكثر أعماله براءة وأقلها أذى هو ما تعهد به إليه السيدة باربارا في بعض الأحيان من «سحر الخيل» .

ويتألف هذا العمل من مفاجأة قطعان الخيول الوحشية النائمة في أطراف المروج ثم مطاردتها خلال الليل بل خلال أيام وليال متصلة إذا لزم الأمر ، حتى يضطرها إلى سلوك طريق تؤدي بها إلى «حظيرة زائفة» في سفح الجبل يكون قد غطاها بفروع الشجر والسعف حتى تظنها الخيل ملجأ يحميها من الطراد ، فتدخلها دون أن تعلم أنها قد وقعت في الشرك الذي أعد لها ، وكان ملكياسدس جامارا هو الذي ابتكر هذه الطريقة أو أول من أدخلها في مروج هذه الناحية . ولما كان معروفاً كذلك بأنه ضرب في السحر بسهم فإن الناس هناك كانوا يطلقون على صيد الخيول الوحشية بهذه الطريقة اسم «سحر الخيل» أو «تأريقها» .

ثم إنها كانت وسيلة عظيمة الجدوى في استنفار الخيول التي ترعى في الضياع المجاورة والاستيلاء عليها سائقةً إياها إلى أرض السيدة باربارا دون أن يتمكن أحد من اكتشافه ، فقد كان دائماً يتخذ الليل ستاراً لمثل هذا العمل .

وكانت ضيعة ألتاميرا قد استراحت من غزوات «الساحر» وحملاته على خيولها منذ أن قدم سانتوس لوثاردو بحكم الهدنة التي التزمت بها السيدة باربارا التي رأت أنها نافعة لها ريثما تعد خططها لاستمالة لوثاردو والاستحواذ على حبه . وهكذا ظل ملكيادس فى عطفة رأى الأيام تمتد بها مورثة إياه الملل والضجر ، وبلغ به ما ران على نفسه من الصدا وما حل به من الضيق والخمول أنه كان يفكر فى ترك الخدمة فى «ضيعة الرعب» وفيما هو يحدث نفسه بذلك إذ أقبل عليه بالينو باييا يبلغه أمر السيدة بأن يعود إلى سابق نشاطه .

- لقد أرسلتنى السيدة إليك تأمرك بأن تستعد للخروج إلى العمل فى نفس هذه الليلة ، فهى تقول إن فى مرج «الركن العميق» قطيعاً طيباً يصلح لشن حملة ناجحة .

ولكن ملكيادس لم يكن ليروق له أن تبعث السيدة بأوامرها إليه مع بالينو ، فنظر إليه فى ريبة وتشكك وسأل :

- وهل هى قادمة من تلك الجهة ؟

- لا ، ولكنك تعلم أنها لا تحتاج إلى رؤية الشئ بعينها حتى تعرف وجوده من عدمه .

والحق أن الذى رأى ذلك القطيع الطيب من الخيل لم يكن إلا بالينو نفسه منذ قليل ، ولكنه لم ير بداً من أن يدلى بذلك التفسير جرياً على التقليد المتبع بين جميع وكلاء السيدة باربارا ومديرى أعمالها حتى لا يفتر إيمان خدمها وأتباعها لحظة واحدة فى قدرتها على السحر والقوى الخفية التى تعينها .

ولكن الوضع بالنسبة إلى ملكيادس كان يختلف ؛ إذ «ما كان لكلب أن يأكل كلباً مثله» على حد قوله ، وما كان لأحد أن يصوغ عليه مثل هذه القصص المخترعة عن سحر السيدة باربارا ، فقد كان أدرى الناس بحقيقة كل ذلك ، وهو لم ينكر أبداً أن السيدة لم تكن تخلو من براعة وحكمة

فى بعض ما ينسبون إليها ، ولكن هذا شىء وما ظنه بالبينو من أنه يستطيع الخلط بينه وبين خوان برميتهو شىء آخر ، وبين الأمرين بون شاسع بعيد ، ثم إنه لما كان بحاجة إلى الإيمان بقوى المرأة السحرية حتى يقبل على خدمتها فى تفان وإخلاص ، فقد كان ملكيادس رجلاً كأنه لم يخلق إلا ليكون «حامى ظهر» ، وهو عمل لا يصلح له أى رجل ، بل لا يقوى عليه إلا قلة ينبغى أن يتوافر فيهم شرطان لا يكادان يجتمعان : جمود إحساس مطلق ، ثم إخلاص فوق مستوى الشبهات ، وهكذا كان الرجل يخدم السيدة باربارا ، لا باعتباره «ساحر خيول» ؛ إذ إن ذلك فى الواقع يمكن أن يضطلع به الكثيرون ، وإنما فى أشياء أخرى أجل وأخطر ، وما كان يسعى فى ذلك إلى أجر يتقاضاه ، أو ربح يكتسبه ، وإنما هى هواية واستعداد فطرى ، «فحماية الظهر» ليست عملاً ، وإنما هى وظيفة طبيعية وهبة لا تكتسب .

أما بالبينو باييا فلعله كان على طرف نقيض من ذلك ، فهو رجل لم يكن يفكر إلا فى الانتفاع من عمله بقدر ما يستطيع ، وكان خائناً بطبعه ، هو نوع آخر من الرجال كان ملكيادس يشعر نحوهم بأعمق الاحتقار .

- حسناً ، إذا كان هذا هو أمر السيدة فإننى سأأخذ الأهبة لذلك فى هذه الليلة ، ولما كان ما بيننا الآن وبين «الركن العميق» مسافة ليست بالقصيرة ، والساعة الآن تشرف على التاسعة ، فإننى سأقوم بإسراج جوادى فى نفس هذه اللحظة .

وحينما شرع ملكيادس فى التحرك للسير خرج له بالبينو مرة أخرى فقال له :

- انظر يا ملكيادس ما إذا كنت تستطيع أيضاً فى طريقك أن تستاق لى بعض هذه الخيول فتدخلها إلى حظيرة «لاماتيكا» . وليس ذلك لشيء إلا لرغبتي فى أن أدبر «مقلباً» للدكتور لوئاردو ، ولكن لا تقل شيئاً عن هذا للسيدة ؛ إذ إننى أريد أن أدخل إلى قلبها السرور بمثل هذه المفاجأة .

وكانت حظيرة «لاماتيكا» هي التي اتخذها بالينو مستودعاً لما كان يسرقه من السيدة باربارا من ماشية وحيوان ، وكان الناس هناك قد اعتادوا أن يطلقوا على هذه السرقات لفظ «التنظر» مشتقة من لقب «ناظر الضيعة» ؛ إذ كان هو القائم باقترافها من الضيعة التي يعمل وكيلاً عن صاحبها في إدارة أعمالها .

ولم يكن بالينو يجسر أبداً على التلويح للمكيادس بمثل هذا الاقتراح ، ولهذا فقد أتاه الجواب سريعاً حاسماً :

- لقد أخطأت التقدير يا سيد بالينو ، فأنا رجل لم يعجبني «التنظر» قط !

قالها ملكيادس وأدار ظهره لمحدثه ، ثم مضى في المرح على صهوة حصانه في تباطؤ ، فقد تعودت الدابة على أن تحمل على ظهرها طاقة الهدوء الرهيب المنذر بشر البلاء مستقرة في نفس ذلك الرجل الذي لم تكن هناك قوة في الأرض تستطيع إثارته أو حمله على الإسراع والعجلة .

أما بالينو فقد امتدت يده إلى شاريه يربت عليهما في غيظ كما كانت عاداته ، وتمتم بكلمات لم يستطع تبيينها بعض رجال الضيعة ممن كانوا ينظرون إلى المشهد القصير وقد تبادلوا نظرات شامته مأكرة .

وبلغ «الساحر» مرج الركن العميق ، وهناك رأى قطع الخيل الذي حدثه عنه بالينو وهو مستلق على منخفض من الأرض ، وكان قطعاً كبيراً قد استسلمت أفراسه ومهواره للنوم على أعشاب المرج مطمئنة إلى ما اضطلع به الفحل زعيم القطيع من حراسة نصب لها سمعه الحاد .

ولم يشعر هذا باقتراب الرجل حتى أطلق صهلة قوية ، فانتصبت الأفراس والمهار على قوائمها بسرعة ، وهبهب بها ملكيادس حتى تتوجه في فرارها إلى «ضيعة الرعب» .

وكان ضياء القمر - قمر السهول الذي يذهب بالعقول - قد زاد هذه الخيول هياجاً وجموحاً ، فمضت راکضة في دعر ، وقد أطار عنها النوم هذا

الفارس الذى يطاردها فى صمت وهدوء ، وقد زاد من رعبها وهلعها عناده وإصراره فى تعقبها . كان ملكيادس قد ألقى عليه ملحفته الثقيلة لتحميه من برد السحر ، وسار وراء القطيع فى خطوات بطيئة منتظمة دون أن يستحث حصانه أو يزيد من سرعته ، فقد كان على ثقة من أن القطيع سيتوقف بعد أن يظن نفسه قد أصبح بمأمن من المطاردة .

وهذا ما حدث بالفعل ، فلم يلبث ملكيادس أن لحق بالقطيع ، فوجده قد أخلد مرة أخرى إلى النوم ، وعاد القطيع إلى الجرى فى أنحاء المروج ، ولكن «الساحر» كان يلحق به فى كل مرة ، فيستبد الذعر بالخيول ، ولا تجرؤ بعد ذلك على الاستلقاء فى اطمئنان وهدوء ، بل كانت تتوقف فى ترقب وانتظار ، وكان الفحل يسير فى الطليعة تتبعه كتلة واحدة تجمع بين المهار والأفراس ، وقد مدت أعناقها ونصبت آذانها تنظر إلى ذلك الشبح الذى كان ظله يدنو فى تباطؤ وصمت ، كان ظلاً هائلاً أسود قد انطبع على السماء المشرقة التى سطع فيها ضوء القمر ، وهكذا مضت تلك المطاردة طوال الليل كله .

ولم يكد نور الفجر يطل على الأفق حتى كان ملكيادس قد تمكن من سوق القطيع إلى ركن من أركان المرج كان قد أعد فى طرفه الأقصى طريقاً فى منحرج سفح الجبل قد غطى جانبيه بالغصون والسعف حتى يبدو كأنه المخرج الضيق الوحيد من المرج ، بينما هو يؤدي فى الحقيقة إلى «الحظيرة الزائفة» ، وهى مكان كان قد أحاطه بأسيجة من خشب بالغ فى تغطيتها حتى لا تبدو شركاً للخيول الوحشية المذعورة . ومضى القطيع فى ذلك الطريق الضيق دون أن يشعر بالخدعة التى أعدها «الساحر» ، أما هذا فقد استحث جواده من ورائه حتى لا تحيد الخيول عن ذلك الفخ الذى نصبه .

واقترح القطيع ذلك الطريق يقوده الجواد الفحل ، غير أن هذا لم يلبث أن فطن إلى قطعة من السياج كان قد انكشف عنها ما غطاها من الفروع والسعف ، فتوقف بغتة ، ثم أطلق صهلة قصيرة ، واندفع راجعاً إلى حيث

خلف المرج الفسيح ، وفهمت الأفراس ذلك النذير ، فغيرت اتجاهها وأقبلت ورائه ، غير أن «الساحر» اقتحم القطيع الهارب مهجهجاً به حتى لا يولى أدباره ، وتمكن فعلاً من سوقه مرة أخرى إلى الشرك المعد ، ولم يستطع الإفلات إلا الفحل واثنان من أفراسه ، أما ملكيادس فقد أقفل باب الحظيرة وابتعد عنها بعد أن اطمأن إلى أن الأفراس والمهور قد بقيت حبسة تضطرب فيها حيناً إلى أن يفرخ روعها ويقر قرارها .

ورأى الرجل فى مسيره كيف وقف الفحل الهارب فى الطرف الآخر من المرج وقد مد عنقه ونظر إليه متحدياً .

وتوقف ملكيادس فتأمل له لحظات ثم هتف :

- يا له من دابة رائعة ، وفحل شديد السطوة . إن قطيعه هو أكبر قطع تمكنت من اقتناصه من خيول التاميرا ، فلأحاول الآن أن أتخذ من أناته الحبيسات شركاً للإيقاع به ، فإنى أرى شهوته إليهن ستسوقه إلى العودة لا محالة .

ولكن «ذا القوائم السود» لم يكن قد توقف إلا لينظر إلى مطارده فى تحد وحنق ، وقد ارتجفت عروقه وأعصابه تحت جلده اللامع ، واحمرت حدقاته ، وامتدت أشفاره ، ثم لم يلبث أن استدار وأخذ معه الفرسين اللتين تمكنتا من النجاة معه بعد أن انطبعت فى ذاكرته صورة «شيطان المروج» ، وتولى منصرفاً لا يلوى على شىء .

وقال ملكيادس لنفسه فى اطمئنان :

- إن هذا الماكر قد نجا بجلده ، ولكنى على ثقة من أنه سيعود باحثاً عن إناته بعد قليل ، فليأت أحد من رجال الضيعة لكى يكمن له هنا ويترصده عند قدومه ، أما أنا فقد أتممت ما كان على أن أقوم به ، وأنا أستحق الآن نصيباً من النوم .

وكانت «الحظيرة الزائفة» فى أرض ضيعة الرعب غير بعيدة عن بيوت الضيعة وأكواخها ، ولهذا فإنه لم يمض وقت طويل حتى كان ملكيادس قد وصل إلى هناك . وخرج إليه بالبينو الذى كان ينتظره حتى يرجوه أن يفض النظر عن الاقتراح الذى كان قد عرضه عليه فى البارحة قبل أن يلقى ملكيادس الخبر إلى السيدة باربارا ، ومن أجل ذلك لم يكذب بالبينو يراه حتى هرع إليه يستقبله فى تودد وحفاوة على صورة لم تعهد قط بين الرجلين .

ولكن ملكيادس أجابه بجفائه المعهود فى الكلمات القليلة التى قلما كان يولى مخاطبه شرف توجيهها إليه :

- مر بعض الرجال بأن يترصدوا الفحل بأناشيظهم قريباً من مكان الحظيرة ، فقد تمكن من الهرب ، ولكنى على يقين من أنه سيعود للبحث عن أفراسه محاولاً إخراجهن ، وهو جواد يستحق أن تبذل الجهود من أجل اقتناصه ؛ إذ هو من أجمل ما رأت العيون ، ولست فى شك فى أنه سيعجب السيدة ، وأنها ستأخذ لركوبها .

على أن حديث ملكيادس أثار فى نفس بالبينو الرغبة فى هذا الجواد دون أن يراه لا لكى يدفع به إلى السيدة ، بل لكى يحتفظ به لنفسه ، فما رأى ملكيادس منصرفاً عنه حتى أسرع وحده إلى حيث كانت الحظيرة الزائفة ومعه أنشوطته .

ولكن «ذا القوائم السود» كان قد عرف كيف يأخذ بثأره ، إذ لم يكذب يتعد عن المرج الذى أسرف فيه قطيعه حتى رأى - وهو بعد فى ضيعة الرعب - قطعاً آخر لا يقل عدد أفراسه عما فقد ، وهو يرعى فى هدوء وأمن تحت أشعة الفجر الرقيقة ، ومهاره تتلاعب وتتوثب من حول أمهاتها .

ولم يتلبث «ذو القوائم السود» ؛ إذ ركض إلى القطيع وهو يعلن إلى فحله فى سهيل متقطع أنه منقض عليه بنية القتال حتى يخلص القطيع لمن تكون له

الغلبة ، أما الآخر فكان جواداً أشهب بين الشراسة ، فلم ير غريمه قادماً حتى جمع أفراسه ومهاره المتفرقة فى أنحاء المرج بسرعة ، وانتصب فى طليعتها منتظراً الهجوم المتوقع .

وانقض «ذو القوائم السود» انقضاض الصاعقة ، وكان له التفوق على خصمه بحكم بدئه بالهجوم فضلاً عن أن الغيظ كان مستبداً به بسبب ما تعرض له من حرمانه من أفراسه ومهاره ، فزاد ذلك من حميته وضاعف من استبساله ، واشتبكت قوائم الجوادين فى هذا الصراع العنيف وقد أثارا حولهما عاصفة من الغبار ، وانطلق من جوفيهما صهيل الحرب ، واصطك فكا «ذى القوائم السود» فى الهواء ، ثم أدرك بقائمتيه عنق الجواد الأشهب ، وثنى عليه بعضة موجهة أصابت ظهره ، ثم أخرى دون أن يدع له فرصة استجماع قوته أو الاستعداد لرد الهجوم .

وبدأت قوائم الجواد الأشهب تنوء بحمل جسده ، وتمكن غريمه حينئذ من إطباق فكيه مرة أخرى على جسده ، ثم هزه فى عنف وشدة ، وأخيراً استطاع الجواد الأشهب التخلص منه ، فأطلق ساقيه للفرار .

وتعقبه «ذو القوائم السود» مسافة ، حتى إذا تأكد له النصر عاد إلى حيث كانت الأفراس ترقب مشهد القتال بين الجوادين فى صمت وجمود ، فهجم عليها ودار حولها وهو يبرز لها نواجذه ، ثم استاقها إلى حيث وقفت فرسائه اللتان نجا بهما من شرك «الساحر» فضمهما إليها ، وانطلق يركض بقطيعه الجديد عائداً إلى حيث كان مرعاه المعتاد فى أرض التاميرا .

أما الجواد الأشهب فقد تبع غريمه من بعيد ، وأخيراً بقى واقفاً وحده فى وسط المرج ، وهو يجتر مرارة الهزيمة وينظر إلى قطيعه المسلوب وهو يثير عاصفة من الغبار فى ركضه مع الفحل الذى استبدله به ، ثم عاد يجر أذيال الخيبة .

وعاد ملكيادس بعد ذلك بليال إلى مطاردة كلفته في هذه المرة أشد العناء ، كان قد خرج في تلك الأمسية ليكرر حملته الماضية في أرض التاميرا وهو مصمم على أن يخرج منها بغنيمة من الخيول ، فقد كان يريد أن يسطو على كل قطعان الضيعة المجاورة من الجياد والأفراس الوحشية ، وقضى «الساحر» الليل كله في تلك المطاردة ، ولكن مجهوده باء بالفشل ؛ إذ إن الجواد زعيم القطيع الذي كان الرجل يتابعه كان من المكر بحيث عمل على تجنب أدغال الحشائش مؤثراً الهروب بقطيعه في المروج الفسيحة المنبسطة وهو يعدو بسرعة . ثم إن موجة من الضباب هبطت على السهول فلم تمكن ملكيادس من رؤية القطيع حتى من مسافة قريبة ، وانقضى الليل كله ، فلما أشرق الفجر تبين «الساحر» أن القطيع قد عاد إلى نفس المكان الذي بدأت مطاردته فيه ، وحقق الرجل النظر فإذا به يرى أن زعيم هذا القطيع كان هو نفسه «ذا القوائم السود» الذي استطاع مرة أخرى أن يسخر بمطاردته .

وكانت هذه هي أول مرة يغرر فيها «بالساحر» حصان . وبدا له ذلك أمراً يدعو إلى التطير والتشاؤم ، فذهب إلى السيدة باربارا ليلقى إليها بخبره . وأولت هي القصة بينها وبين نفسها تأويلاً لا يقل تشاؤماً ولا طيرة ، فقد ذكرتها بما قال لها «الشريك» :

- كل شيء يعود إلى المكان الذي منه خرج !
ومع ذلك فقد التفتت إلى الرجل وصاحت في وجهه بعنف :
- وأنت أيضاً يا ملكيادس ؟ تدع القطيع يفلت من بين يديك هكذا دون أن تصنع شيئاً لتجنب ذلك ؟ ما أصح ما سيتأوله الناس بعد ذلك من أن في التاميرا اليوم رجلاً لا يهاب «شيطان المروج» ولا يحفل به ! ...

وكانت هذه الكلمات تشف عن تضارب العواطف والانفعالات التي كانت تموج في نفسها . أما ملكيادس فقد تلقاها في هدوء دون أن يطرّف، ثم قال لها في بّطء :

- إذا أردت أن تتحقّقى من أن ملكيادس جامارا لم يداخله أبداً الخوف من رجل آخر مهما بلغ فما عليك إلا أن تقولى له : «إيتنى بهذا الرجل حياً أو ميتاً !» .

ثم أدار لها ظهره وانصرف .

أما السيدة باربارا فقد ظلت ساهمة تفكر كما لو كانت تحاول أن تفسح مكاناً بين انفعالتها العاصفة لخطّة جديدة سوداء .

الفصل الثانی الزوابع

لم تكن هي زوابع الغبار وذيول الدخان التي كانت تصطرع بين ربي المروج ، والتي كان سانتوس لوئاردو يتأملها في بعض الأيام وقد غرق في حلم جميل ؛ إذ كان يتخيلها كما لو كانت زوابع الغبار والدخان التي يتركها القطار وهو يشق السهول بشيراً بدخول الحضارة إلى ربوعها ... لا ، لم تكن هذه الزوابع باعثة الأمل والرجاء ، بل أخرى تسحب وراءها ذيول الشؤم ، فتعصف بالأمل ، وتلوى بالرجاء ! ...

ها هي ذي ماريسيللا لم تعد بعد تلك الروح الضاحكة اللعوب التي تملأ البيت بهجة ومرحاً ، لقد عادت في تلك الليلة من ضيعة الرعب كسيرة خافضة الرأس ، وكان سانتوس قد أنبها على ما فعلت ، ولكنه عاد بعد ذلك يحاول استرضاءها والتخفيض عنها بقوله :

- والآن وقد انتهينا من التوبيخ والعتاب . ارفعي رأسك إذن وانفضي عنك ما بنفسك . إن الشيء الوحيد الذي جانبك فيه التوفيق والصواب هو أنك منحت ثقتك وتصديقك لمثل هذه الشعورات السخيفة الهاذرة ، ما كنت أنتظر منك أن تعتقدي في أي شر يمكن أن تلحقه بي قطعة الخيط هذه التي عدت بها من هناك . أما فيما بقي فقد كان موقفك فيه نبيلاً شجاعاً ، وعلى أن أقدم إليك شكرى من أجله ، فإذا كنت تدافعين هكذا عن ذلك الخيط الذي أخذ به مقياس قامتي فكيف بك إذا تعرضت حياتي لأي خطر ؟ ! ...

ولكن جهود سانتوس ذهبت أدراج الرياح ؛ إذ ظلت ماريسيلا صامته حزينة خافضة الرأس ، فقد أتت من «ضبعة الرعب» بتجربة أزال ذلك السحر الذى كانت حياتها تقوم عليه .

أما قبل أن تعرف سانتوس لوئاردو فإنها كانت تعيش فى سحر كفه الجمود المتوحش الذى لا يعى ولا يحس ، والظلام الأسود الذى كانت تقبع فيه روحها المدفونة ، وأما بعد أن عرفت أنه فقد انتقلت كذلك إلى عالم مسحور تومض فيه إشراقة من حياة جديدة ومتعة بذلك الحب الذى كان أشبه ما يكون «بشعور لا اسم له» ، فقد كان يرتكز على توازن متأرجح بين الحلم والحقيقة ، وهى على أية حال لم يخطر لها من قبل أبداً أن تفكر فيما يمكن أن يعنيه كونها بنتاً «للساحرة الخبيثة» .

لقد كانت فى المرات النادرة التى كانت تشير فيها إليها لا تذكرها إلا بلفظ «هى» ، كلمة لم تكن توقظ فى قلبها أى شعور : لا حب ولا كراهية ولا خجل . وكانت أول مرة أطلقت عليها اسم «الأم» فيها هى التى اقترحت بمناسبتها على «باخاروتى» أن يرافقها إلى «ضبعة الرعب» ، ومع ذلك فقد بذلت كثيراً من الجهد حتى تلفظ شفتاها هذه الكلمة التى لم تتعودها ، والتى عريت فى نظر ماريسيلا من كل شعور كما لو كانت لفظاً غير ذى معنى .

أما الآن فقد تغيرت الأحوال . إن لفظ «الأم» يلح عليها إلحاحاً شديداً ، ولكنه يحمل إليها كل ما كانت تراه فى أمها من شر وخبث ، فكانت لا تذكره إلا ملأ نفسها شعور من الاشمئزاز والكراهية . لقد كانت روح ماريسيلا طاهرة لم تتلوث ، ولكنها لم تعد - كما كانت - مثل الطبيعة التى لا تعرف التمييز بين الخير والشر ، لا ... لقد تغيرت ماريسيلا فأصبحت تحس بمدى ما فى كونها ابنة لساحرة الرجال من فظاعة وهول ، وهى تنفر نفوراً شديداً من هذه الحقيقة ، وتود لو لم تكن ، ولا سيما بعد أن زاد الطين بلة أن «أمها» - هذه المرأة المشؤمة - كانت تنازعها فى الحب الوحيد الذى خفق به قلبها .

ولكن هذه الفكرة الكريهة التى كانت لاتكف عن ملاحقة ماريسيلا والمثول فى مخيلتها البريئة لم تلبث أن أدت بها إلى الإحساس بشعور من العطف والرثاء لهذه المرأة . ألم تكن أمها أيضاً ضحية للظروف والمجتمع؟ ومهما كان من أمر فإن السحر الذى كانت تقوم عليه حياة ماريسيلا قد زال وبطل عمله ، والتوازن المتأرجح بين الحلم والحقيقة لم يعد له مكان . لم يبق هناك موضع لأى حلم ، بل هى الحقيقة المرة القاسية التى ليس لدفعها من سبيل .

وكان سانتوس فى هذه الأثناء لا يكف كذلك عن التفكير ، وفى يوم من الأيام قال لها :

- أريد أن أتحدث معك يا ماريسيلا حديثاً صريحاً .

وظنت هى أنه يهم بأن يقول لها ما كانت تريد أن تسمع ، فسارعت إلى مقاطعته قائلة :

- يا للموافقات ! لقد كنت أنا أريد الكلام معك أيضاً . إنى أود أن أعبر لك عن شكرنا : أبى وأنا على كل ما فعلته من أجلنا ، ولكن أبى يريد العودة إلى داره فى «مرج النخيل» ، وأنا كذلك أريد أن تسمح لى بالذهاب .

- وإذا رفضت السماح لك به ؟

- سأذهب على أية حال .

ثم انخرطت فى البكاء ، وفهم سانتوس ، فأخذ يديها بين راحتيه وقال لها فى رفق :

- تعالى هنا وحدثينى بصراحة : ما الذى حل بك؟

- لاشئ .. إلا أننى ابنة «الساحرة الخبيثة» .

وكانت عبارة احتجاجها حقيقة لاتبعد عن الواقع ، ولكن الفتاة نطقت بها فى قسوة عارية أحدثت فى لوئاردو من الانقباض والألم ما كان يولده فى نفسه تفكيره فى خلو قلبها من الرقة والحنان والبر ، وأطلق راحتي الفتاة من بين كفيه ، فى حركة آلية فانطلقت جارية إلى غرفتها ، وأغلقتها عليها بالمفتاح .

وعبثاً حاول سانتوس فى ذلك اليوم أن يطرق باب الفتاة ليكمل معها المحادثة المبثورة ، ولم تحاول هى من جانبها أن تواصلها ، فقد لازمت غرفتها المغلقة لاتخرج منها أبداً طالما علمت أنه فى الدار .

ولم يعد فى وسع كلمات سانتوس الملائقة المسترضية - حتى ولو عبر لها عن مبادلته إياها شعور الحب - أن تزيل عن نفسها الاعتقاد بأن كل ذلك ليس إلا تعويضاً وصل متأخراً عن ذلك الظلم الفادح الذى صبه عليها القدر حينما ألقى بها جنيئاً فى بطن «ساحرة الرجال» الملعونة !...

* * *

وفى هذه الأثناء كانت زوابع الشؤم أيضاً تعصف - خارج البيت - بالآمال التى وضعها سانتوس فى موارد الضيعة وثروتها .

كانت تجربة «مصانع الجبن» تبشر بالخير ، فقد تزايد عدد رء وس الماشية التى اقتضت المصانع استئناسها ، حقاً إنه كان على البقارين أن يتولوا قيادتها إلى المصانع وحراستها حتى لاتعود إلى النشوز ، ولكن عدد الأبقار التى كانت تمضى وحدها طيعة ذلولة إلى المنجابين كان فى ارتفاع مطرد ، بل إن كثيراً منها اعتاد على الأسماء التى وضعت لكل منها فأصبحت لاتسمعها حتى تجيب النداء ، ولم يعد التوحش والنفار بها إلى الشح بلبنها وإخفائه فى ضروعها .

كان حلب الأبقار يبدأ مع تصايح الديكة فى ساعة السحر . وكان «خسوسيتو» البقار حفيد «ريميخيو» يجلس محتبياً مستدفئاً بشيابه التى ضمها عليه لدى باب حظيرة العجول الصغيرة ليحول بينها وبين الخروج إلى أمهاتها

إلا عند ندائها ، بينما يدخل الحالبون إلى حظيرة البقر ، وفي أيديهم الوطاب
وأدوات الحلب ، وأغنية سرعان ماتنطلق من بين شفاههم يستحنون بها الأبقار
ويستدرون لبنها :

ياشعاع الفجر هبنى منك شيئاً من سنا
وأضئ بالله خطوا ت حبيب ظعنا

ويردد الصبي البقار بصوته الرقيق على روى المقطوعة :

- ياسنا ... ياسنا ... ياسنا !

وتتعرف البقرة على الاسم الذى وضع لها والذى ناداها به البقار ، فتخور
منادية عجلها ، ويسرع هذا بتلبية النداء ، فيدخل رأسه بين خشب السياج
الفاصل بين حظيرته وحظيرة أمه ، ويفتح الغلام ذلك الباب الخشبي حتى
يتمكن من الخروج إلى حيث أمه ، فيطبق بفمه على ضروعها ، فتحن وتدر
اللبن ، بينما يغتنم الحالب الفرصة ، فيبدأ العمل مائلاً وطابه من اللبن الدافئ
وهو يربت بيده على جسد البقرة ويقول :

- أدري ياسنا ... أدري ! ...

وتتنفخ ضروع البقرة ، ويلتف العجل الرضيع حول رجل أمه ملتصقاً بها ،
بينما تداعبه هي فى حنان لاعقة جسده بلسانها ، ويدا الحالب فى حركة دائبة
تتركان وعاء من اللبن بعد امتلائه لتماماً غيره .

وتتردد فى جو الحظيرة أغنية أخرى :

إن الذى يشرب ماء ثوى فى بؤرة مخبوءة آجنه
لم يدر إن كان ارتوى طيباً أو استقى من مائها منتنه
كالمبتنى بامرأة أرضها غريبة ، مجتنباً موطنه
لم يدر إن كان بها مؤوياً قرينة للسوء أو محصنه

ويعود الغلام البقار إلى نداء بقرة أخرى على روى الأنشودة :

- سوسنه ! سوسنه !

فتهرع البقرة التى اعتادت اسمها وألفته إلى حيث كان الحالب حتى تضع
ضروعها بين يديه .

وتتردد فى جو الفجر البارد أصوات الحالبين هازجة بمقطوعات أناشيدهم
وهى تشق صمت المروج ، بينما تفوح فيها روائح روث الماشية ، وتبدأ أشعة
الصباح فى الانسكاب على السهول ، فتموج فيها الأصوات والروائح المختلطة :
نفحات الأعشاب التى رطبته ريح السحر الباردة ، وشذا الزهور البرية الزكى
النافذ ، ونعيب الطيور المائية المحومة على الجبل المطل على ضفاف القناة ،
وأذان الديكة مبشرة بقدوم الصباح ، وهديل بلابل السهول الرتيب ..

وفى المساء تعود قطعان الماشية إلى الحظائر ، وأشعة شمس الأصيل
تستلقى فى ثناقل على بساط المروج ، ومن ورائها حداء الرعاة وأغانيهم... لقد
حفلت ضروع البقر ، وفى الحظيرة الصغرى حيث تتزاحم العجول الرضيعة
مشافر رقيقة ظامئة متلهفة . و«ريميخيو» ينظر إلى الضروع المنتفخة ثم يقدر
حساب مقادير الجبن التى سينهيا لها إعدادها . أما حفيده الصغير خسوسيتو فهو
جالس يراقب باب الحظيرة ، ويتأمل المروج الواسعة ، وينصت إلى أغاني الرعاة ...
أغانٍ مستطيلة النغمات ، وألحان هى وليدة هذه الأرض الفسيحة الموحشة !

ولكن ريميخيو أقبل يوماً على سانتوس ، وقد أظلمت أسارير وجهه ، ثم
جلس فى صمت .

وسأله سانتوس :

- ما الذى أتى بك يا عم ؟

فأجاب الشيخ فى صوت عميق متهدج بطىّ النبرات :

- لقد أتيت لأنهى إليك أن النمر قد افترس حفيدى الصغير فى ليلة
الأمس ، كان الحالبون قد ذهبوا إلى حفلة من حفلات رقص «الخوروبو» وبقينا
فى «المجينة» أنا وخسوسيتو وحدنا ، ولم أستيقظ فى منتصف الليل على
صرخة الصبى حتى كان كل شىء قد انتهى ، فإن النمر كان قد ذبحه بضربة
قاتلة من قبضته ، وتمكنت أنا من طعنه بحربة ، وأصبح الصباح على جثتى
الصبى والوحش ممددتين ... لقد أتيت لأبلغك أنه لم يبق لى من أعمل من
أجله .

- نعم ... دع المجينة يا ريميخيو . إنه ليس فى الضيعة من يستطيع التكفل
بأمرها بعدك . أما الماشية فلتعد إلى التوحش كما كانت .

* * *

انتهى موسم جمع ريش البلشون ، وأقبل أنتونيو على سانتوس ليبلغه
النتيجة :

- ربعان كاملان جمعناهما من الريش . الآن ستستطيع ياسيدى أن تحقق
مشروع السياج الفاصل بين ضيعتك وضياع الآخرين ، فالريش الآن غالى
الثمن فى هذا الموسم ، وأنا أقدر ثمن المحصول الذى جمعناه بأكثر من عشرين
ألف «بيزو» ، فإذا لم يكن لديك رأى آخر فإنى أقترح أن نبعث كارمليتو بهذا
المحصول ليتصرف فيه بالبيع ، وأن نكلفه فى عودته بأن يشتري فى سان
فرناندو ما نحتاج إليه من الأسلاك الشائكة اللازمة لتسوير الضيعة ، وقد قمت
أنا بحساب ذلك . وفى هذه الأثناء يمكن لنا أن نقيم وضع أعمدة السياج
الخشبى التى دمرتها الحرائق ، هذا إذا كنت لا تزال تفكر فى مسألة التسوير .

وكانت فكرة التسوير التى أراد سانتوس منذ البدء أن تكون أساساً للعمل الحضارى الذى أراد أن يضطلع به فى السهول قد وجدت من أنتونيو ساندوفال معارضة فى أول الأمر ، غير أنها لم تلبث أن نفذت بعد ذلك إلى تفكيره حتى اقتنع بها وأصبح من المؤيدين المتحمسين لتنفيذها . كانت هذه هى غلبة الحضارة على التقليد المتبع الذى لا يتطور . وشجع سانتوس ذلك التجاوب الذى رآه من قبل رجاله وأتباعه ، فبث ذلك فى نفسه مزيداً من الإقبال على مواصلة مشاريعه الحضارية التى كانت قد اضطرتة إلى تأجيلها تلك الأعمال اليومية فى الضيعة .

ومضت أيام على الحديث الذى دار بين سانتوس وأنتونيو ، ثم رأى رجال التاميرا فارسين يدنوان من بيوت الضيعة .

وقال باخاروتى لرفاقه وهو يحد النظر إلى القادمين :

- إن هذين ليسا من أهل هذه الجهات .

وتساءل فنانشيو :

- ترى من يكونان ؟

فقال أنتونيو :

- سيأتينا النبأ حينما يصلان ، فإنى أراهما متوجهين إلينا .

واقترب الفارسان الغريبان ، كان أحدهما يجبر معه عنان جواد لم يره رجال التاميرا حتى تعرفا فيه على دابة كارمليتو . وخرج سانتوس عابراً دهليز الدار ليستقبل القادمين ، فلما رآه الفارسان تقدم إليه أحدهما متسائلاً :

- هل أنت الدكتور لوئاردو ؟ لقد أتينا لننهى إليك خبراً سيئاً كلفنا بإبلاغه إليك الجنرال بيرنالىتى الحاكم المدنى لهذه المنطقة : لقد عثر رجال الشرطة هناك

فى أحد أدغال «مرج الشجرة» على جثة رجل يبدو أنه كان من رجال ضيعتكم . ولم يكن من الممكن لأحد أن يعرف من هو ، فقد كان جسده قد تعفن وأتى على أكثره الدود ، ولكن الرجال عثروا بعد ذلك على هذه الدابة المسرجة سارحة على مقربة من المكان الذى عثروا فيه على الجثة ، ورأوا على أفخاذها سمة ضيعتكم ، فأمرنا الجنرال بأن نأتيكم بالجواد، وبأن ننهى إليكم الخبر .

وصاح أنتونيو وقد استبد به الألم والغضب المسعور :

- لقد اغتالوا «كارمليتو» !

وكنتم باخاروتى أسفه وحنقه وسأل :

- ورفيق صاحب هذا الجواد الذى كان أخا له ، والحمل الذى كان معه من ريش البلشون ... ما الذى كان من خبرهما ؟

فتبادل الرسولان النظرات ثم قال أحدهما :

- لم يكن أحد يعرف أن المتوفى كان يسير فى رفقة أحد ، ولا أنه كان يحمل شيئاً يستحق السرقة ؛ إذ إن فكرة رجال الأمن هى أن الرجل أصابه مرض باغته فى الطريق وهو فى وسط المروج ، فقضى نجه من موت طبيعى ، فإذا كنتم أنتم تقولون إنه كان يحمل شيئاً قد يكون حافزاً على السرقة فإننا سوف نبلغ ذلك إلى الجنرال ؛ إذ فى مثل هذه الحالة ينبغى القيام بالتحريات اللازمة وفتح ملف للقضية .

فسأل سانتوس :

- إذن معنى ذلك أنه لم يقم أحد بالتحريات اللازمة بعد !

- كما قلت لك : إن رجال الأمن هناك يعتقدون ...

فقاطعه سانتوس :

- نعم ، لا داعى لتكرار ما قلت . إن رجال الأمن هناك لا يعتقدون إلا ما يعين على تدبير الجرائم ، وعلى أن تذهب دماء الناس هدرًا ، وعلى أن يظل المجرمون بمأمن من طائلة العقاب ، ولكن دم هذا القتيل لن يذهب هدرًا. أما المجرم فإنه لن يبقى طليقًا بمنجاة من القصاص هذه المرة .

وفى اليوم التالى اتخذ سانتوس طريقه إلى عاصمة الإقليم حيث مركز الحكومة المدنية . ها هى الساعة قد حانت لإقرار سلطان العدالة ؛ حيث لا سلطان إلا للإقطاع الغشوم والعنف الذى لا يخضع لقانون .

* * *

ولم تكد ماريسيلا تتحقق من غياب سانتوس حتى قررت أن تنفذ ما كانت تفكر فيه من مغادرة تلك الدار التى رأت الحياة فيها مستحيلة فى الأيام الأخيرة ، والعودة إلى بيتها القديم فى «مرج النخيل» فى موضع «لاتشو سميتا» ، فقد كانت ترى أن حياتها السابقة فى ذلك البيت هى الوحيدة الجديرة بها ، عملاً بقول المثل الذى لم يكن يفارق شفيتها فى تلك الأيام :

- «خير للمرء أن يحمل ثوبًا ممزقًا باليًا على أن يرتدى ثوبًا من الرقع» !...

أما لورنثو باركيرو فإن ابنته لم تعرض عليه الاقتراح حتى استطار له فرحًا ، فقد كان يريد منذ زمن طويل أن يضع حدًا لهذه الأكذوبة الجديدة : أكذوبة استقامته وإعادة بناء حياته من جديد . لقد كان يرى أن القدر قد خط مصيره ، وأن الهاوية التى كان يتردى فيها لم يكن بد من أن تلتقمه أخيرًا وتريحه من تلك الحياة ، فما قيمة التعلل بتلك الأمانى الكاذبة ؟ إنه سيعود إلى «مرج النخيل» لكى يستسلم مرة أخرى إلى سكراته التى لم يكن يستفيق منها ... هناك حيث مستنقع الطين والوحل الذى كتب عليه أن يستقر فى جوفه ضحية له .

وأجاب لورنثو باركيرو :

- نعم ، ستتوجه عائدين إلى المرج فى الغد بغير تأخير .

وفى صباح اليوم التالى اغتنمت ماريسيلا فرصة غياب أنتونيو الذى ما كان ليدعها تتخذ سبيلها إلى الهرب ، فأسرجت فرسها وجواد أبيها وانطلقا إلى بيت «لاتشوسميता» فى مرج النخيل . وقطعا الطريق كله فى صمت . أما لورنثو باركيرو فقد كان يتطوح على ظهر حصانه لا يكاد يستقر عليه ، وأما ماريسيلا فقد كانت مغمومة ساهمة قد انقبضت نفسها وتجهمت أساريها ، ولم تبلغ مشارف المرج حتى عاجت برأسها ملتفتة إلى الوراء ، وكانت قد بعدت عن التاميرا حتى لم تعد ترى شيئا من معالم بيوتها ، فأقبلت تتمتم :

- سأوطن نفسى على أنه لم يكن إلا حلمًا وانقضى كما تنقضى الأحلام !

عادت ماريسيلا وأبوها إلى دارهما القديمة ، ولكن ذوق الفتاة الذى كان قد تهذب وعاداتها التى رققت الحضارة من حواشيها فى الفترة التى قضتها فى التاميرا أصبحت تمج هذه الدار القذرة البائسة . أما أبوها فقد ذهب ليتأمل بركة الوحل الرجراج كما كان يفعل دائما من قبل فى أثناء الفترات القصيرة التى كانت تتخلل سكراته المنكرة الدائمة . وأنزلت ماريسيلا سرجى الدابتين عن ظهريهما ، وشرعت فى ربط فرسها إلى عمود الحظيرة ؛ إذ كانت تعزم فى أول الأمر على الاحتفاظ بالمطبتين ، إلى أن يقدم أحد من التاميرا لكى يعود بهما إلى الضيعة ، ولكنها ذكرت فى هذه اللحظة تلك العبارة التى قالها كارمليتو ، والتى شبه فيها ما اضطلع به سانتوس من تعليم الفتاة وتهذيبها بما كان هو نفسه مشغولا به من ترويض الفرس «كتيرا» واستئناسها . لقد رأت ماريسيلا أنه وقد عادت هى إلى موطنها الأول فإن «كتيرا» جديرة كذلك بأن تعود إلى حياتها البدائية الوحشية فى أرجاء السهول .

ونزعت ماريسيلا عن فم الفرس الكمامة التي كانت تغطيه ، ثم ربت على ظهرها وهي تبكى وتقول :

- لقد انتهى كل هذا يا «كتيرا» فلنعد : أنت إلى مرجك ، وأنا إلى الجبل الذي كنت قد خرجت منه .

ثم زجرتها لتمضي طليقة حرة ، وجلست إلى فم البئر مجهشة بالبكاء .
أما «كتيرا» فقد جرت قليلاً ، مجربة هذه الحرية الجديدة التي ظفرت بها فجأة في خطوات متزنة متشككة ؛ إذ لم تكن على ثقة بعد من أنها قد استعادت حريتها ، ثم تمرغت في التراب ، وألقت بصهيل حاد ، ثم ركضت قليلاً وتوقفت بعد ذلك وقد مدت عنقها وقربت ما بين أذنيها المنتصبين ، والتفت برأسها نحو ماريسيلا حتى تحققت أخيراً من أنها قد عادت حرة طليقة ، ثم قذفت بصهلة أخرى كأنما أرادت أن تجعلها تحية الوداع ، وغابت عن الأنظار في المرج الفسيح الهائل .

وحدثت ماريسيلا نفسها قائلة :

- والآن على أن أعود مرة أخرى إلى جمع أحمال الخطب من الغابة كما كنت أفعل . إن الذي كتب عليه الشقاء والحزن فما له أن يفرح ولو رددوا على مسامعه كل ما في الدنيا من مرح الغناء !

ولكن «كتيرا» كانت تستطيع العودة إلى تلك الحياة الطليقة بين قطعان الخيول الوحشية ، أما ماريسيلا فقد كان من العسير عليها أن تباشر تلك الحياة البدائية من جديد ، فإن حاجات حياتها الحاضرة وقلقها بشأن حياتها المستقبلية كل ذلك، كان يعقد عليها الأمر ويزيدها من الهموم .

أما حاجات الحياة فى الحاضر فقد كانت كثيرة ملحة ، إلى حد أنها لم تكدر تستعرضها فى هدوء واتزان حتى بدأت تتصور هول ما أقدمت عليه وبشاعته . لم تكن أحمال الخطب هى كل ما تحتاج إليه ، وإنما هو ما بعد ذلك من إشعال النار فى ذلك الخطب ، ثم إعداد شىء على تلك النار إذا مادنت ساعة الطعام ، ثم كل ما ينقص هذه الدار - إذا صح أن يطلق هذا الاسم على ذلك الكوخ القذر الذى كان يأوى إليه «شبح الباركيرينا» - إنها ترى الآن كيف تسرعت فى قرارها بمغادرة بيت لوثراردو وهى تحت نفوذ ذلك الشعور الذى كان لا يفارقها لحظة واحدة : شعور خيبة الأمل فى حب كان هو عصارة حياتها وسر سعادتها . إنها ترى الآن كيف لم تفكر - وهى فى غمرة ذلك الانفعال - فى أن ساعة تناول الطعام ستحل فى كوخ «مرج النخيل» دون أن تعرف ما تأكل ، وأن ساعة النوم ستحين دون أن تعرف أين يستقر جنبها . فإن الحصيرة التى كانت تأوى إليها فيما مضى لم تعد بالفراش اللائق ، بل إنها لم تعد حتى مجرد حصيرة بعد أن تمزقت كل ممزق .

وأما لورنثو باركيرو فقد كان مضى عليه وقت طويل وهو يعيش فى عالم بعيد عن الحقيقة حتى إنه لم يفكر فى مثل هذه الحاجات التى تتطلبها الحياة ، ثم إنه من ناحية أخرى لم يكن يهتم أن يخلو بيته من كل شىء : من مأكول أو ملبس أو مضطجع ، طالما توفرت له تلك الخمر الرخيصة التى لم تكن لتعوزه طالما بقى هناك مستر دينجر ، ولهذا فإن كل ما كان ينقص تلك الدار ما كان ليهمه فى قليل أو كثير .

صحيح أن ثمر شجر «الكيريبرى»(*) وسنابل الحبوب البرية التى تنمو فى الجبل مازالت الآن صالحة لكى تأخذ من غلتها ما تعالج به إعداد الخبز كما كانت تفعل من قبل ، وأنها لو عادت إلى نبش الأرض فيما حولها فإنها ستجد من درن البطاطس ومن ثمار الموز البرى ما يصد عنها وعن أبيها غائلة الجوع ، ولكنها أصبحت الآن تتقرز من مثل هذا الطعام البدائى الفج ، ثم إنها لم تعد

تلك المخلوقة الطليقة كأنها طير جارح ، ولا تلك الصبية الجسورة التي لا تخاف من وحشة الجبل المهجور ، والتي كانت تتوغل في الأدغال وأكوام الشوك والخطب تتكسر تحت وقع قدميها الحافيتين الغليظتين أو تتسلق الأشجار منازعة القروء طعامها الوحشى من ثمارها .

ولم تكن المشكلة أمام ماري سيلا أنها فقدت تلك الجرأة والجسارة ، فهي لم تخل من هاتين الصفتين ، ولكنها تعلمت في التاميرا أن تحسن استخدامهما ، فالأمر ليس الآن مجرد نبش الأرض لاستخراج الجذور أو التوثب على الأشجار للبحث عن طعام يومية يفنى بحاجات الساعة ، وإنما هي ترى الآن أن لديها من التفكير والعقل ما يكفل لها البحث عن مورد ثابت مستقر للعيش ، ولكن هذا التفكير نفسه هو الذى يزيدها الآن قلقاً وهي تنظر إلى المستقبل ، ويضاعف من ألمها وهي تنظر إلى حاضر ليس فيه إلا العوز والحرمان . كان عليها أن تبحث عن مخرج تحل به هذه المشكلة وتخلق مورداً ثابتاً للحياة ، وكان أول ما خطر لها هو ما صارحت به أباه :

- أبتاه ... أليس لى الحق فى أن أطلب أمى بأن تدع لى من المال قدرًا يكفل لى مطالب الحياة ؟ إننا هنا نتضور جوعاً بينما تدفن هى فى أرضها قدوراً قد ملأتها بما كنزته من قطع النقود الذهبية .

وبدا على لورنشو باركيرو أنه يقوم بمجهود فوق طاقة البشر لكى يرتب أفكاره حتى يستطيع الجواب ، وأخيراً نطق قائلاً :

- حق ؟ ليس هناك أى حق ... إذ إن اسمك الذى أثبت فى سجل المواليد لم يكتب معه أنك ابنتها ، فهي لم ترد أن تسجل باعتبارها أمك ، ولهذا فقد اضطررت أنا أن أقول ...

ولكنها لم تتركه يكمل عبارته ؛ إذ قاطعته قائلة :

- هل معنى ذلك أنه ليس لى أى حق حتى فى أن أثبت أمام الناس أننى ابنة «الساحرة الخبيثة» ؟ .

وبقى الأب ينظر إليها نظرة طويلة ، ثم قال فى تلثم :

- ولا حتى هذا الحق ...

نطق الرجل بهذه الكلمات التى لم تكن إلا تكراراً آلياً لما قالتة هى فى سؤالها ، دون أن يبدو فى لهجته أدنى شعور بالتبعية ، كأن الأمر لا يتصل به على الإطلاق ، ولم يلبث بعد ذلك أن نهض عن مجلسه خارجاً من الكوخ فى طريقه إلى بيت مستر دينجر.

وبدا على ماريسيلا أنها ندمت على قسوة هذا السؤال الذى وجهته إلى أبيها فى لهجة اتهام ، ثم ظلت فى مكانها تتمتم : «مسكين !... أبى ... !» ، بينما كان الرجل يتعد عنها وهو فى مشيته المترنحة ، وذراعاها يتطوحيان عن يمين وعن شمال ، وهما يتدليان من ذلك الجسد الذى «تفككت مفاصله» على حد تعبيره هو حينما كان يتكلم عن نفسه .

ولكنها تنبعت بعد ذلك إلى أن أباهما فى طريقه إلى دار الأمريكى ، فجرت وراءه لتقطع عليه سيره وهى تقول فى استعطاف :

- لا يا أبى ، نشدتك الله ألا تذهب إلى بيت ذلك الرجل . أتوسل إليك ألا تفعل . أهى زجاجة من الخمر تلك التى ستطلبها إليه ؟ انتظر هنا وسأتيك أنا بها من التاميرا ، ولن أتأخر فى العودة إليك .

وشرعت فى إسراج الجواد الذى أتى عليه أبوها ، ولكن هذا لم يتوقف بل مضى فى طريقه ليطفىء نار هذه الحاجة التى كانت تتسعر فى جسده إلى الكحول ، دون أن يقدر أنه لم يبق له ما يكن أن يدفعه ثمناً لما سيمنحه مستر دينجر من الشراب إلا ابنته .

... وهكذا كانت الزوابع تهب ، ساحبة وراءها ذيول الشؤم ، فتعصف بالأمل ، وتلوى بالرجاء ...

الفصل الثالث

السيد بيرنالبني ومصائب أخرى

كان لموخيكتا دوافعه القوية التي تحذو به إلى محاولة الاستخفاء تحت رف مشربه حينما أطل من باب ذلك الحان شخص سانتوس لوئاردو . فقد كان تدخله الذي حاول أن يخدم به زميل دراسته القديم في أمر ذلك النزاع الذي نشب بينه وبين السيدة باربارا قد ألحق به أبلغ الضرر ؛ إذ إن السيد بيرنالبني لم يتردد في أن يطرد موخيكتا في أعقاب تلك القضية من الوظيفة التي كان يتولاها باعتبارها سكرتير إدارة الحكم المدني ، ثم إنه كان يقدر أن ما أتى من أجله سانتوس لوئاردو الآن قد تترتب عليه نتائج أوخم بالنسبة إلى مستقبله ، ولهذا فقد رأى الخطر يتهدد ذلك المرتب الصغير الذي تفضل السيد بيرنالبني عليه بالعودة إلى منحه إياه بعد رجاء واستعطاف كثير منه ، وشفاعة من امرأته ، ووعود متكررة منه ألا يعود إلى زج نفسه فيما لا يعنيه من الأمور ، كأنما هو موكل بإنصاف المظلوم وإقامة المعوج كما كان «دون كيخوتي» يعتبر نفسه في غابر الزمان .

غير أن سانتوس لم يدع له فرصة الاستخفاء ، وهكذا اضطر موخيكتا إلى التظاهر بالاغتياب لرؤيته :

- ما أسعد عيننا نظرت إليك ! وما أغلى ما تباع فرصة لقائك يارفيق الصبا !
- أى شيء أتى بك ؟ وهل في وسعي أن أخدمك في شيء ؟
- إذا كان ما لدى من أخبارك صادقاً فلا بد أنك تعرف ما الذي أتى بي إلى هنا . لقد خبروني أنك أصبحت قاضي هذه المنطقة .

فتوقف موخيكتا لحظة ثم قال :

- نعم . ذلك صحيح ، وأنا بالفعل أعرف الأمر الذى حدا بك إلى
المجئء . هو حادث موت ذلك الرجل من رجال ضيقتك . أليس كذلك ؟
فأجاب لوئاردو مصححاً :

- الرجلين ... فهما الاثنان اللذان قتلا .

- قتلا ؟ أى شئ هذا الذى تقول ياسانتوس ؟ أفى الأمر جريمة قتل ؟
تعال معى إذن إلى دار المحكمة حتى تقص على الخبر كله .

- حتى أقصه أنا عليك ؟ ! .

- لا ... معذرة ! بل لتيرنى فى بعض التفاصيل ، ولتقول لى ما الذى
ينبغى أن أفعل .

ونظر موخيكتا حوالبه ثم قال :

- هيا ... هيا بنا .

وكانت نظرة الرجل إليه وهو يقول ذلك بليغة مغنية عن قوله : «ألا ترى
أين نحن الآن ؟» .

ووصلا إلى دار المحكمة ، ففتح موخيكتا بابها بدفعة قوية من جسده ؛ إذ
كان الباب مقفلاً بلا مفتاح ولا مزلاج ، دون أن يحميه إلا هبوطه عن مستوى
أرض الطريق ، ودخلا إلى قاعة لها سقف من الخوص والسعف وقد بيضت
جدرانها ، وفى صدرها مكتب وصوان ، وأمام المكتب ثلاثة كراسى ، وفى
ركن من أركانها دجاجة قد حضنت بيضها ورقدت عليه فى هدوء . وتقدم
موخيكتا من أحد الكراسى لكى يقدمه إلى سانتوس ، فنفض عنه طبقة كثيفة
من التراب مشيراً فى المكان كله عاصفة من الغبار ، وكان من الواضح أنه لم
يكن أحد هناك يتقدم بأى شكوى أو قضية لتنظر فى ساحة هذه «المحكمة» !

وجلس سانتوس متهاكاً على نفسه ، لا لما أصابه فى مسيره من مشقة الطريق وطوله فحسب ، بل لشعور التقزز الذى أثاره فى نفسه ذلك البلد ، وتلك « المحكمة » ، وهذا « القاضى » !

ومع ذلك فقد استرد أنفاسه محاولاً أن يعتصر أقصى ما يستطيع من فائدة فى هذه الرحلة التى اضطلع بها ، فشرح لموخيكتا القصة كلها مبيناً أن كارمليتو كان قد فصل من الضيعة يرافقه أخوه « رافائيل » بحمل كبير من ريش البلشون فى طريقه إلى « سان فرناندو » لبيعه هناك .

فلما أتم سانتوس القصة حك موخيكتا رأسه ، ثم تناول قبعته مستعداً للخروج وهو يقول :

- انتظرنى هنا لحظة ، فأنا أريد أن أقص ذلك على الجنرال ، ولا بد أن يكون الآن فى مكتبه بدار الحكومة المدنية ، ولن أغيب عليك كثيراً .

فاعترض سانتوس قائلاً :

- ولكن ... أى علاقة للحاكم المدنى بهذا الموضوع ؟ ألم تمض على وقوع الجريمة الأيام التى حددها القانون لكى يتقل ملف القضية إلى القاضى المختص ؟ .

فصاح موخيكتا :

- سبحان الله ! ما أقل صبرك يا أخى ! انظر ... إن الجنرال رجل ليس من السوء بحيث تظن ، ولكنى أقول لك - وهذا الكلام فيما بيننا - إنه يريد أن يكون صاحب رأى فى كل شىء : سواء فى الأمور المدنية أو القضائية ، فليس هنا شىء يفعل إلا بإذنه وعن إشارته . وهو الآن مقتنع تماماً بأن الرجل مات ميتة طبيعية ... من مرض مفاجئ دهمه فى الطريق كما يقول ، ومعنى ذلك أنه

مات بسكتة قلبية . وبهذه المناسبة - إذ ينبغي أن نواجه كل الفروض الممكنة -
ألم يكن ذلك الرجل يعانى نوبات قلبية ؟

ولكن سانتوس لم يستطع أن يتحمل المزيد فقاطعه وقد نفذ صبره ، وهو
يهب من مجلسه فى عنف :

- ولكن ... أى سكتة قلبية وأى هراء هذا الذى تقول ؟ إن الذى سيصاب
بهذه السكتة من جراء الخوف والجبن هو أنت ، إذا لم تكن قد أصبت بها
فعلاً ! ...

وابتسم موخيكيثا وهو يقول :

- خفض عليك يافتى ولا تدع الهياج يملك عليك نفسك ؛ ضع ، ضع
نفسك فى موضعى أنا ، أو فى موضع الجنرال . إن الظروف ترغمنا على أن
نحسب لكل شىء فى الحياة حساباً ، وأنا مفش إليك الآن بسر من أسرار
العمل : لقد وصل إلينا هنا منذ أيام منشور دورى وجهه رئيس الجمهورية إلى
جميع الحكام المدنيين بشأن عمل كل منهم فى منطقته ، وقد ألقى عليهم فى
ذلك المنشور سيلاً من التأييب والتعنيف الشديد من أجل عدة جرائم ارتكبت
فى أقاليم البلاد دون أن تهتدى السلطات إلى جناتها ، وأنذرهم جميعاً بأن أشد
العقاب سيحل بمن يقصر منهم فى أداء واجبه فى الضرب على الإجرام
والجرمين بيد من حديد . أما الجنرال فقد أرسل إلى رئيس الجمهورية جواباً
عن كتابه يقول فيه إن الإجرام لا ظل له فى هذه المنطقة الموكول إليه حكمها ،
وقد توليت أنا بنفسى كتابة هذا الجواب وصياغته ، وبلغ من رضا الجنرال
وإعجابه بما حررت له فيه أنه أمر بطبعه فى نشرة مستقلة ليوزعها على أوسع
نطاق ، ولعلك رأيت منها بعض النسخ هنا . وأنا أكرر عليك أن هذا الكلام
ينبغى ألا يتجاوزنا نحن ، فهو سر خطير أفضيت به إليك بحكم الصداقة ،

وأظنك ستكون حريصًا على كتمانك ؛ أما عن قضية هذا الرجل - أو هذين الرجلين بتعبير أصح - فلعلك قد قدرت أن احتمال موتهما قتيلين لم يغب عني ، ولكن ... عليك أن تقدر الموقف في هذه اللحظات وبعد صدور ذلك البيان الذي نشره الجنرال وأذاعه في كل مكان . إن القول بأن في الأمر جريمة ، وأن الوفاة لم تكن قضاء وقدرًا شيء بعيد عن السياسة وبعد النظر... على الأقل في هذه الظروف .

غير أن سانتوس لم يتمالك نفسه من الصياح وقد تزايد غضبه :

- نعم ... وقد نسيت أن تقول في تعداد هذه الظروف إنك تعمل هنا من أجل إرضاء السيد بيرناليتي لا لتحكم بالعدل أو لترد الحقوق إلى أهلها ! .

وهز موخيكيثا كتفيه وهو يقول :

- أنا أعمل هنا حتى أهيب لأبنائي ما يسد فراغ بطونهم من الخبز ؛ إذ إن ما يأتي من دخل المشرب لا يكفي لسد ذلك الفراغ .

ثم أضاف وهو يتهيا للخروج :

- انتظرنى قليلاً، فنحن لم نفقد كل شيء بعد ، والآن دعنى لكى «أصارع ثورى» .

وعاد موخيكيثا بعد ذلك بلحظات وقد بان القنوط والحنق فى وجهه وهو يقول :

- ألم أقل ذلك ؟ . إننى أعرف دائماً ما كتب على من مصير . لقد ساء الجنرال أنك توجهت إلى أنا أولاً قبل أن تقصده ، ولهذا فإنى أنصحك بأن تذهب الآن إليه وتحاول استرضاءه حتى تطويه تحت جناحك ، فما كان لأحد هنا أن يبلغ منه ما يريد إلا إذا اتبع هذه الوسيلة .

وهم لوئاردو بالاعتراض والاحتجاج على هذه النصيحة ، ولكنه فوجئ قبل أن يفتح فاه بظهور الحاكم المدني على باب القاعة .

وكان الأمر كما قال موخيكتا ، فقد ساء السيد بيرناليتى أن يتوجه سانتوس إلى القاضى دونه ، وزاد القضية سوءاً أن سانتوس قد أتى بتفاصيل جديدة كان من شأنها أن تقلب ذلك الوضع المريح الذى اتخذه الحاكم المدني حينما استنام إلى أن الوفاة كانت طبيعية لا بفعل فاعل . لقد كان بيرناليتى بطبعه الفظ المتوحش لا يفهم السلطة الموكولة إليه إلا على معنى واحد : هو أن تكون كلمته وأوامره مطاعة نافذة لا تقبل جدلاً ، وإذا كان لا يحتمل أن يناقشه أحد فى عمله فما كان أقل احتمالاً لرجل مثل سانتوس أتى لكى يعترض عليه متمسكاً بأهداب القانون ومتوجهاً إلى مرءوسيه قبل أن يقصد بابه أولاً .

دخل بيرناليتى القاعة وقبعته على رأسه لم يخلعها ويداه مشغولتان : فى اليسرى سيجار ضخيم كان قد انطفأ ، وفى اليمنى علبة ثقاب ، وكان يحمل تحت إبطه الأيسر ذلك السيف المودع فى قرابه الجلدى ، وكان لا يدع السير به أينما توجه دون علة ولا ضرورة .

ولم يتفضل بيرناليتى على سانتوس بإلقاء التحية إليه ، بل توجه إلى مكتب موخيكتا فألقى عليه بسيفه ، ثم انهمك فى حك عود الثقاب وإشعال سيجاره وهو يقول :

- إلى متى سأظل أقول لك ياموخيكتا إننى لا أعجبني أن يتدخل أحد فيما أقوم به من عمل ؟ لقد قلت لك إن ذلك الموضوع الذى يهتم به هذا السيد من شأنى أنا وحدى ، وأنا الذى أتولى العمل فيه حتى نهايته ، وليس لأحد أن يدلنى فيه على ما يجب أن أفعل .

فقاطعه سانتوس قائلاً :

- اسمح لى ياسيدى بأن أذكرك بأن هذا الموضوع قد أحيل على السلطة القضائية ، وأصبح من اختصاصها وحدها .

وكان سانتوس بعبارته هذه قد ألقى عرض الحائط بكل ما اجتهد موخيكتا فى أن يدلى به إليه من نصائح ، فقد كان الكلام أمام السيد بيرنالىتى عن أى اختصاص غير اختصاصه هو بمثابة إعلان الحرب عليه .

وأسرع موخيكتا إلى التدخل ، فأقبل فى فأفة وتلعثم يقول :

- ومع ذلك فأنت تعلم ياسانتوس أن ...

غير أن السيد بيرنالىتى لم يكن فى حاجة إلى مساعدة ولا تنقصه الصراحة الخشنة ، فأجاب فى تهكم واستخفاف بينما كان يشد أنفاساً من سيجاره حتى يشتعل :

- نعم. شىء من هذا الذى يقوله السيد قد سمعته هنا ، ولكن الذى رأيته ، والذى هدتنى إليه التجارب هو أنه لا يجتمع قاض ومحام فى مكان - إذا تركا وشأنهما - للحديث عن قضية واضحة جلية إلا اكتنفها الغموض والإشكال ، فإذا كانت تستحق يوماً واحداً فلا بد أن تستطيل وتمتد حتى لا تكفى لها سنة كاملة ، ولهذا فإنه إذا وصلت إلى هنا أى شكوى أو عرضت قضية فإننى أنزل إلى الشارع ، فأسأل وأتحرى حتى أعرف من المحق ومن المخطئ ، ثم آتى إلى هذا المكتب، وأقول للسيد الجالس إليه : «ياموخيكتا ياقاضى المنطقة . إن المحق فى هذه المسألة هو فلان ، فأصدر الحكم على الفور فى صالحه !» .

قال ذلك وهو يهوى على مكتب موخيكيثا بسيفه الدكتاتورى رمز سلطته وطغيانه ، وكان قد التقطه من المكتب من قبل ، وجعل يلوح ويشير به فى أثناء كلامه .

وأثارت الكلمات أعصاب سانتوس حتى كاد يفقد السيطرة على نفسه ، فأجاب فى شدة :

- إننى لم آت إلى هنا للشكوى ، وإنما مطالباً بأن تتحقق العدالة وتأخذ مجراها الطبيعى ، ومع ذلك فإننى تواق إلى أن أعرف أى اسم تطلقه على العدالة إذا كنت تجريها على هذا النحو الغريب !...

فأجاب بيرنالىتى وقد عاد إلى استخفافه وتهكمه . فقد كان الرجل فى الحقيقة لا يخلو من دعايه وميل إلى المزاح :

- أنا أسمى هذا «وضع النقط على الألفات» ! أأست تعرف هذه القصة ؟ سألقى إليك بها إذن فهى قصيرة : كان رجلاً من هؤلاء الذين يسميهم الناس أجلافا غلاظاً ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن مظنة الغفلة والبلاهة ، وكان كثيراً ما يسمع ممن يدخل إليه من المشققين فى أثناء الحديث قولهم «وضع النقط على الحروف» ، على أنه كان أمياً حاول أن يتعلم القراءة والكتابة فلم يوفق إلا إلى معرفة حرف أو حرفين من أولى حروف الأبجدية ، فكان إذا أراد أن يستوضح أمراً من مدير مكتبه - فقد كان الرجل رئيساً له مكتب ومدير مكتب - ناداه فقال له : يافلان ، استخبر لى عن الأمر ، واجتهد فى أن تضع لى النقط على الألفات» !...

وانفجر موخيكيثا ضاحكاً من «نادرة» الجنرال و «خفة روحه» ، أما سانتوس فيبدو أن القصة لم تقع منه هذا الموقع ؛ إذ أجاب فى خشونة :

- إذا كانت هذه هى «طريقة الكتابة» التى تستخدمونها أنتم هنا فيبدو أننى قد أضعت وقتى فى المطالبة بتحقيق العدالة واحترامها !

فامتعض بيرناليتى وقال فى لهجة هى أقرب إلى الإنذار والوعيد :

- ستمضى العدالة فى طريقها .

وكان بيرناليتى مستبدًا غشومًا بطبيعته ، ولكنه كان فى الوقت ذاته ماكرًا داهية ، وإذا كان بحكم اعتداده بتصرفاته وبآرائه لا يقبل مناقشة ولا جدلاً فإنه كان إذا رأى وجاهة رأى المعارض وقدرته على الإقناع فإنه سرعان ما كان يجد الطريقة التى تكفل له الأخذ به دون أن يبدو ذلك تراجعاً أو استسلاماً مادام يرى فى ذلك تحقيق مصلحة له ، بل إنه يفهم من حوله حينئذ أن ذلك رأى هو ما خطر له أولاً ، وأنه ليس إلا من نتاج تفكيره ، ثم يقدم عليه الحجاج والبراهين بنفس الطريقة التى اعتاد أن يقدمها بها حينما يعرض رأياً من آرائه هو . أما تلك القضية التى جاء من أجلها سانتوس فإن المنشور الدورى الذى تلقاه من رئيس الجمهورية قد بث إلى نفسه بعض الخوف والتردد لاسيما بعد أن رأى من سانتوس عزمًا على إثارتها وتحريكها ، ولهذا فقد رأى المصلحة تقضى بأن يعدل عما قطع به أولاً من أمر «الموت قضاء وقدرًا» ، وهو الرأى الذى التزمه حتى تلك اللحظة ، ومن هنا فإنه لم يلبث أن أضاف إلى ما قال عبارة ملطفة ، وإن كانت لم تخل من اللهجة الوقحة التى اتسم بها كلامه :

- وعلى أية حال فإنه لم يكن من اللازم أن تتجشم هذه الرحلة الطويلة حتى تبلغنا بأن ذلك الرجل الذى عثرنا على جثته لم يكن وحده ، بل كان له رفيق فى رحلته ، فقد هدتنا تحرياتنا إلى ذلك ، وكان هذا هو الخيط الذى نتبعه الآن حتى نقف على جلية الأمر .

أدرك سانتوس أن ذلك التمهيد إنما كان مقدمة للزعم بأن الرجل الآخر الذى رافق كارمليتو قد يكون هو نفسه مرتكب جريمة القتل ، وبهذا يطوى الموضوع و «يحفظ الملف» ، فأسرع يقول :

- أود أن أخبرك بهذه المناسبة أن ذلك الرفيق كان أخًا لكارمليتو ، وهما الاثنان من رجالى وموضع ثقتى الكاملة ، ولست أتردد فى القطع بأنه هو الآخر قد اغتيل كما اغتيل أخوه .

فأحس بيرنالىتى بالخرج والتورط بعد أن سد عليه سانتوس هذا الاحتمال الجديد الذى أراد أن يتحصن به . على أنه لم يعد مخرجًا من ذلك ؛ إذ أجاب :

- لك أن تقطع بما تريد ، ولكن ما تقوله أنت شىء ، والتدليل على صحته وثبوته شىء آخر .

ثم التفت إلى القاضى الذى جعل يدير نظراته بين الرجلين فى دهشة متبلدة ، وقال :

- وأما أنت ياموخيكيثا فلتبين ما أقول : لا تهج على وكر الزناير !

قالها وخرج من قاعة «المحكمة» مخلفًا وراءه صمتًا عميقًا كان غضبًا يتلظى فى صدر سانتوس ، وجزعًا يعتمل فى نفس موخيكيثا ، ولكنه كان صمتًا مطبقًا كاملاً لم يكن من العسير معه أن تتردد فى القاعة أصوات الطرقات الخفيفة التى تدقها نقرات الفراخ الصغيرة فى داخل البيض الذى كانت الدجاجة ترقد عليه فى ركن من أركان الغرفة ، ولم تمض لحظات حتى كسرت الفراريج قشر البيض وانطلقت مرحة مصأصة إلى هذا العالم الكبير : عالم النور والمتعة !

وبقى الرجلان صامتين ، ثم تحرك موخيكيثا ، فألقى نظرة على الشارع حتى تحقق من ابتعاد السيد بيرنالىتى ، ثم عاد يقول لصاحبه :

- قلت إن الرجلين كانا يحملان معهما ربعين من ريش البلشون ! ثمنهما إذن يبلغ نحو عشرين ألف بيزو ... أليس كذلك ؟ ولكن هذه الثروة لن تضيع ياسانتوس ، بل إن ذلك بشير خير ، فإن الذى سطا على مثل هذا القدر لا بد أن

يحاول التخلص منه بقدر ما يستطيع من سرعة ، فهي على السارق عبء ثقيل ، وأرجح القول إنه سيحاول بيعها بما يعرض عليه من ثمن ، ومن هنا يمكن لنا الاهتداء إلى الجاني أو الجناة .

ولكن سانتوس كان فى شغل عنه إذ كان مخلداً إلى تفكيره ، وأخيراً نهض عن مقعده لينصرف وهو يقول :

- لو أن أمى تركتنى هنا بدلاً من أن تحملنى إلى كاراكاس لتعلمت «طريقة الكتابة» التى ذكرها السيد بيرنالىتى فى قصته ، ولكان الناس يدعوننى اليوم هنا لا الدكتور بل «الكولونيل سانتوس لوئاردو» على الأقل ... ندأ لهذا المتوحش الهمجى ، ولعله حيثئذ لم يكن ليجرؤ على أن يخاطبنى بمثل هذه الوقاحة التى خاطبنى بها .

فقال موخيكيتا وهو يحاوره :

سأقول لك شيئاً يا صاحبى : إن الجنرال ليس بحيث تظن من ...

ولكنه لم يجسر على إتمام عبارته بعد أن وجه إليه سانتوس نظرة قاسية غاضبة ، فغير اتجاه الكلام وقال :

- حسناً ... قد انتهينا ، والآن هلم بنا نتناول كأساً ، فإنى فى المرة الماضية لم يكن لدى من وقت حتى ما يكفى لدعوتك .

وغازط سانتوس ما فى دعوة صاحبه من استخفاف وعدم تقدير الموقف فى مثل هذه اللحظات ، فأخذ يتأمله وقال وهو يصعد نظراته فيه ويصوبها .

ومن الحق أيضاً أن أقول إنه لم يكن أمثال السيد بيرنالىتى يوجدون لو لم يوجد ...

وكان يوشك أن يكمل عبارته فيقول : «لو لم يوجد أمثال موخيكيتا» ، ولكنه تدارك نفسه ، فهو يتبين الآن أن هذا الشقى لم يكن إلا ضحية من ضحايا هذه الهمجية التى تذلل أعناق الرجال وتنضب ماء كرامتهم ، ولهذا فقد تحول شعور الغضب فى نفسه إلى إشفاق ورثاء وهو يجيب على دعوته البلهاء بقوله :

- لا ياموخيكيتا ... إننى لم أصب بعد بداء الخمر !

وأقبل زميل دراسته القديم يتطلع إليه بتلك النظرات الغبية المتبلدة التى كان يرمقه بها حينما كان سانتوس يشرح له دروس الفقه الرومانى فى زمن الدراسة دون أن يفهم ما يعنيه ، ولكنه لم يلبث أن ابتسم فى بلاهة وقال :

- آه ... ياسانتوس لوشاردو ، مازلت كما كنت ، لم تتغير أبداً ياولد ! ... ما أشد شوقى إلى أن أجلس إليك فتحدث طويلاً عن ذكرياتنا الماضية ، ولكن أظن أنك لن تذهب الآن . أليس كذلك ؟ لا ... لا ترحل الآن واترك ذلك إلى الغد . أما الآن فاذهب لتستريح قليلاً ، وسأمر عليك بعد ذلك فى الفندق ، ولست أرافقك إليه إذ على أن أنتهى فى مكتبى من أمر عاجل ؛ فإلى اللقاء بعد قليل .

ومضى سانتوس ، أما موخيكيتا فقد بقى لحظة حتى تأكد من أن صاحبه قد عبر الشارع وابتعد فى طريقه ، وحينئذ أغلق باب المحكمة وهرع إلى مكتب السيد بيرنالىتى حتى يستطلع نواياه بشأنه .

ووجده هناك فى مكتبه وحيداً وقد استبدت به الثورة والانفعال ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويحدث نفسه قائلاً :

- لأمر ما لم يعجبنى هذا الصبى المغرور المتعجرف منذ أن رأيته لأول مرة ... ألا تبأ لهؤلاء المشاغبيين الذين لا هم لهم إلا تقديم الشكايات والتنقيب عن القضايا ! لو أن الأمر بيدى لأودعتهم جميعاً قرارات السجون .

ولم يكذب يرى موخيكتنا الداخل إليه حتى صاح به :

- موخيكتنا !... هات لى هنا ملف هذه الـ... بياذنجانة ... أعنى قضية تلك الجثة التى عثر عليها فى «مرج الشجرة» .

وذهب موخيكتنا ، ثم عاد وفى يده ملف القضية ، وكان السيد بيرنالىتى لا يزال يتمشى فى الغرفة فى هياج ، فما رأى القاضى مقبلاً صاح به :

- والآن اقرأ على الفقرة المتعلقة بجثة الميت كيف كانت حينما تم العثور عليها . دع الديباجة والمقدمات وادخل فى الموضوع رأساً .

وقرأ موخيكتنا :

- «وكان يبدو على الجثة أعراض التحلل البالغ ...» .

فقاطعه السيد بيرنالىتى :

- أعراض ؟... أى أعراض إذا كانت الجثة قد أرمت وأتى الدود على كل شىء فيها ؟ إنك هكذا لا تكتب شيئاً إلا تقعرت فيه وتفاصحت كأنما تنظم قصيدة شعر !... وبهذا تزيد من تعقيد الأمور وتوسيع خروقتها ... حسناً . امض فى قراءتك .

- «... ولم يكن من الممكن تبين جروح ولا كسور فيها» .

فعاد بيرنالىتى إلى مقاطعته وهو يطلق زفرة خانقة :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ لم يكن من الممكن التبين ! ولماذا ذهبت أنت إذن إن لم يكن لتبين ما يوجد ؟ كيف تخرج على الآن بأنك لم تتمكن ؟

فأجاب موخيكتنا فى تلعثم :

- سيدى الجنرال . تذكر أنك قلت لى ...

ولكن الرئيس لم يتركه ليكمل عبارته ؛ إذ عاد يصيح فيه :

- لا تأتني الآن بأنتى قلت لك ... فأى حاجة تقتضى منى أن أقول لك ما ينبغي عليك أن تفعل من أجل أداء واجبك ؟ أأست تقتضى مرتباً لأداء هذا الواجب ؟ أم أنك تريد منى أن أقوم أنا بالعمل الذى هو من صميم اختصاصك باعتبارك قاضى المنطقة ؟ ... حتى يأتينى بعد ذلك هذا الغلام الذى يدعونه «الدكتور» لكى يتشدد أمامى بالكلام عن الاختصاصات ! ... ألم تقرأ الكتاب الذى وجهته منذ أيام إلى السيد رئيس الجمهورية ؟ لقد عرضت فى هذا البيان القواعد التى أسير عليها فى عملى باعتبارى موظفاً فى الدولة ، وشرحتها بكل وضوح ؛ إذ إننى فى كل ما أكتب لا أعمد إلى التفهيق بالكلمات الطنانة الجوفاء ، بل أقول كل شىء كما هو ، وكما ينبغي أن يقال ... فى إيجاز وصراحة . والآن بعد أن تلقى السيد الرئيس بيانى ذلك تأتى هذه القضية وما زججت أنت فيها من هذا الكلام المنمق الملتوى ، فيظن رئيس الجمهورية أننا أردنا أن نهيل التراب على جثة «مرج الشجرة» قبل أن نتحقق من أن هذا الميت توفى قضاء وقدرًا أو أنهم قتلوه لكى يسرقوا ما يحمل ! ... سأتولى أنا الأمر بنفسى ، فألق إلى بهذا الملف .

وانتزع بيرنالىتى ملف القضية من يد موخيكيئا فى عنف ، ومضى يقرأ بعينه وهو يحرك شففيه ويبتلع ريقه . أما موخيكيئا فقد قدر من وراء كل ذلك أن السيد بيرنالىتى يسعى إلى «مد قنطرة» تسعفه فى التراجع الذى كان عازماً عليه عن رأيه الأول بعد أن كان هو نفسه الموحى به إلى موخيكيئا ، وشجعه ذلك إذ رأى فيه بارقة خير ، فقال مشيراً إلى رئيسه بالمخرج الذى يمكن أن ينفذ منه :

- انظر ياسيدى الجنرال إلى ما جاء فى الوصف من أنه لم يرد نص صريح على أن الوفاة كانت قضاء وقدرًا .

ولكن السيد بيرناليتى كان فى عدوله عن رأى تمسك به وتمادى فى الدفاع عنه أشبه ما يكون بالحصان الجموح الذى لا يتمكن من القذف بفارسه عن ظهره حتى يقبل عليه ، فيطأه بقوادمه فى شراسة وعنف ، ولهذا فإن عبارة موخيكيتا التى رأى فيها التلويح له بأنه فى طريقة إلى العدول عن رأيه السابق زادت من هياجه وغضبه ، فصب جام سخطه على القاضى المسكين قائلاً :

- وما الذى كنت تريد أن تقول بذلك ؟ ... هل تستطيع أن تؤكد أن الرجل لم يمت قتيلاً ؟ ثم ما الذى يزج بقاضى ابتدائى مثلك فى مثل هذه التفاصيل التى لم يفرضها عليك أحد ؟ إن كل ما عليك هو أن تصف فى تقريرك ما رأيت بعينيك دون أن تتجاوزته إلى ما ليس من شأنك . وهل طلب إليك أحد أن تبدى آراءك النيرة حول أسباب الوفاة ؟

- لا ياسيدى الجنرال . لم يطالبنى أحد بذلك على الإطلاق .

- إذن ... من أين أتت كل هذه الجلبة وإلى أين ستؤدى بنا ؟ اسمع : إذا كنت أنت قمت بعملك كما ينبغى ففى وسعك أن تطمئن وتستريح . وقد قلت أنا لصديقك المحامى هنا أن يذهب هادئ البال ؛ إذ إن العدالة ستتحقق وسيعود كل حق إلى أهله . واذهب أنت أيضاً إليه ، فأنت تعرف أين ينزل ، فكرر عليه ما قلت : إن العدالة ستتحقق لأننى أتولى الأمر بنفسى وأتبعه بكل اهتمام منذ هذه اللحظة . وهكذا يذهب عنا مطمئناً إلى داره ، ولن يعود بعد إلى مضايقتنا وإنفاذ صبرنا بإلحاحه وثقل ظله .

- إذا أردت ياسيدى الجنرال فإن بوسعى أن أسأله كذلك عن الأشخاص الذين يتهمهم بتدبير تلك الجناية .

وعاد اقتراح موخيكيتا إلى إهاجة السيد بيرناليتى وإثارة غضبه فصاح :

- لا ياسيد ! ... لا تفعل إلا ما أقوله أنا لك ، ولا تحد عنه قيد أنملة ! ...

- لقد اقترحت ذلك على أنه شيء شخصى بينى وبينه .

فصاح فيه بيرنالىتى :

- إلى متى ستظل هكذا إمعة أبله يا موخيكيتا ؟ ألم تظن بعد إلى أننا لو انسقنا فى تيار البحث والتنقيب فإننا سنجد أخيراً أن يد السيدة باربارا وراء كل ذلك ؟

وأجاب موخيكيتا فى تلعثم متعثر :

- إننى لم أقل ذلك إلا من أجل هذا المنشور الدورى الذى وصلنا من الرئيس .

- ألم أقل لك من قبل : إنك حينما تموت يا موخيكيتا فإن عليهم أن يكفنوك فى أكفان بيضاء لفرط سذاجتك ؟ ألا تعلم أن المنشورات الدورية التى تصدرها الرئاسة لا تصل إلى «ضبعة الرعب» ؟ إن رئيس الجمهورية نفسه صديق حميم للسيدة باربارا، فهو يدين لها بأياك كثيرة لا يستطيع نسيانها : لقد أنقذت ولداً له كان مشفياً على الهلاك بدواء أعدته من بعض الأعشاب التى لا يعرفها غيرها ، ثم أشياء أخرى كثيرة ليست من الأعشاب فى شيء . اذهب فافعل ما أمرتك به ، فقدم إلى صديقك هذا «حساء» كفيلاً بأن يلفظ من توتر أعصابه حتى يغرب عن وجوهنا إلى داره وقد هدأت نفسه واطمأن قلبه ، وليدعنا نُسو الأمر هنا بمعرفتنا .

وخرج موخيكيتا من مكتب السيد بيرنالىتى ، وهو مقتنع بأنه لا مفر له من أن يكفن بعد موته فى ثياب بيض كما قال رئيسه على الرغم من كل ما بذله من جهود فى سبيل إرضاء الله والشيطان فى وقت واحد . ومضى فى طريقه إلى فندق سانتوس وهو يقول لنفسه :

- مسكين سانتوس لوئاردو ! إن مبلغ العشرين ألف «بيزو» الذى كان يؤمل بيع الريش به قد انتهى إلى الأبد ، ولن يستعيد منه ريالاً واحداً ، ويالها من سخرية قاسية أن أكون أنا الرسول إليه لكى يذهب مطمئناً هادئ البال !
غير أنه لم يكد يصل إلى الفندق حتى كان سانتوس يثبت قدمه على ركاب جواده متهيئاً للرحيل ، فاستوقفه موخيكتا قائلاً :

- وهذه العجلة يا فتى ... أى داع لها ؟ اترك هذه الرحلة وأجلها إلى الغد ، فإن لدى أشياء كثيرة أود أن أقولها لك .

فأجاب سانتوس وقد استقام على صهوة الحصان :

- سوف تقول لى كل ما تريد حينما نلتقى من جديد ... ولن يتم بيننا لقاء حتى أدخل عليك وفى يدي سيف أقذف به على مكتبك ثم أقول لك : يا موخيكتا ، يا قاضى المنطقة ، إن المحق فى هذه المسألة هو فلان ، فأصدر الحكم فى صالحه على الفور !».

وبدا على موخيكتا كأنه كان يسمع هذه العبارة لأول مرة ، فتساءل فى بلادة :

- ما الذى تريد أن تقول بهذا يا سانتوس لوئاردو ؟

- أريد أن أقول إن العنف يدفعنى إلى العنف ، وإنكم إذا كنتم قد رسمتم لى هذا الطريق فأنا ماضٍ فيه إلى النهاية . وداعاً يا موخيكتا ، ولعلنا سنلتقى عما قريب !.

وانطلق فى طريقه مخلفاً وراءه عاصفة من الغبار تحت حوافر جواده ...

الفصل الرابع طريقان مختلفان

كان أحد الرسل الذين تولوا إبلاغ سانتوس لوئاردو بخبر ما حدث في «مرج الشجرة» قد تلقى من السيد بيرناليلى الأمر التالى ألقاه إليه بتكليف خاص :

- اغتنم الفرصة وتوجه فى طريقك إلى «ضيعة الرعب» ، فإذا وصلت إلى هناك فاخلق أى حجة تخطر لك للكلام مع السيدة باربارا ، ثم ألق إليها بالخبر فى غضون الحديث كأنه آت منك لا على أنه رسالة موجهة منى إليها ، فإنه ينبغي أن يكون حديثك معها هى وحدها دون غيرها ، فاحرص على ذلك كل الحرص .

ولم تعلم باربارا بالخبر حتى ابتهجت به باعتباره ضرراً أصيب به خصمها اللدود .

وبعد ذلك بساعات وصل إليها نبأ عودة ماريسيلا وأبيها إلى دارهما القديمة فى «مرج النخيل» ، وسرعان ما وثبت إلى ذاكرتها تلك الكلمات التى سمعتها من «الشريك» منذ أيام :

- «كل شىء يعود إلى المكان الذى منه خرج !» .

ولكن تأويلها الآن لهذه الكهانة قد تحول إلى التفاؤل والبشرى لها بالخير ، فماريسيلا غرمتها فى حب سانتوس - وهى فى طريقها راجعة إلى المرج - ليست فى الحقيقة إلا ذلك الشىء الذى يعود إلى الموضع الذى خرج منه .

إنه إذن فال طيب يدل أن حسن طالعها نجمة لم تأخذ بعد فى الأفول ، وحدثت نفسها قائلة :

- إن عناية الله مازالت ترافقنى وترعانى !

وبدأت فى التفكير فى خطة تتلاءم وتلك الظروف الجديدة ، حينما دنا منها بالينو باييا وهو يقول :

- أتعرفين الخبر ياسيدتى ؟

فقاطعته فى سرعة البرق دون أن تدع له فرصة المضى فى كلامه :

- أنهم قتلوا «كارمليتو لويث» فى دغل مرج الشجرة ؟.

وارتسمت الدهشة على وجه بالينو ، ثم صاح فى لهجة إطراء وتملق :

- سبحان الله ! أليس فى وسع المرء أبداً أن يبيعك أخباراً طازجة ؟ كيف عرفت بالنبأ ؟

- لقد أبلغت به ليلة أمس !

نطقت بهذه العبارة فى لهجة تعمدت أن تتشع بالغموض ، وأن تستخدم فيها صيغة البناء للمجهول حتى تعلم مخاطبها بأن «الشريك» الخفى هو الذى ألقى إليها بالخبر .

وسكت بالينو لحظة ثم قال :

- ولكنهم لم يصدقوك القول ، فإن كارمليتو - على ما يظهر - لم يمت قتيلاً ، وإنما توفى وفاة طبيعية .

- وهل تظن أن طعنة فى الظهر أو رصاصة منطلقه من مكن لا تكفيان لوفاة طبيعية تحل بأى نصرانى فى مكان مثل دغل مرج الشجرة ؟

ولم يكذب بالينو يسمع هذه الكلمات ، ويرى تلك الابتسامة الساخرة التى انطبعت على شفتى المرأة حتى أصابته وجمة ، وبدأ عليه ارتباك شديد ، وأخيراً رأى ألا مخلص له مما انتشب فيه إلا أن يلوح لها بظنه أن الجريمة كانت من تدبيرها هى أو من ارتكاب أحد أعوانها ، فلم يفتح الله عليه إلا بقوله :

- ليس هناك من شك : إن لك أعواناً خفيين يستطيعون ما لا يستطيع البشر !

وتقطبت أسارير باربارا فجأة ثم انفرجت بسرعة كعادتها إذا سمعت تعريضاً يغضبها ، وما كان تعريض بالينو بقواها السحرية مما يقع منها موقع الرضا ، فتجهمت وصوبت إلى الرجل نظرة مهددة موعدة ، غير أن بالينو كان قد تورط ، ولم يكن بد من أن ينهى عبارته ، فقال :

- يا لها من موافقات : الدكتور لوئاردو يسعى إلى وضع حد للسطو على مواشيه فى المروج التى ظلت حتى اليوم ملكاً مشاعاً ينهب منه كل ناهب ، وفيما هو فى سعيه إذا بتابعه «كارمليتو» يموت فى دغل مرج الشجرة ، وإذا بالرياح تطير ذلك الريش الذى كان يؤمل أن يقيم بثمنه سوراً منيعاً يحيط بالتاميرا !...

وعادت باربارا إلى اصطناع السخرية وهى تجيبه بقولها :

- نعم ... هكذا كان ، فإن العهد بالرياح التى تهب فى مرج الشجرة أنها عاصفة بالغة العنف !

واطمأن بالينو قليلاً ، فجاراها فى لهجتها المتهكمة :

- ولما كان الريش خفيفاً لا مؤونة على الرياح فى حمله ...

فقالت هى مكملة :

- هكذا يبدو لى ... لابد أن الأمر كان كذلك .

غير أنها شخصت إليه ببصرها تتأمله وتبتسم ، ثم أطلقت فجأة ضحكة عالية ، وبدا الاضطراب والتوجس على بالينو ، وخانته حركاته ؛ إذ سرعان ما امتدت أصابعه إلى شاريه يلويهما فى قلق وجزع ، فزاد ذلك من ضحك السيدة باربارا ، ولم يتمالك بالينو أعصابه ، فسألها فى ريبة وسوء ظن :

- مم تضحكين ؟

- من شدة مكرك أيها الماكن ، إذ تأتى لتقص على خبر «مرج الشجرة» وهو خبر تعلم أنت أنه ليس جديداً على ، ولكنك تعرف كيف تحرص على ألا تتعرض لما ترتكبه من مبادئ . لماذا لا تروى لى ما فعلته خلال هذه الأيام الماضية التى مرت دون أن تمتعنى فيها بالنظر إلى وجهك ؟

قالت باربارا ذلك فى بطاء وهى تتوقف قليلاً بين كل عبارة وأخرى دون أن تفارق عيناها ما كان يظهر على وجه بالينو من تغير الألوان وزيف النظرات ، ولكنه هم بالجواب ، وكان قد أعده من قبل حتى يبرر غيابه عن الضيعة خلال الأيام الماضية ، غير أنها أسرعت فقطعت عليه السبيل مكملة كلامها :

- لقد خبرونى بأمر تلك المغامرة التى كانت لك مع إحدى فتيات ضيعة «باسوريال» ، وأنا أعلم أيضاً أنك كنت تصطنع السخاء والبذخ ، فتدعو زمرة السوء من أصدقائك إلى حفلات صاخبة لرقص «الخوروبو» واصلاً الليل بالليل فى سهرة واحدة عريضة . لماذا لا تقص على خبر ذلك يا أكبر الخبثاء بدلاً من أن تأتينى بأخبار أنت أول من يعرف أنها لا تهمنى فى قليل ولا كثير ؟

وما كادت المرأة تنهى كلامها حتى ارتدت روح بالينو إلى جسده ، فعاوده الاطمئنان والثقة ، وكانت كلمات باربارا أشبه بمخدر جعله أكثر تبلداً واستنامة مما كان عليه فى العادة ، فقد ظن الغبى أن المرأة التى كان يعتبرها خلية مدلهة

فى حبه لم تكن مهتمة إلا بمغامراته الغرامية مع فتاة «باسوريال» ، فأجاب وهو يصطنع لهجة العشيق العاتب :

- إن هذا الذى قلت ليس إلا وشاية لفقها لى بعض الأعداء والحساد ، ولعل مختلقها هو ملكيادس ، فقد تبينت أنه لا يكف فى الأيام الأخيرة عن تعقب خطواتى . نعم ، لقد كنت حقًا فى حفلة من حفلات «الخوروبو» استمرت يومين فى «باسوريال» ، ولكنى لم أكن الداعى إليها ، ولا عملت على التفرير بأى فتاة من هناك . كل ما هنالك هو أننى لم أكن أدنو منك فى هذه الأيام إلا وتلقيت ردًا مخجلًا تجهيئنى به ، ولهذا فقد رأيت من الخير أن يختفى وجهى عن ناظريك ، وألا يتم بينى وبينك لقاء ! ...

وتوقف بالينو لحظة حتى يرى ما تخلفه هذه العبارة التى نطق بها فى رقة الحبيب المهجور من أثر على وجه باربارا ، وكان قد غامر بها دون أن يدرى ما إذا كانت ستجد منها قبولاً أو ستعود إلى صفعه بجواب مفحم ؛ إذ لم تكن المرأة تتساهل مع مثل هذه العبارات إلا فى لحظات قليلة خاطفة من الليونة ورضا النفس ، غير أنه لم يظهر عليها أنها استاءت لقوله ، فشجعه ذلك على أن يتمادى فيقول :

- لقد بلغ منى الحرج مبلغًا كنت أفكر معه فى ترك العمل فى الضيعة ، والمضى إلى أبعد مكان أستطيع الرحيل إليه ، فإن هذا الدور الذى حملتنى على تمثيله منذ أن قدم الدكتور لوئاردو إلى هنا لم يكن لينال من نفسى قبولاً ولا ارتياحاً ! .

أما باربارا فقد واصلت تمثيل دور العاشقة الغيور ، وكانت بارعة فى كتمان عواطفها والتظاهر بغير ما تبطن ، حتى إن وجهها لم يكن يعبر أدنى تعبير عما كانت تضره من إحساس أو تبيته من تدبير ، فقالت فى رقة :

- حجج ومعاذير تتعلل بها... إنك تعلم حق العلم ما أنويه أنا بسانتوس لوثاردو ، ولكنكما- أنت وفتاة «باسوريال» - تخطئان إذا كتما تظنان أن في وسعكما خداعي ، وأنا أنذرك بأننى بعثت إليها أقول إنها لو استمرت فى التعرض لك أو إغرائك فإننى سوف أرسل إليها من يوجعها ضرباً .

وعاد بالينو إلى الاحتجاج :

- إنى أؤكد لك أن هذه فرية ونغمة .

- نغمة أو لا ... لقد قلت لك ما كان على أن أقول : ليس فى استطاعة أحد أن يسخر منى ، فلا يخطر لك بعد ذلك أن تعود إلى «باسوريال» .

ثم أولته ظهرها وهى تقول مخاطبة نفسها :

- إن هذا لن يرى الحفرة التى يوشك أن يتردى فيها !

وكان بالينو باييا قد وقع بالفعل فى الشرك الذى نصب له ، فقد بقى هو الآخر يحدث نفسه بقوله :

- يا لها من خطة قد أحكمت نسجها !... لقد أحسنت تدبير كل شىء : بحجر واحد أصبت طيرين ، فحفلات «الخوروبو» فى «باسوريال» قد مهدت لى سبيل الذهاب والمجئ ماراً فى طريقى بمرج الشجرة دون أن أثير الشكوك ، ثم إنها قد كفلت لى عودة هذه «البقرة الحلوب» إلى مرعاها بعد أن ذهبت الغيرة بها كل مذهب وهى ترانى فى رفقة امرأة أخرى . وهكذا أعود أنا إلى أن أكون الديك الوحيد الذى يصيح فى «ضيعة الرعب» ، أما إذا خطر لها أن تتمنع وتتأبى حتى أهرع وراءها مستعطفاً فإننى سأعرف كيف أرد لها الصاع صاعين . نعم ... لقد أحكمت تدبير كل شىء : أما رافائيل فلم يعد له من أثر ، فإن الذى لم يعجب التمساح من لحمه لابد أن يكون قد أعجب الأسماك المفترسة التى تعج بها قناة «الشنشال» ، ثم إنه هو الذى ستسند إليه تهمة أخيه

وسرقة الريش ، وأما حمل الريش فهو يستقر من أمن وسلام مدفوناً تحت الأرض ، وليس على بأس فى أن أنتظر بعض الوقت ، ثم أبيعته بعد ذلك بالثمن الذى أريد ، هذا بينما مركزى فى «ضيعة الرعب» يزداد كل يوم توطداً وقوة !... .

وكانت السيدة باربارا تناجى نفسها بحديث آخر :

- ما أسرع ما أنت عناية الله لمعونتى وإسعافى ! إننى لم أكد أسائل نفسى : ترى من يكون مرتكب هذه الجريمة ؟ حتى يأتى هذا الصعلوك المتشرد ليقص على الخبر والجريمة ترسم على وجهه . فلأعملن الآن على استدراجه ونصب الحبال له حتى أعرف فى أى مكان أخفى حمل الريش ، حتى إذا تجمعت فى يدي كل القرائن الكافية شددت وثاقه وأسلمته إلى الدكتور لوئاردو حتى يفعل به ما شاء .

نعم ... كانت باربارا مستعدة لكل شئ : لأداء الرسالة وتسليم الأمانة ، وانتهاج حياة جديدة مختلفة ، فهى الآن لا تدفعها نزوة عابرة ، وإنما يملكها انفعال عنيف هائل كما اعتادت انفعالاتها أن تكون ، وغرام لا يعرف الحدود ولا القيود كالعهد بكل غرام يستحوذ على المرأة فى مشارف الخريف من عمرها ، ولكن هذا الغرام لم يكن كله مجرد تعطش إلى الحب ، بل كان فيه كثير من الرغبة المخلصة فى التوبة ... فى فتح صفحة جديدة من كتاب حياتها ... فى التوق إلى تجربة صيغة أخرى من صيغ الحياة والنزعة إلى تحقيق شئ مختلف تضطلع به نفسها ... طاقات عامة ، مجهولة لم تستكشف بعد .

وما أكثر ما كانت تردد قولها لنفسها :

- لأتحولن إلى امرأة أخرى . لقد سئمت نفسى ، ولهذا فإننى أتوق إلى أن أعرف حياة جديدة لم أعرفها من قبل ، فأنا أشعر بأننى مازلت بعد شابة ، وفى وسعى أن أبدأ من جديد !

واستولت هذه الرغبة على نفسها إلى حد جعلها تتعرض بعد يومين لسانتوس لوثاردو وهو عائد إلى ضيعته من عاصمة الإقليم حيث مركز الحاكم المدني ، وكانت هي راجعة كذلك في مساء هذا اليوم إلى دارها ، فلم تجد بأساً في التوجه إليه بعد أن لمحته من بعيد .

وكانت باربارا في رفقة بالينو الذي كانت لا تكف عن مصاحبته والبقاء إلى جواره منذ أن دار بينهما ذلك الحديث حول جريمة المرح ، فلم تلبث أن تركت بالينو بعد أن استوقفته قائلة :

- انتظرني هنا .

ثم عبرت المسافة التي كانت تفصلها عن سانتوس ، واعترضت طريقه ، وألقت إليه بالتحية حانية رأسها في غير إسراف في التودد ولا مبالغة في المجاملة ، ودون أن تطبع على شفيتها تلك الابتسامة المفتعلة التي كانت تتلقاه بها ، ثم نادته قائلة :

- أصبح أنهم قتلوا اثنين من رجالك كانا يحملان محصول الريش إلى «سان فرناندو» ؟

ولكن سانتوس نظر إليها في احتقار ، ثم أجاب :

- نعم ... أما الخبر فإنه صحيح لا ريب فيه ، وأما سؤالك فهو بارع محكم ، وهو ليس إلا جزءاً من خطة أتقنت نسجها .

غير أنها لم تلق بالاً إلى ما تضمنته العبارة الأخيرة من تعريض ، وعادت إلى السؤال :

- وماذا فعلت أنت ؟

فعاد يسدد إلى عينيها نظرة فاحصة طويلة ، ثم قال فى بطاء وحزم كأنه يريد أن يطرق أذنيها بما يقول كلمة كلمة .

- أضعت وقتى مطالباً بأن تأخذ العدالة مجراها ، وأن ينال الجناة قصاصهم ، ولكنك تستطيعين أن تطمئنى مادمت بعيدة عن يد القضاء وحكم القانون !

واحمر وجه باربارا كما لو كانت قد تلقت صفعه عنيفة وصاحت :

- أنا ؟ أتعنى بذلك أنك ...

ولكنه قاطعها بقوله :

- الذى أعنيه هو أننى الآن فى طريق أخرى ...

ثم همز جواده، وواصل سيره، تاركاً إياها واقفة وحدها فى وسط المرج الفسيح .

الفصل الخامس ساعة الرجل

ولم تمض على ذلك اللقاء لحظات حتى كان سانتوس لوئاردو يقتحم دار «الماكانيال» وهو شاهر مسدسه .

وكانت الدار قائمة في المكان الذي أمرت السيدة بأن يعاد بناؤها عليه ، على الحدود التي صدر بها الحكم القضائي الأخير بين ضيعتي «الرعب» وألتاميرا ، وإن لم يكن هذا الحكم القضائي نفسه فوق مستوى الشبهات ، فقد كان للسيدة باربارا من النفوذ على محاكم القضاء ما يسمح بإملاء رغباتها عليها .

وكان في الدار الأخوان الباقيان من ذلك الثالوث الرهيب الذي كان الناس يطلقون عليه هناك اسم «الموندراجونس» بعد أن لقي أخوهما الثالث مصرعه في محاولة «الخميلة القائمة» . كان الأخوان قد اضطجع كل منهما على سريره المتأرجح وهما يتبادلان الحديث في اطمئنان وهدوء وفوجئ الرجلان بسانتوس داخلاً عليهما وأمرأ إياهما بالاستسلام قبل أن يتمكن من حمل السلاح ، فتبادلا نظرات تدل على التفاهم فيما بينهما ، ثم توجه الملقب بـ «النمر» منهما إلى سانتوس ، وقال له في صوت ناعم لين وإن كان في طيه الغدر والخديعة :

- حسنًا يا دكتور ... لقد استسلمنا ، فما الذي تريدنا أن نفعل الآن ؟

فأجاب سانتوس وهو يلقي علبة ثقاب تحت أقدامهما :

- ... أن تشعلا النار في البيت ... هيا !

وكانت لهجته وهو يهيب بهما صارمة تدل على العزم والتصميم ، ولم يغب عن الأخوين أن الذى يلقى إليهما بذلك الأمر إنما هو رجل من سلالة «لوثاردو» ... من صلب أولئك الرجال الذين لم يعتادوا أبداً أن يشرعوا سلاحاً فى معرض التهديد إلا وقد وطنوا العزم على أن يستخدموه إذا لزم الأمر .

وصاح الملقب بـ «الأسد» :

- ... ولكنك تعلم ياسيدى الدكتور أن هذه الدار ليست ملكاً لنا ، فلو أننا أشعلنا النار فيها فلا بد أن تقتضيها السيدة باربارا منا بعد ذلك ، وأن نعوضها عن كل ما يلحق بها من ضرر .

فأجاب سانتوس :

- أما هذا فأنا متكفل به ، والآن اصدعنا بالأمر دون أن تنبسا بينت شفة !

وكان «النمر» فى هذه الأثناء قد استطاع التسلل إلى حيث كانت إحدى البنادق ، وأكب فى حركة مباغته على البندقية ، ولكن لوثاردو تنبه لذلك ، فلم يتردد فى إطلاق النار برمية أحكم تسديدها فأصابته الرصاصة فى فخذه ، وهوى الرجل إلى الأرض وقد انطلقت من بين شفثيه لعنة مزمجرة .

وهاج المشهد أخاه فحاول أن ينقض على لوثاردو ، ولكنه توقف بعد أن رأى المسدس المصوب إلى صدره تحمله يد قد جربا إحكام رمايتها ، فالتفت إلى أخيه وقد ازرق وجهه بما كان يرتسم عليه من شعور الغضب العاجز وهو يقول :

- خفض عليك يا أخى ، فالأيام بيننا ، وستسمح لنا الفرصة لكى نقتص منه بهذه ، فتحامل على نفسك وانهض عن الأرض ، وأعنى على إشعال النار فى البيت . إن لكل رجل ساعة ، والدكتور لوثاردو ينفق الآن ساعته ، ثم ستأتى ساعتنا نحن ، خذ نصف هذه الأعواد من الشقاب ، واعمل أنت فى ذلك

الجانب فستأتكفل أنا بالآخر ، ولنفعل ما أمرنا به . والذنب ذنبنا على أية حال
إذ تركنا أنفسنا نقع فى يده هكذا دون أن نأخذ حذرنا !

وأعمل الرجلان أعواد الثقاب فى ذوائب الخوص والسعف المتدلية من
سقوف الدار ، وما لبثت ريح السهول أن حولتها فى لحظات إلى شعلة متلظية ،
فالواقع أن هذه الدار لم تكن بيتًا بمعنى الكلمة ، وإنما كانت سقفاً ألقى على
أعمدة أربعة .

وعاد «الأسد» مخاطبًا لوثراردو فقال :

- والآن ها هو ذا البيت يتأجج ناراً كما أردت ، فما الذى يخطر لك الآن
أن تفعل بعد ذلك ؟

- الآن ألق أخاك على ظهرك ، وامضيا أمامى ، وأما ما بقى فإننى سوف
أقوله لكما فى التاميرا .

وتبادل الأخوان النظرات من جديد ، غير أنه لم يبد على أحد منهما أنه
مستعد للمخاطرة بحياته مرة أخرى فى مقاومة مستبصلة غير مجدية ، فقد كان
لورثادو يتفوق عليهما لكونه مسلحاً بينما هما أعزلان ، وبكونه راكباً وهما
راجلان ، ثم إنهما رأيا فى وجهه التعبير الصارم الذى يخطه التصميم على
الوصول بتهديده إلى أبعد مدى ممكن ، ولكن الجريح توجه إلى أخيه قائلاً :

- ليس هناك ما يدعو لأن تحملنى على ظهرك يا أخى ، فإننى سأسير على
قدمى ، ولا يهم ما أنزفه من دم فى الطريق .

وبدا كما لو كان الرجلان الرهيبان يكفران الآن عن تلك الجرائم التى
ظالما اقترفاها فى سهول باريناس من قبل حينما كانا قاطعى طريق حتى اضطرا
إلى الفرار إلى وادى الأراوكا والاعتصام بحماية السيدة باربارا من مطاردة
العدالة لهما بعد أن سفكا دماء كثيرة لم ينالا عليها أى قصاص . وكان

سانتوس لوئاردو عازماً على أن يسلمهما إلى السلطات المسئولة في الإقليم حتى يأخذ القضاء مجراه فيهما ، وهكذا قال لهما حينما وصلوا إلى التاميرا .

وأجاب الأسد :

- أنت أدري بما تفعل ، ولقد قلت لك من قبل : إنك الآن في ساعتك ، وستجئ ساعتنا .

ولكن سانتوس لم يعبأ بما تضمنته هذه الكلمات من تعال وكبرياء ، فأمر أنتونيو بالعناية بالجريح ومداواته ، غير أن هذا قال له في مثل لهجة أخيه :

- لا تشغل نفسك بي يادكتور لوئاردو ، إن الدم الذي نزفت ليس إلا ما كان يزيد على حاجة جسدي ، فأنا الآن في الوزن الملائم : لا نقص ولا زيادة ! .

فتدخل باخاروتى في الحديث :

- نعم . هذا خير له ولنا ؛ إذ لن يضطربنا إلى زجره في الطريق حتى ينطلق بسرعة .

وواصل باخارونى كلامه وهو يرد على عبارة الرجل المتعالية بمثلها مخاطباً لوئاردو :

- دع لى هذه المهمة اليسيرة ياسيدى الدكتور ، ولتعتبرنى مسئولاً أمامك عن هذين الرجلين ، فليس هناك مما أحتاج إليه معهما إلا قطعتان من الحبال أشد بهما وثاقهما ، وسأتكفل أنا ببقية العمل ، أما الجريح - عليه اللعنة - فليحاول الفرار إذا كان وزنه الآن خفيفاً كما يقول . إننى أظن أنك عازم على تسليمهما إلى السلطات بورقة منك ، فإذا كان الأمر كذلك فاشرع من الآن فى كتابة تلك الورقة ، حتى نعمل اليوم على سوقهما إلى حيث سيودعان فى انتظار تقديم حساب عما ارتكبا من جرائم ، فمن الخير ألا تترك ذلك إلى الغد .

ولو أنى لا أعتقد أن مصطنعى الشجاعة من شركاء هذين الشقيين سيجسرون على القدوم فى هذه الليلة لاستنقاذهما . وليتهم يفعلون ! والله لو ددت إذن أن أنقسم نصفين : نصف يقود هذين المختالين الدعيين إلى مستقرهما ، ونصف آخر ينتظر من لعله يأتى من «ضبعة الرعب» للمحامة عنهما أو استخراجهما . على أنى أرى الآن أن وجودى هنا غير لازم ، بعد أن أثبت أنت أن رجلاً واحداً من التاميرا لديه من القدرة ما يكفى ويزيد لكى يسوق أمامه مثل هذين الجبانين اللذين ملأ «الرعب» قلبيهما ، وسنرى بعد كيف يجئ الدور على بقية رجال تلك الناحية واحداً واحداً .

* * *

كان قد مضى وقت ليس بالقصير على عودة سانتوس لوئاردو إلى داره ، غير أنه لم يكن قد لاحظ بعد غياب ماريسيلا وأبيها عنها . وشرح أنتونيو الأمر :

- لقد ذهبا بمجرد رحيلك إلى عاصمة المنطقة ، وكان ذلك فكرة ماريسيلا ، وقد لحقت بهما فى دار مرج النخيل بعد ذلك ، فحاولت إقناعهما بالعودة ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح ، فإنها صممت على البقاء تصميمًا لا رجعة فيه .

فقال سانتوس :

- إن ذلك خير ما خطر لها أن تفعل ، فنحن الآن ماضون فى طريق آخر . وفى اليوم التالى أمر بإقامة سياج خشبى يحيط بمرج «كوروئاليتو» ، وكان مستر دينجر يماطل ويطاول فى نصب أعمدة ذلك السياج ، متبعاً تلك النصائح التى كان السيد بيرنالىتى قد أوصى بها إليه .

ولكن أنتونيو ظل صامتاً لحظة ثم اعترضه يسأله :

- على الرغم من هذه الوثيقة التي يحملها مستر دينجر والتي أطلعك عليها ؟ .

- وعلى الرغم من كل شيء ، وضد كل مقاومة تعترض طريقنا من أى وجه . العين بالعين ، والجزاء من جنس العمل ؛ هذا هو القانون المتبع فى هذه الأرض ! .

وعاد أنتونيو إلى تفكيره الساهم ، ثم قال :

- ليس لدى ما أقوله لك يادكتور ، فأنت تعلم أننى وراءك فى أى طريق انتهجت .

وانصرف أنتونيو ، غير أنه كان يقول لنفسه :

- لا يعجبني أن أرى سانتوس وهو يتكلم بهذه اللهجة ، جعلها الله سحابة صيف ! .

وفى هذه الليلة تناول سانتوس عشاءه وحده على مائدة تتوثب حولها الكلاب وهى تهز أذنانها ، بعد أن قدمت إليه الطعام امرأة تفوح من ثيابها روائح المطبخ ووضره ، على أنه لم يكذ يتذوق لقيمات من ذلك الطعام الكريه الذى أعدته له كاسيلدا حتى رفع يده عنه ، وانصرف إلى بعض غرف البيت ، إلا أنه لم يطق المقام فى هذه الدار حيث كان نظره يقع فى ضوء المصباح الكئيب على أثاث الدار وقد غطته طبقة من التراب والصدأ وأسراب من الذباب ، بعد أن كان كل شيء نظيفاً يلمع ، فأثر الخروج إلى الدهليز مروحاً عن نفسه بعض ما تجد .

وكانت السهول تمتد أمام عينيه راقدة فى استرخاء ، قائمة تحت سماء مظلمة ملبدة بالغيوم . كان الصمت يسود المكان ، فلا عود ، ولا أغنية ، ولا حديث ! الكل مخلصون إلى السكون الواجم وهم يفكرون فى هذا الرفيق الصموت الحزين الذى عثروا عليه قتيلاً فى مرج الشجرة ، هذا الرجل المنقبض المنطوى على نفسه والذى كان على الرغم من ذلك رجلاً حق الرجولة يمكن الاعتماد عليه والثقة به ؛ إذ لم يكن أحد من رفاقه يلجأ إليه فى شىء عصبه إلا سارع إلى عونه حتى ولو ضحى فى سبيله بحياته ، هذا الرجل الطيب الذى رزى فى أهله ، فلم يجد بداً من أن يأخذ قصاصه بيده ، والذى قتل فلم يأخذ أحد بثأره بعد موته .

وهم يفكرون كذلك فى سانتوس لوئاردو الذى نكب فى هذا الرجل ، والذى حرم من تلك الثروة التى كان يريد أن ينفقها فى عمل كان قد علق عليه آمالاً كباراً . فها هو ذا منذ عاد إلى الضيعة قد تحول إلى رجل آخر كئيب مقطب الأسارير ، تطل الوحشية من عينيه .

ومن بعيد يتردد فى الجو صوت الكروان الحاد ، ويقطع فتانشيو حبل الصمت فيقول لرفاقه :

- لا بد أن باخاروتى وماريانيس قد وصلا الآن بعيداً بالرجلين الذين وكلت قيادتهما إليهما .

ويقول له أحد الرفاق متحدثاً عن الطريق الجديدة التى اندفع فيها لوئاردو :

- هكذا ينبغى أن يصنع المرء فى هذه الأرض ، فالدواء يجب أن يكون على قدر الداء . إن رجل السهول لا يكون كذلك إلا إذا فعل كل ما يستطيع الرجل أن يفعل . فليطرح الدكتور عن تفكيره إلى الأبد كل ما كان يترأى له من إقامة أسبجة فاصلة وما إلى ذلك من أشياء قد تكون متبعة فى بلاد أخرى

لها مثل سهولنا ، وليفعل ما فعله الناس كلهم هنا على مر الأجيال : السطو على كل رأس ماشية تبدو له في هذه الأرض من الحيوان الرضيع إلى ما فوقه ، واقتناص كل دابة طليقة لا يجد على جنوبها سمة لأحد !

ويضيف آخر :

- ... واقتحام أرض الجار والاستيلاء فيها على كل ذى ظلف وحافر يقع عليه بصره . فما دام الجار يفعل ذلك بأرضه فلم لا يفعله هو ؟ إن الحق الصراح هو أنه لا ظلم ولا خديعة مادامت الأعمال تجازى بأمثالها .

ولكن أنتونيو تدخل في الحديث :

- أما أنا فلست أوافقكم على ما تقولون ، فإننى أرى الحق فيما كان الدكتور قد أفهمنى إياه وأرشدنى إليه . ليقم كل واحد حدوداً حول أرضه ثم ليرب كل ماشيته في داخل حدوده ، دون أن يعتدى أحد على جاره أو يغصبه مملك .

وكان سانتوس يتسمع الحديث الدائر بين رجاله ، فما إن سمع عبارة أنتونيو الأخيرة حتى عاوده ذلك الشعور الذى أحدثه في نفسه منذ قليل منظر المصباح الكئيب وأشعته تنعكس على أساس الدوار التى هجرتها ماريسيلا . إن هذا الكلام الصادر من أنتونيو عن عقيدة واقتناع إنما كان مما أوحى به إليه رجل لم يعد الآن في عالم الأحياء ، رجل كان قد وصل من المدينة إلى تلك السهول تداعبه آمال واسعة في بث الحضارة ، والقضاء على مظاهر الهمجية السائدة هناك ، رجل يملأ قلبه الاحترام لكل إجراء ينفذ به حكم القضاء حتى ما كان منها مضرراً بمصالحه مثل تلك الأحكام التى انتزعت السيدة باربارا بمقتضاها الكثير من حقوقه وأملاكه ، رجل يكره الثأر واقتصاص المرء بيده من غريمه ، بل وينبذ كل تلويح بأية فكرة انتقامية ، ويتأذى ضميره بكل ما يؤدي إلى إطلاق

الفرائز الوحشية الكامنة في النفس البشرية ، ويرى فيه كارثة مدمرة للمثل الروحية والإنسانية ، هذا وإن كان يرى أن تمسكه بتلك المثل سينتهى به إلى أن يقع ضحية لذلك العنف الهمجي الذي يسيطر على تلك الأرض .

أما الذي كان يسمع حديث أولئك الرجال فقد كان شخصاً آخر غريباً يفكر ويشعر على نحو ما سمع أحدهم يقول لرفاقه «إن رجل السهول لا يكون كذلك إلا إذا فعل كل ما يستطيع الرجل أن يفعل !» .

وها هو ذا الآن قد أثبت أنه يعرف كيف يفعل رجل السهول الحق : فدار «الماكانيال» قد تحولت إلى رماد ، والأخوان «الموندراجونس» سيقدمان حساباً عن جرائمهما الكثيرة إلى العدالة ، كل ذلك بفعل يد مسلحة . وغداً سيأتى الدور على مستر دينجر . نعم . كانت هذه هي «ساعة الرجل» لا ساعة المبادئ والمثل ، فما دامت تلك الحياة الصحراوية لا تضع أى حد للعمل الفردي القائم على العنف والظلم والغصب ، فعلى «الرجل» حقاً أن يفرض نفسه بالقوة . ليوجه ضربة هنا ، ثم ضربة هناك ، وليؤكد للناس قوته وجبروته فى كل مناسبة تسنح ، وبهذا تصبح هذه الأرض كلها ملكاً له حتى يباشر فيها عمله الحضارى وما ينشد فيها من إصلاح .

وأقبل سانتوس يعلل نفسه : ترى أهى نقطة البدء فى «الإقطاعية الخيرة» ؟ ترى هل هى ساعة الرجل إذا أحسن استغلالها ؟

الاكتشاف العجيب

ثلاثة أيام قضاها سانتوس غائباً عن الضيعة ... ثلاثة أيام كانت ماري سيلا تعيش خلالها على أمل أن تراه بعد انقضائها قادماً إليها وراجياً إياها أن تعود إلى ألتاميرا ، وذلك بمجرد أن يعرف نبأ رجوعها هي وأبيها إلى دارهما القديمة في مرج «لاتشو سميتا» . غير أنها لم تكن تريد أن تعترف بينها وبين نفسها بمجاذبتها لهذا الأمل ، فقد كان العناد يدفعها إلى التمدادى فى الشعور بالمهانة والألم بعد حب فاشل منقطع الرجاء ، ذلك الشعور الذى حملها على مغادرة ألتاميرا ، وعلى الرغم من ذلك فإنها ظلت تمنى نفسها بقدوم سانتوس لكى يطلب إليها العودة معه . ومن أجل هذا فإنها لم تتخذ أهبته للمقام فى دار «مرج النخيل» زمناً طويلاً ، بل كانت تحاول كفاية حاجاتها وضروراتها العاجلة كأنما كانت ترى أن إقامتها هناك لا بد أن تكون عابرة مؤقتة ، أما بقية اليوم فقد كانت تقضيه جالسة على حافة البئر وهى شاخصة ببصرها إلى حيث كان الطريق المؤدى إلى ألتاميرا فى انتظار قادم من هناك .

ولكن هذا الحنين القاتم كان ينقشع عن نفسها فى بعض اللحظات ، ويعلو وجهها البشر ، فتطلق ضحكة وهى تتصور الغضب الذى سيتملك سانتوس حينما يعود إلى الدار فلا يجدها فيها ، ويظن حينئذ أنها معابثة صبيانية عابرة مما اعتاد الأطفال أن يفعلوا إذا غضبوا ، فلعله يعتقد أنها تعمدت الاختباء حتى تنتقم منه جزاءً وفاقاً على ذلك التأنيب العنيف الذى صبه على رأسها كأنها ارتكبت جريمة حينما دفعها حبها له إلى محاولة إنقاذه من سحر أمها الأسود

الشرير ، ولكنها لم تكن تصل فى حديثها لنفسها إلى هذا الموضع حتى تعاود مخيلتها صور ذلك المشهد الكريه ، فتجثم على قلبها الهموم ، وترين على روحها الظلمات .

وأخيراً بلغها نبأ رجوع سانتوس إلى ألتاميرا ، ومرت الأيام دون أن تتلقى منه شيئاً ، فانقطع الرجاء ، وانطفأت ذبالة ذلك الأمل التى كانت تخفق فى قلبها .

وخاطبت ماريسيلا نفسها تقول :

- لقد كنت أعلم أنه لن يأتى لمحاولة حملى على العودة إلى داره ، ولن يهمله شيء من أمرى بعد اليوم . ولقد صبح الآن ما كنت أقوله من أن كل شيء كان حلمًا ومضى كما تمضى الأحلام !

هذا بينما كان مستر دينجر هو الذى لا يكف عن زيارة بيت لورنشو باركيرو فى يوم من الأيام . صحيح أنه كان أقل جرأة منه فيما مضى ، فهو لم يعد يمد إليها يديه الكبيرتين ؛ إذ كانت الفتاة فى محضره تلتزم الجد والصرامة وتمسك بكرامتها على صورة كانت تجبره على احترامها والتأدب معها ، ولكن الأمريكى كان يضيق كل يوم عليها حصاره بعد أن أصبحت الآن فريسة فى متناول برائته من جديد ، لا سيما وأن أنوثتها الآن قد نضجت وجمالها قد اكتمل ، فكان كثيراً ما يأتى إليها فى دارها ليلقى عليها بمداعباته المعتادة فى هذا المرح الذى كان لا يزايل نفسه قط ، مازجاً بين ذلك وبين عباراته المتعالية الآمرة ، شأن الرجل الذى اشترى ودفع الثمن فى انتظار تسلم البضاعة .

ولم تكن ماريسيلا تتمالك نفسها فى بعض اللحظات وهى تحت وطأة الحنق على سانتوس لإهماله إياها من التفكير فى لذة وشماتة فى أن مصيرها سيكون الوقوع بين ذراعى ذلك الرجل فى عاجل أو آجل ، ولكنها سرعان ما

كانت تعود إلى التفكير المتزن العاقل ، فتطرد عن نفسها تلك الخواطر البشعة الكريهة ، وتحاول علاج الموقف بوسائل ناجعة مجدية .

وفى يوم من الأيام لمحت خوان برمييتو ، وكان يحوم حول الدار من بعيد ، دون أن يجرؤ على الدنو ، فقد كان يخشى أن تكون لم تغفر له بعد ما فعله حينما وكلت إليه أمها الإتيان بالخيط الذى أخذ به مقياس قامة سانتوس ، ولكنها نادته وكلفته بأن يحمل هذه الرسالة إلى «ضبعة الرعب» .

- اذهب فأبلغ ... أنت تعرف من أعنى : أبلغ السيدة كما تسميها أنت أننى عدت أنا وأبى إلى دار مرج النخيل ، ولكننى أريد أن أذهب من هنا إلى أبعد مكان يتاح لى بلوغه ، وأنا أحتاج من أجل ذلك إلى نقود ، ولكن لتعرف أن ما أريده ليس عدة دريهمات ، فأنا لا أطلب إليها صدقة ، بل أريد مبلغاً كافياً أستعين به فى الرحلة أنا وأبى إلى «سان فرناندو» .. والآن ما الذى سوف تقول لها ؟ كرر على ما قلته لك ... نعم . أبلغها ذلك بالحرف الواحد وإلا فلا ترنى وجهك بعد ذلك مرة أخرى .

وظل خوان برمييتو يكرر الرسالة حتى لا تفوته كلمة واحدة مما قالتة ماريسيلا حتى وصل إلى الضبعة ، وأبلغ الرسالة إلى السيدة باربارا . أما هذه فقد فكرت فى أول الأمر فى تجاهل الرسالة ومقابلتها بالصمت أو بإرسال رد عنيف جارح ، ولكنها تروت فى الأمر وهداها إمعان النظر إلى أنه من الخير لها أن ترحل ماريسيلا إلى سان فرناندو كما قالت . فتوجهت إلى صوانها ، وأخرجت منه قبضة من النقود الذهبية التى كانت قد تسلمتها منذ قليل ثمناً لراء وس من الماشية أتمت صفقتها ، وأعطت المبلغ لخوان برمييتو قائلة :

- خذ هذا القدر فاحمله إليها ؛ فإن فيه خمس عشرة قطعة من الذهب ، وقل لها أن تذهب من هنا مع أبيها وتقطع كل صلة لها بهذه الأرض ، ولتجتهد فى ألا أعرف عنها شيئاً بعد الآن .

ومضى خوان بريميتو بما حمل من مال ، وهو يقطع الطريق فى وثبات سريعة هائلة ، وقد ملأه الفرح لنجاحه فى مهمته ، ووصل إلى بيت ماريسيلا وهو يلهث ، فأخرج منديله الذى أودعه النقود وقدمه إليها وهو يقول :

- انظرى إلى هذا ياطفلتى ماريسيلا ... وتحسسيه بيديك . إنه ذهب ! خمس عشرة قطعة من الذهب تبعث السيدة بها إليك . عديها حتى ترى ما إذا كانت كاملة العدد ! ...

فأجابته ماريسيلا :

- ضعها على هذه المائدة .

ولم تمالك شعوراً بالخجل والذلة يغزو نفسها ؛ إذ اضطرت إلى هذه الوسيلة المهينة للحصول على المال حتى تحرر نفسها وأباها من ربة مستر دينجر وتستغنى عن لفائف الطعام التى ظل أنتونيو يرسل بها إليها من ألتاميرا ، والتى كانت تعتبرها ضرباً من ضروب الصدقة والإحسان .

ورآها خوان بريميتو كأنها تعاف لمس النقود ، فقال لها وهو يتوجه لغسلها فى ماء الجب :

- لعلك مشمئزة من المنديل الذى حملتها فيه ياطفلتى ماريسيلا . انتظرى إذن لحظة فإنى سوف أغسلها وأقدمها لك نظيفة تلمع .

- لا حاجة بك إلى ذلك ، فإنك مهما غسلتها فسأظل متقززة دائماً من لمسها . دعها فى مكانها ، فليس منديلك هو الذى يبعث فى نفسى ذلك الشعور . فأجاب الغبى :

- لا تكونى بلهاء ياماريسيلا . الذهب ذهب ، وسواء أتى من هنا أو من هناك فإن بريقه هو بريقه . إنها ثلاثمائة «بيزو» ! بهذه الدراهم تستطيعين أن تتخذى رأس مال يدر عليك دخلاً ثابتاً وفيراً . إن فى «مجاز الخوار» على

الضفة المقابلة لنهر «الأراوكا» حائاً معروضاً للبيع ، فإذا كنت تريدني فإنني مستعد للذهاب إلى هناك في وثبة واحدة لأسأل لك بكم يعرضونه حتى تقومي بشرائه . إن هذا عمل رابح مضمون الكسب ياماريسيلا ، فهو في موضع يكثر الناس من التردد عليه ؛ إذ لا يجتاز به أحد قادم من هناك إلا وقف لدى ذلك الحان ، ولا أقل من كأس يشربها فيه ، ولو أنك أزمعت شراءه فأنا على استعداد للذهاب معك لكي أشتغل بخدمة العملاء فيه بغير أجر . دعيني أذهب إلى هناك حتى أسأل لك عن ثمنه .

- لا ، لا . اتركني أفكر في الأمر أولاً ، والآن اذهب ودعني وحدي فليس لدى اليوم من اعتدال المزاج وطيب النفس ما يسمح لي بمبادلتك الحديث . فخذ لنفسك قطعة من هذه القطع واترك الباقية على المائدة .

- أتريدني مني أن أضع يدي على إحدى هذه القطع لأخذها لنفسى ؟ شلت يدي إذن ياماريسيلا ! تبارك اسم العذراء الطاهرة ! خير لي إذن أن أذهب . آه ... لقد نسيت أن أبلغك أن السيدة تقول لك ... لا ... لا شيء ! وأخيراً افعل ما قلت لك : اشترى ذلك الحان القائم على الجانب الآخر من المجاز ، فإنها صفقة رابحة ، وبذلك تذهبن بعيداً عن هذا المكان الذي لا ترغبين في المقام به .

ومضى خوان برمييتو ، وبقيت النقود الذهبية على المائدة ، وأخذت مارييسيلا تفكر في هذا المشروع الذي اقترحه الرجل عليها :

- صاحبة حان ؟ وأي ضير في هذا ؟ ... وهل أطمح إلى ما هو أكثر من كسب معاش ثابت، لي وراء رف مشرب ؟ ... صاحبة حان ! ... وأخيراً سأتزوج ، أو أعيش من غير زواج مع أجير من أجراء هذه الضياع ... وربما شاءت الصدفة بعد ذلك أن يمر الدكتور لوئاردو يوماً على حاني ، فيتوقف ويطلب إليّ أن أقدم له شراباً ... أما الخمر فلا ؛ فهو لا يشرب ، ولكنه قد

يطلب إلى أى مشروب آخر ، فأبىعه إياه ، ويتناوله ثم يذهب ، دون أن يتبين له أن التى قدمت شرابه هى ماريسيلا ... ماريسيلا نفسها ... تلك التى قدم بها العهد ، ومضت الذكريات ! ...

ومرت على ذلك ساعات ، ثم دخل عليها مستر دينجر ، فلما رأى النقود الموضوعة على المائدة - وكانت قد تركتها فى مكانها منذ خروج خوان برميبتو - اتخذ من ذلك مادة لبعض مداعباته ونكاته المعهودة ، حتى إذا فرغ وهم بالانصراف توقف قليلاً ثم أخرج من جيبه ورقة مكتوبة ، فبسطها وقدمها إلى لورنثو باركيرو وهو يقول :

- وقع هنا يا غلام ! إن هذا هو وثيقة عقد البيع الذى أتمنا صفقته بالأمس .

ورفع لورنثو رأسه إليه بعد أن بذل جهداً كبيراً ، وأخذ ينظر إليه فى تخدر وذهول من حضيض سكرته النكراء وهو لا يعى شيئاً ، ولكن مستر دينجر أسرع فوضع القلم بين أصابعه ، ثم أخذ بيده وحمله على وضع توقيعه فى أسفل الصحيفة ، وإن لم يكن فى خط هذا التوقيع من لورنثو باركيرو فى شيء إلا رعدة اليد التى كان الأجنبى يجربها على الورقة .

وصاح الأمريكى بعد أن انتهى من أمر التوقيع وهو يحفظ القلم فى جيب صدره :

- «أول رايت !» .

ثم بسط الورقة وبدأ فى قراءتها بصوت مرتفع :

- «أقر بمقتضى هذه الوثيقة أننى بعت للسيد جيرمو دينجر ابنتى ماريسيلا بخمس زجاجات من البراندى» .

كانت إحدى تلك الدعابات الوحشية التي اعتاد عليها الأمريكي ، ولكن ماريسيلا أخذتها مأخذ الجد ، فاندفعت إليه لتتزع «الوثيقة» من بين يديه ، بينما كان لورنثو يعود إلى الانغماس في غيبوبة عميقة ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء ، وتدلى من فمه خيط من اللعاب .

أما مستر دينجر فقد ترك ماريسيلا تختطف منه الورقة ، ومضى يطلق ضحكاته المدوية بينما كانت الفتاة تمزقها تمزيقاً شديداً ، ولكن قهقهة الرجل زادت من حنقها ، فصاحت به مزمجرة في صوت مبحوح ، وقد علت وجهها حمرة الغضب ، وبللت عينيها الدموع :

- اخرج من هنا أيها الوقح !

ولكن الأمريكي ظل يقذف بضحكاته القاصفة وقد نصب قامته الطويلة وفتح رجليه ، ووضع يديه على جانبي خصره ، فاندفعت ماريسيلا نحوه محاولة دفعه إلى خارج الدار .

غير أن قواها لم تكن كافية لتزحزح هذا الجبل الراسخ في الأرض قيد أنملة ، وأنفد ذلك صبرها وهاج من نار غيظها ، فانهالت بجمع يديها تمطر صدره الرياضي العريض بوابل من اللكمات ، دون أن يتحرك أو تنقطع ضحكاته الساخرة العالية ، أما هي فقد كان الغضب يزيد من توردها وبهاه طلعتها . ولم تنل ماريسيلا من ذلك الجهد إلا أنها أوجعت يديها وكادت تدميهما على ضلوع الأمريكي التي كانت في صلابة الصخر ، فلما أعياها الأمر أسرع فاختطف قلم الحبر الذي كان قد أودعه جيب صدره ، ففتحته واندفعت تحاول إغماده في عنقه ، ولكنه قبض على ذراعيها في شدة ، فأعجزها عن الحركة ، ثم رفعها في الهواء ، وظل يدور على عقبيه دورات عديدة ، وهي في يديه محومة حوله ، وضحكاته ماتزال تقصف في جو الغرفة ،

وأخيراً توقف، وأودعها الأرض ، وقد استولى عليها الدوار والغثيان ، فأجهشت بالبكاء وعاد هو فانتصب وانتصب أمامها مرة أخرى واضعاً يديه على وسطه، ولكنه توقف عن الضحك، وراح يشهق شهيقاً عالياً وهو يلتمها بنظرات قد ألهبته شهوة مسعورة .

وفي هذه الأثناء كان لورنثو باركيرو قد استيقظ على ضحكات الأمريكي وصيحات ابتته ، فتجمع في سريره يرقب المشهد ، ثم ثارت في نفسه الحمية ، فانتزع سكيناً كبيراً كان قد علق على حائط الغرفة ، وأقبل من وراء مستر دينجر ، وفي عينيه تعبير عن هياج مجنون ، يحاول إغماد السكين في ظهره .

ولكن ماريسيلا تنبّهت إلى ما كان أبوها يهيم بفعله ، فندت منها صرخة دعر ، فالتفت مستر دينجر خلفه ، وألقى على وجه المخمور صفعة قوية أفقدته توازنه ، فانكفاً على أرض الكوخ انكفاء رضت عظامه ، وهو يقذف بصيحة ألم وغضب مقهور لا حول له ولا قوة !

وأخرج مستر دينجر «بيته» ثم أشعلها في هدوء ، وهو مولٍ ظهره لماريسيلا ، وأقبل على لورنثو باركيرو يقول له بين نفثات الدخان :

- كانت دعاية أردت أن أمازح بها ماريسيلا ، إن مستر دينجر لا يعجبه أخذ الأشياء بالقوة ، ولكن على ماريسيلا أن تعلم أن مستر دينجر يريد لها لنفسه .

وواصل كلامه وهو يتأهب للخروج :

- وأما أنت ياسيد لورنثو فلا تعد إلى حمل سكين لمستر دينجر . وإلا فقل السلام على البراندي والنيذ وكل شيء آخر !

ولم يكد الأجنبي يغادر الكوخ حتى نهض لورنثو عن الأرض ، ودنا فى خطواته المتعثرة المتطوحة إلى حيث كانت ماريسيلا تتأوه وتنتحب ، فأخذ بذراعها ، وقال لها بصوت ينبض بالألم وإن كان ما يزال متسماً بالتبلد :

- هيا بنا يابتنى ... لنذهب من هنا !

وظنت ماريسيلا لأول وهلة أنه يهم بالعودة إلى التاميرا ، فتركته يساعدها على النهوض ، ومسحت الدموع من عينيها ، ولكن لورنثو مضى مواصلاً حديثه يقول :

- هناك ... لنمض إلى هناك ... إلى مستنقع الطين الرجراج حيث ينتهى كل شيء ... هيا بنا نلق بأنفسنا فيه ، ونضع بذلك حداً لهذه الحياة الملعونة .
وحيثذ أفاقت ماريسيلا فضبطت مشاعرها وتغلبت على آلامها وحاولت الابتسام وهى تحببه :

- لا ... لا يا أبى . خفض من روعك ! إنها لم تكن إلا دعابة من مستر دينجر . ألم تسمعه يقول لك ذلك ؟ هدى نفسك ، وعد إلى النوم مرة أخرى . لقد كانت دعابة ، ولكن عدنى بأنك لن تعود إلى طلب الشراب من هذا الرجل .

- لا ... لن أعود ، ولكنى سأقتله ... لا ... لم تكن دعابة ! لم تكن دعابة ! والآن ... أعطينى ... أعطينى تلك الزجاجة هناك ...

- لا يا أبى ... نشدتك الله . لقد وعدتني بأنك لن تشرب مرة أخرى . والآن استلق على سريرك ونم فى هدوء .. لقد كانت دعابة !

وربت الفتاة يديها على جبينه الذى كان يتصبب منه عرق لزج ، وظلت تمسح له شعره فى رفق ، وهى تهز سريره لتعيّنه على النوم ، وبقيت على

الأرض بجواره حتى رآته يغط في نوم عميق ، ثم جففت اللعاب المزبد الذى كانت خيوطه تنحدر من جانبيه فمه ، وقبلته فى جبهته ، وشعرت وهى تمس جبهته بشفتيها بتحول جديد يعتمل فى صميم روحها .

إنها لم تعد هذه الفتاة التى كانت تعيش فى التاميرا غير مبالية بما حولها ، متلهفة على السعادة تنشدها فى نهم وجشع ، فى وجهها ضحكة ، وعلى شفتيها أغنية وكأنما لا يعنيه شئ من أمر أيها . ذلك الحطام الجسدى والخلقى بمنظره المنفر المؤلم . كانت ماريسيلا فى شغل عن تلك الروح المعذبة بما كان قد تفتح أمامها من عالم مشرق يبهى عينيها نوره ، ويجتذب قلبها بما كان يتماوج فيه من مرح وسعادة . هذا العالم الذى لم يكن إلا قلبها الخافق بالأمل كان قد ظل مستغلماً تجثم فوقه الظلمات حتى كشفه لها سانتوس ، ولهذا فما كان لأحد أن يترعب فيه أو يملأه غيره . كان هو الذى غسل لها يديه ما كان قد تكاثف على وجهها من قدر ، وكلماته هى التى أماطت اللثام عن جمالها المخبوء الذى لم تكن تعرفه ، ودروسه ونصائحه هى التى أخرجتها من تبلد الجهل وفظاظة البداوة ، وأكسبتها من التهذيب والتحضر ما جعل منها روحاً رقيقة ، وذوقاً مرهفاً ، وحولت طباعها وعاداتها إلى ما ينسجم مع تلك الروح الرقيقة والذوق المرهف . كان قلبها الذى قد أفعمته السعادة أشبه بكهف تلاًل بالنور فجأة ، ولكن كان فى قرارته ركن صغير لم يزل بعد سابحاً فى الظلمات ، أما هذا الركن فإنه ينبوع الرقة والبر ، وإنما ظل كذلك - غارقاً فى الظلمات ؛ لأن الشعور الوحيد الكفيل بتفجيرهِ وإلقاء الضياء عليه كان هو الشعور بالألم .

والآن هاهى ذى قد ذقت مرارة الألم لأول مرة ، ومن ثم فقد تكشف لها فى هذه اللحظة ماريسيلا جديدة يبهى نظرها هذا الاكتشاف العجيب الذى انزاح ستاره لها فى جوف نفسها . إن نور الحنان يشرق الآن فى وجهها ويغمره

بشعاعه المقدس ، هو يجرى الآن فى عروق يدها التى أقبلت لأول مرة تربت فى رقة ولين على جبين أبيها المعذب معبرة عن شعور من البنوة لم تكن قد أحست به قط من قبل .

ها هو ذا لورنثو قد غاص بشقائه وتعاسته فى نوم هادئ مستكين بفضل مسحات ابته الرقيقة على جبينه وشعره ، وهو يغط فى نومه ، ولكن الفتاة ما تزال تجرى يدها على رأسه وهى تتأمله فى حنان ، ولكن عينيها كانتا تتجهان عفواً إلى ركن المائدة التى كانت قطع النقود الذهبية تلمع عليه منذ أن تركها خوان بريميتو هناك وإن كانت تنظر إلى تلك القطع بعينين لا تريان ، وظلت كذلك لحظات حتى ظهر على باب الكوخ أنتونيو ساندوفال .

وما إن أحست به ماريسيلا حتى أشارت إليه بالتزام الصمت واضعه سبابتها على شفتيها حتى لا تكدر على أبيها صفو هذه النومة الهادئة ، ثم نهضت من الأرض وخرجت لتستقبله فى خارج الكوخ حريصة على ألا يوقظ حديثهما أباهما عن رقاده الهنىء ، وكان التعبير الذى يفيض به وجهها وحركات يديها الهادئة تدل على مدى ذلك التحول الروحى العميق الذى انبثق فى نفسها ، حتى إن أنتونيو أحس بشيء من ذلك ، فسألها فى قلق :

- ماذا بك اليوم ياماريسيلا ؟ فإننى ألاحظ على وجهك اليوم شيئاً غريباً لا عهد لى به !

- آه ... لو علمت يا أنتونيو !... إننى أيضاً أشعر اليوم كأننى قد تحولت إلى إنسان آخر !

- إننى أخشى عليك أن تكونى قد أصبت بحمى من مستنقع الطين الرجراج .

- لا ... هو شيء آخر ، هو شيء يوجد أيضاً على صفحة المستنقع مادمت قد تعرضت لذكره : هو شعور بالسلام ... وبالطمأنينة العذبة إذا غمرت النفس ، إننى أحس بهدوء تنسكب مياهه الرفيقة على روحى حتى قرارتها ، هدوء أظنه هو الذى يحس به المستنقع حين يعكس على صفحة مائه صور النخيل والسماء بما يعبرها من غمام وطيور الكراكي والبلشون الواقعة على ضفافه .

واستبدت الدهشة بأنتونيو فقال :

- ماريسيلا ... أيتها الطفلة دعيني أقل لك ما أشعر به : إننى لم أسمعك من قبل قط تتكلمين بمثل هذه اللهجة ، ولا أكتمك سرورى لذلك وإعجابى به ؛ إذ إنه سيهبنى الجرأة على أن أفاتحك فى الأمر الذى دفعنى إلى المجئ اليوم إلى دارك . إن التاميرا فى أشد الحاجة إليك ياماريسيلا . فقد انزلت الدكتور فى طريق ليست طريقه ، ولن تؤدي به إلى نهاية طيبة . فقد كان - كما تعرفين - متمسكاً باحترام حقوق الآخرين إلى درجة الإسراف والاشتطاط . حتى ولو كانت هذه الحقوق منتزعة بالعسف والاعتصاب ، وكان لا يفعل شيئاً إلا إذا كان جارياً على جادة القانون ملتزماً للطرق المشروعة . أما الآن ، فهو على العكس من ذلك لا يخطر بباله عمل من أعمال العنف والتسلط إلا سارع إليه . وقد أقلقنى ذلك وشغل بالى ، فإن الدم إذا نزع فى عروق رجل إلى طبيعة آبائه وأجداده على هذه الصورة فمعنى ذلك أن الأمر خطير ينذر بوخيم العاقبة . وما كان ليؤلمنى الآن شيء بقدر أن أرى سانتوس وقد حلت به نهاية آل لوثاردو كلهم من قبله . لست أقول بذلك إنه ينبغي أن يفرط فى حقوقه أو يترك الآخرين يعبثون بها ويمدون أيديهم إليها ، ولكن لا حاجة به فى الوقت نفسه إلى الوثوب على حقوق الناس ينتهكها ماوسعه الانتهاك . إن كل شيء فى هذه الدنيا بين طرفى رذيلة : تقصير وإسراف ، وقد مضى الدكتور الآن فى طريق الإسراف حتى بلغ غايته . وإلا فكيف أصف ما فعله مع السيد جيرمو دينجر إن

لم أقل إنه عمل قبيح ما كان جديراً بأن يصدر عنه ؟ ولست بذلك أزكى هذا الرجل ، فنحن جميعاً نعلم أنه رجل سوء ، ويعلم الله أنني لم أقل لأحد شيئاً عن ذلك ، وإنما أنا أقوله لك إذ هو الحقيقة الواقعة . أما أمره بإقامة سياج على مرج «كوروثاليتو» على الرغم من تحققه من أن هذا المرج لم يعد ملكاً له فقد كان من ضروب الاستفزاز والإثارة ، وهو في حد ذاته اعتداء صارخ غير أنه لم يلبث أن زاد الطين بلة حينما قال لمستر دينجر متحدياً له : «إذا كنت معترضاً على ذلك ، فهل أنت مستعد لمنعى من القيام به بقوة السلاح ؟» فهذا الكلام لم يخلق لكى يفوه به سانتوس لوئاردو ، ثم إنه لا يمكن أن يترتب خير على مثل هذه الأعمال والأقوال ، فإن الأجنى فى هذه الأرض يتمتع دائماً من الحقوق والضمانات بما لا يعرفه المواطن . ولست على الرغم من ذلك قلقاً خائفاً مما سيجره هذا من عواقب ، ولكن قلقى وخوفى مما تعنيه مثل هذه الكلمات صادرة من فم الدكتور . ألا ترين أنت فى ذلك ما أراه أنا ؟ وكأن ذلك كله لم يكن كافياً ، حتى أتمه باقتحام أرض السيدة باربارا مرتين حتى الآن ليخرج ماشيته من هناك دون أن يلتزم بأدنى الشروط المتبعة فى مثل هذه الأحوال ، وهو استئذانها أولاً . صحيح أنه لم يخرج من أرضها إلا ماشيته هو ، ولكن الذى تفرضه علاقات الجوار هو أن يطلب إليها الإذن له فى ذلك كما اعتاد أصحاب الضياع أن يفعلوا هنا كلما أرادوا أن يخرجوا ماشيتهم التى ترعى فى مروج جيرانهم . ولست أقول ذلك تخلياً عن سانتوس أو تنصلاً من تبعة أعماله ، فقد قلت له من قبل حينما بادأ الناس بالعدوان : اعلم أنك فى أى طريق مضيت فكن على ثقة من أنني وراءك ومعك أيا تذهب ! غير أن كل إناء بما فيه ينضح ، ولهذا فما كنا ننتظر من سانتوس لوئاردو أن يتبع فى أعماله وأقواله ما لا نستغرب من السيدة باربارا .

فسأله ماريسيلا ووجهها يتضرج بحمرة الخجل ، وإن كانت السكينة التي ملأت نفسها منذ اكتشافها العجيب لنفسها ماتزال مرتسمة على أساريرها :

- وهل تعتقد يا أنتونيو أنني لو كنت هناك لما حدث كل ذلك ؟

فأجابها ساندرفال :

- انظري ياماريسيلا : لست أدعى ثقافة ولا علماً ، ولكن لى مع ذلك من نفاذ النظرة ما أستطيع أن ألمح به أشياء معينة ، وحتى لو صرفت النظر عما يمكن أن يكون بينك وبينه ، وهو شيء ليس من شأنى أن أعرف ما إذا كان صحيحاً واقعاً أم لا ، فإن الذى بوسعى أن أقول هو أن ... كيف أعبر لك عنه ؟ سأقوله لك بطريقتى الخاصة : إنك بالنسبة للدكتور - ومعدرة فى هذا التشبيه - أشبه شيء بالخداء الذى درجنا على أن نسوق به الماشية ، إذا لم تسمع الترنم به فإنها سرعان ما يدركها النفار والجموح ، فتظل مضطربة تواقه إلى الاستيحاش والتفرق . لست أدري ، ما إذا كنت قد أحسنت التعبير عما أردت أن أقول .

فردت عليه ماريسيلا وقد علت وجهها حمرة الحياء مرة أخرى ، وإن كان تشبيه أنتونيو قد لقى من نفسها قبولاً واعتباطاً :

- نعم ... إننى أفهم ما تريد أن تقول .

- الحمد لله . إذن أنتهى الآن من حيث بدأت : إن التاميرا فى حاجة إليك ياماريسيلا .

ولكن ماريسلا أخلدت لحظات إلى التفكير ثم قالت .

- إننى آسفة جداً يا أنتونيو ، ولكنى لا أستطيع الرجوع إلى التاميرا ، على الأقل فى هذه الأيام . إن أبى لا يوافق على ذلك ، وأنا لا أستطيع أن أعصى له

أمراً ، ثم إن لدى واجباً ينبغى على أدائه ؛ إذ إننى أريد أن أحمل أبى إلى سان فرناندو لأرى ما إذا كان فى وسع الأطباء هناك أن ينقذوه من داء الشراب ويصفوا له من العلاج ما قد يرد عليه بعض صحته ، فقد حطمه المرض ، وذهب بكل ما له من قوة .

فعاد أنتونيو يقول :

- ولكنى لا أرى بين الأمرين تعارضاً يمنع من الجمع بينهما .

فقالت ماري سيلا :

- بلى . أما أبى فإنه لا يريد العودة إلى ألتاميرا ، وما كان لى أن أخالفه فى هذا الأمر ، ثم إننا قمنا بالتجربة فى ألتاميرا ، فلم تأت بنتيجة مرضية ... انظر إليه الآن إلام انتهى ! ربما كان صحيحاً ما تقول من أن ألتاميرا فى حاجة إلى ، ولكن أبى هنا إلى أحوج .

- هذا صحيح لاشك فيه : فأبوك أولاً وقبل كل شىء ، ولكن ... من أين لك المال اللازم للذهاب إلى سان فرناندو ولعرضه على الأطباء ؟ أتريد أن أتحدث فى هذا مع الدكتور ؟

- لا ... لا تقل له شيئاً على الإطلاق . إن لدى من النقود ما يكفى لذلك . لقد طلبته ممن كان ملزماً بأن يعطينى إياه .

فقال أنتونيو وهو ينهض للانصراف :

- حسناً ليكن ماترين ، سيظل سانتوس من غير حذاء يسكن ما جمع من نوازه ، ولكنك محقة فيما قلت : أبوك أولاً وقبل كل شىء . وإنى أسأل الله أن توفقى إلى هذه الأدوية التى ستبحثين عنها للسيد لورنثو ، ولكن مثل هذه الرحلة تقتضى دابتين لكما وشخصاً يرافقكما . فإذا كنت تريدين ألا أتحدث

إلى الدكتور عن ذلك فإننى أستطيع أن أرتب لك الأمر دون أن يعلم ، فأرسل إليك رجلاً موضعاً لثقتى من رجال الضيعة ومعه دابتان لك ولأبيك، ولو أننى أرى من الخير أن تذهباً فى أحد المراكب ، فإننى لست أظن أن السيد لورنثو فى حالة تسمح له باحتمال سفر شاق طويل على ظهور الخيل .

- الصواب مارأيت ، فهو فى غاية من الضعف والتهالك .

- إذن دعى لى هذا الأمر ، فأنا زعيم بتدبيره لك ، فمن المحقق أنه سيمر علينا بين اليوم والغد أحد تلك المراكب التى تأتى مصعدة فى مياه «الأراوكا» ، وأرجح الظن أنه سيكون فارغاً ، ففى وسعك أنت وأبوك أن تجدا فيه مكاناً يكفيكما حتى يوصلكما إلى سان فرناندو .

ومضى أنتونيو ، أما ماريسيلا فقد عادت إلى البيت ، فوقفت لحظات أمام السرير الذى كان أبوها مستلقياً عليه ، وجعلت تنظر بعينين ملوئهما الحب والعطف إلى ذلك الوجه الذى حفرته الأخاديد... نظرات لم يسبق لها أن رمقته بها تتأمله كما تفعل الآن، ثم دنت من المائدة ، فتناولت من فوقها تلك النقود الذهبية التى ستمكنهما من عرض أبيها على الأطباء ومحاولة شفائه ، وحينما قبضت يداها على هذه القطع لم تشعر بأى تفرز أو نفور . لم يكن خوان بريميتو قد غسل تلك الدراهم ، ولكن هذا الينبوع الخفى الذى اكتشفت وجوده فى قرارة نفسها فى ذلك اليوم : ينبوع الرقة والبر كان كفيلاً بأن يسكب على نقود أمها من مياهه الصافية ما يطهرها تطهيراً .

الفصل السابع

تدبير غامض

أشعة شمس الأصيل تلقى ذهبها السائل على جذوع الأشجار المنتصبة فى الفناء، وعلى أعمدة السياج الخشبي، وعلى الحظائر، وعلى أوتاد الأكواخ الرابضة تحت الظلال البنفسجية التى تلقيها السقوف الشهباء، وأخيراً غاب القرص الذهبى منحدرًا وراء الأفق، مخلفًا على فضاء المروج الهائل سحبًا طويلة تعترض الأفق الذى كان الظلام يهبط عليه شيئًا فشيئًا كأنها شرائح ضخمة غليظة من معادن منصهرة، بعد أن ألقى عليها الشفق ألوانه المحمرة التى تشع الوهج والحرارة. وهناك على مدى البصر نخلة وحيدة سامقة تخط قوامها الفارع على صفحة الفراغ الذى كانت تسطع فيه آخر أشعة الشمس الغاربة.

من وراء هذا الأفق البعيد كانت تقع التاميرا، وإليها كانت تتطلع نظرات السيدة باربارا التائهة كأنما كانت تريد أن تستشف الفضاء وتخرق الأبعاد.

وكان قد وصل إلى «ضيعة الرعب» منذ ثلاثة أيام نبأ إحراق بيت «الماكانيال» وسجن الأخوين «الموندراجونس» بعد أن سلمهما سانتوس لوثاردو إلى السلطات، كذلك وصلت أنباء اقتحام سانتوس ورجاله لأرض ضيعة الرعب مخرجًا منها رءوس ماشيته دون أن يستأذن من السيدة باربارا قبل الشروع فى تلك المجاولات فى أرض غريبة، أما رجال ضيعة الرعب فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تلقى إليهم سيدتهم بإشارة البدء فى أعمال الثأر والانتقام.

وطال انتظارهم دون أن يبدو على السيدة أنها مقبلة على اتخاذ قرارها فى ذلك، وأخيراً قرر بالينو باييا أن يضطلع بسؤالها الشروع فى أعمال الانتقام،

ودنا بالبينو إلى حيث وقفت السيدة باربارا متكئة على خشب السياج ونظراتها الشاردة الساهمة تتأمل المروج فى تفكير عميق صامت .

ولم يقدم بالبينو على الدخول فى الموضوع الذى أتى من أجله ، بل أراد أن يمهد له تمهيداً ملائماً ، فأقبل ينتقل من موضوع إلى آخر فترة ما ، ولكنها لم تكن تعبر حديثه كثيراً من الاهتمام ، بل كانت تجيبه بكلمات مقتضبة من مقطع واحد ، وكانت تتخلل عباراتها لحظات طويلة من الصمت كانت تزايد وتستطيل حتى لا تبدو لها نهاية .

وفى هذه الأثناء كان رعاة الضيعة قادمين ببعض القطعان لإيداعها الحظائر ، وأغانيهم وحدائهم تتردد فى الفضاء الهائل الصامت .

ووصلت الرءوس الأولى من القطيع يتقدمها قائدها ، وكان ثوراً كبيراً سنجابى اللون ، على أن هذا لم يلبث أن توقف فجأة لدى شجرة التين التى كانت تظلل باب الحظيرة ، ثم أطلق خواراً شديداً رج المكان كله ، وذلك أنه قد شم رائحة دماء كانت متخلقة بعد ذبح أحد رءوس الماشية هناك فى صبيحة ذلك اليوم ، واضطرب القطيع من ورائه ، وبدأ فى الحركة التى كانت تنذر بالثورة والجموح ، أما الثور السنجابى فقد ظل يدور حول الشجرة ويشير الأرض بأظلافه ويشممها متحققاً من ذلك الشئ الفظيع الذى حدث فى هذا المكان ، فلما لم يبق هناك شك أطلق خواراً آخر هائلاً لم يكن فى هذه المرة يعبر عن خوف ولا ألم ، ثم انطلق إلى المروج الفسيحة ورءوس القطيع تركض من ورائه هاربة .

وصاح بالبينو فى الرعاة وهو يريد أن يريهم سلطانه وقدرته على الأمر والنهى .

- من منكم هذا الذكى الذى اختار باب الحظيرة لكى يذبح عنده البهيمة
هذا الصباح ؟

هذا بينما هرع الرعاة على صهوات جيادهم لكى يسدوا تلك الثغرة ،
ويلاحقوا الماشية الهاربة حتى يعيدوها إلى حظائرها . وأخيراً استطاعوا تجميعها
من جديد وسوقها إلى حظيرة أخرى بعيدة عن شجرة التين .

وأغلق الرجال أبواب الحظيرة ، ولكن البقر ظل فى داخلها يضطرب
ويخور فى جزع وخوف ، وفجأة قالت السيدة باربارا :

- حتى الماشية نفسها تتقزز وتفزع من دم أمثالها !

ونظر إليها بالينو نظرة خزراء وقد علت وجهه الدهشة ، وتساءل مخاطباً
نفسه :

- ياللعجب ! أمثل هذا الكلام يصدر عنها هى ؟

ومضت لحظات ، وواصل بالينو تفكيره مخاطباً لنفسه :

- هم ... م ... م ! ليس فى العالم «بوصلة» يمكن للمرء أن يكشف بها
عن اتجاهات هذه المرأة ونزعاتها وما يدور فى خلدتها . إن الحصان - وهو بهيمة
عجماء - لا يعسر على الرجل منا أن يعرف فيم يفكر إذا نظر إلى أذنيه فرأى
أيهما أmaal ، أما هذه المرأة فإن الذى يحاول أن يستكنه سر ما يدور فى تفكيرها
يكون أشبه بالراقص على الحبل .

ثم انصرف عنها فى يأس .

والواقع أن معرفة ما كانت تفكر فيه باربارا لم تكن عسيرة مستعصية على
بالينو بايما وحده - فقد كان هذا بطبعه غيباً بطئ الفهم - بل إنها هى نفسها لم
تكن فى هذه اللحظة تعرف حقيقة ما كانت تفكر فيه وتدبره .

لقد كانت باربارا تريد فتح صفحة جديدة فى كتاب حياتها وسلوك سبيل
أخرى غير التى سلكت حتى ذلك الوقت ، ولكن ماضيها وأعمالها عادت مرة
أخرى تسد عليها الطريق . إن كلمات لوئاردو التى ألقى بها فى وجهها معرضاً

بأنها هي مدبرة جريمة «مرج الشجرة» مازالت تتردد في أذنيها ، وهي التي كانت مقدمة في هذه اللحظة عينها على أن تبوح له بأنها قد اكتشفت مرتكب الجريمة أو كادت ، وبأنها ستسلم الجاني إليه شخصياً بمجرد وضع يدها على القرائن الكافية . لقد كانت شكوك سانتوس فيها هذه المرة ضرباً من الظلم والافتراء ... ولكنها تمنع في التأمل فيسوقها ذلك إلى هذه النتيجة : ولكن ألم يكن في هذا الاتهام الظالم أولاً وأخيراً تحقيق لحكم من أحكام العدالة في تصرفاتها وجرائمها الماضية ؟ وإذا كانت حقاً بريئة من جريمة «مرج الشجرة» فكم من جريمة دامية وكمين غادر احتفظت بأسرارها أدغال تلك المروج ومكامنها ؟ وإذا كان بالبينو باييا هو الذي لطخ يده بدم ذلك القتل لرغبة في نفسه دفعته إلى اقتراف تلك الجناية لحسابه هو فكم من مرة أخرى كانت يد ملكيادس هي صاحبة الضربة الغادرة القاتلة تنقض على السائر في تلك المروج من حيث لا يحتسب ، بتدبير منها هي أحكمته ووضعت خطته ؟ ثم بالبينو باييا نفسه ، ألم يكن بالنسبة لها مخلب قط تستخدمه أداة طيعة لتنفيذ خططها الشريرة البشعة ؟

نعم ... كانت كل هذه الجرائم لاتنفك تعرض لباربارا فتقف أمامها عشرات في تلك الطرق الجديدة التي كانت تحاول انتهاجها ، فظلت خلال هذه الأيام الثلاثة منقطعة إلى التفكير في ماضيها الأسود ، وسيط من الغضب تنهال على قلبها واحداً بعد الآخر ضد جميع من كانوا أعوانها أو أدواتها في تلك الجرائم : ضد بالبينو باييا الذي علق سانتوس على رأسها جريمته ، وضد حامى ظهرها المشئوم الذي احتفظ صدره بكل ما اقترفت يده بأمرها وتدبيرها ، بل كانت نار غضبها تتأجج فتقلب أيضاً على ضحايا جشعها وقسوتها ، فقد كانت لا تخليهم من تبة تلك الطريق التي أمضت حياتها فيها ؛ إذ إنهم اعترضوا حياتها «فاضطروها إلى إزالتهم والتخلص منهم» ، وضد هؤلاء الرجال المحيطين بها في الضيعة ممن لم تكفهم كل تلك الجرائم ، فجاءوا يطالبونها بأن تبدأ سلسلة جديدة من أعمال الثأر والانتقام ، وهي تنعم النظر في

هؤلاء الرجال الذين كانوا يعملون فى خدمتها : إنهم ليسوا إلا عصابة من المجرمين وقطاع الطرق ، شركاء وصنائع لها فى جرائمها الماضية ، متعطشون إلى الدم ، فما أكثر ما كانوا يرفعون نظراتهم إلى وجهها حينما يرونها وكأنهم يتساءلون : « ما الذى تنتظرينه لكى تأمرينا بقتل الدكتور لوئاردو ؟ ألسنا هنا من أجل ذلك ؟ ألا يكفى ما فعله بنا حجة قاطعة تقتضى منا أن نسفك دمًا بدم ؟ » .

وأخيرًا انطلق خوان بريميتو إلى التاميرا يحمل رسالة إلى سانتوس لوئاردو :
- « فى هذه الليلة عند طلوع القمر سيكون فى انتظارك فى مرج «الركن العميق» شخص لديه ما يقوله لك حول جريمة «مرج الشجرة» ؛ فإذا كنت تجسر على لقائه فاذهب وحدك لتسمع ما سوف يلقيه عليك » .

وذهب خوان بريميتو ثم عاد إلى سيدته بجواب لوئاردو :

- « قل لها إنى موافق ، سأذهب وحدى » .

وكان ذلك فى الصباح بعد أن نادى ملكيادس وقالت له :

- أتذكر ما قلته لى منذ أيام ؟

- أذكره ياسيدتى ، وهو لا يفتأ ماثلاً أمام عيني !

- إذن كن مستعداً ، ففى هذه الليلة عند طلوع القمر سيكون الدكتور لوئاردو فى مرج «الركن العميق» .

- وأنا سأتيك به حياً أو ميتاً !

* * *

الليل يقترب ، وعن قريب سيمضى حارس ظهر السيدة باربارا فى طريقه إلى المكان الموعد ، ولكن باربارا لا تتمكن حتى هذه اللحظة من معرفة ما كانت هى نفسها تهدف إليه من هذا الكمين ، ولا أى شعور سيضطرب فى نفسها وهى تنتظر طلوع دائرة القمر فى الأفق .

لقد ظلت باربارا حتى ذلك الوقت سرّاً مستغلقاً على الجميع . كانت «المرأة الغامضة» التي لم يفتن أحد أبداً على حقيقة مراميها وأهدافها ، ولكنها الآن سر مستغلق على نفسها ، وهي لا تفكر في مراميها وأهدافها إلا ورأت نفسها في ظلام مطبق عميق .

الفصل الثامن المجد الأحمر

لم يفت سانتوس لوئاردو أن فكرة دعوته على هذه الصورة البعيدة عن كل منطق لكى يقع فى الكمين الذى أعد له لم تكن لتنبع إلا من ذهن مضطرب مخبول ، ولكنه كان بدوره قد بدت عليه مظاهر التهور وعدم الاتزان حينما قرر أن يغتحم هذه الفرصة لكى يثبت للسيدة باربارا أنها لن تكسب شيئاً من محاولة إرهابه ، وإذا كان قد ثبت له أنه لن يتمكن من المطالبة بحقوقه المغتصبة أمام سلطات القضاء التى كانت خاضعة لما يفرضه عليها العنف ، فإنه سيعرف كيف يحمى تلك الحقوق فى المستقبل مستنداً إلى القانون الوحيد الذى تدين به الهمجية : قانون القوة المسلحة . كان هذا العزم الجرى قد استقر فى نفس سانتوس لوئاردو حينما اتخذ طريقة وحيداً فى عصر ذلك اليوم إلى «الركن العميق» ، على أنه لم يذهب فى الموعد المحدد ، بل أراد أن يسبق الساعة حتى يتجنب أى ضربة غادرة توجه إليه تحت ستار الظلام .

ولكنه لم يكد يصل إلى قرب المكان الموعود حتى استطاع أن يتبين هناك فارساً قد وقف لدى سفح الجبل الذى كان يدور حول المرج الذى تحدد اللقاء فيه ، وخاطب سانتوس نفسه قائلاً فى غيظ :

- أنا هكذا دائماً ... أتخلف مهما أسرعت !

غير أنه لما دنا إلى حيث لاح له شخص الفارس إذا به يرى أنه باخاروتى . حتى إذا كان منه بحيث يسمعه سألته فى لهجه آمرة :

- ما الذى أتيت تصنع هنا ؟

فأجاب الرجل :

- سأشرح لك كل شيء يادكتور : حينما اجتمع بك خوان برميستو فى هذا الصباح ليبلغك الرسالة التى أوعزوا بها إليه ثار فى خاطرى أن ذلك شيء لا يمكن أن يأتى منه خير ، فتبعت خطاه وتركته حتى توارى عن نظرك ، ثم شددت وراءه حتى لحقت به ، وغرست مسدسى فى صدره لا لشيء إلا لبث الخوف فى نفسه ؛ إذ إنى أعلم أنه لا يكاد يرى مسدساً حتى تكاد روحه تزهب من جسده ، ثم أرغمته على أن يكرر على مسمى الرسالة التى حملها إليك ، وعرفت منه أيضاً أنك وعدت بالذهاب إلى الموعد ، ولقد هممت أكثر من مرة بأن أنصحك بالألا تفعل ، ولكنى كنت أرى على قسمات وجهك العزم الذى لا رجعة فيه ، وهكذا قلت لنفسى : إنه لم يبق إلا أن أسبقك إلى المكان وأقف إلى جوارك منتظراً لما يكون خيراً أو شراً .

فقال له سانتوس فى جفاف :

- لقد أسأت صنعاً بتدخلك هذا فى أمورى الخاصة .

- لست أعارضك فيما تقول ، ولكنى مع ذلك غير نادم على ما فعلت .

فإنه إذا كان من الحق أن لديك من الشجاعة ما ليس لدى كثير من الناس فاسمح لى أن أقول إنه ينقصك شيء من المكر والدهاء . هل تعرف يا سيدى ما إذا كان القادم للاجتماع بك رجلاً واحداً ؟ .

- حتى ولو كانوا رجالاً كثيرين ، فاذهب ودعنى وحدى .

فأجاب باخاروتى وهو يحك رأسه :

- انظر يادكتور . الأجير من أمثالى أجير على كل حال ، وعليه أن يسمع ويطيع إذا ما أصدر إليه رئيسه أمراً ، ولكن اسمح لى بأن أذكرك بشيء : هو أن رجل السهول ليس أجيراً إلا فى أثناء العمل ، أما فى هذه الساعة التى نحن فيها ، وفى ذلك الموضع الذى اجتمعنا لديه ، فليس هناك أجير ولا رئيس ، بل رجل هو أنت ، ورجل آخر يريد أن يظهر لك أن مستعد للتضحية بحياته فى

سبيلك ، ولهذا فإنه قدم وحده وكان بوسعه أن يحضر معه رفاقه وأصحابه ...
قدم حتى يتحمل معك ما يمكن أن تتعرض له من سوء. هذا الرجل هو أنا ، وهو
لن يتحرك من هذا المكان .

وبلغت كلمات باخاروتى الصريحة من نفس سانتوس لوثاردو كل مبلغ ،
بما فيها من تعبير صادق ، لاتعمل فيه ، عن الإخلاص والولاء ، حتى إنه بدأ
يراجع نفسه ويقول إن القوة المسلحة ليست هى كل شىء فى قوانين حياة
السهول ورسومها ، بل إن فيها وفى أهلها خلافاً أخرى جديدة بأن يقدرها المرء
حق قدرها ، وقبل سانتوس رفقة باخاروتى بعد أن شد على يده فى صمت .

وأضاف باخاروتى :

- ولتذكر أيضاً يادكتور ما أنا قائل لك فهو خلاصة تجربة طويلة : إن
السهلى يمكن أن يذهب وحيداً إلى حيث يقولون ، ولكنه لايجئ إلا وفى رفقته
أحد ، أما العكس فإنه لا يحدث على الإطلاق . وشىء آخر لاتنسه أبداً : ابدأ
بالهجوم إذا رأيت نفسك فى خطر ، لقد فتشت نواحي هذه الجبال كلها ، فتبين
لى أن المدخل منها ينبغى أن يكون فى هذا الاتجاه الذى نحن الآن ناظرون إليه .
فلنعمل على الاختباء وراء هذه الشجيرات ، ولتربص هناك حتى يطلع علينا
القادم أو القادمون ، وحينئذ نخرج ونحن عارفون على أى صورة نرد الهجوم ،
ولكننا إذا فعلنا فلا بد أن ننقض بسرعة حتى نفاجئ الخصم ، واعلم ياسيدى أن
الذى يضرب أولاً فإنه يضرب مرتين .

وكمنا الاثنان فى المكان الذى اختاره باخاروتى ، وظلا هناك وقتاً طويلاً
وهما يرقبان البطحاء الممتدة فى سفح الجبل من حيث ينبغى أن يخرج القادمون
من «ضبعة الرعب» ، وكانا ملتزمين للصمت ، وإن كانت تتردد فى آذانهما
أصوات جماعات القرودة وهى تتلاغط متوجهة إلى مواضع نومها المعتادة .
وهبط الظلام على المكان فغمره كله ثم بدأ القمر فى البزوغ من أقصى أطراف
المرج ، ومع أشعته الأولى بدا فى الأفق شبح «الساحر» على ظهر حصانه ، فلما
رآه سانتوس تمتم وقد بدت على وجهه علائم الاستياء :

- إنه قادم وحده بالفعل ، بينما أنا أنتظره ومعى رفقة .

فأجابه باخاروتى وهو يريد أن يخفف عنه ويزيل تخرجه :

- تذكر ياسيدى ماقلته لك منذ قليل : السبق بالهجوم إذا شممت الخطر أو توقعت الغدر ، وما فى أخذ الحذر عليك من عار . إن هذا الرجل آت وحده على ما يظهر ، إلا إذا كان له رفاق قد كمنوا من ورائه فى بعض المراصد . ولكن هاهو «الساحر» ، وهو رجل لم نعهد منهم أن يبعثوه لكى يطرب الأسماع بحديثه . وإذا كان قادمًا وحده فالأمر أسوأ والنية على الشر أعظم ؛ إذ إنه ممن لا يقبلون رفقة أحد إذا كان موفدًا لمهام معينة لها خطرها ، فاتركه يطمئن ويستوثق حتى يخرج من تلك البطحاء ، ثم نطلع عليه نحن . ولو أنى أوشك أن أقول لك : دعنى أنا له ، فأنا كفىل بأن أستل هذا الشبح من ثيابه على الرغم من كل ما شاع من شهرته وصيته ، فإن أشجع منه وأكبر قد تركوا من قبل قمصانهم بين يدى هاتين !

فقال لوئاردو :

- كلا ! إن هذا الرجل قادم إلى ، وعلى أنا أن أخرج إلى لقائه وحدى دون غيرى ؛ فأبق أنت هنا ولا تتحرك .

ثم خرج من مكمنه إلى حيث المرج المكشوف .

أما «الساحر» فقد واصل التقدم ، ومطيته تسير به فى بطئها المعهود، ولكنه توقف بعد ذلك فجأة ، وتوقف سانتوس أيضاً وظل الرجلان يرقب أحدهما الآخر من بعيد فى صمت ، وبدأ على «الساحر» أنه لا ينوى المضى فى طريقه ، ونفذ صبر لوئاردو وهاج الانتظار من أعصابه ، فهمز جواده وركض بسرعة قاطعاً المسافة التى كانت تفصله عن الرجل الواقف إزاءه .

وقال لوئاردو :

- إذن هم ضربوا لى هذا الموعد حتى تتمكن أنت ومن معك من قتلى
كما يقتل كلب من الكلاب ؟ فإذا كان الأمر كذلك فليخرج
رفاقك الكامنون وراءك مرة واحدة .

وأحس سانتوس بحركة من خلفه ، فقدر أن باخاروتى لم يطع أمره بالبقاء
ساكنًا فى مكمنه ، بل مضى من ورائه يتعقب خطاه ، فهم بالالتفات إليه حتى
يأمره بالتراجع ، وفى هذه اللحظة رأى التماع مسدس «الساحر» وهو يخرج
فى سرعة من ملحفته التى بسطها على ظهر الجواد .

وأخرج لوئاردو مسدسه فى عجلة ، ثم دوى فى الجو صوت طلقتين فى
وقت واحد ، وإذا بملكياس ينكفى على عتق مطيته ، فتملك الذعر جواده ،
ونفر قاذفًا به إلى الأرض ، فهوى جسد الرجل صريعًا لليدين وللنم ، جامدًا
لا حراك به .

وأحس سانتوس فجأة بهول مافعل ... كان إدراكه للموقف أشبه بوميض
برق ساطع لمع فى روحه فجأة ، ولكن وقع عليه كان كوقع فأس على عنقه ...
لقد أزهق روح رجل !

ودنا منه باخاروتى ، فأخذ يتأمل جسد القتل لحظة ثم قال :

- حسنًا يادكتور . والآن ماذا نفعل بهذا الميت ؟

وكان سانتوس لوئاردو فى شغل عن سؤال تابعه ، فقد كان سادراً فى
تفكير عميق بعيد حتى إن كلمات باخاروتى الموجزة الواضحة بدت كأنما لم
تصل إلى حيث قبع ضمير لوئاردو إلا بعد رحلة طويلة اخترقت فيها أجواء
فضاء واسع حتى تحدرت إلى غور سحيق . وأخيراً اضطر باخاروتى إلى
الإجابة عن سؤاله :

- خير ما نستطيع أن نفعل هو أن نثبته على دابته ، ثم أربطها إلى دابتي ،
ونمضى به إلى بيوت «الرعب» ، حتى إذا بلغناها فككت جواده وهجهجت به
حتى يركض إليهم ، ثم أصبح بهم : «إليكم ذلك الشئ الذى بعثتم به إلينا
فى الركن العميق !» .

وبدا على سانتوس كأنما كان يصحو من حلم ثقيل مخيف ، ثم ترجل عن دابته وقال :

- أعطنى جواد هذا المجرم . سأتكفل أنا بحمل جثته إلى التى بعثت بها إلى .

وردد باخاروتى إليه أنظاره ، فإن اللهجة التى نطق بها سانتوس لوئاردو هذه الكلمات كانت تلقى على صوته مسحة غريبة لم تعهد فيه من قبل ، كذلك كان التعبير المظلم المتوحش الذى ارتسم على وجهه جديداً غير مألوف :

- افعل ما أمرتك به . أعطنى هذه الدابة .

وأطاع باخاروتى ، ولكنه عاد إلى اعتراض سانتوس من جديد حينما رآه منحنيًا على الجثة محاولاً رفعها عن الأرض :

- لا ياسيدى الدكتور . هذا عمل لا يليق بك أن تقوم به . احمل أنت جسد هذا الرجل إذا شئت إلى السيدة باربارا مادمت مصراً على أن تقدم إليها هذه الهدية ، ولكن على باخاروتى أن يتولى رفعه عن الأرض ، فأمسك أنت الدابة ريثما أضعه على عنقها .

وأتم الرجلان العمل ، ثم ربط باخاروتى مطية «الساحر» إلى حصان سانتوس ، وأراد أن يظل ملازماً له فى مسيره ، ولكنه خشى أن يأبى لوئاردو ذلك عليه ، فعمد إلى الحيلة ، وقال لسانتوس ناصحاً له :

- إنى أرى هنا على الأرض آثاراً لأظلاف بعض ماشية «ضيعة الرعب» ، فلو أننا تبعناها لأوصلتنا سريعاً إلى بيوت الضيعة ، فلنسر فى اتجاهها .

ووافق سانتوس على مرافقة باخاروتى له ، ولكنه لم يكد يصل إلى حيث تراءت لهما بيوت الضيعة حتى قال لتابعه :

- انتظرنى هنا .

وعاد سانتوس إلى تأمل نفسه . ها هو ذا يرى أخيراً كيف بدأ هذا الإرهاب الذى كان يعتمل فى نفسه يتحول إلى حقيقة رهيبة على الرغم من إرادته ، لقد كان أكثر ما يخشاه هو أن يعود إلى تلك الهمجية التى طالما جثمت مشاهدتها المفزعة على صدره فى صباه المبكر ، ولكن ها هو ذا نفسه يعود إلى الوقوع بين براثنها مرة أخرى على أسوأ صورة ، وها هو ذا يرى كيف تنتهى إلى فشل ذريع كل تلك الجهود التى بذلها حتى ينجو من سيف الوحشية المصلت على حياته ، وحتى يخمد هذه الانفعالات المتهورة العنيفة التى كانت جذوتها كامنة فى دماء أجداده وآبائه من آل لوئاردو ، أولئك الذين توارثوا المزاج المتفجر كابرأ عن كابر ، والذين كانوا لا يدينون إلا بشريعة الشجاعة المسلحة المتوحشة . لقل ظل سانتوس طيلة سنواته الماضية فى المدينة يجتهد فى أن يتحول إلى رجل متحضر لا ينقاد لعواطفه ، بل يخضع هذه العواطف لمنطق المبادئ وأحكام المثل ، وكان يبذل فى سبيل ذلك جهداً لا يفتقر ، ويواصله بعزيمة لا تلين ، ولكن كل هذا العمل الذى استغرق منه خير سنى حياته قد انهار فى لحظات كأن لم يكن ، فى أمسية ذلك اليوم الذى أراد أن يستعرض فيه جراته ورجولته ، فمضى بقدميه إلى الكمين الذى نصب له فى «الركن العميق» .

ولم يكن أهول ما فى الأمر وأبشعه كونه اضطر للدفاع عن نفسه بقتل روح حية ، ولا ذلك الموقف الوحشى الذى جعله يرتكب خطيئة ترتعد لها أوصال المبادئ والمثل التى تأصلت جذورها فى نفسه ، وإنما كان اكتسابه مثل هذه التجربة التى كتبت عليه كما يكتب القدر هو ما يثير الرعب والهول فى نفسه ، كان هو شعوره بأنه قد اندرج منذ تلك اللحظة فى سلك أولئك الرجال الذين تلوثت أرواحهم وأيديهم بالدم المسفوك . كان سانتوس لوئاردو يقدر ذلك العمل الذى أتيته يده : صحيح أن لقتله ذلك الرجل - وإن كان أمراً ممكن التجنب لو أنه عدل عن قبول التحدى والمضى إلى الكمين المدبر - عوامل تخفف من وقعه ، بل وتبرره ، فهو لم يقتل إلا دفاعاً مشروعاً عن النفس ؛ إذ كان ملكيادس هو البادئ بمد يده إلى السلاح ؛ ولكن كسب تلك التجربة

نفسه هو الذى وصم روحه بوصمة لا يغفر فيها ذنب ولا يشفع تبرير ، فهو أمر لم يكن نابعاً من اندفاع تلقائى ولا إرادة مبيتة ، بل هو ناتج عن اتفاق ظروف مشنومة لا تجتمع إلا فى هذه البيئة المتوحشة المسيطرة على السهول . لقد انتمى لوئاردو بهذه الفعلة إلى زمرة الرجال الذين اضطروا إلى تحقيق العدالة بأيديهم المسلحة ، وهذا هو أسوأ مافى الأمر ، وهو الحقيقة التى ليس الآن منها مفر ولا مهرب . منذ الآن سيظهر ذكره فى حوض الأراوكا تتوجه أكاليل الغار الأحمر بعد أن قتل حامى ظهر السيدة باربارا وأكثر رجالها بطشاً وجرأة ، ومنذ الآن ستظل حياته كلها حتى آخر رمق له مرتبطة بهذا المجد ؛ إذ إن الوحشية لا تغفر لمن يحاول الملاءمة بينها وبين أفعاله ... الوحشية هى التى تسود وحدها تلك البيئة ، وعلى من يقبل السير فى طريقها أن يستسلم لأحكامها عند نداء السلاح .

ولكن ... ألم يكن يعرف - حينما قرر المضى إلى «الركن العميق» - أنه مقدم على قطع آخر خيط يربطه بالحياة المتحضرة ؟ ألم يكن منذ هذه اللحظة مصمماً على أن يصبح زعيم هذه السهول وقائدها الأوحده حتى يتخذ من ذلك وسيلة تمكنه من القضاء على همجية الإقطاعيين ؟ وكيف كان يتمكن من تحقيق ذلك إلا بالقوة المسلحة و «المجد الأحمر» حتى يتخلص من أعدائه وأعداء الحضارة ؟ ألم يقل من أول الأمر إنه يقبل الطريق التى رسموها له ، والتى كانت تقتضى منه أن يرد العدوان بالعدوان ؟ لقد مضى فى تلك الطريق ، وهو الآن لا يستطيع الرجوع .

وتقدم سانتوس لوئاردو وحده إلى بيت السيدة باربارا يحمل حمله الرهيب ... تقدم وحيداً وقد تحول إلى رجل آخر !

الفصل التاسع مهارشات مستر دينجر

كان مستر جيرمو دينجر يستعد للذهاب إلى فراشه حينما سمع نباح الكلاب في الخارج ، ووقع حوافر حصان يدنو من باب داره ، وتساءل الرجل وهو يفتح الباب ويطل منه :

- ترى من يكون القادم في مثل هذه الساعة ؟

وكان القمر قد بدأ في الطلوع ، ولكن مروج «القناة الملحة» حيث كان الأمريكي يقيم كانت ماتزال مجللة بظلام كثيف تحت سماء تلبدت فيها الغيوم ، فجعلت الجو حاراً خانقاً .

وصاح مستر دينجر أخيراً وهو يتبين طلعة ذلك الزائر الذي أتى على غير موعد :

- أوه ! السيد بالينو ! ما الذي أتى بك إلى هنا في مثل هذه الساعة ؟

- لا شيء إلا تحيتك ياسيد جيرمو ، فقد كنت ماراً من هنا بمحض الصدفة ، فلما رأيت نفسي قريباً من دارك قلت : لأعرج على السيد جيرمو حتى أحييه وأتحدث معه قليلاً ؛ إذ إنني لم أراه منذ أن قدم من «سان فرناندو» .

ولم يكن مستر دينجر ممن ينطلى عليه مثل هذا القول ، فهو لم يكن يثق في صدق بالينو ولا سيما في تلك العبارات التي حاول بها أن يصطنع علاقة من المودة لم تتوثق قط بينهما ، ثم إنه حتى ولو وجدت مثل هذه العلاقة فإن مستر دينجر ما كان ليعتز بها ولا ليقدرها ؛ إذ إن بالينو - بغض النظر عما كان يجمع بينهما من التواطؤ في بعض أعمال السطو - لم يكن بالنسبة إلى

الأمريكي إلا واحداً من هؤلاء الذين كان يسميهم «أصدقاء الويسكى» ، فقد كان الرجل يقدمه إليهم فى كرم وحفاوة .

ولهذا فإنه سرعان ما استقبله فى عبارات ترحيب مشوبة بالسخرية :

- أوه ! ياله من شرف عظيم قد أوليتنى إياه ياسيد باليبنسو؛ إذ جئت لتحتى فى هذه الساعة وأنا أكاد آوى إلى فراشى . شكراً جزيلاً ياسيد باليبنسو ! ألا ترى أن هذه العبارة تستحق كأساً من الويسكى ؟ تفضل بالدخول والجلوس ريثما أعد لك الكأس . ولا تخف من الفهد الصغير ؛ إذ لم يعد هناك خطر منه ؛ فقد مات مع شديد الأسف ... المسكين ! .

فصاح باليبنسو وهو يجلس :

- أحقا ! ياله من خبر محزن ! لقد كان هذا القلو حيواناً جميلاً حقاً ، وقد كنت شديد الولع به . لا بد أن فقدته كان شديد الوقع عليك ، فقد كان يؤنسك فى وحدتك .

- أوه ! تصور أنت : لقد كنت متعوداً على ألا آوى إلى مضجعى كل ليلة حتى أقضى معه وقتاً ليس بالقصير ألاعبه وأهارشه .

قال ذلك مستر دينجر وهو يصب الويسكى فى قدحين من زجاجة جديدة كان قد فتحها لتوه .

وشرب الرجلان كأسيهما ، ثم مسح باليبنسو شاربيه الغليظين وقال :

- شكراً ياسيد جيرمو ، جعله الله لك صحة دائمة .

ثم واصل حديثه :

- وأنت ... كيف أخبارك ؟ لقد مكثت فى «سان فرناندو» زمناً طويلاً فى هذه المرة ، ترى ذلك لنسيان الألم الذى خلفه فى نفسك موت الفهد ؟ لقد تردد بين الناس هنا أنك قد عدت إلى بلادك ، ولكنى كنت أقول لهم : إن السيد

جيرمو لن يعود إلى بلاده ، فقد أصبح جزءاً من هذه الأرض وأصبحت جزءاً منه ، بل إنه أكثر حقاً في المقام بها من كثير من أهلها ، ولو أنه غاب عنها زمناً لعاد به إليها حنينه إلى «الجواتشافيتا» (*) .

- صدقت ياسيد بالينو . لقد ذكرتني ... إن «الجواتشافيتا» هي ألد ما في هذه الأرض . وإنني في ذلك لأتمثل بما كان يقوله «جنرال» من قوادكم العظام لا أذكر اسمه الآن ؛ فقد كان كثيراً ما يقول : «إذا انتهت «الجواتشافيتا» من أرضكم فإنني ذاهب !» .

وأطلق ضحكة عريضة كوجهه العريض الأحمر :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ إنك قد أصبحت أكثر تأصلاً في أرضنا من صلصة «الجواساكاكا» (*) .

- و «الجواساكاكا» أيضاً لذيذة على الرغم من طعمها الحارق اللذاع . لكأن كل الكلمات التي تبدأ بمقطع «الجوا ...» هي المتعة بعينها : «الجواتشافيتا» ، و «الجواساكاكا» و «الجواريتشا» (*) الجميلة ... لنشرب كأساً أخرى نخب لذائد الحياة ، كما اعتدت أن أفعل في رفقة الأصدقاء الخالص حينما يضمنا مجلس شراب وأنس .

فقال بالينو في لهجة متملقة وهو يمهد الجوا لما أراد أن يمضي فيه من حديث :

- آه يامستر دينجر ! ألا ليت جميع الأجانب الذين يأتون إلى بلادنا مثلك !

ثم أقبل مستر دينجر على ضيفه يسأله وقد أخرج «بيته» وأخذ منها عدة أنفاس :

- وأنت ياسيد بالينو . كيف أحوالك ؟ وكيف حال العمل ؟ وهل السيدة باربارا كالعهد بها جمالاً وأنوثة ؟ إن هذه شيء لا يبدأ بمقطع «الجوا ...» ،

ولكنه رغم ذلك لذيذ ممتع . أليس كذلك ياسيد بالينو ؟ ... يالك من بالينو
ماكر تعرف كيف تدير رءوس النساء ! ...

وتعالت ضحكات الرجلين كما هي عادة الخبثاء إذا كان بعضهم كاشفاً
لسر صاحبه ، ولكن بالينو اعتدل بعد ذلك في جلسته ، ودخل في الموضوع
الذى أتى من أجله بعد تلك المقدمة ، وبعد أن تحسس شواربه عدة مرات :

- أما العمل فإنه لم يكن سيئاً هذه السنة ، ولكنك ياسيد جيرمو تعلم أن
الفقير فقير دائماً ، وهو ما يزال متعرضاً أبداً لأزمة طارئة تزيد من حاجته
إلى المال .

- أوه ، لا تصطنع البكاء الآن ياسيد بالينو . إن لديك كثيراً من المال
مدفوناً تحت الأرض ... نعم ... مال كثير . إن مستر دينجر يعرف ذلك !

وبدت من بالينو لفظة مدعوة صدرت عنه من غير وعى ، ولكنه تمالك
نفسه وأسرع بالإجابة :

- ليت ما تقول صحيح . إنما نحن نعيش على الكفاف فقط مصلحين
من أمورنا ما اعوج على قدر مانستطيع . إن تجارة رأس مالها لايزيد على
أربعة دوانق - وهو كل ما أستطيع أنا وضعه - لتجارة كاسدة لايمكن أن تسمح
بادخار مال له قيمة . هذا شيء يصلح للسيدة باربارا أو لك أنت وأمثالكما ممن
يملكون أرضاً وماشية ، أما أنا فإننى لم أستطع أن أجمع طوال هذه السنة
إلا نحو أربعين رأساً اقتنصتها من هنا وهناك . ومادنا قد تحدثنا عن ذلك فإن
لى رجاء إليك ياسيد جيرمو : اشتر منى هذا القدر من الماشية فإننى الآن فى
أزمة وأنا محتاج إلى بعض المال ، وكن واثقاً من أننى سأتركه لك بمبلغ زهيد .

- هل أحكمت إزالة السمات المكوية على جلود هذه الماشية ؟

وكان بالينو أبرع الناس فى استخدام هذه الوسيلة التى كانت موضوع
سؤال مستر دينجر ، فقد كان يعمد إلى تلك الماشية المسروقة من الضياع

المجاورة ، فيزيل ماحملته أفخاذها من سمات الضياع التي سرقها منها حتى يبيعها بعد ذلك على أنها ماشيته دون أن يفطن المشتري إلى ذلك أو يتعرض هو لأية شبهة ، وعلى الرغم من أن بالينو باييا لم يكن يهتم أن يتحدث عن ذلك في صراحة إلى الأصدقاء الذين ارتفعت بينه وبينهم الكلفة ، فإن سؤال مستر دينجر في هذه المرة لم يقع منه موقع الرضا ، فأجاب في كبرياء وتعال كأنه اعتبر ذلك السؤال إهانة لشرفه وطعنًا في أمانته :

- إن هذه الماشية كلها من حر مالى لم يدخلها حرام قط !

فقال مستر دينجر :

- هذا إذن شيء آخر ؛ إذ إن هذه الرءوس لو كانت مما وضعت عليه اليد من ماشية الدكتور لوئاردو - حتى وإن كانت السمات التي تحملها غير واضحة - فإننى لن أمد يدي إلى مثل هذه الصفقة .

فتساءل بالينو فى دهشة وإنكار :

- وهذا التورع ياسيد جيرمو ، منذ متى بدأت بالتزامه ؟ ومن أى وقت أصبحت تتحرى مصدر ماتشترية من ماشية ؟ لقد عهدتك دائماً تشتري ماشية مسروقة من ضيعة لوئاردو بعد كشط السمات التي تحملها . وأنت تعرف ذلك دون أن تعترض عليه أدنى اعتراض . ففيم هذا الحذر والتوقى اليوم ؟ أم لعل هذا الصبى مخنث التاميرا قد تمكن أيضاً من بث الخوف فى نفسك وأرغمك على أن توصل دونك أبواب حظيرتك كما اعتاد الناس أن يقولوا هنا ؟ !

وامتعص دينجر من هذه الإشارة فأجاب وقد بان عليه الضيق :

- لست ملزماً بأن أبين لك ما إذا كان قد أرغمنى على إيصاد أبواب حظيرتى كما تقول أم لا . كل ما هناك هو أننى قلت لك إننى لن أشتري شيئاً مصدره التاميرا : لارءوس ماشية ، ولا خيلاً ، ولا ريشاً ... هذا هو كل مالى أفضيت به إليك فى صراحة .

- أما الريش فإنه لم يسبق لنا حديث عنه ، ولم أعرض عليك شراء شيء منه .

وكان مستر دينجر يهم بالإجابة حينما حدث شيء لفت نظره واستوقف اهتمامه ، فإن الكلاب التى كانت مستلقية فى الدهليز المواجه لباب الغرفة التى اجتمع فيها مستر دينجر بضيفه لم تلبث أن نهضت من مكانها وتوجهت إلى الخارج وهى تهز ذيلها دون أن تهر أو تنبح ، كما لو كانت قد خرجت لاستقبال شخص تعرفه وتألّفه .

أما بالينو فإنه لم يلاحظ شيئاً ولم يتنبه إلى ما حدث ، فقد كان مولياً ظهره للباب مواجهاً لصاحب البيت فى جلسته . وأراد مستر دينجر أن يتحقق من الأمر ، فقال لضيفه :

- كأساً أخرى يا صديقى بايبا ؟

ثم تناول الكأسين اللتين شربا فيهما من قبل ونهض إلى باب الغرفة متظاهراً بأنه ينوى إلقاء مابقى فيها من سؤر ، فأطل من الدهليز ، وألقى نظرة استطلاع سريعة استكشف بعدها أن الشخص الذى كان يتحرك هناك هو خوان بريميتو محاولاً الاختباء وراء شجرة ، وقد توثبت من حوله كلاب البيت فى ألفة ، فقد كانت صديقة له شأن سائر كلاب البيوت فى هذه البقاع .

وتمكن مستر دينجر من فهم الموقف بسرعة : «لقد أرسلت السيدة باربارا ذلك الرجل لكى يتجسس على بالينو» ، ولكن فكرة مأكرة لعباً خطرت له : «لنطلق لسان هذا الصعلوك ، ولنحلل عقدة لسانه !» ، ولم يكن للأمريكي هدف من ذلك إلا التلاعب ببالينو والسخرية منه ، فلما عاد إلى القاعة ملأ الكأسين ، ثم شرب كأسه فى جرعة واحدة ، واتخذ مجلسه مواجهاً لبالينو ، وبقي صامتاً عدة لحظات متشاغلاً بسحب أنفاس من «بيته» ، ثم استطرد يقول مواصلاً ما كان قطعه من حديث :

- إننى لم أذكر الريش إلا لأنك بعت لى فى العام الماضى شيئاً منه .
ألا تذكر؟

- بلى ، هذا صحيح ، أما فى هذه السنة فإنى - لحسن الحظ - لم أستطع أن أشتري شيئاً منه . إن كل ما لدى كما قلت لك هى هذه الرءوس الأربعون أو نحوها ، فهى كل رأس مالى .

- ولقد أحسنت إذ قلت «لحسن الحظ» ؛ إذ إنه من الخطر أن يعرض أحد ريشاً للبيع بعد الذى حدث فى «مرج الشجرة» . أليس كذلك ياسيد بالينو ؟
- بغير شك ، وأى خطر !

واستلقى مستر دينجر فى مقعده ماداً رجله ، ثم قال وهو مايزال عاضاً بأسنانه على «البية» ، وكأن كلامه لم يكن إلا ثمرة فكرة عابرة لاخطر لها :

- وبهذه المناسبة قل لى ياسيد بالينو : ألم يسبق لك المرور أبداً بدغل «مرج الشجرة» ؟

فابتلع بالينو ريقه بصعوبة ، وتحامل على نفسه ، ثم قال بلهجة من يتحدث عن أشياء قليلة القيمة مما يعرض فى غضون الحديث :

- أما بالدغل نفسه فلا ، ولكنى مررت قريباً منه عندما كنت أتخذ طريقى إلى سان فرناندو .

وحك مستر دينجر رأسه وقال :

- شىء غريب !

فتساءل بالينو وهو يرمق مضيفه بنظرة فاحصة نافذة كأنما كان يريد أن يسبر غوره :

- ما هو ذلك الشىء الغريب ؟

ولكن مستر دينجر تجاهل السؤال وقال فى هدوء :

- أما أنا فقد مررت بذلك الدغل منذ قريب . كنت فى طريقى إلى هنا عائداً من سان فرناندو ، وكان ذلك فى اليوم التالى لمعاينة السلطات لذلك المكان بعد العثور على الجثة التى كانت طريحة هناك . فقامت بتفتيش المكان كله بعناية ، وقد زاد اقتناعى بعد ذلك بأن الله لم يخلق عيوناً فى وجوه قضاة هذا البلد إلا للزينة ، كما اعتاد أن يقول أحد أصدقائى من أهل سان فرناندو .

وكان مستر دينجر يفوه بكلماته هذه وهو مضطجع على كرسىه الطويل ، وقد ألقى برأسه إلى الوراء على مسند الكرسى ، وهو متظاهر بتأمل حلقات الدخان المتصاعدة من بيته ، ولكن نظره لم يكن يفارق وجه بالينو ، ثم مد يده إلى درج المائدة القائمة بجواره ، ففتحه وأخرج منه شيئاً لم يستطع بالينو تمييزه ؛ إذ إن الأمريكى احتفظ به فى قبضة يده الكبيرة .

ومر على بالينو وقت لم يكن يعرف مداه ، حتى إذا هم بالإجابة بدا له كأن زمناً طويلاً قد مضى عليه ، مع أنه بادر بالكلام بمجرد انتهاء مخاطبه من عبارته :

- وما الذى رأيته أنت مما لم يتنبه له رجال السلطة ؟

- رأيت ...

ولكنه قطع جملته ليردد النظر إلى الشئ الذى ضم عليه قبضته بعد أن أخرجه من درج المائدة ، وبدا على وجهه شعور من يجد بين يديه شيئاً لم يخطر بباله أنه سيقدر له العثور عليه ، ثم نظر إلى بالينو ، وسأله وهو يفتح يده :

- أليست هذه علبتك ياسيد بالينو ؟ إننى أظنها كذلك .

وأبرز لمحدثه علبة صغيرة منحوتة من خشب ثمين أسود فى هيئة قلب من تلك العلب التى يحتفظ فيها بالتبغ من اعتادوا لوكة فى أفواههم .

وامتدت يدا بالينو فى حركة آلية إلى جيوب قميصه يتحسسها حتى يتحقق من وجود علبة تبغ فيها دون أن يذكر أنه فقدوها منذ وقت طويل .

أما مستر دينجر فقد واصل حديثه وهو يتأمل حروف اسم بالينو المنقوشة على غطاء العلبة تأملاً فاحصاً :

- نعم . إنها علبتك أنت على وجه التأكيد ياسيد بالينو .

وفقد بالينو السيطرة على أعصابه ، فنهض قائماً فى احتياج ، وامتدت يمينه إلى مسدسه ، ولكن مستر دينجر قال فى هدوء وسخرية :

- أوه ! لا ضرورة لكل هذا ياسيد بالينو . خذ علبتك ، فإنى لم أكن أفكر فى الاحتفاظ بها لنفسى .

وبدا على بالينو أنه يبذل مجهوداً هائلاً حتى يستعيد هدوء أعصابه ورباطة جأشة ، ثم تساءل :

- ما الذى يعنيه كل هذا يامستر دينجر ؟

- إنه فى غاية الوضوح والبساطة ... ومجمله أنك نسيت هذه العلبة ، ثم وجدتها أنا ، فقلت لنفسى : «إن هذه هى علبة السيد بالينو ، فلأحتفظ له بها ، حتى يقدم للسؤال عنها» ، غير أنى أراك تصورت شيئاً آخر . ولكن لا ياسيد بالينو ، لا تقلق نفسك ولا تزعج تفكيرك ، فإنى لم أجد هذه العلبة فى دغل «مرج الشجرة» ، ولا تحت شجرة «البرجوتان» القائمة فى حظيرة «لاماتيكا» .

وكان مستر دينجر فى هذه العبارة الأخيرة يعرض بالمكان الذى دفن فيه حمل الريش الذى استولى عليه بعد قتل كارمليتو .

وكان بالينو بعد ارتكاب جريمته كثيراً ما يخاطب نفسه مزهواً فخوراً «لقد دبرت كل شيء فأحسنت تدبيره ؛ فإنى لم أترك أى أثر لى يمكن الاهتداء عن طريقه إلى فى مرج الشجرة ، أما الريش فإنه لن يتعرف على الموضع الذى خبأته فيه ولا أكثر الناس تمكناً من فنون السحر والكهانة» .

ولكن ها هو ذا يرى الآن أن كل ما كان يطمئن به نفسه قد تبخر فى لحظة واحدة ، وهو وإن كان لا يذكر ما إذا كان قد حمل معه هذه العلبة التى يعيدها

مستر دينجر إليه الآن إلى مرج الشجرة فإن ذهنه قد أصبح من الاضطراب والتشوش بحيث لا يستطيع التأكد مما إذا كان قد فقدها هناك أو فى مكان آخر ، ثم إن هذه الإشارة إلى «شجرة البرجوتان» فى حظيرة «لاماتيكا» لاتدع مجالاً لأى شك : إن مستر دينجر كان يعرف سر كل ما وقع فى مرج الشجرة ، بل هو يعلم أيضاً أين أخفى بالينو جسم الجريمة .

وخاطب بالينو نفسه يقول : «على اللعنة ! ما الذى أتى بى إلى هذا الرجل لكى أعرض عليه شراء ما لدى من رءوس الماشية ؟ إنه الطمع : أضاع على الإنسان ما جمع ! » .

وكان هذا هو ما حدث بالفعل ، فإن بالينو كان قد عقد العزم على الفرار من الضيعة بغنيمته ، متجهاً إلى حدود «كولومبيا» منذ أن انصرف عن السيدة باربارا قبل ذلك بقليل حينما سمعها تقول : «حتى الماشية نفسها تتقزز وتفرع من دم أمثالها !» ولم يكن ينتظر للهرب إلا حلول الظلام حتى يتمكن من إخراج حمل الريش من الحفرة التى أودعها إياها ، غير أنه كان يحتفظ كذلك فى حظيرة «لاماتيكا» بعدد من رءوس الماشية التى كان يسرقها بين الفينة والفينة من أموال السيدة باربارا ، ولم يهن عليه أن يترك هذه الرءوس ، ثمرة سطواته على ماشية المرأة الداهية طوال الأيام الماضية ، وهكذا حمله الطمع على أن يذهب إلى مستر دينجر لكى يعرض عليه شراءها منه .

ولما أدرك بالينو أنه لم يعد هناك أى سر بينه وبين الأمريكى رأى من الخير أن يحاول علاج المسألة بصراحة كاملة ، فتساءل :

- قل لى يامستر دينجر : ما الذى تريد أن تقول بإشارتك هذه إلى شجرة «البرجوتان» فى حظيرة «لاماتيكا» ؟

- أوه ! بسيط جداً ! إنها لم تكن إلا محض مصادفة ، فقد كنت أنا هناك فى تلك الليلة متربصاً بنمر حدثونى أنه كان يحوم فى ذلك المكان حتى أتمكن

من إطلاق النار عليه ، وفيما أنا فى ذلك إذا بى أراك تدفن صندوقاً تحت شجرة «البرجوتان» ، وعلى أية حال فأنا لا أعرف ما الذى كان يحتوى ذلك الصندوق .

وحينئذ تحققت شكوك بالينو ، فلم ير بدا من المجاهرة بكل شىء ، فقال :

- بل أنت تعلم علم اليقين ما احتوى عليه الصندوق ياسيد جيرمو ، فدع عنك كل هذا اللف والدوران معى ، إنه لامناص لنا - فى هذا الموقف الذى أنا فيه ، ومع هذا الطراز من الرجال الذى يتسمى إليه أمثالك - من أن نسمى الأشياء بأسمائها : «أن نسمى الخبز خبزاً والخمر خمرًا» كما يقول المثل . إننى فى الحقيقة لم آت لأعرض عليك شراء رءوس ماشية ، بل حملاً من ريش البلشون ... ربعين كاملين ، ومن أجود أنواع هذا الريش ، فقد رله ثمناً معقولاً ، ولنعتبر الصفقة منتهية . وهذا على أية حال لن يكون أول حمل من الريش المسروق تقوم أنت بشرائه .

وكانت خطة بالينو تقوم على أساس شراء تواطؤ مستر دينجر معه وإشراكه فى جريمته حتى يضمن سكوته ، وكان مستعداً فى نظير ذلك لقبول أى ثمن يعرضه عليه مستر دينجر مهما كان انخفاضه ، ثم إنهاء الصفقة فى اليوم التالى ، والفرار على الفور بما ينال من غنيمة ، وكل ما كان يسعى إليه بالينو فى هذه اللحظة هو أن يتمكن فى أسرع وقت مستطاع من الخروج من المأزق الذى ورط نفسه فيه .

ولكن مستر دينجر أطلق قهقهة عالية وقال :

- لقد أخطأت يا سيد بالينو . إن مستر دينجر لا يعقد أبداً صفقة لم تكن داخلية فى خططه منذ البدء . والحق أننى كنت أريد أن أتسلى بمعاشرتك والمزاح معك قليلاً ، وأنا الآن أصارحك بأن علبة التبغ هذه لم تخرج من هذه الغرفة قط ، فقد نسيته أنت هنا على المائدة منذ زمن ما ، وبأننى لم أكن أبداً فى دغل

«مرج الشجرة»؛ إن كل ماقلته لك لم يكن أكثر من دعابة كنت أتلهى بها معك ، هذا باستثناء ماذكرته عن شجرة «البرجوتان» ، فلاتنس ذلك .

وألجم الغضب لسان بالبينو ثم قال :

- هل معنى ذلك أنك اخترتني في هذه الليلة لكي أمثل لك دور ذلك الفهد الذى كنت متعوداً على مهارشته وملاعبته قبل أن تأوى إلى فراشك ؟ ألا تعلم أن مثل هذه الملاعبات قد تكون خطيرة وخيمة العواقب ؟

ولكنه فى هذه اللحظة سمع هدير الكلاب فى الخارج ، فهرب دم الشجاعة الغاضبة من وجهه ، وأطل من الباب محاولاً أن يستشف بعينه أستار الظلام ، وعلى الرغم من أنه لم ير شيئاً فإنه قال :

- إن هناك شخصاً كان يتلصص هنا ليتسمع ما كان يدور بيننا من حديث ، وقد لاذ بالفرار فى هذه اللحظة .

وعاد مستر دينجر إلى إطلاق ضحكاته المدوية ثم قال :

- أترى الآن ياسيد بالبينو أنك لاتصلح فى هذه الليلة لإلقاء الفرع فى نفوس الناس ؟ إن أخطر مايمكن أن يتعرض المرء له اليوم هو عرض ريش على الناس لشرائه ، ولكن لأقل لك شيئاً فى النهاية : إن مستر دينجر لن يفوه بشيء ، لا لأنه يخاف من وعيدك وتهديدك ، ولكن لأنه لايهمه شيء على الإطلاق مما حدث فى «مرج الشجرة» والآن ...

ثم فرقع له أصابعه مشيراً إلى باب الخروج .

وماكان بالبينو فى حاجة إلى طرد ، فقد كان عازماً على الخروج بغاية مايسطيع من سرعة ، ولكنه لم يفعل إلا بعد أن رمق الأمريكى بنظرة رهيبة أودعها كل ما كان يحس به من غضب وحنق على ذلك الرجل الذى اتخذ منه لعبة وأضحوكة فى هذه الليلة ، وشفع ذلك بما اعتاده من تحسس شارييه الغليظين . ولم يكد بالبينو يصل إلى خارج الدار حتى ثبت قدميه فى ركاب

جواده واعتلى صهوته ، وأسرع راكضًا إلى حظيرة «لاماتيكا» وهو يقول لنفسه :
«الآن لم يعد هناك وقت لأضيعة فلأعمل دون إبطاء على استخراج صندوق
الريش من مدفنه ولأشرع فى الهرب من ليلتى هذه ، فلو أننى واصلت الرحلة
متخذًا من الليل ستارًا ، ثم قضيت النهار مختبئًا فى أدغال الأعشاب لتمكنت
من اجتياز حدود «كولومبيا» قبل أن يتمكن أحد من اقتفاء أثرى» .

أما مستر دينجر فقد بقى وحده يحدث نفسه قائلاً بين ضحكاته المتعالية :

- لا بد أن خوان بريميتو قد وصل الآن إلى «ضيعة الرعب» حاملاً القصة
التي سمعها إلى السيدة باربارا ، ولا بد أن هذه تريد الآن أن تقاسم بالينو فى
صندوق ريشه ... مسكين بالينو !

وبعد أن انتهى مستر دينجر من هذه الرياضة التي عدل بها مزاجه وبث
المرح فى نفسه أخلد إلى نوم عميق هادئ ، تمامًا كما كان يفعل فى حياة فهده
الصغير حينما كان لا يأوى إلى فراشه إلا بعد أن يوائمه ويلاعبه على حصير
الغرفة .

الفصل العاشر

روايات

مضى وقت غير قصير على سماع صوت الطلقات النارية التى ترددت فى «الركن العميق» ممزقة سكون الليل وصمته المطبق ، وما زالت السيدة باربارا تنتظر فى شوق ولهفة معرفة ما حدث هناك ، وهى تفتقد هذه المقدرة الغريبة التى كانت دائماً تعينها على التنبؤ بالأحداث التى تقع بعيداً عنها ، والتى كان الناس هناك ينسبون لها إليها باعتبارها من القوى السحرية الممثلة لها بعون من لديها ، فلا تجد لها أثراً ، وهى بعد أن خذلتها تلك القوى الخفية - لا تملك إلا ذرع دهليز دارها جيئة وذهاباً وهى مهتاجة النفس نائرة الأعصاب ، بينما تحاول أن تخترق يبصرها حجب الظلام الذى يلف المروج من حولها ، فلا تتبين شيئاً . وأخيراً بدا لها شبح خوان بريميتو وهو قادم إليها يهرول ، فلما اجتمع بها ألقى إليها النبأ وهو يلهث :

- فى حظيرة «لاماتيكا» ... تحت شجرة «البرجوتان» ... هناك دفن بالبينو صندوق الريش ...

ثم مضى يقص عليها تفصيل الخبر الذى اكتشفه ، ولكنه لم يبدأ فى سرده حتى انطلقت السيدة باربارا - وكانت تعيره قليلاً من الاهتمام - إلى خارج الدهليز ! بينما كانت كلاب السدار أيضاً قد تراكضت إلى خارج الدار ، وهى تنبح فارساً كان مقبلاً فى الظلام ، وقد ربط دابة إلى جواده .

ولم يدن شبح القادم من باربارا حتى رفعت صوتها مسائلة :

- ملكيادس ؟

ولكن سانتوس لوئاردو أجاب :

- لا ... لست ملكيادس .

ثم أوقف حصانه ، وبدأ في فك حبل الدابة التي أتى بها جنيبة ، في نفس الهدوء الرهيب الذي كان «الساحر» يؤدي به مثل هذه المهمة لو أن الأقدار انقلبت فكان هو القاتل ولوثاردو القتل .

وتقدمت السيدة باربارا حتى أصبحت منه على قيد خطوات ثم ألقت نظرة سريعة على جثة حارس ظهرها ، كما لو كانت تنظر إلى شيء غير ذي قيمة ، وأثبتت نظرها بعد ذلك في سانتوس لوثاردو الذي لم يكن مشغولاً إلا بالعمل الذي كانت تباشره يده . لقد كانت نظراتها تعبر عن الإعجاب والذهول في وقت واحد . كان هذا الجانب الذي لم تكن تتوقعه من شخصية ذلك الرجل الذي تعلق به قلبها يثير في نفسها كل ما كانت تضطرب به من حب ومن رغبة في تجديد حياتها وتطهيرها ، وقد اختلطت كل هذه الانفعالات الهائجة في شعور واحد هائل .

وتمتت باربارا :

- لقد كنت أعرف أنك ستأتي لتسليم جسده !

وأدار سانتوس إليها رأسه في حركة سريعة مفاجئة ، لقد باحت له المرأة المشثومة بهدفها من خطتها الملتوية الخبيثة ؛ إذ إنها لم ترد إلا التخلص من حارس ظهرها وشريكها في جرائمها ، فأرسلت به إلى «الركن العميق» حتى يلقي مصرعه على يد لوثاردو ، وبهذا استطاعت أن تحول خصمها إلى أداة من أدواتها الطيبة ، ثم لم تتورع بعد ذلك عن التصريح له الآن بتدبيرها المبيت في قحة وتبجح ، إنه يرى - منذ هذه اللحظة - كيف لم يعد أن أصبح واحداً من جملة هذه العصابة من المجرمين والقتلة الذين يعملون في خدمة إقطاعية وادي «الأراوكا» !

واستولت على نفس سانتوس لوثاردو في هذه اللحظة رغبة جامحة في أن ينقض بجواده على تلك المرأة ، فيقذفها تحت قوائم الدابة ، ويظل يطأها حتى

يسحقها سحقاً ، ولكن ذلك الشعور المتوحش الذى كان يغلى فى صدره لم يلبث أن تفتت فجأة ، فألقى تحت قدمى باربارا بعنان جواد «الساحر» ، ثم شد زمام حصانه هو ، ومضى عنها مظلم الوجه وهو يكرر فى نفسه ما كان قد عرض له تفكيره : إن ما وقع فى «الركن العميق» منذ لحظات لم يسبغ عليه حتى ذلك «المجد الأحمر» الذى كان سادة السهول يرفعون رايته بعد فرض سلطانهم بالنار والدماء ، وإنما منحه تلك السمعة المشئومة : سمعة المجرمين الذين تستخدمهم المرأة الداهية فى تحقيق مآربها .

وظل حصان «الساحر» وقتاً طويلاً وهو يحمل على ظهره حملة المخيف : جثة صاحبه وقد شدت إلى سرجه ، وكان الحصان قد لوى عنقه ملتفتاً برأسه إلى حيث كانت السيدة باربارا ، كأنما كان ينتظر ما ستنتهى إليه من قرار ، وكذلك فعلت كلاب الضيعة التى أقبلت أولاً تتشمم يدى القتل ورجليه المتدليتين عن جانبي الحصان ، ثم ظلت واقفة لاهراك بها ناظرة إلى وجه المرأة فى ترقب وانتظار . ولكن هذه بقيت فى مكانها مستغرقة فى التفكير ونظرها ما يزال معلقاً بالمكان الذى اختفى فيه شبح سانتوس لوئاردو فى أطواء الظلمات . وأخيراً تحركت الدابة إلى الكوخ الذى كانت لديه مرابط الخيل ، تحركت فى بطاء خطوة خطوة كأنما كانت تريد تجنب إحساسها بالحمل الرهيب الذى تدلى متطوح الأطراف عن جانبي ظهرها ، ومضت الكلاب من ورائها فى هدير مبجوح .

وبقيت السيدة باربارا فى موضعها جامدة الحركة ، ولكن الذهول والإعجاب اللذين كانا يرتسمان على وجهها قد زالا بعد أن ابتلع الظلام شبح سانتوس لوئاردو ، وانعقدت جبهتها تعبيراً عن تفكير قاتم كان يعتمل فى ذهنها .

وبدا لها كأن غريزتها قد هدتها مرة أخرى إلى تحقيق ما كان تفكيرها يسعى إليه على الرغم من الطريقة الساذجة البعيدة عن المنطق التى حاكت بها خطة

«الركن العميق» ، فقد ترتب عليها أخيراً مايتفق مع مراميها وأغراضها ، لا لأن هذا كان فى الحقيقة هو الذى تأمل الوصول إليه وتتوقعه ؛ إذ إنها فى هذا الأمر - شأنها فيه كشأن سائر خططها وتدابيرها - لم تكن صادرة إلا عن اندفاع تسوقها إليه عواطفها وانفعالاتها الهائجة ، دون أن يهتمها إلا الوصول إلى أى نتيجة ... خبطة عشواء قذفت بها ولتترتب عليها ما يترتب حتى تحل بها موقفاً قد تعقد عليها واضطرب ، فأرادت أن تضع له حداً على أية صورة . وقد حدث فى هذا الأمر ما كان يحدث دائماً ؛ إذ رأت فى تلك النتيجة ما يوافق أغراضها ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن إلا مجرد صدفة فإنها حاولت أن تخدع نفسها قائلة إنه هو ماتوقعته وما كانت تسعى إليه .

فقد كانت باربارا - من ناحية - فريسة لعواطف متضاربة إزاء سانتوس لوئاردو : غرام مشبوب ، ورغبة عارمة فى الانتقام منه ، ومن ناحية أخرى كان يملكها الغيظ المسعور من ماضيها الذى سبق به القدر المكتوب ، والذى كانت جرائمها فيه تسد عليها كل طريق جديدة تحاول بها أن تظهر روحها من شوائب ذلك الماضى . وهى لم تدبر خطة «الركن العميق» إلا وهى واقعة تحت نفوذ كل تلك المشاعر المتناقضة ، وكانت تريد من وراء خطتها تلك أن تصل إلى أى نتيجة : إما موت لوئاردو وإما موت «الساحر» ، وكلاهما حل للموقف العسير الذى انتشبت فيه ، وعلى كليهما يتوقف مصير حياتها بعد . أما الانتقام من لوئاردو فقد كان مصرعه على يد «الساحر» يكفل لها الانتهاء منه إلى الأبد ، ولكن قتله هو لذلك الرجل ساعدها الأيمن لم يكن دون ذلك إضراراً بغريمها اللدود ؛ إذ إن حياته الآن بين يديها ، ويكفيها أن توجه الاتهام إلى لوئاردو بأنه هو قاتل «ملكياس» ، ثم تستغل نفوذها المعهود الذى كانت تفرضه على قضاة المنطقة وحكامها ، وبذلك تضمن تحطيم حياة لوئاردو والإلقاء به فى قرارة السجن . ولكنها لو فعلت لكان معنى ذلك هو تخليها النهائى الكامل عن الطريق الجديدة التى كانت تتمنى سلوكها من أجل تطهير روحها وحياتها ، والعودة إلى الجريمة التى وصمت وجودها كله وإلى الأعمال التى نفذ بها حكم

القدر المكتوب ، والتي كانت باربارا تسعى بكل قواها إلى التحرر من سلطانها .

لقد بدأت السيدة باربارا فى التحرر من ربة هذه الأعمال ، وشرعت فى تصفية تركة هذا الماضى الرهيب . إنها الآن فى تلك الطريق الجديدة بعد أن بدأت فى «رد الأمانة وأداء الرسالة» ، فالأخوان «الموندراجونس» قد أودعا السجن دون أن تهتم هى ببذل أى جهد لإنقاذهما من مصيرهما المحتوم ، وها هو ذا ملكيادس مربوطاً إلى سرج حصانه يتدلى منه ذراعا ورجلاه ...

وقطع أفكار السيدة باربارا ضجيج رجال الضيعة وجلبتهم وهم يتوافدون إلى حيث كان جسد ملكيادس منبوءاً على ظهر جواده ، وكان أحد البقارين قد رأى المنظر، فأسرع إلى حيث كانت السيدة باربارا لينهى إليها الخبر .

وحينما تنبعت باربارا وأفادت من تفكيرها رأت خوان برميثو الذى كان قد شهد كل شىء من الموضع الذى وقف فيه فى دهليز الدار ، وقد تملك الذعر نفسه ، وهو يرسم علامة الصليب على صدره ، وأعملت المرأة تفكيرها بسرعة ، ثم نادته قائلة :

- إنك لم تر شيئاً مما حدث . فلا تفتح فمك بكلمة واحدة ، والآن اذهب من هنا ، ولا يخطر ببالك أن تشير بحرف واحد إلى ماشهدت .

وغاب الأبله عن بصرها فى ظلام المروج فى وثباته السريعة ، أما السيدة باربارا فإن وجهها اكتسى قناع الجمود الذى كانت تصطنعه لكى يخلو وجهها من كل ما يمكن أن يكشف عن حقيقة مشاعرها ، بينما كانت تنصت إلى الخبر الذى أتى الرجل البقار لكى يلقي به إليها كما لو كانت تجهله .

وكانت صيحات هذا الرجل الذى كان أول من رأى جثة «الساحر» على ظهر حصانه قد أيقظت سائر رجال الضيعة ، فخرجوا مهطعين وخرجت النساء من المطبخ، وكذلك صبيان الضيعة الذين كان النوم ما يزال مغالباً أعينهم ،

وأحاط الجميع فى حلقة كبيرة حول دابة «ملكياس» وهم يتبادلون التعليقات ، وصرخاتهم تتعالى من هنا ومن هناك ، حتى إذا دنت منهم السيدة باربارا صمتوا كلهم فجأة ، وتعلقت أنظارهم بوجهها الغامض فى انتظار أية حركة أو لفظة منها .

ودنت المرأة من الجسد المطروح على الجواد ، ثم ألقت نظرة على الجرح الذى كان بادياً على صدغه الأيسر ، وقد انسأب منه خيط من النسيج الأسود الغليظ ، ثم قالت :

- أنزلوه عن الجواد ، وأضجعوه على الأرض حتى تروا ما إذا كانت فيه جروح أخرى .

وهكذا فعل الرجال ، وبينما كان أحدهم يفتش ثياب القتيل كان يبدو عليها هى أنها مستغرقة فى تفكير عميق كان يلقي على وجهها مسحة قاتمة .

ونفض أخيراً الرجل الذى كان منحنيًا على جسد «الساحر» يتحسس ، وقال :

- لا أثر فيه لجروح إلا هذا الذى نراه على صدغه ، إنها إصابة تشرفه وتزيده نبلاً ، وأظن أنها قتلتة فى الحال .

وعلق آخر :

- إن الذى أطلق عليه النار كان صائب النظر شديد الرمية بغير شك ، ولكن الذى يبدو من موضع الجرح أن قاتله لم يكن مستقبلاً له وجهًا لوجه ، ولعله كان يترصد له لاقتناصه من وراء شجرة .

وسددت باربارا نظرة إلى الرجل الذى أطلق هذا التعليق ، ثم قالت :

- أو كان يسير إلى جواره مرافقًا له ؟

فتمتم الرجل معبراً عن قبوله لهذا التأويل الذى كانت تفترضه تلك المرأة التى لم تكن فى حاجة إلى رؤية الأحداث حتى تعرف كيف وقعت :

- وهذا أيضاً احتمال ممكن الوقوع .

وعادت السيدة باربارا إلى تسديد نظرها إلى الجسد المطروح على الأرض ، وقد امتزجت على وجهه الشاحب أضواء القمر الذابلة وخيوط زرقاء متراقصة من شعاع قنديل كانت إحدى النساء تحمله مقربة إياه من وجه القليل بيد مرتجفة ، وكانت حلقة المحيطين بالجسد فى صمت بالغ ، وعيونهم قد تعلقت بوجه سيدتهم فى انتظار نتيجة ما كانت تفكر فيه .

وظلت هى ملتزمة الجمود لحظة ، ثم رفعت نظرها فجأة ، ونظرت حوالىها كما لو كانت تبحث عن أحد ، ثم قالت :

- أين بالينو ؟

وعلى الرغم من أن كل الحاضرين كانوا يعرفون أن بالينو لم يكن بينهم فإن نظراتهم اتجهت بشكل آلى باحثة عنه فى غمار صفوفهم ، وتملكهم جميعاً شك مفاجئ فى بالينو بعد هذا السؤال الذى لم تقصد به باربارا إلا إثارة مثل هذا الاحتمال ، لاسيما وأن كثيراً من الحاضرين كانوا يكرهون وكيل السيدة باربارا ويتمنون حلول أى كارثة به ، وتبادل الرجال نظرات كانت تحمل هذا السؤال :

- أترأه بالينو ؟ أ يكون هو مرتكب هذه الجريمة ؟

واغتبطت باربارا فيما بينها وبين نفسها ، حينما رأت أن كلماتها قد أتت بالثمرة المرجوة ، فقد وجهت شكوك الجميع إلى بالينو ، ثم توجهت بعد ذلك إلى الرجال الذين كان بوسعها أن تختار من بينهم خليفة لـ « ملكيادس جامارا » ، وقالت فى لهجة تعمدت أن تضيف عليها الغموض الذى تعودت أن تطبع به نبوءاتها وكهاناتها حينما تقوم بتمثيل دور الساحرة المطلعة على مغيبات المجهول ، وأشارت إلى رجلين من بين رجالها وهى تقول :

- توجهها إلى حظيرة «لاماتيكا» ، فإن هناك تحت إحدى شجر «البرجوتان» صندوقاً مدفوناً فيه حمل الريش الذى سرق من الدكتور لوئاردو ، ولا بد أن يكون بالبينو هناك الآن محاولاً إخراجه من باطن الأرض ، فامضيا بسرعة وتسلحا بمدفعين رشاشين من طراز «الونشستر» و ... أحضرا الريش إلى . أتفهمان ؟ .

ثم ألفتت إلى بقية الرجال وقالت لهم :

- فى وسعكم الآن أن تحملوا الجثة . احملوا القتل إلى داره ، وأشعلوا الشموع ، وأقيموا الصلوات على روحه طوال الليل .

أدلت بذلك الأمر ، ثم توجهت إلى غرفتها فى الدار تاركة للرجال موضوعاً خصباً يفتقون فيه الحديث على هوى كل منهم فى جلسة سمرهم التى كانوا مقدمين على عقدها إلى جوار السرير الذى يضطجع عليه جسد ملكيادس طول الليل .

ويقول أحد الرجال :

- الذى أؤكد أنه بالبينو هو القاتل ، ترصده من وراء شجرة ضخمة من ذلك الشجر الذى يملأ هذه المروج . أقول ذلك لأن الفقيذ كان أعظم عليه من أن يتمكن من لقائه وجهاً لوجه .

ثم يخلد المجتمعون إلى الصمت منتظرين ما يأتيهم من أخبار الرجلين اللذين خرجا إلى حيث كان بالبينو ، وظلوا هكذا يتسمعون حتى صكت آذانهم أخيراً أصوات طلقات نارية قادمة من اتجاه حظيرة «لاماتيكا» .

ويعلق أحد الرجال :

- إن رشاشات «الونشستر» قد بدأت عملها .

ويضيف آخر :

- ولكن هناك صوت مسدس يجاوب طلقاتها : ألا ترون من الخير أن نتجه لمعونة رفيقينا اللذين مضيا إلى لقاء بالينو ؟

وبدأ بعض الرجال يستعدون للحاق بصاحبيهم في «لاماتيكا» ، وبينما هم في ذلك إذا بالسيدة باربارا تطل عليهم من النافذة فتقول :

- لا حاجة بكم إلى ذلك ، فقد سقط بالينو !

وتبادل الرجال النظرات فيما بينهم وقد أثار عجبهم وخوفهم نبوءة المرأة «التي ترى ما لا يرى الناس ، والتي يكشف لها الغيب عن حجبته» ، وحينما همت المرأة بالعودة إلى غرفتها قال أحد الرجال مدلياً بالتفسير :

- ألم تنبهوا إلى أن صوت المسدس هو الذي سكت أولاً ؟ وإلى أن الطلقات الأخيرة كانت هي الصادرة عن المدافع الرشاشة ؟

ولكن ... من الذي كان يستطيع أن ينزع عن رءوس الرجال من خدام «ساحرة الأراوكا» أنها «رأت وسمعت» كل ما كان يحدث في حظيرة «لاماتيكا» ؟

نور فى قسار الكهف

كان الليل قد انتصف ، ومر عليهما فى مسيرها الصامت أكثر من ساعة حينما قال باخاروتى وقد لاحت له معالم دار «مرج النخيل» لدى موضع «لاتشوسميتا» :

- نور فى مثل هذه الساعة فى بيت السيد لورنثو ؟ لابد أن هناك شيئاً يحدث الآن هناك .

وكان سانتوس منذ أن فصل من «ضيعة الرعب» مطأطئ الرأس منصرفاً عن كل ما يدور حوله ، فرفع رأسه كما لو كان قد استيقظ من حلم عميق ، لقد مرت ثلاثة أيام منذ تلك الليلة التى خبره فيها أنتونيوس ساندوفال بأن ماريسيلا قد عادت إلى دار أبيها القديمة فى «مرج النخيل» ، ولكنه لم يخطر بباله قط ما يمكن أن تتعرض له الفتاة من العوز أو الخطر ، على الرغم من أنها كانت شغله الشاغل خلال الشهور العديدة التى قضتها فى بيته . فقد كان يحجب ذهنه غشاوة من التفكير فى الانتقام العنيف ممن قتلوا تابعه غدرًا واغتيالاً ، وكانت تلك الأعمال التى أراد بها الأخذ بثأره من أعدائه قد جرفته فى تيارها حتى لم يعد يدور فى رأسه أى تفكير آخر ، ولكن هذه الموجة أخذت فى الانحسار منذ أن قدم من «ضيعة الرعب» مثيرة فى ضميره أزمة شديدة خانقة .

واعترف سانتوس بأنه كان مخطئاً إذ ترك الفتاة لمصيرها ، وكأنه وجد شيئاً من الراحة فى هذا الاعتراف من عذاب روحه الذى كان يلاحقه ، وأحس ببعض السكينة تسرى فى صدره وهو يحاول أن يوسع فيه مكاناً لشعور طيب نبيل ، وهكذا قرر أن يعرج متخذاً طريقه إلى دار المرج .

وبعد لحظات كان سانتوس وصاحبه واقفين على باب الدار ، مطلعين على المشهد الأليم الذى بدا أمام عيونهما تحت ضوء قنديل محتضر يوشك على الانطفاء : كان لورنثو باركيرو غائصاً فى سريره يحمل طابع الموت على وجهه ، وإلى جواره ماريسيلا جالسة على الأرض ويدها تربت على جبينه ، وعيناها شخاضتان إليه وهما تسكبان الدموع فى صمت ، مفرقة وجهها فى فبض عبراتها .

كانت ماريسيلا قد أعانت أباهما على تجرع غصص الموت فى استسلام بفضل مسحها لجبينه والحنو عليه هكذا فى رفق وبر ، وعلى الرغم من أن جبهته لم تعد تحس بلمسات يد الفتاة إلا أنها لاتنفك تربت عليها فى حنان .

وكان أكثر ما أثر فى قلب سانتوس ولمس مواضع الحساسية فيه ليس هو مافى هذا المنظر من الألم فى محضر الموت ، ولاتذكره لتلك الحياة التعسة الشقية التى وضعت وفاة لورنثو لها حداً . ولا جو البؤس والشقاء الذى كان يسيطر على المكان ، بل ولا وجه الفتاة الذى كان الألم يرسم عليه صورة مؤثرة تهز النفس ، وإنما كان مايشيع على المنظر كله من رقة وإنسانية : يد الفتاة وهى ماتزال تمر على جبين أبيها الميت ، والتعبير عن الحب الذى كان مرتسماً فى عينيها السابحتين فى الدموع ... هو هذا الحنان الذى لم يكن يظن أن ماريسيلا قادرة على أن تودعه روحها أو تحس به إحساساً حقيقياً !

ولم تكد الفتاة ترى سانتوس حتى صاحت فى نبرة مؤثرة ، وهى تغطى وجهها بيديها وتلقى بنفسها إلى الأرض :

- لقد مات أبى !

وتحسس سانتوس جسد لورنثو حتى تحقق من أنه قد مات بالفعل ، ثم توجه إلى ماريسيلا ، فأنهضها عن الأرض حتى يجلسها على كرسى ، ولكنها ارتمت على صدره وهى تبكى وتشهق .

وظلا هكذا لحظات فى صمت ، حتى انحلت عقدة لسانها ، فأقبلت تقول
وقد زادها الألم بياناً :

- إننى كنت عازمة على حملة غداً إلى سان فرناندو حتى أعرضه على
الأطباء ، فقد كنت أعتقد أن شفاءه ما يزال ممكناً بعد ، ولقد حدثت أنتونيو بما
أنوى القيام به حينما أتى لزيارتى مساء هذا اليوم ، فتطوع الرجل بأن يتفق لى
مع مركب كان قادماً من أعلى النهر ، فلما خرج أنتونيو دخلت أنا على أبى
حتى أحمله على أن يقوم بنزهة قصيرة معى قبل أن أعد له الطعام ، فقد كان
منذ هذا الصباح أسوأ حالاً وأضعف صحة مما اعتاد أن يكون ، ولهذا فقد كنت
أخشى تركه بمفرده وقتاً طويلاً ، وبينما نحن كذلك إذا به يحاول الجلوس على
سريره ، ثم يظل ينظر إلى بعينين جاحظتين ، ويصيح : «بركة الطين الرجراج !
... الطين يتلعنى ... خذى بيدى ولا تدعينى أغص فى الطين ! ...» ، كانت
صرخة هائلة مخيفة ، ولكنها تتردد فى أذنى حتى الآن ، ثم سقط مستلقياً
بظهره مرة أخرى على السرير وبدأ يحتضر ، وهو يردد بغير انقطاع : «إننى
أغوص ... إننى أغوص ! ...» ، وكان يقبض على يدى فى شدة ويضغطها
وهو تحت وطأة ألم هائل رهيب .

فعلق باخاروتى قائلاً :

- نعم ... كان ذلك هو موضوعه الشاغل ، فقد كان لا ينفك يقول إن
بركة الطين الرجراج سوف تبتلعه !

وبقى سانتوس يستمع فى صمت ، وهو يؤنب نفسه على إهماله شأن
الفتاة وأبيها بغير مبرر ولا ذنب . وواصلت ماريسيلا حديثها فى عصبية وهياج :

- لقد كنت أنوى حملة غداً بغير إبطاء إلى سان فرناندو ، وقد تكفل
أنتونيو بتدبير مكان على ظهر أحد القوارب القادمة من هناك .

فقاطعها سانتوس وهو يجذبها إلى صدره فى حنان أبوى :

- كفى ! لقد تحدثت بما فيه الكفاية .

- دعنى أنفس عن نفسى بعض ما أجد . لقد ظللت طول الليل أقاسى وأتعذب فى صمت ... قضيت الليل كله وحيدة شقية وأنا أراه يغوص ... ويغوص ... ويغوص ، فقد كان يبدو حقيقة كما لو أن بركة الطين الرجراج تبتلعه قليلاً قليلاً ! ... لطفك يارب . ما أقطع الموت ! ... وأنا وحيدة أتعذب ، وأحاول أن أخفف عنه سكرات الموت ... وهأنذا الآن أكثر وحدة وعذاباً ... سأظل وحيدة هكذا وطول مابقى من حياة . ترى كيف أصنع الآن يارب ... لطفك اللهم !

- الآن سنعود إلى التاميرا . وسنرى بعد ذلك ما سنصنع . إنك لم تبقى وحيدة شقية كما تظنين . اذهب يا باخاروتى الآن فأنت بمن يلزم من الرجال ، وهات مطية مسرجة لماريسىلا . وأما أنت فاذهبي إلى فراشك حتى تنالى قسطاً من الراحة ، وحاولى النوم .

ولكن ماريسىلا أبت أن تغادر مكانها إلى جوار أبيها ، فانتقلت للجلوس على ذلك الكرسي الذى اتخذ لورنثو باركيرو عليه مقعده حينما قدم سانتوس لزيارته لأول مرة ، تاركاً لضيفه المقعد الجلدى الذى يجلس عليه سانتوس الآن من جديد . وهكذا بقى الاثنان وقتاً طويلاً صامتين وقد فصل بينهما السرير الذى كان لورنثو مسجى عليه .

وكان القمر فى خارج الدار يلف بضياءه الساطعة المرج الممتد حول شجر النخيل ، وقد غلب السكون على أرجاء المكان ، وانعكست صورة البدر على مياه البركة الراكدة . كان السلام يخيم على ذلك المنظر القمر عميقاً شفافاً ، ولكن القلوب المعذبة الهائجة كانت تحس بأنه ثقل الوطأة مشثوم الطلعة .

أما ماريسىلا فقد كانت لاتكف عن التنهد والزفير بين وقت وآخر ، وأما سانتوس فقد انصرف إلى تفكير عميق وقد نجهم وجهه وعلته وجمة قاتمة ،

بينما كان يسترجع بذاكرته تلك الكلمات التى وجهها إليه لورنثو فى عصر ذلك اليوم الذى قدم فيه لزيارته الأولى :

- «أنت أيضاً ياسانتوس لوئاردو ؟ أنت أيضاً سمعت النداء ؟! ...

ها هو ذا لورنثو باركيرو قد سقط أخيراً ضحية «لمفترسة الرجال»، ذلك اللقب الذى لم يكن يعنى السيدة باربارا بقدر ما يصدق على هذه الأرض التى لا ترحم ، هذه الأرض الخشنة القاسية بخلوتها المخيفة التى تشير الغرائز المتوحشة فى نفوس الرجال ... بركة الطين الرجراج التى أغرقت فى وحلها ذلك الرجل الذى كان يعتبر فى وقت ما مفخرة آل باركيرو . وها هو ذا سانتوس لوئاردو يسير فى نفس الطريق ، هو أيضاً بدأ يغوص فى بركة الهمجية الموحلة التى لا ترحم أبداً من يلقي إليها بروحه ، هو أيضاً قد أوشك على أن يتحول إلى فريسة أخرى لمفترسة الرجال . لقد انتهى لورنثو، وها هو ذا سانتوس قد بدأ من حيث لاحت له تلك النهاية :

- «سانتوس لوئاردو ! انظر إلى نفسك فى أنا . إن هذه الأرض لا ترحم !» .

ذكر سانتوس هذه الكلمات وهو يتأمل هذا الوجه الشاحب الأشوه الذى غشاه الموت باصفرار فى لون التراب ، وسرعان ما سرح به خياله ، فإذا به ينظر إلى الجسد المسجى أمامه وقد استبدل بوجه لورنثو وجهه هو ، بينما كان يحدث نفسه قائلاً :

- عما قريب سأقبل على الخمر أغرق فيها عذاب روحي ، وأتلمس النسيان ... وسرعان ما سأصبح هكذا ... كما كان ذلك الرجل ... وقد ارتسم الموت بصورته البشعة الرهيبة على وجهي ، وحينما يحل بى الموت فإنه لن يكون إلا موت شبح لرجل كان قد انتهى ... موت الجيفة المتتنة المreme !

كان يرى نفسه فى داخل هذه الجثة المطروحة ، ولهذا أدهشه أن تخاطبه ماريسيلا كما لو كان حياً بعد :

- لقد حدثوني بأنك كنت غريباً جداً فى هذه الأيام ، وأنت كنت تفعل أشياء ماكانت لتصدر عنك ...

- ومع ذلك فقد أقلوا وأقصروا ... إن مذكروه لا يعد شيئاً إلى جوار ما أنا قائل : إننى قتلت رجلاً فى هذه الليلة !

- أنت ؟ كلا ! ... هذا مستحيل !

- وأى غريب فى هذا ؟ إن آل لوئاردو كانوا دائماً قتلة سفاكين للدماء .
فأجابت ماريسيلا :

- هذا غير معقول ... حدثنى ... حدثنى .

فبدأ سانتوس يقص عليها الخبر السيئ كما صور له خياله المهتاج ، وكما حدث فى الحقيقة لولا خطأ فى التأويل أوقعه فيه تفكيره المحموم ، فلما انتهى من روايته قالت له ماريسيلا :

- ألا ترى كيف لاتستقيم هذه الرواية مع ماقلت من كونك أنت القاتل ؟ إنه لو صح ماقصصت أنت على فإن الذى قتله ينبغى أن يكون باخاروتى . ألم تقل إن «الساحر» كان يقف مواجهاً لك ؟ وإن الإصابة القاتلة إنما كانت بادية على صدغه الأيسر ؟ إن الوحيد الذى كان بوسعه إصابته من هذا الجانب هو باخاروتى وحده دون غيره .

ياللعجب ! لقد ظل سانتوس ساعات كاملة وهو يستعيد المشهد فى ذهنه ، ويعيد تركيب تفاصيل ماوقع فى تفكير عنيد متواصل ، ومع ذلك فإنه لم يفتن بعد تلك الساعات الطويلة إلى ماتنبهت إليه ماريسيلا فى لحظة واحدة ! وانتعشت نفسه وسرى فيها تفاؤل جديد ، فشخص إليها ببصره مبهور النظر التائه الضال فى قاع الكهف المظلم إلى شعاع من النور يدنو إليه باعثاً فى روحه الرجاء الميت !

ولم يكن هذا النور إلا فيض الشعلة التي أضواءها هو في روح ماريسيلا وصفاء الإلهام المتوقد في ذهنها الذي أزال هو نفسه ما كان يرين على ذكائه من صدى ، وإشراقه الخير ومض بريقها في فكرها حاملة كلمة الطمأنينة والسلام إلى فؤاده القلق المعذب . إن ما تنبّهت إليه ماريسيلا موقظة إياه من غفلته لم يكن إلا ثمرة صنيعه هو ؛ إذ إن رسالته لم تكن في الحقيقة ما انساق إليه في الأيام الزخيرة من محاولة استئصال الشر بالنار والدماء ، وإنما كانت استكشاف ينابيع الخير المخبوءة هنا وهناك في أرضه وفي قلوب أهل هذه الأرض . نعم ... كانت هذه هي رسالته الحقيقية التي هجرها قبل أن تتم ، منذ أن جرفه تيار من الحقد والرغبة في الانتقام في لحظة مشثومة من لحظات حياته . ولكن ... ها هي ذى كلمة ماريسيلا ترد عليه جميله ، فتعيد إليه ثقته بنفسه واحترامه لها ، لا لأنه يتبين بها أن رصاصة باخاروتى لارصاصته هو هي التي قتلت «الساحر» ، فذلك في الحقيقة لا يغير واقع الأمر ؛ إذ سواء أكان هذا أم ذاك فإن غشاوة العنف التي كانت تحجب عينيه هي التي قادتته إلى تلك الطريق في كلا الأمرين ، ولكن لأنه شعر بأن تلك الكلمات الصادرة عن ماريسيلا من أجل تهدئته وبث الطمأنينة في نفسه لم تنبع إلا من الثقة التي أودعته إياها ، وهي ثقة كانت جزءاً لا يتجزأ من روحه ، بل كانت أفضل جوانب روحه وأكثرها تشبّعاً بالخير مما غرسه هو بيديه في قلب إنسان آخر .

وقبل سانتوس هدية السكينة والسلام ، ومنح الفتاة في لقاء ذلك كلمة باح لها فيها بحبه .

وفي هذه الليلة رأت ماريسيلا أيضاً شعاع النور ينحدر إلى قرارة الكهف المظلم .

الفصل الثامن عشر النقط على الألفات

كان الناس مشغولين بتقطيع الجبال فى الفناء الذى يتوسط أكواخ الضيعة وقد حل وقت الأصيل حينما قال باخاروتى فجأة بعد أن وجه بصره إلى المروج :

- إننى لفى عجب من أمر بعض الناس الذين يعجبهم أن يقيموا بين سفوح الجبال أو يؤثرون السكنى فى بيوت مغطاة السقوف ! ... إن هذه السهول الطليقة هى أرض الله منحها لشياطين الرجال !

وتوقف الرجال عما كانوا فيه من أعمال سكاكينهم فى شرائح الجلد الذى لم يدبغ بعد ، والذى كانت تنبعث منه رائحة كريهة نفاذة ، ثم رمقوا بنظرات متسائلة رفيقهم صاحب النوادر الطريفة والخطرات الغريبة .
وواصل هذا حديثه قائلاً :

- إن الأمر فى غير حاجة إلى شرح ولا تفصيل ، فهو أوضح من عرائش متسلقة بدت على صفحة ربوة : فالرجل فى السهول يكفيه أن ينظر من بعيد حتى يتبين ما هو آت إليه قبل أن يصل ، بينما هو فى الأرض الضيقة المغلقة لا يسير إلا وتعاريج الطرق كأنها قرون ثور قد أخذت بمخنقه ، أما الذى يعيش فى بيوت مغطاة السقوف فما أشبهه بالأعمى الذى يسأل « من الرجل ؟ » بعد أن يكون قد ارتطم به فى مسيره .

وأثارت كلمات باخاروتى استطلاع رفاقه ، فاتجهت أنظار جميعهم إلى المرج حيث تبينوا من بعيد فارساً يشد فى اتجاه بيوت الضيعة .

كان رجال ألتاميرا منذ أن أتاها نباء ما حدث فى «الركن العميق» ينتظرون بين لحظة وأخرى قدوم فرقة من رجال السلطة لتقوم بإلقاء القبض على الدكتور لوئاردو ، وعلى الرغم من أنهم كانوا لا يتوقعون أن يكون القادم رجلاً واحداً فإن ظهور أى شخص غريب فى الأفق كان بالنسبة لهم نذير شر ، ومثيراً للقلق والريبة فى نفوسهم .

أما باخاروتى فلم يكن يبدو عليه اهتمام بالأمر ، بل انصرف إلى عمله فى هدوء وهو يضحك فى أعماق نفسه من ذلك الجهد الهائل الذى كان رفاقه يبذلونه من أجل تمييز هذا الفارس القادم والتعرف على شخصيته . وذلك أنه منذ ظهر هذا الرجل وباخاروتى يرقبه خفية بين الفينة والفينة دون أن يلحظ أحد من زملائه ما كان يفعل ، وهو متأهب لكى يهرب إلى شعب من شعاب الجبل يلوذ به إذا تبين له منه أمر يريب ، غير أن بصره الذى ألف النظر من بعيد عبر المروج الواسعة كان قد عرف فى ذلك الفارس الغريب صديقاً له من البقارين الذين كانوا يعملون فى إحدى ضياع «الأراوكا» المجاورة ، وكان قد مر على ألتاميرا منذ أيام فى طريقه إلى عاصمة الإقليم فى بعض شئونه .

ولما دنا منهم الفارس حتى استطاعوا أن يميزوه ؛ قالوا فى النهاية :

– آه ... إنه ليس إلا «إنكارناثيون» الأقرع !

وقال لهم باخاروتى فى صياحه المعهود :

– ياله من اكتشاف مبكر ! ما أصلحكم لتكونوا حراساً على أبراج قلعة تستطلعون من فوقها كل طارق غريب ! هذا ولو أن رفيقى ماريا نيبس كثيراً ما يفخر بأنه منظر مقرب ! .

فأجاب ماريا نيبس على الفور :

– حقاً لقد كان باخاروتى هو أول من تبين شخص القادم ، ولكن هذا لم يكن إلا كرامة من كرامات «سيدنا الخوف» ! فليس من الغريب حتى على

العمى أن يبصروا الخطر إذا قدمت أيديهم شرّاً وكانوا ينتظرون من هو آت لكى يحاسبهم على شر أعمالهم .

وتدخل فنانشيو فى الحديث كما كانت عادته إذا أراد تحريض الرجلين على تبادل الهجاء الساخر وتراشق التعريضات اللاذعة كلما عرضت له فرصة لذلك ، من أجل بث المرح فى نفوس حاضرى المجلس ، فقال مثيراً باخاروتى :

- غط هذه الثغرة يا باخاروتى ، فقد رماك الأشقر بأبدة ما لك منها فرار .

غير أن هذا لم يكن فى حاجة إلى من يثيره ويحرضه :

- أما أن «سيدنا الخوف» ولى عظيم له معجزاته وكراماته فمما لا يشك فيه أحد ، وأما أن أشبه أنا بالعميان فأمر فيه نظر ، وإلا فإننى على الأقل لم يحدث لى ما حدث لصديق لى هو قائد للقطعان وأشقر اللون إذا أردتم تحديد صفته ، فقد تسبب إشعاله للفاقة من التبغ فى ظلام الليل فى وقوعه أسيراً فى أيدي قوم كانوا يتربصون به ، ولم ينتبه هو لشيء ؛ إذ إن عود الثقاب الذى أشعله بهر عينيه ، فأخذوه فى سهولة ويسر كأنهم يقتنصون ضباً متقبضاً على نفسه ، وما كان إشعاله للثقاب عن جرأة ولا اصطناع للشجاعة ، فقد كان الخوف يملأ قلبه على ما اعترف لى هو بنفسه ، ولكنه لم يكن فى مكر باخاروتى الذى لا يشعل عود ثقوب إذا ما كان مسافراً فى ظلام الليل إلا بعد أن يفتح عيناً ويغمض أخرى حتى إذا بهر الضوء عينه المفتوحة استطاع أن يواصل سيره دون أن يتعثر مستعيناً بالعين التى اعتادت الرؤية فى الظلام .

وعاد فنانشيو إلى تهيج نار المعركة ، فصاح بقريع باخاروتى يستثيره :

- أدرك الأسود ياماريا نيبس ! ألا تراه قد أثار فى وجهك الغبار ؟ .

وكان فنانشيو يعرض فى هذه الإشارة بما درج عليه باخاروتى مكرّاً ودهاء من أنه كان إذا سافر فى فصل الصيف فإنه كان يجتهد فى أن يضع نفسه على رأس القافلة حتى يتجنب ماثير دواب الآخرين من الغبار ، أما فى الشتاء فقد

كان يحرص على التأخر عن الركب حتى يضطلع المتقدمون بخوض القنوات التي يملؤها ماء الفيضان والسيول باحثين عن المسلك الصالح ، وبهذا يتجشمون هم مشقة العمل بينما يسير باخاروتى وراءهم تابعاً الطريق التي سلكوا قبله ، وإلى هذه الحيلة أشار فنانشيو فى عبارته الأخيرة ، ولكن ماريّا نيبس بادر بالجواب :

- لا بل إنه الآن فى مؤخرة الركب ينتظر أن يقوم السابق بإفساح الطريق له !

غير أن جواب ماريّا نيبس كان له معنى مزدوج لا يفهمه إلا باخاروتى ، وذلك أن ماريّا نيبس - حينما قص عليه صاحبه خبر ماوقع فى «الركن العميق» - كان قد استنتج أن الرصاصة التي أطلقها لوئاردو لم تكن هى التي أدت إلى مصرع «الساحر» ، غير أن باخاروتى لم يرد أن ينسب فضل ذلك إلى نفسه ؛ إذ أثر أن يذهب سيده لوئاردو بفضل تلك «المكرمة» ، فقد كان ذلك فى نظره ضرباً من المروءة ... المروءة الهمجية ، والتواضع الذى جعله يتنازل عن فخر هذا الصنيع للدكتور لوئاردو ، وإلا فإن قتل «الساحر» كان يعتبر لدى رجال ألتاميرا عملاً مجيداً جديراً بالذكر المأثور والصيت الطائر . كذلك لم يرد باخاروتى أن يستأثر بذلك الفضل لسبب آخر : فقد كان يعرف أنه إذا حلت ساعة الحساب وتحديد التبعات أمام القانون فإن لوئاردو أقدر منه على الدفاع عن نفسه والخلوص من ذلك المأزق ، ومن أجل هذا أطلق ماريّا نيبس كلمته تلك مشيراً إلى تأخر باخاروتى عن السير حتى يتجشم أحد مئونة إفساح الطريق له .

وكان الرجلان إذا اشتبكا فى مناقضة أو مهاجمة لا يكفان عن الملاحاة بأعنف لسان وأشد عارضة ، غير أن باخاروتى لم يكن ينتظر أن يخرج عليه صاحبه بما خرج به ، فبقى متحيراً يعيه الجواب . وتصايح الحاضرون عند ذلك فى مرح :

- ها هو الأسود قد وقع ، فاغتنم الفرصة يا أشقر ، ولا تبق عليه . اطرحه إذن على الأرض ، وأنفذ فى أنفه الخطام ، فقد أصبح ملك يمينك ! ولكن ماريا نيبس أدرك أن الدعابة أصبحت ثقيلة فقال :

- إن رفيقى يعلم علم اليقين أننا نتمازح ، ولكن لا يبلغ أحدنا من أخيه مثل هذا المبلغ !.

وابتسم باخاروتى . أما الحاضرون فقد اعتبروا ماريا نيبس هو المتصرف فى هذه المعركة الهجائية ؛ إذ أفحم صاحبه وأعجزه عن الجواب ، ولكن الأمر كان مختلفاً بين الصديقين ، فقد فهم باخاروتى أن صاحبه قد أدرك حقيقة ماجرى فى «الركن العميق» ، وهو أن الذى قتل «شيطان المروج» وأكثر أتباع السيدة باربارا رجولة وجرأة إنما كان باخاروتى نفسه ، ومن أجل ذلك فقد كان صديقه يعجب به لهذه المأثرة ويغبطه عليها .

وبعد ذلك بلحظات أقبل «إنكارناثيون الأقرع» إلى الفناء الذى تجمع فيه الرجال، وخرج باخاروتى وماريا نيبس لاستقباله ، وسأله هذا الأخير :

- ما الذى أتى بك إلى هنا يا صديقى ؟

- لاشئ إلا الرغبة فى أن أنام قليلاً تحت سقف مرفوع إذا كنتم تسمحون لى بذلك ، ثم رسالة كلفونى بحملها إلى الدكتور ... هى رسالة من قاضى المنطقة .

فصاح به باخاروتى :

- ومنذ متى كنت تحتاج إلى الاستئذان من أهل هذا البيت لكى تنصب سريرك حيث تشاء ؟ انزل عن جوادك وخذ قسطاً من الراحة فى المكان الذى تريد . وأعطنى هذه الرسالة التى تحملها إلى الدكتور .

ومثل باخاروتى بعد ذلك أمام لوثاردو وقد حمل الرسالة فى يده وهو يقول :

- يبدو أن الأمر قد اتسعت خروقه ياسيدى الدكتور . هذه رسالة إليك من قاضى المنطقة .

وكانت الرسالة من موخيكتا ، وفيها يقص على لوئاردو أشياء بدت له غريبة مذهلة :

«بالأمس تقدمت إلينا السيدة باربارا ومعها الربعان اللذان سرقا فى «مرج الشجرة» من الريش ، وقررت مايلى : أنها كانت تشك فى أن مرتكب الجريمة هو المدعو بالينو باييا الذى كان وكيلاً لك فى إدارة ضيعة ألتاميرا حتى قمت بطرده عند وصولك إلى هناك ، فقامت السيدة بتكليف بعض رجال ضيعتها بمراقبته وتعقبه ، وكان أن اثنين من هؤلاء الرجال - صادعين بأمرها - تبعا خطواته حتى المرج المعروف باسم «لاماتيكا» ، وهناك باغته متلبساً باستخراج صندوق كان قد أودعه باطن الأرض ، وتبين أن هذا الصندوق هو الذى كان يحتوى على حمل الريش المسروق ، فطلبنا منه أن يستسلم ، ولكنه أبى وأسرع بإطلاق النار عليهما ، فجاريه على عدوانه وأصاباه إصابة قاتلة . وقد توجهت السيدة بمجرد وقوع ذلك إلى دار الحكومة المدنية ومعها حمل الريش المسروق لكى تدلى إلى السلطات ببيان ماحدث ، ولكى تنهى إلينا أيضاً خبر مقتل «ملكيدس جامارا» المعروف بلقب «الساحر» على يد باييا المذكور ، قبل حادث «لاماتيكا» بلحظات ؛ إذ إنه كان ممن عهد إليهم بمراقبة بالينو باييا ، فقتله هذا تخلصاً منه» .

وأنهى موخيكتا رسالته قائلاً إن السيدة باربارا - فى رغبتها فى أن تقوم هى نفسها بكل شئ - قد واصلت الرحلة بعد ذلك إلى سان فرناندو حتى تسلم حمل الريش إلى التاجر الذى كان كارمليتو قد عقد معه الصفقة ، ثم مهتئاً لوئاردو على تكشف الحقيقة والحل الموفق السعيد الذى انتهت إليه تلك القضية بعدما كان يبدو فيها من تعقيد وغموض فى الأيام السابقة .

ورأى سانتوس بعد انتهاء الرسالة حاشية كتبها السيد بيرناليتى بخط يده :

«ألم أقل لك يادكتور لوئاردو ؟ هاهى ذى النقط قد وضعت على الألفات ،
وأما الريش الذى سرق منك فهو الآن فى الحفظ والأمان فى يد صديقتك التى
ستسلم تلك الأمانة إلى أصحابها ثم تحمل إليك ثمنها . وهذا هو ما كان ينبغى
لك أن تفعل من أول الأمر : صديقك «بيرناليتى» .

وأخذت الحيرة مأخذها من سانتوس بعد قراءة هذه الرسالة : حمل الريش
قد أعيد إليه ، وبالبينو هو قاتل ملكيادس ، وكل ذلك بتدبير من السيدة باربارا !
وصاح باخاروتى حينما أفضى إليه سانتوس بالنبأ :

- ها أنت ذا ترى ياسيدى الدكتور أنه لم يكن هناك مبرر لكل هذا القلق
الذى كان يبدو عليك . والآن وقد انتهى كل شيء فإن فى وسعنى أن أصرح
لك بشيء : هو أن الرصاصة التى قتلت «الساحر» لم تكن تلك التى أطلقتها
أنت ، وإنما هى رصاصتى أنا ، فلعلك تذكر أنك كنت مقبلاً عليه بوجهك بينما
كنت أنا مستقبلاً منه جانب سرجه ، وقد كانت إصابته من هذه الناحية ... فى
صدغه الأيسر . ألا تذكر ؟ فإذا كان الأمر كذلك فقد كنت أنا المجهز على هذا
« الشيطان » ، غير أن القاضى يصر الآن على أن قاتله هو السيد بالبينو ...
فليكن ، وليحمل بالبينو على رأسه دم القتل !

فاعترض سانتوس :

- ولكن هذا ظلم صارخ . إن حقنا فى الدفاع عن أنفسنا مشروع لاغبار
عليه ، فقد كان ملكيادس هو البادئ بالعدوان ، سواء أكنت أنا قاتله أم أنت -
مادمت الآن معترفاً بذلك - فإن لنا أن ننام فى هدوء بال وراحة ضمير ، ولكن
الظلم الواقع الآن على بالبينو سيحرمننا - منذ هذه اللحظة - من ذلك الهدوء
وتلك الراحة إذا لم نتقدم أمام القضاء حتى «نضع النقط على الحروف» لا على
الألفات كما هى موضوعة فى هذه الرسالة !

فصمت باخاروتى وقد عاوده القلق والتشكك ثم قال :

- انظر ياسيدى الدكتور . إنك إذا ذهبت الآن للاعتراف بالحقيقة كلها هادماً بذلك الحكم الذى أصدرته السلطة القضائية فأرجح الظن أن يستشيط السيد بيرنالىتى غضباً ، ولست أظنه حيثذ يحجم عن إيداعك قرارة السجن حتى لا تعود مرة أخرى إلى ارتكاب مثل هذه الفعلة التى تتجاوز السذاجة والبراءة إلى ماهو شر منهما! ... ثم لتذكر ياسيدى أخيراً أن هذا الذى حدث ، والذى يبدو لك ظلماً صارخاً ليس فى الحقيقة شيئاً فعلته السيدة باربارا ولا القاضى ولا الحاكم المدنى ، بل سبق به حكم الله نفسه ، والله أعلم بما يفعل . وتأمل ما أقول يادكتور : لقد أطلقنا رصاصنا على الساحر : أنت أو أنا - فقد رأى باخاروتى من مصلحته الآن ألا يصبر على أنه هو قاتل الرجل - ولكن من الذى يستطيع أن يؤكد أن القتل لم يلتفت برأسه فى اللحظة التى أطلقنا فيها النار ؟ والمهم هو أن الرمية كانت مسددة صائبة على أية حال . والذى يحمل دم القتل على رأسه الآن هو بالينو ، وهو رجل يعلم الله مدى ما ارتكب من جرائم لم ينل عليها قصاصه العادل . دع الأمر ياسيدى فى يد الله ، فهو خير الحاكمين ، وهو منتقم جبار شديد العقاب .

وعلى الرغم من خطورة الموقف فإن سانتوس لم يتمالك نفسه من الابتسام ، فقد كان «إله» باخاروتى مثل ذلك «الصديق» الذى تقمص السيد بيرنالىتى شخصيته : كلاهما لا يرى بأساً فى أن توضع له «النقط على الألفات» ! ...

الفصل الثالث عشر بنث الأنهار

منذ وقت طويل لم تأت السيدة باربارا لزيارة سان فرناندو .

وكما هي العادة لم يكذب خبر وصولها يذيع في المدينة حتى بدأت الحركة ودب النشاط في أوساط المحامين متوقعين قضية من هذه القضايا الطويلة المجهدة التي اعتادت سيدة حوض الأراوكا ومحتكرة أراضيها أن ترفعها على جيرانها . وهي قضايا كانت تعود بالخير العميم على محترفي مهن المحاماة والقضاء والسياسة على اختلاف ألوانهم وتباين أخلاقهم : أما الخبثاء من أصحاب «الذمم الواسعة» فقد كانوا يغرفون من القدر غراتهم ؛ إذ كان على السيدة باربارا في سبيل اغتصاب ماتستطيع من أرض الجيران أن تدع صرراً من النقود الذهبية في أيدي القضاة والمحامين الموكلين بالدفاع عن خصومها أو في جيوب زعماء السياسة ومحترفيها ممن يعينونها بنفوذهم وسلطتهم ، وأما المحامون ذوو الذمم النظيفة فإنهم كانوا أيضاً يربحون بمقدم السيدة ؛ إذ كان لهم نصيب في الغنيمة يتأتى لهم من كثرة الجدل الفقهي واحتدامه وتضخم الملفات القضائية مما يقتضى منهم شحذ قرائحهم لاستنباط ما يستطيعون من حيل قانونية تكفل لهم الدفاع عن حقوق موكلهم من ضحايا السيدة باربارا ضد أحابيل خصومهم ذوي الضمائر المرنة . غير أن أساطين المحاماة وزعانفها أصيبوا في هذه المرة بخيبة أمل حطمت ماكانوا قد بنوه من آماني ؛ فإن السيدة باربارا لم تأت اليوم لرفع قضية ولا لإثارة نزاع ، بل قدمت لأشياء أخرى كانت موضع دهشة الجميع .

غير أن هذه الحركة والجلبة لم تقتصر على من اتخذوا من الصراع في ساحات المحاكم مهنتهم وأعمالهم ، بل شملت أهل المدينة كلهم ؛ إذ لم

يسمعوا بمقدم السيدة حتى بدأ لفظهم وتعليقاتهم المعتادة ، وشرعت الألسنة مرة أخرى فى رواية آلاف الأقاصيص عن غرامياتها وجرائمها ، وهى أقاصيص أكثرها مخترع ملفق مما نسجه الخيال الشعبى الخصب ، وكانت تضيف على المرأة طابعاً قائماً من البطولة لا يخلو من السحر والفتنة ، حتى كأن الوحشية التى كانت تكمن فى روحها على حد ما كانت تذكر تلك الأقاصيص لم تكن توحى بالكراهية والاشمئزاز بقدر ما تعبر عن ضرب من الإعجاب والتقديس يشعر بهما مواطنوها نحوها . كانت باربارا تقيم فى ركن بعيد متوار فى قرارة السهول المهجورة ، ولم تكن تطل على المدينة إلا فى أوقات متباعدة لممارسة ضروب من الشرور والمكايد ، ومن أجل هذا تحولت فى أنظار الناس إلى بطلة من أبطال الأساطير تحيط بها هالة سوداء دامية ، وتثير فى نفوسهم شتى المشاعر المتضاربة ، وتغذى خيالاتهم المحمومة .

وكان من الطبيعى أن يزيد من إهاجة عواطف الناس واستثارة تساؤلهم ما عرفوه من أن قدوم السيدة هذه المرة لم يكن إلا من أجل تسليم ماسرقة عشيقها الحديد إلى خصمها الألد ، وكأن ذلك وحده لم يكن كافياً ؛ إذ أبت إلا أن تقوم بنفسها بهذه المهمة على الرغم من أن قيمة المسروق كانت مما يسيل له اللعاب . وأرواح الناس فى هذه المنطقة كالعهد بسائر أهل السهول سريعة التأثر ، وخيالهم سهل الانفعال بكل ما يبدو أمراً غريباً بعيداً عن التصديق ، وكان الهدف من قدوم السيدة باربارا فى هذه المرة أحد هذه الأمور التى هى أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة ، ولهذا فسرعان ما أقبل أهل المدينة يقلبون الأمر على وجوهه ، وخلق ذلك لها فى محيط الناس جواً من المودة والإعجاب خفف من وقع الأقاصيص الشائعة التى اعتادت أن تصورها بصورة المرأة المشؤومة الخبيثة .

وبدأ كل يخترع ما حلا له من أحاديث ، وأخذت تدور بين الناس ملاحم جديدة من حياة السيدة باربارا ، ولكن الاتجاه فى هذه المرة كان مخالفاً للتيار الذى كان يغلب على الروايات القديمة ؛ إذ إن الحوادث التى كانت السيدة

باربارا بطلتها فى تلك الأقالصىص الءءىءة أصفءء ءصورها امرأة ءء نزعء إلى الءىر وءلمسء ءءوبة والنءم . لم يكن للناس فى المءىنة ءءىء ءىر ذلك : أما النساء فكانء ءلءاءهن ءءمع فى البىوء فى ءءىء مءصل مءهامس ، وأما الرجال فكانء مءالسهم منعءة ءول مواءء المءاهى وءء اءءءء من موضوع المرأة مءالاً واسعاً ىنفقون فىه وءتهم ، بل إن الشارع الذى كان ىقع فىه فنءقها ءء أصفء فءأة مىءاناً للءاهىبن والءائىن من هواة الاستطلاع .

وكان الفنء الذى نزلء فىه المرأة ءاراً كبىرة لها ءهلىز طویل ىؤءى إلى شارع مواءه لأءء مىاءىن البلاء الكبىرى ، وكانت السىءة باربارا ءءء مءلسها فى فنائه على كرسى مءأرجء ، وهى ءءسم النفءاء الرطبة ءى ءهب من النهر ، وكان شاطئه لا ىبعء عن الفنء إلا بنءو مائة مءر . كانت ءالسة وءءها ، وءء ألقء برأسها إلى الوراء على مسنء كرسىها ، وهى فى اسءرخاء وءموء ، ءون أن ءعبر أءنى اءءمام لكل ما كان ىءور من ءولها .

ولم يكن ىءور ءولها إلا ءب الاستطلاع الذى كان ىسوء المءىنة بأسرها فءء وءف على الرصف المءابل للفنء ءمع كبىر من الرجال ىءأملها فى صمء مأءوء ، ىنما كانت ءموع أخرى من الأنساء والسىءاء الشابات ىمررن بن لءظة وأخرى ءء ءناىا الفنء والمءاجر المءاورة المءءة ءءى ضفة نهر «الأبورى» ، ولم يكن لهن ءرض من ءروءهن من بىوءهن فى ذلك المساء إلا النظر إليها ... أما الأنساء فإن عىونهن الءىة المءءشمة لم ءكن ءقع على المرأة ءءى ىعلوهم الخءل ءىاء من أن ىفأءئهن الرجال الواقفون على مقربة وهن ىشبعن بنظرءهن فضولهن الءرى ، وأما السىءاء فكن ىملأن عىونهن منها فى ءفءص ءقىق ىنما كن ىءاءلن ءعلىقاء بن ابتساماء مأكرة لها مءزاها .

وكانء باربارا ءرءى ءوباً أبيض مشءولاً مطرراً ىكشف عن كءفىها اللتىن أبعء الءالء ءشكىلها وءءویرهما ، وكانت هءه أول مرة ىراها الناس هناك فىها

على هذه الهيئة التى تبدو فيها الرقة والأنوثة . فلم ير النساء اللاتى كن يتأملنها - حتى ألدعن لساناً وأكثرهن تصيداً للعيوب - بدأً من أن يعترفن :

- يالها من امرأة ! ... إنها مازالت قديرة على إدارة رءوس الرجال ! .

- وأما الأخريات فكن يطربنها فى غير تكلف ولا تحفظ :

- إنها رائعة ! ... ما أجمل عينيها ! .

وكانت بعضهن تعلق :

- إنهم يقولون إنها مدلهة فى حب الدكتور لوئاردو .

فتضيف إحدى العوانس فى مرارة العفة التى خاب رجاؤها فى اقتناص رجل :

- ... وسيتزوجها فى النهاية . إن هذا الصنف من النساء ينال دائماً فى النهاية ما يصدق عليه العزم ، فالرجال كلهم مجانين أغبياء !

وأخيراً تعب الناس من الإعجاب والتعليق والتهامس ، وبقي الشارع خالياً مقفراً .

وكانت أشعة القمر تلمع فى ضعف وتخاذل على رؤوس الأشجار القائمة فى الميدان بعد أن غسلتها مياه المطر التى انسكبت عليها منذ قليل ، أو تنعكس على البرك الصغيرة التى خلفها المطر على صفحة الشارع هنا وهناك . وبين وقت وآخر تهب نسمة باردة فتهمز فروع الشجر وتبعث فى الجو رطوبة ملطفة ، وقد عاد المارة إلى بيوتهم ، ولم يبق إلا عدد من الجيران كانوا يتلمسون النسائم الرطبة فى خارج منازلهم وقد اعترضوا أرصفة الشارع على كراسى متأرجحة ومقاعد طويلة ، غير أنهم بدأوا ينصرفون أيضاً فى جماعات ، وبعضهم يلقي على بعض تحية الوداع فى أصوات بطيئة متراخية :

- إلى الغد . لنأو إلى الفراش ، فقد حانت ساعة النوم .

وبدأ السكون يمد وطاءه على البلد . إن هذه الكلمات الكسولة المسترخية التى كان الناس يتبادلونها مودعين أو متداعين إلى النوم لم تكن إلا تعبيراً عما

يكمن فى حياة المدن الصغيرة الكثيرة من مأساة يومية متجددة ، حيث المأوى إلى الفراش يعتبر أمراً له خطره ، بعد يوم مر كغيره ... بلا عمل له قيمة ... يوم سقط من حساب الحياة ومن حساب الأمل . ومع ذلك فإنهم يتمتعون دائماً :

- غداً ... سيكون يوماً آخر !

وهكذا كانت تفكر السيدة باربارا : لقد ردت الأمانة وسلمت الرسالة وتحررت من جرائم الماضى التى كانت تسد عليها طريق حياتها الجديدة . كانت باربارا تحلم كما لو كانت فتاة صغيرة مراهقة تفتح قلبها على أول حب ، وتمسك بحبل الرجاء فى أنها قد ولدت الآن من جديد حياة مختلفة عن تلك التى عاشتها حتى الآن ... حياة تنسى فيها ذلك الماضى الأسود ، وكأن هذا الماضى قد انصرم إلى الأبد باختفاء حامى ظهرها المشثوم ذى اليد المسلحة المخضبة بالدماء ، وبمصرع العشيق الجلف ذى الحب الجسدى الغليظ . والآن ... ما الذى ستستقبل به غدها القريب من أفكار وآمال ؟ إن هذا الغد سيشرق عليها وقد أعد لها مشهداً رائعاً عجيباً : مشهدها وهى سائرة فى طريق مختلفة لم تسلكها من قبل ، وقلبها وهو يفتح على مشاعر لم تألفها أبداً فى حياتها الماضية ... إن انتظار الغد قد أصبح نوراً يسطع على هذه المنطقة المجهولة من روحها، والتى بدأت تتكشف لها قليلاً قليلاً ، حيث كانت تتحرك ظلال هائمة لذلك الحب الطيب الذى قضى عليه فى مهده، والذى أحست به وهى صبية غريبة بعد حينما كانت تصغى إلى كلمات أسدروبال ... هذه الكلمات التى أيقظت روحها وكشفت لعينيها عالماً جديداً من الأحاسيس المختلفة عن تلك الرغبات المسعورة الفظة التى كانت تعتلج فى نفوس قراصنة النهر على ظهر القارب .

ولكنها وهى فى غمار هذا الفيض من الأحلام المذهبة التى فقدت معها باربارا الذاكرة وأصبح ماضيها بفضلها نسياً منسياً ... إذا بفكرة تهندس فى هذا التيار منزلة متلصصة ، فتعكر عليها صفو تلك السكينة ... لعلها شعور

كمن فى وعيها الباطن ، أو كلمة ترسبت فى قاع روحها حتى اضطربت فجأة ثم شبت وطففت إلى السطح ، هى أشبه ما تكون بجسم صغير غريب تحدر فى أنابيب آلية ، فأوقفها عن العمل . من أين أتت هذه المرارة المفاجئة التى قبضت نفسها وقطبت أساريرها بلا وعى ولا إرادة ؟ وما الذى أعاد إلى لسانها هذا المذاق الكريه ... مذاق الحقد والكراهية الذى كانت تظن نفسها بمنجاة منه ؟ ولماذا هاجمتها فى هذه اللحظة تلك الذكرى القاسية : ذكرى الطائر الذى يسقط بين أيدي الصائدين وقد بهرت نظره شعل النار يضرمونها ثم يطفئونها فجأة ؟ ... وهكذا كان قلبها الآن أضاءته إشراقة الآمال الزاهية ، ثم باغته الظلمة وصوّحت فيه الآمال !.. ألم يكن ردها للأمانة وإحراقها للماضى المشؤوم كافياً إذن ؟

إن هذا الشعور المفاجئ لم يكن إلا ثمرة تأمل الجماهير المتجمعة على الرصيف المقابل لها ، وتطلع النساء إليها وهن ذاهبات جائيات يرمقنها بنظرات فاحصة ، هذه النظرات التى كانت تعبر عن إعجاب برئ ساذج أو فضول ينطوى على تعريض ماكر لم تكن إلا رغبة من المدينة بأسرها فى تذكيرها بماض كانت تصره على نسيانه وكأنما كانت عيون الناس تهتف فى أذنيها قائلة :

- «لكى تظفرى بحب رجل مثل سانتوس لوثاردو ينبغى أن تكونى امرأة بلا ماضٍ ... بلا تاريخ !» .

وماضيها يعود الآن إلى ذاكرتها ملحاً ثقیل الوطأة من فاتحته الأولى كما اعتاد أن يفعل : «قارب صغير يشق الأنهار الواسعة التى تحف بها غابات المطاط الكثيفة ...» .

ونفضت باربارا عن مجلسها تحت حنايا الفندق ، وسارت على مهل على رصيف الشارع تحت أقواس المتاجر القريبة الممتدة على شاطئ نهر «الأبورى» ، تقودها رغبة كامنة قاهرة فى أطواء نفسها المظلمة إلى تأمل منظر النهر : إن

«بنت الأنهار» تحس من جديد بهذه الجاذبية الغامضة التى تشد روحها إلى الماء المتلاطم بين ضفتى النهر .

وكانت أشعة القمر الشاحبة تنفذ عبر سماء انساح على صفحتها ضباب خفيف ، فتقع على واجهات المنازل المطلة على ضفة النهر ، وعلى سقوف السعف التى تتوج البيوت الريفية المتناثرة البعيدة ، وعلى سفح الجبل المطلع على الوادى ، وعلى صفحة «الأبورى» الهادئة ، وكانت مياهه العكرة قد بلغت أدنى درجات انخفاضها بحكم موسم الجفاف ، وانكشفت عن شاطئ واسع تملؤه الرمال . وعلى الضفة اليمنى - حيث سارت باربارا - كان هناك زورق بخارى وقاطرة ملحقة به لحمل الماء والفحم ، وقد قبع كلاهما إلى جوار سد صغير أقيم على النهر ، وعلى مقربة منهما طفا على سطح الماء مجاز أنشئ من ألواح الخشب وعدة قوارب سوداء مثقلة بالخطب وثمار الموز ، ومركب فارغ قد دهن بطلاء أبيض مازال طرياً بعد ، وقد نام على ظهره صبي صغير .

وبدا الشاطئ مهجوراً خالياً ، فقد انصرف الرجال الذين قضوا أمسياتهم يشربون أو يتبادلون الحديث تحت أشجار الضفة أمام المقاهى ، ولم يبق إلا الخدم وهم يجمعون الكراسى والموائد ويقفلون الأبواب ويطفئون المصابيح التى كانت أنوارها تنعكس على صفحة ماء النهر .

وبدأت باربارا نزهتها على الرصيف الخالى .

الحديث يدور بين أصحاب القوارب والملاحين المطلين عليهم من المركب : حديث بطئ كتيار النهر المنساح على الأرض الأفقية المنبسطة ، مسترخ كما تمضى الليلة النائمة تحت سماء غشاها الضباب ، متاقل تتاقل خطوات السيدة باربارا وهى تذرع رصيف الشاطئ فى صمت ، كأنها شبح هائم .

كل هذا يشير فى نفسها ذكريات الأنهار الواسعة التى تخترق السهول ، والأحداث الهائلة التى تعرضت لها حياتها على صفحات مياهها ... كل شيء

يذكرها بذلك الماضي . سفح الجبل الصامت تحت ظلام الليلة الساكنة ، والنهر الذي ينحدر قادمًا من الجبال البعيدة متسللاً في هدوء ، ونعيب طائر نهري يقترب محومًا على سطح الماء النائم ، وحديث الملاحين البطئ ...

هذا والسيدة باربارا ذاهبة في خطواتها المتثاقلة تحت الظلال الزرقاء الخفيفة التي تلقيها الأشجار ، ثم تعود فتري المنظر نفسه : الليلة الصموت ، والنهر الزاحف بلا هدير ولا صخب متجهًا للقاء نهر آخر بعيد ، ونعيب الطائر الأرق الذي اختفى عن الأنظار ، وحديث الملاحين الذي يغالب النوم ، ومع هذا كله ذكريات الحوادث المشثومة الواقعة على أرض متوحشة تزحف عليها أنهار عريضة غامضة ! ...

وهي لا تنظر ولا تسمع إلى شيء آخر ، المدينة النائمة على ضفة النهر اليمنى لا وجود لها في باطن شعورها ، فهي لا تعير اهتمامًا إلا لهذا الشيء الذي سيطر على روحها فجأة : سحر منظر الماء ، والفتنة الطاغية التي تلوح على صفحات الأنهار الغامضة حيث بدأت قصة حياتها : «الأورينوكو» الأصفر ... و «الأتابابو» الأحمر ... و «الجواينيا» الأسود ! ...

الليل ينتصف ، والديكة تبدأ أذانها المبكر ، ومن بعيد يتردد نباح الكلاب ، ثم يعود الصمت العميق ، ولا يسمع إلا صفق أجنحة البوم ، أما الملاحون فقد سكتوا عن الكلام ، ولم تبق إلا همسات الأمواج المتثاقلة البطيئة وهي تداعب آذان القوارب السوداء .

وتتوقف باربارا عن المسير ، وتنصت إلى صوت يهيب بها :

- كل شيء يعود إلى المكان الذي منه خرج !

الفصل الرابع عشر

بريق النجوم في العيون

... كان ذلك بداية النهاية ، والخفقات الأخيرة لنجم آفل . إن المرأة الجموح الشرسة التي لم تكن تتورع عن شيء تجدد الآن نفسها أمام شيء لا تعرف كيف تقاومه أو تتحرر منه ، لقد كان التدبير الذي أعدته في « الركن العميق » خبط عشواء ، أما الدافع الذي حملها على أن تلتصق ببالينو باييا مصرع « الساحر » فقد كان هو المقدمة لاستسلام نهائي لا رجعة فيه .

كانت باربارا تحس إحساساً خفياً بفشل ما علقت به من آمال على « رد الأمانة » ونسيان الماضي ، وكان التوكل والإيمان الأعمى بالقدر المكتوب وهو شيء كان يجرى في نفسها الهندية مجرى الدماء في عروقها - يسوقها إلى الاستسلام والانخلاع عن كل شيء ، ولم يكن تذكرها للماضي .. لطفولتها المتوحشة على صفحات أنهار الغابة العريضة إلا وجوها ملثمة لفكرة جديدة بدأت تتولد في نفسها : الانسحاب وإفساح الطريق ! ..

وعلى الرغم من ذلك فإنها تحاملت على نفسها وتغلبت على ما طوف بذهنها من التخاذل والخور ، وقررت العودة إلى الضيعة حاملة معها خطاب التاجر الذي سلمت إليه حمل الريش باسم سانتوس لوثاردو ، وفيه يعلن إليه أنه تسلم السلعة ونقد السيدة باربارا ثمنها على أساس سعر الريش في يوم تسلمه ، وكان هذا السعر أغلى منه في اليوم الذي كان مقدراً له لو أن كارمليتو حمل البضاعة إليه فيه ، وكذلك حملت باربارا وثيقة البيع الصوري للأرض التي انتزعتها منه في ساحات المحاكم ظلماً وعدواناً ، وهو ما كانت تفكر في عرضه على سانتوس لوثاردو مرة أخرى بعد أن رفض اقتراحها الأول .

وكانت باربارا قد أودعت هذه الأوراق آخر ما بقى لها من أمل ، ولو أنه الآن أمل مضطرب غير متحدد الصورة ، فقد انقطع رجاؤها أو كاد من الظفر بحب لوئاردو ، هذا الحب الذى طالما كان يحثها على المضى فى الطريق التى سلكت. نعم .. إنها تشعر بذلك شعوراً خفياً حينما تطالع صفحة النهر ؛ إذ هى لا تفعل حتى ترسم لها على الماء صورة سانتوس لوئاردو ، وقد اختلطت معالمها بوجه أسدروبال الذى بعد به العهد ، فلم تعد ذاكرتها تعى من ملامحه إلا طيفاً غامضاً مضطرباً ، ولكنها تحس بأن لوئاردو بعيد عنها بقدر بعد حبيبها الأول ، فهى لا ترى منه إلا ظلاً يبتعد حتى يختفى فى عالم الوهم وقد أحاطت به هالة من النور الشاحب .

ومع ذلك فقد كانت باربارا تريد أن تحقق ما صدقت عليه عزمها حتى النهاية ، كانت حاجة ملحة قاهرة تدفعها إلى إتمام ما بدأت ؛ إذ إنها لو توقفت الآن وهى فى منتصف الطريق لكان ذلك ضربة قاضية لعله وجودها ، ووجودها نفسه فى هذه اللحظة قد أصبح هشاً فى مهب الريح .

* * *

موسم الجفاف قد بدأ ، والساعة قد أزفت لقيادة القطعان التى كانت تجهل مواضع السقيا أو نسيتهما تحت وقع سياط الظمأ الملتهب ، كان على الرعاة أن يقودوا تلك القطعان إلى حيث أعدوا ما يروى عطشها . وهنا وهناك انتشرت بين القنوات الجافة الضامرة وعلى المروج التى أحال الجفاف لونها إلى الشبهة - قواديس كبيرة من الفخار اتخذوها موارد تستقى منها الماشية ، وكانت أشعة الشمس الملتظية قد حولت قيعان القنوات إلى قشور صلبة من الأرض المبيضة تغطى برك الطمى المنتنة كأنها قروح اندملت دون أن يتماثل حاملها للشفاء ، ولكن بعض البرك كانت ما تزال مكشوفة ، وقد بقيت فيها فضلات من ماء غليظ حار ، تهافتت عليها بعض رءوس الماشية التى أصابها الظمأ بضرب من الجنون المسعور ، فأقبلت تنهل منها حتى تضخمت بطونها وعسر عليها الخروج

فراحت تغوص فى ماء تلك البرك قليلاً قليلاً ، وأسراب الدود المتعطشة إلى الجيف المرمية لا تشهد ذلك حتى تقبل فى جيوش كثيفة زاحفة على تلك البرك التى تحولت إلى أشراك للرّم . إن الموت فى السهول أشبه برقاص ساعة هائل يتأرجح عليها : من السيول إلى الجفاف ، ومن الجفاف إلى السيول ! . . .

والأعشاب اليابسة تتقصف وتتكسر تحت الأشعة القاسية ، والمروج تلتمع بين دوائر السراب المحيطة بالأفق ، وهى تبدو من بعيد كأنها برك زرقاء يستقر فيها الماء القراح عذب الإغراء ، ولكنه ماء ملعون يورث الجنون واليأس : لا يكاد الظمآن يهرع إليه حتى يراه على نفس المسافة . . . هناك فى نهاية الأفق البعيد . . . وهكذا كانت السيدة باربارا : تحث مطيتها إلى سراب حب مستحيل !

ووصلت باربارا أخيراً إلى الضيعة وقد أجهدتها السفر ، وكان الليل قد اقترب ، ولكنها مع ذلك لم تلبث فى دارها إلا ريثما غيرت دابتها المتعبة واستبدلت بها أخرى ، وأصلحت من هندامها قليلاً حتى تستعد للقاء لوئاردو فى نفس الليلة ؛ إذ كان شوقها إلى ذلك اللقاء وتلهفها عليه يمنعها من تأجيله إلى اليوم التالى ، ولكنها لاحظت أن أكواخ الضيعة بدت مهجورة ، والمطبخ مغلقاً ، والحظائر خالية . . . لم يكن هناك إلا خوان بريميتو وهو يتسكع فى ذلك الفراغ الكبير الأصم ، فسأله :

- ما الذى وقع هنا ؟ وأين ذهب رجال الضيعة ؟ .

فأجاب الغيبى وهو لا يجرؤ على الاقتراب منها خشية أن يستشيط غضبها بما كان مقدماً على أن يلقي به من حديث :

- لقد هربوا جميعاً ، فهم يقولون إنهم لا يريدون أن يظلوا فى خدمتك بعد الآن ، إذ إنك لم تعودى نفس المرأة ، وإنه ليس من الغريب المستبعد أن تشدى وثاقهم ثم تسلمهم واحداً واحداً !

ولمعت نظرات الغضب فى عيني المرأة ، أما خوان بريميتو فقد أسرع يبلغها
بقية الأنباء :

- أتعرفين أن السيد لورنثو قد مات ؟

- كان عليه أن يفعل منذ وقت طويل ، فقد أرخى له من العمر أكثر
مما يستحق وهي أين هي الآن ؟ .

- الطفلة ماريسيلا ؟ لقد عادت مرة أخرى إلى ألتاميرا . . .
حملها الدكتور معه إلى هناك فى داره ، والناس يتحدثون بأنه سيتزوج منها
فى يوم من الأيام القادمة .

ولم تكذب باربارا تسمع هذا الخبر حتى ارتسمت على وجهها من جديد
ملامح المرأة المشئومة الرهيبة ذات النوايا المظلمة والسطوات المنكرة ، ولم تعلق
على الخبر بشيء ، بل عادت إلى امتطاء جوادها وتوجهت إلى ألتاميرا وقد دل
وجهها المكفهر على أنها بيّنت النية لشر مستطير .

ووقف خوان بريميتو فى ذعر يرسم علامة الصليب ، ثم عاودته نزعته
المجنونة ، فركض مسرعاً إلى حيث وضع أوانيهِ وقدره لكى يملأها بما يروى
«طيور الشؤم» من شراب . هذا بينما كانت باربارا تحت جوادها حثاً شديداً
حتى تستخرج كل ما تستطيع من سرعته مدمية ظهره بوخزات مهمازها فى غير
رفق ، وهي تحدث نفسها بصوت عال كأنها تهذى .

- معنى ذلك أننى أضعت وقتى فى رد الأمانة وتسليم الرسالة ونسيان
الماضى ؛ إذن فأنا مستعدة لاسترداد ما سلمت ، ولأحتفظ معى بكل ذلك حتى
أحمل إلى قبرى . ولنر من هو المنتصر فى النهاية . إنه لم يخلق بعد من يستطيع
أن ينتزع منى ما صممت على أن يؤول إلى ! . . . وللموت خير لى من أعيش
تحت ذل الهزيمة ! .

وهكذا حتى وصلت إلى بيوت التاميرا ، ودنت باربارا من بيت لوئاردو
متسترة بظلام الليل ، ومن الباب المؤدى إلى الدهليز الأمامى للدار رأت
سانتوس إلى المائدة مع ماريسيلا .

وكانا قد فرغا من العشاء ، وكان هو يتحدث إليها ، وهى مصغية تنظر إليه
كأنها مسحورة وقد اتكأت بمرفقيها على المائدة ، وخداها بين راحتيها .

وتقدمت باربارا حتى أصبحت على بعد رمية رصاصة منهما ، فأوقفت حصانها
ثم أخرجت مسدسها من قرابه المعلق على السرج فى بطء وقد تجهم وجهها
بما كان يرتسم عليه من نية إجرامية خبيثة ، وصويت المسدس إلى صدر ابنتها الذى
كان يلوح لها واضحا بفضل ما كان يسطع عليه من ضياء المصباح القريب .

كان بريق نظرات ماريسيلا ومضات من نور النجوم الطاهر استقر
فى عيني الفتاة بين أطواء الظلام الأسود المتربص الذى كان يهدى نظر باربارا
المتوحش إلى تلمس قلب الفتاة ، غير أن النجم الذى كان يلمع فى عيني
ماريسيلا بدا كأنما تحول إلى شهاب انقض فجأة على اليد الحاملة للموت ،
فأنزلت باربارا سلاحها دون أن تطلق النار ، وأعادته إلى قرابه فى بطء . إنها لم
تملأ عينها من تلك النظرات المسحورة التى كان يتألق بها وجه الفتاة حتى رأت
باربارا نفسها فجأة وقد انسكبت عليها أنوار شعلة تتوهج إلى جوار شاطئ
مهجور ، وهى تنصت فى لهفة مأخوذة إلى كلمات أسدروبال . وأخمدت
الذكرى الأليمة نار الوحشية التى كانت تتلظى فى عروق المرأة فى تلك اللحظة .

وظلت باربارا وقتا طويلا تتأمل ابنتها السعيدة ، وشعرت بأن هذه الرغبة
الجائحة التى طالما سادت نفسها من أجل فتح صفحة جديدة فى كتاب حياتها
قد تجسمت الآن فى عاطفة أمومة لم يكن قلبها ينبض بها حتى هذه اللحظة .
- هو لك . . . فليهبك الله السعادة معه ! .

. . . وأخيرا انتصر حب أسدروبال . . . ذلك الخيال الهائم فى حطام روح
مظلمة موحشة . . . فقد كان نابعا من إحساس نبيل طاهر ! . .

الفصل الخامس عشر

أرض كلها آفاق .. كلها طرق

فى تلك الليلة لم يشتعل السراج ولا الشموع فى صومعة المناجيات الخفية مع الشريك» ، ولكن السيدة باربارا لم تخرج إلى الفناء فى صباح اليوم التالى حتى لم يكذ يتعرف عليها الرجال الباقون فى الضيعة . . . لا خوان برميستو ولا الرجال اللذان رافقها لحراستها إلى سان فرناندو ، وكانا هما اللذين تكفلا بقتل بالبينو باييا والوحيدين الباقين على الإخلاص لها بعد أن هجرها الجميع . لم يعرفها هؤلاء الرجال إذ كانت تبدو كما لو كان العمر تقدم بها سنوات فى ليلة واحدة ، فقد تخذد وجهها بما ارتسم عليه من آثار الأرق ، غير أن ملامحها ونظراتها كانت تشف أيضاً عن ذلك الهدوء الرهيب الذى كان يطبع وجهها دائماً حينما تكون قد عازمت على اتخاذ قرار حاسم .

ووقف الرجال الثلاثة فى انتظار ما تأمر به ، فتقدمت إليهم السيدة باربارا ، ووضعت فى أيدي الحارسين مبلغاً من المال ، وهى تقول :

- إليكما ما أدين به لكما ، وأما ما زاد على ذلك فإنه لكى تستعينا به على شئونكما حتى توقفا إلى العثور على عمل جديد ؛ إذ لم يعد لكما ما تعملانه هنا ، ففى وسعكما الآن أن تذهبا إلى حيث شئتما . أما أنت ياخوان برميستو فاحمل هذا الخطاب إلى الدكتور لوئاردو ، ولا تعد إلى هنا . إبق هناك إذا سمحوا لك بالبقاء .

وبعد ذلك بساعات رآها مستر دينجر قادمة وقد خلفت وراءها القناة الملحة ، فحياها من بعيد ، ولكنه لم يتلق على تحيته جواباً ، فقد كانت تسير

ساهرة ساهرة فى تفكيرها ، ونظرها شاخص إلى الأمام لا يتجه يمنة ولا يسرة ، وجوادها ماض فى طريقه ببطء رتيب ، ويداه المستلقيتان على رجليها ترخيان له العنان على عاتقه .

وتنظر السيدة باربارا فى سيرها البطيء إلى السهول المحيطة بها : أرض يابسة مقفرة قد شقققتها الحرارة فتصدعت قشرتها بالأخاديد والبرك الجافة ، وهنا وهناك أبقار مهزولة ضامرة قد استبد بها سعار العطش ، فراحت تلعق جدران الأكواخ المتقوسة فى نهم مخبول ، وهنا وهناك انتشرت عظام الماشية التى هلكت ضحية الأرض الملحة التى كانت تجذبها إليها ، فتظل مجرية ألسنتها عليها حتى تموت من الجوع بعد أن نسيت مراعيها ، والجيف المنتنة قد حجبته عن الأنظار أسراب الدود الهائلة تذرع المكان المقفر الكثيب .

ووقفت باربارا لحظة تتأمل هذا السعار الذى أصاب الماشية فجعلها تنصرف عن مراعيها وتزهّد فيها لكى تخنق جوعها وظمأها لاعة ذلك الطين الملح ، وكأنما أحست باربارا بعدوى ذلك الجنون تسرى إلى نفسها ؛ فها هى ذى تذوق فى لسانها الجاف المملح ألّهيته الحمى وأيسسه العطش كل ما فى هذه الأرض من خشونة ومرارة . ما أشبهها - وهى تلمس حلاوة ذلك الحب فلا تجد إلا علقم الفشل فى فمها - بألسنة تلك الماشية التى أرادت أن تطفئ عطشها فأخذت تلعق الملوحة المرة فى إلحاح محموم ! .

كان لهذا المنظر سحر طاغ يجذبها إليه ، ولكنها أرادت أن تخلص من ريقته ، فبذلت مجهوداً كبيراً فى التحرر من سلطان تلك الأرض التى كانت تشدها إليها شداً ، ثم وخزت جوادها فانطلق بها مواصلة سيرها الساهم فى وجوم .

ووصلت باربارا أخيراً إلى بركة الطين الرجراج . . . شىء غريب يدور الآن فى هذه البركة التى يخيم عليها دائماً سكون الموت . إن أسراباً كبيرة من البط

والبلشون كانت تحلق فى الجو تطلق صرخات رعب هائلة . وكانت بعض عصائب هذه الطيور مما أبعدت تحليقها فى الجو تختفى هناك وراء شجر النخيل ، أما الأخرى فكانت تهبط ثم تستقر على شطآن البركة المخيفة ، ثم يسود الصمت . . . صمت متقطع أشبه بوقفه يسيرة مشبعة بالألم ؛ إذ لا تلبث الطيور الراسية على الضفة أن تعاود طيرانها ، والتي اختفت وراء النخيل أن تعود للظهور والتحليق المتواصل حول الموضع الذى بث فى قلوبها الفزع .

وكانت السيدة باربارا ماتزال مستغرقة فى تفكيرها العميق ، غير أن جلبة الطيور وحركتها المستمرة أخرجتها من شرودها ، فأوقفت دابتها فجأة لتأمل ما كان يحدث : كانت هناك بقرة صغيرة السن تقف على شاطئ البركة وهى تخور فى جزع شديد محاولة أن تنقذ نفسها من حية مائية التفت حول مشافرها وغاصت فى الماء بقية جسدها الطويل ، فلم يطف على سطح الماء منها إلا جزء من رأسها .

كانت قوائم البقرة مشدودة فى توتر مرتجف ، أما أظلافها فقد غاصت فى طين الشاطئ اللين اللزج ، وتصلب عنقها محاولة التراجع فى جهد مستبسل يائس ، وقد ابيضت عيناها من الذعر ، كان الحيوان الأسير يستنفد كل قواه لكى يستنقذ نفسه من الضغط الهائل الذى كان جسد الحية يباشره عليها فى طياتها القاتلة ، وكان عرق الموت يتصبب غزيراً على جلد البقرة المسكينة .

وتمتت السيدة بابارا وهى تتأمل ذلك الصراع :

- إن هذه لن يقدر لها الخلاص! . . لقد ضمنت بركة الطين غذاءها اليوم .

وأخيراً بدأت الحية تشد عضلات جسدها حول البقرة خارجة عن سطح الماء ، وشرعت البقرة فى بذل آخر ما بقى لها من قوة وهى تحرك رأسها فى شدة وعنف حتى تخلص من الأنشودة المحيطة بمشافرها ، ولكن الحية عاودت ضغطها الشديد فى بطن ، وخارت قوى الفريسة ، فاستسلمت وتركت نفسها تحت رحمة الحية تجرّها إلى داخل البركة ، ثم بدأت تفوص فى الطين ببطء ،

وهي تطلق خواراً هائلاً ينطق بالفرع اليأس ، وأخيراً اختفت تحت سطح الماء العكر المتن ، فانقلبت دوائره عليها متلاطمة مصطفقة ، كأنها لسان امتد ليلعق آخر رشفة من طعام لذيذ !

أما الطيور فقد ظلت محلقة حول المكان وهي تطلق نعييها المتواصل المذعور ، وأما السيدة باربارا فقد بقيت تتأمل المشهد صامته بغير حراك ، ثم أقلعت الطيور ، وعاد الصمت الرهيب يسود البركة كما كان ، ولم تبق على الماء إلا تموجات خفيفة تعلو سطحه ، وفقايق من الغاز المحتبس تعلوه في المكان الذي غاصت فيه البقره كاسرة ما كان فيه من أعشاب خضراء وشقائق طافية .

كانت فقايق الهواء تظهر ثم تتفجر ، ولكن واحدة منها كبيرة الحجم ظلت قليلاً على سطح الماء وهي متفخة في داخل غشائها الأصفر العكر ، كأنها عين محتقنة بالغضب

وبدا كما لو كانت هذه العين الحانقة تنظر إلى المرأة الواجمة المتفكرة !

* * *

الخبر تتلاقفه الأفواه من لسان إلى لسان : لقد اختفت إقطاعية حوض « الأراوكا » !

ويقال إنها ألقت بنفسها في بركة الطين الرجراج إذ إن آخر من رآوها يؤكدون أنهم شهدوها وهي تتوجه إلى ذلك المكان ، وقد ارتسم في وجهها عزم رهيب حاسم ، غير أن بعض الناس يتحدثون عن مركب رأوه هابطاً في مياه الأراوكا ، ويقولون إنهم رأوا فيه امرأة يظنون أنها هي .

الأمر المحقق على أية حال هو أنها اختفت ، تاركة وصيتها الأخيرة في خطاب أرسلته إلى الدكتور لوئاردو تقول فيه :

« ليس لي وريث إلا ابنتي ماري سيلا ، وأنا بذلك معترفة بها ابنة شرعية أمام الله وأمام الناس ، فتكفل أنت بكل ما يتصل بشئون التركة » .

غير أنه لما كان من المعروف أن للسيدة باربارا مالا كثيراً من الذهب الخالص كانت تدفنه في باطن الأرض ، ولم يشر خطابها إلى شيء عنه - فقد تحدث الناس عن احتمال آخر حول مصيرها : وهو كونها اختفت راحلة بذهبها هذا إلى مكان آخر ، لاسيما وأنهم عثروا في الصومعة التي أفردتها لمناجياتها السحرية على آثار استخراج شيء مدفون في ثرى الأرض ، ومن ثم كان البعض ينكرون فكرة انتحارها ويقولون إنها أثرت الاختفاء من الميدان إلى مكان لم يوفق أحد إلى معرفته ، وكثر لذلك حديث هؤلاء عن ذلك المركب الذي يقولون إن أشخاصاً كثيرين أحسوا به وهو مصوبٌ في مياه الأراوكا .

* * *

ووصلت أخيراً أحمال الأسلاك الشائكة بفضل ثمن ريش البلشون ، وبدأت أعمال تسوير الضيعة ، وها هي ذى الأعمدة قد نصبت ، وبدأت خيوط الأسلاك تخرج من اللقائف دائرة مع حدود الأرض . . . الأرض التي كانت كلها طرقاً لا يحصيها العد ، والتي كانت الآمال تتيه في صحرائها الشاسعة المنبسطة قد خطت فيها الآن طريق واحدة مستقيمة . . . إلى المستقبل .

وكان مستر دينجر ينظر إلى العمل الذي انهمك فيه الرجال ، فرأى كيف أخذت الأسلاك تحاصر تلك القناة الملحة التي كان يتخذها شركاً لصيد الماشية الغريبة والاستيلاء عليها بأناشيط حباله كلما أقبلت لتلحق ترابها الملح ، رأى مستر دينجر كيف أفلت منه هذه المورد ، فهز كتفيه في استخفاف وقال لنفسه :

- لقد انتهى عملنا هنا يامستر دينجر !

وأخذ بندقيته وعلقها على كتفه ، ثم امتطى صهوة جواده ، وصاح وهو ماضٍ في طريقه بالرجال الذين اشتغلوا بإقامة الأسوار :

- لا حاجة بكم إلى إنفاق أسلاككم فى تسوير القنوات الملحة ! قولوا
للدكتور لوئاردو إن مستر دينجر ذاهب أيضاً !

وينقضى الوقت الذى حدده القانون حتى تستطيع ماريسيلا أن تباشر
ملكيتها لركة أمها التى لم يعد أحد يعرف عنها شيئاً ، ويختفى اسم « الرعب »
من تلك الأرض ، وتعود كلها لتصبح « التاميرا » .

... سهول فنزويلا ! . . . تلك الأرض الصالحة للعمل المنتج والجهد
المثمر كما كانت من قبل صالحة للبطولات وللملاحم . . . أرض الآفاق
الواسعة المفتوحة حيث يعيش شعب طيب يعرف كيف يحب ، وكيف يقاسى ،
وكيف يأمل ! . .

ثبت

بالألفاظ التي تحتاج إلى تفسير(*)

ص ٢٨ : « عصا الماء » بالإسبانية Palodeagua شجرة خاصة بالبيئة الأمريكية تنبت على ضفاف الأنهار وهي فارعة وارفة الظلال .

ص ٥٢ : « موقعة كاييتي » Cavite : دارت هذه الموقعة في مياه جزر الفلبين عندما مانشتت الحرب بين إسبانيا والولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ ، وقد انتهت بهزيمة بحرية ساحقة للأسطول الإسباني وبعدها انتهى الحكم الإسباني في هذه البلاد واستقلت ظاهرياً ، إذ إنها في الحقيقة خضعت بعد طرد الإسبان لنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية .

ص ٥٤ : « بورتوريكو » Puerto Rico : إحدى جزر بحر الكاريبي ، وكانت الحرب الناشبة بين إسبانيا والولايات المتحدة في سنة ١٨٩٨ وهي التي أشرنا إليها في التعليق السابق قد دارت في مياه الفلبين ومياه البحر الكاريبي ، وكان انتصار أساطيل الولايات المتحدة على إسبانيا مؤدياً إلى إنهاء الحكم الإسباني في الفلبين وكوبا وبورتوريكو آخر ما بقي لإسبانيا من مستعمراتها في آسيا وأمريكا . والإشارة إلى بورتوريكو بالذات في كلام فيلكس ابن خوسيه لوثاريو إنما هي تعريض بهزيمة إسبانيا وتعبير عن التشفي فيها وفي أنصارها ، إذ إن بورتوريكو لم تلبث بعد طرد الإسبان أن وقعت تحت سيطرة الولايات المتحدة .

ص ٦٦ : « تايوتا » Taita : لفظ من أصل هندي ، يستخدم في بعض بلاد أمريكا اللاتينية للدلالة على الاحترام لمن هو أكبر سناً ، وهو قد يطلق لهذا على الوالد أيضاً عند حديث الابن عنه .

(*) هي الألفاظ التي وضعت فوقها علامة النجمة .

ص ٦٩ : « الياكابو » Yacabo : اسم طائر يكثر فى غابات فنزويلا ، وهو يعتبر نذيراً بالشؤم ، والنعب الذى يطلقه قريب من نفس الاسم الذى سموه به : يا . . . كا . . . بو . . . و ! ومن غريب الاتفاق أنه يكاد ينطبق على اللفظين الإسبانيين Ya acabó (ومعناها : قد انتهى !) ولعله من أجل ذلك اعتبر مشئوماً يتطير به .

ص ٧٠ : « الجفان » Gaván : طائر صغير يعيش فى غابات فنزويلا .

ص ٨٩ : « التشجويرى » Chiguire : حيوان قارض برى مائى ، يبلغ طوله متراً ، وهو يكثر فى فنزويلا والبرازيل وباراجواى والأرجنتين وغيرها من بلاد أمريكا الجنوبية ، ويوجد دائماً بقرب ضفاف الأنهار ، ويتغذى على الأسماك والأعشاب ، ويمكن أن يستأنس بسهولة ، ولكن لحمه غير طيب ، وإنما ينتفع بجلده فى الغالب .

ص ٩٩ : « البلشون (بالإسبانية Garza) » : هو طائر أبيض ناعم الريش وهو يهاجر فى أسراب كبيرة ويعرف فى كثير فى بلاد العالم وإن تباينت أنواعه .

ص ٢١١ : اسم هذا الأمريكى أصلاً William Danger والاسم الأول يقابل بالإسبانية Guillermo والثانى ترجمته بالإسبانية Peligro أى خطر .

ص ٢٦٢ ، ١٤٨ : « الميريكورى » Merecure : شجر ضخمة وارفة الظلال تتميز به السهول العليا فى فنزويلا .

ص ٣٣٣ : « الكوبياس » Cuibas : قبيلة هندية تسكن على شواطئ نهر الميتا E El Meta فى سهول فنزويلا ، وهى معروفة بشدة التمرد وقوة البطش .

ص ٣٦٥ : « التشيبولا » Chipola {
ص ٣٦٥ : « الخوروبو » Joropo {
رقصتان شعبيتان فى فنزويلا

ص ٤٠١ : « الكوروكورا » Corocora : طائر نو ساق طويلة ، يضرب لونه إلى الأحمر القاتم .

ص ٤٠٧ : « البرجوتان » Praguatan : شجر معروف بجودة خشبه وطيب رائحة أزهاره .

ص ٤٤٥ : « الكيريري » Querevere : شجر يكثر في فنزويلا ، ولا سيما في حوض نهر الأپوري Apure وفي غيانا ، وله بنور يستخدمها هنود هذه المناطق في إعداد نوع من أنواع الخبز .

ص ٥١٩ : « الجواتشافيا » Guachafita : لفظ يستخدم في فنزويلا للدلالة على الصخب والضجة ، ويقصد بها في الغالب السهرات الصاخبة التي يصحبها غناء ورقص وشرب .

ص ٥١٩ : « الجواساكاكا » Guasacaca : صلصة لاذعة حريفة تتخذ من « الشطة » .

ص ٥١٩ : « الجواريتشا » Guaricha : المرأة الجميلة ، ويقصد بها في الغالب اللعوب سهلة المنال .

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	اتجا كاريتنكوف	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندروس. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إنوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كايين	ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحدائق	بول. ب. ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عبد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عطف أصد / إبراهيم قحى / مصود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد براءة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدميمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
٧٤ - صلاح الدين والمالِك في مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التطفل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩ - شعرية التأليف بورييس أوسبينسكى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢ - مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
٨٣ - مختارات غوتفريد بن
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨ - الابتلاء بالتغرب جلال آل أحمد
٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جينز
٩٠ - رسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجل
الإسبانيات أمريكى المعاصر مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٣ - محدثات العولة هـموييل بيكييت
٩٤ - الحب الأول والصحية أنطونيو بويرو بايخو
٩٥ - مختارات من المسرح الإشباني قصص مختارة
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة فرنان برودل
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١) نماذج ومقالات
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى ديفيد روبنسون
٩٩ - تاريخ السينما العالمية بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠٠ - مساعلة العولة بيرنار فاليط
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) عبد الكريم الخطيبى
١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الوهاب المؤدب
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء برتولت بريشت
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى جيرارچينيت
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع د. ماريا خيسوس روبيرامتى
١٠٦ - الأدب الأندلسى نخبة
١٠٧ - صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر
- ت : فؤاد مجلى
ت . حسن ناظم وعلى حاكم
ت . حسن بيومى
ت . أحمد برويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت . سعيد الفانمى وناصر حلاوى
ت . مكارم الفمري
ت . محمد طارق الشرقاوى
ت . محمود السيد على
ت . خالد المعالى
ت : عبد الحميد شيحة
ت . عبد الرازق بركات
ت . أحمد فتحى يوسف شتا
ت . ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت . محمد إبراهيم مبروك
ت . محمد هناء عبد الفتاح

ت . نادية جمال الدين
ت . عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت . سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت . إينوار الخراط
ت . بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت . إبراهيم قنديل
ت . إبراهيم فتحى
ت . رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت . محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت . عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت . محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أرلين علوى ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادي پلانت
١١٤ - مسرحيتا حماد كونجي وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرأة وحده فرچينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام ليلي أحمد
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلي أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيفل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جراى
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا بولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرفرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧ - منكرات ضابط في الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
١٣٩ - باريسقال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هيربرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية . تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونى
- ت - محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت - أحمد حسان
ت - نسيم مجلى
ت - سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت - منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت - ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت - نخبة من المترجمين
ت - محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت - منيرة كروان
ت - أنور محمد إبراهيم
ت - أحمد فؤاد بلبع
ت - سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت - بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت - شوقي جلال
ت - لويس بقطر
ت - عبد الوهاب علوب
ت - طلعت الشايب
ت - أحمد محمود
ت - ماهر شفيق فريد
ت - سحر توفيق
ت - كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت - مصطفى ماهر
ت - أمل الجبورى
ت - نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت - عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت . علي عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد نورست	ت . عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت . علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت . أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهند وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت . محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت . فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت مى التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكنجي	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت . بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	الخاندر كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوي	ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف . محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لوكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت سهر المصادقة
١٦٦ - العلاقات بين المتنبيين والطوائف في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت . شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميفيل دليبيس	ت . بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت . هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت . أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنري تروايا	ت . حصه إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
- ١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
- ١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنود
- ١٨٧ - الأرضة بَزْدَجْ علوى
- ١٨٨ - موت الأدب الفين كرنان
- ١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
- ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام
- ١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مختارات من النقد الأنطو - أمريكى مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسيوتين
- ١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العشانية يعقوب لاندوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبورك
- ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج١ رينيه ويليك
- ٢٠٣ - الشعر والشاعرية أَلطاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
- ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
- ٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسندير
- ٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
- ٢١١ - فردينان دوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - مصر منذ قوم تلحين حتى رحيل عبد القاصر ريمون فلاور
- ٢١٤ - قواعد جديدة للتعنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
- ٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك ج٢ زين العابدين المراغى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
- ٢١٨ - رايبولا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
- ت . فتحى العشرى
- ت . دسوقي سعيد
- ت . عبد الوهاب علوب
- ت . إمام عبد الفتاح إمام
- ت . علاء منصور
- ت . بدر النيب
- ت . سعيد الفانمى
- ت . محسن سيد فرجاني
- ت . مصطفى حجازى السيد
- ت . محمود سلامة علاوى
- ت . محمد عبد الواحد محمد
- ت . ماهر شفيق فريد
- ت . محمد علاء الدين منصور
- ت . أشرف الصباغ
- ت . جلال السعيد الحفناوى
- ت . إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت . جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ت . فخرى لبيب
- ت : أحمد الأنصارى
- ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت . جلال السعيد الحفناوى
- ت . أحمد محمود هويدى
- ت . أحمد مستجير
- ت . على يوسف على
- ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف
- ت . محمد أحمد صالح
- ت . أشرف الصباغ
- ت . يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : محمود حمدي عبد الغنى
- ت . يوسف عبد الفتاح فرج
- ت . سيد أحمد على الناصرى
- ت . محمد محمود محى الدين
- ت . محمود سلامة علاوى
- ت . أشرف الصباغ
- ت : نادى البنهاوى
- ت . على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت - طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية في الكون	باري باركر	ت - علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت - رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراي	ت - نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت - السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت - منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركث	ت - السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت - طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت - السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت - ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت - أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت - مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت - جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت - مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت - طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمجهام	ت - فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزي ج ١	جلال الدين الرومي	ت - إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت - أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادي	روين فيدين	ت - عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت - ياسر محمد جاد الله وعيسى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلرافر - رايوخ	ت - نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت - صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت - ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت - صبرى محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١	ليفى بروفنسال	ت - مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت - نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت - توفيق علي منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرتيا ماركث	ت - علي إبراهيم علي منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدثة في مصر	ولتر أرمبرست	ت - محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت - عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت - رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	بومنيك فينك	ت - ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوربون مارشال	ت - بإشراف محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت - علي بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت - حسن بيومي
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت - إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت - إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت . إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت . محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت . عبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جورنون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد مندوثا	ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت . لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت . لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت . عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت . بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج ٢	جلال الدين الرومي	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفور بالجريف	ت . صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت . شوقي جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت . إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت . عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت . محمود علي مكي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٨٦٦ / ٢٠٠١

DOÑA BARBARA

Rómuls Gallegos

مؤلف هذه الرواية « رومولو جاييجوس »
(١٨٨٤ - ١٩٦٩) هو كاتب وسياسي ومفكر
فنزويلي ، له مكانة عظيمة في تاريخ الأدب
والثقافة في أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية
وقد أوصله نتاجه الأدبي ، ولا سيما في ميدان
الفن الروائي ، وكفاحه السياسي إلى أن يصبح
رئيس جمهورية فنزويلا في سنة ١٩٥٧ .

أما الرواية فإنها تدور حول الكفاح الذي
يضطلع به « سانتوس لوتاردو » الشاب الجامعي
القادم من المدينة إلى سهول نهري « أبوري »
و« الأراوكا » ضد عوامل الفساد المتمثلة في
السيطرة الإقطاعية التي تبسطها على السهول
امرأة غامضة رهيبة ، وهي « السيدة باربارا »
تعاونها في ذلك مجموعة متنافرة من الرجال
لم تجمع بينهم إلا نوازع الشر وفنون الإجرام ،
وأمرىكي مغامر كأنه رمز للتدخل السافر أو
المستتر الذي تباشره الولايات المتحدة
شئون أمريكا اللاتينية .